

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن السادس عشر(م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

في التاريخ الحديث و المعاصر

تخصص الدولة و المجتمع في المغرب الكبير

من إعداد الطالب:

لحسن قرود

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

أرزقي شويتام

السنة الجامعية

1438-1439هـ/2017-2018م



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02

أبـو القـاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن السادس عشر(م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير

في التاريخ الحديث و المعاصر

تخصص الدولة و المجتمع في المغرب الكبير

إعداد الطالب: لحسن قرود

تحت إشراف الأستاذ الدكتور: أرزقي شويتام

أعضاء لجنة المناقشة:

- الأستاذ الدكتور: عمار بن خروف رئيسا.
- الأستاذ الدكتور: أرزقي شويتام مقررا.
- الأستاذ الدكتور: شكيب بن الحفري عضوا.

السنة الجامعية

1438-1439هـ/2017-2018م





صدق الله العظيم

سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين،

وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة

الغيورين:

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه

الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً

لوجهه الكريم

قال تعالى: ....فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً.

(سورة الكهف، آية 110)

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد من أجل إعداد هذا العمل . كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أعضاء اللجنة الـذين سيتولون مناقشة هذه الرسالة ، وعلى تحملهم عبء قـرائتـــها.

وأخص بالذكر أستاذي المشرف أ/د:أرزقـــي شويتام الذي لم يـدخر جهدا في متابعة مسار هذا العمل منذ أن كان مشروعا إلى نهايتـه ، وتـصحيح الفصول بكل جدية ، حيث لم يبخل علي بوقته حتى في أيام العطـل ويوجهني لمدة ساعات عديدة في كثير من الجلسات ، وذلك في أستاذية رفيعة .



شكر و تقدير

الله عز وجل على توفيقه لي لولوج دروب البحث العلمي الهادف ، ومن

البحث ، و أخص بالشكر أستاذي الكريم أرزقي شويتام على متابعته و اهتمامه
ونرجو من الله الشفاء العاجل والعودة إلينا، بصحة وعافية
بعده أقدم جزيل الشكر و الامتنان إلى كل من مد لي يد العون لإنجاز هذا البحث
دون أن أنسى التوجيهات الكريمة للمؤرخ: أبو القاسم سعد الله
رحمه الله و أحمد شرف الدين، عمار بن خروف ,مصطفى نويصر
حساني المختار ،قورصو محمد ,فله قشاعى شكيب بن حفرى ،فتيحة الوليش
كما لاننسي ترحما على روح الفقيدة الأستاذة الدكتورة الفاضلة
عائشة غطاس رحمه

علـــــى كــــل ما قدمــــــــــوه لنا

خلال دراستنا الجامعية من معرفة ،علم، وأخلاق وتوجيه وإرشاد واشكر كل الاداريين في

سم التاريخ جميلة سعيدة قطيمة كما أتقدم بشكري الخاص إلى كل من ساهم ولو بكلمة تشجيع دفعتني إلى المضي قدما في

طلب العلم. وإلى أصدقائي وبالأخص ابراهيم بتقة، أحدادن مصطفى، سرقاس سفيان، خريبح حسين وإلى كل من

حملهم قلبي ولم تسعهم مذكرتي..

إهداء

إلى من أهدوا لنا حياة الحرية والكرامة وطلبوا الموت لتوهب لنا الحياة

إلى من سقوا بدمائهم الزكية هذه الأرض المباركة بكل سخاء وخلدوا ذكراهم بأروع صور التضحية والشجاعة والإيمان بالله..

أهدي عملي إلى عمالقة قلمّا يجود بهم التاريخ..

وإلى من أضاءت لنا درب الحياة بنور الأخلاق والتربية الفاضلة وأهدت لنا زهرة شبابها فغدت أريجا يملأ قلوبنا وعقولنا..إلى أمي الحبيبة

أمي يا نبع الحنان ..في قلبك أجد الأمان .. يا أجمل من الورد والريحان.. حضنك مهط اطمئنان. عيناك رسم فنان ..وجهك كصدفة في الشطآن .. زاهية كالسمك في الخلجان .. زاهية بكل الألوان رائع في كل الأزمان .. ليس لها مثيل في الأكوان

إلى أمي المحترمة الحاجة **فطيمة**

إلى جوهر قلبي وضوء عقلي وإلهام فكري إلى من أنار دربي بتعليماته..

وأرشدني بتوجيهاته ... إلى من أدين له بنجاحي

إلى والدي العزيز أقدم ثمرة جهدي لك وأطمع في رضاه .

ياصاحب القلب الكبير والصبر الطويل

والدي العزيز **الميلود** رحمه الله

إلى الشموع التي لا تنطفئ أخواتي وأخواتي، محمد،مسعودةقدور،رابح ،نور الدين،زهرة،أحمد،الحسين والى كل العائلة، الذين أمدوني بيد العون والمساعدة .

وأهدي ثمار جهدي إلى والدي العزيز **الميلود** و خالي بن مسعود بوزيد اللذان عملا في الثورة التحريرية وكانا رمزا لتضحية ..

وإلى أصدقاي وبالأخص ابراهيم بتقة،.أحدادن مصطفى،سرقاس سفيان،لحريبد حسين ، **أحمد مسيلي**

والى كل من حملهم قلبي ولم تسعهم مذكرتي..

لحسن قرود



أشكر من هدانا نعمة العقل على تقديره وتوفيقه لنا حتى وصلنا إلى ما نحن فيه فاللهم لك الشكر والحمد دائما ابدا

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى من كان لي شمعة في دروب هذا البحث الأستاذ الدكتور أرزقي شويتام .كما لاننسي ترحما علي روح الفقيدة الأستاذة الدكتورة الفاضلة عائشة غطاس رحمه وروح الفقيد المؤرخ أبو القاسم سعد الله كما لا يفوتني أن اشكر كل أساتذة قسم التاريخ شرف الدين، عمار بن خروف مصطفى نويصر مختار حساني، أرزقي شويتام ،فلة مساوي قشاعي ،فتيحة الواليش ، شكيب بن حفري ،على كل ماقدموه لنا خلال دراستنا الجامعية من معرفة ،علم، وأخلاق وتوجيه

وإرشاد واشكر كل الاداريين في قسم التاريخ جميعا سعيدة فطيمة كما أتقدم بشكري الخاص إلى كل من ساهم ولو بكلمة تشجيع دفعتني إلى المضي قدما في طلب العلم.





قائمة المختصرات (Abréviations) .

أولا باللغة العربية .

الرمز	المعنى
صفحة	ص
صفحات عديدة متلاحقة	ص ص
ظهر صفحة المخطوط	ظ
وجه صفحة المخطوط	و
طبعة	ط
جزء	ج
عدد المجلة	ع
تحقيق	تح
تعريب	تع
دون مكان	(د — م)
غير منشور	(غ— م)
دون تاريخ	(د — ت)
العصر الحديث للنشر والتوزيع	(ع ،ح، ن، ت)
دار النهضة العـــــربية،للـــطباعة و النشر و التوزيع	(د، ن، ع، ط، ن، ت)
المجلس الأعلى للثقافة	(م، أ، ث)
شركة الأصالة للنشر والتوزيع	(ش، ص، ن، ت)
مكتبة الأنجلو المصرية	(م، أ، م)
مطبعة البعث	(م، ب)
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية	(و، ت، أ، ش، د)
المجلة التاريخية المغربية	(م، ت، م)
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع	(ش، و، ن، ت)
دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع	(د، أ، ط، ن، ت)
مؤسسة الوطنية الجزائرية	(م، و، ج)
المؤسسة الوطنية للكتاب	(م، و، ك)
دار الغرب الإسلامي	(د، غ ،إ)
ديوان المطبوعات الجامعية	(د، م، ج)

ثانيا باللغة الفرنسية.

Page	**P**
Pages continues	**pp**
Tome	**T**
Numéro	**N°**
Revue Africaine	**R.A**
Revue Tunisienne	**R.T**
Ibidem	**Ibid**
Ouvrage précité	**Op .cit**
Imprime	**I**
Centre national des recherche scientifiques .	**(C.N.R.S)**
presses , Universitaires Françaises .	**(P.U.F)**
Journal Asiatique .	**(J.A)**
Revue Historique .	**(R.H)**
Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée	**(R.O.M.M)**
Société nationale d' édition et de distribution .	**(S.N.E.D)**
Traduit / Traduction	**(Trad)**

مقدمة:

– تمثل نهاية القرن 15م إلى غاية الربع الثالث من القرن 16م، نقطة تحول تاريخية في غاية الأهمية سواء بالنسبة للدولة العثمانية الإسلامية أو لأوروبا المسيحية، أو للاحتضار البطيء لمسلمي الأندلس أو للانعراج الخطير للمنطقة المغاربية عامة، والمتوسطية منها خاصة.

– لأن في نهاية القرن 15م أدّى سقوط غرناطة في يد الإسبان (1492م)، إلى هجرة آلاف المسلمين إلى البلدان المغاربية خصوصاً المدن الجزائرية، وقام الإسبان بتجسيد معاهدة (ثردي سيلاس 1494م) على أرض الواقع باحتلالها، معظم مدن وموانئ المنطقة المغاربية المتوسطية، مستغلة الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه المنطقة المغاربية عامة، والمتوسطية منها خاصة، (الدولة الزيانية والدولة الحفصية (الجزائر شرق–تونس–ليبيا).

– وفي مطلع القرن 16م أحدث السلطان سليم الأول(1512–1520م) تغيـــــيراً جـــذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية فقد توقف في عهد الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي، وقد شرعت تشقّ طريقها نحو الانفراد بزعامة العالم الإسلامي مـــنذ أن تمكنت من كسر شوكة الصفويين في معركة جالديران(1514م) والقضاء على دولة المماليك في مصر والشام عقب الانتـــصار الســـــاحق في معركة مرج دابق(1516م)، ومعركة الريدانية (1517م) على التوالي وتسلمت مفاتيح الحرمين الشريفين مكة والمدينة من طرف أشرافها(1517م)، فأصبح بذلك السلطان العثماني يلقب بخادم الحرمين الشريفين، فكان من أثر ذلك أن أنفتح الطريق أمام العثمانيين لبسط نفوذهم على البلاد العربية وانتقال الخلافة الإسلامية إليهم.

– وأما في عهد السلطان سليمان القانوني (1520م –1566م)، فان الدولة العثمانية بدأت تتجه نحو الزعامة العالمية، الذي لم يقتصر النفوذ العثماني على شرق أوروبا والبحر المتوسط فحسب، بـــل تمكنوا من التصدي للبرتغاليين الذين مافتئوا يغيرون على السواحل الإسلامية في شرق إفريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربية وتدعيم ولايتي الحبشة وعدن فتسني للعثـــمانيين أن سيـــطروا على مضيقي باب المندب وهرمز، وبعث تجارة الهند من جديد.

–وشهد هذا العصر أيضا توحّد أوروبا تحت راية الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كان الإمبـــراطور شارل الخامس الشهير بشرلكان على رأسها، وتحالفه مع إنكليز؛ إذاً تولى زعامة أوروبا المسيحية، ماعدا (فرنسا)، وقيادتها للتصدي للعثمانيين الإسلاميين في أوروبا عامة، والمنطقة المغاربية المتوسطية خاصة.

– فاعتبر الوجود العثماني في الجزائر ضرورة تاريخية، واستجابة موفقة، سمحت بإحباط المشروع الإسباني التوسعي في غرب المتوسط، وحال دون تكرار كارثة الأندلس بالمنطقة المغاربية، ولعل هذا الموقف أقرب إلى الحقيقة لكون الكيان السياسي للجزائر كانت نتيجة ظروف القرن 16م ونتيجة لتطور الأوضاع المستجدة في غرب المتوسط طيلة العصور الحديثة.

-إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطانين سليم الأول وابنه سُليمان سارت على هذه الأسس المتينة وهي مواصلة الدولة جهادها في شرق ووسط أوروبا، والحد من نفوذ الدولة الصفوية الشيعية وضم الدولة المملوكية وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية والاستجابة لإلحاح الإيالة الجزائرية على تثبيت الحكم العثـــماني في المنطقة المغاربية عامة وفي تونس خاصة وتدعيم حركة الجهاد البحري مادياً ومعنوياً في الحوض الغربي للمتوسط والشمال الأفريقي للقضاء على الإسبان وحلفائهم (الملوك الحفصيين الأواخر في تونس).

– ولقد لعبت الجزائر دوراً هاماً، في تحريك الضفة الغربية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط وخاصة الضفة الغربية منه وذلك من خلال الأعمال البحرية التي قامت بها في هذا الميدان تحت شعار الجهاد البحري، لذا فقد أسهمت بدوراً كبيراً في رسم حدود جديدة للدولة العثمانية، وذلك من خلال الأعمـــال التي قدمتها، بطلـــب من السلطان العثماني (سليم الأول وابنه سليمـــان) الذي كان حريصين دائمـــاً على الجزائر باعتبارها، أول إيالة في المنطقة المغاربية دخلت تحت ظل الدولة العثمانية (1519م) وتعين الباي لارباي خير الدين عليها، ثم في نفس الوقت، قيادة الأسطول العثماني، والأخر علـــج علي بنفس المهمتين، زيادة على إلحاحـــهم على فتح تونـــس إلى جانب قوة أسطولها البحري الذي أخذ مكانه في البحر الأبيض المتوسط. .

– أي حتمية ضم تونس إلى العالم العثماني الإسلامي وذلك لا يتم إلا بالقضاء على الحكم الحفصي الصوري ومواجهة الإسبان؟

– ولا يتم كل هذا إلا بتفكير وتخطيط وتنفيذ باي لارباي الإيالة الجزائرية.

– وتعد هذه التحولات من الأسباب التي أثارت فضولي لدراسة هذا الموضوع تحت عنوان:

-دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال ال قرن16م.

-برزت فكرة معالجة موضوع دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس، على إثر مناقشات عديدة تمت مع الأستاذ المشرف الدكتور أرزقي شويتام، كما كان للأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله (رحمه الله)، الفضل الكبير في توجيه انتباهي إلى ضرورة البحث في هذا الجانب.

– ومن هذا المنطلق فإن كتابة تاريخ هذه الفترة مهمة وصعبة وهذا راجع إلى قلة المصادر فيها التي كتبت.

ونهدف من خلال اختيار هذا الموضوع إلى ما يلي:

– التعريف بالأوضاع السياسية للمنطقة المغاربية عامة، والجزائر وتونس خاصة، (نهاية القرن 15م وبداية القرن 16).

– المساهمة في إثراء المكتبة الجزائرية، بالدراسات الخاصة بالتاريخ التونسي، والصراع العثماني الإسباني عليها، ودور إيالة الجزائر فيه.

– وأعتقد أننا في أمس الحاجة إلى دراسات جديدة، حول الدور الذي لعبته الجزائر في فرض سيطرتها وهيبتها وفرض شخصيتها الإقليمية ثم العالمية، في الصراع العثماني الإسباني على تونس.

– قد يكون منطلق هذا البحث نابع من ميول شخصي، قصد التعرف على العلاقات التي كانت تسود الجارتين الجزائر وتونس في أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م، فبعد الاحتلال الإسباني لأهم المناطق فيهما، فأولى استنجدت بالدولة العثـــمانية والثانية تواطأت وتعاملت مع الإسبان؟

– فهل الجارتان يسود بينهما السلام؟ أم تسود بينهما المشاحنات والمنازعات والتحالفات العسكرية، ضد بعضهم البعض.

–إظهار فصل من فصول الجزائر الحديثة، في القرن 16م، ومدى علاقاتها الخارجية مع أوروبا عامـــة وتَصديها للاحتلال الاستدماري الإسباني للمنطقة المغاربية المتوسطية، وإلحاحها للقضاء نهائياً على عملائهم (الأمراء الحفصيين الأواخر في تونس)، وتثبيت الحكم العثماني بدلهم في المنطقة.

– ونأمل أننا قدمنا هذا العمل المتواضع كمساهمة في إثراء تاريخنا العريق ومحو غبار النسيان حتى يكون هذا البحث ميدان اهتمام للباحثين ومصدر جديد يمكن الاعتماد عليه في الدراسات التاريخية المستقبلية، للوقوف على الحقائق التاريخية حتى نُساهم في إتمام حلقة من حلقات التاريخ العثماني الإسلامي في الجزائري وتـــونس، وتكون لنا فكرة شـاملة عنه، التي تـعطي لها نـصيبها من الدراسة والتحليل والتمحيص من طرف المؤرخين.

– وانطلاقا من الأحداث السابقة، التي مرت بها تونس في أواخر العهد الحفصي، وتعاملهم مع الإسبان، وتخوف السلطة العثمانية في الجزائر من ذلك، وتعاونها مع الدولة العثمانية على القـضاء عليـهم والـتي أدي في النهاية إلى ظهور نظام جديد في تونس.

فإننا نجد في **إشكالية** تطرح نفسها في هذا الصدد وهي:

– فيما يتمثل دور الجزائر في تدعيم وتثبيت الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م؟

– وللإجابة على هذه الإشكالية، نجد أن هذه الدراسة تسعي إلى إلقاء أضواء على الجزائر وتونس أواخر القرن 15م، وبداية القرن 16م؛ مابين التعامل مع الدولة العثمانية الإسلامية، والتصدي للاحتلال الاسباني للمنطقة المغاربية المتوسطية، وحلفائهم الملوك الحفصيين الأواخر، ولا يتحقق هذا إلا بعد الإجابة على بعض التساؤلات التالية:

1–فهل اسبانيا تبقى مكتفية الأيدي! أم تواصل في تنفيذ مشروعها الاحتلالي . الاستدماري بحجة استرداد الأراضي الرومانية في الشمال الإفريقي، ولعب دور حارس البوابة الغربية لأوروبا المسيحية! والناطق الرسمي باسمها.

2–وهل الملوك الحفصيين الأواخر في تونس، يرضون بهذا الوضع، المتمثل في الأطماع الإسبانية الاستدمارية فيهم أو في رغبة الدولة العثمانية في فرض تعاونهم معها، وضمها إليها وذلك لتكملة حلقة توحيد العالم (العربي – الإسلامي).

3–أم أن الحكام العثمانيين في الجزائر، سيفصلون في الأمر !بالمقاومة والتصدي للاحتلال الإسباني وحلفائه (الملوك الحفصيين الأواخر في تونس)، وبإخضاعهم للسلطة العثمانية الإسلامية وتبعيتهم للعاصمة الإقليمية الجزائرية.

4-وهل الصراع الجزائري الإسبان، مابين المقاومة والاحتلال، سيتطور إلى صراع إقليمي دولي (جزائري-عثماني) ضد (حفصي-اسباني) أم إلى صراع عالمي (عثماني-اسباني).

5-ما هو دور الجزائر في هذا الصراع؟ ودورها في هذا الدعم؟ أي ما هو دور الجزائر في تدعيم الوجود العثماني في تونس؟ على حساب الملوك الحفصيين الأواخر في تونس والأطماع الإسبان التوسعية في المنطقة المغاربية المتوسطية.

6-وماهية الأهداف التي كانت تسعي الدولة العثمانية الإسلامية إلى تحقيقها من وراء ذلك؟ هل المحافظة على الإيالة الجزائرية الفتية! أم تأمين المواصلات منها وإليها! أو حماية ظهرها لتكملة عملية توحيد العالم الإسلامي بضم المغرب لها! وتصبح وجهاً لوجه مع الإمبراطورية الإسبانية (لاسترجاع الأندلس).

7-لماذا تأخر ضم الدولة الحفصية(التونسية) إلي الدولة العثمانية، عكس الجزائر؟

- يمتد الصراع العثماني الاسباني على تونس (من1534م- إلى1574م)، ولكن المجال التاريخي لدراستي هذه حددت بنهاية القرن15م أي نهاية الحكم الإسلامي بالأندلس (سقوط غرناطة 1492م)، وبداية التحرشات الإسبانية للموانئ واحتلالها لأهم المدن المتوسطية (الزيانية- الحفصية) وظهور الدولة العثمانية المتمثلة في الإخوة بربروس في ما بعد، ومواجهة الإسبان وعملائهم وحلفائهم في منطقة الشمال الإفريقي المغاربي عامة، والمتوسطية خاصة؛ والمغرب الأدنى(تونس) بالأخص وحل محلها وإلحاقها بالباب العالي (1574م) أي الربع الأخير من القرن 16م وهو نهاية المجال التاريخي لدراستي هذه.

- وسبب اختياري لهذه الفترة، هي أن الجزائر قد عرفت تطوراً كبيراً بانتقالها من فترة الضعف والخضوع للإسبان إلى فترة التحدي والمواجهة لها (محليا، ثم إقليميا في تونس، فصراع عالمياً معها في مابعد).

- والأمر الذي دفعني إلى دراسته أيضا: تأكيد إصرار الأمراء الحفصين الأواخر، على السلطة مهما كلفهم الثمن وتفضيلهم المصلحة الشخصية، وزعامة سَرابيه، وبقاءهم على رأس حكم صُوري مُتهالك؟ بتعاملهم مع الإسبانيين المسحيين !!! ضد إخوانهم في الدين العثمانين الإسلاميين !!! وصراع جزائري مرير (لأيكل ولأيمل) على القضاء عليهم نهائياً وعلى الإسبان في تونس، لما لها من قيمة جو استراتيجية، وغيرها.

- ولمعالجة هذه الإشكالية، ارتأينا نتبع **خطة البحث** الآتية:

- وللإجابة على التساؤلات المطروحة استوجب على تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول علاوة على المقدمة والخاتمة.

وقد خصصت في الفصل التمهيدي الذي هو تحت عنوان" **أوضاع المغرب الإسلامي في ظل الصراع ما بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي نهاية القرن 15م و بداية 16 م**" تطرقنا فيه إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية فيهما.

أما في الفصل الأول الذي يحمل عنوان: " **الحكم العثماني في الجزائر وعلاقته بالحفصيين في تونس (936هـ-940/1519-1533م)**" فقد تناولت فيه إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية كنيابة لها(1519م) ومحاولة إجهاض الحملة الحفصية (1520م) عليها؛ وانتعاش الإيالة الجزائرية الفتية (1520-1528م) والقضاء

على الخطر الداخـــلي المتمـــثل في(تمـــردات بعـــض الزعماء المحـــليين مثل ابن القـــاضي وعصيان المـــلك الـــزياني في تلمسان(1529م)؛ وتصديها للخطر الخارجي عليها المتمثل في (الحملات الإسبانية(1530-1531م)؛ وزيادة حدودها الشرقية إلى عنابة وماجاورها، وجعل قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، أي تماس حدود ما بقي من الدولة الحفصية !!

وخصصت الفصل الثاني والمعنون ب: " **الصراع العثـماني الاسبـاني على تـونس ودور الجزائر فـيه (941هـ-1534م/949هـ-1542م)** تناولنا فيه الحملة العثمانية الأول(1534م)،بعد تعين خير الدين باشا قبودان داريا (1532م) على الأسطول العثماني ثم الحملة الإسبانية الأول بقيادة الإمـبراطور شرلكان (1535م) على تونس، ورد فعل السلطة الجزائرية عليها بحملة على جزيرتي (مايروقة ونيروقة) من نفس السنة وتناولنا الظروف الإقليمية والعالمية التي خدمت طرفي الصراع (عثماني- جزائري)/ (إسباني -حفصي) من انتصار العثمانيين في معركة بروزة (1538م)، فشل حملة الإمبراطور شرلكان الاسباني(1541م) علـى الجزائر، وافتكاك طـرابلس الغرب(1551م) من حلفاء الإسبان (المالطيين)، وحصار مالطا(1565م)؛ وإبراز دور الجزائر في هذا الصراع حول مثلث الموت(طرابلس-تونس-مالطا).

وفيما يخص الفصل الثالث الذي عنوانه: " **دور أيالة الجزائر في تثبيت الحكم العثماني في تونس (949هـ/1542م – 996هـ/1587م)**. " نلتمس فيه برد الفعل العثماني بحملة ثانية (1569م)على تـونس وفتح قبرص(1570م)؛ وانتصار الإسبان في معركة ليبانت(1571م)؛ ودور علج علي في إدارة الأســـطول الجزائـــري والنجاة به وهو ما مكنه من قيادته للأسـطول العثمـــاني(1572م) مع الاحتفاظ بمنصب باي لارباي على الجزائر وتناولت فيه الحملة الإسبانية الـثانية(1573م) على تونس، ثم رد الفعل العثماني بحملة ثالثة(1574م) على تونس، بعد إصرار السلطة الجزائرية على ذلك، ودورها في تثبيت الحكم العثماني الإسلامي في تونس نهائياً.

-نبذة عن المصادر:

اعتمدت في هذه المذكرة على مجموعة من المصادر منها: الوثائق الأرشيفية، والمصـــادر والمراجع العربية والأجنبية المتخصصة، وحتى تكون هذه الدراسة شاملة لوجهات نظرٍ متعـــددة، فقد حرصت قدر الإمكان على الاطلاع على مصادر متنوعة سواء كانت لمؤرخين عثمانيين، أم محدثين، أم مستشرقين مع الحذر واليقظة في الأخذ منهم.

أ -الوثائق والمخطوطات الأرشيفية:

- استفادت المذكرة من بعض الوثائق المحفوظة في الأرشيف الوطني والمخطوطات المحفوظة في المكتبة الوطنية وهي عبارة عن مجموعات من الرسائل التي تحتوي على معلومات متنوعة تخص الفترة الأخيرة للدراسة.

ب -عرض المصادر العربية: من أهم المصادر العربية التي اعتمدت عليها هي:

- **حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م**، هذا المصدر يتناول معلومات قيمـــة عن الفترة العثمانية فهو يعرض لنا الحالة

السياسية والاجتماعية والثقافية في الفترة العثمانية، ثم يمر إلى معلومات حول الجزائر وتونس قبل وبعد الفتح العثماني لهما، وهو من الكتب القيمة التي تحصلت عليها.

- مجهول :الغزوات أو تاريخ بربروس عرّوج وخير الدين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم (720-1622)، هذا المصدر يتناول معلومات قيمة عن غـــزوات عرّوج وخير الدين بربروس في الحـــوض الغربي للمتوسط إلى حملة الإمبراطور شارل الخـــامس على مدينة الجزائر (948هـ.1541م) وعلاقـــة هـــؤلاء بالحفصين وبالدولة العثمانية وتصـــديهم للإسبان من البداية.

- حمودة بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تحقيق الشيخ محمد ماضور، الدار التونسية للنشر تونس1970م كان هذا المؤلف من كبار رجال دولة علي باشا ومن أقـــرب الناس إليه عـــين في العديد من المناصب منها رئاسة كتاب القصر والسفارات الرسمية إلي الجزائر، وهيأ هذا المنصب له اتصالاً مباشراً بشؤون الدولة وأسرارها والكثير من الوثائق والأخبار كان فيها شاهد عيان، والمعلومات التي أمدنا بها تشمل ميادين مختلفة منها الجانب السياسي وتطرق فيها إلي الوجود العثماني بتونس في بداية الكتاب، وهو من الكتب القيمة التي تحصلت عليها.

- ابن رقية محمد بن عبد الرحمن بن الجيلاني لتلمساني: الزهـــرة النائرة فيما جـــرى في الجزائر حين ما أغارت عليها جنود الكفر، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، تحت رقم1626، اعتمدت على هذا المصدر الجد مهم، في الحملات الاسبانية على المنطقة المغاربية ورد فعل السلطة العثمانية في الجزائر لها وتعاون الأهالي معهم.

- محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ط 1تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، مج1-2(د، غ، إ)، بيروت، لبنان،1985م، يهمنا هذا المصدر في تناوله لأوضاع الدولة الحفصية وموقفها من الاحتلال الإسباني لأهم المناطق الاستراتيجية فيها ويتطرق للوجود العثماني بداية من الإخوة بربروس، وتصديها للإسبان والصراع معه خاصة على الأراضي التونسية، وتمكنه من ذلك، وإلحاقها بالعـــالم العثـــماني الإسلامي وهو كتاب مهم جدا ينقسم إلى ثلاث أجزاء.

- التمقروتي أبو الحسن بن محمد بن على، النفحة المسكية في السفارة التركية، مخـــطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، يوجد تحت رقم 20116، يصف لنا هذا السفير المغربي، الجزائر في القرن 16م خلال زيارته للمنطقة وما ألت إليه الأوضاع السياسية والعسكرية وانعـكاسها على الحالة الاقتصادية والاجتماعية والمسار الحضاري.

- محمود بن سعيد مقيدش الصفاقسي، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق على الزواري محمد محفوظ، ط1، (د، غ، إ)، بيـروت، لبـنان، مج1-1988م، كان الشيخ مقـديش عــالماً مشــهوراً في تونس، سافر في طلب العلم إلي أهم المراكز العلمية الإسلامية في عصره منه جامع الزيتونة والجامع الأزهر وبعد

أن حصل على مبتغاه أجازه مشاهير علماء الجامعتين الإسلاميتين، ثم رجع إلى بلاده إلى تعليم الطلبة ويشمل كتابه فترة تاريخية تبدأ بصدر الإسلام وتنتهي بسنة 1830م.

– **محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار الرعيني، (المـــتوفى بعـــد 1110هـ/1698م) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، تونس،1967م**، يعتب هذا المصدر من أهم الكتب التاريخية التي تحدثت عن موضوع بحثي حيث استفدت منه في العلاقات السياسية بين الدولة الحفصية في تونس والعثمانيين في الجزائر خلال القرن 16، وهو مصدر هام جدا لهذه الفترة.

– **محمد بن أبي السرور البكري الصديق، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطـــائف الربانـــية على المنح الرحمانية، تقديم وتحقيق وتعليق ليلي الصباغ، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، 1995م**،(يعطي صورة عن الدولة العثـمانية وتوسعاتها في (16–17م) وقد تكلم عن السلطان سليم الأول، وكيف تمكن من فتح الشام والحـجاز ومصر، وتقويضه لدولة المماليك، والانجـازات الكبـيرة التي قام بها من بعده سليمان القانوني.

– **محمد درّاج، مذكرات خيـر الديـن، ط1، شركة الأصالة للنشر وتوزيع، الجزائر،2010م**

مصدر جد مهم، للموجود العثماني في الحوض الغربي للمتوسط عامة والمنطقة المغاربية المتوسطية خاصة، والجزائر بالأخص، (من بداية القرن 16م إلى نصفه تقريباً)، المتمثل في الإخوة بربروس وعلاقاتهم السياسية وتحركاتهم العسكرية ضد الوجود الأوروبي المسيحي على وجه العموم والإسباني على وجه الخصوص، وحلفائهم الملوك الحفصيين الأواخر في تونس، وعملائهم الزيانيـــين الأواخـــر في تلمسان، وعلاقاتهم بالزعماء المحليين في المنطقة، وانعكاس كل هذا على الحياة الثقافية والتركيبة الاجتماعي، والحالة الاقتصادية، والمسار الحضاري للمنطقة المغاربية عامة، والجزائر خاصة، والصراع(العثماني–الإسباني) على تونس ودور الجزائر فيه بالأخص.

– **محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار بموستودع الأمصار والأقطار، ط2، تحقيق على بن الطاهر الشنوفي ورياض المرزوقي وعبد الحفيظ منصور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة تونس1999**، هو مصدر قيم حول القطر التونسي حيث تنـاول الكتاب وصفا للإيالة التـونسية، وغـيرها من المعلومات الجيدة التي أفادتني.

– **محمد مخلوق، شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، ج2 (1350هـ)**، هذا المصدر يشمل رجال الطبقات الذين عاشوا في البـــلاد التونسية من الفتح الإسلامي إلى عهد مؤلفه والذي يهمنا ذكره للسياسة العثمانية اتجاه البلاد.

– **أحمد أبو العباس بن أبي الضياف، (المتوفي 1291هـ/1874م)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تصدير محمد شمام، تحقيق لجنة من كتابة الدولة لشؤون الثقافة والأخبار، (ش، و، ن، ت) تونس، ج2، 1963م**، هذا الكتاب من أهم المراجع المستعملة خلال فترة الصراع العثماني الاسباني على تونس

ويمكن اعتباره مصدراً ومرجعاً رئيسيا للدراسة التي نحن بصدها، وهو ينقسم إلى ثمـانية أجزاء تتناول كـلها- فترة من الفترات التي مرت بها تونس.

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونـــس وعهد الأمان ويعرف اختـــصارا بالإتحاف، هو كتاب من تأليف المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضيـاف الذي عـاش في القرن19م ، وقد تـناول فيه تـاريخ تونس منذ الفتح الإسلامي مع التركيز على العهد العثماني بتونس، ويعتبر الإتحاف بهذا الصدد أهمّ مصدر في تاريخ تونس الحديث، ويحتوي الإتحاف في الأصل على أربعة مجلدات، وهو مـــرتب على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة إلا أنه صدر في 8 أجزاء والذي يهمنا: الجزء الثاني: هو ملخص لتاريخ تونس منذ الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني بالضبط إلى ما قبل عهد حمودة باشا الحسيني وانطلاقا من هذا الجزء، يعتبر الإتحاف مصدراً شاملاً وذا قيمة كبرى عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والأدبية والعمرانية بتونس.

- الحسن بن محمد الوزان" الأسد الإفريقي" (المتوفى **944هـ/1537م**)، **وصف إفـــريقيا ترجمة عبد الحميد حميدة، الرباط، المغرب، 1979م، وهناك ترجمة آخري له محمد حـجي ومحمد الأخضر، ط1 الرباط، المغرب، 1980م، و، ط 2، الرباط، المغرب، 1982م** وأهم ما أستفادنا هذا المصدر في دراستنا هذه، وصفه إلى ما ألت إليه الأمور السياسية والأوضع الاقتصادية والتخلف الثـــــقافي والتأخر الحضاري والفوضى الاجتماعية في المنطقة المغاربية (المتوسطية)، وهذه أثناء زيارته للمنطقة.

-وغيرها من المصادر الخاصة بالفترة، كانت كلها جيدة ومفيدة.

ت-عرض المصادر الأجنبية: وهي كما يلي:

-التي استفدت منها في هذه المذكرة، فهي متنوعة، ومن أهمها: كتاب فراي دييغوا دو هايدو المسمى (الطبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر) وقد كانت الاستفادة جمة من النسخة المترجمة للفرنسية من الإسبانية.

– **HAEDO Diégo** : topographie et Histoire Générale d'Alger, traduit de l'Espagnol par MM, Le Dr Monnereau et A. Berbrugger, Revue Africaine, Alger, 1870.

–**HAEDO Diégo**: Histoire des Rois d'Alger، traduit de l'Espagnol par H.D De Grammont, Présentation de Abderrahmane Rebahi, Ed. G.A.L, Alger ,2004.

–**Plant et**. (**e**) correspondances des beys de tunis et des consuls de france avec la cour 1577-1830 Ancienne Librairie Germer bailliere et felix ALCAN, 2Diteur boulevard saint -GARMAIN, 1899, T3 (1770-1830)

– يعتبر هذا المصدر من أهم الكتب التاريخية التي تحدثت عن تونس، حيث أنه يذكر الأحداث مرتبة بسنة مثل الحوليات، وتعود أهميته إلى كون غالب محتوياته أصلية، وأفادني في دراسة الناحية السياسية والعسكرية لتونس؛ وغيرها من المعلومات القيمة.

- HUGON, Henr : les Embemes des Tunis, Emest : Leroux paris, 1913

–كما يعتبر هذا الكتاب من الكتب التي استعنت بها، تناول معلومات قيمة حول العملة التونسية المتعامل بها في الإيالة التونسية

– وغيرها من المصادر القيمة الأخرى التي استعنت بها في هذه المذكرة.

ث ـ عرض المراجع العربية :وهي كما يلي:

– أما المراجع التي تناولتها في هذا الموضوع فكثيرة ، لكنها تختلف من حيث أهميتها و موضوعيتها ومن أهمها ..

–أبو القاسم سعد الله ،الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري ،(16–20م)،ج2 (م،و،ك) ،**بيروت،لبنان، 1985م**، فقد تناول فيه المؤلف الحياة الثقافية الفكرية للجزائر في العهد العثماني .

– وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية ،(م،و،ك)**، الجزائر 1980م** أستفدت من هذا المرجع من نشأة الجزائر الفتية، وهيبتها العالمية، المتنثل في قوة أسطـــــولها، وإعتماد المؤلـــــف على مصادر هامة في الموضوع لم أتمكن من الحصول عليها .

– أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، ط1،(د، غ، إ)**، الجزائر،2009م**.

– عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن (10هـ–16م)،ج1، دار الأمل للطباعة للنشر و التوزيع، الجزائر،ج1، 2006م.

– محمد درّاج، دخول العثمانيين إلي الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512م –1543م)، ط1، شركة الأصالة للنشر وتوزيع، الجزائر،2011م.

– حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، مراجعة و إكمال محمد لعروسي المــطوي، مج1، (د، غ، إ) **،بيروت، لبنان، 1990م**.

– عبد الجليل التميمي، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثــماني، ج1–2 منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، زغوان، تونس، 1988م.

– **سهيل طقوس،** الدولة العثمانية والتاريخ الإسلامي الحديث، و**عبد الحميد ابن أبي زيان أشنهو** دخول الأتراك العثمانيين في الجزائر و**حسن حسني عبد الوهاب،** خلاصة تاريخ تونس و**أحمد توفيق المدني،** حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا و**يحي بوعزيز،** علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا وغيرها.

–كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية، نبيه أمين فارس، منير البعلبـــكي، ط05، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1973م، ويتكون من أربعة فصول يتحدث فيها المؤلف عن أصول الدولة

العثمانية حتى عصر السلطان سليمان الأول، وعن النـزاع العثماني الفارسي، ثم يتحـدث عن الـدولة العثمانية في دور الانحـطاط حـتى نهـاية القـرن 18م، والمـــؤلف مـستشرق مـعروف بـكتابتـه في التـاريخ الإسـلامي إذ يغلـب(على أسلوبه التحامل على المسلمين، فهو إمـــا أن يذكر الجانب السيئ ويهمل ذكر الجانب المشرق وهذا منهج المستشرقين أو أنه في حالة ذكـره لجوانب مُـشرقة، فإنه ينسب الفضل فيها إلى الغرب المسيحي الأوروبي وعلى الرغم من ذلك فإن المرجع لا يخلو من بعض الفوائد؛ فللمؤلف أسلوب عرض جيد، وإيجاز غير مخل بالقيمة العلمية وعمومًا فإن أسلوبه في التأليف ينم عن فكر عميق وخبرة طويلة، وعلى الرغم من تضمن المرجع لمادة علمية تفيد البحث خاصة فيما يتعلق بالجانب العسكري والعلم، إلا أن الحذر حملني عـــلى عدم الاعتماد عليه كثيرًا.

-كلها مراجع اعتمدت عليها، وغيرها من الكتب التي لها الفضل في كتابة مذكراتي هذه.

ج-عرض المراجع الأجنبية:

- تناولت في المذكرة العديد من المراجع الأجنبية التي أوضحت عدة نقاط غامضة وأعطت تفسيرات ومعلومات حول دور الجزائر في الصراع الاسباني العثماني على تونس.

-**Grammont** ،(**H. D De**): Histoire d'Alger sous domination Turque (1515-1830)، Paris ,1887.

- **MEROUCHE**, **Lemnouar** : Recherche sur l'Algérie à l'époque ottomane. 1 monnaie, prix et Revenus. 1520-1830.ed. Bouchene. Paris 2002. Rufe (P), Domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte D'Alcaudete 1534-1558. Ed Mimouni. Alger s.d.

-**Belhamissi**، **M**: Alger ville aux 1000 canons. Ed E.N.A.L. Alger 1990.

-**Belhamissi**، (**M**): Histoire de Mostaganem، des origines à l'occupation Française. Centre National d'Etudes Historiques. Alger 1976.

-**Belhamissi**، (**M**): Histoire de Mazouna des origines à nos jours Imp، Ahmed Zabana، Alger , 1982.

-**Belhamissi**، (**M**): Les Captifs Algériens et l'Europe Chrétienne، (E. N. de Livre) Alger 1984.

-**Belhamissi**، (**M**): Histoire de la Marine Algérinne. (1516-1830). 2ème ed. E.N.A.L. Alger 1986.

-**Belhamissi**، (**M**): Marine et Marins d'Alger (1518-1830) tome1. Les navires et les hoommes. Ed. B.N.A. Alger 1996.

-**Bontems**، (**C**): Manuel des institutions Algériennes. De la domination turque à l'indépendance. Tome1. La domination turque et le régime militaire 1518-1870. Ed. Cujas 1ère ed.1976

-**D'hina**، (**A**): Les Etats de l'occident musulman aux XIII، XIV، XV siècles، Institutions gouvernementales et administratives. Ed.O.P.U.et E.N.A.L. Alger 1984.

-**De Baudicour**، (**L**): la guerre et le gouvernement de l'Algérie، Paris Sagnier et Bray libraire-éditeur. Paris 1853.

-**De Grammont**، (**H**.**D**): Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830. Présentation de Lemnouar Merouche, édition Bouchêne 2002.

-**Vayssettes**، (**E**): Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837: ed Bouchene 2002

–**Frey**, (**Henri Léon**) : Histoire d'Oran, avant, Pendant et après la domination Espagnole, ORAN 1858.

–**Frey**, (**Henri Léon**) : Histoire d'Oran, Typographie Adolphe Perrier, Editeur ,1858 .

– **Pallary**, **Paul** : les Origines de la ville d'Oran, Sousse francise ,1904 .

الله الموفق إلى سبيل ا لرشاد.

الفصل التمـهيدي:

أوضاع المغرب الإسلامـي فـي ظل الصـراع ما بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي نهاية الـ قرن15م وبداية ال قرن 16م

I–أواخر عهد وَرثة – ما بعد الموَحّدي :

I–1الوضع السياسي وتَأثيره بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية.

II–العهد العثماني :

II–1ظهوره ومميزاته في غربي البحر المتوسط.

أ – تونس:

II–2 : المحاولة الأولى للإخوة بربروس لتحرير بجاية 1512م وعلاقة السلطان الحفصي بهم.

II–3 : تحرير جيجل1513م.

II–4 : المحاولة الثانية والثالثة لتحرير بجاية 1514م–1515م وموقف السلطان الحفصي منهم.

II–5 : الإخوة بربروس وبداية العلاقات مع الدولة العثمانية 1514م.

ب . مدينة الجزائر:

II–6 : المحاولة الأولى لتحرير قلعة البنيون1515م ومحاولة طرد الإسبان منها.

II–7 : القضاء على تمرد الشيخ سالم التومي1516م.

II–8 : التصدي للحملات الاسبانية الأولى والثانية على الجزائر سنة 1516م.

II–9 : محاولة الاستيلاء على تلمسان واستشهاد عرّوج 1518م.

II–10 : مرحلة حكم خير الدين 1518–1543م.

مبايعة أهالي مدينة الجزائر وأعيانها خير الدين بربروس سُلطان عليهم.

II–11 : الحملة الإسبانية – الزيانية على الجزائر 1519م.

II–12 : إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1519م.

أ–أسباب انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية.

ب –نتائج انضمام الجزائر للدولة العثمانية1519م.

ج –أثر انضمام الجزائر للدولة العثمانية على المنطقة المغاربية وأوروبا.

الفصل التمهيدي:

أوضاع المغرب الإسلامي في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م.

قبل الشروع في معالجة أوضاع المغرب الإسلامي؛ قبل مجيء العثمانيين وأثناء تواجدهم المتمثل في جهود الإخوة بربروس.

ارتأيت أن أستهل هذه الدراسة بتقديم لمحة تاريخية عن المغرب الإسلامي قبل وأثناء العهد العثماني بالشمال الإفريقي عامة والمنطقة المغاربية المتوسطية خاصة والجزائر بالأخص.

مبرزا أهم الأحداث التي أثرت على التطورات التي عرفتها المنطقة المغاربية في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م

والمرحلة اللاحقة: أي فترة الوجود العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط-المتمثل في الإخوة بربروس وإلحاق الجزائر كنيابة أولى لها.

ثم دور الجزائر في التصدي للإسبان وحلفائهم الملوك الحفصيين الأواخر وإلحاح القادة العثمانيين في الجزائر في تدعيم وتثبيت الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م.

I- أوضاع المغرب الإسلامي :

إن الباحث في أوضاع المغرب الإسلامي يلتمس أزمة كبيرة ومتشعبة، التي كان يمر بها، حيث أنه دخل في دوامة من الفوضى والضعف كادت أن تعصف به.

وفي هذا الفصل سنحاول أن نبرز ملامح هذه الأوضاع.

I-أواخر عهد وَرثة – ما بعد الموَحّدي:

بعد انهيار دولة الموحدين(1) ظهرت إمارات في شمال إفريقيا وعند انقسام هذه الدولة(2) أصبح المغرب الإسلامي في حالة انحطاط سياسي وعسكري، وتدهور اقتصادي(3) إذ أصبحت المنطقة تتقاسمها ثلاث دول (الحفصيين، الزيانيين، بني مرين)، الدولة الحفصية في المغرب الأدنى وعاصمتها تونس وفي المغرب الأوسط الزيانيون وعاصمتهم تلمسان وبني مرين بالمغرب الأقصى وعاصمتهم فاس(4) وكلهم ضَعف سلطانهم في آخر أيامهم (5) وإن دّل هذا على شيء إنما يدل على تشتت المغرب الإسلامي(6)، بمعنى انعدام السلطة السياسية الموّحدة وهذا الوضع المتدهور، لخصه المؤرخ الفرنسي"شارل أندري جوليان" فيما يلي"وأصبح شرقي المغرب وأوسطه بسبب هذه الفوضى المتفاقمة ضرباً من الفسيفساء السياسية"(7) وهذه العبارة تصف لنا حالة التشتت التي ميزت المغرب الإسلامي بوجه عام والمغرب الأوسط بوجه خاص وهذا الوضع أيضا وصفه المؤرخ" أحمد توفيق المدني"بثلاث عبارات: "ضعف"،"وتقهقر"،"وانحلال" وبالإضافة إلى ذلك كان المغرب الإسلامي يفتقد لوحدة متماسكة بين الأسر الحاكمة والرعية (8) وظهرت عدة ثـورات وتمردات فانعدم الأمن والاستقرار وحلت الفوضى (9)، إذ تضافرت مع بعضها البعض وذلك طيلة قرن كامل من القرن 15م حتى بداية القرن 16م (10).

---

(1) –دولة الموحدين(1128–1266م/1269م)، خلفت دولة المرابطين في حكم شمال إفريقيا ونصف شبه جزيرة ليبيريا، للمزيد أنظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تحقيق وتعليق المهدي البوعبدلي، (ش، و، ن، ت)، الجزائر،1978م، ص60.

(2) –ابن الأثير على بن محمد الجزري الشيباني، الحلل السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط1، القاهرة، مصر،1963م، ص160.

(3) –جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا، (1619م–1830م)، (م، و، ك)، الجزائر،1987م، ص15 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، عين للبحوث الإنسانية والاجتماعية، الجزائر،2005م، ص269.

(4) –جون . بول . وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، (م، و، ك)، الجزائر، 1986م، ص23 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، الجزائر في العهد التركي، مجلة الأصالة، العدد 52، مطبعة البعث، الجزائر، ديسمبر 1977م، ص04.

(5) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا(1500–1830)، (د، م، ج)، الجزائر، 1980م، ص23.

(6) –إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1980م، ص176.

(7) –شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد ميزالي والبشير سلامة، ج2، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م، ص321

(8) –محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م، ص203.

(9) –محمد ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، (ش، و، ن، ت)، الجزائر،1972م، ص76.

(10) –مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص61 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، (1492–1792م)، ط2، (م، و، ك)، الجزائر، 1984م، ص 64.

فلا شك أن هذا الوضع الخطير سهل عملية الغزو الصليبي الذي تميز بالعنف والهمجية وشجعت هذه الحالة إلى اندفاعهم نحو المدن الساحلية المغاربية؛ وبعد حملات خاطفة، تم السيطرة عليها الواحدة تلو الأخرى (1) وهناك عامل آخر جعل بلاد المغرب عاجزة عن صد هذا الغزو ويتمثل في انتشار الخرافات والشعوذة التي لا أساس لها من الصحة (2) أي الخروج على تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة.

أمام هذا التشتت والفوضى في المغرب الإسلامي، كانت دولة أخرى في الغرب الأوروبي بدأت في الظهور على المسرح السياسي والمتمثلة في مملكة إسبانيا المتنامية القوة وخاصة بعدما استكملت وحدتها السياسية، (الزواج السياسي بين الملكين فرديناند وإيزابيلا) أي توحيد المملكتين الأرغون وقشتاله في سنة 1479م واحتلالهما لغرناطة سنة1492م (3) وتَعززت القوة المعنوية أكثر لديهما؛ كما حلت تقريباً كل الخلافات التي كانت قائمة بين إسبانيا والبرتغال يومئذ، وقد كللت هذه المساعي بنجاح بوساطة البابا إسكندر السادس ALISKANDAR VI -1492- 1503م (4) وبمباركة منه !!!وتجسد ذلك: بإبرام معاهدة (ثوردي سيلاسTordesillas) بين الدولتين سنة 1494م والذي تم بموجبها تقسيم العالم الغير أوروبي إلى منطقتي نفوذ بينهما!؟ فالسواحل المتوسطية للمنطقة المغاربية من نصيب الإمبراطورية الإسبانية والسواحل الأطلسية المغربية من نصيب المملكة البرتغالية وبعد ازدياد حدة الشقاق بين الدولتين تم تعديل بنود المعاهدة، بتدخل من قبل البابا مرة أخري!! والتي عرفت بمعاهدة سنترا Sintraسنة1509م؛ وكانت إسبانيا والبرتغال تعيشان نهضة تجارية ووحدة سياسية (5) والعالم الأوروبي بأسره يعيش تحولاً جذرياً نتيجة حركة الكشوفات الجغرافية، إذ كان للبرتغاليين دور هام فيها فقد تمكنوا من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح عام1487م، وكذا وصولهم إلى الهند عام1498 (6).

ومن جهة أخرى ارتقت الإمارة العثمانية (الأناضولية) إلى مستوى الدولة العثمانية (الأناضولية-البلقانية) بفضل فتحها للقسطنطينية سنة 1453م (7) تكون قد وضعت قدمًا في القارة الأوروبية، على أنقاض الإمبراطورية

---

(1) -العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ط1، (م، و، ك)، الجزائر،1975م، ص16 وأنظر أيضاً: عمار حمداني، حقيقة غزو الجزائر، ترجمة لحسن زغدا، منشورات ثالثة، الجزائر، 2007م، ص08.

(2) -أبي زكرياء، بن خلدون، بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، ا لمطبعة الحكومية، الجزائر، 1910م، ص189 وأيضاً: جمال قنان، المرجع السابق، ص17 وللمزيد أنظر: الملحق رقم 01: حول الوضع السياسي للمغرب الأوسط في مطلع القرن 16م.

(3) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 02: حول معاهدة تسليم غرناطة للإسبان 1492م.

(4) -الحملات قبل 1509م التي باركها البابا (اسكندر بروجياALEXANDRE VI BORGIA، تولى البابوية من سنة 1492م حتى سنة 1503م لعب دوراً كبيراً في التحريض على إنهاء الوجود الإسلامي من الأندلس، وتوجيه الحملات الصليبية لاحتلال سواحل الجزائر. للمزيد أنظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد البحري، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1986م، ص59 معطياً بذلك الصبغة الدينية والرسمية لما جاء بعدها من حملات استعمارية على الساحل الشمال الإفريقي، المرجع نفسه، ص56-57.

(5) –للمزيد أنظر: الظروف والأسباب التي أدّت الى عقد هذه الاتفـاقية في: أرزقـي شويتام، "التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرنين18م و19 م وموقف الجزائر منه" حـــولية المؤرخ، ال عدد3 – 4، الجزائر، 2005م، ص 161 وأنظر أيضاً: عبد الفتاح محمد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب، ج3، (د، ن، ع، ط، ن، ت)، مصر، 1994م، ص ص79-81، وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص58.

(6) -محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط2، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، مصر، 1949م، ص 113.

(7) -القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، بعد الفتح العثماني لها سنة1453م سميت إستانبول، (أي مدينة الإسلام).

البيزنطية المسيحية !!؟ والتاريخ يشهد للسلطان"سليمان القانوني" الذي في عهده توغل الأتراك العثمانيين في شرق أوروبا حتى حاصروا "فينا 1529م"[1]، فارتقت دولتهم إلى العالمية! وكان من النتائج المباشرة لزحف العثمانيين على أوروبا واحتدام الصراع بينهم وبين الأوربيين [2] والجدير بالذكر أنه كان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية وإطاحتهم بالدولة البيزنطية، واتخاذهم قسطنطينية عاصمة لهم سنة1453م [3]، كانت هناك ردة فعل شديدة من طرف أوروبا، طلب البابا من الملوك المسيحيين محاولة انتزاع أرض إسلامية في المغرب الإسلامي مُقابل ما فقدته المسيحية في الشرق! وهكذا تم طرد بقايا المسلمين في الأندلس، وسقطت غرناطة [4] آخر حصن للمسلمين بيد الإسبان سنة 1492م [5] من ثم أصدرت الحكومة الاسبانية مرسوماً يقضي بتنصير أبناء المسلمين الذين اختاروا البقاء؟ [6].

وخلاصة القول: إن هذا الوضع المتردي في الشرق، فإن في الغرب كانت هناك دول في شبه جزيرة أيبيريا تُتابعه عن كثب[7]، وفي هذا الصدد كتب أحد الجواسيس الإسبان، كان يقوم بمراقبة الشواطئ المغاربية " إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حداً من الانهيار يحصل على الاعتقاد أن الله أرادها في متناول أصحاب الجلالة"[8] وكان هذا التصريح سنة1494م، بعد عامين من سقوط آخر معقل للمسلمين في أوروبا الغربية(غرناطة)، وإذا حاولنا تحليل هذه العبارة، نستطيع القول أن الشطر الأول يصف لنا حالة الضعف والانهيار الذي لا يقتصر على دولة دون أخرى بل كل الدول المغاربية!

أما الشطر الثاني يحمل دلالات نوايا استعمارية، وهو تعبير صريح على احتلال هذه المناطق لأنها غير قادرة على التصدي لها، وقبل أن نشرع في ذكر هذا الغزو وأسبابه؛ هناك جانب هام لابد من ذكره، يتمثل في تلك الصبغة الصليبية التي نجدها متجلية في جميع الغارات الموجهة إلى المنطقة المغاربية، فقد كانت الدول

(1) -يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص13 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص07.

(2) -للمزيد من التفصيل أنظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981م، ص ص 256-258.

(3) -Moulay Bellhamissi, Histoire de la marine Algérinne (1516- 1830), E N A L, Alger, 1986, P37.

(4) -غرناطة: معناه باللغة الإسبانية الرمانة وهي شعار غرناطة التاريخي، ومازال هذا الشعار ماثلاً فوق بوابة قصر الحمراء؛ التي يمثل في شكل ثلاثة رمانات صخرية كبيرة، وكانت آخر المدن التي سقطت بالتسليم في الثاني من شهر ربيع الأول (897هـ/2 يناير1492م) للمزيد أنظر: محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص117.

(5) -مجهول، أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق حسين مؤنس، دار النفائس، بيروت، لبنان،1991م، صص69-70 وأيضاً: علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، جمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، باكستان، 1992م، ص69.

(6) -محمود إحسان الهندي، تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلي عهد الثورة فالاستقلال، العربي للإعلام والنشر والطباعة والتوزيع، دمشق، سوريا،1988م، ص38.

(7) –شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص323 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص12.

(8) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص56 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص79 و: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص323.

الأوروبية الغازية تحمل حقداً على الشعوب الإسلامية وترغب في الانتقام منها ناهيك عن تنصير شعوبها[1] وإن هذه الروح الصليبية سنجدها بشكل واضح من خلال أعمال القادة الأوروبيين كتخريب المساجد وتحويلها إلى كنائس وتغريم السكان على عدم ترك عقيدتهم الإسلامية؛ وغيرها من المظاهر الأخرى-فالاحتلال الإيبيري للسواحل المغاربية نتيجة طبيعية لسقوط "غرناطة ".

ومن ثمة أرادت إسبانيا تطويق السواحل المتوسطية المغاربية حتى لايعاودون الكرّة من جديد لاسترجاع الأندلس[2] وكانت لهذه الحروب صبغة دينية، فالكنيسة لعبت دوراً بارزاً في الحروب حيث عملت على تشجيعها وتمويلها إلى درجة أنها فرضت ضـريبة على المسيـحيين؛ فقد طلب الكـاردينال "خمينـسي – Xminis" [3]من رجال الدين الإسبان، مَده بالمساعدة لتنظيم الحملة على وهران، وقد نجح في تجهيز أسطول وجيش بفضل المساعدات التي وردت إليه، ورجـال الدين قاموا حتى ببيع أملاك كنائسهم وأثـاثهم المنزلي وأغراضـهم الخـاصة من أجـل ذلك[4] كما أن المـلكة"إيـزابيلا" التي عرفت بتعصبها الشديد للمسيحية، تركت وصية قبل موتها" أنه يجب مواصلة فتح إفريقيا وعدم الانقطاع على المحاربة من أجل الدين ضد أعداء الدين" [5] ومنه فإن هذه العصبية الدينية تدخلت ضمن الحروب الصليبية وهناك أسباب أخري متداخلة نذكر منها السياسية والاقتصادية.

فالأسباب السياسية نوجزها بظهور الدول الحديثة بأوروبا، ورغبتها في التوسع ومحاولة إسبانيا والبرتغال بمحاصرة نشاط مسلمي الأندلس المطرودين، ومنع المغرب الإسلامي مد يد العون لهم [6] بأوروبا وكذلك رغبة ملوك إسبانيا بعد انتصارهم على المسلمين في الأندلس على توسيع ملكهم خارج القارة الأوروبية وإنشاء إمبراطــورية مترامية الأطراف[7]؛ وأما الأسباب الاقتـصادية لاتقـل أهمية عن الأولى؛ فهي الأخـرى كانت سـبباً في هذه الهجمات فلقد كانت شبه جزيرة إيبيريا بـعد الكشوفات الجغرافية في حاجة ماسة إلى أسواق خارجية لصرف منتجاتها وإلى ثغور ساحلية لحماية أساطيلها وفي هذه الفترة كانت إسبانيا تحاول إخضاع المنطقة المغاربية

---

(1) – جمال قنان، المرجع السابق، ص18 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص270.

(2) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 03: حول الخريطة السياسية لإسبانية في القرن 16م.

(3) –الكاردينال خمينسيXIMENES DE CINEROS، واسمهFRANCOIS JIMENES DE، ولد في قشتالة (1463م-1517م)، تم تعينه أمينا لسر الملكة الاسبانية إيزابيلا، ثم كاهنا لطليطلة سنة1465م، ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة إيزابيلا سنة 1504م، ثم عين رئيسا لمحاكم التفتيش(1506-1516م)، تولى قيادة الحملة على وهران سنة 1509م، اشتهر بقسوته في إبادة المسلمين، وكان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب، أنظر: بسام العسلي، المرجع السابق الهامش1، ص45.

(4) –شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 323 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص271.

(5) –جمال قنان، المرجع السابق، ص ص17-18.

(6) –عبد الجليل التميمي "الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الإيالات المغربية في ال قرن16م"، المجلة التاريخية المغاربية، العدد(10-11)، الجزائر،1978، ص8.

(7) –حكمت يسين، "الغزو الاسباني للجزائر في القرن السادس عشر"، مجلة الأصالة، ال عدد14-15، 1973م، ص242.

لأنه مهد الخيرات ومنبع الثروات؛ إذ فيه مزارع كثيفة وثروة حيوانية وسواحل غنية بالمرجان [1] لذلك حاولت السيطرة على بلاد المغرب الإسلامي لحل الأزمة الاقتصادية [2].

كان الإسبان قد تشجعوا لمواصلة هجوماتهم على المنطقة ذلك أن قادتهم عزموا على تنفيذ وصية الملكة (إيزابيلا -esabella) والتي جاء فيها: " إني أرجو الأميرة ابنتي والأمير زوجها آمرهما بطاعة الكنيسة فعليهما أن يقوما بحمايتها وأن لا يكفا عن متابعة فتح إفريقيا ومحاربة المسلمين " فمن ثمة ازداد الإسبان اهتماماً ببلاد المغرب الإسلامي وأصبحوا يتحينون كل فرصة سانحة لشن غارات عنيفة عليه [3]؛ بدأ بالفعل تنفيذ المخطط الاستدماري، وأخذ الغزو الصليبي يجتاح البلاد [4] المغاربة ولأجل ذلك جعلت المخططات الإسبانية ميناء المرسى الكبير [5] هدفها الأول لحملاتها [6] وبدأت إسبانيا بتنفيذ مشروعها باحتلال ميناء المرسى الكبير عام1505م [7] البوابة الغربية للمغرب الإسلامي ـ مفتاح مدينة وهران [8] عندما وصل الأسطول الاسباني اشتبك مع حامية المرسى في معركة عنيفة غير متكافئة، انتهت باحتلال قلعة المدينة والتحصن بها [9] ولم يكن الهجوم على المرسى الذي يقطن به مسلمو الأندلس سوى مقدمة لعنوان الاستعمار [10] الذي وضعه الملك الاسباني"فرديناند" الذي أمر" دييقو ديفيرا" لقيادة هذه الحملة لسفك دماء المسلمين [11].

---

(1) -عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص8 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص61.

(2) -يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، (م، و، ك)، الجزائر، 1984م، ص43.

(3) -العربي الزبيري، المرجع السابق، صص16-17وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص14.

(4) -أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص88 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص272.

(5) - "...ومنها إلى مدينة وهران مراسي لا مدن لها مشهورة كمرسى عطا..."للمزيد أنظر: لابن قاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992م، ص79.

(6) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة (تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي)، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبـــنان، (د-ت)، ص18، وأنظر أيضاً: محمد علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، دار الحكمة دمشق، سوريا،1994م، ص13، وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص ص22 -24.

(7) - المرسى الكبير من الأماكن الاستراتيجية التي لعبت دور عسكري خطير وعرفت أحداث تاريخية مؤثرة ،فقد ظل طيلة تاريخه معلما عمرانيا وقاعدة بحرية ونقطة ارتكاز ومنطلق هجوم ونظرا لأهمية الاقتصادية الخاصة لهذا الميناء، وقربه من مدينة وهران التي لا يبعد عنها سوى 8 كلم، وكذا قربه من إسبانيا والذي احتلته إسبانيا وللمزيد من المعلومات أنظر: ناصر الدين سعيدوني ،دراسات أندلسية (مظاهر التأثير الإيبري والوجود الأندلسي في الجزائر)، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2003م، ص ص 141-160 وأيضا: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ،ص ص96-100وأيضا: محمد العربي زبيري، المرجع السابق، صص 16-17.

(8) - Fernand Braudel، "Les Espagnols et l’Afrique du nerd de 1492 à 1887". in Revue Africans tome 69 , 1928، p202 .

(9) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص273.

(10) -أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني، بيروت، لبنان، 1991م، ص64 وأيضا: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص323 وأنظر: بسام العسلي، المرجع السابق، صص60-61.

(11) -محمد علي عامر، المرجع السابق، ص13 وأنظر أيضاً: جمال قنان، المرجع السابق، ص17-18.

لقد كانت هنـــاك محاولات الإسبان للتوغـــل إلى الداخـــل، فقد تهيــــئوا في جوان1507م، للهـــجوم على قرية "مسرغين" التي تبعد ب15كم غرب وهران، لكن الجزائريين، ألحقوا بهم هزيمة شنعاء أثرت على مخطط إسبانيا التوسعي، لأنها خسرت عدداً كبيراً من جيشها لهذا أكتفت بالمناطق الساحلية فقط[1]وفي سنة1509م قام الكاردينال "خمينسي"بتجهيز حملة كبـــرى على مدينة وهران، يتولى قيادتها"بيـــدرو نافار" [2] بعد هذه النكبـــة التي تعرضت لها كل من مدينتي وهران والمرسى الكبير، وكان الملك فرديناند يرغب في تأجيل هذه الحملة، لكن انتصاره على الفرنسيين[3]، وجرأة البحارة المسلمين الذين كانوا يغيرون على سواحل إسبانيا انطلاقا من السواحل الشمال إفريقية انتقاماً لإخوانهم في الأندلس، دفعت فرديناند إلى التعجيل بتنفيذ مشروع الحملة [4] ولم يتمكن الملك الزياني [5] من زحزحة الإسبان من مواقعهم في مدينة وهران [6] وهكـــذا فانه بسقوط هذا الميناء تبدأ مرحلة طويلة من الصراع الدامي بين الجزائر وإسبانيا دام 300سنة، وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني بالجزائر تقريباً[7] إذن كان لسقوط وهران نتائج خطيرة جداً على مستقبل الشمال الإفريقي المغاربي.

بإدراك الإسبان بسرعة أن استغلال التناقضات الداخلية، والاستعانة بالخونة لتثبيت وجودهم أمر بالغ الأهمية ومن ثم شرعوا منذ احتلالهم للمرسى الكبير في توطيد علاقاتهم بالأعراب المحيطين بالمرسى الكبير واستمالتهم إليهم واستعمالهم كأعوان لهم لتثبيت وجودهم [8] "وصارت لهم كما في الطريق في الليل والنهار واتخذوا منهم الجواسيس واشتدت قوتهم وتعددت غزواتهم" [9] ومن ناحية أخري فان الإسبان أدركوا الأهمية الاستراتيجية

---

(1) -يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق ص44 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص15.

(2) -أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، صص110-111 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص274.

(3) -كانت إسبانيا وفرنسا تتنازعان النفوذ على ايطاليا، حيث أن كلا منهما كان يدعى أحقيته في وراثة عرش نابولي، فوقعت بينهما حروب طويلة كان لها أثر كبير على مجريات الأحداث في مطلع القرن 16م، أنظر: بسام العسلي، المرجع السابق، صص48-49.

(4) -محمد خيري فارس، المرجع السابق، ص18 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص324.

(5) - الزيانيين: عقب انهيار دولة الموحدين، وانقسام المغرب العربي والأندلس إلى دويلات صغيرة أسس يغمراسن بن زيان(1236-1283م)، لأن سنة1235م اتخذت الدولة من تلمسان عاصمة لها عرفت بدولة بني زيان.(عن تأسيس هذه الدولة انظر: عبد الرحمن ابن خلدون ،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، المكتبة العلمية، لبنان، 1956م، ص257، ج7، ص177)إلا أن هذه الدولة لم تعرف الاستقرار إلا في فترات قصيرة من تاريخها، ذلك بسبب موقعها الجغرافي في المغرب الأوسط بين كتلتين سياسيتين متحاربتين الحفصيين والوطاسيين الأمر الذي حرم الدولة الزيانية من البروز كقوة كبرى في مجال الجهاد الإسلامي والصراع الدائر على أرض الأندلس، ومياه البحر المتوسط، بل لم تزد عن أن كانت قوة عشائرية ذات كيان سياسي محدود، للمزيد أنظر: محمد درّاج، دخول العثمانيين إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس فيه(1512-1543 م) ط1، (ش، ص، ن، ت)، الجزائر،2011م، ص104 وأنظر: عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق،صص141-143.

(6) -للمزيد أنظر: أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا (المتوفي بعد 1315هـ/ 1897م)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر دراسة وتحقيق يحي بوعزيز، ط1، ج1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1990م، ص211 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ص96-102 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص234-235.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص105 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص274.

(8) -أبو المكارم عبد القادر المشرفي، (المتـوفي حوالي 1192هـ/1778م) بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص48.

(9) -أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، صص111-112.

لمدينة وهران، فراحوا يقومون بتحصينها تحصيناً محكماً وجعلها قاعدة أمامية أساسية لاحتلال أو تبعية كامل منطقة الغرب الجزائري، كما راحوا يبثون الشقاق بين البيت الزياني المتصارع على العرش بغية إنهاكه وإلهائه عن التصدي للاحتلال [1] بدأت المناطق الساحلية الأخرى، تسقط الواحدة بعد الأخرى بأيديهم.

وهكذا تمكن الإسبان من إنشاء محطات عسكرية على طول الساحل الشمالي لإفريقيا اتخذوها جيوباً صليبية.

-وكانت مملكة تونس تخضع لها أربع مناطق بجاية وقسنطينة وطرابلس والزاب[2] فمنطقة "بجاية" كانت دوماً منطقة متنازعا عليها فأحيانا كان يملكها ملك تونس وتارات أخرى كانت تتبع ملك تلمسان وقد تكونت منها مملكة مستقلة إلي أن سقطت عاصمتها بيد الكونت الإسباني بيدرو نافارو في1510م [3] وأرغموا مدن مستغانم [4] وتنس ودلس والجزائر[5] على دفع الضرائب لهم واعترف لهم بني زيان بهذا الاحتلال عام1512م[6].

ما إن ثبّت الإسبان أقدامهم في وهران حتى شرعوا يعدون الحملة لاحتلال بجاية وجعلها قاعدة انطلاق لاحتلال القل، عنابة وطرابلس، ثم تونس ليسهل عليهم بعد ذلك التحكم في مضيق صقلية وقطع الطريق على العثمانيين من الوصول إلى غرب البحر المتوسط[7] وعندئذ خشي أهل مدينة الجزائر من الإسبان، فأرسلوا وفداً منهم إلى التفاوض مع الإسبان للوصول إلى اتفاقية يحفظ لهم حياتهم ومدينتهم[8] واعترافا بتبعية للإسبان ومقابل ذلك لايتعرض الإسبان لمدينة الجزائر[9] بسوء[10] واتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص ص105-111 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص275.

(2) -الحسن بن محمد الوزان الزياني (جان ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة من الإيطالية إلى الفرنسية إيبولار A 'E PUAUARL وإلى العربية عبد الرحمن حميدة، المملكة المغربية، 1979م، ص 38-39 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص203 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، المرجع السابق، ص12.

(3) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص39 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص324.وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص119.

(4) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 04: حول تبعية مستغانم للإسبان في القرن 16م.

(5) - الجزائر بني مزغنة مدينة عليها سور في سيف البحر أيضا...و لها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بها العدو لجؤوا إليها فكانوا في منعة و أمن ممن يحذرونه و يخافونه. لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص78.

(6) -أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: جمال قنان، المرجع السابق، ص17-18 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 324.

(7) -محمد خيري فارس، المرجع السابق، ص21 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص275.

(8) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، صص59-60 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، المرجع السابق، صص20-21.

(9) -كانت مدينة الجزائر مستقلة تابعة نظريا لمملكة بجاية يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي، (شيخ قبيلة الثعالبة العربية التي كانت تستوطن في سهول متيجة ومدينة الجزائر حكم حكما استبداديا متسلطا) للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، (م، و، ك)، الجزائر،1984م، ص114.

(10) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص220، وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، المطبعة البحرية، إستانبول، تركيا، 1911م، ص28، وأيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص50 وأيضًا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق ص ص126-128 وأنظر: محمد درّاج، المرجع السابق، ص203 وأنظر: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص324 وأنظر: العربي الزبيري، المرجع السابق، ص32-33.

الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها (قلعة الجزائر-Penon d'Alger)تحرس سفنهم التجارية وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية وتجعل في نفس الوقت مدينة الجزائر تحت مراقبتهم [1].

وهكذا فإننا إذا تتبعنا حركة الاحتلال الإسباني، فإننا نلاحظ بأنه لم تأت سنة 1512م، حتى كانت معظم مدن الساحل المغاربي واقعةٌ تحت الاحتلال إما عن طريق استعمال القوة العسكرية، أو عن طريق إعلان الخضوع والتبعية لهم[2] وكان للاحتلال الإسباني لسواحل شمال إفريقيا المغاربية عامة وسواحل الجزائر خاصة آثار خطيرة على حاضر ومستقبل هذه المنطقة الحيوية من العالم الإسلامي.

فكانت وضعية المغاربة على العموم والجزائريين على الخصوص في ظل الاحتلال الإسباني تتميز بعدم وجود دولة ذات سلطة مركزية قوية قادرة على تجنيد الأهالي للدفاع عن البلاد؛ وغياب شبه تام للتماسك بين أفراد المجتمع في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث؛ وغياب مفهوم الدولة الذي من شأنه أن يجمع الأمة تحت راية سياسية واحدة موحدة، وشيوع الفوضى والاضطرابات في سائر أنحاء البلاد، كل هذه العوامل وغيرها حالت دون تمكن السلطات المحلية من التصدي للعدوان الإسباني [3].

وبالرغم من فعالية المقاومة الشعبية، التي تمكنت من حصر الاحتلال في المدن الساحلية دون التوغل داخل البلاد، إلا أنها لم تتمكن من تحريرها، الأمر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن الجزائرية يرون الاستعانة بالبحارين التركيين عرّوج وخير الدين بربروس، طالبين منهما لتحرير مدنهم ورفع الظلم عنهم، وذلك بعدما بلغهم انتصاراتهما على الإسبان في عرض البحر الأبيض المتوسط [4] وأخيراً كان من نتائج المهمة التي غيرت تاريخ المنطقة والتي نتجت هي بدورها عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر – وقد برز من بين صفوف القباطنة المسلمين في شمالي إفريقيا بابا عرّوج الذي أطلق عليه لقب بربروس لأنه كانت له لحية حمراء، و ذلك على إثر انتصاراته البحرية التي حققها على الإسبان، فاتجه إليه الجزائريون لمساعدتهم على استرداد الموانئ و المدن المحتلة من الإسبان[5].

---

(1) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص ص408-411 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص32-33 وأنظر: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28 وأنظر أيضاً: عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2003م، ص292، وللمزيد – أنظر: الملحق رقم 05: حول التحرشات الإسبانية على موانئ الشمال الإفريقي في القرن 16م.

(2) -نيقولا ايفانوف، تاريخ البلدان العربية، موسكو، روسيا، 1963م، ص98 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامع الأزهر، مصر، ص901 وأيضاً: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضاراته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مج2، (ع، ح، ن، ت)، بيروت، لبنان، 1992م ص157 وأيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص117.

(3) -العربي الزبيري، المرجع سابق، ص15-16 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص276.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص136 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص17.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص50 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص278.

تدخل الأتراك العثمانيين لحماية هذه السواحل وطرد الإسبان منها، أداء لواجب الدفاع عن البلاد الإسلامية من جهة واستجابة لاستغاثات أهالي المدن الجزائرية الذين ما فتئوا يرسلون إليهم الدعوات المتتالية طالبين منهم الإسراع لإنقاذ الجزائر قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الأندلس.

وحتى يحقق العثمانيون أهدافهم في شمالي إفريقيا أقاموا علاقات وثيقة مع ما تبقى من مُسلمي الأندلس بالإضافة إلى الذين التجئوا إلى شمالي إفريقيا، وتعاون الطرفان في الجهاد ضد الإسبان، فكان من أثر ذلك أن جعل هؤلاء الأتراك من الموانئ المسيحية الإسبانية في غرب المتوسط؛ قبلة لهم قبل أن تتطور الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة من تاريخها فيتم إلحاقها بالدولة العثمانية؛ لتصبح بعد ذلك أهم إيالة عثمانية في غرب البحر المتوسط أسندت إليها مهمة التصدي للإسبان وحلفائهم في المنطقة [1].

ظل شمال إفريقيا جزء هاماً من العالم الإسلامي- وبقيت المنطقة المغاربية المتوسطية القلب النابض للجناح الأيسر له- فظلت المنطقة الشرقية منها لمدة قرنين ونصف القرن، خاضعة لبني حفص[2] إلا أن أصابها الضعف والانحلال والتفتت خاصة في أواخر القرن 15م، فكان الأميران الحفصيان عبد الرحمن وعبد الله اللذان كانا يتنازعان على عرش بجاية فقد وقّع كل واحد منهما على انفراد معاهدة خضوع وتبعية للإسبان[3] ولم يكتف الأمير عبد الرحمن الحفصي ملك بجاية بذلك بل اعترف لهم بتمّلكهم لمدينة بجاية وصخرة الجزائر التي أسسوا عليها قلعة البنيون[4] وعلى إثر سقوط بجاية ساد القسم الشرقي من الجزائر موجة رعب كبيرة خصوصاً في المملكة الحفصية بتونس، فبادر السلطان الحفصي أبو عبد الله باسترضاء الملك الإسباني والتقرب إليه، بل إعلان التبعية له كما فعل ملك تلمسان بعد سقوط وهران، وتعهد له بدفع الجزية سنوية، مع فرسين من جياد الخيل، وأربعة من طير الباز كدليل على التبعية والخضوع، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين دون قيد أو شرط وأن يزود بجاية بالمؤن التي تحتاجها مجانا[5]، كما أدى سقــوط بجاية أيضاً إلى خضــوع مدينة الجزائر للإسبــان بعد أن صارت مطوقة من الشرق والغرب "بجاية و وهران ".

II- العهد العثماني :

II-1ظهوره ومميزاته في غربي البحر المتوسط:

في غرب البحر المتوسط واصل المسلمون جهادهم ضد الصلبيين الإسبان، الذين أجبروهم على الرحيل من الأندلس، فقد أسس المسلمون المنفيون من إسبانيا، مستوطنات على طول سواحل شمالي إفريقيا، وعقدوا العزم

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص136 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص ص279-281.

(2) -جان سوقاجيه وكلود كاين، مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ترجمة عبد الستار حلوجي وعبد الوهاب علوب، (م، أ، ث) القاهرة، مصر،1998م، ص363.

(3) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص ص131-133 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص63.

(4) —نفسه ص136وأيضا: أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، ص212.

(5) -عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، ص60 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص 126.

على الانتقام من مضطهديهم، وذلك بالإغارة على سواحل إسبانيا المألوفة لديهم ومهاجمة السفن النصرانية وخاصة من مضيق جبل طارق إلى جزيرة مالطا.

إذاً يرتبط الوجود العثماني في غرب المتوسط، بقضية المسلمين في الأندلس، وقد سبق الإشارة إلى أن أهالي الأندلس طلبوا تدخل السلطان العثماني بايزيد الثاني لحمايتهم مما يتعرضون له من ضغط وإرهاب مسيحي، وذلك قبل سقوط غرناطة، وبينما أن السلطان أرسل أسطولاً كبيراً إلى الشواطئ الإسبانية سنة1486م فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية وجنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا ومالطا[1] ثم كرر كمال رئيس الإغارة عل سواحل إسبانيا في 1510م ، منطلقاً من السواحل المغربية، وقد رافقه في هذه الحملة بيري رئيس[2].

والذي يتضح لنا من كل ما سبق، هو أن البحارة الأتراك قد عرفوا واشتهروا بين الأهالي في غرب المتوسط سواء في شمال إفريقيا، أو الأندلس قبل التدخل العثماني الرسمي لدعم مسلمي الأندلس، ومن الأسماء التركية التي لمعت قبل وصول آل بربروس إلى غرب البحر المتوسط: براق رئيس، وكورت أوغلو، مصلح الدين رئيس، سنان رئيس، بيري رئيس وغيرهم [3].

لقد لاحظ الباحثون أن الكثير من البحارة الأتراك، كانوا يجوبون البحر بمبادرة فردية مستقلين بأنفسهم ينقلون الأسلحة إلى الأندلسيين، أو مدافعين عن موانئ إفريقيا الشمالية ضد هجمات الغزاة الأوروبيين كما كان بعضهم يعمل في خدمة السلطان الحفصي أوغيره من السلاطين المحليين أوعلى الأقل يتلقون تشجيعاً منهم وأيضاً: كانت السلطات العثمانية في إستانبول تشجع البحارة الأتراك في غزواتهم، لأنها تحقق بعض الأهداف كالدفاع عن موانئ المسلمين في شمال إفريقيا، وتقديم العون للمضطهدين الأندلسيين، وربما الأهم من ذلك هو إشغال الإسبان عن المشاركة في حروب شرق البحر الأبيض المتوسط بين الدولة العثمانية وأوروبا[4].

وبالنظر إلى الدور الدفاعي والانتقامي الذي كان يقوم به هؤلاء البحارة، صار الأهالي ينظرون إليهم على أنهم أبطال ومدافعون عن المسلمين[5] فكانوا يستقبلون بحرارة في الموانئ المغاربية؛ حيث اعتادوا على قضاء فصل الشتاء لإصلاح سفنهم وبيع غنائم، وتعويض خسائرهم البشرية [6].

---

(1) -ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا. للمزيد أنظر: عبد الجليل التميمي، "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين "المجلة التاريخية المغربية، العددان 14-15، تونس، 1973م، ص191 وأنظر أيضاً: نيقولا ايفانوف، المرجع السابق، صص95-96.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص177 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص18.

(3) -علي رضا سيفي، تحركات بحرية، إستانبول، تركيا، 1928م، ص536 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص39.

(4) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في ملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر، (م، و، ك)، الجزائر، 1984م، ص45.

(5) -نيقولا ايفانوف، المرجع السابق، صص95-96 وأنظر أيضاً: صلاح العقاد، المغرب العربي، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ط5، (م، أ، م)، القاهرة، مصر، 1985م، ص18.

(6) -حمدان بن عثمان خوجة، (المتوفي حوالي 1261هـ/1845م)، المرآة (لمحة تاريخية واحصائية عن إيالة الجزائر)، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، لبنان، 1972م، ص82 وأيضا: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تح نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية لصاحبها رودسي قدور بن مراد، الجزائر، (1353هـ-1934م)، ص27.

وقد تعَوَّد هؤلاء الغزاة على الاستعانة بالمسلمين الأندلسيين الذين أجبروا على التظاهر بتغير دينهم حيث كانوا يمدونهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم على السواحل الإسبانية [1] مما دفع سكان الموانئ الإسبانية إلى رفع شكاوي إلى الملكة إيزابيلا، معلنين أنهم لم يعد في مقدورهم دفع الضرائب إذا لم يعد بإمكانهم ممارسة التجارة مع الخارج، أو زراعة أراضيهم بفعل غارات البحارة الأتراك والمغاربة[2] وكانت القواعد الرئيسية لنشاط هؤلاء البحارة ممتدة على الطول الساحل الشمالي الإفريقي كطرابلس، أوجربة، وبجاية، الجزائر، وتنس، ووهران المرسى الكبير[3] وفي خلال سنوات قليلة كانت أغلبية الموانئ الممتدة من تونس شرقاً إلى المغرب، تضم أساطيل إسلامية أثارت الرعب في قلوب أوروبا.

أ– تونس [4]:

طوال معظم القرن 13م سيطر الحفصيون على شمال إفريقيا من طرابلس إلى وسط الجزائر وأقاموا علاقات تجارية ودبلوماسية مع دول الساحل الشمالي للمتوسط ومُدنه، ونظراً للموقع الاستراتيجي للبلاد التونسية[5] على البحر الأبيض المتوسط من الجهة الشمالية والشرقية، إضافة إلى قربها من أوروبا مما جعلها مطمعاً للدول المجاورة؛ وقد اصطدم الحفصيون بمحاولات الدول الأوروبيّة للتوسع والسيطرة عليها.

---

(1) –نيقولا ايفانوف، المرجع السابق، صص95–96 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص23.

(2)- H- De Grammont (H .de), Histoire d'Alger sous la domination Turque, Paris, 1887, PP21-23.

(3) –خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد درّاج ط1، (ش، ص، ن، ت)، الجزائر، 2010م، ص34 وأنظر أيضاً: نيقولا ايفانوف، المرجع السابق، صص95–96.

(4) –تونس: من نقطة تبتدئ شرق " القالة "على البحر، إلى نقطة تنتهي على مقربة من مدينة " غدامس "في المملكة الليبية للمزيد أنظر: لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص78 وتونس: اسم يطلق على مدينة عربية أسست حوالي عام 80هـ/ 699م على ساحل البحر المتوسط الجنوبي بعد الفتح الإسلامي للمشرق؛ المغرب ويطلق كذلك على القسم الشرقي من المغرب الكبير وكان يسمى في العصر الإسلامي * افريقية * وحكمت تونس من قبل العرب المسلمين في العهد الأموي والعباسي وتكونت فيها دولة الاغالبة 183هـ/800م ،ثم دولة الفاطميين 297هـ/ 910م،فدولة الزيريين 362هـ/ 973 م وتأثرت بالهجرة الهلالية وأسقطت الزيرين 443هـ/ 1052م وحكمها بنو خراسان 451 – 555 هـ/ 1059 –1160م وسيطر عليها الموحدون عام 555هـ/ 1160 وعند ضعف الموحدون تكونت دولة الحفصيين * 626 – 981 هـ/ 1228 – 1574م والسلالة الحفصية تنسب إلى الشيخ إلى حفص عمر من أوائل مُريدي ابن تومرت واحد من قادة عبد المؤمن المخلصين وتحولت تونس في عهد الأسرة إلى مقر الحكم ومركز سياسي وثقافي واقتصادي وكانت في نزاع مع جيرانها بني عبد الوادي تلمسان، وأقامت علاقات تجارية مع دويلات أوروبا وتعرضت في القرن(10 هـ /16 م) إلى غزوات الإسبان. للمزيد أنظر: أجي بريل، دائرة المعارف الإسلامية، تحـــــــــرير، م.ت.هوتسما، ت.و.أرنولد، ر باسيت، ر، هارتمان، عربها كل من محمد ثابت أفندي، أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد عبد الحميد يونس، ط1، ج –ص، (حسب المعلومة)، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، 1998م، ص35.

(5) – تعدّ تونس من أصغر بلدان المغرب العربي مساحة وهي عبارة عن جيب جغرافي بين الجزائر وليبيا، وتبلغ مساحة تونس 163610 كلم مربع ومعظم أراضيها منخفضة يحدّها البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشرق تمتاز تونس بسهولة الوصول إليها برا وبحرا ممّا جعلها عبر تاريخها عرضة لتأثيرات خارجية لعبت دورها في تكوين خصائص مجتمعها، ويبلغ عدد سكان تونس 07 ملايين نسمة يتكلّمون اللغة العربية وللغة الفرنسية انتشار واسع للغاية والديانة السائدة في تونس هي الإسلام الذي هو دين الغالبية من السكان والعاصمة التونسية هي تونس وأهم المدن فيها هي سوسة وصفاقس وبنزرت والقيروان وهي العاصمة العربية القديمة. للمزيد أنظر: مهـدي تاج، مشروع المغرب العربي–فرصة التحول الديمقراطي، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، 2012م، ص46.

في نهاية القرن الخامس عشر تولى السلطان "أبو عبد الله محمد الخامس" (1494-1526) الحكم على تونس وكانت الأمور قد مالت إلى الضعف، فلم يستطع هذا الأخير إعادة الأمور إلى ما كانت عليه في عهد أبي عمر بن عثمان(1435-1488م)، حيث أن بعض المناطق أعلنت استقلالها عن المملكة الحفصية مما أضعف إمكانياتها، كما أنها كانت تفتقر إلى جيش نظامي مكتفية فقط بالولاء القبلي وإتباع السيرة الحسن ولما آل الحكم إلى الملك أبي عبدالله محمد لم يجد فرصة لسيطرة على هذه المناطق المتمردة [1] ويقول ابن أبي دينار "حتى القيروان ثارت وفشل في إخمادها ورجع منهزمًا من طرابلس وبجاية"، كما صادف حكم هذا الأخير ظهور طلائع العثمانيين وعلى رأسهم الإخوة بربروس، وتزامن مع التكالب الاسباني على المنطقة الساحلية لإفريقيا الشمالية على إثر سقوط آخر معقل لمسلمين في الأندلس، وفي هذا الوسط الداخلي الضعيف والخارجي المحدق بالخطر جعلوا يفكر في مورد مالي[2].

في الجانب الأخر كان المسلمون في الأندلس قد بدئوا يتوافدون على بلاد المغرب، فاستقروا في تونس والجزائر، والمغرب إثر طردهم من الأندلس، بدأت إسبانيا تطمع في بلدان المغرب الإسلامي لاحتلاله والسيطرة عليه، لبناء جدار عسكري يحول بين دول المغرب، وبين ضمها إلى الخلافة العثمانية.

شهد القرن 10هـ/16م ذلك النزاع الكبير الذي كان قائماً بين الإسبان والأتراك للتحكم في البحر المتوسط والسيطرة عليه، وقد ابتدأ نفوذ الإسبان يمتدّ إلى السواحل المغاربية المتوسطية بعد أن طردوا العرب المسلمين من الأندلس، وفي تلك الظروف برز نجم القائدين الإسلامين عرّوج وخير الدين بربروس [3] وابليا البلاء العظيم في قهر الأساطيل الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط، وخاصة الجيوش الإسبانية مما دفع سليم الأول إلى دفعهما لفتح الجزائر، وتخليصها من الإسبان، وأصبح خير الدين بربروس واليا عليها فيما بعد[4].

---

(1) -الجمل شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، (م، أ، م)، القاهرة، مصر، 1977م، ص46.

(2) -محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، (المتوفى بعد 1110هـ/1698م) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط1، تونس، 1967م، ص113 وأنظر أيضاً: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص123.

(3) - أصل الأخوين عرّوج وخير الدين: يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من أثر الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل اليوناني، وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين وكان لعرّوج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون إلى أصلهم الإسلامي إلى الحجج التالية: ما ذكره المؤرخ الجزائري "أحمد توفيق المدني" مستنداً على أثرين تاريخين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآلة، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله "أورج بن يعقوب" بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة الموافق لسنة 1518 م ونقش على الرخامة الثانية : اسم "أوروج" بن أبي يوسف يعقوب التركي". وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ماشيده خير الدين في الجزائر سنة 1520م للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص 126 وأيضا: محمد درّاج، المرجع السابق، ص187.

(4) -أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، السعودية، 1996م، ص37 وأنظر أيضاً: يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنا محمود سليمان، م1، منشورات فيصل لتمويل، إستانبول، تركيا، 1990م، ص 83.

ورداً على ذلك استولى الإسبان، على عدة نقاط حصينة على طول سواحل المنطقة المغاربية وأرغموا الحفصيين حكام الجزائر على الخضوع لهم، والسماح لهم بإقامة قاعدة بحرية حصينة في جزيرة بنيون القريبة من ميناء الجزائر، واعترافهم لهم باحتلال بجاية وطرابلس وغيرها [1].

لقد كان الإسبان يريدون احتلال تونس نظرا لموقعها الاستراتيجية الممتاز حيث أنّها تطلّ على مضيق صقلية ذلك الممرّ الرّابط بين البحر الأبيض المتوسّط الشّرقي والغربي وأصبحت إسبانيا بعد الكشوف الجغرافية تبحث عن أسواق خارجية لبعث تجارتها وإلى ثغور جديدة تحتلّها لحماية أساطيلها، فكان عليها بالتّالي احتلال السّواحل المغاربية [2].

ومثلت البلاد التونسية محور صراع بين العثمانين والإسبان لأنها لم تكن خاضعة لأي دولة منهما؛ إلى أن تورطوا في النزاع بين الإمبراطورية الإسبانية والدولة العثمانية، هذا النزاع الذي كان حاسما في مستقبل تونس[3] وهكذا أصبح يتسابقون للاستيلاء على سواحل تونس، بعد أن عجز أمراء بني حفص على رد هجماتهم؛ واستطاع أمراء الإفرنج احتلال أهمّ مراكز السواحل التونسية؛ إنّه تداخل العامل الاقتصادي مع التعصّب الديني [4].

وعلى الجبهة الداخلية مرت البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، بفترة اضطراب شديد بسبب سوء تصرّف الملوك الأخيرين من بني حفص[5] ففي أيام الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي1494-1526م [6]، خرجت بلاد كثيرة عن حكمه؛ وفي هذه ذروة هذه الأحداث وصل على سمعه ما يجوب في البحر من انتصارات يحققاها الإخوة بربروس؛ حتى وصل الخبر تأكيداً له مصحوباً بصاحبه؛ ونترك خير الدين يصف لنا ذلك بقوله: "كنت أطلب إحدى الحسنين، النصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله... حتى لقيت أخي عرّوج، وبينما نحن نفكر في وجهتنا إذ بدا لنا أن نتوجه إلى تونس، وقلنا:" مادام الموت هو نهاية كل حي فل يكن في سبيل الله"[7]؛ فقررا الاتصال بالسلطان الحفصي في تونس، ليقنعاه بأن يسمح لهما بالرسو في ميناء حلق الوادي ويتخذاه قاعدة لجهادهما على أن يدفعا إليه خمس[8] مايحصلان عليه من الغنائم ويبيعا مازاد عن حاجتهما

(1) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط2، دار الشروق، بـــــيروت، لبنان، 1986م/1406هـ، ص92.

(2) -يسري الجوهري، جغرافية المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر،1981م، ص121.

(3) –"...أما مدينة تونس وهي قديمة أزلية ذات مياه جارية قليلة ...وهي خصبة في ذاتها...ومصاقبة لقرطاجة ...وأقربهن إلى تونس من بونة ثم متيجة، ثم بنزرت، وبنزرت مدينة على البحر خصبة ...وبطرابلس من الرخص والسلطة..." لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص77.

(4) -يسري الجوهري، المرجع السابق، ص121 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص64.

(5) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، (المتوفي 1291هـ/1874م)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان، تصدير محمد شمام، ج2 تونس، 1976، ص ص9-26.

(6) -ابن الأثير على بن محمد الجزري الشيباني، المرجع السابق، ص160.

(7) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص02 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص27.

(8) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص12-13 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص26 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص9.

في أسواق تونس [1]؛ وركب كل من خير الدين وعرّوج ويحي رئيس سفينة وأتوا تونس فدخلوا على سلطانها أبي عبد الله محمد الحفصي1494-1526م الذي كانت تربطه بالأتراك علاقات حميمة، منذ القيام بمبادرة الصلح بين العثمانيين والمماليك في عهد بايزيد الثاني عام 1494م[2] وقدموا له الهدايا ثم قالوا له:" نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي فيه سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله، وسوف نبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيد المسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة ثمن مانحوزه من الغنائم" فأجابهم السلطان أبو عبد الله قائلاً: "إن ما تقولونه معقول جداً، فأهلاً وسهلاً بكم البلد بلدكم" فلقد وافق سلطان تونس الحفصي على طلب الإخوة بربروس المتمثل في جعل ميناء حلق الوادي قاعدة لهم، ليس اقتناعاً منه بما يقومون به، أو تأييداً لهم في مقاومة الإسبان، إذ سوف نرى كيف سيتحالف معهم لاحقاً، بل لكي يستفيد من العائدات المالية التي يجنيها منهم، دون أن يحتاج إلى فرض مزيد من الضرائب على الأهالي، كما كان يريد امتصاص التذمر الشعبي منه ومن سلوكه المهادن للإسبان وهكذا كان فتحه لقلعة حلق الوادي للأتراك يظهره أمام رعاياه بمظهر المساند للجهاد ضد الاحتلال الإسباني [3].

وكما سلف أن أشرنا، إلى أن البحارة الأتراك لم يكونوا مجهولين لدى أهالي شمال إفريقيا، وعليه فإنه من الطبيعي أن تكون شُهرتهم قد شاعت بين أهالي الجزائر، ليس بسبب الغزوات المظفرة التي كانوا كغيرهم من البحارة الأتراك يرسون في الموانئ الجزائرية لبيع غنائمهم وإصلاح سُفنهم، وتعويض خسائرهم البشرية بقوات جديدة [4] إلا أن عرّوج كان كغيره من الأتراك كثيراً مايتصل بالشخصيات الدينية المحلية، ومن ذلك أنه قابل الشيخ الولي أحمد الراشدي وهذا يعني أن عرّوج كان على صلة بالمنطقة، قبل استقراره بها بعد اتخاذه من جزيرة جربة قاعدة لعملياته؛ ولكن أن الأخوين بربروس، بدآ يظهران واقعياً في غرب المتوسط ابتداء من سنة 1504م [5] وهو ماجعلهم يستعين بهم فعلياً[6]؛ من العلماء والصلحاء؛ وإن كان الأخوين من أشهر رجال البحر المسلمين وأنجحهم، وذلك حسب اتفاقه مع أبو عبد الله سلطان تونس على جعل ميناء جربة قاعدة ينطلق منها في غزواته

(1) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص10-11 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص15.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص183 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص29.

(3) -العربي الزبيري، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص65.

(4) -وقد أشار المؤرخ الجزائري الشيخ المهدي البوعبدلي في مقدمة تحقيق لكتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، لمؤلفه أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي (المتوفي بعد 1211هـ/1796م)، ط1، (و، ت، أ، ش، د)، الجزائر، (ب- ت)، ص56.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص185 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص281.

(6) -ظهور الإخوة بربروس في سواحل شمال إفريقيا: أشارت المصادر التي تحدثت عن الإخوة بربروس بأن عرّوج عندما نجا من الأسر، لجأ إلى مدينة أنطاكيا حيث عمل كمساعد لقبطان أحد السفن التي كانت متوجهة إلى مصر، وحينما وصل إلى مصر استقر بها فترة من الزمن تمكن خلالها من مقابلة سلطانها قانصو الغوري، والدخول في خدمته؛ فحاز من ذلك على غنائم هائلة، واستقر رأيه على أن يجعل من جزيرة جربة مركزا له يودع بها أمواله وغنائمه. للمزيد أنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص41-47 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص26 وأنظر أيضاً: أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، صص249-250 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص38-39.

البحرية على أن يدفع له خمس الغنائم التي يحصل عليها[1] وكان يعترضا السفن النصرانية، ويأخذ ما فيها ويبيع ركابها وملاحيها رقيقاً، وقد أرسل للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسرها فقبلها منه وأجزل له العطاء فقوت نفسه، لم يلبث عرّوج كثيراً في جربة؛ وفي خدمة السلطان محمد الحفصي حتى لحق به أخوه خير الدين فقوى ساعده به، وبعد تشاورهما في مستقبل حياتهما اتفقا على المضي معاً في مشروعهما الطموح، وانطلقا يغيران على السواحل والسفن المسيحية، فكان من أثر ذلك أن زادت سطوتهما وتضاعفت ثروتهما إلى حداً كبيراً [2] ولكن سرعان مابرز أخوه خير الدين باعتباره بطل الإسلام، بحيث أصبحت أوروبا تحسب له ألف حساب لقوة أسطوله[3] وأدى هذا إلى تحويل النشاط الجهادي الإسلامي من شرقي البحر المتوسط إلى الغرب مما مهد للفتح العثماني للشمال (الإفريقي- المغاربي)؛ بعد ما أذن لهم السلطان الحفصي بالرسو في ميناء حلق الوادي فقضوا الشتاء هناك، وعندما حل الربيع ركبوا البحر، بخمس قطع بحرية كانت أسرعـها، فبلغوا جزيرة سردينيا وهناك استــولوا على سفينة أحد القراصنة، كان فيها مائة وخمسون أسيراً وفي الصباح استولوا على سفينتين أخريين.

ووصلنا إلى تونس على وقع المدافع، مثقلين بغنائم كالجبال، أخذ جميع الغزاة قدر ما يريدون من الغنائم وقمنا بفرز حصة السلطان وتصدقنا بمال كثير على الفقراء، فنلنا منهم كثيرا من الدعاء؛ فبعد هذه الغزوة شاع أمرنا في كل ممالك الكفر، فاتفقوا على القضاء علينا قائلين: "لقد ظهر تركيان اسمهما: عرّوج وخير الدين خضر يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولا إلى تنين، علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض، إننا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة" [4] فقد كانت معظم غزوات عروج وخير الدين ناجحة، فمرة سافر إلى ناحية بلاد النصارى فغنم وسبى، ودخل مدينة تونس وأهدى لسلطانها الحفصي ماغنمه [5] ولقد أصبح الأهالي يحبونهم كثيرا، وبلغ من حبهم لهم أنهم كانوا قلقين من عدم عودتهم مرة أخرى لتونس، خصوصا الفقراء منهم الذين كانوا ينتظرون رجوعهم بلهفة وترقب [6] كما بعث إلى سلطان تونس حصته المتمثلة في خمس الغنائم لخزينة بيت المال [7]؛ فأزداد كل من السلطان الحفصي وأهالي تونس بهما تعلقا[8]، وأما السلطان العثماني فقد أهدى لهم خيولا فارهة مجهــزة تجهيزاً جيداً، متشرفاً بضيافتــهم؛ واستقبلهم قائلاً: "شرفتم مملـكتي، بيض الله وجوهـكم

---

(1) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص46 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص26 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ص09 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص230 وأيضاً: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص4.

(2) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص158 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص32.

(3) –اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ط1، المطبعة الاميرية، ببولاق، مصر(1312هـ/1894م)، ص ص83 -87.

(4) –محفوظ قداش، المرجع السابق، ص33 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص50.

(5) –نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، دار الحضارة، الجزائر،2006م، ص47.

(6) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 60.

(7) –محمد سي يوسف، قليج على باشا، ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستار، جامعة الجزائر، 1998م، (غ م)، ص28.

(8) –أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ج4، الدار البيضاء، المغرب،1955م، ص162 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ص09.

في الدنيا والآخرة أنتم أسيادنا" [1]، هذا ما يدل على المكانة التي كانا يحظيان بها على اعتبار أنهما مجاهدين مستقلين في البحار، إلا أنهما كانا دائمي الاتصال بالسلطان العثماني، ليخبراه بنشاطهما وتقدماتهما في مناطق الأعداء وكأنهما عين السلطان العثماني في تلك المناطق البعيدة ونورد هذا المثال على الاتصال بين الطرفين.

فمرة غادر بيري رئيس في ستة قطع بحرية فوصل إلى إسطنبول ورسي في الساحل المقابل لسراي بورنوSERAY BORNU، (الجزء الأوربي لمدينة إستانبول)، محيا السلطان بإطلاق قذائف المدفعية واستقبل السلطان بيري رئيس وتفضل بقراءة رسالة خير الدين بنفسه فسّر كثيرا بما قام به وأخيه عرّوج من غزوات، وبعد قراءة الرسالة رفع يديه المباركتين بالدعاء لهما ولبحارتهما قائلا: "اللهم بيض وجهي عبديك عرّوج وخير الدين في الدنيا والآخرة، اللهم سدد رميتهما، واخذل أعدائهما وانصرهما في البر والبحر" [2]؛ ومثل (بيري رئيس) بين يدي (السلطان)، وسلمه سيفين قد حليت قبضتهما بالماس، كما سلمه خلعتين سلطانيتين ونيشانين ثم قال له:" ليركب خير الدين السفينتين اللتين سلمتهما لك، وليركب عرّوج الأخرى وأما السيفان فليتقلد خير الدين أحدهما، وليتقلد خير الدين أحدهما، وليتقلد عرّوج السيف الآخر أعلمهما بأننا قد قبلنا هداياهما المرسلة إلى مَقامنا السامي، استودعكم الله وأسأله أن يديم عليكم نصرة المؤزرة، ومهما تكن لكم من حاجة فإنه يمكنكم عرضها علينا لقضائها"؛ أخذ بيري رئيس الخط الهمايوني، ثم ركب إحدى السفينتين وأمر بقية السفن أن تلحق به، في حين كان السلطان يتفرج على سفنهم من القصر الساحلي، ثم غادر بيري رئيس إسطنبول متجها إلى تونس [3].

قررت إسبانيا إرسال أسطول كبير مكون من 10 سفن للقضاء على الإخوة بربروس، ومن معهم من الأتراك، ولكن قبل وصول السفن الإسبانية، كان البحاران التركيان قد توجها إلى جنوة للإغارة عليها، غير أن مخالفة الرياح أجبرتهما على اللجوء إلى سواحل بجاية [4]؛ فاتصل بهم الأعيان وعلماء مدينة بجاية لما كان يسمعون عن انتصاراتهم ضد الإسبان[5] في عرض البحر وشواطئ الأندلس نفسها وهو ما عبر عنه المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف" العلماء والأعيان من أهل بجاية يستصرخون في إنقاذها من يد العدو" [6] وكذلك أبو بكر والي قسنطينة طالبين منهم تحرير مدينة بجاية من الإسبان [7].

---

(1) -نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص63.
(2) – حكمت يسين، المرجع السابق، ص242 وأنظر أيضاً: المجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص13.
(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص66 وأنظر أيضاً: المجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص14.
(4) –علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص4 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص34.
(5) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج1، (د، م، ج)، الجزائر، 1965م، ص08وأيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص47.
(6) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ص15 وأنظر أيضاً: عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص272.
(7) -عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الإيالات المغربية في ال قرن16م"، المرجع السابق، ص ص6 -9.

II-2 المحاولة الأولى للإخوة بربروس لتحرير بجاية 1512م وعلاقة السلطان الحفصي بهم :

لم يتمكن الإخوة بربروس من تحرير بجاية في هذه المحاولة؛ ولكن الذي تمكن من انجازه عرّوج[(1)] وإخوته هو اختبارهم لمدى قدرتهم على التصدي للإسبان، بل ومهاجمتهم في حصونهم التي يحتلونه ،كما أثارت هذه المحاولة؛ رغم فشلها إعجاب زعماء القبائل البربرية الذين لمسوا عن قرب شجاعة الأتراك وكفاءتهم القتالية وانضباطهم العسكرية، مما كان له أثراً كبيراً في تحفيز أهالي المدن الجزائرية المحتلة إلى أن يرسلوا وفوداً إلى الإخوة بربروس تدعوهم للتدخل لتخليص مدنهم من الاحتلال الإسباني[(2)] ويصف لنا المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف بقوله: "إن عرّوج وخير الدين بعد أن طاب لهما المقام عند الملك الحفصي حسن واهتمامها بالجهاد البحري مقابل خمس الغنائم حتى يستطيعوا البقاء في جربة".

ولكن قيام أهل بجاية بالاستنجاد بهم فلبوا طلبهم في رد العدو الإسباني وأمر عرّوج ببناء برج مرتفع فوق التل الذي يهيمن على بجاية، ورفع المدافع إليه لضرب الأسوار مباشرة[(3)] وقرر مهاجمة المدينة هجمة عامة[(4)] ولكن نفاذ الذخيرة وامتناع الأمير الحفصي بتونس عن تقديم العون له، اضطر إلى الانسحاب منها بعد أسر 600 من الإسبان[(5)]؛ غير أن نفاذ الذخيرة وخاصة البارود الذي كانوا يعتمدون عليه في تدمير استحكامات القلعة ولم يجد عرّوج بدًا من الاستعانة بسلطان تونس ليزودهم بالبارود، إلا أن السلطان الحفصي أبو عبد الله تجاهل طلبهم ولم يزودهم بما يحتاجون إليه من البارود حال دون فتحها[(6)] وهذا ما يؤكده المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف في هذا الصدد: "وضيق عليها الحصار ولما أشرف على الفتح نفذ ما عنده من البارود فكاتب السلطان الحفصي

---

(1) -عرّوج رئيس (إن أغلب المؤرخون والباحثون، في المصادر العربية يسميه ((عرّوج)) أنظر مثلاً: أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، ص151، أنه ولد ليلة الإسراء والمعراج: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، صص 160-161، كان مسيحياً ثم أسلم وأنظر أيضاً: الأمير سعيد الجزائري تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر، ج2،الجزائر،(ب ت)، ص60، وأيضاً: عبد الحميد ابن أشنهو أبي زيان، دخول الأتراك العثمانيين في الجزائر، دار الطباعة للجيش، الجزائر1972 م، ص38 وأيضاً: Haedo Diego, le père Histoire des Rois d'Alger, traduit de l'Espagnol par H.D De Grammont, Paris, 1881, p 65 وأيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق ،ص230 أما الدكتور الباحث: محمد درّاج فيرى أن، كل المصادر العثمانية مجمعة على تسمية ب((أروج)). للمزيد -أنظر: الملحق رقم 06: حول، صورة جداريه منقوشا على الرخامة التي كانت موضوعة على باب حصن شرشال، مدونة عليها اسم عرّوج ولعب دوراً أساسياً في تمهيد الطريق لأخيه خير الدين من بعده في بسط نفوذ الدولة العثمانية بالجزائر. للمزيد-أنظر: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، تحت رقم1622-766، ص15 وأنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص20، وأيضاً: كاتب الجلبي، المصدر السابق، ص25 وأيضا: أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، ص251 وأنظر: عبد الحميد بن أشنهو المرجع السابق، ص38 وأنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، صص156-157و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص152.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، صص190-191 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص36.

(3) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص27 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص68.

(4) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص98 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص282.

(5) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا، المرجع السابق، ص12.

(6) -علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص20-21 أنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28، وأيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص49 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص65 وأنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص170.

بتونس وهو محمد بن الحسن يستمد منه البارود فتغافل عنه، تخوفا على ملكه المشرف على الانقراض والتقدير وراء التدبير"[1] فشل الأتراك في تحرير بجاية ولكن الفشل بسبب خذلان الملك الحفصي لهم، لقد كان يعلم يقينا هذا السلطان: أن دوره سيجئ يوم ما ولذلك فإن منطق المحافظة على العرش جعله يغض الطرف عن مصالح بلده وشعبه، ففضل أن تبقى المدينة تحت الاحتلال على أن تتحرر من الاحتلال، خوف من أن يجلس على عرشها من ينازعه سلطانه ذات يوم.

ومن حسن عرّوج وإخوته في هذه الفترة أن السلطان العثماني بعث لهم مساعدات تتمثل في 14 سفينة محملة برجال أشداء، مع كميات من الأسلحة والذخائر، وقد جاءت هذه الهدية في الوقت المناسب[2]؛ زيادة على ذلك إصابة عرّوج إصابة بالغة في ذراعه اليسرى [3] إلا أن إصابة عرّوج البليغة اضطرت الأطباء إلى قطع ذراعه اليسرى [4]، تولى خير الدين القيادة نيابة عن أخيه الجريح [5] فأدرك عرّوج أن مدينة بجاية حصينة جداً، لأنها تمثل قاعدة الاحتلال الإسباني في شرق الجزائر.

II-3 تحرير جيجل [6] 1513م :

كما اقتنع بأن حلق الوادي بتونس بعيدة عن أرض المعركة الحقيقية في الجزائر حيث يتمركز الوجود الإسباني، وكان من اللازم أن يجد لنفسه قاعدة أخرى تكون لأكثر قرباً بحيث يمكنه اللجوء إليها، والتزود منها عند الحاجة، خاصة بعد أن قرر عرّوج البحث عن مركز جديد لهم يكون قريب من بجاية، فوجد أن جيجل أحسن مكان لهم للتمركز والاستعداد [7] حيث حاصر المدينة مع إعانة أهالي تلك النواحي وأفتكها من يد الجويينز [8] سنة 1514م، ونقل إليها مركزهم من حلق الوادي وأصبحا على مقربة من بجاية [9]؛ وذلك لكي يجعل منها نقطة انطلاق نحو بجاية[10]، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الحسن الوزان:" فأستغل عرّوج استنجاد أهالي جيجل للتدخل لتحرير مدينتهم من الاحتلال الجنوي[11]، فأجابهم عرّوج في ذلك، وهاجم القلعة في 1514م حيث

(1) – أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 12.

(2) -بسام العسلي، المرجع السابق، صص 92-93 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، صص170-171.

(3) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص18 وأنظر أيضا: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص15.

(4) -رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص284 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ص 13.

(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص20-45 وأنظر أيضاً: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص16.

(6) –"وشرشال مدينة قديمة وجيجل مرسى ومنه إلى بجاية مدينة عليها سور منيع على نحر البحر..." لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص78.

(7) -نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص46 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص38.

(8) -وللجدير بالذكر أن الجنويين كانوا يحتلون جيجل منذ سنة1260م للمزيد أنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، بيروت، لبنان،1980م، ص37 وأيضا: نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، صص48-49 وأيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، صص 165-166.حيث جعل منها مركز للتبادل التجاري بين إيطاليا وإفريقيا، ثم بدأ يفقد أهميته شيئا فشيئا إلى تغلب أهل البلاد على الحامية ولكن الأميرال أندريا دوريا أعاد احتلالها وأخرج أهلها منها للمزيد أنظر: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، الهامش3، ص 94.

(9) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا، المرجع السابق، ص12و أيضا: بسام العسلي، المرجع السابق، صص88-89.

(10) -محفوظ قداش، المرجع السابق، ص39 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص191.

(11) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص 409 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص368.

تمكن من القضاء على حاميتها الجنوية وجعلوا منها قاعدة لعملياته الحربية"[1] وبالرغم من كون جيجل لم تكن ذات أهمية سياسية أو اقتصادية في ذلك العصر إلا أن توسطها بين بجاية والجزائر من جهة، وقربها النسبي من بجاية جعل عرّوج يتخذها نقطة ارتكاز ينطلق منها لمد نفوذه في الجــزائر بالإضافة إلى قاعدتي حلق الوادي ثم جزيرة جربة بتونس.

وهكذا بدا وكأن الحرب ضد إسبانيا لم تعد مجرد حملات يقوم بها قراصنة محترفون، وإنما هي حرب بين دولتين إحداهما ناشئة يقوم الإخوة بربروس بوضح أسسها والثانية فتية تولت زعامة العالم المسيحي وقيادته في حربه العدوانية على المسلمين في الأندلس وشمال إفريقيا، ولم يكتف الإخوة بربروس بالإغارة على السفن والسواحل الإسبانية فحسب، بل جعلوا إنقاذ مسلمي الأندلس وتوطينهم، في شمال إفريقيا وطرد الإسبان من سواحل شمال إفريقيا مهمة أساسية لهم؛ فحازوا بذلك على ثقة الأهالي، وبدأ الخطباء يدعون لهم بالنصر في خطبة الجمعة[2].

II-4المحاولة الثانية والثالثة لتحرير بجاية 1514م-1515م :

كان الأخوين بربروس يدركان أن تحرير بجاية سوف يؤدي إلى إنهاء الاحتلال الإسباني من الشرق الجزائري كله، ويمكنهما في الوقت ذاته من قطع خطوط موصلات القوات الإسبانية بين إيطاليا قاعدة له وبجاية التي يتمركز فيها، إضافة إلى ذلك فإنه يؤمن السواحل الجزائرية الشرقية والتونسية من غارات القراصنة، وباختصار كان تحرير بجاية في نظر الأخوين بربروس يمثل مرحلة هامة ومصيرية في صراعها مع الإسبان في معركة فرض السيطرة على الحوض الغربي من البحر المتوسط، ولذلك راحا ينتظران الفرصة المواتية التي تمكنهما من تحريرها[3] وفعلاً لم يطل انتظارهم، ففي الوقت الذي كان فيه بيري رئيس في إستانبول، وصـل إلى تونس [4] وفد من أعيان وأشراف بجاية يحملون إليهما كتابًا [5] استنجاد بعد فتح القلعة الخارجية لبجاية، فوافق على طلبهم على الفور وفرض على قلعتها الداخلية حصاراً شديداً من البحر والبر، التي كانت أكثر إحكاماً، وفتحها في غاية الصعوبة

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص 80-82 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص30 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص165 وأنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص37.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص ص159 -192 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص286.

(3) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 53 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص193.

(4) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص25 وأيضاً: ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص10.

(5) – جاء فيه:" أن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال ،لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة، أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم، لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه لنا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بخلاصنا من هؤلاء الكفار"(مجهول، غزوات عروج و خير الدين، المصدر السابق، ص25 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، المرجع السابق، ص192 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص09 وأيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص58 وأنظر: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص47 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص64 وأيضاً: العربي الزبيري، المرجع السابق، ص33-35 وأنظر: أحمد توفيق المدني حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص162.

استمر الأتراك في قصفها بالمدفعية 20 يوماً دون توقف[1] وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك ومن معهم من القبائل المحاصرة للمدينة وصلت قرابة 100قطعة بحرية إلى بجاية على متنها حوالي 10000جندي إسباني[2].

لم يكن في مقدور الأتراك التصدي لهذه القوة الهائلة مع نفاذ البارود، فقرر عرّوج رفع الحصار وسحب قواته إلى جيجل عن طريق البر[3] ولكي لاتقع سفنه غنيمة في يد الإسبان أمر بإحراقها جميعاً[4]، وهذا مايصفه لنا خير الدين بقوله": بعد فتح القلعة جاء جميع الشيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين لي، ومن هنا انتصبت أنا وأخي ملكين على هذه البلاد؛ واستولينا في هذه الحملة على ثمانمائة برميل من البارود وعدد لا يحصى من الغنائم، سررنا كثيرا بالبارود بصفة خاصة، لأن الذي كان لدينا منه قد أوشك على النفاذ ولم يعد سلطان تونس يزودنا به، بل لاحظنا إعراضه عنا يوما بعد يوم، فقررنا أن نحل مشاكلنا بأنفسنا، لقد بات أنه من اللازم علينا أن نؤسس لأنفسنا دولة جديدة في غرتنا هذه"، كانت لهذه الحادثة أثر ايجابي على زيادة الروح القتالية للأهالي؛ وتمسكهم بالأتراك، وبالمقابل تصاعد نقمتهم على الإسبان؛ التي أثرت فيهم أكثر من خسارتهم لقلعة بجاية، ويعطي لنا خير الدين رأيه في هذه الحادثة بقوله:" قامت قيامة الكفار في إسبانيا عندما بلغهم فتحنا لقلعة بجاية، أما الأهالي رأوا أن الأتراك قادرين على قصم ظهر الإسبان، إضافة إلى أنهم مقيمون للعدل ويخشون الله[5].

II-5الإخوة بربروس وبداية العلاقات مع الدولة العثمانية 1514م :

شاعت أخبار الغزوات المظفرة التي يقوم بها الأخوين بربروس ومن معهم من البحارة الأتراك في غرب المتوسط حتى بلغت عاصمة الدول العثمانية إستانبول، وبقدر ماأشاعته من هلع في أوساط العواصم الأوروبية فإنها أشاعت شعوراً بالتعاطف الكبير والمودة في البلاط العثماني، ولاغرابة في ذلك فالإضافة إلى رابطة الدين التي كانت تمثل عاملاً هاماً في الصراع بين أوروبا المسيحية بقيادة إسبانيا والعالم الإسلامي بزعامة الدولة العثمانية[6].

ومن جهة ثانية فان الإخوان عرّوج وخير الدين بربروس كانا يدركان أنه ليس باستطاعتهم وبإمكانياتهما الذاتية المحدودة التصدي لدولة قوية ناشئة مثل إسبانيا وغاية ما يمكنهما القيام به هو شن غارات خاطفة ومفاجئة على سواحلها وسفنها التجارية، وتخليص من يستطيعان تخليصه من مسلمي الأندلس أما تحرير المدن التي يحتلونها في شمال إفريقيا فان ذلك يحتاج فعلاً إلى دعم دولة قوية مثل الدولة العثمانية وقد تأكدت لهما الحاجة الماسة

---

(1) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص72 وأيضاَ كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28.

(2) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص26 وأنظر أيضاً: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص20 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28 وأنظر أيضاً: .Haedo Diego, op ,cit ,p 67

(3) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص48-49 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص170.

(4) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص409 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص26 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص65.

(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص74 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص41.

(6) – عن سفارة بيري رئيس إلى استانبول أنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص64-67 وأيضا: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص27.

إلى مساندة الدولة العثمانية، حينما رأينا تخاذل السلطان الحفصي عن إمدادهما بالبارود في أثناء محاولة هم لتحرير بجاية؛ وهكذا فأنهما انتهزا أول فرصة أتيحت لهما لكي يقوما بإرسال وفد إلى إستانبول مع شخصية هامة ومعروفة لدى السلطان، ألا هي بيري رئيس ابن أخت كمال رئيس، الذي كان السلطان بايزيد الثاني قد كلفه بالإغارة على سواحل إسبانيا حينما استغاث به مسلمو الأندلس غرناطة، لقد كان الإخوان بربروس يريدان أن يقولا من خلال الوفد الذي يرأسه بيري رئيس بأنهما يكملان مهمة كمال رئيس، رغم أن ظروف المسلمين أكثر خطورة مما كانت عليه حينما كانوا وراء أسوار غرناطة [1].

وهذا ما تجسد عندما بعث عرّوج إلى السلطان سليم بواسطة بيري رئيس الذي غادر تونس في06سفن محملة بالهدايا، فوفد الوصل إلى استانبول حيث استقبل بحفاوة بالغة، وسلم للسلطان الهدايا والرسالة التي بعثها إليه الأخويين بربروس، فسر السلطان العثماني سليم بذلك سروراً عظيماً، وكافأهما على هذه الالتفاتة الكريمة بسفينتين مشحونتين بالسلاح والعتاد[2] كما أهدى لكم من عرّوج وخير الدين رئيس سيفا مُحلى بالماس، وخلعة سلطانية مرفقة بخطين هاميونين أحدهما إلى الأخوين بربروس، والثاني إلى سلطان تونس لم تذكر المصادر التي رجعنا إليها ما ورد في الخط الهمايوني الذي أرسله السلطان إلى الأخوين بربروس، أشار في مذكراته إلى ملخص ما جاء الخط الهمايوني الموجه إلى سلطان تونس الذي قرأه عليهما بحضور أشراف تونس وعلمائها جاء فيه: "إلى أمير تونس، إذا وصلك كتابي هذا عليك ن تَعمل به، وأحذر أن تُخالفه، وإياك أن تُقصر في تقديم أي عون لخادمينا عرّوج وخير الدين" [3]؛ نفهم من هذا أن الأخويين أصبحى تحت حماية الدولة العثمانية ومن أكبر أعوانها؛ فعلق خير الدين بربروس في مذكراته على فعل السلطان الحفصي حينما رأى احتفاء السلطان العثماني به وبأخيه بقوله :"منذ هذه اللحظة تغير موقف السلطان منا، وبدأ يبدي لنا خلاف لما كان يجيد في نفسه من الحسد لقد أدرك أننا لم نعد قراصنة بائسين مجردين من أي حماية، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم وهكذا شرع سلطان تونس منذ ذلك الحين في التحفظ منا والابتعاد عنا خوفاً من تأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان"[4]، فكان رد فعل أبو عبد الله الحفصي عدائياً، وهذا مايصفه لنا خير الدين بقوله:" فقد رأى سلطان تونس ما لقيناه من حفاوة السلطان سليم خان، فأدرك بأن السلطان سليم خان بالرغم من أنه قد حرم أكبر السلاطين في الثناء والتقدير إلا أنه خصنا برعايته وإكرامه فتغيرت معاملته لنا وقال لي: "إن طريقك و طريق أخيك عرّوج سينتهي إلى القيادة العامة للبحرية الدولة العثمانية فهنيئا لكم بذلك"[5].

(1) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص ص43-45.
(2) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص24-25 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص65.
(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص67 وأنظر أبضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص24-25.
(4) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص49 وأيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 194و: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص68.
(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص69 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 27.

لقد كان لهذا الاتصال أهميتان كبيرتان على مستقبل الوجود العثماني في شمال إفريقيا:

الأولى: أنها أعطت الصبغة الرسمية للعلاقة بين الأخوين بربروس والدولة العثمانية، وذلك من خلال الحماية التي قدمها السلطان العثماني للبحارة الأتراك في شمال إفريقيا بزعامة الأخويين بربروس.

الثانية: تحول العلاقة بين السلطان الحفصي والأخوة بربروس من دور الحليف الناصر إلى الخصم المناوئ حيث بدأ السلطان يجاهر بعداوته للأخوين بربروس بدافع الخوف على العرش[1] كما سيتضح لنا ذلك بشكل أكثر في ثنايا هذه الدراسة.

ومما لا شك فيه أن تجاوب السلطان سليم مع الأخوين بربروس كان يمثل دفعة معنوية كبيرة، تركت آثاراً ايجابية في نفوس عرّوج وخير الدين ومن معهما من البحارة الأتراك فقد شعروا للمرة الأولى أنهم ليسوا وحدهم في مواجهة الإسبان، وأن خُذلان سلطان تونس لن يعود في النهاية بالضرر عليهما، بل سيوجد المبرر لإتباع سياسة حازمة ضده عندما تتمادى به الأنانية والحسد إلى التحالف مع الإسبان ضد بني دينه وملته، وتسليم بلاده للمُحتل وإعلان تبعيته لهم مقابل البقاء على عرش مُتهالك وهذا مايشهد به خير الدين بربروس بقوله:" عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، وعلى رأسهم وفد الجزائر، فأستجبنا لهم فغادر أخي عرّوج رئيس في طريقه لفتح الجزائر، وغادرت أنا جيجل متجها إلى تونس، التي كان سلطانها قد جاهرا بعداوته لنا، غير أنه عندما رآني مقبلاً في عشر مراكب بحرية، خشي على نفسه وسلطانه فتظاهر بثنائه علينا معتذراً عن تقصيرنا في حقنا، فقلت: ما منعك من تزويدنا بالبارود؟[2] قائلاً: لم يكن لدينا علم بحاجتكم إلى البارود، ولم يخبرني مساعدي بذلك، وقد أمرت بضرب عنقه لأجل ذلك" بل تظاهرت بأني قد انخدعت لقوله فتجولت مع السلطان على ظهر فرسين، في مدينة تونس، ثم عدنا إلى المرسى"[3] وفي هذه الأثناء لم تكن انتصارات العثمانيين في أوروبا وآسيا غائبة عنه، كما أن محاصرة الأتراك لبجاية مرتين وتحريرهم لقلعة بجاية كانت قد بلغتهم ولأجل ذلك كانوا يتطلعون إلى اليوم الذي يتمكن فيه الإخوة بربروس من إنقاذ مدينتهم[4].

أ. علاقة الإخوة بربروس بالدولة العثمانية:

كان أول اتصال فعلي بين الإخوة بربروس بالدولة العثمانية في سنة 1516م، وذلك عندما بعث عرّوج إلى السلطان سليم ذلك الوفد مع بيري رئيس المشار إليه سابقاً، وتعتبر هذه الاتصالات أول علاقة رسمية بين الأخوين بربروس والدولة العثمانية[5] ففي الوقت التي كانت فيه بعثة بيري رئيس تقابل السلطان سليم، خرج الأخوين في أسطول مكون من16 قطعة بحرية، فاستولوا بمن معهم من البحارة على عدد من السفن الإسبانية

(1) –نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، ط2، السعودية،1994م، صص184-185.

(2) –سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص53 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص173 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 84.

(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص 74 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 29.

(4) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، صص901-902 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص287.

(5) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص ص27-29 وأيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص59.

وأنقذوا عدداً من مسلمي الأندلس [1] يؤيد هذا الاستنتاج ما جاء في كتاب الغزوات: أن هذه الهدايا وصلت إلى عرّوج حينما كان في تونس، مما كان سببا في تخوف السلطان الحفصي وبداية تحول المساندة الحفصية للأخوين بربروس إلى عداوة مكبوتة قبل أن يجاهر بها السلطان بعد مغادرتهما تونس واستقرار هما بالجزائر بشكل نهائي[2].

ب . مدينة الجزائر:

II-6المحاولة الأولى لتحرير قلعة البنيون1515م ومحاولة طرد الإسبان منها :

من المرجح أن عرّوج وأخاه خير الدين كانا يفكران في تحرير مدينة الجزائر، وذلك بالنظر إلى طبيعة مشروعهما الرامي إلى طرد الإسبان من الشمال الإفريقي كله، وإنقاذ مسلمي الأندلس[3] ومما لاشك فيه أن عرّوج كان يعلم أن الإسبان بإمكانهم احتلال المدينة متى شاءوا دون مشقة أو عناء خصوصاً وأنها تقع على مرمى مدفعيتهم المثبتة فوق أسوار قلعة البنيون المقابلة لمدينة الجزائر كما كان يعلم أيضا بأن سقوط هذه المدينة بالكامل في يد الإسبان سوف يمكنهم من مركز استراتيجي خطير يجعلهم إلى جانب مراكزهم بجاية ووهران والمرسى الكبير أكثر قدرة على قمع المقاومة الإسلامية الناشئة ومن ناحية ثانية فإن استيلاء الأتراك على الجزائر، وهي ذات موقع بحري هام يتوسط بجاية ووهران سوف يسهل عليهم مهمة كسر الشوكة الإسبانية وذلك بالفصل بين قاعدتيها الشرقية المتمركزة في بجاية، والغربية المتمركزة في وهران [4].

وهكذا؛ فما بلغ أهالي مدينة الجزائر نبأ موت الملك الإسباني فرديناند الكاثوليكي سنة1516م حتى انتهزوا فرصة انشغال إسبانيا بموت ملكها، ونقضوا المعاهدة المفروض عليهم وامتنعوا عن دفع الجزية [5] وأرسلوا إلى عرّوج بجيجل يستدعونه لطرد الإسبان [6] رغم المعارضة الشديدة التي أبداها شيخ مدينة الجزائر وزعيمها سا لم التومي[7]

في هذا الوقت كان البحر الأبيض المتوسط مسرح لانتصارات مدوية أحرزها الإخوة بربروس[8] فابتداء من عام 1512م بدأ نجم الإخوة[9] يخترق الأفاق؛ خرج عرّوج رئيس على رأس قوة حربية برية بعضها من الأتراك وأغلبها

---

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص80-82 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص204.

(2) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، صص184-185 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص46.

(3) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص51 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص287.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص206 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص48.

(5) -وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا بالجزائر(1816م-1824م)، ترجمة إسماعيل العربي، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1982م، ص40 وأنظر أيضاً: الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410.

(6) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص173 وأيضاً: وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريف عبد القادر زبادية، الجزائر، 1980م، ص51 وأيضاً: يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص13.

(7) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 27 وأنظر أيضاً: الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410، وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص28 وأيضاً: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، المرجع السابق، ص62 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص172 وأيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص327 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص66 وأيضاً: العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص33-35 وأيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص50.

(8) -كوريين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر(1510م-1541م)، ترجمة جمال حمادة، (د، م، ج)، الجزائر،2007م، ص26.

(9) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالیك أوروبا، المرجع السابق، ص11وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p 64.

من سكان القبائل، وأرسل قوة أخرى بحرية [1] والتقيا معاً في مدينة الجزائر فدخل عرّوج مدينة الجزائر حيث استقبله الأمراء والأعيان والعلماء والأهالي على مشارف المدينة مرحبين به ترحيباً حاراً [2] بعد أن ترك أخاه خير الدين نائباً عنه [3] وهذا ما ذكره المؤرخ التونسي السرّاج"..وهم الذين ملك الجزائر للقائد عرّوج التركي وكان بها برج للنصارى ضيق عليهم" [4]؛ وشرعا في الحال في قذف الحصن الإسباني بالمدافع[5] واثناء هذا اجتمع زعماؤها وأصحاب الرأي وعلمائها في مدينة الجزائر وبايعوا عرّوج أميراً للجهاد فقرئت الخطبة باسمه بعد السلطان سليم الأول، باعتباره خليفة للمسلمين[6]؛ وتمثل أول انتصار كبير لبابا عرّوج هذا بتحرير مدينة الجزائر من الحكم الإسباني في عام 1516م واستيلائه على السلطة بعد أن قتل حاكمها الشيخ سالم التومي المتحالف مع الإسبان[7] ثم لم يمض وقت طويل على فتح مدينة الجزائر حتى أتبعها بفتح شرشال بافتكاكها من مغامر تركي آخر [8] وبهذا تمكن الأتراك من الفرض سيطرتهم على ثلاث مدن جزائرية هي: جيجل، مدينة الجزائر، شرشال [9]وفي هذه السنة لحق به أخوه الأكبر إسحاق رئيس قادماً من جزيرة ميديلي، فقوى ساعده به [10] بعث السلطان سليم إلى الأخوين عرّوج وخير الدين بربروس بسفينتين حربيتين وأسلحة نارية ومعدات حربية، كما أذن لهما بأن يجمعا ما يحتاجون إليه من الشباب المتطوعين من الأناضول [11] وكان ذلك أبرز أحداث الجزائر1516م.

ثم كلف أخاه خير الدين بإدارة القسم الشرقي من الجزائر بينما تولى هو القسم الغربي منها[12]وأقام عرّوج رئيس حُكمه على الساحل الموجه لجزيرة رباط الخيل التي فشل في استعادتها، وساعده هذا النجاح على تأسيس حكومة عسكرية [13] تحت قيادته انضم إليها عدد كبير من القبائل وسكان المدن واتخذ مدينة دلس مقراً لإقامته وعاصمة للشرق [14].

(1) -يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص13 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص49.
(2) -حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص82 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص174.
(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص74 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص62.
(4) -محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص203.
(5) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، 77 وأنظر أيضاً: De Grammont, H, op ,cit ,P24.
(6) -محمد درّاج، الدخول العثماني، المرجع السابق، ص160 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص50.
(7) -أحمد إسماعيل الياغي، المرجع السابق، ص ص50 -51 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p 64.
(8) -محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص231 وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص94.
(9) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص160 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص288.
(10) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص31 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص66.
(11) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص52.
(12) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص31 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، صص185-186.
(13) -صلاح العقاد، المرجع السابق، ص18 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p 65.
(14) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص907 وأنظر أيضاً: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 161.

II-7القضاء على تمرد الشيخ التومي:

هذا الشيخ بَايعه أعيان مدينة الجزائر وعُلماؤها سلطانا عليهم[1] ولكنه عارضهم حين ماقرروا الاستعانة بالإخوة بربروس لتحرير المدينة من تسلط الإسبان، لكنه اضطر إلى القبول تحت ضغط وإصرار الأعيان وهو ما أثار هذا الأمر حقد سالم التومي وأتباعه الذين كانوا يتحفظون بالسلطة في مدينة الجزائر فبادروا بالتأمر ضد عروج ولكن فطن للمؤامرة فقضى على سالم التومي وقتله[2] في منزله وقيل في الحمام[3] وقيل أن عرّوج أمر بإعدامه بعد استفتاء علماء الجزائر في ذلك[4] ولذلك ليس غريبا أن يقود هذا الزعيم أول حركة تمرد ضد الوجود العثماني في الجزائر، فهم في نظره بقدر ماكانوا سبباً في طرد الإسبان كانوا في الوقت ذاته سبباً في فقدانه لرئاسة مدينة الجزائر، ويؤشكون أن يفرضون سلطانهم على سائر البلاد، وهكذا رأى فيهم كارثــة حلت بسلطانه المفقود[5] والأتراك يرونه أن له دوراً فعالاً في إثارة الأهالي على الأتراك وتواطئه مع الإسبان [6].

وتابع عروج رئيس توسعه فاستولى بالتتابع على مدن مليانة والمدية وتنس[7] ولخير الدين بربروس قــولاً في هذا: "إذا أخذنا قسما من البلاد لإرادتنا، فشعر الإسبان المتحصنون بالقلاع الساحلية، بقلق شديد لذلك فأعدوا 40 قطعة بحرية ثم قدم إلى تونس، فرسوا بقلعة حلق الوادي، إلى أنهم لم يجد أحداً غيرنا، وعندما أدرك أنهم عاجزون عن مهاجمتنا انصرفوا عنا" وتوجهوا إلى مرسى الجزائر كانت غايتهم إفتكاك أكبر ميناء في الجزائر[8].

---

(1) –الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص70.

(2) – تذكر بعض المصادر أن عرّوج قتل سالم التومي بيده لقاء خيانته التي وجهها أحد عملاء الإسبانيين من شيوخ العشائر إلى الكاردينال خمينسي وفيها" الحمد لله إلى مدير المملكة القشتالية وكبيرها وخليفة سلطانها الكاردينال بعد سلامنا عليكم، نعرفكم أن ابن سلطان تنس وهو ابنكم ومتعلق بكم ومحسوب عليكم، وكذلك ابن التومي صاحبكم في الجزائر، أنذبح عليكم وعلى خدمتكم وغفلتم عليه، وعلى السلطان في تنس، وعلى جمع على عاملكم حاشتكم من هذا فإن كنتم تعلمون قمتكم بغزو الجزائر قبل ما تجيئ عمارة (الأسطيل)التركي فيستولي على هذا البركة ونحن عرفناك، ولو يكون هذا الخبر عندكم وأيضا ابن السلطان تنس كان عنده خاله الشيخ المنتصر ينغر عليه (أي يدافع عليه)واليوم مات ومابقلوا أحد إلا الله وأنتم إذا ما عزمتهم إليه بنفس ويفسد عليكم الحال كثيرا في هذا البر، والقائد عارف بكل شيء وهو يكون عرفك بكل مقصد، وكتب أهم من مدينة لمستغانم يصل إلي يد الفاضل الشهير قرض نال (الكاردينال) عن أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، صص175-176.

(3) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوربا، المرجع السابق، ص14وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص90.

(4) –عن ثورة الشيخ سالم التومي وإعدامه للمزيد أنظر: الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص66 وأيضا: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص44 وأيضا: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص 51-52 وأيضا: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، صص174-175، وأنظر أيضاً: عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، ص62 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص39-40.

(5) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص210 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، صص53-54.

(6) –الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410، وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، صص43-44 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص 66.

(7) –عمار حمداني، المرجع السابق، ص88 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص72.

(8) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص76 وأنظر أيضاً: محمد درّاج الدخول، المرجع السابق، ص 77.

ولما بسط الأخوين بربروس نفوذهما على مدينة الجزائر في سنة 1516م [1]؛ وعملا على توسيعه غرباً إلى تنس وتلمسان [2] وشرقاً إلى جيجل فانزعج السلطان أبو عبد الله الحفصي مثلما انزعج الإسبان لتزايد نفوذهما في الجزائر، لكن الإسبان هم الذين بادروا إلى توجيه حملة إلى مدينة الجزائر في سنة 1516م، لإخراج عرّوج رئيس ورفاقه منها لكنها باءت بالفشل [3].

II- 8التصدي للحملات الاسبانية الأولى والثانية على الجزائر سنة 1516م :

كان الوجود التركي العثماني في مدينة الجزائر، ومبايعة عرّوج أميراً للجهاد، وسلطاناً على الجزائر قد أزعج الإسبان غاية الإزعاج، وجعلهم يشعرون بأن مخططاتهم الرامية إلى احتلال سواحل الجزائر وشمال إفريقيا قد أصبح في مهب الريح كما أن حلفائهم من الزعماء المحليين المنتفعين من أجواء الفوضى التي كانت تسود الجزائر قبل مجيء الأتراك شعوراً هم أيضا بأن أيامهم معدودة إذا ما تمكن الأتراك من مقاليد الأمور في الجزائر[4] وهكذا التقت مصالح الإسبان مع مصالح هؤلاء الزعماء "تحت شعار عـدو عدوك صديقك" فقرروا توجيه ضربة حاسمة الخطر التركي العثماني من جذوره، قبل أن يستفحل أمرهم حسب رأيهم[5].

وعليه فإنه ما كاد عرّوج ينهي فتنة سالم التومي حتى سارع يحي بن سالم التومي إلى الإسبان بوهران طالباً محرضاً لهم على التدخل لطرد الأتراك والانتقام لأبيه منهم[6] لم يتأخر الإسبان في الاستجابة لهذا التحريض فشرعوا من فورهم في الاستعداد لغزو الجزائر، بعد اتفاقهم مع أمير تنس، والتحالف مع قبيلة الثعالبة في متيجة، يساندهم في ذلك الإسبان المتحصنون في قلعة البنيون، كما وجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه يد العون، وعندما تمت الاستعدادات، توجهت الحملة الإسبانية إلى الجزائر لمحاصرتها، والتخلص من الأتراك[7] العثّامنة؛ كان مصير هذه الحملة الفشل الذريع ولم يمض وقت طويل على فشل الحملة الإسبانية الأولى لاستعادة الجزائر، حتى عاود الإسبان إرسال حملة إسبانية أخرى؛ كان مصير هذه الحملة أيضا الفشل الذريع [8].

---

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص26 وأيضاً: De Grammont, H, op ,cit ,P24.

(2) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص29-32 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص56.

(3) – Haedo Diego, op ,cit ,p 67.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص213 وأنظر وأيضاً: عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، ص78.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص63 وأنظر وأيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص214.

(6) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص176 وأنظر أيضاً: عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، ص62 وأنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص40وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص70.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص214 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص74.

(8) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص29-30 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص29 وأيضاً: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص23 وأنظر: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص55وأنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة... ، المرجع السابق، ص181.

وفي سنة 1517م تصدى عرّوج بمن معه من الأتراك والأندلسيين والأهالي لأول حملة إسبانية لإخراج الأتراك من الجزائر، فمُني الإسبان بهزيمة فادحة أجبروا بسببها على الانسحاب مخلفين وراءهم خسائر فادحة [1].

ولما كان موقف أمير تنس الزياني مُخزيا لتعاونه مع الإسبان فقد قرر عرّوج الانتقام منه، وإخضاع مدينته فذهب إليها على رأس قوات كبيرة وأفتتحها في جانفي 1517م، وأفتكها منه وطرد الإسبان، ثم قسم مملكته الجديدة إلى قسم شرقي مركزه دلس وأشرف عليه خير الدين وقسم غربي ومركزه الجزائر وأشرف عليه هو [2].

بعد أن بسط نفوذه على وسط وشرق الجزائر، وامتداد نفوذه إلى تونس، قرر عرّوج أن يتوجه إلى غرب الجزائر، وذلك بعد أن استنجد به السكان لتخليصهم من الحاكم المتعسف أبو حمود الثالث المتحالف مع الإسبان، خاصة بعد اعترافه باحتلال الإسبان لوهران، إلى ظهوره بمظهر الخائن أمام شعبه، فأدى ذلك إلى انفضاض الناس عنه، وراحوا يبحثون عن قيادة جديدة [3] فانتهزوا فرصة التنافس على الحكم بين أفراد البيت الزياني، إذ كان ينازعه أبو حمو الثالث، وابن أخيه أبو الزيان المسعود، فاتجه الأول إلى الإسبان مستنجداً بهم ليساعدوه في الوصول إلى الحكم، بينما التجأ أبو زيان إلى عرّوج طالباً نجدته وإنقاذ البلاد من التدخل الإسباني[4] فلبى عرّوج نداء الاستغاثة[5]؛ فسار بقواته إلى تلمسان حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بالسلطان الزياني الذي كان قد عقد معاهدة تبعية مع الإسبان، فدخل تلمسان واستفتى العلماء في أمر الملك الزياني المتعاون مع الإسبان فأفتوه بوجوب إعدامه فأعدمه[6] وبذلك تمكن من فتح تلمسان وعزل أسرة عبد الواد؛ وبعد هذه الأحداث المتتالية تمكن عرّوج رئيس من الاستيلاء على جميع المواقع الإسبانية التي كانوا يحتلونها في شرق وغرب الجزائر ماعدا وهران وبجاية[7].

II-9محاولة الاستيلاء على تلمسان واستشهاد عرّوج 1518م :

أثارت انتصارات بابا عرّوج قلقاً جدياً وفزعاً كبيراً في إسبانيا، وكان القائد الإسباني الأكبر في إفريقيا مقيما في قلعة وهران التي كانت أكبر ميناء في غرب الجزائر، كما أنه يقع في مقابل إسبانيا، إضافة إلى أنها كانت بها قلعة حصينة يحميها آلاف الجنود، وقد كانت تلمسان أكبر بلد في الجزائر، وفتحها في غاية الصعوبة، وكان

(1) -للمزيد، انظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص29-30 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص55 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص29 وأنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص40-41.

(2) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في ملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص49.

(3) -يحي جلال، المغرب العربي الحديث والمعاصر، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية، مصر، (ب، د)، ص16.

(4) -شوقي عطا الله، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، لمرجع السابق، ص ص47-51.

(5) -محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي (د، غ، إ)، بيروت، لبنان،1986م، ص676 وأنظر أيضاً: العربي الزبيري المرجع السابق، ص ص33-35، وأيضاً: محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزائر، (م، و، ك)،1984م، ص229 وأنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص161، وأيضاً: نيقولا ايفانوف، المرجع السابق، ص103.

(6) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص ص47-51.

(7) -محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص239 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص58.

معلوماً أنه إذا لم تفتح تلمسان فإن دولة الجزائر لن تعرف الاستقرار[1]، فقد كان عـرّوج رئيس يدرك أن تلمسان هي مصدر جميع الفتن وهذا مايوضحه لنا خير الدين بقوله: "وكان سلطان تلمسان آخر ملك في أسرة حكمت المدينة منذ مئات السنين، بل استطاعت في بعض الفترات أن تبسط نفـوذها على كل الجزائر، لهذه الاعتبـارات لم يكن أخي يرغب في حرمان هذه الأسرة من سلطانها وتاجها، بل كان يريد أن تتخلى عن تحالفها مع الإسبان وأن ترضى بخضوعها لسلطتنا العليا، فإن لم تقبل بهذين الشرطين فإننا سنكون مضطرين لإزالتها من الوجود [2].

لهذا الأمر لبي عرّوج النداء واتجه إلى تلمسان تاركا أخاه خير الدين على مدينة الجزائر [3] ومر على قلعة بني راشد قرب معسكر فوضع بها حامية تركية تحت قيادة أخيه إسحاق لتحمي ظهره [4] وأستطاع بسهولة أن يتغلب على أبو حمو الثالث المتآمر وحشوده ودخل إلى المدينة وأخرج أبا زيان وأجلسه على العرش من جديد ولكن سرعان ما تآمر عليه هذا الأخير فقبض عليه عرّوج وقتله؛ ومن ناحية أخرى كتب السلطان الزياني أبو حمو إلى القائد الكافر في وهـران خطابا يستحثه فيه أن يمده بما يحتـاج إليه من جـنود وعتاد قائلا له: "لقد وقعـت في أيدي القراصنة الأتراك ولم أتمكن من استخلاص أموالي من أيديهم، فأين شوكة وعظمة ملككم؟ هل يعقل أنكم صرتم لا تستطيعون أن تخرجوا رؤوسكم خوفاً من حفنة من القراصنة؟"[5].

حاول عرّوج في سياسته أن يوفق بين رغبته في توحيد البلاد تحت سلطة مركزية قوية في الجزائر، وبين بقاء الحكم الزياني في تلمسان، لكن كانت رغبته في ذلك بمثابة الجمع بين هدفين متناقضين، فلم يستقر الوضع في تلمسان سوى فترة قصيرة من الزمن [6] على إمكانية وكيفية التعاون معهم لمواجهة الاحتلال الإسباني، فأعلنوا ترددهم في الوقت الذي كان فيه عرّوج في غاية الضيق والحرج [7]؛ أما أبو حمو الثالث فقد تحالف مع الإسبان بوهران[8] ومن جهة ثانية فإن القائد الإسباني كان له عدد كبير من الجنود إلا أنه طلب المدد من إسبانيا[9] وخشيت حكومة إسبانيا من أن يقوم عرّوج بالهجوم على وهران والمرسى الكبير، فأرسلت حملة قوية بلغت 15000

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص86 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، صص290-291.

(2) –مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص 85-89.

(3) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص105 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص59.

(4) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوروبا، المرجع السابق ص13.

(5) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص88 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص89.

(6) -محمد دراج، المرجع السابق، ص220وهكذا، استغل مثيرو الشغب خروج عرّوج لإخضاع القبائل المتمردة في الغرب الجزائري، وانشغاله بالتفاوض مع الوطاسيين ((الوطاسيون: فرع من بني مرين الذين ينتمون إلى قبيلة زناته البربرية، تأسست عام 1471م، خلفوا المرينيين على فأس لم تختلف سياستهم عن سياسة أسلافهم المرينيين في السعي إلى بسط النفوذ على حساب مملكة بني زيان، والعمل على إضعافها، قضى عليها باي لارباي الجزائر صالح رئيس سنة 1554م، للمزيد أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، المرجع السابق، صص96-97.

(7) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص36 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، المرجع السابق، صص26-27، وأيضا: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص327-328 وأنظر: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، صص230-231.

(8) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوروبا، المرجع السابق ص15 وأيضاً: .Haedo Diego, op ,cit ,p 68

(9) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص 86-87 وأنظر أيضاً: .De Grammont, H, op ,cit ,P25

مقاتل حيث شنّ هذا التحالف حملة على قلعة بني راشد واحتلوها، وقتلوا أخوه إسحاق في أواخر جانفي 1518م[1]، وواصلوا السير إلى تلمسان وحاصروها حصاراً شديداً، واستمر الحصار مدة طويلة اختلف في تقديرها، دون أن يستسلم عرّوج ورفقاءه[2]، فأدرك عرّوج حينها استحالة الاستمرار في المقاومة بسبب هذا التطور المفاجئ للأحداث، وفكر في الانسحاب ليلاً وتمكن من خرق الحصار مع عدد من رجاله[3]، إلا أن فرقة من الأعداء لحتهم وبعد مطاردة قصيرة تمكن الإسبان من إدراك البحارة الأتراك المنسحبين مع عرّوج ونشبت بينهما معركة غير متكافئة قرب مقطع الوادي المالح انتهت بمقتل عرّوج وجميع من معه وكان عمره نحو45سنة[4].

بعد مقتل عرّوج ورفاقه قام الإسبان بقطع رأسه، وإرساله إلى إسبانيا حيث طافوا به في مدينة قرطبة والكثير من مدنهم تطميناً لشعوبهم وتشفيا لقلوبهم قبل أن يعلق في كنيستها الكبرى[5]، أما جثمانه فقد حمل إلى مدينة الجزائر ودفن في مسجد سيدي رمضان بجوار قبره[6].

لقد تأثر خير الدين كثيرا لمقتل أخيه عرّوج، فلقد جابا مع بعض البحار، وخاضا معاً المعارك وساهما في إنقاذ المسلمين من بطش الصليبيين إذ يقول:" تلك الغاية التي كانت تتمثل في التضييق على الكفار في إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط، فما قيمة الحياة بعد مقتل أخي؟". وفي مقابل ذلك كان الإسبان يقولون:" الشكر لعيسى فقد استرحنا من البلاء الأكبر، والآن يجب أن نتخلص بسرعة من البلاء الأصغر، قبل أن يتحول الثعبان إلى تنين"[7] وأعاد الإسبان أبو حمو الثالث إلى عرش تلمسان، وعقدوا معه معاهدة تلزمه بالمحافظة على التحالف معهم، وظل ملتزما بذلك طيلة حياته وعندما توفي آل الحكم إلى أخيه عبد الله، فامتنع هذا الأخير عن دفع الإتاوة للإسبان، وذلك ثقة منه في مساندة السلطان العثماني له[8].

وبعد استشهاد عرّوج في ماي 1518م تحرج مركز أخيه خير الدين بالجزائر وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل وفي الخارج[9] ففي الداخل كثر المعارضون ضده، وتخلى عنه ابن القاضي(الابن) الحليف

---

(1) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، المرجع السابق، ص15 وأيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p69.

(2) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص34 وأنظر أيضا: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص31.

(3) –حسين مؤنس، المرجع السابق، ص158 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص34.

(4) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص92 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، صص230-231 وأيضاً: عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني 1551م، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ال عدد3، 1975 م، ص117 وأنظر: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص ص47-51.

(5) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص164 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص61.

(6) –نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص55 وأنظر: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص259 وراجع عن غزوة تلمسان من قبل الإسبان: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص ص59-67، وأيضاً: حسين مؤنس، المرجع السابق، صص161-162؛ أيضاً: سالم الراشدي، محمد الفاتح، ط3، الِشاد، جدة، المملكة السعودية، 1989م، ص440 وأيضاً: علي رضا سيفي، المرجع السابق، ص25.

(7) – بسام العسلي، المرجع السابق، ص107 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 93.

(8) –الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص10 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة... ، المرجع السابق، ص183.

(9) –كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: وليام سبنسر، المرجع السابق، ص34.

القبائلي الذي انسحب إلى جباله، وألتفت حوله قبائل آيت يحي، وآيت بوشايب، وآيت قراوسن، كما تعـاقد مع السلطان أبو عبد الله الحفصي على مد العون له [1]؛ وفي الخارج كانت الأخطار الإسبانية بادية تهدد الشمال الإفريقي كله، بسبب تمركزهم في عدة نقاط من الساحل مثل وهران، بجاية، وبتدخلهم المستمر في الشؤون الداخلية للإمارة الزيانية بتلمسان [2].

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه الى التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء؛ وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذلك المزيد من الجهد؛ خشية أن يهاجمه الإسبان ومُؤيديهم، كما أن ذلك قد أدى إلى اتجاهه إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وخاصة بعد أن آلت لهما الشام ومصر، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر [3].

ولهذه الأسباب قرر خير الدين مغادرة الجزائر، والسفر إلى إستانبول لتكوين أسطول جديد واستئناف الغزو والجهاد في سبيل الله [4] ومن جهة أخرى اتفق الأهالي بعد مقتل بابا عرّوج على إعلان شقيقه خير الدين حاكماً جديداً على الجزائر، وقد لحق به لقب أخيه وعرف باسم خير الدين بربروس [5].

كان موقف خير الدين حرجاً بعد مقتل شقيقه، بِعداء سلطان تونس الحفصي له بالإضافة إلى الإسبان وبقية بني زيان في تلمسان، وأدرك ضعف موقفه السياسي بعد مقتل عرّوج، تحرج مركز أخيه "خير الدين "بالجزائر وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل والخارج، ففي الداخل كثر معارضوه، نذكر تمرد " أحمد بن القاضي(الابن)" في "جبل كوكو"[6] وتمردت "شرشال" و"تنس" وتواطؤ "بنو زيان "مع الإسبان، ودسائس بني حفص وغيرها من الانحلالات الداخلية وهذا ما نفسره الآن، وفي الخارج كانت الأخطار بادية تهدد بابتلاع شمال إفريقيا كله من طرف الإسبان بسبب تمركزهم في عدة نقاط ساحلية أمثال "وهران"، "بجاية" و... [7].

II –10مرحلة حكم خير الدين (1518–1543م) :

مبايعة أهالي مدينة الجزائر وأعيانها خير الدين بربروس سلطان عليهم:

عندما وصل خير الدين خبر استشهاد عرّوج إلى الجزائر، بايع أهالي الجزائر وأعيانها وعلماؤها أخاه خير الدين أميراً عليهم، وفي الوقت الحرج وصلت إلى الجزائر أنباء تمرد الكثير من القبائل، وكذلك خروج كما من تنس وشرشال عن الطاعة، أما في تلمسان، فقد تسلم الأمير الزياني السلطة وامتد نفوذه إلى مليانة، فغدا بذلك على مقربة

---

(1) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، المرجع السابق، ص15 وأنظر أيضاً: كوربين شوفاليه، المرجع السابق، ص36.
(2) –وليام سبنسر، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص82.
(3) –زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ط1، عالم المعرفة، مصر،1411هـ/1991م، ص86.
(4) –بسام العسلي، المرجع السابق، ص108. وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص84.
(5) –سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص71 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص293.
(6) –تبعد ب18كم عن مدينة الأربعاء نايت ييراثن ببلاد القبائل.
(7) –يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص259 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص63.

من الجزائر [1] فأرسل خير الدين قوات لتأديب شرشال وتنس، أما القبائل القوية فقد أخرها إلى وقت آخر ريثما يتمكن من ضبط الأمور الداخلية الناتجة عن استشهاد أخيه [2].

وكان خير الدين رئيس يعلم أن دوره سوف يجيء، وأن الإسبان لن يكتفوا بقتل عرّوج في تلمسان، بل سوف يقومون بهاجمة مدينة الجزائر حيث يتحصن خير الدين ومن معه من الغزاة الأتراك [3] ولذلك فقد أمضى شتاء 1519م في الاستعداد لمواجهة الحملة الإسبانية المرتقبة، فقام بترميم قلعة الجزائر وتصليح وإعداد 40 قطعة بحرية، بالإضافة إلى عدد كبير من المدافع التي تُمكن الأهالي من الدفاع عن المدينة [4].

II– 11 الحملة الإسبانية – الزيانية على الجزائر 1519م :

هذا الوضع شجع الإسبان على مواصلة حملاتهم للقضاء على العثمانيين في الجزائر، ذلك أنهم قاموا بشن حملة عسكرية كبيرة في سنة 1519م، بقيادة دون هوقو دو مونكادو Don Hugo De Moncado وهي تتألف من خمسة آلاف رجل نزل بهم بناحية الحراش 1519/08/17م، واختار الإسبان مراكزهم عند مرتفعات كدية الصابون، وأخذوا في ضرب المدينة بالمدافع[5] وأوعز قائد الحملة إلى سلطان تلمسان بالتحرك بقواته إلى مدينة الجزائر، ولكن الجزائريين بقيادة خير الدين تمكنوا من القضاء على السلطان التلمساني قبل وصول الحملة الإسبانية، وقد أفلح خير الدين في إخراجهم من خنادقهم بهجومه عليهم، وهناك اشتبك الفريقين في معارك انتهت بانتصار خير الدين وأسر فيها 3000 مقاتل وقتل أكثرية الضباط من بينهم رئيس الحملة، ومات منهم400 غرقاً، ونجا منهم آخرون؛ وكان مصيرها الفشل[6] ولما تمكن خير الدين بربروس من صد الخطر الاسباني عزم على السفر من الجزائر لمواصلة جهاده البحري.

II– 12 إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1519م :

إن الوضع السياسي والعسكري دفع خير الدين للبحث عن دولة قوية يعتمد عليها، فوجد ضالته في الدولة العثمانية حينما أدرك خير الدين رئيس حرج موقفه بعد استشهاد أخيه عرّوج، فقد كان مدركاً لمدى الخطر الذي يواجه سواء من الإسباني الذين لن يكتفوا بقتل عرّوج، بل سوف يعاودون احتلال كامل سواحل الجزائر من جديد، كما كان على علم أيضا بمدى هشاشة البناء الذين أقامه بسبب اضطراب وِلاءات الزعماء والأهالي على حد سواء، كما أن اتساع رقعة الصراع مع الإسبان، ومدى القدرة على بسط النفوذ على بلاد واسعة كالجزائر جعله يفكر في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية قبل الشروع في أي خطوة أخرى [7].

(1) –سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص71 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص85.
(2) –كوربين شوفاليه، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: وليام سبنسر، المرجع السابق، ص35.
(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص227 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص65.
(4) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص90 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص183.
(5) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص35–36 وأنظر أيضاً هايدو، المصدر السابق، ص ص35–37.
(6) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول...، المرجع السابق، ص37. وأيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص45.
(7) –شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص328و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص229و: مولود قاسم نايت، المرجع السابق، ص87.

وهكذا فإنه عندما فرغ من تحصين المدينة دعاء علماء الجزائر، وأعيانها إلى اجتماع عام، ذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكنهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكــون قد انتهت، وعليهم أن يختاروا واحداً منهم يجعــلوه أميراً عليهم [1] أما هو فــقد قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر.

ومن جهة أخرى ليتجنب الخوض في الفتن الداخــلية يذكر صاحب الغزوات: "إن خير الدين لما عزم على السفر إلى إقليم الروم لأجل الغزو ومواصلة الجهاد فجمع أهل الجزائر كلهم وأعيانها من العلماء والصالحين والمشايخ وقال لهم: إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وقد أمنت الآن على بلادكم لما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين وقد وصل إليكم من أهل الأنـدلس عدد كثير وعندكم من السلاح والعدة ما تقومون به من أمر الجهاد وعدوكم الكافر قد خيبه الله ورده على عقبه مذموما مدحورا فلا طمع له في غزو بلادكم مرة أخرى، وإني لما قدمت إليكم لم يكن عندكم مدفع واحــد والآن قد تحــصل بأيديكم مما خــلفه العدو أكثر من أربعمائة مدفع فاختاروا واحد منكم يكون من خياركم تقدمونه أميرا عليكم وقد كان استعمل على الناحية الشرقية من أعوانه رجلا أحمد ابن القاضي وعلى النــاحية الغربية رجلا يقال له محمد بن علي، وكانا حــاضرين في هذه المشورة فقال لهم: إن عرض عليكم أمر من أموركم فشاوروا علماءكم وصلحاءكم وهذين الرجلين والله الميسر"[2].

ومن جملة ما خاطبه العلماء أنهم قالوا له: أيها الأمير يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها والدب عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو الكافر، ونخشى ألا يكون لك أجر الجهاد ببلد الروم لأن هناك كثير من يقوم به من غيرك، والمصلحة التامة هي إقامتك بهذه المدينة لأجل حمايتها، فلما أكثروا عليه الكلام، أجابهم خير الدين [3] بقوله: أنا بقيت في بلادكم منفرداً غريباً لاناصر لي ولا معين إلا الله عز وجل.

قد رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان، وما أجلب به علينا من النصارى حتى كفانا الله أمرهم، وردهم على أعقابهم، ورجع إلى بلاده بخيبة وحسرة، وكذلك سلطان تونس لم يمدنا على جهادنا للعدو، ولم يكن له أثر في ذلك إن لم أغتصب هذه المدينة من يد رجل واحد منهما، وإنما استوليت عليها بعنايــة الله تعالى وإعانته وخلصتها من يد العدو الكافر، وكذلك أخي عرّوج رحمه الله؛ وكان من الواجب على هذين الرجلين أن يكونا

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص41 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص10 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص33 وأيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي المرجع السابق، صص 46-47 وأيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1982م، صص113-114.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص229 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، صص 33-34.

(3) -خير الدين، المصدر السابق، ص41وأنظر أيضا: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص10 وللمزيد أيضا أنظر: أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 مترجمة وتحقيق عبد الجليل التميمي نشره في المجلة التاريخية، العدد 06، تونس، جويلية 1976م، ص119وأيضا: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص46-47.

معي يداً واحدة على دفاع عدو الدين وجهاد أعداء الله الكافرين، فقد رأيتم وما وقع منها وما قابلاني به، ولهذه الأسباب قد عزم على المغادرة ليستأنف الغزو والجهاد ضد القراصنة في البحار حتى يبني قوته[1]، لكن عقلاء مدينة الجزائر وكبرائها رفضوا رحيله وألحوا عليه بأن يبقى، يكمل صاحب غزوات عرّوج وخير الدين سرده للأحداث بقوله: "قالوا أيها الأمير، لاتطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك، فان الله تعالى قد نصرنا بك على العدو وحصل في قلوبهم الرعب منك وطارت أخبار جهادك في بلادهم، فأنت بيننا وبينهم سداً، لايخلصون إلينا مادمت في هذه البلاد" [2]، فرد مخاطبا لهم قد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى ونصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم الأول نصره الله، فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما يحتاج من آلات الجهاد، ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه"؛ أي عرض عليهم إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية وإدخالها ضمن أملاكها حتى تكتسب نوعا من الحماية الدولية[3]، ويجيد هو الحكمة والسيطرة على العباد[4] ؛ وهذه الفكرة إنما تدل على دهاء خير الدين بربروس وبُعد نظره، حيث أدرك أنه على تصاعد الخطر الإسباني فإن الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة القادرة على دعمه.

فرضي أهل مدينة الجزائر وصوبوا رأيه في ذلك، بعد ماأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتاباً إلى حضرة السلطان العثماني؛ يُخبرونه بصرف طاعتهم إليه، وأنهم من جملة من تنفذ فيهم أحكامه ويقع فيهم نقضه؛ ويكتب هو أيضا مثل هذا الكتاب؛ وفعلاً كتبوا كتاباً [5] كما أمرهم[6] وكتب هو كتابا آخر لهذا؛ وأشارت جل المصادر

---

(1) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، صص259 -260 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 65.

(2) -محمد عبد الرحمن الجيلالي المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص34.

(3) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 260 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص86.

(4) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص16 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص183.

(5) -عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص ص116-120.

(6) -سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول: قام الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية بإستانبول -طوب قابي سيراي-تحت رقم 4656، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر مؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام 925هـ في الفترة من 26/أكتوبر إلى 3/نوفمبر عام 1519م، وكتبت بأمر من خير الدين إلى السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام إلى إستانبول وكان الغرض منها ربط الجزائر بالدولة العثمانية. وجاء فيها أن خير الدين كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً إبعاد قضية الجزائر. ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا. وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذي يتزعم السفارة "الفقيه العالم أبو العباس احمد بن قاضي" وكان من أكبر علماء الجزائر، كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب، ولقد أشاد الوفد بجهاد بابا عرّوج في مدافعة الكفار وكيف كان ناصراً للدين وحامياً للمسلمين وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً في حصار الاسبان لمدينة تلمسان وكيف خلفه أخوه "المجاهد في سبيل الله أبو التُقى خير الدين، وكان له خير خلف فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف وإتباع الشرع النبوي الشريف ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها، على أن محبتنا له خالصة نحن وأميرنا وأهالي إقليم الغرب والشرق خدام أعتابكم العالية، وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام للمزيد أكثر أنظر: مذكرات خير الدين، المصدر السابق، ص48 وأيضا: محمد درّاج، المرجع السابق، ص31 وأنظر: عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص ص116-120.

التي تحدثت عن الوفد الذي أرسله أهالي الجزائر، أنه كان برئاسة حاجي حسين، إلا أنه بالنظر إلى متن الرسالة المرسلة إلى السلطان سليم الأول يتضح أن الرئيس الوفد كان الفقيه العالم المدرس أبا العباس أحمد علي بن أحمد ابن القاضي [1].

إلا أن الجدير بالإشارة هو أن خير الدين قد أرفق حاجي حسين مع وفد مدينة الجزائر، لكي يكون ممثلاً عنه ورسوله الخاص، الذي حمل رسالة خير الدين إلى السلطان سليم الأول سنة 1518م [2] الذي كان موجوداً بمصر [3] وعليه فإن وفد مدينة الجزائر، كانت فيه شخصيتان هامتان، الأولى هي: الشيخ ابن القاضي ممثلاً عن أهالي مدينة الجزائر، والثانية: حاجي حسين ممثلاً عن خير الدين، ومتحدثا باسمه [4].

وعين أربعة أجفان برسم السفر إلى حضرة السلطان، ووجه صحبته هدية عظيمة من جملتها أربعة رؤساء من رؤساء النصارى؛ ومجموعة من السفن الحربية تتكون من 04 سفن وجعل على رأسها الشيخ الفقيه أحمد ابن القاضي [5] محملة بها الهدايا الثمينة، فوصلت الأجفان إلى حضرة السلطان سليم.

عندما وصلت السفارة إلى إستانبول في1518م[6]، استقبلهم السلطان واحتفى بهم[7]، وطلبت من السلطان سليم بسط حمايته على الجزائر، فقبلها السلطان سليم وأمر بإنزالهم وإجراء النفقة عليهم، ثم إنهم لما أرادوا الرجوع وجه صحبتهم سنجقا[8] وكتابا إلى أهل الجزائر بقبول ما كتبوا إليه، وأنهم ممن يشملهم عنايته

---

(1) –كان الشيخ أحمد ابن القاضي أحد علماء الدين، تولى القضاء في بجاية الحفصيين فترة من الزمن قبل أن يقوم الإسبان باحتلالها، ثم انتقلت إليه زعامة القبائل البربرية ببلاد زواوة سنة1511م، كما كان أحد الزعماء المحليين الذين دعوا الأخوين بربروس للتدخل لتحرير بجاية من الاحتلال الإسباني وأشترك معه في حصارها ؛إن الموقف المساند للأتراك من الطبيعي أن يجعله مقربا من خير الدين وأن يكون من أوثق الناس به، ولأجل مكانته عند خير الدين اختير ليكون عل رأس الوفد الذي أرسله أعيان مدينة الجزائر لمقابلة السلطان العثماني في إستانبول، عارضين عليه حماية بلدهم وإلحاقها بالدولة العثمانية. للمزيد أكثر أنظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 44 وأيضا: محمد درّاج، المرجع السابق، ص36.

(2) –كان السلطان سليم الأول مقيما أنداك في القاهرة لتنظيم البلاد بعد إسقاط دولة المماليك للمزيد أنظر: محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، مصر،1984م، ص123 وأيضاً: قاسم عبده قاسم، واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، دار عين الدراسات، القاهرة، مصر، 2015م، ص84.

(3) –كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص38 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص44.

(4) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 07: حول وثيقة طلب أهل مدينة الجزائر الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية (1519م).

(5) –ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص10 وأنظر أيضا: عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص 121 وأيضاً: محمد العروي تاريخ المغرب الكبير، محاولة في التركيب، ترجمة دوفال قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1977م، ص 41 وأيضاً: يلماز أوزنتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (ت–ع) عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح ومحمود الأنصاري، ج 1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، تركيا، 1988م، ص245 وأيضاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، بيروت، لبنان،2002م، ص69 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، صص196-199 وأيضا: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص ص143-145 وأنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص46-47 وأيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في ملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص ص305-308.

(6) –محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص30.

(7) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص 911 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 198.

(8) –للمزيد من التفاصيل أنظر: عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر ...، المرجع السابق، ص ص116-120.

وتحرسهم رعايته[1]، ودعم هذا القبول بقرارات تنفيذية من طرف خليفة المسلمين السلطان العثماني سليم الأول فأرسل لهم 2000 جندي مسلحين بالبنادق؛ وعدد من رجال سلاح المدفعية (طوبجولر)، و400من الانكشارية [2] وعدد من المتطوعين، وجاء معهم كثير من المهاجرين الأتراك [3]، كما أعطى السلطان للـجنود الذين يذهبون إلى الجـزائر نفس امتيازات الانـكشارية تـشجيعاً لهم على التطوع للجهاد فيها.

ولم يكتف السلطان العثماني بهذا، بل وجه رسائل إلى حكام "تونس الحفصية " و"تلمسان الزيانية" يُحذرهم من الاعتداء على حدود أيالة الجزائر[4]، ولهذا تكون الجزائر قد دخلت تحت الراية العثمانية وأصبحت ضمن ولايتها، وأكسبها ذلك الوضع نوعاً من الحماية وأبعد عنها الكثير من الأطماع خاصة الإسبانية منها[5].

يؤيد هذا الطرح الدعم العسكري المحدود الذي أرسل بعد بعثة حاجي بشير ،كان دعما رمزياً إذا نظرنا إلى عدد المعدات والجنود الذين تم إرسالهم، وحتى إرسال الخلعة والسيف المرصع اللذين أهديا إلى عرّوج رئيس قبلها، لم يكونا يحملان ما يدل على أن الجزائر، صارت أيالة عثمانية، بقدر ما يمكن أن يفهم منهما أنه دعم معنوي ،خاصة وقد جرت عادة السلاطين أن يلبسوا من يرضون عنه من رجالهم الخلعة كعلامة على الرضا والقبول يؤيد هذا الاستنتاج ما جاء في كتاب الغزوات أن هذه الهدايا وصلت إلى عرّوج رئيس حينما كان في تونس مما كان سببا في تخوف السلطان أبو عبد الله الحفصي للأخوين بربروس إلى عداوة مكبوتة قبل أن يجاهر بها سلطان تونس بعد مُغادرتهما تونس واستقرارهما في الجزائر بشكل نهائي[6].

إن الرسالة السابقة تبين للباحث آراء أعيان الجزائر تجاه الدولة العثمانية وكان من تلك الآراء:

- أن خير الدين رئيس يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال إفريقيا، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له في الحكم.
- أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يُكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.
- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر [7].

---

(1) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص42 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص148.

(2) -الإنكشارية: كانت الإنكشارية في الجزائر شبيهة بالإنكشارية العثمانية التي تعني *يني شيري * أي الجيش الجديد وهو جيش نظامي بري. انشاها السلطان العثماني مراد الاول في أواخر القرن الرابع عشر، كانت حكرا على الأطفال المسيحيين الذين كان العثمانيون يستولون عليهم في المقاطعات الأوروبية التي يسيطروا عليها، كانوا يمنحونهم تربية دينية إسلامية إلى أن يصلوا سن البلوغ فيدمجونهم في الجيش البري أو المشاة للمزيد أنظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية(1518م-1924م)، دار غريب، القاهرة، مصر، 1989م، ص375.

(3) -صالح فركوس، تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، 2005م، ص105.

(4) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص198 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في...، المرجع السابق، ص 260.

(5) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في الملتقيات...، المرجع السابق، ص 260 وأنظر أيضاً: مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص89.

(6)-محمد درّاج، المرجع السابق، ص279 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 67.

(7) -محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص911 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، المرجع السابق، ص 63.

استجابة خليفة المسلمين السلطان العثماني سليم الأول لأهل الجزائر:

وسارع السلطان سليم إلى منح رتبة: بكلر بك –باي لارباي[1]، إلى خير الدين بربروس وأصبح أول حاكم عثماني على الجزائر والقائد الأعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلاً للسلطان وبذلك أصبحت الجزائر إحدى ولايات الخلافة العثمانية وتحت حُكمها؛ مما أكسبها ذلك الوضع نوعاً من الشرعية القانونية والحماية الدولية، ودرأ عنها الكثير من الأخطار الأوروبية، أو وضع لها حداً أو قلص منها خاصة الأطماع الإسبان[2] وأصبح أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية؟ بحد ذاتها!

ثم سلم السلطان سليم لسفير خير الدين بربروس سيفا مرصعاً وخلعة مُذهبة وراية الإمارة على الجزائر[3] وقال له:" اسمع أيها الرئيس، سلم هذا السيف لخير الدين باشا ليتقلده بعزة وشرف، وليلبس خلعتي السلطانية ولتكن رايتي دائماً لا تفارقه، دعواتي لكم أن يتولاكم الله بنصره وأن يبيض وجوه جميع خدمي المجاهدين بالجزائر في الدارين، آمين بحرمة سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم)[4].

وفي الحقيقة كان موضوع طلب خير الدين رئيس ومعه أهالي الجزائر إلحاق تَبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير لخليفة المسلمين السلطان العثماني سليم الأول، الذي كان يطمع إلى أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي، كما نقل أحمد جودت باشا عن بعض كتمه سر السلطان قوله"...إن البحر المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد إلى بوغاز سبته، يليق أن تجتمع فيه مدن مختلفة، ثم أنهم لا يكونون تحت الدولة العلية، فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية هو من قصور الهمة المزرى بشأن الدولة، إني آليت على نفسي وعاهدتها إن مد الله في عمري أني أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشئ الأساطيل الكافية لنيل المرغوب، وأستولى على ثغور البحر المتوسط"[5].

---

(1) –باي لارباي: الرئيس الأعلى لكل البايات الذين سوف يتولون في الشمال الإفريقي الجزائر، تونس، طرابلس هو أرفع المناصب السياسية في الدولة العثمانية والذي كان بمثابة نائب السلطان على تلك المناطق لقد كان هذا المنصب يخول السلطان لهم صلاحيات إدارية واسعة جداً، وتجعل منه قائداً عاماً للجيش وممثلا للسلطان في إقليمه. للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، المرجع السابق، ص198 وأيضا أنظر: محمد علي عامر، المرجع السابق، ص47، وأيضاً: نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية(1516–1574م)، ترجمة يوسف عطاء الله، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1988م، ص109 وأنظر: أرجمند كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827–1847م)، تج عبد الجليل التميمي، ط2، مطبعة الشركة التونسية، تونس، 1974م، ص11.

(2) –علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار ابن الجوزي، ط1، القاهرة، مصر،2001م، ص194.

(3) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص41–44 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص 33 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، الدولة العثمانية، المرجع السابق، ج1، ص253 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، صص46–47 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص328–329.

(4) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص96–97.

(5) –أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي، ج1، بيروت، لبنان،1890 م، ص146.

بل تذكر بعض المصادر أن الخليفة السلطان العثماني سليم الأول كان يعتزم السير بنفسه إلى بلاد المغرب، ولكن الأجل لم يمهله [1]، وهكذا أثبت خير الدين بقرار ضم الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية عبقريته السياسية بعدما أثبت عبقريته العسكرية في معاركه التي خاضها ضد الممالك الأوروبية عامة وإسبانيا خاصة، وبهذا القرار الحكيم لم يحظ بتأييد الأهالي فحسب، بل حاز على تأييد السلطان نفسه حيث لم يتردد في تقديم دعمه غير المشروط لخير الدين فور وصول الوفد إلى إستانبول [2]؛ والواقع أن هذا الأخير استهدف ربط مصير قضية الجزائر بالدولة العثمانية [3]، وتضمنت رسالة الخضوع والتبعية للدولة العثمانية [4].

ومنذ ذلك الوقت 1519م بدأ الإنكشاريين يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمال إفريقيا وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم، وأذن السلطان سليم الأول لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر إلى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين ولقد هاجر سكان الأناضول إلى الجزائر شوقاً إلى عمليات الجهاد ضد النصارى[5] ولقد ترتب على القرارات التي أصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

1-دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام 1519م ودعي لخليفة المسلمين السلطان سليم الأول على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.

2-إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.

3-إن إقليم الجزائر كان أول أيالة في شمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط[6] وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان النصارى.

لقد كان زمن السلطان سليم البداية المتواضعة لمد النفوذ العثماني إلى أقاليم شمال إفريقيا من أجل حماية الإسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي [7].

لقد استجاب السلطان العثماني سليم الأول لنـداء الجـهاد من إخوة الدين وشرعـت الدولة العثمانية

(1) –غزوات عروج وخير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 46 وأنظر أيضاً: أحمد جودت باشا، المرجع السابق، ص146.

(2) –حسين مؤنس، المرجع السابق، ص16 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص328-329.

(3) –عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص 17.

(4) - المرجع نفسه، ص19 وأيضاً : Gaid Mouloud, L'Algérie sous les Turcs, Tunis ,1974. pp.41-47

(5) –محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص51 وأيضاً : مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص93.

(6) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص912 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص294.

(7) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص202 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 199.

في إنشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال إفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الأخوين عرّوج وخير الدين بربروس؛ وجعلوا من مدينة الجزائر مركزاً حربي متقدم، وقاعدة عسكرية دائمة [1]، للمنطقة المغاربية.

أ–أسباب انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية:

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: ما الأسباب التي جعلت خير الدين يعجل بطلب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، بالرغم من أن الكثير من أمثاله يجنحون على الاستقلال بما تحت أيديهم من مُلك وسلطان؟ ولماذا أكد ذلك بإرسال وفد لهذا الغرض إلى السلطان العثماني سليم الثاني؟

إن الباحث حينما يدقق النظر في طبيعة الصراع الدائر في هذه الرقعة الملتهبة من العالم الإسلامي، تلوح له عدة أسباب ودوافع أسهمت بشكل أو بآخر في الإسراع بطلب انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، والأسباب يمكن الإشارة إليها فيما يلي:

1 . إدراك خير الدين لمحدودية قدراته العسكرية بالمقارنة مع الإمكانيات الهائلة التي يمتلكها الإسبان، والتي جعلت منهم دولة قادرة على خوض العديد من الحروب في إسبانيا وشمال إفريقيا ضد المسلمين، وفي أوروبا ضد البروتستانت، وضد ملك فرنسا، منافس شارلكان على زعامة أوروبا، فضلا عن تقديم مختلف أشكال الدعم للنمسا لكي تتمكن من التصدي لحملات العثمانيين في شرق أوروبا [2].

2 . إن معرفة خير الدين لموازين القوى في الصراع الإسلامي–المسيحي، جعلته يُرجع ضم جهده إلى أقوى دولة إسلامية في ذلك العصر، أي الدولة العثمانية، فهي وحدها التي كانت مؤهلة لقبول ضم الجزائر إلى ممتلكاتها وبالتالي حمايتها بدعمها بالمال والعتاد والرجال عندما يقتضي الأمر ذلك [3].

3 . تخوفه من الزعماء المحليين في الجزائر، سواء كانوا أمراء أو شيوخ قبائل أو أعيان مدنٍ[4]، فقد رأى من خلال سابقة تجربته معهم مدى استعداد هؤلاء الزعماء للثورة والتمرد عند أول فرصة تُتاح لهم، كما أدرك مدى قُدرتهم على تهييج العامة ضد الأتراك مستعملين سلاح الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى، والأسوأ في هذا كله، استعداد الكثير منهم في الارتماء في أحضان الإسبان[5]، حتى ولو كان ذلك على حساب الدين والوطن، وطالما أن حكام الشمال الإفريقي في هذه الفترة كانوا على هذه الشاكلة، فلا غرابة أن يرتاب في الولاءات الفرعية التي كان يبديها هؤلاء الزعماء، لينقضوا بنفس السرعة عندما تُتاح لهم الفرصة !!.

وعلى هذا فإن سعي خير الدين لجعل الجزائر إيالة عثمانية، إنما كان يرمي إلى البحث عن صمام أمان في وجه أي حركة تمرد أو غدر يمكن أن يقوم بها الزعماء المحليون في أثناء انشغاله بأعداء الخارج [6].

---

(1) –عبد العزيز قائد، المشرق العربي والمغرب العربي، دار الحكمة، دمشق، سوريا، 1994م، ص97.

(2) –محمد درّاج، المرجع السابق، صص232–233 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص 151–152.

(3) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ص10، وأيضاً: عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي...، المرجع السابق، ص99.

(4) –محمد علي عامر، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 69.

(5) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص207 وأيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص56.

(6) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص914 وأنظر أيضاً: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص23.

4 . عدم وجود قوة إقليمية في منطقة الصراع شمال إفريقيا، يمكن التحالف معها، أو حتى الانضمام إليها لمواجهة الخطر الإسباني[1]، فالمغرب الأقصى كان يعيش في مشاكل داخلية، وتونس رغم كونها كانت تعيش استقراراً نسبياً في السلطة إلا أن سلطانها كان بلغ من الضعف ما جعله عاجزاً عن فرض سلطانه على ما تحت يده من البلاد فضلاً على أن يكون قادراً على حماية الجزائر، فقد أحتل الإسبان بجاية، و عنابة، ودلس ومدينة الجزائر، وهي كلها كانت مدنا تابعة إدارياً وسياسياً للدولة الحفصية، ومع ذلك لم يتخذ السلطان الحفصي أي خطوة جدية للدفاع عنها وطرد الإسبان منها، بل رأينا كيف أن تخوفه من انتصار الأتراك، دفعه للامتناع عن تزويدهم بالبارود لتحرير بجاية التي كانت تدخل ضمن مُمتلكاته، وسوف نرى لاحقاً كيف أن هذا السلطان لم يتردد في تحريض الزعماء المحليين على الثورة على خير الدين رئيس، بل قام بالتواطؤ مع الإسبان أثناء حملتهم على تونس سنة1534م[2].

ب –نتائج انضمام الجزائر للدولة العثمانية1519م:

ابتداء من هذا التاريخ أصبح خير الدين بربروس أحد أكبر قواد الدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط.

ترتبت على القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

–دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام 1519م –إن إرسال المساعدة العسكرية العثمانية جاء نتيجة الاستغاثة السكانية، ولم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً.

–كانت الجزائر بمثابة أول أيالة في شمالي إفريقيا تقع تحت السيادة العثمانية [3].

–نتيجة لحماية السلطان سليم الأول الرسمية للجزائر، تعزز نفوذ خير الدين، وقوى موقفه في الحرب ضد الإسبان من جهة، ومحاولات القوى السابقة استعادة نفوذها المفقود خاصة بني زيان والحفصيين.

–حقق انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، أهدافا سياسية وعسكرية كثيرة لها، أهمها تأمين حدود مصر الغربية وتوسيع ممتلكاتها دون أن تتحمل أية أعباء عسكرية أو مالية كبيرة، كما تحملت ذلك في مصر والشام[4].

كما جعلت الدولة العثمانية من الجزائر ولاية ذات وضع خاص[5] فعُرفت بناءً على ذلك بنيابة الجزائر[6] ذلك لأن طبيعة موقعها وظروفها حولتها إلى قاعدة للوجود العثماني في غرب المتوسط فصارت تبعا لذلك مسؤولية

---

(1) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص 234 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص297.

(2) –محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص678–679 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص59.

(3) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص912 وأيضاً: نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص105.

(4) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص73 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص207.

(5) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص236 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 71.

(6) –وقد صنفت الجزائر إداريا خلال هذه الفترة ضمن ما يعرف ب ((مستثنى أيالتلر–أي: الولايات الاستثنائية)، وتتميز هذه الولايات الاستثنائية باستثنائها من الأحكام العمومية التي تنظم بقية الولايات التابعة للدولة، وهذه الولايات هي:(مصر، بغداد، البصرة، اليمن، الحبشة، طرابلس الغرب، وتونس فيما بعد). وأهم ما يميز هذه الولايات أنها لم تكن مقسمة وفق التقسيم الإداري الذي كان معمول به في بقية الولايات الأخرى، ونفس الشيء بالنسبة للأراضي الزراعية. وهذا الاستثناء يعود إلى إلا أن تلك الولايات كانت تمتاز بخصوصيات خاصة: كأن تكون تلك الولايات تتمتع بموقع استراتيجي هام، أو أنها تقع على مسافة بعيدة جدا عن مركز الدولة، لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: محمد درّاج، المرجع السابق، ص238.

عن إدارة شؤون الحكم في طرابلس الغرب[1]، في المرحلة الأولى من الوجود العثماني في شمال إفريقيا، كما أوكلت لها مهمة إلهاء الإسبان عن المشاركة في حروب أوروبا ضد الدولة العثمانية في المجر والنمسا[2] وذلك بالتصدي للعدوان الإسباني على سواحل شمال إفريقيا، وتأمين عمليات إنقاذ المسلمين في الأندلس[3].

ج –أثر انضمام الجزائر[4] للدولة العثمانية على المنطقة المغاربية وأوروبا:

لم يفسد خطط الإسبان سوى تدخل الأتراك العثمانيون السريع، المتمثل في الإخوة عرّوج وخير الدين[5] كما كان من أثر ذلك أن سادت موجة عامة من الرعب في أوروبا، خصوصاً في إسبانيا، عند إعلان انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، وبروز نيابة الجزائر كقوة جديدة ذات شأن وهيبة في الحوض الغربي للمتوسط؛ لأن كل هذا يعني بالنسبة لها وصول الخطر العثماني؛ ليس لتهديد قواعدها العسكرية المتناثرة في شمال إفريقيا فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تهديد وجودها في الأندلس التي مازال هاجس إعادة فتحها من طرف الأتراك يلوح لهم في كل حملة يقوم بها الغزاة[6] بل وتأكد هذا الرعب حين ما عزم السلطان سليمان القانوني على فتح روما، بعد استيلائه على مملكة نابولي، فأرسل لأجل ذلك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس لاحتلال أولونيا الواقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي، وذلك سنة 1537م[7] وهذا ما نعرفه لاحقاً.

ومن جهة أخرى أدى بروز الجزائر على ساحة الأحداث الدولية في ذلك العصر إلى جعل شرلكان يتخبط في سياسته الدولية بين الاستمرار في تثبيت وجوده في أوروبا، وتصديه لحروب البروتستانت وفرنسا، وبين التفرغ الكامل للمسألة الجزائرية التي تؤرقه بغارات بحارتها على السواحل الإسبانية وسائر السواحل الأوروبية المطلة على البحر المتوسط[8].

ولاخلاف في أن انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية يمثل بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، فقد شهد في هذا العصر ميلاد دولة جزائرية جديدة ممتدة تقريباً على نفس الحدود الجغرافيا التي تمتد عليها الآن فتحققت بذلك الوحدة السياسية والجغرافية للدولة الجزائرية الناشئة على نحو لم يحدث من قبل، الأمر الذي أفضى لاحقا

---

(1) –أبو عبد الله محمد ابن خليل ابن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان فيها من أخبار، تحقيق أيمن البحيري، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1998م، ص100 وأنظر أيضا: نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، 1991م، ص26.

(2) –يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص45 وأيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص917.

(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص236 وأنظر أيضاً: رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص296.

(4) –تقع البلاد الجزائرية كلها على البحر الأبيض المتوسط، ولها ساحل صخري في الغالب، يمتد نحو 1200كم، بين مملكتي تونس ومراكش...أهم المدن والمرسى البحرية: عنابة، سكيكدة، بجاية، الجزائر، وهران، جيجل. للمزيد أنظر: أجي بريل، دائرة المعارف الإسلامية، المرجع السابق، ص24.

(5) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص42 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص78.

(6) – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص205 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 73.

(7) –نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية(1516–1574م)، المرجع السابق، صص95-96.

(8) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص240 وأيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، المرجع السابق، ص49.

إلى بروز الأهمية السياسية والعسكرية للجزائر خلال الفترات اللاحقة من هذا التاريخ، باعتبارها لاعباً إقليمياً يساهم في صناعة السياسة الدولية لغرب المتوسط.

كما كان من أثر انضمام الجزائر للدولة العثمانية أن أهالي طرابلس الغرب عندما رأوا الدعم المادي والمعنوي الذي حظي به أهالي الجزائر نتيجة لانضمام بلادهم للدولة العثمانية، أن بعثوا وفداً عنهم يعرضون فيه تبعيتهم للسلطنة العثمانية، وذلك بغية تخليصهم من الاحتلال الإسباني، فاستجاب لهم خليفة المسلمين السلطان العثماني سليمان القانوني [1].

إن الأحداث التي تعيشها هذه المنطقة الحساسة من غرب المتوسط، تتطلب شخصية قوية ذات صلاحيات واسعة تمكنها من إصدار القرارات الحاسمة والعاجلة في مجال الصراع المسلح مع الإمبراطورية الإسبانية وحلفاءهم وأتباعهم، وأذناب عملائهم؛ وقد تفهمت الدولة العثمانية هذه الظروف، وتعاملت معها بمرونة كبيرة كما هي سياستها مع الكثير من الولايات البعيدة التابعة لها في ذلك العصر [2].

كما يفدي لنا تناقض المقولة التي ما فتئ الباحثون الغربيون يُشيعونها، والمتمثلة في أنه فرض خير الدين رئيس نفسه حاكماً وسلطاناً على الجزائر، بينما واقع الأحداث–حسبما–ورد في مذكرات خير الدين بربروس يبين بأنه قبل ولاية الجزائر بناء على توسلات مُلحة وعديدة من علماء وقضاة وخطباء وأئمة وأعيان وتجار وأمناء مدينة الجزائر وغيرهم؛ وبعض الوفود من المدن الأخرى؛ ممن كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليهم ويتولى إدارتها بنفسه، ذلك لأن الأهالي لم يكونوا يرضون بالخضوع لأحد سواه، فقد رفضوا ولاية ابن القاضي في الجزائر بعدهم مثلما رفض أهالي تلمسان قبلهم ولاية سلطانها الزياني الذي تحول إلى ألعوبة في يد الإسبان [3].

وهكذا دخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ زمن خليفة المسلمين السلطان العثماني سليم الأول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي القائد خير الدين رئيس الذي نجح في وضع دعامات قوية لدولة فتية في عمق الجزائر؛ وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان العثماني سليـــمان القانوني؛ ومايشيره هو بقوله:" لن يتمكن الإسبان من إزعاجي بعد اليوم، لأن السلطان الكبير سليم خان يسندني من ورائي، فكل ما أطلبه منه لن يتردد في إجابتي بكرمه وعنايته" [4].

(1) –تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، طرابلس، ليبيا، 1988م، ص16 وأنظر أيضاً: أتروي روسي، ليبيا من الفتح العربي إلى 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، بيروت، لبنان، ص169 وأيضاً: أبو عبد الله محمد ابن خليل ابن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص100 وأنظر: كوستانستو برنيا، طرابلس من (1510–1850م)، ترجمة خليفة محمد التليسي، مصراته، ليبيا، 1985م، ص32 وأيضاً: نيكولاي إيليتش بروشين، المرجع السابق، صص26–27.

(2) – محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص30 وأيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص83.

(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص 102 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص 14–15.

(4) –مولود قاسم نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص91 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص44.

وتطلع خير الدين إلى طرد الإسبان من ساحل الجزائر وقد أصاب نجاحاً في ذلك، ففتح اعتباراً من عام 1521م القالة وعنابة وقسنطينة وجزيرة رباط الخيل وبذلك تم وضع حجر الأساس لبسط وصاية العرش العثماني كما يعد ذلك بداية لتأسيس ما عرف باسم إيالة الجزائر [1].

أما على الجبهة الخارجية غدا خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكانت تسانده قوات هذه الدولة العثمانية، وينتفع بمواردها بما كان يتلقاه منها؛ لمواجهة الإمبراطورية الإسبانية وحلفائها [2].

أما على الجبهة الداخلية فقد واجه خير الدين صعوبات من جانب الحكام والزعماء المحليين عندما حول إعادة توحيد المنطقة المغاربية، وقد تعرض لمؤامرات بني زيان والأمراء الحفصين وبعض القبائل الجزائرية بتحريض منهم، إلا أنه تمكّن من التغلب على هذه الصعوبات ونجح في تثبيت سيطرة على كامل الجزائر [3]، ومواجهة أعداءه في عقر دارهم؛ خاصة الأمراء الحفصيين في تونس.

---

(1) -محمد سهيل طقوس، الدولة العثمانية والتاريخ الإسلامي الحديث، المكتبة العبيركات، السعودية، 1998م، ص34.

(2) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص86 وأنظر أيضاً: محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 77.

(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص 113 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص59.

الفصل الأول

الحكم العثماني في الجزائر وعلاقته بالحفصيين في تونس

(925هـ-940/1519-1533م).

-المبحث الأول: الأيالة الجزائرية الفتية بين المؤامرات الخارجية والدسائس الداخلية:

(925هـ-932/1519هـ-1525).

1-النفوذ العثماني بين البقاء والتقلص:

2-الحملة الحفصية على الجزائر 1520م.

3-حكومة الرئيس خير الدين في جيجل 1520م.1525م:

المبحث الثاني:

خير الدين يعيد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة: (932هـ -940/1525-1533م).

1-على المستوي الداخلي:

2-على المستوي الخارجي:

3-دور الجزائر في الصراع الإسلامي المسيحي:

خلاصة الفصل الأول.

الفصل الأول:

الحكم العثماني في الجزائر وعلاقته بالحفصيين في تونس (925هـ-1519/940-1533م).

-المبحث الأول: الأيالة الجزائرية الفتية بين المؤامرات الخارجية والدسائس الداخلية: (925هـ-1519/932هـ-1525م).

1-النفوذ العثماني بين البقاء والتقلص:

أولاً: انحصار الوجود العثماني:

بعد فتح السلطان سليم الأول لمصر عام1517م، قام شريف مكة ابن بركات بتسليم مفاتيح الحرمين له، وبايعه الأهالي، ومنذ ذلك التاريخ أطلق على السلطان سليم الأول حامي الحرمين الشريفين كما تلقب بخليفة المسلمين وأمير المؤمنين [1]، ونُقل مركز الخلافة الإسلامية إلى إستانبول، وحصل العثمانيون من جَرّائها على شهرة عظيمة وأهمية كُبرى لدى العالم الإسلامي، وتولى السلطان العثماني رئاسة العالم الإسلامي الدينية[2] والدنيوية، هذا الانتقال أخاف سلطان تونس من جهة، ومن جهة أخرى أثَّرت الفكرة الدينية تأثيرا دينياً رئيسياً في سياسة العثمانيين، وخاصة اتجاه الشمال الإفريقي[3] المغاربي المتوسطي؛ فبإعلان خير الدين التبعية للدولة العثمانية، توسعت أملاكها بدون بذل جهد أو مصاريف وغَدت بذلك أكبر الدول الإسلامية، على الإطلاق ويوضح لنا خير الدين ذلك:" في هذه الظروف فتحنا الجزائر وصارت لنا دولة أكبر من تونس، ودخلنا في حرب لاهوادة فيها مع الإسبان التي تُعد أكبر دولة مسيحية، وبمقتضى الإسلام كان على سلطان تونس أن يساندنا في حربنا هذه إلا أنه كان متوجساً منا قبل أن ندخل في حماية الدولة العثمانية، وقبل أن نعلن تبعيتنا للسلطان سليم خان" [4].

وبنفس الوقت فتح مصر أخاف الحفصيين لقرب الحدود المصرية الغربية معهم والزيانيين[5] لحدودهم الشرقية مع الجزائر ؛ زيادة على الرسائل التي أرسلها السلطان العثماني لأبو عبد الله محمد

(1) -سمية بنت محمد حمودة، حركة الفتح العثماني في القرن 10 هـ / 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية،2006 م، ص24 وأنظر أيضاً: الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص97.

(2) -الموسوعة الميسرة في الأديان، لندوة الشباب العالمي، جدة، السعودية،2002م، ص564.

(3) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص80 وأنظر أيضاً: Gaid Mouloud, op,cit,pp 41-47

(4) -محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، تونس،1974م، ص187.

(5) - فبنو زيان في أوسع مراحل نفوذهم لم يتجاوزوا مدينة الشلف جنوباً، ومدينة الجزائر وما جاورها شمالاً وبالرغم من امتداد الدولة الزيانية إلى بجاية وقسنطينة شرقاً، في إحدى فترات تاريخها فإن ذلك لم يكن سوى لفترة قصيرة، ثم لم يتكرر ذلك بعد أبداً للمزيد أنظر: ابو عبد الله محمد التنسي، (المتوفي 899هـ/1494م)، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (حق، عل، نش)، محمد بوعياد، (م، م، و، ج) الجزائر،1985 م، ص23؛ أما وسط الجزائر وجنوبها فقد كان خاضعا لنفوذ شيوخ القبائل، أو الأمراء المحليين الذين نصبوا أنفسهم في غياب سلطة مركزية قوية وأما الجنوب الغربي للجزائر فقد كان أما تابعا للمرنيين أو الزيانيين اسميا في أغلب الأحيان للمزيد أنظر: الغالي الغربي، دراسة في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288-1916م)، (د، ك) الجزائر،2007م، ص68.

الحفصي وأبو حمو الزياني أشعرتهما بالرعب والخوف، والذي يأمرهما بتقديم شتى أنواع الدعم المادي والمعنوي للأخوين بربروس وذكر لهما في الرسائل "تعلمون أن الأتراك تمركزوا في الجزائر، وأنهم أصبحوا حكامها وإهمال التفكير بالجيرة يشكل خطراً كبيراً عليكما، فالحاكم خير الدين شجاع؛ وعنيد وحريص ومستعد للتضحية، فإذا لم نتمركز في البلد، ولم نكن أقوياء، فإن بلادنا ستكون عرضة للاحتلال من قبل الأعداء، وهو أمر معلوم لذلك أدعوكم جميعاً لأخذ الاحتياطات اللازمة"(1)؛ أدرك حينها أبو الحسن الحفصي(2) أن الأخوين بربروس لم يعودا مجرد قرصانين بائسين يعيشان على مايغنماه من غزواتهما بل ممثلين للسلطان العثماني فتضاعف خوفه الممزوج بمشاعر الحسد والغيرة المكبوتة (3)؛ ومن جهة أخرى كان الباي لارباي خير الدين متأثرا جداً بسبب أثار مقتل أخيه الرئيس عرّوج(4)، مع أفضل العساكر ممن كان يُعتمد عليهم ويَتصفون بشجاعة فائقة واستقامة نادرة وعلاوة(5)، وعلى ذلك إنحصر الوجود العثماني بالأيالة الجزائرية حيث أعُلن التمرد عن السلطة المركزية في الكثير من المناطق وهو أهم مايميز به الدخول العثماني إلى الجزائر ثم تونس تصاعد الثورات وحركات التمرد التي تولى إشعالها الزعماء المحليون من أمراء وشيوخ عشائر وأعيان؛ ويسرد لنا خير الدين ذلك بقوله: "إلا أننا منذ استقرارنا بالجزائر، كانا مضطرين إلى الانشغال بالأمراء المحليين وأشباههم في تونس الذين كانوا مُستاءين من وجودنا(6)"؛ أي موقفهم كان سلبياً منذ البداية بإثارة الفتن والتحريض على الثورة ضد العثمانيين الأتراك(7)؛ هذا الانطباع يمكن أن يَنطبق على الزعماء والأمراء المحليين أما بالنسبة لأمراء الدولة الزيانية والسلاطين الحفصيين(8)؛ المعاصرين لهذه الفترة فقد كان همهم الوحيد والأوحد البقاء في السلطة وهذا مايصفه لنا خير الدين بقوله: "ولم يكن بشمال إفريقيا دولة أخرى ذات أهمية غير مملكة المغرب، أما تونس وتلمسان اللتان كانتا يحكمهما الحفصيون وبنو عبد الوادي فلم يعد لهما أهمية على الإطلاق (9)"؛ إلاّ لأهدافهم الخاصة ومصالحهم

(1) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص54 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص58.

(2) -بعد وفاة "أبو عبد الله" خلفه ابنه "الحسن" (1526-1542) بعد أن عيّنه أباه خلفاً له على عرش تونس وتميز حكمه بالاستهتار والاستنثار بالسلطة ومَالَ إلى التعاون مع الإسبان لمواجهة العثمانيين للمزيد أنظر: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص93.

(3) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص11 وأنظر وأيضاً: عمر الركباني، خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة النهضة، تونس(1365هـ/1946م)، ص127 وأيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص54.

(4) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 08: حول شخصية عرّوج بربروس.

(5) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص58 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص207.

(6) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص79 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص97.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص336 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 73.

(8) -الدولة الحفصية (626 / 981 هـ-1228/1574م) حكمتها السلالة الحفصية التي تنسب إلى الشيخ أبي حفص عمر؛ أحد قادة عبد المؤمن المخلصين، وتحولت تونس في عهد الأسرة الى مقر الحكم، ومركز سياسي وثقافي واقتصادي وكانت في نزاع مع جيرانها بني عبد الواد في الجزائر، وأقامت علاقات تجارية مع دويلات أوروبا للمزيد أنظر: ابو عبد الله محمد الزركشي، المتوفي (894هـ/1488م) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس،1966م، ص43.

(9) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2ص909 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص98.

الشخصية؛ ولو كان على حساب الردة على الدين الإسلامي وعدم مناصرة إخوانهم في الدين؛ ومعارضة رغبة رَعيتهم وخيانة أُمتهم وتَقديس مَصلحتهم الشخصية وطُموحاتهم الذاتية!!

ولاننسى استغلال الإمبراطورية الإسبانية للاضطراب الأوضاع السياسية في هذه الرقعة المهمة من غرب العالم الإسلامي وانهيار السلطات السياسية التقليدية الحاكمة بها " الحفصيون، الزيانيون " بحيث باتت عاجزة عَجز تام عن فرض سَيطرتهما وبسط نفوذهما على المدن والمناطق التي كانت تابعة لهما فضلاً عن عدم مقدرتهما على حماية سَواحلهم ومَوانئهم [1] وتجَارتهم؛ ولاشك أن كل هذه الظروف وغيرها لعبت دوراً كبيراً في إغراء الإسبان وتشجيعهم على مواصلة احتلال باقية المدن الساحلية لتحقيق أهدافهم الأمنية والاقتصادية [2] المُسطرة مسبقاً؛ وهم واثقون من أن يتَصدى لهما، مابقي من روح حقيقية في هذه الدولتين؟ وعن عدم تقديم الدعم المادي والمعنوي لمسلمي الأندلس [3]، بل استطاعت أن تجَعلهما عملاء وموالين لها! فاستغلتهم إلى جَانب الصعاب التي يواجهها العثمانيون بطردهم من الجزائر زيادة على ذلك عَصيان أكثر القبائل، ضد السلطة العثمانية[4]، الفتية في الجزائر بل خَرجت مدن مثل: دلس وشرشال وعودة حُكامها القدامى إليها وبنفس الوقت بدأ أحمد بن القاضي يحرض خفية الأهالي والقبائل ضد الرئيس خير الدين، بهدف خَلو الساحة من منافس له؛ إزاء ذلك كلف الباي لارباي خير الدين عَساكره ومُؤيديه بالتوجه إلى القبائل الصغيرة لتأديبها تأديباً لائقاً بهم، في حين ترك إخضاع حكام المدن إلى وقت آخر لأن الوقت غير مناسب للقيام بمثل ذلك[5]، إن إتباع الرئيس خير الدين لسياسة الحكمة والدهاء، دفع العلماء والمرابطون للوقوف إلى جانبه، وتعاهدوا سوية على طرد المسيحين من البلاد، كما أجبرو قسماً كبيراً من الأهالي للتخلي عن معاداته، وإعلانهم صراحة عن تأييده ومساندته[6].

وكانت أولى المشكلات الكبرى التي واجهت الباي لارباي خير الدين بعد كسب الأهالي مشكلة تأمين السلاح والبارود، ومشكلة آخرى امتداد نفوذ السلطان أبو حمو الزياني حتى مليانة ويكون خَطره بذلك على مقربة من الجزائر[7]؛ وذلك رغم تحَالفه مع خير الدين؟ وهذه سياسة ملوك بني زيان التي تميزت

---

(1) -للمزيد من التفاصيل عن الأوضاع في الجزائر وتونس قبيل الدخول العثماني للمزيد أنظر: محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، (د، غ، إ)، لبنان، 1984م، صص262-263 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: ب. ر. روجرز، تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900م، تج بونان لبيب رزق، المغرب،1981م، ص38.

(2) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 74 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص129.

(3) -ابو عبد الله محمد الشماع، (المتوفي حوالي 873هـ/1459م)، الادلة النورانية في المفاخر الدولة الحفصية، ط1، تحقيق عثمان الكعاك، مطبعة العرب، تونس،1936م، ص213 وأنظر أيضاً: محمد لعربي الزبيري، المرجع السابق، ص15.

(4) -مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية (مدن الوسط)، ج01، دار الحكمة الجزائر،2007م، ص134.

(5) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2ص899 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص68.

(6) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص12 وأنظر أيضاً: أحمد سليمان، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب، الجزائر،1994م، ص78.

(7) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص75 وأنظر أيضاً: المجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص58.

بالتذبذب في مواقفهم وسياستهم بين إعلان التبعية أو التحالف للأتراك العثمانيين في الجزائر حينا وبين التبعية للإسبان حينا آخر وبين إتباع سياسة مستقلة عنهما (1) وذلك حسب ما تقتضيه شروط الإمساك بخيوط اللعبة من طَرفيها الإسباني والعثماني (2) وفي جميع الأحوال لم يكونوا يترددون في خيانة الأتراك والتحالف مع الإسبان ضدهم بل ضد شعبهم إذا ما أعلن تذمره من سياستهم (3)؛ ومشكلة أخرى مايحصل في الشرق الجزائري؛ متمثلة في هدوء الذي يسبق عاصفة الحرب الحفصية على الأتراك العثمانيين وهو مايُدقق لنا خير الدين وصفاً بقوله:" نحن نعرف بأن آل عثمان أسرة حاكمة لدولة عالمية وأن سليم خان فتح خلال بضع سنين ممالك هي أكبر من تونس بمائة مرة، لقد كان سلطان تونس يظن بأن سلطاننا المعظم سليم خان يطمع في مَملكته الفقيرة" وتجاهل بأن باي لاربايات سلطاننا يملكون أراضي أكثر خصوبة من تونس، وألوية عسكرية أكبر من تلك، التي يَملكها، فإن السلطان سليم خان انتصر على ملك إسبانيا الذي يحكم نصف أوروبا، وهكذا ازدادت الهوة بيننا وبين سلطان تونس (4).

ثانياً-التصدي للحملة الإسبانية الثانية على الجزائر سنة 1520م.

إن الإسبان كانوا يدركون بأن بلدان الشمال الإفريقي؛ المغاربي؛ تمر بمرحلة ضُعف صَعبة مَلؤها الفتن والحروب الأهلية وانعدام الاستقرار؛ كما كانوا يَعلمون أن هذه الحروب يؤجج نَارها أصحاب السلطان من الطامعين في العرش والمنازعين فيه بحق أو بغير حق، لكنهم كانوا يدركون أيضا أن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد، ومن ثم فهم كانوا يخشون أن يتغلب أهلها المَغاربة على مشاكلهم فتجمع كلمتهم تحت سُلطان قوي (5) وهو مأدركه الإسبان من مَدى الخطر الذي سوف تُشكله مبايعة أهالي مدينة الجزائر لخير الدين باي لارباي، فقاموا بتحريض السلطان الحفصي لكي يقوم بتحريض أهالي الجزائر على التمرد ضد الأتراك (6) فاستجاب لهم وقام بمراسلة بعض الأمراء والأعيان؛ إلا أن الرئيس خير الدين كان على عِلم تام بذلك فستعد له؛ ومن جهة أخرى تمكن من تصدى للحملتين الإسبانيتين الأولى

(1) -استعانة أطراف الصراع في البيت الزياني ببعض خصومهم ضد بعض سلوكاً طبيعياً قد درجوا عليه منذ أمد بعيد يرجع إلى ما قبل الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر فقد كانوا يستعينون بالحفصيين لمواجهة المرينيين، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا عليهم ليغيروا لعبة التحالف فيناصروا المرينيين ضد خصومهم الحفصيين ثم يلزمون الحياد إذا تعادلت القوتان أو ينقلبوا ضد حليف الأمس للمزيد أنظر: محمد بن عثمان الحشايشي، العادات والتقاليد التونسية في العادات التونسية، ط1، تح الجيلاني بن الحاج يحي، دار سراس، تونس،1994م، ص149.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص343 وأنظر أيضا .de Grammont Henri, op, cit, p26

(3) -محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف." تراجم علماء تونس " تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ج2، (د، غ، إ) بيروت، لبنان، 1994م، ص32 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص343.

(4) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص99-100 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص47.

(5) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، صص 88-89 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، صص227-228.

(6) -محمد الهادي شريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد شاوش ومحمد عجينة، دار سراس، تونس، 1993م، ص118 وأيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص27 أيضا: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص21.

1519م والثانية 1520م على الجزائر الأمر الذي جعل صِيته ينَتشر أكثر ويُرسّخ صُورته في الأذهان بِكونه المُنقذ الفِعلي والحَامي الحَقيقي للمنطقة، المغاربية عامة والجزائر خاصة من الغَزو الإسباني وأمرائهم المحليين المواليين لهم خاصة بعد انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، لأن ذلك كان يعني بالنسبة للإمبراطورية الإسبانية من وَصول الخطر العثماني الإسلامي إلى سَواحلها وهو مايخشاه الإسبان فَيعيدون المغاربة عليهم الكَرة ويَمدون المقاومة الإسلامية في الأندلس بالدعم المادي والعسكري ومن ثم يَتمكنون من استعادة الأندلس مرة أخرى[1] ، ونجد حِصار الإمبراطور الإسباني شارلكان للجزائر بعد وفاة الرئيس عروج لخير دليل على خَوفهم من سِلفه رغم ضُعفه، ولكن مع كل هذا خرج له الباي لارباي خيرالدين متصف بالوفاء والاخلاص لقَضيته المقدسة؛ وحقق فوزاً عظيماً ويحفظ لنا التاريخ جيداً رَده على الإمبراطور شارلكان عندما قال له:(يجب ألا تنسى أن الاسبان لم يُخذلوا في معركة، وأنهم قَتلوا أخويك الياس وعرّوج وان تماديت فيما هو عليه؛ وركبت رأسك فإن عاقبتك ستكون كعاقبة أخويك) فأجاب الباي لارباي خير الدين:(سترى غداً وإن غداً ليس بِبعيد، إن جُنودك سَتتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك سَتغرق وقُوادك سَيرجعون إليك مُكللين بِعار الهزيمة) [2]؛ ومن خلال هذا نستخلص بأن أهم الأسباب الأمنية التي دفعت الإسبان إلى احتلال إسبانيا لسواحل الشمال الإفريقي؛ المغاربي؛ هو شَل حركة الجهاد البحري التي كان تنطلق من هذه الموانئ [3] المغاربية المتوسطية؛ ويمثل لهم صَمام أمان ؛ والذي يُمكنه أن يَحول دون تَفكير المغاربة في إعادة فتح الأندلس من جديد [4]؛ وعليه من مَصلحتها إبقاء الوضع عليه.

ولذلك فقد اتفقت إسبانيا مع حليفها أبو عبد الله محمد الحفصي ملك تونس على الاشتراك في غَزو الجزائر، بحيث يُهاجمها الإسبان من البحر بينما تقوم القوات الحفصية بِمهاجمتها من البر [5]؛ وكان تنفيذ ماخطط له فوصلت الحملة الاسبانية إلى الجزائر التي كانت مُشكلة من 84 سفينة [6]وندع خير الدين يبين لنا ماحصل بقوله:" فإنهم ما أنزل الإسبان قَواتهم حتى قمنا بإعمال السيف في رِقاب عدد كبير منهم بينما استسلم سبعمائة إلى ثمانمائة كافر، من أصل عشرين ألفا، وأمّا الباقون البَقية فقد لاذوا

(1) -محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص234 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، تاريخ المغرب العربي الحديث، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1986م، صص12-13 وأنظر أيضاً: عبد الكريم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، المغرب، 1977م، ص3 وأنظر أيضاً: جمال الدين عبد الله محمد، المسلمون المنصّرون، دار النهضة العربية، للطبعة والنشر والتوزيع القاهرة، مصر،1991م، ص128.

(2) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 20 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص170-171.

(3) -محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، المرجع السابق، ص268 وأيضا: علي عامر حمود، المرجع السابق، صص13-14 وأيضاً: جمال الدين عبد الله محمد، المرجع السابق، ص131 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص191.

(4) -عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، ص4 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص11 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، صص21-22 أيضا: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص234.

(5) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص272 و: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، 21.

(6) –عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص117، وأنظر أيضاً: الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص94 وأيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص45 وأنظر أيضاً: جمال الدين عبد الله محمد، المرجع السابق، ص134.

بالفرار إلى سُفنهم"، بينما عاد ملوك شرلكان وقادته يجرون أذيال الهزيمة بعد أن تمرغت أُنوفهم في التراب (1) وهكذا إنتهت الحملة بهزيمة كبيرة أجبرت الإسبان على الفِرار مُخلفين وراءهم آلاف الأسرى والقتلى (2) وكان من أثر هذه المعركة أن عَظم شأن العثمانين في إفريقيا؛ المغاربية، وشاع أمرهم في كُل أنحاء أوروبا (3) لأنهم هزموا أكبر أعدائهم عدداً وعدة؛ فكيف يكون حال الأضعف منهم؛ ولخير الدينَ قولاً في الغزوات بقوله:" إن أكبر أعدائنا هم كفار إسبانيا كما كنا في حالة حرب مع أمم كافرة أخرى كالجنويين (4)".

ثالثاً–محاولة اجهاض أركان الدولة الجزائرية:

دخل رجال بعض القبائل التي تقطن في السهول المجاورة إلى مدينة الجزائر خفية ومعهم أسلحتهم وانقسم على مجموعتين الأولى إتجهت إلى الساحل حيث تَرسو سُفن الأتراك من أجل إشعال النار فيها وذلك وفقاً للخطة المدروسة، فحينما يُشاهد الأتراك أن ناراً تَشتعل في سُفنهم فيسرعون لإطفائها، وحَالما يخرجون من مدينة الجزائر تقـوم المجموعة الثانية بإغـلاق أبواب المدينة المُحصنة، وبعد ذلك يقومون بِقتل من تَبقى منهم، لأن أعدادهم وقتذاك قليلة(5)، وخير الدين تَصور في ذلك:" نحن هنا في شمال إفريقيا لسنا سِوى حَفنة من الأتراك مُتناثرين في بلد أكبر أضعاف المرات من الأناضول" محاولين ضبطه بِبضعة آلاف من الجنود (6) وبهذه الطريقة يَجهضون سُلطة الدولة الجزائرية الفَتية؛ لكن جواسيس خير الدين أعلموه بماتم الاتفاق عليه، فألقى القبض على المخططين مِنهم وقطع رُؤوسهم وعلقها على باب القصر بعدما مَثل بِجثثهم، فخمدت ثورة الاهالي،وخافوا من إعلان التمرد والعصيان بعد ذلك التاريخ(7).

2–الحملة الحفصية على الجزائر 1520م:

أولاً–علاقة الأخوين عرّوج وخير الدين بالحفصيين.

كانت تونس وطرابلس الغرب جزءاً من دولة الحفصيين (8) التي كانت أخذة في التداعي في مَطلع القرن 16م وأضحى الجيش الحفصي عاجزاً عن مُجابهة سفن إسبانيا وقَراصنة مالطا والقُونيات الإيطالية

(1) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 94 وأنظر أيضاً: ابن رقية محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني التلمساني، " الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة "، مجلة التاريخ وحضارات المغرب، عدد 3، تونس،1967م.

(2) – للمزيد عن تفاصيل المعركة أنظر: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص31 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص ص 205-211 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص ص75-78.

(3) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص95 وأنظر وأيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 121.

(4) – عمر الركباني، المرجع السابق، ص129 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص58.

(5) –de Grammont Henri, op, cit, p28.

(6) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص116 وأنظر أيضاً: محمد علي القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ط1، دار البصائر، دمشق سوريا1405هـ/1985م، ص85 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص33.

(7)- Gabriel Esquire, La prise d'Alger1830, Edition Edouard champion, paris, 1923, P47

(8) –ابن قنفد ابو العباس أحمد بن الخطيب، (المتوفي 809هـ/ 1406م) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، (ل، و، م)، تونس،1968م، ص89 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص201.

عاجزاً عجز تام حتى القِتال ضد القراصنة الأوروبيين الذين لم يتوقفوا عن تدمير شواطئها[1]؛الشرقية المغاربية، وبظهور الأخوين بربروس على مسرح الأحداث حققوا العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين؛ الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضَعيفة في هذه المناطق، ويَبدو ذلك من خلال منح السلطان "الحفصي" لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو مايخبرنا به خير الدين بمايلي:" نزلنا بتونس باتفاق مع سُلطانها الحفصي وبَفضلنا استغنى التونسيون وازدهرت المدن التونسية بعدما كانت خرابا، فصار أهل تونس يعيشون في بحبوحة من النعيم وبفضلنا أيضا تخلص سلطان تونس من الإسبان والجنويين وامتلأت خزينته بالأموال نتيجة للخِراج الذي كنا ندفعه له" [2].

ودلالة على ضُعف السلطات الحفصية أنهم لم يستفيد من الأخوين بربروس ولا من الأموال التي كانوا يَجنوها وراءهم ففي عام 1510م استولى "الكونت دي نافارو "بدون صعوبة على بجاية وطرابلس الغرب وهاجم جزيرة جربة، ولم يَقدم أبو عبد الله محمد الحفصي على أي عمل لاستعادة المدن المفقودة، بل جاءت المُقاومة من جانب السكان، ومن وراءهم العلماء؛ في حين شارك الإخوة بربروس بِفعالية في الدفاع عن جربة مما كان سبباً في عقد تحالف بين الطرفين[3].

وبعد أن بَلغهم انتصاراتهم الكثيرة على الإسبان في عرض البحر المتوسط، انطلاقا من جزيرة جربة؛ ثم من أول قاعدة لهما حِلق الوادي في الشمال الإفريقي المغاربي؛ ومن تونس تَتلاحق عمليات الجهاد الإسلامي البحري وتتلاحم مع حركات القرصنة المُمنهجة؛ للإمبراطورية الإسبانية المسيحية وحُلفائهم وقد ظلت المقاومة المغاربية غير مُنظمة، حتى ظُهور الأخوين بربروس واستطاعا تَجميع القُوات الإسلامية في المنطقة المغاربية وتوجيها نحو الهدف المشترك لصَد أعداء الإسلام عن التوسع في موانئ ومُدن الشمال الإفريقي[4] المغاربي المتوسطية، وقد اعتمدت هذه القوة الإسلامية الجديدة في جِهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قُدرتهم في الدخول في حرب نِظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا [5]، وقد حقق هؤلاء المجاهدين نجاحاً أثار قلق القوى المعادية، بِفتحهم مدينة جيجل وتحريرها من حُلفاء الإسبان الجنويين، لتبلغ ذُروتها بالاستقرار في الجزائر ومارافقها من ثَورات متتالية تولى قِياداتها والتحريض عليها الزعماء المحليون، بتحريض من الإسبان وبَني زيان في تلمسان وسلاطين بني حفص في تونس بالأخص [6]؛ وقبلها كان التعاون من طرف السلطان

---

(1) -ايفانوف نيقولاي، المرجع السابق، ص108 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op, cit, p41

(2) -رضا نور، تورك تاريخي، ج2، إستانبول، 1925م، ص289 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص99.

(3) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص122 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، المرجع السابق، صص180 -181.

(4) -سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص29 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص73.

(5) -أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766-1791)، (م، و، ك)، الجزائر، 1986م، ص54.

(6) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص25-26 وأنظر أيضاً: السيد الدقن، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، دار الكتاب، القاهرة، مصر،1989م، ص129 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص238.

أبو عبد الله الحفصي[1] لهما، قبل أن ينقلب عليهما ويتحالف مع أعدائهم الإسبان؛ أي بكل بسهولة هؤلاء الزعماء لايترددوا في الاستعانة بالعدو مادام قد ضَمن لهم بَقاءهم على رأس سُلطانهم مقابل التكفل بطرد الأتراك بعد تَعريتّهم من مُساندة الأهالي [2].

ولما كانت أهداف الحكام في البلدين متعارضة ومتناقضة ومُختلفة فقد بدأت العلاقات بينهم تميل أولاً إلى الفَتور ثم إلى الصِدام، وكانت بداية الفتور لما تعاون الأخوين عرّوج وخير الدين مع أمير بجاية المُنشق عن سلطان تونس لتحرير بجاية ثم الاستقرار في بلدة جيجل، واتخاذها قاعدة لهما بدل جزيرة جربة في ساحل تونس [3]، وذلك ليكون أكثر بُعد-فيما يبدو-عن مراقبة السلطان الحفصي لنشاطهما.

أما بداية القطيعة أن السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي كان يَرى الأخوين بربروس مُجرد بحارين يغيران على السفن والسواحل الأوروبية، لكن عِندما توالت انتصاراتهما في البر والبحر، ولاح في الأفق أنهما سَيصبحان قوة يمكنها أن تُشكل خطراً على الإسبان وعليه بدأ القلق يُساوره بِشأنهما وقد تأكدت هذه المخاوف أثناء الحصار الثاني للأخوين بربروس لبجاية سنة 1514م، والذي دام 24 يوماً انتهى بِنفاد مالديهما من البارود، فأرسلا إليه يطلبان منه تزويدهما به، فتجاهل طلبهما وامتنع عن امدادهم؟ إلى أن وَصلت الإمدادات الإسبانية إلى القلعة ببجاية؛ الأمر الذي أضطرهما إلي رَفع الحصار عن القلعة مما كان سببا في تكريس احتلال المدينة التي كانت تابعة له ذات يوم [4]، فَنقم الأخوين ورفاقهما عليه ذلك الموقف، "فتغيرت قلوبهم عليه، وحق لهم ذلك"[5]؛ وهكذا فإننا يمكن أن نَستخلص أن مَوقف السلطان الحفصي من الوجود العثماني في الجزائر كان عدائياً منذ حصار الأول لبجاية 1512م وتأكد له أن الأخوين بربروس يَحملان طُموحاً كبيراً يَهدف إلى تحرير كامل الساحل الشمال الإفريقي[6]، والحوض الغربي المتوسطي، انطلاقاً من الجزائر، وهذا المشروع الطَموح يَقضي بِطبيعته إما أن تَقف وراءه دولة قوية تَسنده أو تأسيس دولة قوية تَحضنه تعمل لتجسيده في الواقع وفي كِلتا الحالتين كان السلطان الحفصي مُنزعجاً؛ من هذا الطموح لأنه لم يكن يحكم المملكة القوية التي من شأنها أن تَستند إلى هذا المشروع ولا هو قادر على تحمل وَجود دولة قوية مُجاورة لمملكته يمكنها أن تُهدد وجوده [7] واستمر هذا العداء كسياسة رسمية في مُلوك بني حفص إلى تم فَتح تونس والقضاء التام على الدولة الحفصية نهائيا.

---

(1) – للمزيد – أنظر : الملحق رقم 09 : حول شخصيتي السلطان ابو عبد الله الحفصي وابنه السلطان مولاي الحسن الحفصي.

(2) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص336 وأنظر أيضا : عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2ص887.

(3) –عمر عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة، الجزائر، 2002م، ص87 وأيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص18.

(4) –محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص38 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص11.

(5) –مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص28 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص26.

(6) –علي عامر حمود، المرجع السابق، ص24 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص134.

(7) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص678 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص187 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص88.

إضـافة إلى ما حققه الإخوة بربروس من انتصارات عظيمة على الإسبان، دَفعتهم إلى التفكير بِشكل جدي في تطوير مشروعهم، ليتحول إلى تأسيس دولة حقيقية ناشئة تكون تابعة للدولة العثمانية وهو ما أشار إليه خير الدين بربروس في غزواته، بعدما تمكن هو وأخوه من الاستقرار في قلعة جيجل بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني ومحاصرة بجاية مرتين [1]كل هذه المعطيات وغيرها أقنعت الأخوة بربروس بضرورة تركيز جُهودهم في هذه المِنطقة الحساسة جداً من العالم الإسلامي [2]؛ وبنظرهم الثاقب البعيد أن يُلحقوا المنطقة تحت سيادة الدولة العثمانية لتَوحيد جُهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين، إذن دخول الجزائر وتونس تحت سيادتها؛ بدأت تتداخل من البداية بل وتترابط بحيث يصعب الفصل بينها.

ثانياً-موقف الحفصيين من الأيالة الجزائرية:

إن دُخول الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية، أصبحت إيالة تابعة لها [3] وتَعين خير الدين باي لارباي عليها، وأمده السلطان العثماني سليم الأول بالمساعدات المادية والبشرية لِتوسيع نفوذه في البلاد الجزائرية، وأَمره بِقيادة حركة المقاومة الإسلامية وتَوحيدها؛ لتحرير السواحل الجزائرية وغيرها، وتَقديم الدعم اللازم للمورسكيين ومُحاربة الإسبان وعُملائهم؛ بِدعم قويّ من القِوى الدينية الإسلامية والأهلية في الجزائر وبالدولة العثمانية لِضمان حماية السلطة المركزية العثمانية في الجزائري؛ وبقاءها وتمدد سُلطتها[4] فأصبحت الجزائر منذ ذلك الحين أول وأهم أيالة عثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وكانت تستقدم قوتها البحرية لغرضين أساسين هما: الأول هو حماية حدودها من عدوان محـقق فأسندت لها مهمة تأمين السواحل المغاربية من الاعتداءات الاسبانية وحُلفائهم، ومُساعدة مسلمي الأندلس ومُحاولة استرجاعها [5]؛ والثاني هو الدفاع عن الإسلام من الصليبية المُتعصبة [6] حيث كان على الجزائر أن تلعب دوراً تاريخياً حالماً ضد الصليبية[7]، ويتأكد هذا حينما نعلم أن الرُسل لم تَفتأ تتابع بين الجزائر وإستانبول خلال هذه المرحلة من تاريخ الجزائر؛ فكان من أَثر ذلك أن سادت موجة من الرُعب في جميع أنحاء أوروبا وإسبانيا على وجه الخصوص، لأن هذا الإلحاق يَعني نقل جبهة التصادم والصراع مع الدولة العثمانية إلى سواحل الشمالية والجنوبية لغرب البحر المتوسط؛ وتَجدد الخوف من فِتح الأندلس على يد الأتراك العثمانيون[8].

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص187 وأنظر أيضاً: أمين محمد، فتوحات خير الدين، (د، ن، ع، ط، ن، ت)، القاهرة، مصر، 1988م، ص165 وأنظر أيضاً: السيد الدقن، المرجع السابق، ص142.

(2) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 76 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص187.

(3) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص34 وأنظر أيضاً:.Gaid Mouloud, op,cit,p49

(4) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص76 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص17.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص160 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص859.

(6) -سعد الله أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ط2، ج3، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1978م، ص282 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص ص91-98 وأيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص ص144-164.

(7) -وأنظر أيضاً: سعد الله أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص282.

(8) -ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، ص132 و: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص79.

وكل هذا وأكثر أثار الاستياء الشديد لدى السلطان الحفصي، ونترك لخير الدين يوضح لنا ذلك:" إن هذا السلطان الحفصي الذي لم يكن قادراً على مَواجهة بمفرده؛ ولذلك كان يستعين بالإسبان تارة ويُحرض الأمراء المحليينِ ضدي تارة أخرى، وكان على رأس المستجيبين لتحريضه سلطان تلمسان"[1].

المعـزول عن عرش الزيانييـن لقد كان هذا السلطـان تابعاً لي؛ إلا أنه لم يكـن يتـردد في الاتصال بالإسبان والتحالف معهم سراً، وقد وقعت في يدي الرسالة التي بَعث بها سلطان تونس أبو عبد الله محمد الحفصي إلى سلطان تلمسان أبي حمو الثالث، عارضاً عليه التحالف ضد العثمانيين في الجزائر وجاء ملخص ما في هذه الرسالة: " إن هذا المدعو خير الدين باشا قوي جداً بل هو أشد بَلاء من أخيه عرّوج ها هو الآن قد أستند إلى السلطان سليم خان، ولذلك فلا حدود لِغروره لقد وضع في ذهنه التطلع لدولة عالمية تشمل حتى إسبانيا، إن السلطان يضن أن خير الدين رجل دولة حقاً، فجعله باي لاربايات وباشا وقلده السيف المرصع والخلعة والسنجق السلطاني، وسمح له أن يجمع من الأناضول مايحتاج إليه من الرجال والسلاح، وغير ذلك من التجهيزات العسكرية والأحوط لنا هو أن نكون معاً يداً واحـــدة فلا ندع منهم أي تركـي في إفريقيا، فَهم خـلال 10 سنوات من دُخولهم شمال إفريقياَ صاروا أسياداً علينا"[2].

وازدادت السلطان الحفصي مَخاوفه لدرجة كبيرة من تَزايد قوة خير الدين في المِنطقة [3] وخاصة بعد أن قام العلماء بِتدعيمه؛ والتفاف أكثر أعيان المدن الجزائرية حَوله؛ وقد دَفعت تِلك المخاوف أبو عبد الله محمد الحفصي إلى العمل على التحالف مع سلطان تلمسان الزياني ضِـده، وجاء في رسالته إليه بهذا الصدد: " أنظر إلى ممـلكة الأتراك كيف استـقرت في الجـزائر وأن هذا الرجل الذي هو خير الدين بربروس إن دَامت أيامه، واتصلت في مملكة أعوامه، فلا بد أن يَستولي على مايبدي، فانظر لِنفسك فإن هذا الرجل قد فتـح عمالة الجزائر، واستولى على مدينتها بِطائفة قليلة من العسكر الذين كانوا يَغزون معه في البحر وأما الآن فإن الإمداد تأتيه من السلطان العثماني في البحر، وجميع مايحتاج إليه مُتيسـر من قبله وهو يتـفرغ لي ولك ويَسـلب منا مُلك آبائنا وأجدادنا؛ فتـدارك هذا الخـُرق قبل أن يتسع، وأكون أنا وأنت عليهم يداً واحدة"[4] وقد وجد السلطان الحفصي التجاوب المرغوب لدى السلطان الزياني[5] لأنه كان هو الآخر يخش من تزايد قوة خير الدين، وانتقامه منه، لتحالفه مع الإسبان ضد عرّوج ومُشاركته

---

(1) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص865 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص121.

(2) –محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص180 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص31 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص44.

(3) –عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص99 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص42 وأيضاً Gaid Mouloud, op,cit,p59

(4) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص44.

(5) –Barges L'Abbe, Complément de l'histoire des Béni Zyanne, Pares, 1887, P131.

في الحملة التي قضت على عرّوج[1] وقبله على أخيه إسحاق[2] خاصة بعد أن بُويع خير الدين في الجزائر في أعقاب ماحققه من انتصارات على الإسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم وأصبح محط آمال كثير من المناطق والموانئ التي كانت مازالت خاضعة سواء للإسبان أو لِعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نُصرته أهل تلمسان[3]، ومع أن استنجاد أهالها كان من الممكن جداً أن يكون كافياً لأن يكون ذريعة؛ للتدخل إلا أن موقعها الاستراتيجي الذي كان يجعل من بقاء دولة الجزائر غير مُستتب قد جعل خير الدين يُفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نَجدته؛ وأن مطالبهم قد دَفعته للتعجيل بذلك، فهل يبقى السلطان الزياني مكتوف الأيدي !

بل لم يرتح سلاطين تلمسان لوجود الأتراك في الجزائر واتبعوا كما رأينا سياسات مُختلفة تبعا للظروف المحيطة بهم ألاَّ أنهم عَملوا كل مابوسعهم لزعزعة الاستقرار وتأليب القبائل ضد الأتراك[4] العثمانيين، فمن ذلك أن سلطان تونس أبو عبد الله محمد الحفصي والسلطان الزياني أبو حمو الزياني اتفقا بأن يتولى السلطان الحفصي مُهمة تأليب واستمالة ابن القاضي، الوالي على القبائل الشرقية ليسهل عليهما القضاء على خير الدين في الجزائر[5]، على أن يتولى صاحب تلمسان مهمة استمالة وتأليب محمد بن علي الذي جعله خير الدين باشا نائباً عنه في غرب الجزائر [6] والوالي على القبائل الغربية[7] وشرعا كل واحد من جهته في الاتصالات السرية بمساعدي خير الدين المذكورين[8]؛ وكان خير الدين بِعلمه بما يُحاك ضده بقوله:" وكان من نتيجة هذه المشاورات؛ أن اتفقا عليا؛ بأن يقوم السلطان أبو عبد الله الحفصي بإقناع ابن القاضي بالتمرد، بينما يقوم سلطان تلمسان أبو حمو الثالث بتأليب محمد علي ومن جَاوره من القبائل وتقديم كل أشكال الدعم لهم للقضاء عليه ؛ فكتب سلطان تلمسان إلى محمد ابن علي يدعوه للتخلي عني والتحالف معه ضده"[9]؛ ولم يكتف بذلك بل قام بتحريض الأعراب في غرب الجزائر

---

(1) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص137.

(2) – للمزيد عن هذه الأحداث أنظر: مارمول كربخال، إفريقيا تعريب محمد حجي وآخرون، دار النشر للمعرفة، ج3، الرباط، (د –ت)، ج 1، ص339 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص32-34.

(3) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص676 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، (م، و، ك)، الجزائر، (1405هـ-1985م)، ص86.

(4) -Haedo Diego, op, cit, p 46.

(5) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص239.

(6) - Marmol (C), L'Afrique, trad, en français par d'Ablancourt N.P,Paris,1667, P89.

(7) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 10: خريطة حول الحملة الحفصية على الجزائر العثمانية 1520م.

(8) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص40-50 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص339.

(9) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص34 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص101.

وبذل لهم الأموال الطائلة لاستمالتهم إليه فما كان من الباي لارباي خير الدين إلا أن خرج إليه في جيش كثيف وأخضع الثائرين ولم يوفق صاحب تلمسان فيما سعي إليه[1].

أما السلطان الحفصي فقد نجح في استمالة ابن القاضي إليه، وجهز حملة عسكرية نحو الجزائر للقضاء على خير الدين فيها، فاتحاً باب العداء على مصراعيه بينه وبين باي لارباي الجزائر فقد كان السلطان ابو عبد الله الحفصي [2]؛ يعمل جاهداً على تحريض حركات التمرد بزعامة أحمد ابن القاضي ضد الحكم العثماني ويصف لنا المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف شارحاً الأسباب التي دفعت السلطان الحفصي إلى معاداة خير الدين: "ولما علم بذلك (انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية) أبوعبد الله محمد بن الحسن دَاخلته الغِيرة الملكية، واشتد حذره من خير الدين، وتحقق أنه إذا وصل يده بالدولة العثمانية سهل عليه الاستيلاء على المملكة التونسية وندم على إضاعة الحزم، فركب متن الفساد والفتنة بين نواب خير الدين، وكَاتب صاحب تلمسان يُحذره غائلة خير الدين، وجرت بسب ذلك حروب يطول شرحها" [3] إذن العلاقة بين أيالة الجزائر العثمانية الفتية؛ وتونس الحفصية ولاسيما بين حكامها العثمانيين [4]والحفصيين قد غَلب عليها الصراع والعداء منذ بداية القرن 16م.

فقد كان خير الدين محقاً بِتخوفه، لأن الإسبان وحكام تلمسان كانوا يخططون للهجوم على الجزائر، عَقب استشهاد الرئيس عرّوج، لكنهم اكتفوا بما حققوه من نصر، وهو مايصفه لنا خير الدين بقوله" أما سلطان تلمسان فقد بدأ بِتململ بالاتفاق مع سلطان تونس، وفي هذا الوقت كانت أهالي تلمسان قد ضاقوا ذرعاً بالنزاع على العرش بين أفراد البيت الزياني أما الإسبان فقد كانوا يتفرجون في نشوة على ما يجري في تلمسان" [5]؛ وقرر الإسبان الانسحاب نتيجة للخسائر التي تَكبدوها خلال المراحل السابقة وبانسحابهم، مَنح خير الدين القوة وغَدا المجال أمامه مفتوحاً للتحرك بِمواجهة المرحلة القادمة، وكان من جملة العوامل الأخرى التي دفعت الإسبان لسحب قُواتهم هو مالمسوه من شجاعة الأتراك أثناء حصار قلعة بني راشد، فأدركوا صعوبة المواقف التي يُواجهونها في الجزائر [6].

كان والي وهران مُصمماً على إخراج الأتراك من الجزائر، فاتفق مع حاكم تلمسان وعرضا على الإمبراطور شرلكان الأخطار الناجمة عن بَقاءهم[7]؛ الذي كان متأثره لهزيمة قائده "دون دييجو دويفيرا"1520 ولديه نِية مُسبقة بِشن حرب ضدهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى عَلم باي لارباي

(1) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص34 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص45.

(2) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص65 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص28.

(3) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص11.

(4) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص403.

(5) -محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص182 و: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص101.

(6) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص128 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 81.

(7) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 11: شخصية الإمبراطور الإسباني شرلكان.

خير الدين بما ينويه الملك الحفصي؛ بِتحريضه لابن القاضي وذلك عن طريق جواسيسه وعيونه[1]؛ وبعد تفكير وتخطيط قرر خير الدين تَجسد خطته على أرض الواقع من التصدي للمخطط الإسباني أو ماأسميه (الهجوم من الداخل) بواسطة مُحاصرة الدولة الجزائرية الفتية في عاصمتها وضواحيها من طرف ابن علي ومن وراءه السلطان الزياني يشجعه؛ بتقديم له الدعم المادي والمعنوي هذا من جهة الغرب أما من الجهة الشرق التي كانت أقوى من الغربية في التأمر والمواجهة ووجها لوجه- السلطان الحفصي مع خير الدين.

ثالثاً-ثورة ابن القاضي وقارة حسن 1521م:

كان الشيخ أحمد ابن القاضي(الأب) أحد علماء الدين، تَولى القضاء في بجاية الحفصيين فترة من الزمن قبل أن يَقوم الإسبان باحتلالها، ثم اِنتقلت إليه زَعامة القبائل البربرية بِبلاد زواوة سنة1511م كما كان أحد الزعماء المحليين الذين دعوا الأخوين بربروس للتدخل لتحرير بجاية من الاحتلال الإسباني وأشترك معهم في حصارها[2] وفي هذا المعني يقول المؤرخ المغربي محمد الصغير الوفراني، مُبينا السبب الذي جعل ابن القاضي يستدعي الأتراك لتحرير بجاية:" لِما رأى قوة شوكة الكفار وانتشارهم في المغرب وضعف مقاومتهم لهم، كاتب الترك، وعرّفهم عزة هذه البلاد لما سمع من شدتهم في المعارك، ونجدتهم في الحروب والمضايق، وإرهابهم الكفرة، فقصد بحسن نية أن يرفعوا من عزة الإسلام ماأنخفض، ويقووا من أمره ماضعف" [3]؛ وإن الموقف المُساند للأتراك من الطبيعي أن يَجعله مُقرباً من خير الدين باشا وأن يَكون من أوثق الناس به ولأجل مكانته عند خير الدين أُختير ليكون عل رأس الوفد الذي أرسله أعيان مدينة الجزائر لمقابلة السلطان العثماني في استانبول عارضين عليه حِمايةَ بلدهم وإلحاقها به[4].

وعندما أسس خير الدين باشا إيالة الجزائر، كَافئ العالم الجليل ابن القاضي على جُهوده وقدر مَكانته فَعينه بعد استشهاد أخوه عرّوج رئيس؛ نائباً عنه بأن جعله واليا على منطقة الشرق الجزائري كله حتى حدود المملكة الحفصية [5]؛ بينما عين زعيماً محلياً أخر؛ وهو أحد أخلص رجاله يُدعى محمد ابن علي على المنطقة المحررة من الغرب الجزائري [6]؛ حتى الحدود مع نفوذ المملكة الزيانية؛ أي مشاركة العنصر المحلي في أمور السياسة والحكم؛ ومع العلم أن هذا ثاني تقسيم إداري يقوم به الأتراك العثمانيون بعد

(1) -صالح عباد، المرجع السابق، ص29 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص72.

(2) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص ص211-214 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص147-148 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص33.

(3) -ابو عبد الله محمد الحاج الصغير الأفراني، (المتوفي حوالي 1152هـ/1739م) نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، نشر هوداس، انجي، المغرب، 1877م ص17.

(4) -عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: أحمد بن محمد لحموي، مخطوط فضائل سلاطين بني عثمان، تحقيق محمد سليم، دار النهضة العربية، مصر،1993م، ص89.

(5) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص148 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص142.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص337 وأيضاً: حساني مختار، المرجع السابق، ص79.

دخولهم إلى الجزائر، وقد كان التقسيم الأول في عهد عرّوج رئيس حيث قسم البلاد الجزائرية المفتوحة قسمين [1] جاعلاً من أخيه خير الدين شرق الجزائر وأختص نفسه بالقسم الغربي منها [2].

وفي الوقت الذي كان فيه خير الدين يُحاول تثبيت وجوده في الجزائر، لكي يَفرغ بعد ذلك لطرد الإسبان من مُدنها الساحلية، راسل السلطان الحفصي أحمد بن القاضي(الأب) مُحرضاً له للثورة والتَمرد على خير الدين، واعداً إياه بأن يكون معه يداً واحدة ضد الأتراك، مما جاء في رسالة السلطان الحفصي التي بعثها إلى الشيخ ابن القاضي قوله:" لنكن أنا وأنت يداً واحدة لاستئصال شأفة الأتراك، ونَطرد خير الدين من الجزائر، فأكون أنا سلطاناً عليها مَكانه، ووقتها سوف أغدق عليك أموال كثيرة طائلة" [3] إلا أن الشيخ أحمد بن القاضي رَفض ذلك؛ ورد على السلطان الحفصي يُوبخه على هذه الخِيانة مُتسائلاً عن الداعي الذي جعله يكيد لخير الدين على هذا النحو وهو الذي جاء لِنصرة المسلمين ومُجاهدة الكفار بإجابته برسالة جاء فيها: "يا عجباً! أي شيء فعله معك خير الدين من الشر حتى تكتب لي فيه بِمثل ماكتبت؟ فإني لاأقدر على خِيانته، ولايساعدني قلبي على المكر به؛ فاقطع طَمعك مني فإني لاأتابعك على ماتريد، ولايحصل مني نَدم إن شاء الله" [4].

ثم مالبث ابن القاضي أن تَوفي، فولي إمارة الكوكو ابن له يحمل نفس اللقب العائلي الذي اشتهرت به عائلة ابن القاضي [5] وخَلف مكانه أيضاً: على الشرق الجزائري؛ ولايبخل علينا خير الدين بشهادته:" لقد كان ابن القاضي أحد عُظماء العرب بالجزائر، كما كان يَكن لي قدراً كبيراً من الصِدق والمودة، حاول سلطان تونس أن يُحرضه للخروج عليا؛ إلاَّ أنه لم يُوافقه على ذلك ودعاه إلى لُزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم، الآن توفي هذا الرجل العاقل وحل محله ولد طائش يُدعى ابن القاضي أيضاً، فكان أول مافعله أن اتفق مع سلطان تونس"[6]؛ لإخراج خير الدين من الجزائر وأن أكون أنا مَكانه في الملك والحكم؛ وهذا ماوعد ابن القاضي السلطان الحفصي في الرسالة التي وقعت في يد خير الدين وهذا مايوضحه لنا خير الدين بربروس بنفسه بقوله :" كانت الرسالة التي بعث بها هذا الولد الشقي ابن القاضي إلى سلطان تونس قد وقعت في يدي، وذلك قبل أن يمضي شهران على وفاة والده، ومما جاء في تلك الرسالة:" لنكن أنا وإياك يداً واحدة لاستئصال شأفة الأتراك، ونَطرد خير الدين من الجزائر فأكون أنا سلطان عليها في مَكانه، وقتها سوف أغدق عليك أموالاً كثيرة طائلة لقد كان والدي يحب الأتراك

---

(1) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 12: حول التقسيم الإداري الأول للجزائر في عهد عروج بربروس والثاني في عهد خير الدين بربروس.

(2) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص114 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص413.

(3) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص147-148 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص147 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص47 وأنظر أيضاً: وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 84.

(4) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص109وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 112.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص 112 وأنظر أيضاً: .de Grammont Henri, op, cit, p29

(6) -محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص183و: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص108.

كثيراً أما أنا فلا يُوجد قوم أبغض إليّ مِنهم "[1]؛ وفعلاً لم تبقى مدة حتى أرسل السلطان الحفصي قواته البرية للإغارة على المناطق التابعة للباي لارباي خير الدين بشرق الجزائر؛ فوجه له هذا الأخير قوات لِصدها وهو مايوضح لنا بنفسه بِقوله :" ومع هذا فقد استجابت بعض القبائل لتحريض سلطان تونس فأرسلت إليه قوة مكونة من6000 راجل و6000 فارس فتم تأديبها وجعلها عبرة لغيرها" [2].

ومع هذا بقي خير الدين يَجوب وَيجول في شرق الجزائر، لِيؤمن الناس ويَبث الأمن بين القبائل ولكن مع كل هذا فإن بُؤر التمرد ومَنبع العصيان؛ تأكد أكثر مِنهم؛ عن التحالف بين السلطان الحفصي وابن القاضي؛ ولِندع خير الدين يُخبرنا بما كان:" عرفت ماكانا يُحيكانه من مُؤامرات ضدي، فخرجت لسلطان تونس باثني 12000 من رجالي وعَسكرت، فَعندما رآني سلطان تونس من بعيد حسبني حليفه ابن القاضي، فَأمطرته بِوابل من القذائف جعلت قواته تَتشتت كحبات العقد، ووقع السلطان في الأسر وَجيء به إليّا، فلم أجد بداً من أن أَنصحه وأُحذره من تِكرار فَعلته تِلك، ثم أمرت بإطلاق سَراحه، كُنت أعرف أنه سوف يَقتلني شر قتلة لو وقعت أسيراً في يديه إلا أن عفوي عنه ومأأظهرته من رُفق به جعلت كل أهالي إفريقيا يتعلقون بنا ويزدادون حبا لنا"[3] وتمكن بالفعل من تحقيق انتصار ساحق؛ وأسر السلطان الحفصي إلا أن خير الدين قَدّر بأن إطلاق صراحة والعفو عنه سوف يظهره بَمظهر النبيل الذي يعفو عند المقدرة [4]وحَذّره من تكرار فِعلته وأطلق سراحه [5]؛ وفي هذه المعركة استوليت على 300خيمة أمرت بإرسالها إلى الجزائر؛ بينما أقمت في تلك المنطقة بين5 أيام أو10 ثم أعطيت أمري بالتحرك للعودة للجزائر" [6]، لأن القبائل المجاورة لمدينة الجزائر قد أَعلنت عِصيانها وتمردها فاضطر خير الدين إلى تأديبها قرابة 6 أشهر، إن الوضع سيئ للغاية: فقد تخلي ابن القاضي عن الصفوف كان مدفوعاً من سلطان تونس بِفك هذا التحالف مع بربروس[7] وكل المؤشرات تَدل على التمرد ورفع راية العصيان عن السلطة المركزية والرغبة في التَسلط، وتَوسيع النُفوذ؛ لم تَدعا ابن القاضي يكتفي بما هو عليه من سلطان، فَطمحت نَفسه إلى الاستجابة لإغراءات سلطان تونس خصوصاً وأنه لاحظ اضطراب وَضع خير الدين بعد مقتل أخيه عرّوج، إذ انطلقت حركات التمرد في معظم المناطق التي كانت خاضعة له

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص46 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص109.

(2) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص41 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص184 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص102.

(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص110و: محمد ابن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 179.

(4) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص48 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص56.

(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، 110 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص87.

(6) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص48 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص111.

(7) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص39.

أضف إلى ذلك فإن الأسطول الإسباني كان يتوقع وَصوله إلى مياه الجزائر بين عشية وضُحاها فكان وضع خير الدين يبدو في حكم المنتهي، هكذا كان الجو العام في الفترة التي أُعلن ابن القاضي تمرده [1].

ومما لاريب فيه أن هذه المكائد قد أثرت على العلاقة الحسنة التي كانت بين ابن القاضي والعثمانيين وذلك أنه أًصبح رافضاً لحكمهم هذا؛ على الصعيد المحلي والوطني والمغاربي، ويؤثران بتأثيرهما أيضاً على الصعيدين العالميين المسيحي والإسلامي فيما بعد.

إن صَفاء قلب الباي لارباي خير الدين دفعه إلى تسليم نصف البلاد إلى أحمد بن القاضي مُعتقداً أن ذلك يساعد على استقرار الأمور واستتاب الأمن، فاتفق مع حاكم تونس وجَمع القبائل حوله وحرضهم ضد الباي لارباي خير الدين وحينما اطمأن إلىَ تأييدهم له، جهزهم بالسلاح، وتحرك حسب الاتفاق مع الجيش التونسي باتجاه الجزائر [2]؛ ولكن أحمد ابن القاضي أجل عملية الهُجوم بسبب حلول فصل الشتاء وأجرى، صُلحاً مع خير الدين باشا ثم توجه إلى تونس، فاستغل أخوه فُرصة غِيابه وعقد تحالفاً مع الجزائر، بعدما أخبر خير الدين بالاتفاق الذي عقده أخوه ابن القاضي مع حاكم تونس سراً [3].

ومع هذا أعلن ابن القاضي عن تَحالفه مع خير الدين، فجهز قواته وانضم إليه، وحينما كان خير الدين يُحارب القوات التونسية، اِنقلب أحمد بن القاضي وجُنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين وهذا مايوضح لنا صاحب الغزوات بقوله:" وعندما عُلم خير الدين بالدسائس التي يحيكها السلطان الحفصي، كَتب إليه يلومه على فِعله، لكن السلطان بدلاً من أن يُعيد النظر في مَوقفه، جهز جيشا لغزو الجزائر، فتوجه خير الدين إلى المنطقة الشرقية وعسكر بها، حتى إذا اشتبك الجيشان التونسي والعثماني المكون من الجزائريين، فَاجأ ابن القاضي خير الدين بِتمرده وحَصره في وسط القوتين الحفصية والجيش الذي كان معه، فَكلفتهم خسائر كبيرة، وقُتل الكثير من رجال خير الدين"[4] ولم يَنج مِنهم سِوى عدد قليل من البحارة تمكنوا من الانسحاب مع خير الدين بِصعوبة بالغة إلى الجزائر [5] وألحق به من جراء هذا التآمر انهيار معنوي وهَدر مادي؛ على إثر هذه الهزيمة التي لحقت بخير الدين وزيادة على هذا فقد نُفوذه فيما بعد خارج مدينة الجزائر، وتَذبذبت الولاءات للدولة الجزائرية[6] الفتية.

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص337 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 76.

(2)- كوريين شوفاليه. المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص35.

(3) -عبد الكافي أبوبكر، تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس،1966م، ص56.

(4) -عبد اللطيف بوجلخة، الدولة العثمانية، دار المعرفة، الجزائر، 2005م، ص95 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص46 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص50.

(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص50 وأنظر أيضاً: أبو عبد الله محمد باشا الجزائري، (المتوفي 1331هـ/1913م)، تحفة الجزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ط1، الطبعة الأهلية الاسكندرية، مصر،1903م، ص95.

(6) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص58.

فكاتب السلطان الحفصي مرة أخرى ابن القاضي مُحرضه على ثَورة كبيرة على الأتراك، مُعلنها عَلنن هذه المرة؛ واعداً إياه بالدعم والمساندة بل أغراه بأنه يقوم بِمهاجمتهم من الشرق بينما يهاجمهم ابن القاضي من الجنوب، وقارة حسن من الغرب، وهكذا يجد خير الدين نفسه بين فكي كماشة، وندعى خير الدين يروي لنا ذلك:" وبالفعل لم يَكتف سلطان تونس بالقول، بل تَعداه للفعل فقام بتحريض ابن القاضي الذي اتفق معه بعد تَردد على أن يقوم السلطان الحفصي بغزو الجزائر ـ لأنها نظرياً كانت تابعة له ـ على أن يقوم ابن القاضي بمهاجمة الجزائر من الخلف" [1] ولن يكون في وِسع خير الدين سوى التسليم بالأمر الواقع ومُغادرة الجزائر إلى الأبد لِيخلو الجو لأبن القاضي لكي يجعل من نفسه سلطانا على الجزائر وهو ماوافق عليه ابن القاضي عن إعلان الثورة؛ وأعلن تمرده بعدما راسل البحار التركي قارة حسن، الذي وعده بأن يجعله قائدا للأسطول وواليأً على غرب الجزائر [2]؛ وهذا مايبينه لنا خير الدين بقوله:" شرع ملوك وأمراء تونس وتلمسان في التحالف مع الكفار إسبانيا وحبك المؤامرات ضدنا سراً وعلانية لقد كانوا يعلمون بأننا سوف نُزيحهم عند أول فرصة تُتاح لنا؟"[3].

وبينما كان خير الدين مُنشغلاً قافلاً إلى الجزائر بعد ماأصابه من خيانة ابن القاضي له وتَحالفه مع القوات الحفصية ضِده؟ إذا به يُفاجأ بِهجوم جديد مُباغت تَشنه عليه قوات ابن القاضي من كل جانب، وبِسبب شدة المفاجأة وسُرعة المباغتة التي لم يكن يتوقعها خير الدين من ابن القاضي فقد الكثير من رِجاله ويسرد لنا خير الدين ماحدث:" كنا نمر عبر ممر شديد الوعرة لايمكن أن يسير فيه راكبان جنباً إلى جنب، في هذا الوقت كان ابن القاضي قد كمن لنا هناك هو ورجاله، فلم نشعر إلاَّ وهم يَهجمون علينا من كل حَدب وصوب، لم أكن أتوقع أن نقع في مثل هذا الكمين، وهكذا بِسبب عدم مُلائمة المكان للقتال مع هَول المفاجأة فقدت الكثير من رجالي، دامت المعركة ثلاثة ساعات ونصف تمكنا بعدها من تجاوز الممر واستطعنا أن نصل إلى الجزائر، لقد سقط في هذه المعركة 750 شهيداً من البحارة وبسبب هذا الغدر أخذت على نفسي عهداً أن أنتقم من ابن القاضي ولن أعفو عنه أبداً"[4] ولم يتمكن خير الدين مع من بقي معه من الرجال من الانسحاب إلى الجزائر إلاً بصعوبة بالغة، وهذا مايخبرنا خير الدين لنا بمرارة بقوله:" كان تقديراً إلهيا، حيث هزمت ملك تونس وأسرته، ولم أتمكن من الانتصار على بدوي أعرابي مثل ابن القاضي" [5] ففي الوقت الذي كانت فيه فَرائص مُلوك أوروبا تَرتعد بِمجرد ذكر اسم "بربروس" كانت حركات العصيان والتمرد تتوالد في الجزائر، لقد بلغ الغرور بابن القاضي حداً لايطاق

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص337 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص222.

(2) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص45.

(3) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص58 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص65.

(4) -رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص291 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص112.

(5) -لحسن قرود وسَلمان توفيق، خدمات الدولة العثمانية للإسلام والمنطقة العربية، مذكرة لنيل شهادة الللسانس تاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، (غ-ن)، (2005م-2006م)، ص68 أنظر أيضا: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص111.

عليه حتى صار يُباهي بقوله: "لقد هزمت خير الدين باشا، وعن قريب سأضرب عنقه إن شاء الله"[1] والتي تركت هذه الحادثة في نفسيه خير الدين إحساساً بالمرارة ويكمل لنا ماحدث:" إن هؤلاء الأعراب لاعلم لهم بفن الحرب، ويحسبون أن قتال الجيوش النظامية يشبه أعمال النهب في الصحراء، إن الإسبان العارفين بفنون القتال ذاقوا مرارة الهزيمة مرات عديدة على يد البحارة الأتراك، فلو كان لهؤلاء البدو عقل لما عرضوا أنفسهم لِلهلاك" [2]؛ فبالرغم من رَغبة الأتراك العثمانيين في تأسيس دولة جزائرية مُوحدة قوية إلا أن سياستهم كانت تقوم على مُسالمة هؤلاء الزعماء واستثمار وَلائهم للأتراك العثمانيين؛ لتكوين تحالف محلي ضد الإسبان الذين كانوا يمثلون عدواً مشترك بينهما[3]؛ ولكن الأحداث التي تلت استشهاد عرّوج رئيس أثبتت أن هذا المطمع عزيز يستحيل تحقيقه! أين تكالبت الظروف الصعبة على سلفه خير الدين باشا؛ وكثرة المشاكل الإقليمية مع بقايا نفوذ الدولة الحفصية؛ والمتاعب الوطنية الكبرى من طرف الزعماء المحليين وعلى رأسهم ابن القاضي؛ ويوضح لنا خير الدين هذه المأساة بقوله:" بلغني أنه جمع حوله عدداً كبيراً من الأعراب وقبض على500أسيراً تركي قام بتقيدهم بالسلاسل الثقيلة، وربطهم بالرحى وجَعلهم يدورون حولها وهم مُقيدون فكتبت إليه أن يَطلق سراحهم، وإلا فإن عَاقبته سوف تكون وخيمة لم يجب طلبي بل راح يُسوف مدة قبل أن يعلمني صراحة بأنه لن يَفك أسرهم لأنهم سوف يَثأرون منه عِندما يبلغون مَأمنهم [4]، ومن جانب أخر أرسل إلى كل النواحي يدعوهم إلى التمرد قائلاً: "ما الذي جاء بالأتراك إلى الجزائر؟ هذه بلاد العرب لنجتمع ونتخلص منهم جميعاً[5]"؛ لهذا نجد زعماء التمرد يستخدمون نُفوذهم المعنوي مدعومين بالدعاية المُضادة التي تَهدف إلى تشويه الأتراك وتضخيم أخطائهم لكي يَعطوا لأنفسهم المُبرر السياسي لما يقومون به من تآمر ضد من جاءوا لحِمايتهم وحِماية بَلدهم [6].

وفعلاً استطاع ابن القاضي أن ينتهز هذا الوضع الجديد ويستولي على النواحي الشرقية للجزائر بل تمكن من إثارة سكان الجبال، وأعيان بعض مدينة الجزائر ضد الأتراك فانتشر التمرد في سَائر المناطق التي كانت خاضعة لخير الدين [7]؛وقام ابن القاضي بِمراسلة قارة حسن لتنسيق معه ميدانياً لمحاصرة قوات الباي لارباي خير الدين في الجزائر والفَتك بها؛ حسب الخطة المدروسة سابقاً مع سلطان ابو عبد الله

(1) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، صص114-115 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص111 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص43.

(2) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص182 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص152 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص106.

(3) -عبد العزيز سليمان، الشعوب الإسلامية، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1999م، ص134.

(4) - سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص78-79 وأنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص111.

(5) - مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص47 وأنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص112.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص336 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص865.

(7) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص149 أنظر أيضا:Gabriel Esquire,op ,cit , P57

محمد الحفصي ونترك خير الدين يسرد لنا ماجرى:" وفي ظل هذه الظروف خُيل لبعض الأتراك الذين كانوا في صُفوفنا بأنه لايمكنني أن أحتفظ بالجزائر، ومن هؤلاء أحد البحارة الأغرار يُدعى قارة حسن الأسود؛ لقد حدثته نفسه أن يَنقلب علي ويجلس في مَكاني، وأوهمه عَقله الصغير بأنه بِمقدوره أن يفعل ماعجزت عنه أنا، وعندما بلغني بأنه قد راسل ابن القاضي قُمت بِطرده (1)".

لقد كان الأمل يَحدوا ابن القاضي لأن يجد نفسه يوم ما مَلكاً على الجزائر (2)؛ مثل ملك تونس فقد كان في نظر نفسه أحق بذلك منه باعتباره في بلده وبين قومه الذين من شأنهم أن ينصروه سنداً وعوناً (3)، وحتى الإسبان فإنهم من المتوقع أن لايعلنوا عداءهم له باعتباره لايحمل من الطموح مايحمله خير الدين الذي ربط مصيره بالدولة العثمانية العدو الأولى لهم (4) إذن الدواعي التي دفعته إلى تمرد هي:

01-طمعه في أن يكون ملكاً بديلاً عن خير الدين ليرتقي إلى مَنزلة حليفه الملك الحفصي!

02-اعتماده على بَني قومه وأنصاره الذين سوف يكونون سنداً وعوناً له.

03-ثقته الشديدة في السلطان الحفصين الذي كان يَتوجس خِفية من امتداد نفوذ خير الدين ليصل إليه

04 -توقعه أن يلقي تأييداً من إسبانيا، كونه لايشكل خطراً عليهم(5).

ولهذا جمع ابن القاضي جمعاً من انصاره ولم شَمل اتباعه وزاد في طريقه من يَملئ الطمع قُلوبهم من الاستحواذ على الغنائم مع كل مِنطقة يمر بها؛ إلى أن وصل على مشارف الجزائر، وندع لخير الدين يصف لنا ماألت إليه الأمور:" وفي النهاية هَبت العاصفة وشن ابن القاضي هُجوماً كبيراً بجيش قومه 40000 رجل، كنت مُتأهباً لذلك لأنني توقعت مثل هذا الهجوم من قبل، بل كان لدي جواسيسي في مَجلس ابن القاضي نفسه، وكل مايقال ومايُراد فِعله كان يصلني أول بأول(6) قمت بإرسال 10000 بحارا، للتصدي للثائرين، فاشتبكوا معهم في معركة كبيرة دامت حتى العصر، فقدت في تلك المعركة 2000شهيد و2000جريح، إلا أن المعركة انتهت بالقضاء على العُصاة عن بِكرة أبيهم ولم يَنج منهم سوى 700 ثائر، أما بقيتهم فقد تم قَتلهم أو أسرهم (7)".

كذلك فقد أعلن بعض الجزائريون عن تمردهم وعَصيانهم إلا أنهم لم يملكوا الشجاعة والجُرأة على مُهاجمة الأتراك الموجودين في القلعة(8)، وبما أن علاقة الأتراك لم تكن حسنة مع المناطق المجاورة لذلك

(1) - محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص 51 أنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق،ص113.

(2) - سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً :كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 87.

(3) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً : علي عامر حمود، المرجع السابق، ص44.

(4) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص91 وأنظر أيضاً : مارمول كربخال، المرجع السابق، ص418.

(5) - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ، المرجع السابق، ص122أنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص112.

(6) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص34 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص114.

(7) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص47 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص113.

(8) - يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص44 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص157.

بقي الأتراك بدون أرزاق ولوازم، وفي هذا الصدد لخير الدين رأي:" شعرت بحالة من الفُتور وقلت يجب أن أعطي لأعيان وأهل الجزائر درساً لن ينسوه أبداً، فابن القاضي كان مُتلهفاً ليكون سلطاناً على الجزائر إلا أنني لو ترَكت له الجزائر فإنها سوف تَتمزق مرة أخرى إلى ألف قطعة، وتَترامى في أحضان الإسبان واحدة تلو الأخرى، فلا ابن القاضي يملك القُدرة ولاالخِبرة على توحيد الجزائر ولاهو يَملك العقل والشجاعة ولاالجيوش؛ التي تمكنه من التصدي للإسبان، ليس هذا فحسب بل لم يكن لديه لاأسطولاً ولاحتى سفينة واحدة، ترى عندما تملأ أساطيل الإسبان الكفار الأفق كيف له أن يَرفع رأسه؟" [1].

ومع هذا أصبح خير الدين شبه مُحاصر وبعد تفكير طويل قرر ترك المدينة والرحيل منها بعدما تنكر له بعض أعيانها وأهاليها له ويصف لنا هو الوضع:" يكف أن نُحظى بمساندة الأهالي، أما إذا بدا أنهم ليسوا سُعداء بوجودنا فتركنا لهذه الدِيار يصبح أمراً لازماً، كُنت أفكر في هذا الأمر منذ زمن بعيد ولأجل ذلك اتخذت قراري بِشكل قطعي، كُنت أدرك بأننا عندما ننسحب لن يتمكن أحد من الأهالي من إدارة الجزائر، وفضلا عن عدم قُدرتهم على التصدي للإسبان، فإن اِنسحابنا سوف يُلحق أضرارا بالغة بالحركة التجارية التي يَمتد أثرها إلى الجميع "[2].

لكنه تَخوف من مهاجمة الأعداء له عند تَنفيذه لقراره، وقِيامهم بمحاولة مَنعه من أخذ أمواله وعائلته فتظاهر بتسليم البلاد لقارة حسن وكَلفه بإدارتها، وبحركة جماعية سريعة أخلى القصر، وحمل أشياءه وأمواله على متن سُفنه، وليكمل لنا هو:" وذات صباح حملت بحارتي وعائلاتهم وأموالهم في سفني 25 التي كانت راسية في المرسى، وأرسلت إلى بقية السفن التي خرجت للغزو أو تلك التي كانت في عَرض البحر، أن تتوجه إلى ميناء جيجل بدلا من مِيناء الجزائر" [3] ثم تَنادى الأشراف والأعيان وطلب منهم خير الدين إقامة صُلح مع حاكم تونس أبو عبد الله محمد وابن القاضي وقارة حسن، الذين لاأمان معهم ولاحماية مِنهم إلا بنيل رِضاهم واتباع أوامرهم؛ وهذا هو المُناخ السائد، والذي يشهد عليه خير الدين بقوله:" خُيمت أجواء من الحُزن والكَآبة على قَلوب عدد كبيراً من الأهالي بِسبب عزمنا على مغادرة الجزائر، وعندما شرعنا في ركوب سُفننا تعالت أصواتهم بالبكاء وهم يقولون: "إذا جاء الإسبان غداً فمن يحمينا منهم؟! ثم شرعوا في الدعاء على ابن القاضي الذي أصيب بالذعر هو الأخر فكتب إلي يَعتذر عن عِصيانه وتمرده، طالباً بكل وقاحة أن أعفوا عنه مثل مايعفوا الوالد عن ولده العاق!" [4]؛ وألقى خير الدين بمفاتيح القلعة قائلاً لهم لتكن أهالي الإسلام ودياره أمانة في أعناقكم وذلك حسب قوله:" لم أقبل

(1) - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ، المرجع السابق، ص122أنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص114.

(2) -اسماعيل حقي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، 1996م، ص95 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 88 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص117.

(3) -ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص185 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص118.

(4) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص147-148 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص118.

اعتذار ابن القاضي وقلت لرسوله: "هاهي مفاتيح قلعة الجزائر سَلمها لِسيدك المُتلهف إلى السلطان والملك وليأتي إلى الجزائر وليستمتع بالجلوس على عرشها بعد أن وَلغ في دماء المسلمين، ولننظر كيف يُدير أمور البلاد"(1)؛ وبما أن الرؤساء والأعيان لم يفكروا إلا بِمصحتهم الذاتية وأن الأهالي كانوا أُلعوبة بأيديهم(2) فلم يتصوروا أن خير الدين سَيفارقهم(3) أسرعوا إليه وطلبوا منه البقاء وطلبوا من الرياس الذين قَضوا ليلتهم في الجزائر إقناعه بالبقاء والعُدول عن السفر والمفارقة وبدأ الجميع يتساءل عن المصير الذي يَنتظرهم، أن ماقدمه خير الدين، من تضحيات بالأموال والأرواح بقصد جعل هذه البلاد نُقطة استناد للإسلام، يضطر مَكرها على تركها، بعدما عَمل خلال السنوات الثلاثة الماضية على صِيانتها وتدريب أهلها على الالتزام بالنظام إضافة إلى ماحققه من انتصارات رائعة رفع فيها اسم الجزائر عالياً ويصف لنا خير الدين الوضع:" قبل قدومنا كانت عادة الأهالي عِندما يرون الكفار يتفرقون كأسراب الطير في السماء، فمنذ أكثر من 100سنة، لم يَكن في الجزائر دولة ولاحكومة، لقد كان الكفار يعرفون هذا ولأجل ذلك إِستولوا على أحسن الموانئ الجزائرية، والآن فإن كل مابنيناه يُوشك أن يذهب في لَمح البصر بِسبب حفنة من المعتوهين والسُفهاء وإن الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي حدث في البلاد بسببنا سوف يختفي بِمجرد مُغادرتنا؛ إلا أن أصحاب العقول الصغيرة كانوا غَافلين عن هذه الحقيقة (4)".

فلولا الخيانة من طرف ابن القاضي التي تركت المنطقة كلها مابين ثوران، وغَليان ضد الوجود العثماني في الجزائر ومحاولة إجهاض الدولة في المهد، زِيادة على تخوف خير الدين باشا من مهاجمة الإسبان من جهة البحر، وهو مافرض عليه الانسحاب الاستراتيجي لمدينة جيجل؛ واستعداد للمواجهة الحتمية من جديد ضد التحالف: الإسباني-الحفصي وعُملائهم مع بعض الزعماء المحليين مثل ابن القاضي وقارة حسن؛ وحينما نَبحث عن الباحث الذي جعل السلطان الحفصي يسعى لمعارضة الباي لارباي خير الدين (5) يُفترض أن يحسب له باعتباره قَدم إلى الجزائر لطرد العدو المشترك لكن كما سبقت الإشارة نرى مثال ابن القاضي بعد تحالفه مع السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي(6)، والتي تُعتبر أهم حركات المعارضة والتمرد للوجود العثماني في الجزائر في تلك الفترة والذين هم دائماً من ذُوي النظرة الضيقة التي لاتبصر سِوى للمصالح السياسية الشخصية، ومصلحة العرش والسلطان وليس إلى مَصلحة البلد؛ وهي المحرك

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص46 وأنظر أيضاً: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1409هـ /1989م، ص98 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص119.

(2) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص81 وأنظر أيضاً : بسام العسلي، المرجع السابق، ص129.

(3) - محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص72 وأنظر أيضاً :Haedo Diego, op, cit, p45

(4) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص ص221-224 وأنظر أيضا : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص113 وأنظر أيضاً :Haedo Diego, op, cit, p45

(5) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص110-111 أنظر أيضا: عمر عمورة، المرجع السابق، ص92.

(6) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر..، المرجع السابق، ص92 و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية..، المرجع السابق، ص498.

الأولى للعلاقات السياسية بين زعماء هذه الفترة [1] لِتستهلك كل الفترة الزمنية الأولى من التواجد العثماني في المنطقة المغاربية؛ وهكذا فقد وقف السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي ضد من جاءوا إلى حماية الإسلام والمسلمين وسوف نراه يُكرر الموقف نفسه الأمر الذي يضطر معه خير الدين إلى مُحاربته بلاهوادة بعد استفتاء العلماء فيه [2]؛ولكن حين ماتحين الفرصة لذلك ونترك خير الدين يطلعنا ماخطط له:" فكرت في أن أترك الجزائر مدة من الزمن وأتحصن في بعض المناطق البَعيدة عنها ؛ وأنشغل خلالها بالجهاد البحري ولاأتدخل في أي من الأعمال المُتعلقة بالبر وأنظر كيف سَينظم الجزائريون أمرهم، وكيف يُؤمنون قوتهم وكيف يُدافعون عن بلادهم؟ [3]".

ففي الصباح الباكر ركب الرئيس خير الدين حِصانه وتوجه إلى سفينته (قادرغته) وركبها ويصف لنا هو ماألت إليه الأمور:" لم يكن الأهالي خائفين من الإسبان فحسب بل من السلطان سليمان خان أيضاً، فهم لم يَرضوا بالباي لارباي الذي وَلاه السلطان عليهم، فما الذي سيفعله بهم السلطان يا ترى؟! وأرسل الأهالي وفداً كبيراً من العلماء والأعيان إلى سَفينتي، فلما حضروا رَجوني أن أصرف النظر عن فِكرة الرحيل وأبقى في الجزائر، لم أتراجع عن قراري إلا أنني اعتذرت إليهم بلطف ولين جبراً لخاطرهم فغادروا سفينتي وقلوبهم تعتصر أسى [4]" وتوجه إلى جيجل، فرحب أهاليها بصديقهم القديم [5].

3-حكومة الرئيس خير الدين في جيجل 1520م .1525م.

1-على المستوي الداخلي:

1-انسحابه إلى جيجل:

وأمام تقلص نفوذ الباي لارباي خير الدين في شرق الجزائر وَوسطها وتَذبذب ولاء سلطان تلمسان؛ وعدم اطمئنان الباي لارباي خير الدين على نفسه وعلى القوات العثمانية القليلة التي كانت تحت إمرأته في الجزائر[6]، بالإضافة إلى انشغال السلطان سليمان القانوني[7]، الذي خلف والده السلطان سليم الأول(ياووز)؛ بحروبه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وشرق أوروبا[8] وكل هذه الأمور وغيرها

---

(1) -محمد حرب، المرجع السابق، ص112 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص335.

(2) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضا: أحمد سليمان، المرجع السابق، ص87.

(3) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص113 وأنظر أيضاً: .de Grammont Henri, op, cit, p22

(4) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص48 وأنظر أيضاً: السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،1980م، ص49 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص119.

(5)-محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 179 وأنظر أيضاً : ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص185.

(6)-D'hina, (A): Les états de l'occident musulman aux XIII,XIV, XV siècles, Institutions gouvernementales et administratives. Ed.O.P.U.et E.N.A.L. Alger 1984, P124.

(7) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 13: حول شخصية السلطان العثماني سُليمان القانوني(1520-1566م).

(8) -السيد الدقن، المرجع السابق، ص151 وأنظر أيضا: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص95.

أَجبر الباي لارباي خير الدين على مُغادرة الجزائر واللجوء إلى جيجل مُنسحباً إلى قَلعتها سنة 927هـ/1520م والتي كانت أول مدينة استقر بها مع أخيه عرّوج وكان أهلها أكثر إِخلاصاً وَوفاءً للأتراك من أهالي مدينة الجزائر [1] وجيجل بأهلها، ظلت موالية لخير الدين، وأقام بها عدة سنوات [2] ومكث بها متنقلاً بينها وبين جزيرة جربة [3].

ومن جهة أخرى دخل أحمد بن القاضي ومن وَالاه؛ الجزائر ليحل محَل خير الدين ونتيجة لِلمظالم التي أرتكبوها من سلب ونهب للأهالي، غدّا الجزائريون أكثر حباً وتقرباً للأتراك[4]؛ والإسبان لم يتحركوا لاغتنام فرصة اِنسحاب الأتراك من الجزائر،كما أنهم لم يَقوموا بأي حركة طوال هذه الفترة؟ رغم وُجودهم في حصن البِنيون! ودون أن يتمكن سلطان تونس أبو عبد الله محمد الحفصي، وحليفه ابن القاضي بالجزائر من إِزعاجه وإجباره على الخروج منها؛ ولكن مع كل هذا حُوصر في جيجل بين سلطات الحفصيين بتونس الذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين نفوذ المحلي لابن القاضي حاكم الجزائر، الذي ارتكز حُكمه على دعم الإسبان له هو الآخر، فضلاً عن القوة البحرية للإسبان وفرسان القديس يُوحنا التي تحُاصرهم في البحر؛ وكان لعدم وصول الدعم العثماني أثره على دعم دَوره وشُروعه في الدخول للجزائر مجدداً وبِرغم هذه العوامل ولكنه تَقوى خلالها بمن اِنضم إليه من أَهلها، ومن الأتراك الذين اِلتحقوا به والأندلسيين الذين أَنقذ الكثير مِنهم من جحيم الاضطهاد الذي كانوا يعيشون فيه بإسبانيا[5]؛ فاستغل خير الدين هذه الفُرصة؛ وقام بِتقوية نفوذه المعنوي والمادي فَمنح لأتباعة صلاحيات واسعة وقدم لهم الغنائم الكثيرة والقَيمة فضمن بذلك جَذب أكبر قُوة فدائية للعمل معة وَغدت تَأتمر بإمرته[6]؛ واتفق خير الدين باشا مع العلماء وأعيان الأهالي على ضَرورة الإسراع بدخول الجزائر قبل القوات الإسبانية نظراً لموقعها الممتاز من ناحية ولكي يسبقوا الإسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ المغاربية الواقعة تحت سيطرة الاحتلال الإسباني كبجاية وغيرها من ناحية أخرى؛ وكأن التاريخ يُعيد نفسه بِعودة خير الدين إلى الحالة والوضعية التي كان عليها سنة 921هـ/1514م، وهذا يتطلب منه مركزاً رئيسياً لسفنه في حين ظَلت قاعدة جِربة مركز للمتطوعين القادمين من الأناضول.

(1) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص213 وأيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص83 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص411.

(2) – أنه مكث03سنوات للمزيد أنظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص43 وحسب رأي غيره مكث مابين 05 و06 سنوات أنظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص213 و: de Grammont Henri, op, cit, p 26

(3) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص46 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص157.

(4) -نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص65 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص58.

(5) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص59 وأنظر أيضاً: أنطونيو دو مونقير هورتز، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمة عبد العال صالح طه منشورات عويدات، لبنان،1988 م، ص113 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 92.

(6) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص69.

بدأ خير الدين بإنشاء دار للسفن في جيجل، وبُغية توسيع دَائرة هَجماته: نادي الرئيس أيدين وشعبان وبقية الرياس وجمعهم حوله مكوناً أسطولاً بحرياً مؤلفاً من 40 سفينة بحرية، وبدأ بِمهاجمة السواحل الأوروبية المُطلة على البحر الأبيض المتوسط فقلبها رأساً على عقب؛ ومن صَدى كل هذا؟ وأكثر! لُجوء ابن القاضي إلى إرسال الهدايا والوِسطاء لإجراء مُصالحة مع الرئيس خير الدين، لكنه رفض مصالحته رفضاً باتاً وصمم على مُهاجمته [1]؛ ولايقل خوف منه حَليفه السلطان الحفصي أبو عبد الله؛ فعندما سَمع أَنْ أهالي جيجل أنهم عُلم بِقدوم خير الدين باشا للاستقرار بها؛ أقاموا احتفالاً كبيراً فرحاً بقدومه، فأستاء لذلك! لآن جميع الثروات والأموال التي كانت تَتدفق على مدينة الجزائر سَوف تتدفق على جيجل؛ وليس هذا وفقط وإنما الهاجس من الخوف القَادم إليه لامحالة؟ فإن وَقعه عليه؟ خير من إنتظاره!

ولم تمر أيام حتى وصل إلى جيجل شيوخ القبائل وأعيانها من الجزائر بل حتى من تونس نفسها! وندع خير الدين يصف لنا ذلك:" فقبلوا يدي وأَعلنوا خُضوعهم وتبعيتهم لمولانا السلطان سليمان خان وأنهم سَامعون مُطيعون لما يأمر به؛ ثم دفعوا الخراج السنوي وأعلموني بأنهم حَاضرون لإمدادي بما أحتاج إليه من رجال وقالوا: "مَعاذ الله أن نكون قد شَققنا عصا الطاعة لمولانا فنحن لانرضى أن تَنسب إلينا هذه اللوثة! إننا مُعتزون بِتبعيتنا للسلطان سليما خان، ولاصلة لنا بما جرى في الجزائر من تمرد وعصيان"[2].

ومن جهة أخرى قام بِتوثيق صلته بأمير قلعة بني عباس المنافس لابن القاضي في بلاد القبائل ومَد نُفوذه إلى مدينة القل [3] ثم إلى قسنطينة وعنابة في هذه الفترة(1520م-1522م) [4]، وبهذه السياسة استطاع تَقليص نُفوذ السلطان الحفصي في شرق الجزائر إلى حد كبيراً [5]؛ وفي سنة 1525م اتجه الرئيس خير الدين إلى قبيلة بن العباس واتفق مع سلطانها [6]، وكانت هي المرة الأولى التي يَتوجه فيها الرئيس خير الدين إلى مناطق القبائل ويُحقق انتصاراً دبلوماسي حاسماً هناك.

وعندما نُحاول قراءة موقف خير الدين من ثورة ابن القاضي، فإننا سنجد هذا الأخير قد وَقف منها مَوقف الحازم فلم يُغادر الجزائر إلى بلده الأصلي(تركيا)، رغم أن الظروف التي كان يَمر بها تَفرض

---

(1) – أحمد بن القاضي فقد تمكن من دخول الجزائر بدون أي مقاومة، وفي سنة 1520م استولى على تنس وشرشال للمزيد أنظر: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص88 أنظر أيضا: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص189.

(2) –أنطونيو دو مونقير هورتز، المرجع السابق، ص116 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص119-120.

(3) –خير الدين باشا التونسي، (المتوفى 1308هـ/1890م)، أقوال المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، المطبعة الرسمية، تونس،1967م، ص34 وأنظر أيضا: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص97.

(4) –صالح بن محمد العنتري، (المتوفي بعد 1293هـ/ 1876م)، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها المعروفة بتاريخ قسنطينة، تق وحق يحي بوعزيز، (د، م، ج)، الجزائر،1991م، ص45 وأنظر أيضا: عمر عمورة، المرجع السابق، ص93.

(5) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص60 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص84 وأيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، صص114-115.

(6) –ناصر الدين سعيدوني، " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم العثماني في الجزائر"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 09، جامعة الجزائر، 1986م، ص19 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص78.

عليه ذلك، لكنه كان عالماً بأن سيطرة ابن القاضي لن تدوم طويلاً غير أن احتياجه إلى إعادة بناء قُوته العسكرية والسياسية المُتهالكة أجبرته على المغادرة إلى جيجل [1] وهناك راح يتحين الفرصة التي تمكنه من اِستجماع قوته والعودة إلى الجزائر [2].

وخلال هذه السنوات الخمس الواقعة بين 927هـ/1520م و932هـ/1525م استطاع خير الدين تمكين نُفوذه واستعاد قُوته القديمة، علماً بأن الدولة العثمانية لم تقدم له خلال هذه الفترة الحَرِجة أي مُساعدات مادية أو معنوية، ومافعله كان بِفضل جُهوده وحُسن تصرفه وإدارته للأمور وقوة إرادته مَكنته من تأسيس قوة عسكرية جَيدة، وقَبل جُنود من المتطوعين الذين انضموا إليه طوعًا من داخل البلاد ونسق خططه مع عبد العزيز زعيم قبيلة بني العباس[3]، وأتبع سياسة السَهل المُمتنع؛ بانتهاجه أسلوب التَرغيب والتَرهيب وهذا ماأتبعه مع أحد شيوخ القبائل في منطقة جيجل الذي كان يَزود الإسبان في بجاية ب:7000 دينار و1000 شاة و700 رأس من البقر و14 فرسا بِسلاحها سنوياً، فضرب خير الدين عليه حصاراً حتى اِضطره إلى إعلان خُضوعه وطلب الصُلح على أن لايدفعه للإسبان ويَقطع صِلته بهم ويُعلن تَبعيته وولاءه للعثمانيين[4].

أما الجزائريون فقد ازدادوا سوءاً على سُوء وكل مَاشهدوه من تطور هو تبديل الأفندية فقط! فَضجر الأهالي من إساءة وظُلم أحمد بن القاضي [5] وبدأت غَالبية الأهالي تبحث عن وسيلة لتأمين الاتصال مع الأتراك من أجل الاتفاق مَعهم[6]، وكره البَربَر من الفساد والنفاق؛ وقَدم للأتراك خِدمة عظيمة وتحول حُب البربر لابن القاضي إلى حِقد وكراهية واستاءوا أهالي الجزائر من تَصرفاته ويُقيم لنا خير الدين الوضع: " كُنت على يقين من أن العرب سوف يَنشغلون ببعضهم البعض بعد انسحابي وأن الأهالي سَيلقون عنتاً كبيراً من جراء ذلك ثم لايجدون بعد ذلك حيلة تُخرجهم من وَرطتهم سوى اللجوء إليا مرة أخرى، راجين مني العودة لحُكمهم؛ وكنت واثقاً من ذلك ثِقتي في إيماني واِعتقادي [7]".

2-تَذمر أهالي الجزائر:

في هذا الوقت كانت الوُفود تتوالى علينا من الجزائر، فقد عرف الأهالي قَدر خير الدين جيداً خلال فترة قصيرة لمُغادرته للمدينة، فقد اِحتل نظام الأمن وتَدهورت الأوضاع في المدينة، فتضاعفت

(1) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: Gabriel Esquire, op ,cit , P59
(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص339 وأنظر أيضاً: ناصر الدين سعيدوني، دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر، (الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج 2، (م، و، ك) الجزائر،1984م، ص67 أنظر أيضا: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص62.
(3) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص46.
(4) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص80 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص29.
(5) -أنطونيو دو مونقير هورتز، المرجع السابق، ص117 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص95.
(6) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 118 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص27.
(7) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص78-79 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص118.

نتيجة لذلك مَشاعر التذمر من ابن القاضي(1)، ولم يترددوا الأهالي في إرسال وفد عَنهم إلى جيجل يَدعونه إلى الجزائر مُعلنين تبعيتهم له ونَبذهم لابن القاضي ولخير الدين شأن في ذلك:"كنت مُتأكداً بأنهم سوف يفعلون مِثلما فعلوا قبل سنوات مضت سوف يَرسلون رسولاً يَرجوني بِصراحة نيابة عنهم أن أرجع إلى الجزائر، وَقتها سوف أرجع إلى الجزائر ولَن تقدر أي قوة على إخراجي منها مرة أخرى حينها سيتأكد لهم بأن إدارة الجيش والدولة أمران خاصّانْ بالأتراك(2)"؛ بعد ماشكل في النهاية وفداً ليكلم ابن القاضي فأتوه وقالوا له:" نعتقد بأن استدعاء خير الدين باشا فيه خير لنا جميعاً، فقد بلغ به الكمال أن غَادر المدينة من أجل أن يعيش أهلها في أمن وسلام، فَهل يوجد أحد مثل هذا من قبل؟ لقد جِئناك راجين أن تَسمح لنا بدعوة خير الدين من جيجل وتنصرف أنت إلى قِبيلتك " فأجابهم ابن القاضي قائلاً: " أيها الحمقى! إن خير الدين ترك المدينة خوفاً مني؟ !" (3).

كانت هذه الحوادث تُوحي بقرب عودتنا إلى الجزائر، ومع ذلك كان من اللازم أن نَتريث قليلاً إلى أن نتيجة الأوضاع كلية لصالحنا، فقد كان ابن القاضي يتلاشى يوماً فيوماً، ومع مرور الزمن كانت قيمته وأهميته تَتلاشى بين الأهالي ومضت ثلاثة أعوام على مُغادرتنا لمدينة الجزائر، تَضاعفت خلالها الوفود التي كانت جميعها تطلب منا العودة إلى الجزائر (4)؛ ويتضح لنا من هذا طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية التي كان يمثلها في الجزائر الباي لارباي خير الدين والقِيادات الدينية والسياسية في الجزائر، في هذه الفَترة الحساسة جداً؛ وكيف كان يتم التعاطي مع كِلا الفئتين خلال الأزمات، ونقصد تَأرجح مَوقف الأهالي من الأتراك بين الولاء والعداء ومَدى تأثرهم بالدعاية التي كان يُشيعها خُصومه من الزعماء المحليين مثل ابن القاضي بغية إثارة الناس ضده(5) وهو ماذكره خير الدين لنا بالغزوات:" أنه كان يُراقب من جيجل تطور الأوضاع في الجزائر لأنه كان مُدركا بأن الأهالي سوف يَنبذون ابن القاضي مهما طال خَداعه لَهم وهكذا فما إن جَاءه وفد الجزائر طالباً منه العودة إلى الجزائر باسم الأهالي حتى أعلن قُبوله لِلدعوة (6)".

أ) -على الصعيد الخارجي:

1-خُطة خير الدين للعودة للجزائر:

قام الإسبان بِزيادة تصعيد وَتيرة مُلاحقة الموريسكيين بالحديد والنار ويُجبرونهم على الهجرة، فقد قام القباطنة الأتراك بِنقل الكثير منهم إلى كافة السواحل الإفريقية (7)، المغاربية وخاصة إلى الجزائر؛ ولكن

(1) -رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص292 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص63.
(2) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص113.
(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص123 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص42.
(4) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص56 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص125.
(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، صص 15 -16 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 78.
(6) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص213 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص198.
(7) -أنطونيو دو مونقير هورتز، المرجع السابق، ص119 أنظر أيضا: السيد الدقن، المرجع السابق، ص156.

ابن القاضي بدلاً من أن يُسارع إلى معالجة أَمرهم وتهدئة الأوضاع، إذا به يَنتهز الفرصة؛ لِيثبت للإسبان أنه لايشكل خطراً عليهم [1]؟ بل سنداً لهم! ولِهذا رفض بشدة استقبال هؤلاء المُهجرين المسلمين الفارّين من بَطش الإسبان؛ من النزول بالجزائر [2] أي أَنْ الأندلس لم تكن تَعنيه لا من قريب ولا من بعيد؛ وكان له مُنذ البداية موقف عِدائي منهم؛ بل حتى لم يَسمح للسفن التي تنقلهم بالرسو في الموانئ التي تحت سَيطرته [3] ثم فإن الإسبان لن يَعادوا ابن القاضي بل سوف يُباركون تَمَرده وعَصيانه إن لم يَسبغوا عليه حِمايتهم له من الأتراك إن بدّا لهم أن يعودوا إلى الجزائر [4].

فاضطروا المُهجرين الأندلسيين للذهاب أخيراً إلى جيجل، واشتكوا الأمر إلى الباي لارباي خير الدين؛ فكانت القُطرة التي أفاضت كأس الصبر عليه! وأن النِقمة ازدادت على ابن القاضي عن عَدم مُساعدة المسلمين الأندلسيين، وهذا يعني تَخليه عن الإسلام في نِظرهم، إلى أن انتهى به الأمر إلى قِيادته تآمر، مع الإسبان ومراسلة حاميتها بحصن البنيون للاتفاق معها على طرد المُوريسكيين المقيمين بالجزائر [5] في الحقيقة إن أنانية ابن القاضي المُتطرفة، جعلته يقف موقف المُتمرد الخائن، الذي لايعطي اعتباراً لمستقبل بَلده، بل ومعاونة المُحتل والوقوف في طريق من جاء لِتحرير بَلده أساساً وإنقاذ أَهله مما كانوا يُعانونه من ظُلم واضطهاد [6]؛ فَانقلب عليه أعيان مدينة الجزائر، وأَرسلوا إلى خير الدين يُعلنون فيه تَبعيتهم وطَاعتهم له ونُبذهم لابن القاضي، ويَدعونه إلى تحرير مدينته ليس من الإسبان في هذه المرة بل من ظُلم وتسلط ابن القاضي[7] وهكذا كان ضِياع نفوذ ابن القاضي وراء مُعارضته لخير الدين ثم وَقوفه وراء حركة التمرد التي أَشعل وراءها مع من وافقه من أَعيان الجزائر المناصرين له؛ وتحالفه مع السلطان الحفصي؛ بل وحَليف هام جداً للإسبان[8].

ومن الطبيعي أن يَتخذ خير الدين بربروس موقفاً انتقامي حازماً من ابن القاضي وغيره من زُعماء من عارضوه؛ بما أن أعاد بناء تَجهيزاته الحربية وقُدراته العسكرية قد كَبرت وقُويت [9]، ومن جهة أخرى

(1) -محمد علي عامر، المرجع السابق، ص41 وأنظر أيضاً: Gaid Mouloud, op,cit,p54

(2) -أنطونيو دو مونقير هورتز، المرجع السابق، ص121 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص47.

(3) -رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص293 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص60.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص338 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p32

(5) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص44 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص52.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص333 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص867.

(7) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص129 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص63.

(8) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، ص410 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص40 وأيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص327 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص70.

(9)-Bontems, (C): Manuel des institutions Algériennes,De la domination turque à l'indépendance,Tome1، la domination turque et le régime militaire(1518-1870), ed Cujas 1ère ed.1976,P25.

كانت قلعة بني العباس في منطقة القبائل الصغرى تُدار من طرف ملك محلي يُدعى عبد العزيز وكان هذا الملك منافساً لابن القاضي لبسط النُفوذ بينهما(1)؛ على مِنطقة القبائل كما كان ناقماً أيضاً بنفس القدر على الباي لارباي خير الدين؛ لأنه بسط نفوذه وسيطرة دولته؛ على قِسم من المناطق التي كانت خاضعة له(2)، إضافة إلى تحالفه مع الشيخ ابن القاضي الذي جعله واليا على القسم الشرقي للجزائر، مما يعني ضِمنياً أن الملك عبد العزيز سوف يكون خاصماً لخصمه ابن القاضي(3)؛ وهنا تظهر الاستراتيجية العثمانية لتَفتيت المعارضة؟! وكان من الطبيعي أن يَثور الملك عبد العزيز على خير الدين باشا مُعلنا تبعيته للملك الحفصي في تونس بتحريض من هذا الأخير (4) غير أن ثـورة ابن القاضـي جعلت الملك عبد العـزيز يُغير موقفـه من خير الدين فسرعان ما أعلن تبعيته له ومُساندته قمع ثورة ابن القاضي (5)؛ أي زيادة توثيق الباي لارباي خير الدين صِلته بغريم ابن القاضي الأمير عبد العزيز المتنافسين في زعامة منطقة القبائل بالإضافة إلى مُراسلاته مع المُخلصين له من أعيان وعلماء الجزائر؛ وبما أنه أتم بِناء قُوته العسكرية والسياسية للعودة إلى الجزائر(6)، وبإمكانه التحرك ومُهاجمة أعدائه؛ فَجهز الباي لارباي خير الدين قوة وأرسل خبراً عاجلاً إلى الجزائريين يُعلمهم بقدومه وتأديبه لأحمد بن القاضي وقد أبدى الرِياس استعدادهم لذلك (7) ويصف لنا خير الدين ذلك: "في الواقع لم يكن ابن القاضي رجل دولة، إنما كان زعيماً قبلياً لايملك مُؤهلات تَسير أمور دولة وإدارة بلاد واسعة مثل الجزائر".

2-القضاء على ابن القاضي وقارة حسن(1525م):

بعد أن اِستكمل الباي لارباي خير الدين قُوته في العدد والعدة(8)، وقَوى تحلفاته وخَدمتة الظروف بعد أن توفي السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي في بداية السنة، وكل هذا يُمكنه من القضاء على ابن القاضي الذي كان يحكم مدينة الجزائر طِوال المدة التي بَقيها هو في مدينة جيجل؛ ويُواصل لنا خير الدين بقوله: "عجّلــت بالسير إلى الجزائر تُرافقـني جُموع كبيرة من رجال القبائل الراغبـين في الاشـراك معـي في قِتاله"(9)؛ فتحركت قوات خير الدين رئيس من جيجل في 12000بحار، منهم 4000فارس و8000 رَاجل، ولم يترك مع سنان رئيس في جيجل سوى 300بحار، وفي الطريق التحق به آلاف فرسان

(1) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص107 وأيضا: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص84.
(2) -عمر الركباني، المرجع السابق، ص159 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص116.
(3) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص 118 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص341.
(4) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص38 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص49.
(5) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص213 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص451.
(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص339 وأنظر أيضاً: إحسان حقي، تونس العربية، دار الشمالي للطباعة، لبنان، (ب ت)، ص34.
(7) -محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن(16م-17م)، دار الحكمة الدار البيضاء، المغرب،1987م، ص64.
(8) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص128 وأنظر أيضاً: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص192.
(9) -سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص213.

والمشاة من الأرياف المجاورة، وهذا مايصفه لنا خير الدين: "كلهم كانوا يريدون أن يشتركوا معنا في دُخول الجزائر [1] وعندما اقتربنا من المدينة تعرض لنا رجال ابن القاضي ولكي ألقي الرُعب في قلبه وقلوب رِجاله أمرت على الفور بالتصدي لهم بالمدفعية؛ حيث أسفرت المعركة عن مقتل 800منهم" [2] ثم اِشتبك الطرفين في وادي بُوقدورة، وخلال ساعات قليلة انتهت المعركة بانتصار ساحق لقوات خير الدين باشا[3] أما ابن القاضي فقد اِنسحب بِصعوبة من مَضيق ضَيق بِثنية بني عائشة بمنطقة القبائل، أما عَساكر إمارة كوكو فقد انضموا إلى قوات خير الدين وقدر عددهم ب1800 مُقاتل مُسلح بالبنادق، فَأزدادت قوة خير الدين بِانضمامهم إليه[4] وانهزم ابن القاضي هزيمة مُدوية بِتفرق عَنه أنصاره ولم يَبق معه سوى عدد قليل من المُنتفعين به، الذي سُرعان ماغَدروا به فقتلوه غِيلة[5]، وجَزّوا رأسه وألقوه بين خير الدين مُعتذرون له عن تمَردهم ومَناصرتهم لابن القاضي الذي غَرر بهم [6] ولكن لخير الدين رأي أخرى بِقوله:" وعندما كان يَهم بالفرار ابن القاضي، طَعنه أحد شُيوخ العرب بِرمحه وقطع رأسه وأَرسله إليا"؛ وأما ماتبقي من عساكر أحمد بن القاضي اِنضموا إلى قوات خير الدين، بَعدما عبروا عن أَسفهم ونَدمهم لخيانته وأقسموا على مُساندته والوقوف لجانبه ولِكسب صِفة اليولداشية[7]؛ لاحقوا قارة حسن الأسود حليف ابن القاضي ووقع في الأسر لَديهم؛ ثم إعدامه بعد اِستفتاء العلماء في مايجب عمله بشأنه؛ وهكذا يتم وضع نهاية له ولِفتنته في منطقة شرشال بعدما يئسوا من استقامته وعَودته إلى الجادة [8].

وهكذا تم القضاء على ثِمار حملة الحفصين على الجزائر(1520) بإخماد ثورة ابن القاضي حَليفهم (1525م) [9] أخطر حركة تمرد ضد الوجود العثماني في الجزائر بعد أن كادت أن تَأتي على كل جُهود

(1) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص127 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 232.

(2) – مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص42 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص127.

(3) –إحسان حقي، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص343.

(4) –جون ب . وولف، الجزائر وأوروبا (1500م .1830م) تج وتع أبو القاسم سعد الله، (م، و، ك)، الجزائر 1986م ص39.

(5) –وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص53 وأنظر أيضاً: رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص294.

(6) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص149.

(7) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 128 وأيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص215.

(8) –سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص48.

(9) – لقد التبس على معظم المؤرخين الذين تحدثوا عن ثورة ابن القاضي بسبب تكرار نفس اللقب العائلي الذي حمله آل ابن القاضي لفترة طويلة، فاعتقدوا أن القاضي الشيخ العلامة أحمد ابن القاضي الذي ساند الأتراك وتحمّس لدعوتهم إلى بجاية ثم إلى مدينة الجزائر وترأس أعيان المدينة الذين قابلوا السلطان العثماني سليم الأول طالبين منه حماية بلدهم وتحريرها من الاحتلال الإسباني، أقول لقد ظن هؤلاء الباحثون أن هذا الرجل بكل هذه المواقف العظيمة انقلب على خير الدين، ولما لم يجدوا مطعنا في ابن القاضي راحوا يقومون بتأويل هذه الثورة على غير وجهها، ويبحثون عن أعذار يبررون فيها هذا الانقلاب واختصروا الأمر في استبداد عرّوج وأخيه بعدما ذاقوا حلاوة الحكم والسلطة، وحينما ندقق في الأمر نجد أن الثائر على خير الدين هو ابنه، وليس ابوه الشيخ العلاّمة أحمد ابن القاضي وقد صرح خير الدين بنفسه في مذكراته، فان صح ما ورد في المذكرات فإن الالتباس يزول بالكامل، ولايبقي معنى لترويج خطأ متوارث على مرّ السنين. للمزيد أنظر: محمد درّاج، المرجع السابق، صص254–255.

التوحيد والتحرير التي قام بها الأخوين عرّوج وخير الدين خلال20 عاماً من النِضال [1]؛ كان سببها كما هو مُعتاد في ثَورات الزعماء المحليين في هذه الفترة هو التَطلع إلى الجلوس على عرش مُتهالك [2].

وقد كان لِتدخل السلطان ابو عبد الله محمد الحفصي ضد الباي لارباي خير الدين في الجزائر نتائج خَطيرة على خُلفائه [3] حيث صاروا هدفاً لحملات حُكام الجزائر وهو مايدل على أن العلاقات بين حكان البلدين بعده لم تتحسن فاتحاً باب العداء على مصراعيه بينه وبين بايات لاربايات الجزائر وباب الحملات بين حُكام الجزائر العثمانيين وحُكام تونس الحفصيين[4] قد اِتخذ أبعاد دولية حيث تَدخلت فيه إسبانيا إلى جانب السلاطين الحفصيين، والدولة العثمانية إلى جانب حُكام الجزائر، وتبادل الطرفان المُتحاربين النصر والهزيمة في تونس [5]؛ وقد تمكن خير الدين من دخول الجزائر من جديد [6] ولم يَبق حَاجة للحرب لأن أبواب المدينة وطُرقها مفتوحة أمامه؛ فدخل الباي لارباي خير الدين الجزائر مُعززاً مُكرماً سنة 1525م[7]؛ وهذا بِفضل دعم العلماء والأهالي له وقُتل حاكمها ابن القاضي؛ بعد أن تأكد من مَساعيه للاستعانة بالقوات الاسبانية وتحالف مَعهم؛ كما تمكن خير الدين من دخول ميناء شرشال[8] واجتمع له الأمر في الجزائر مُجدداً.

المبحث الثاني:

خير الدين يعيد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة: (932هـ -940/1525-1533م).

أ)- على الصعيد الداخلي:

أولاً -إعادة السيطرة على المناطق المتمردة(1525-1528م):

دخل خير الدين باشا الجزائر بِلا مقاومة تُذكر، وعمل مُباشرة على إعادة إحياء الأيالة الجزائر التي عُرفت سابقاً ولكن بِثوب جديد، ويسرد لنا خير الدين ذلك:" عندما استقريت في الجزائر بَذلت كل مافي وسعي لإعادة النِظام والأمن إلى مدينة الجزائر وفي الوقت ذاته أرسلت إلى سنان رئيس لِكي يُحضر لي عائلتي وسُفني إلى الجزائر"[9]، فبدأ أولاً بِضرب المتمردين بِشدة، ودَأب خلال سنتي 1526 و1527م

---

(1) -ابراهيم الشريفي، تونس في الغابر والزمان والحاضر، مطبعة العليا، القاهرة، مصر،1953م، ص54.

(2) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص126 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص52.

(3) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضاً: أحمد السليماني، تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر، (ب -ت)، ص68.

(4) -محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص188 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، لمرجع السابق، ص206.

(5) -عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 10هـ/16م"، دراسات إنسانية تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بوزريعة، العدد 1، الجزائر، 2001م، ص 80 وأنظر أيضا: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص66.

(6) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص34 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص421.

(7) -لحسن قرود وسلمان توفيق، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p39

(8) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة... ، المرجع السابق، صص174-175 وأيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 95.

(9) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص 233 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص131.

على مُلاحقة العصاة وحَرص على ذلك، فألقى القبض على مَن بقي مِن قواد تنس وشرشال وقطع رؤوسهم، وفتح مستغانم، وقبل تَبعية تلمسان؛ وهو مايوضح لنا خير الدين بقوله:"كنت راسياً 22 سفينة قرابة سواحل مستغانم التي فَتحتها دُون عناء وكانت قريبة من وهران التي كانت يَدْ الإسبان في المنطقة قَدم علي الأمير عبد الله الزياني فقبل رِدائي؛ وتوسل إليا بتضرع بأن يَكون سلطان تابع لي؛ فقبلت وَأرسلت معه 1000من رِجالي إلى تلمسان، أما أنا فقد اِنشغلت بإسكان2285 مُهاجراً أندلسياً [1] في نواحي مستغانم "[2]، وبهذا فرض الباي لارباي خير الدين سَيطرته من جديد على الساحل البحري المُمتد من جيجل حتى وهران [3] وقد أصاب نجاحاً أيضاً: في فتح القالة وعنابة [4] وفي سنتي(1527-1528)، في مُتابعة السيطرة على كل من شرشال وتنس وقسنطينة [5]؛ بملاحقة اللصوص وقُطاع الطرق.

كما قام مُولاي عبد الله الزياني بِتحريض حسين ابن أحمد ابن القاضي [6] الذي لم يكن ذا شأن كبير عِندما أعلن ثَورته بتدعيم مادي من سلطان الحسن ابن عبد الله الحفصي، إذا سُرعان ما ولّى هارباً عندما انكسرت شَوكته وقَمع ثَورته في أول مُواجهة له مع الباي لارباي خير الدين، لِيعود مُعلنا استسلامه في النهاية [7]؛ وتَخيله عن التمرد والعصيان وهكذا تم القضاء على هذه الثورة؛ وإخضاع بلاد القبائل نهائياً التي أقضّت مضجع الباي لارباي خير الدين 05أعوام [8].

ثم لم يَلبث خير الدين أن سار إلى فرحات ابن أخي ابن القاضي [9] فولى هذا الأخير هارباً ومكث سنتين فاراً من الباي لارباي خير الدين إلى أن وقع في الأسر واستقر رأيه على طَلب الصُلح مقرراً على نفسه دفع ضريبة يؤديها سنوية [10] وهذا مايخبرنا خير الدين به بقوله :" وفي هذه الأثناء تمكن بَحارتي من القبض على فرحات ابن أخي ابن القاضي وأحضروه إليا، فطلب العفو معتـذراً بأني لم تكن لي صلة بتمرد عمي الشيخ ابن القاضي"، وقد عفا عنه خير الدين وتعهد بأن يدفع 20000

---

(1) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 52 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 104.

(2) -للمزيد -أنظر: الملحق رقم14: حول رسالة التي ارسلها مسلموا الأندلس إلى السلطان العثماني يستنجدون به على الإسبان.

(3) - Moulay Bellhamissi, Histoire de Mazouna des origines à nos jours Imp, Ahmed Zabana, Alger, 1982, P16.

(4) -حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، القـسم 2-3 مكتبة المنار، تونس،1966م، ص56.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص55.

(6) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص65-66 وأيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص93.

(7) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 79 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص348.

(8) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص87.

(9) -يقصد هنا أخ ابن القاضي الثائر، أي جَده الشيخ العلامة أحمد ابن القاضي، وهو ما يفهم من سياق الأحداث التاريخية حسبما ورد في مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 133 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص72.

(10) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص38 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص64-65.

يُوك من الفضة[1] وأنه سيكون وفياً له فعقدت معه معاهدة التزم فيها بأنه لاينزل من جبال القبائل دون إذني، وأن يَدفع سنويا 10000دينار و1000جمل و1000 بقرة و2000شاه و100بغل و20فرساً [2]؛ وبعد إنهاء كل مُخلفات آثار تَمرد ابن القاضي وعِصيان قارة حسن [3] وَفد شيوخ القبائل التي سَاندتهم على التمرد مُعلنين اعتذارهم وخُضوعهم إلى الباي لارباي خير الدين، فقبل مِنهم ذلك وأقرهم على ما كانوا عليه من إمتيازاتهم السابقة [4].

ثانياً -قمع تمرد أهالي مدينة الجزائر(1527م):

ثارت مدينة الجزائر، مَرة أخرى بتأثير دِعاية مُضادة للوجود العثماني، قام بها بعض أتباع ابن القاضي من أَعيان المدينة الذين رَأوا في عودة حركة خير الدين خَطر على مصالحهم الذاتية [5] فقام الباي لارباي خير الدين بإعتقال زعماء التمرد وإعدامهم[6]، وبذلك انتهت حركة التمرد نهائياً، في مدينة الجزائر وخَلد الناس إلى الطَاعة والسُكون؛ وهو مايشهد عليه خير الدين بِشهادته:" لقد كان الإسبان يَعتبرون أَخطر القوى الأجنبية التي تُهدد الجزائر والوجود العثماني بها، كما أن الزعماء المحليين وسُلْطاني تونس وتلمسان لعبوا دوراً كبيراً في إثارة مُختلف حركات تَمرد القبائل وعِصيان الأهالي ضد الأتراك العثمانيين"[7] فلم يتوقف السلطان عند هذا تحريض ابن القاضي والإعداد لغزو الجزائر بل أرسل إلى أتباعه في قسنطينة [8] محرضاً لهم على الثورة [9]، فَثار أنصاره في المدينة المذكورة عامي 1526م و1527م غير أن باي لارباي خير الدين وقف بِحزم ضد مُثيري الشغب من أنصار الحفصيين وقام بإخماد الثورة وأعاد السيطرة

---

(1) -اليوك: عملة نقدية إسبانية؛ مصنوعة من الفضة تداولت في تلك الفترة في المناطق المحتلة الإسبانية في المنطقة المغاربية للمزيد أنظر: Merouche, Lemnouar : Recherche sur l'Algérie à l'époque ottomane. 1 monnaies, prix et Revenus. 1520-1830.ed. Bouchene. Rufe (P), Paris 2002.

(2) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص133 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص340.

(3) - و أما قارة حسن، فقد كان أحد القادة الأتراك المقربين منه والموثقين عنده، كان يتولى قيادة فرقة عسكرية، أرسله خير الدين للقضاء على بعض حركات التمرد في الغرب الجزائري، فراسله ابن القاضي محرضا له على العصيان التمرد، واعداً إياه أن يجعله حاكماً على جميع المناطق التي يقوم بالاستيلاء عليها، فانتهز قارة حسن فرصة انشغال خير الدين بقمع ثورة ابن القاضي وأعلن هو الأخر تمرده، ولم يكتف بذلك بل اتفق مع الإسبان على توحيد الكلمة معاً، فاشد الأمر على خير الدين إذ أصبح كل من شرق البلاد وغربها خارج سيطرته، ولكنه ما إن فرغ من القضاء على ثورة ابن القاضي، حتى سار إلى نواحي شرشال حيث تمكن من القضاء على حركة قارة حسن وإعدامه بعد إلقاء القبض عليه. للمزيد أنظر: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص52 وأيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص126 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص85 وأيضاً: رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص289.

(4) -كاتب جلبي، المرجع السابق، صص35-36 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص39.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص256 وأنظر أيضاً: . Haedo Diego , op ,cit ,p 48

(6) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص52-56 وأنظر أيضاً: الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص96.

(7) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص78-79 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص105.

(8)-قسنطينة ...مدينة جبلية قريبة من بلاد العناب للمزيد أنظر: لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص86.

(9) -محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص201.وأنظر أيضاً: . de Grammont Henri, op, cit, p43

على المدينة، ولكنهم ثَاروا من جديد سنة 1528م وتَمردوا واستولوا على قسنطينة وقتل الباي الذي عَينه خير الدين عليه، ولولاّ اتحاد حُراس المدينة مع قبيلة هودنا، لما استطاعوا الدِفاع عن المدينة ضد المُتمردين[1] فاضطر الباي لارباي خير الدين في سنة 1528م إلى تَوجه ضربة قاسية إلى مدينة قسنطينة والقبائل المجاورة لها وغَدت المنطقة وماجاورها خَالية من السكان وظلت لِعدة شهور مَأوى للوحوش والأشقياء[2] فكان من نتيجة ذلك أن فقدت بَقايا؛ الدولة الحفصية نُفوذهم في جَميع المقاطعات الغربية والصحراوية نهائياً؛ بعدما أعلنت هذه المناطق خُضوعها التام للعثمانيين [3].

أما سلطان تلمسان مولاي عبد الله الزياني الذي نَصبه الباي لارباي خير الدين بدلاً من أخيه المسعود فقد انقلب هو الأخر عليه، ثم تحالف مع نجل ابن القاضي، ومحُرضا له على الثورة والانتقام لأخيه الذي قُتل من طَرف أتباعه عَقب فشل ثورته ضد خير الدين باشا[4]؛ ولم يَلتزم بما كان تَعهد به، ولم يَدفع المبلغ السنوي لخير الدين لمدة06 سنوات، مستغلاً انشغاله بقمع حركات التمرد التي اِندلعت في مناطق مختلفة من الجزائر ولم يَكتف بقطع الالتزام المالي فحسب بل قَطع الخطبة باسم السلطان العثماني، وصار يخطب باسمه ولكي يضمن الحِماية لنفسه تحالف مع الإسبان[5]؛ ولكن خير الدين قام بقطع عن تلمسان خطوط الإمداد الإسباني من البر والبحر[6]؛ حيث كانت قلعة بن راشد تمثل حَلقة وصل بين وهران وتلمسان عبر الطُرق البرية الداخلية، بينما كانت مستغانم تقع عبر الطريق الساحلي [7]؛ وبِاستحواذ الباي لارباي خير الدين على قلعة بني راشد ومستغانم تكون تلمسان عاصمة الزيانيين محاصرة حصار تَام.

وأرسل إليه رسالة يُحذره عاقبة عِصيانه، إلا أنه رفض ذلك وأَسّر على تَمرده، فقاد الباي لارباي خير الدين قُواته وسار إليه، فأسفرت المعركة عن هزيمة القوات الزيانية، وأُسر سلطانها الذي أمر خير الدين بإعدامه وتنصيب ابنه محمد في مَكانه فقام هذا الأخير بِقراءة الخطبة وضَرب العملة، باسم السلطان العثماني ودفع الضرائب المتأخرة والتي بلغت 90000 دُوقة ذهبية [8]؛ ويوضح خير الدين ذلك: "تَوجهت

(1) -صالح بن محمد العنتري، المرجع السابق، ص46 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص58.

(2) -Barges L'Abbe, op ,cit , P187 .

(3) -ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، لمرجع السابق، ص184 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص162.

(4) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص871 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص344.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص257 وأنظر أيضاً:.Haedo Diego, op ,cit ,p 49

(6) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 80 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص246.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص246 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p35

(8) -هذا ما ورد في مذكرات خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص131-132، إلا أن المؤرخ التركي كاتب جلبي، لم يذكر مقتل السلطان الزياني ولم ينفي ذلك، بل ذكر بأن السلطان الزياني فر بعد انهزامه أمام خير الدين، ثم لم يلبث أن بعث إلى هذا الأخير معتذرا عن تمرده، متعهدا بقراءة الخطبة وضرب النقود باسم السلطان العثماني، للمزيد أنظر: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص36، وافقه في ذلك سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص109.

إلى تلمسان أين هَزمت أميرها عبد الله المُنشق علينا؛ والمتحالف مع الإسبان[1]، وضربت عُنقه بعد أسره بفتوى من العلماء على خِيانته؛ ونَصبت ابن الأمير محمد؛ وجلس على عرش تلمسان مُعلنا تبعيته للدولة العثمانية حيث أمر بصك العملة باسم السلطان سُليمان خان، وقراءة الخطبة باسمه في المنابر" [2].

وصار الإسراع إلى الثورة والتواطؤ مع العدو سِمة بارزة في سُلوك وزعماء وحكام وأمراء هذه الفترة فعندما يري هؤلاء أن مصالحهم بَاتت في خطر حقيقي أو مَوهوم، فإنهم لايترددون في أن يَلقوا بِمصير البلد وراءهم ظَهرياً، مادام ذلك يُمكنهم من البقاء مدة أطول على رأس سلطان وَهمي ليس له من الحقيقة سِوى الاسم [3]؛ وقد تكرر ذلك مراراً من أكثر أمراء المحليين، لهذه الفترة سواء في الجـزائر أو في تونس أو تلمسان؛ وقبل ذلك عَاشته الأندلس نفسها التي انتهى أمرها إلى طرد المسلمين مِنها بِشكل نِهائي [4].

وهكذا ضحى خير الدين بعشرة سنوات الأولى من حكمه 1519م-1529م في بناء الدولة الجزائرية الحديثة بكفاحاً مريراً أستطاع بعده من إعادة فرض سيطرته شبه الكاملة على منطقة شرق ووسط وقسم كبير من غرب الجزائر وتحرير سواحل الجزائر من الاحتلال الإسباني فتمكن على إثر ذلك من مُهاجمة قلعة البنيون 1529م ومن التصدي للهجمات الإسبانية على المدن والموانئ والقلاع والحصون التي تمكن من طِردهم منها، ومُواجهة الحملات الإسبانية الشرسة التي اِستهدفت مدينة الجزائر وشرشال وغيرها[5]؛ ومن التصدي لثورات الأهالي وحركات التمرد والعصيان للقبائل؛ التي اِندلعت في مناطق مختلفة من الجزائر؛ والتي كان يقودها بعض الزعماء المحليون [6]؛ ورُؤساء الفتن الداخلية وعُملاء الإسبان من أمثال ابن القاضي وقارة حسن؛ فقد شعر هؤلاء الزعماء بأن الوجود العثماني يشكل خطراً على وُجودهم ويَسلبهم نفوذهم في المناطق الخاضعة لهم كما رأى بعضهم في الوجود العثماني عائقاً يَحول دونَ تمكينهم من توسيع نُفوذهم[7]، ولذلك فقد رأينا رُدود أفعال هؤلاء الزعماء التي اِتسمت بالسرية والمعارضة العَلنية والتواطؤ مع الإسبان واستغلال أي فرصة لإعلان التمرد والعِصيان، حتى يَتم إخماد تلك الثورات، والقضاء على مُدبريها وقَادتها، الأمر الذي دفع سلاطين الدولة الزيانية والزعماء المحليين الذين كانوا يتربصون لإعلان تمردهم إلى الخُضوع له، مُنتظرين الفرصة للتمرد مرة أخرى[8]؛ ومع هذا اِستطاع إبقاء الوجود

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص49 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص33.

(2) -محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص182 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص47 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص107.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص334 وأنظر أيضاً: جميلة بينوس، تونس، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس،1985م، ص56.

(4) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 82 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص334.

(5) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص869 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص258.

(6) – يحي جلال، تاريخ المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار)، ج3، (د، ق، ط)، القاهرة، مصر،1966م، ص24.

(7) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص97 و: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص96.

(8) -حساني مختار، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص374.

العثماني في الجزائر، بل حاول تَمَدده إلى تونس لينازع الإسباني هناك؛ ويفصح لنا خير الدين على نيته:" لم يكن يتحقق كل هذا قبل تمتين الوحدة الداخلية، بإخضاع المناطق الخارجة عن الطاعة ثم التَفرق لإجلاء الإسبان من بجاية ووهران والمرسى الكبير ويعملون على تَحريض الزعماء المحليين على الثَورة والتمرد"[1].

2-على المستوي الخارجي:

أولاً: تدمير حصن البنيون:

كان وجود الإسبان بِقلعة البنيون يُشكل خطرًا كبيراً ومُباشراً على مدينة الجزائر، لأن الجزائريين كانوا يَعتبرون وَجودهم في هذه القلعة إهانة كبيرة لهم، إضافة إلى ذلك فإن السُفن الجزائرية كانت تَواجة مصاعب عدة في الذهاب والإياب[2]؛ ولكن ماحَققه الرئيس خير الدين بعد دخوله الجزائر من انتصارات واسعة، فقد لاَحق أعداءه وضَربهم بشدة ووطد الأمن والاستقرار، وأَخضع المدينة للنظام، وهكذا تَسلم خير الدين حُكم البلاد دون أي اِعتراض من أي جهة تُهدد وجوده، ولم يَعد خائفاً من جِيرانه [3]، ولكن نَشاطه المتصاعد؛ أخاف الجنود الإسبان الموجودين في قلعة البنيون [4] وعلى رأسهم قائدهم، ولِكيلا لاتُداهمه عاصفة خير الدين فجأة، فَطلب على جناح السرعة من دَولتهم تَزويدهم بالمعدات والأسلحة ولكنهم لم تَصغي إلى طَلباتهم [5] وكان الرد شيء مُتوقع جداً من الحكومة الإسبانية لأنها في حالة حرب مع الدولة العثمانية وَوصولها إلى أبواب فينا1529م [6]؛ وَجبهاتها مُتعددة ومفتوحة؛ وقَواتها مُشتتة بين البر والبحر؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى اعتمادها على حُلفائها وعلى رأسهم السلطان الحسن الحفصي في مواجهة الوضع الداخلي للمنطقة المغاربية المتوسطية؛ وأكتفت ببقاء قُواتها داخل الحُصون والقِلاع! كما هو حالة العساكر المُقيمين في قلعة البنيون التي غَدت سيئة للغاية ويعيشون حالة بُؤس حقيقية وغُربة كاملة بسبب بُعدهم عن الوطن الأم، كما أنهم حُرموا من أي مساعدة تُذكر حتى المواد الغذائية حُرموا منها وحتى مِياه الشرب كانوا يَضطرون لإحضارها من جزيرة مايروقة؛ ولكنهم إعتادوا بصعوبة على ذلك [7] إذا كانت قلعة البنيون المُهمة! مُهملة؟ من قبل الإسبان سواء من ناحية تأمين القوات المُتمركزة فيها

(1) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص78-79 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص113.
(2) -عبد الله شريط ومحمد الميلي مبارك، مختصر طريق الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، (م، و، ف، ط)، الجزائر،1985م، ص76.
(3) -ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان ،1999م، ص87.
(4) -مارمول كربخال، المرجع السابق، ص408 أنظر أيضا: Barges L'Abbe, op ,cit , P192
(5) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص131 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص68.
(6) – عبد العزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط1، دار اشبيلية، الرياض، السعودية،1418هـ/1997م، ص156.
(7) - SARI Djillali, « Les Ottomans et la Méditerranée au 16ème Siècle », In Majallat El Tarikh , No Spécial, 1er semestre, No. 23, Alger, 1987 ,P 34.

أو من ناحية التسليح، ومما زاد في يأس وقُنوط القوات الإسبانية وجود قائدهم المُسن دون مارتن دي فرغاس- Don Martin de Vergas[1].

وللتذكير فإن سُفن إيالة الجزائرية بلغت 20سفينة والقباطنة والرياس الذين يُساندونها يَملكون ضعف هذا العدد، وهذا يعني أن الدولة بحاجة إلى مِيناء رئيسي لها؛ وبما أن الباي لارباي خير الدين استقر في الجزائر بصورة نهائية، فقد أصبح ميناء جزيرة جربة غير مناسب له ولِرفاقه، وإن طرد الإسبان من القلعة غداّ ضَرورة حَتمية يُعزز سُلطانه من جهة ويضمن لِسفن الأيالة ولميناء الجزائر الأمن والسلامة من جهة أخرى[2]، فأرسل في أيار سنة 1529م خِطاباً إلى قائد القلعة دون مارتن دي فرغاس بضرورة تَسليم القلعة ومُغادرتها مع جنوده فوراً لكن القائد رد عليه بِالرفض، عندئذ أمر خير الدين نصب بَطاريتي مدفعية مقابل القلعة[3]، والشروع في قصف القلعة لمدة عشرين يوماً، ونتيجة لشدة القصف عم الذُعر وخَوف حاميتها، حتى تمكن المهاجمين على إثرها في 27 أيار من إحداث عِدة ثغرات في سُور القلعة وعلى الفور جَهزوا 45 زورقاً عَسكري[4] ،قِوامه البحارة العثمانيون وبِمساندة الأهالي وشَنوا هجوماً عاماً على القلعة من جميع المَحاور إلى أن تَمكنوا من أطراف ثم اِقتحامها، وتمكنوا من جميع جُنود حاميتها الإسبانية بين قَتيل وأسير [5] وبعدها قامت قُوات البحرية للأيالة الجزائرية باستيلاء على 9سفن إسبانية كانت تمثل مدداً للقلعة [6]، وعون لمساندة حاميتها [7] ؛بعد أن أَوهموهم بأنهم زملائهم.

بعد فتح قلعة البنيون أعَطى البا لارباي خير الدين أَوامره بِتدميرها وتسويتها بالأرض، واَستخدم أسرى الذين كانوا مُتحصنين بها ممن نَجوا من القَتل، وكان عددهم 700 جندي مع غَيرهم من الأسرى الذين كانوا يَقبعون في سجون مدينة الجزائر؛ وصار مجموعهم 30000 أسير؛ بنقل الحجارة من بُرج تامفوست، الواقع على طرف المقابل من شرق خليج مدينة الجزائر، وكُلفوا أيضاً بنقل أنقاض قلعة البنيون إلى البحر حيث وصل الجزيرة التي كانت تَقوم عليها القلعة بالبر عن طريق جِسر من الصخور صار يحمل منذ ذلك التاريخ اسم "جسر خير الدين "[8]، ثم أمر بأن تُوصل الجزر الصغيرة بِبعضها البعض في شكل

---

(1)- Henri Léon Fey, Histoire d'Oran, avant, Pendant et après la domination Espagnole, ORAN 1858,P56.

(2) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة ...، المرجع السابق، ص216 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، 203.

(3) -لخضر درياس، المدفعية الجزائرية في العهد العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006 / 2007 م)، ص34 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص104.

(4) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص73 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص119.

(5) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص87 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص 86-87 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص136 وأيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p51

(6) -محمود بوعياد، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص87.

(7) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص77-79 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص109.

(8) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص113 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص73.

دائرة ذِي فتحة واحدة، وأوصلوا القلعة بالساحل وأنشؤوا رصيفاً لحماية الميناء من رياح الشمال والشمال الغربي، فأصبح ميناء عاصمة الأيالة الجزائرية غَاية في الروعة[1]،كما وضع في البرج فَنارة(شُعلة)، وبعض الحراس مع بطارية مدفعية، لما لها من دَور فعال في الدفاع الاستراتيجي عن مركز القيادة السياسي والعسكري للدولة؛ ونجد قد خَص الأتراك العثمانيون سِلاح المدفعية بأعظم عِناية مُنذ الوهلة الأولى [2] ويَعد عرّوج رئيس أول مُحارب يستخدم المدفعية إبان العهد العثماني [3] في المنطقة المغاربية؛ ولكن الدولة الجزائرية في هذه الفترة كانت تَشكوا من نُقص كبير في الأسلحة الثقيلة؛ ولهذا قام الباي لارباي خير الدين بِتدارك الأمر بِكسب مَدفعية ثقيلة جديدة، قِسم منها تَلقاه كمساعدة والقسم الآخر غَنموه من الأعداء[4] وهكذا تم إنشاء مِيناء المدينة الذي أصبح منذ ذَلك الوقت المقر الرئيسي للأسطول البحري للأيالة الجزائرية ولِضمان حماية السُفن العثمانية الرَاسية في الميناء غدت تَنام أمنة مُطمئنة، ولِضمان ذلك أقاموا قرب البرج ثكنة عسكرية، وبُرج أخر للمراقبة عُرف باسم برج الفَنار[5] واعتباراً من ذلك التاريخ تَأسس أوجاق الجزائر واستمر حتى سنة 1830م[6]؛ وللمؤرخ التركي العربي إشبودان قول في هذا " إن الجزائر تُمثل ورقة رابحة باعتبارها (مدينة عاصمة) تتوسط ساحل شمال إفريقيا وتمثل فضاء استراتيجياً من الدرجة الأولى بالنسبة لِقوى تلك الفترة؛ فإنها قاعدة عسكرية مُتقدمة للدولة العثمانية في هذا الجزء الغربي من البحر المتوسط"[7] وجبهة رئيسية في الصِراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في الإمبراطورية الإسبانية وحُلفائهم الملوك الحفصيين[8].

لقد كان الباي لارباي خير الدين يَرمي من وراء تدميره لقلعة البنيون وَبناء رصيف ميناءها تأسيس مركزاً ثابتاً لجميع السُفن الإسلامية للمجاهدين لِإستخدامها للدفاع عن عاصمة العالم المغاربي المتوسطي وقطع كل أمل للإمبراطورية الإسبانية في العَودة واحتلالها مرة أخرى ؛ وعقب كل هذا اِنصرف خير الدين إلى الشؤون الخارجية للدولة، بزيادة تشجيعه للبحرية، وفعلاً بدأ نشاط البحارة الجزائريون يزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تُسيطر على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[9]، بِقوتها الضاربة وشَجاعة رِياسها

(1) -وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص37 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص129.

(2) -وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،2003م، ص113.

(3) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص97 وأنظر أيضاً: لخضر درياس، المرجع السابق، ص99.

(4) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص107 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، ص206.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص86-87 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة. المرجع السابق، ص ص215 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص87 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 95.

(6) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص68 وأنظر أيضاً: كوران أرجمند، المرجع السابق، ص11.

(7) -العربي إشبودان، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، ترجمة ومراجعة جناح مسعود، دار القصبة، الجزائر، 2007م، ص96.

(8) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص328 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p37

(9) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 113 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص164.

ونباهة حراسها التي تحرس مياهها(1)؛ الإقليمية أي إذا كان إلى خير الدين الفضل في صُنع الكيان السياسي للجزائر كدولة؛ فله يعود كذلك الفضل أيضاً في إنشاء القاعدة الأساسية للصناعة الحربية؛ ووضع الخطط الاستراتيجية العسكري المتميزة الذي لعبته الجزائر دولة وشعباً منذ قدوم الإخوة بربروس .

ثانياً-أثر تحرير حصن البنيون:

لا شك أن تحرير حصن البنيون يَعتبر نصراًكبيراً حققه الأتراك العثمانيون، إن لم يَكن أَهم انتصاراتهم(2) الاستراتيجية العسكرية في الجزائر؛ فَباستيلائهم عليه يَكونون قد ضَمنوا استمرارية وُجود دولتهم ليس في الجزائر؛ فَحسب بل في هذا الجزء من العالم الإسلامي المتقلب سياسياً والضعيف اقتصادياً والعاجز عسكرياً؛ ولكنه متماسك اجتماعياً؛ ومتنوع ثقافياً؛ خُصوصاً بعد تَشيد ميناء الجزائر وتَوسعته واِتخاذ العثمانيين له قاعدة وُجودهم البحري المُستقر بشمال إفريقيا المغاربي؛ والحوض الغربي للمتوسط بِكامله؛ وهو بدلاً من مِيناء حلق الوادي بتونس الذي كان بَعيد عن مسرح المعارك البحرية؛ والعمليات العسكرية البرية المكتسبة في وسط المنطقة المغاربية المتوسطية وغرب المتوسط.

وهكذا، فإنه مَاإن تَمكن الأتراك العثمانيون من تدمير حصن البنيون للمراقبة وفرض الهيمنة الإسبانية، واِستقرارهم النهائي في الجزائر؛ حتى تَضاعفت غزواتهم البَحرية على طول سواحل غرب البحر المتوسط، فأصبحوا بذلك القوة الضاربة الأولى في المنطقة (3) المغاربية؛ فزرعوا الرُعب والفَزع في قُلوب النصارى (4) وتدريجياً أصبحت نِيابة الجزائر تُنظم الملاحة وتُراقب جميع طرقها البحرية الكبرى لغرب المتوسط(5) وذلك بِتعدد غَارات غُزاتها على أراضي السلطة الدِينية والدَنيوية للمسيحية في كل من إسبانيا وإيطاليا، وجُزر غرب المتوسط حتى أصبح شرلكان يجد صعوبة بَالغة السفر من برشلونة إلى نابولي (6).

ومن جهة أخرى نَتج عن تحرير حصن البنيون بصفة آلية تحرير كامل ساحل الجزائر الأوسط بِشكل نهائي، وجعل إعادة احتلاله مرة أخرى من طرف الإسبان أمرا مستحيلاً، أَثبتتهُ حَملاتهم الفاشلة على شرشال والجزائر التي تَلت طردهم من البنيون (7)؛ ولم يَقتصر هذا فَحسب، بل تَعدا المناطق الشرقية منه حيث شَرعت القبائل البربرية في الضغط على الإسبان المحتلين لبجاية، وفي الوقت ذاته على المناطق

(1) -شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن ابي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط2، دار إحياء للتراث العربي، لبنان، 1999م، ص27 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص64.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص264 وأنظر أيضاً : Gabriel Esquire, op, cit, p89.

(3) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، صص87-88.

(4) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 128 وأنظر أيضاً: . de Grammont Henri, op, cit, p 32

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص265 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op ,cit ,p 54

(6) – مولاي بلحميسي، "مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية"، مجلة الأصالة، العدد 08، الجزائر، 1972م، ص45.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص267 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص912.

الغربية منه فاغتنم أبو محمد عبد الله أخو (أبي حمو الزياني الذي نَصبوه الإسبان سلطاناً على تلمسان بعد مقتل عرّوج رئيس) فَقطع صلته بهم وأرسل إلى الباي لارباي خير الدين مُعلنا تبعيته له نهائياً [1].

إذن فَقد تمكن الباي لارباي خير الدين في الفترة 1525-1529م من تحرير كافة المناطق المحتلة التي كانت خاضعة للإسبان؛ أي كل من الجزائر، تنس، شرشال، دلس، مستغانم، معسكر، هينين، القل قلعة بني راشد وغيرها بل تَمكن من فَرض سيطرته على رُقعة جغرافية تمتد من عنابة شرقاً إلى مستغانم غرباً ومن الجزائر شمالاً إلى المدية جنوباً والتَصدي للحملات الإسبانية وجَميع المحاولات الإسبانية الرَامية التي كانت تَهدف إلى إعادة احتلال المناطق التي فَقدوها؛ والمدن الساحلية التي طُردوا منها [2]؛ مثل مدينة الجزائر وشرشال وغيرها من المدن التي طُردوا منها حتى يَئسوا من العودة إلى الجزائر؛ إذن من الناحية الاستراتيجية كان الباي لارباي خير الدين أبعد نظراً من الإسبان الذين اِنحصر وُجودهم وراء أَسوار المدن والقلاع التي قاموا باحتلالها على طول الساحل المغاربي؛ المتوسطي، بينما أدرك الباي لارباي خير الدين أنه عليه أن يُعطي أهمية كبيرة للتوسع في المناطق الداخلية لكي يتمكن من فرض سيطرة الأيالة الجزائرية على الطرق البرية الكبرى لتجارة القوافل في المنطقة[3] المغاربية الإفريقية؛ ومن ثم مُواجهة الإسبان في جُيوبهم الحجرية المُحصنة، التي جَعلوا منها مقراً لجنودهم؛ فأصبحوا في حُكم المحاصر! بدل حِصار أهل المنطقة؟ فتمكن من بذلك من توجيه ضربة قوية فَرضت على الإسبان الانتقال من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع بتنازلهم وانسحابهم من بعض الحصون والقلاع والموانئ [4] ومابقي خافوا أن تضيع من أيديهم؛ فَاقتنعوا أخيراً بالاكتفاء بمساعد أمراء بني حفص لهم[5]؛ بِنسج الدسائس ودَعهم المتآمرين وتشجيع العِصيان وإثارة الثورات على الوجود العثماني في المنطقة المغاربية.

وهكذا، انحصر الاحتلال الإسباني ولم يَبق في أيديهم سوى بجاية ووهران [6] ولم يُعد في مقدورهم سوى القيام بتنظيم حملات عسكرية سريعة على الموانئ الجزائرية مُستغلين انشغال أو غِياب وحدات الأسطول العثماني عن الجزائر [7]، كما فعلوا في غَاراتهم على شرشال والجزائر، بالإضافة إلى تَحريضهم

---

(1) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص ص57-58 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص205.
(2) -أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص163 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص225.
(3) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 84 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص225.
(4) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص98.
(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، صص326-327 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p73
(6) -محمود بن سعيد الصفاقسي مقديش، نزهة الانظار في عجائب التاريخ والأخبار تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط1، مج1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان ،1988م، ص56 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، لمرجع السابق، ص209.
(7) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 102 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص205.

للأمراء الزيانيين على التمرد والزُعماء المحليين على العِصيان بُغية إضعاف الوَجود العثماني [1] في الغربْ الإسلامي وبالجزائر خاصة، عساهم يتمكنون يوماً من إعادة مافقدوه من مُدن وقلاع، وسُلطة ونفوذ.

ثالثاً-ردود الفعل الإسباني على تدمير حصن البنيون:

سادت جو من الحُزن على أجواء الكنيسة بروما والكآبة على البابا زعيمها الروحي؛ وحالة غضب وقُنود للإمبراطور شرلكان [2] السيد المطلق لِلزعامة الدنيوية للنصرانية؛ ومَوجة رُعب بنفوس ملوك أوروبا ويَأس أمراء إقطاعتها، وبَدئوا يدركون ادراكاً جيداً، خطورة الوجود العثماني الإسلامي الذي جعل من الجزائر؟ دَولتاً! ومن شُتات أَهلها؟ شعباً! وأضفى عليها شَرعيته! وأمدها بكل ماتحتاج إليه مادياً ومعنوياً بدون قيد أو شرط؟ فجعل منها نسخة حديثة منه! ومنها قاعدة عسكرية مُحُصنة للسفن الحربية ومُتقدمة على الضفة الجنوبية من الحوض الغربي للبحر المتوسط [3].

كما اِرتفعت وتيرة الهَجمات التي كان غُزاة الأيالة الجزائرية يقومون بها على سواحل إسبانيا وايطاليا وجزر البليار وغيرها من جزر البحر المتوسط، حتى ضاق أهل تلك السواحل وضَجوا بالشكوى لملكهم شرلكان مما تفعله بهم قُوات البحرية الجزائرية[4] وطالبوه بِضرورة تأمينهم وتأمين موانئهم وسواحلهم[5] أما الحامية الإسبانية بقلعة بِبجاية بَقيت مُتأهبة؛ واستعداد جُنود أُسطولها بالقاعدة العسكرية البحرية بالمرسى الكبير؛ وزيادة مُشاتها بحصون بوهران؛ وبَث العيون بضواحيها[6]؛ وتَنفير فُرسانها وتنظيم خَيالتها بالقلاع على طول السواحل الغرب مُتوسطية؛ أي تعبئة كاملة لقواتها البرية واستنفار لجميع وحداتها البحرية؛ فقد أصبحت القُوات الإسبانية تعيش في خوف شديد دائم، وأمسى سَاستها هاجس الهلوسة يفقدهم النَوم إلى حدْ الأرق بِمضاجعهم؛ لاسِيما بعد أن قطع السلطان عبد الله الزياني تَموينهم بالأقوات والأرزاق من تلمسان وإعلان تَحالفه مع الأتراك العثمانيين[7]، فصارت تلك الحاميات تعيش في حالة جوع مُزرية؛ وهي بحالة المنتهية مُسبقاً؛ وعُوض تَموينها عبر إسبانيا، وكثيراً ماكان يتأخر عن الوصول إليهم [8].

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص266 وأنظر أيضاً: Henri Léon Fey, op, cit, p58.

(2) -ذكر أن شرلكان صار ينتف رأسه، ويحثوا عليه التراب، ثم أخذ خنجرا يريد أن يقتل نفسه من شدة الغيظ، للمزيد أنظر مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص77-79 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص78.

(3) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، صص36-37 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية..، المرجع السابق، ص109.

(4) – مجهول، مخطوط الحكمة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجـــزائـــر، تحت رقم 1100، ص9.

(5) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص77-78 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op, cit, p 64

(6) -محمود بوعياد، المرجع السابق، ص108 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص98.

(7) -لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، 91 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p22

(8) -Gorguos (J), « Notice sur le Bey d'Oran, Mohamed El-Kébir », In R.A, No. 1, Années/57, 1856 ,P57.

أما الحفصين حُلفاء الإسبان لايقلون خوف مِنهم (1)؛ وخاصة بعد أن فُقد تَبادلهم المعلوماتي وتَعاونهم اللوجستي واتحادهم العسكري مع أمراء الدولة الزيانية في إطار تحالفهم الاستراتيجي ضد الأيالة الجزائرية؛ بل أصبحت الدولة الزيانية حليفة الدولة الجزائرية! أي عدوة الدولة الحفصية؟ التي تقلص نُفوذها في شرق الجزائر وجنوبها الصحراوي نهائياً؛ بل وضُربت في عُقر عَرينها! باستحواذ الباي لارباي خير الدين على مدينة بنزرت وإلحاقها بالسُلطة الجزائرية؛ بعد أن تلقت الضربة القاضية عندما فَقدت نهائياً تحالفها المصلحي الشخصي المُتبادل والمَبني على المنفعة المادية بالقضاء جِذرياً على زُعماء الأمراء المحليين واضمحلال نفوذهم وتلاشي قوتهم؛ فبقي السلطان الحسن الحفصي له خيارين إما أن يَتبع أثر والده ويرمي نفسه في أحضان الإسبان ويُصبح ضحية ألاعيبهم! وإما أن يرجع إلى طريق الصواب ويتحالف مع خير الدين الذي جاء يُقدم له يَد العون؟ والأن أصبح باي لارباي الدولة الجزائرية! الذي أعادة سلطة الدولة الواحدة إلى أذهان الناس وإخضاعهم لها! بعد أن غاب مَفهومها من واقع الحياة السياسة عند أهالي الدولة الجزائرية! وسُلطتها على مدى شَساعة أراضيها؟ منذ سقوط دولة الموحدين (2).

3-دور الجزائر في الصراع الإسلامي المسيحي:

أولاً-بنزرت يفتحها خير الدين(1529م):

فعندما تمكن الباي لارباي خير الدين من تمكين سُلطته على أراضي الجزائر المُحررة والمُستقلة وإخضاع أهلها لطاعة السلطان العثماني خليفة المسلمين باستانبول؛ توجه فاتحاً إلى مدينة بِنزرت التونسية (3) في عهد السلطان الحفصي الحسن؛ وألحقها بالدولة الجزائرية؛ ولأحمد بن أبي الضياف قول في هذا: "عند عودة خير الدين من حُروبه إلى جانب الدولة العثمانية في فُتوحاتها توجه إلى بنزرت في عهد السلطان الحسن بن محمد بن الحسن وأَخذها وأدخل أهلها في طِاعته بعد أن دانت له الجزائر وربطها بالسلطة العثمانية وسك العملة باسم الخليفة العثماني وذلك في سنة 936هـ / 1529م رغم محاولة السلطان الحسن في إعادة مُلكه بمناصرة بعض الإعراب ولكنه قد فشل وقام خير الدين بِتوحيد كلمة المسلمين"(4).

ومع هذا لم يكن من الباي لارباي خير الدين أن يَقوم بهذه الفتوحات لولا تشجيع خليفة المسلمين له ودعمه بلا حدود؛ إلى جانب دعم أهالي الشمال الإفريقي(5) المغاربي؛ مما جعله اليَد القوية في المنطقة المغاربية؛ يقابله السلطان الحفصي عَميل أعدائه الإسبان فيها، وهكذا أصبح الباي لارباي خير

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص 388 وأنظر أيضاً: Charrier Negociation , de la France dans le levant,1920 ,P56.

(2) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص118 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص213.

(3) -فوزي المزوغي، "الوضع العسكري بجهة بنزرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر" عن أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت دورتا سنة 1993و1994م، مجموعة سراس، تونس 1996م، ص13 وأنظر أيضاً: وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص98.

(4) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 56 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص109.

(5) -زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص89 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص139.

الدين مع العثمانيون والإسبان يتسابقون للاستيلاء على مابقي من السواحل المغاربية، بعد أن عجز أمراء بني حفص على رَد هجماتهم؛ ومع أن الإسبان استطاع احتلال بعض المراكز بالسواحل الحفصية، ولكن سقوط مدينة بنزرت بيد الجزائريين المُتعثمنيين تغيرت موازين القوة بِدخولهم كفاعل ثالث للأراضي التونسية! وإن كان السلطان الحسن الحفصي عام 1532م عقد صُلحاً مع فرسان مالطا -القديس يوحنا عَمَّا سبق؟ ثم تَحالف معهم ضد الوجود العثماني! [1]؛ فهل تسير الأمور على نفس الأحداث مثل ماحصل على الأراضي الجزائرية بعد مادخل الأتراك إليها أم تتشابه وتتشابك بحيث يصعب التفريق بينها.

ثانياً-توسع نشاط الجهاد البحري (1528/1532م):

قام خير الدين باي لارباي الجزائر بِتجهيز عدد من المراكب ثم أمر جُنده بالمرور من مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي، فاعترضوا في طريقهم مراكب إسبانية كانت محملة بالبضائع والأموال مُتجهة إلى قادس وتمكنوا من الاستيــلاء عليها وعلى رجالها وقَادوهم إلى مدينة الجزائر، ومُنذ ذلك الحين دخلت الجزائر في شهرة بفضل حَصانة مينائها وقادتها الأبطال وفي هذا الصدد لخير الدين قول:" في هذه الأثناء مرض كَبير قباطنتي سنان رئيس فَسلمت القيادة لآيدين رئيس كان أكثر دراية منه بأعمال البحر وأكثر شجاعة منه ودَعوته وقلت له: "وَلدي آيدين في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط، عليك أن تَمضي إلى أن تتوغل في مضيق سبته، وفي أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تَدع لهم أية فُرصة للنيل مِنك، ثم أحمل في سُفنك من تقدر على حمله من إخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة فَات بهم سالمين إلى الجزائر " [2]؛ مما كان سببا في بروز حركة المقاومة الجزائرية وتوجيه حملات لإنقاذ المضطهدين من أهالي الأندلس الذين كانوا يتعرضون لشتى صُنوف الاضطهاد الديني؛ فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي شجعت البحارة الأتراك على التوجه إلى غرب المتوسط بُغية المساهمة في الدِفاع عن إخوانهم المسلمين[3]؛ ويعتبر الإخوة بربروس من أشهر البحارة الأتراك الذين عرفتهم المنطقة المغاربية في هذا! حيث كان ظهورهم بها؛ نُقطة رئيسية في التحول بتاريخ المنطقة بأسرها وأصبحت عاداتهم متوارثة فيما بينهم وخِلفائهم، بل أصبحت مذهباً بالعقيدة العسكرية الجزائرية ؛ رَغم التكاليف الباهظة في عملية الإنقاذ والإنزال للبحرية الجزائرية بدفع ثمن غالي في الأرواح والعِتاد [4] ورغم الاشتباكات المستمرة مع العدو وقلة الإمكانيات فقد قام رِياس البحر بالدور المطلوب منهم وبكل مسؤولية حيث أنقذوا آلاف الأبرياء الأندلسيين من الاضطهاد وانتقموا لهم من الإسباني بِأن سَلطوا

(1) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص93 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية..، المرجع السابق، ص115.

(2) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص،138-139 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص81.

(3) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص221 وأيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص61.

(4)- Tome Premier ,Correspondance Deys D'Alger de Cour France (1579 – 1833) Edition Bouslma , Tunis ,1981,P 42.

عليهم الرُعب جزاء تنكيلهم بالمسلمين؛ فقد كانت الجزائر غَيورة على مصالح المسلمين في الشرق والغرب بمشاركتها بقوة في قضايا البحر الأبيض المتوسط وبمساهمتها في قضايا الموريسكيين وترحيلهم من الأندلس فكانت البحرية جسراً لنقلهم إلى البلاد الإسلامية، كما ساندت الأسطول العثماني في كل مُواجهاتها ضد القوى المسيحية (1)؛ وفي ذات الوقت نتصدى للإسبان التي تعد أكبر بلد في أوروبا (2)؛ وفي هذا يخبرنا خير الدين خبر بقوله" إن السلطان سليمان القانوني قد طلب آيدين رئيس وخاطبه قائلاً:" اسمع أيها الرئيس، لقد وَقع جميع الأعمال التي قام بها باي لارباي الجزائر خير الدين مني مَوقع القبول ،لأجل ذلك سوف أمنحك الآن خمس قطع بحرية من نوع قادرغة تَقوم بتسليمها إليه، كما أمرت قبودان باشا أن يزودكم بكل ماتحتاجون إليه من قذائف وآلات الحرب وغير ذلك من التجهيزات، خُصوصاً قذائف البحرية خذ منها ماتقدر على حَمله في سُفنكم وسوف أرسل معكم عدداً من مُهندسي المدافع يكونون في خدمتكم يجب أن يكون أسطولنا في غاية القُوة وفي مُنتهي الجاهزية للقتال، فقد بلغني أن الملك شارلكان يحمل نوايا في غاية الخُبث نحو الجزائر فإياكم أن تَغفلوا عن أخذ التدابير اللازمة أو تَغفلوا عمَّا يُدبره لكم هناك "(3)؛ ونستنتج أن الدولة العثمانية اِهتمت بالشمال الإفريقي المغاربي؛ وَوضعته في أعلى قائمة أَولوياتها؛ ووقفت قلب وقالب مع حركة الجهاد فيه وبِطَوقه ؛ وقَدمت لسكانه كافة المساعدات المادية والمعنوية؛ وزادت بعد أن ضَمنت لنفسها مَوضع قَّدم رَسمي فيه(4)؛ لأنها أدركت نهائياً بأن تَنقل المعركة إلى أرض أعداها الإسبان وتُقارعهم هناك في عُقد دِيارهم، وتُعذبهم على أيدي أبناء من تعيش على أرضهم وتَقتات على خيراتها؛ وبالمقابل تُهجرهم من دِيارهم بغير وجه حَق؛ هؤلاء الذين في صُدورهم لهيب نار الانتقام منهم؛ الذين وجدوا السِند القوي والدَعم اللازم من الأتراك العثمانيون؛ الذين ظهروا في ساحة الجهاد(5)؛ ومن بينهم وأشهرهم قواد عظام أهمهم خير الدين بربروس؛ حيث أسسوا جيشاً نظامياً متطوراً واستفادوا من الخبرة الحربية للجندية العثمانية وتشبهُ بِهم في التسليح والرتب وهذا مايؤكد حِرصهم على الجهاد ومقاومة أطماع إسبانيا وفُرسان جزيرة مالطا في المنطقة(6) المغاربية وقد أبدع هؤلاء القادة العِظام في التَصدي العنيد والمواجهة المستمر ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ومستغانم والجزائر ودلس وجيجل وغيرها وفي أعقاب زيادة تَهجير

(1) -السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العرب، القاهرة، مصر، 1970م، ص95.

(2) -محمد علي القرماني، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص64.

(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص154-155 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص86.

(4) -السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، مصر، 1967م، ص91.

(5) -صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي(1514-1830)، دار هومة، الجزائر، 2005م، ص31 وأنظر أيضاً: محمد علي القرماني، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص64.

(6) -علي عامر حمود، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص143.

المسلمين من الأندلس، استطاعت الأيالة الجزائرية أن تُوجه ضربات قوية لسواحل الإمبراطورية الاسبانية[1] وجُهودها كانت مُثمرة جداً في إنقاذ آلاف المسلمين الفارين منها؛ بِرغبتهم في الذَود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة أخر معقل لهم، ومأساة ضِياع الأندلس عليهم، والانتقام الشديد من الإسبان الذين أذاقوهم الويلات؛ وآثاره النفسية علَيهم؛ زيادة على هذا فهم العارفين بالملاحة وفُنونها والمدربين على صِناعة السفن[2] وقد قُويت السلطة الجزائرية بالفعل بِانضمامهم إليها؛ كما تَقوت بشجاعة المغاربة بعد أن وَحدت كَلمتهم وشاركتهم هَدفهم؛ وفي هذا المقام لخير الدين مَقال بقوله:" فقفل راجعاً أيدين رئيس إلى مدينة الجزائر فأغار في عودته على جزر البليار وقصف مدينة مايروقة والسواحل الإسبانية المطلة على البحر المتوسط فتمكن من أسر 3000كافر [3] " لقد هذا الهجوم ضربة قاضية لكبرياء الملك شرلكان فقد مرغ به أَنفه في التراب، بعد أن بَلغه عدد السفن التي استولى عليها أيدين رئيس في هذه الغارة55 قطعة؛ وبهذه الهَجمات يكون قد أعطوه الجواب اللائق على الغارة البحرية التي شنها الأميرال أندري دوريا على شرشال [4]؛ فَأوجد الإسبان في هذه الغارات ذَريعة يتعللون بها لغزو المدن الساحلية واحتلال بلدان شمال إفريقيا [5] المغاربية؛ وخير الدين قولاً في هذا " أدرك الملك شرلكان بأنه لاقبل له بمواجهتنا فقام بِتحريض ملك تونس على الثورة علينا مُرسلاً إليه أموالاً كثيرة واعداً إياه بجعله سلطاناً على الجزائر [6]؛ فقد كانت الجهود والتضحيات التي بذلتها الجزائر دولتاً وشعباً تحت اِمرأة الباي لارباي خير الدين؛ بداية نهاية الدولة الحفصية، فأنها كانت كذلك إيذاناً بزوال الاحتلال الإسباني كله من المنطقة المغاربية المتوسطية، بدءاً من تَقليص وَجودهم في المدن الساحلية واِنتهاء بِحصْرهم في مدينة بجاية ووهران؛ ويصف لنا خير الدين ماوصل إليه الحَال بقوله: "عندما كنت في تلمسان صادف دلي محمد رئيس بأسطوله المكون من 40قطعة؛ أسطولاً إسبانياً مكون من 35 سفينة من نوع قادرغة وسرعان مااشتبك معها؛ حتى أعلنت 29 سفينة استسلامها له؛ بينما لاذت6 الباقية بالفرار" [7]، كل هذا وأكثر أَوجد مناخاً سياسي عَكر سَاد الإمبراطورية الإسبانية المُترامية الأطراف كأرجل الأخطبوط بين العالم القديم والجديد؟ ولكن رأسها مُهدد! لقرب الخطر جداً مِنها؟ فكان ماعلى إمبراطوريها شرلكان أن يبقى على الوضع كما كان؟ ومهما كلفه الأمر! وكعادة الغُزاة المُحتلين يُبصرون بِعيون الخونة لِدينهم

(1) -عمر الركباني، المرجع السابق، ص167 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص207.

(2) -زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص90 وأنظر أيضاً: لخضر درياس، المرجع السابق، ص109.

(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص152 وأيضاً: عبد الله شريط ومحمد الميلي مبارك، المرجع السابق، ص159.

(4) - بوبكر الصادق، إيالة تونس في القرن 17م، وعلاقتها التجارية مع موانئ البحر المتوسط، مركز الدراسات والبحوث العلمية والأندلسية الموريسكية، زغوان، تونس،1987م، ص94 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص116.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً : Gabriel Esquire, op, cit, p 64.

(6) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص156 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص62.

(7) -رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص271 وأنظر أيضاً : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص157.

والمُتنكرين لبني جِلدتهم؛ والعُباد لأنفسهم ولِمن يُقدم لهم النَفيس؛ المُهم يَقيهم بمَناصبهم والمُحافظة على مَصالحهم وشهرة ألقابهم، وهو ماتطابق قلباً وقَالب مع طَبائع وطِباع الأمراء الحفصيين الأواخر!

والأهم من كل هذا الموقع الجُغرافي الممتاز للمنطقة، المغاربية وطَبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا والمُتحكمة في مضيق جبل طارق وصقلية بالضفة الجنوبية للحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعلها محطة أنظار للعالم الإسلامي والمسيحي، وتصادم بين سُلطان الدول العثمانية سيد الشرق والحوض الشرقي للمتوسط ونُفوذ الإمبراطورية الإسبانية وتَحالفها الغربي وهَيمنتها على الحوض الغربي للمتوسط ويشتد الصراع بينهما(1)؛ ولكن الأيالة الجزائرية تنوب تدريجياً عن العثمانيون وهكذا يَتغير المُتصارعين وتصبح حَلبتهم الرئيسية شمال وجنوب غرب المتوسط حتى سُميت الجزائر بدار الجهاد واستانبول الصُغرى (2) وأطلق عَليها أعدائها عُش القرصنة؛ ويصف لنا خير الدين الأجواء بقوله" ولما بلغ الانتصار الساحق الذي حققه الأتراك على الأسطول الإسباني؛ مسامع مَلكهم المقيم في برشلونة كاد يموت من الخُنق ولم يكن يَقدر يفتح فَمه من القُنوط الذي أصابه بعد هزيمته أمام السلطان سليمان القانوني في ألمانيا (3).

ثالثًا: الحملة الإسبانية على شرشال 1531م:

الواقع أن شمال إفريقيا من طَبرقة الليبية حتى مراكش المغربية كان يتعرض لسيطرة عسكرية أوروبية مُباشرة ولحملات مُدمرة على المدن والموانئ الكبرى نظراً لأهميته الاستراتيجية ولموقعه الجُغرافي وتاريخه السياسي والعسكري(4)؛ ولهذا إستند الاحتلال الإسباني للسواحل المغاربية المتوسطية إلى هدف خدمة لأغراض جُملة من الأسباب الدينية والأهداف السياسية والأمنية والاقتصادية والتجارية لهم فكان طرد المسلمين من الأندلس واحتلال سواحل الجزائر وتونس أحد أَهم الأولويات السياسية الخارجية للإسبان.

واعتبر الأوروبيون بأن احتلال الساحل الإفريقي المتوسطي يشكل جسراً للوصول إلى القدس وقد نَفذوا هذه النظرية السياسية خلال الحروب الصليبية في المشرق وجَسدوها على أرض الواقع عندما نزل الملك الفرنسي لويس التاسع (Louis IX) بجيشه في عام 1270م في مدينة قرطاجة لاحتلال تونس عاصمة الدولة الحفصية؛ لجَعلها قاعدة؛ ينطلق منها بِحملته نحو فلسطين لاحتلال القدس؟ (5).

وعندما نُدقق النظر في الدوافع والأسباب التي أدت بالإمبراطورية الإسبانية إلى شَن تلك الحملات العنيفة لاحتلال سواحل الجزائر وغَيرها من المدن على ساحل الشمال الإفريقي(6)، المغاربية فإننا نَجدها

(1) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص118 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص37.

(2) -يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص ص10-16 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص119.

(3) – مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص65 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص148-159.

(4) –لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص153.

(5) -حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد لعروسي المطوي، مج1، (د، غ، إ)، لبنان،1990م، ص73.

(6) -ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجـــزائر في العهد العثماني)، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2002م، ص89 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص118.

تَستند إلى جُملة من الأسباب التي تَرمي إلى تحقيق أهداف استراتيجية ولخير الدين قول في هذا " أغار أندري دوريا على ميناء شرشال ولكن البحارة الجزائريون قاموا بِالتَحصن في القلعة بعد إحكام إغلاقها ولما كان رجاله مُنهمكين في نهب ماوجدوه في المرسى والمدينة" ،انتهز البحارة هذه الفرصة وقاموا بِهجوم خاطف عليهم فَقتل المئات منهم بينما وقع 1700 منهم في الأسر [1]؛ لقد قاد الباي لارباي خير الدين قُوات الدولة الجزائرية بقيادة إيمانية؛ مؤمن بقضيتها؛ وهو ومن معه حازمين وعازمين، بالاستعداد الدائم للتضحية والشجاعة في مَعاركهم؛ والصدق بينهم؛ وتلا على جميع قُواده وجنوده قوله تعالى: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} وتقدم للميدان وَمعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين في الشرق والغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سَحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الاسلام) [2] فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الاسبان فأبادوهم عن آخرهم [3].

وقد كان من أثر الحملة الاسبانية على شرشال1530م الهزيمة التي مُنى بها الإسبان أن زاد تَعلق الأهالي بالسلطة العثمانية، وثِقتهم في قُدراتها على حمايتهم من الاعتداءات الإسبانية [4]؛ ولهذا نجد الباي لارباي خير الدين قد اِتخذ من مدينة الجزائر قاعدة رئيسية لعملياته العسكرية؛ ومركزاً لقيادته السياسية فكان من نتيجة ذلك أن صارت جميع السواحل والموانئ البحرية في غرب المتوسط مُستهدفة من طرف البحرية الجزائرية، وذلك نظراً لتوسط مدينة الجزائر ساحل الشمال الإفريقي المغاربي (تقريباً) وهو مايشكل تهديدا مباشراً للجناح الشرقي للإمبراطورية الإسبانية والجناح الغربي للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

رابعاً–المناخ السياسي الإقليمي والوطني:

1–الإقليمي:

ترك ظهور آل بربروس بِمياه البحر المتوسط، أثراً بالغاً بتمكن الأتراك العثمانيين من فرض سَطوتهم وسُلطانهم عَليه، أَشعر المسيحيين بِالضيق الشديد جداً، وأَلحقت بهم من جَراء ذلك أضرارً كبيرة[5] وخاصتاً بعد تمركزهم في الجزائر وتشكيل حُكومة قوية في شمال إفريقيا، غَدت أرضاً محرمة على النصارى وشَكلت خطراً كبيراً على الممالك المسيحية وعلى رَأسهم إسبانيا[6]، التي اِعتبرت الشمال الإفريقي المتوسطي مِنطقة نفوذ لها وعلى أنها لُقمة سَهلة يُمكنها تَكملة اِبتلاعها متى شاءت، ولكن الأحداث تَغيرت، وطَرأت عليها مُستجدات جديدة شَملت مُختلف المناطق المغاربية، اختل على إثرها التوازن الِاحتلالي الإسباني.

---

(1) –محمد سهيل طقوس، العثمانين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (1299م – 1924م)، ط1، مطبعة بيروت المحروسة، لبنان،1995، ص 211 وأيضاً : خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص149–150.

(2) –أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 62 وأنظر أيضاً : خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص170–171.

(3) –مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص67 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص154.

(4) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص225 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص91.

(5) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص72 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص913.

(6) –سعد الله أبي القاسم، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان 2003 م، ص 34.

وإن كان إلتجاء يحي ابن سالم التومي إلي الإسبان؛ أعطاهم حُجة قوية للتدخل بأمور الجزائر ولهذا أخذوا يَعدون الخطة لاحتلالها واتفقوا مع بعض الزُعماء المحليين بُغية توجيه ضربة شديدة تنهي قَراصنة الأتراك[1]؛ وتنفيذاً لِلخطة المُدبرة، أعلن أمير تنس تَمرده، وتَحالف عرب مِتيجة مع الإسبان المقيمين في قلعة البنيون؛ وَوجه حاكم تلمسان دَعوة رسمية إلى الملك الإسباني يَلتمس منه المساعدة، وقد شعر الأمراء الحفصيين بِالخطر، فَاتصلوا بالإسبان واتفقوا معهم سراً، لِطرد الأتراك من الجزائر قبل أن يَستفحل خَطرهم على المنطقة، وتَعهدوا بمهاجمتهم من ناحية البر على أن يتكفل الإسبان بمهاجمتهم بحراً[2].

وبِوضع حَجر الأساس لِبسط وصاية العرش العثماني؛ ويُعد ذلك أيضاً بداية بِتأسيس نِيابة الجزائر [3] أو مَاعرف باسم أيالة الجزائر بعد أن خَول السلطان سليمان القانوني للباي لارباي خير الدين حَق التجنيد من أنحاء الدولة العثمانية، ابتداء من 1525م[4]؛ ومَنح لها أيضاً اِمتيازات تتمثل في تَجمع المجندين وقُبول المتطوعين؛ ومنذ ذلك التاريخ أصبح للدولة الجزائرية وكالات رَسمية خاصة بها هي:(إستانبول-أزمير-أوليوسون-قبرص-طرابلس-الإسكندرية-الرشيد-طرابلس الغرب -تونس-مرسيليا-جبل طارق-طنجة-كوسوفو-بلغاريا)[5] وكانوا يعرفون بدائيات [6] يرأسهم ضابط سامي [7]؛ وهذا مُكافئة لخير الدين باشا على ثَباته؛ وإِثبات وجوده وتَحمل المسؤولية الكبيرة التي على عَاتقه؛ وبعث الأيالة الجزائرية من جديد بِبقائها وزِيادة تمددها؛ وفرض إِعترافها على أَعدائها الإسبان؛ والوفاء بِحماية العثمانيين على مُساندتهم هذا على الصعيد الخارجي[8] أما على الداخلي، فقد واجه الباي لارباي خير الدين صُعوبات من جانب الحكام والزعماء المحليين عندما حاول إعادة توحيد المغاربة على كلمة واحدة، فَقد تعرض لعملاء المُحتل الإسباني؛ من الولاءات المُتذبذبة والمتقطعة للأمراء الزيانيين معه؛ ودَسائس السلطات الحفصية بِنسج المؤمرات مع بعض الزعماء المحليين وبِتحريضها لبعض القبائل، ثم المُجاهرة بالعداوة للأتراك؛ والتحالف العلني مع أعدائهم[9]؟ كان كل هذا أكثر بكثير من مواجه الإمبراطورية الإسبانية؟ إلا أنه تمكن من التغلب

(1) -سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص207.

(2) -محمد سهيل طقوس، العثمانين من قيام الدولة...، المرجع السابق، ص 212 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص126.

(3) -de Grammont Henri, op, cit, p 36.

(4) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر خلال العهد العثماني، دار الهدي، عين مليلة، الجزائر،2007م، ص75 وأنظر أيضاً: وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص ص 68-71 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص228.

(5) -Marmot (C), op, cit , P98 .

(6) -محمد بن أبي السرور البكري الصديق، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تقديم وتحقيق وتعليق ليلي الصباغ ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1995م، ص178.

(7) -سونيا محمد سعيد البناء، فرقة الإنكشارية ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر العثمانية، ايتراك، مصر، 2006م، ص13.

(8) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً: العربي إشبودان، المرجع السابق، ص106.

(9) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص17 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص910.

على هذه الصُعوبات ونَجح في تَثبيت سيطرته على الجزائر وإعلانها دولة من جديد؛ وبِانعكاس هَيبتها على رَعيتها في من يَنون عِصيان سُلطتها؛ ووقفت بجانب العلماء والأهالي على تَعاونهم لها.

2-الوطني:

بشكل عام كان الأهالي مُؤيدين للأتراك ومُناصرين لهم تَبعا لتأييد العلماء والأعيان [1] وقد رأينا في ثنايا هذه الدراسة أنهم كانوا يقومون بإرسال الوفود الممثلة لهم؛ تدعو الأخوين بربروس إلى القدوم إليهم كما رأينا حَفاوة الاستقبال الذي حضي بها عندما حل بالجزائر [2]؛ ويرى أكثر المؤرخين أن وصول عرّوج وخير الدين كان بِناءً على استدعاء من سكانها لِنجدتهم من الإسباني، وأن قِوى بعض الحكام المحليين التي قاومت وُجودهم وَوقفت أمام محاولاتهم الجادة في تَوحيد البلاد حيث كانت قبل وُصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس[3] وقد ساند أَغلب أهل البلاد الأتراك واشتركت أعداداً كبيرة منهم في حَملاتهم على أعدائهم، مما أَسهم في وُجود قاعدة شعبية لهم؛ كما ساندها العديد من الحكام المحليين الذين شَعروا بخطورة الغزو الصليبي الإسباني[4]؛ والحالات التي سُجلت فيها مُعارضة الأهالي لهم كانت محدودة؛ فقد كان تأييدهم للأتراك العثمانيين في المنطقة؛ المغاربية المتوسطية، نابعاً من قَناعتهم بِأنهم جاءوا لتخليصهم وحمايتهم من الإسباني ومن جَور حُكامهم الفاسدين الذين لاَهَم لَهم سِوى التنازع والصراع على العرش [5] وهكذا كانوا الأهالي يَلجئون إليهم كُلما لمسوا من أنفسهم حاجة لاستدعائهم لمواجهة وضع خطير سَواء كان احتلالاً أو تهديداً أو تخليص من حاكم فاسد [6] ورغم محَبة الأهالي للأتراك وتَقديرهم لما يقومون به من دور عَظيم إلا أن بعضهم كان يَستجيب بسرعة لحملات الدِعاية المضادة لهم[7]؛ المُنبثقة احتضار حُكم الدولة الحفصية؛ وأيضاً رد الفِعل العكسي السُلوكيات الفَظّة التي قام بها بعض الجنود الأتراك؛ فقد كان الأهالي يَثورون على كل من يُسيء مُعاملتهم، فكما ثاروا على فَظاظة بعض جُنود الأتراك في أيام عرّوج رئيس؛ ثاروا على فظاظة ابن القاضي وسوء مُعاملته لهم؟ بعد تَأييدهم له في ثورته على خير الدين باشا [8]!

---

(1) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص74-75 وأنظر أيضاً: يحي جلال، المغرب العربي الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص16 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، المرجع السابق، ص668 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص ص33-35 وأيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص 229

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص352 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 86.

(3) -مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص53 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص209.

(4) -صلاح العقاد، المرجع السابق، صص 37-38 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص ص47-51.

(5) -محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص125 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص353.

(6) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص914 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية..، المرجع السابق، ص118.

(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص354 وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص129.

(8) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص63 وأنظر أيضاً: رضا نور، المرجع السابق، ج2، ص289.

علماً مما سبق أن الإخوة بربروس وغيرهما من البحارة الأتراك، قَدموا إلى سواحل شمال إفريقيا للدفاع عن المسلمين في هذه المناطق، حيث كانت سواحلهم تَتعرض للغزو والاحتلال الإسباني بالإضافة إلى مُساعدة مُسلمي الأندلس الذين كانوا يتعرضون إلى ألوان مختلفة من الاضطهاد [(1)]؛ وكان من آثار التَهجير الجماعي لهم؛ ونُزوح أعداداً كبيرة مِنهم إلى الشمال الإفريقي المغاربي؛ حدوث مُشكلات اجتماعية واقتصادية كثيرة؛ وثقافية متنوعة في مُوانئها ومُدنها الساحلية؛ وكان من بين الأندلسيين المُنزحين إلى هذه المناطق أعداداً وفيرة من البَحارة المُهجرين، فكان من الضَروري أن يَبحث عن الوسائل الملائمة لِاستقرارهم، إلا أن بعض العوامل قد تَوافرت لِتدفع بأعداد كبيرة من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد البحري ضد القِوى المسيحية في البحر المتوسط؛ ويأتي في مُقدمة هذه الأسباب الدافع الديني وجَوهره العقائدي؛ بِسبب الصراع بين الإسلام والمسيحية؛ وإخراج المسلمين من الأندلس ومُطاردة الإسبان والبرتغال لهم؛ زِيادة عن حُلفائهم من جنويين ومالطيين وغيرهم؛ وعملائهم الحفصيين؛ وأتباعهم الزيانيين.

وهذه الصورة التي قَدِم بها الأتراك إلى الجزائر، جَعلت الأهالي يَنظرون إليهم بِمنظار المدافع المخلص عن الدين الإسلامي[(2)]، ويظهر دورهم الجِهادي في أول مُحاولة لتحرير بجاية من الحكم الإسباني وكان سببا في إِستدعاء أهالي جيجل لهم، ونقل قاعدة عملياته ضد القوات الإسبانية من جربة إلى جيجل لكي تكون محطة تقوية حِصار بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى؛ ثم تبعهم بعد ذلك إلحاح أهالي مدينة الجزائر لاستدعاء الأخوين بربروس، ويبدو قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية؛ وهو أمر لم يتعودوه في جِهادهم ولكن أجبروا عليه! بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، قبل أن تَتوالى الدعوات لهم لتحرير بقية المدن المحتلة[(3)]؛ وقد حافظ الأتراك على تأكيد هذا الانطباع الإيجابي في نفوس الأهالي من خلال استمرارهم في سياسة التصدي للإسبان وعملائهم الحفصيين طيلة فترة وجودهم مَما أكسبهم محبة الأهالي وتقديرهم [(4)]؛ لكن الموقف زاد حرج بعد قتل "عرّوج" مما اضطر خير الدين رئيس للبحث عن تحالف يُعينه على الاستقرار والمقامة ومُواصلة الجهاد وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدَورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم لأن القوى المحلية في المنطقة[(5)]؛ المغاربية كانت متعاطفة معها هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت الظُروف بالدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول مُهيأة لقبول هذا التحالف خاصة بعد أن إتجهت أنظار

---

(1) – شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، (926-1246هـ/1519-1830م) أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005 -2006 م)، ص67 وأنظر أيضاً: حمد درّاج، المرجع السابق، ص378.

(2) –حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 72.

(3) –علي عامر حمود، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص211.

(4) –العربي إشبودان، المرجع السابق، ص109 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص165.

(5) –يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص75 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص902.

العثمانية إلى الشرق الإسلامي[1]؛ وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه؛ اِهتمامها بالغرب الإسلامي والتَصدي لدور الإسبان وفرسان القديس يوحنا والبرتغاليين في المنطقة، وكان من المنطقي جداً التحالف مع أي من القوى المحلية التي تَعينها على تحقيق هذه الأهداف[2]؛ كما أنه ثمة عامل سياسي أخر لعب دوراً أساسياً في التَقرب بين كل من الدولة العثمانية والمجاهدون الأتراك المرابطين في سواحل المنطقة المغاربية المتوسطية والذين كانوا يمهدون الطريق للوجود العثماني الإسلامي في إفريقيا المغاربية؛ هذا العامل الجوهري هو اِشتراكهما في مُحاربة عُدو واحد إذن لقد وجدا الإثنين أَنفسهم حُلفاء في مَيدان الحرب[3] قبل أن يتم تَرسيم هذا الحلف وفق التطورات التي عرفتها المنطقة لاحقاً.

ومن جِهة أُخرى أدرك الإخوة بربروس مَدى نُفوذ العلماء لدى الأهالي وثِقتهم فيهم وأعلمهم الأعيان أن الأهالي يُحبون العلماء ويبالغون في تَعظيمهم، فكان من سياسة العثمانيين في الجزائر إظهار الاحترام الكبير لهم [4]، والرجوع إليهم لِلفصل في الكثير من القرارات الحاسمة مثل التبعية للدولة العثمانية أو القضاء على المتمردين، أو إرسالهم كوسطاء صُلح [5]، فكسبوا بذلك قُلوب الأهالي وثِقتهم وَولاءهم.

وفي حال قِيام ثورة أو حَركة تمرد فإن العثمانيين لم يكونوا يقومون بالانتقام من تلك القبائل الثائرة، بل كانوا يَسعون إلى القضاء على الثورة وزعمائها أو إضعاف قُدرتهم على إثارة الأهالي من جديد لكنهم كانوا بمجرد القضاء على الثورة يبادرون إلى رَدْ ماستولوا عليه في أثناء الحرب ويُعوضون أهم قيمة ماأتلف أو دُمر[6]، لقد كان الهدف من هذه السياسة هو اِستمالة هؤلاء المغلوبين نَحوهم، وإعادة الطمأنينة إلى قلوبهم، وإشعارهم بأن تلك الحَرب إنما كانت لإعادة النظام والخُضوع له، وقد أثرت هذه السياسة تأثيراً كبيراً في نفوس الأهالي، وجعلتهم فعلاً يَخضعون في النهاية لسلطة العثمانيين عن رِضا وطواعية[7].

وقد اصطدم الحفصيون بمحاولات المماليك الأوروبيّة لِلتوسع فقاموا بعمليات دِفاعية ضد فُرسان مالطا إلى أن تَورطوا في النزاع مع الإمبراطورية الإسبانية ثم ورطوا أنفسهم مع الدولة العثمانية، وَاشتد ضراوة التصادم بَينهم في المنطقة المغاربية، في مطلع القرن 10هـ/16م [8]؛ وشهد النزاع صراع كبير جداً؛ الذي بدأت قِيامته بين العالمين العثماني الإسلامي والإسباني النصراني للتحكم والسيطرة على البحر المتوسط القلب النابض للعالم القديم! وبوابة الجديد؟ وقد اِبتدأ نفوذ الإسبان يمتدّ إلى السواحل المغاربية المتوسطية

(1) -وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص132.
(2) -زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص98 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص232.
(3) -لوثروب ستودار، حاضر العالم الإسلامي، ج1، تج عادل نويهض، (م، ع، د، ن)، لبنان، 1974م، ص79.
(4) -عبد الله شريط ومحمد الميلي مبارك، المرجع السابق، صص148-149 وأنظر أيضاً: مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص57.
(5) -حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص88 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص104.
(6) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص132 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص128.
(7) -العربي إشبودان، المرجع السابق، ص117 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص214.
(8) -علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مطبعة البعث العربي، دمشق، سوريا،1980م، ص53.

بعد تهجير المسلمين من الأندلس بينما سَطح نجم الدولة العثمانية على يد الأخوة بربروس؛ والذي كان حاسماً على مُستقبل المنطقة وخاصة على تونس.

كما ألقت هذه الدراسة أضواء جديدة، بعد أن صارت الجزائر عثمانية، فقد نَجح الباي لارباي خير الدين في وضع دَعامات قوية لِدولة الجزائر[1]؛ الفَتية، وكانت المساعدات العثمانية اللامَحدودة واللامَشروطة تصله باستمرار من السلطان الخليفة سليمان القانوني [2] واستطاع الباي لارباي خير الدين أن يُوجه ضَربات قوية للسواحل الإسبانية فقد قام عام 936هـ/1529م بتوجيه 36 سفينة خلال07 رحلات وكانت جُهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين منها؛ وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية ومَوارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضَرائب وفِدية وغنائم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخِراج ومايقوم به رؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية [3].

خامساً-خير الدين قبودان باشا للأسطول العثماني 1532م:

عندما خرج السلطان سليمان القانوني لغزو الإمبراطورية النمساوية في سنة 1532م، انتهز الأميرال أندري دوريا الفُرصة فأغار على قلعة مودونModon بشبه جزيرة المورةMora بأسطول مكون من 123قطعة بحرية [4] إلا أنه اضطر إلى الانسحاب عندما تَصدت له الحامية العثمانية المكلفة بحماية القلعة [5] ولكن هناك قِلاع ذات أهمية سقطت؛ وكانت الإغارة والاستحواذ عليهم بناء على أمر من الإمبراطور شرلكان شخصياً؛ تنفيذاً لطلب أخيه فرديناند إمبراطورية النمسا؛ لمساعدته على التصدي للعثمانيين، بفتح جبهة عسكرية جديدة تَنطلق من البحر [6]؛ كان لسقوط هذه القلاع عن طريق الهجوم البحري الذي قام به الأميرال أندريا دوريا؛ ذات أهمية كبيرة جداً في تاريخ الصراع بين العائلة العثمانية الإسلامية السُنية وعائلة آل هَابسبورغ [7] المسيحية الكاثوليكية(الذي تَمتد صلاحيات حُكمها ونفوذها في أوروبا المسيحية بكاملها، ماعداً فرنسا) ويُؤذن بانتقال الصراع بين العائلتين من البر إلى البحر، حيث يكون البحر المتوسط مَيداناً لهذا الصراع الطويل[8]؛ وقد أدي تطور العلاقات الدولية وزِيادة اِحتدام الصراع

(1) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص21 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص915.

(2) - Charrier Negociation , op, cit,P56.

(3) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص311 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص47.

(4)-Ibn Abi L Diyaf, Chronique des rois de Tunis et du Pacte fondamental, Chap .IV et V, Edition critique et traduction. André Raymond, Vol 1, IRMC- ISHMN, Alif, Tunis, 1994, p. XV,P79 .

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص273 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p78

(6) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص87 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص274.

(7) -حقي العظم، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، ط1، مطبعة الترقي، مصر 1902م، ص13.

(8) -عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، النظم السياسية والعسكرية، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، (م، م، و، د، ب، ف، ح، و، ث، أ، ن،1954 م)، الجزائر، ص112 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المرجع السابق، ص428.

بين الدولة العثمانية والإسبانية في حدوث سلسلة من الحروب الكبرى؛ وأن كانت بدايتها معركة "بريفيزا الشهيرة" 1530م التي أنتصر فيها الأسطول العثماني (1).

لقد أدرك جيداً خليفة المسلمين سُليمان القانوني بأهمية وجود أسطول إسلامي عثماني؛ دائم الوجود بالبحار الإسلامية العثمانية يُمكنه حماية المدن الساحلية؛ ومَواقعها الاستراتيجية؛ ومرافئها وموانئها وسنداً ناري قوي ومَدداً لِقلاعها وحُصونها البحرية، ولايمكن أن يَتحقق ذلك إلاّ بأن تُسند مُهمة بِناء هذا الأسطول؛ وقيادته إلى شخصية ذات تجربة طويلة مع البحر وخِبرة عميقة في البحرية؛ وفنونها الحربية وتكتيكات مَعاركها؛ وعليه وقع اختياره على الباي لارباي خير الدين ليتولى هذه المهمة الخطيرة (2).

ولتذكير فإن في عهد السلطان العثماني سُليمان القانوني استولوا المسلمين العثمانيون سنة 1521م على بلغراد Beleghradالقلعة الحصينة للصرب؛ وعليه أصبح الطريق البَري نَحو قلب أوروبا مفتوحًا، وكذلك جزيرة رودس Radoss سنة 1522م (3) التي تُعد الحصن المنيع لفرسان القديس يوحنا (4)، وكانت بِمثابة الخِنجر في خاصرة الأمة الإسلامية قبل تَهجيرهم؛ فأختار جزيرة مالطا؛ وبسقوط هذين الحصنين تأكد الغرب الأوروبي أنه لأيمكن قهر القوة العثمانية! ثم جاءت كارثة انهزام النصارى في معركة موهاكس 1526م في المجر؛ وآثارها المدمرة على العالم المسحي، إذن واقع الأمر أن الدولة الإسلامية العثمانية في هذه الحِقبة برزت كمركز للعالم وأقوى دولة فيه (5)، وأضحت عاملاً مهمًا وأساسيًا لتوازن القِوى في القارة الأوروبية؛ ومع كل هذا قام السلطان سليمان القانوني بعقد صلح مع الملك فرديناند النمساوي، وعزم السفر بسائر جُنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها (6)، وبدًّا للسلطان أنه لابد له من رجل دَولة! يعتمد عليه في دخول تلك البلاد، على أن يكون عالماً بأحوالها فوقع اختياره على المجاهد خير الدين (7) لما يُعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجوماته على تلك النواحي، ومافتحه من موانئ وبلدان في الشمال الإفريقي المغاربي وكيف أَقر الحكم العثماني فيها، ولكي تكون الأعمال البحرية أكثر نجاحاً وفَعالية، يجب أن تُعهد قِيادة الأسطول إلى الباي لارباي خير الدين الذي وُجه إليه فرماناً سلطانياً

---

(1) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر...، ص17 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص242.

(2) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص889 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص274.

(3) -جزيرة بالقرب من شاطئ آسيا، اشتق اسمها من لفظة رودون باللغة اليونانية، معناها Radoss -رودس أي الورد للمزيد أنظر: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، 176 وأنظر أيضاً: محمد علي القرماني، المرجع السابق، ص107.

(4) -فرسان القديس يوحنا أو فرسان الاسبتارية ويسمون أيضًا (رهبان مالطة) أصلهم هيئة أسسها تجار أمالفيون للقيام بشؤون مستشفى القديس يوحنا في بيت المقدس وذلك في فترة الحروب الصليبية ثم تحولوا إلى هيئة حربية على مثال فرسان الداوية وللمزيد أكثر أنظر: وليام لانجر، موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، ج2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر،1987م، ص707.

(5) -يوسف الثقفي، موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1976م، ص46.

(6) -على محمد الصلابي، المرجع السابق، ص198 وأنظر أيضاً: وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص107.

(7) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 87.

سنة1533م: "يطلبه فيه إلى حَضرته ويأمره بإستنابة بعض من يَأمنه في الجزائر، وأن لم يجد من يَصلح لذلك، يَبعث إليه السلطان نائباً [1].

وعندما سمع الأميرال أندريا دوريا قائد الأسطول الإسباني النَصراني بما عزم السلطان عليه من فِتح الأندلس من جديد! واستقدام ألَد أعدائهم خير الدين بربروس من الجزائر لذلك؟ فأراد أن يُفسد ذلك؟ بأن يشغل الباي لارباي خير الدين عن سفره إلى حَضرة الخليفة [2]، ويُخبرنا خير الدين ماحصل بِقوله: "فلما بلغت ملك إسبانيا دعوة مولانا السلطان لي بالقدوم إلى إستانبول أصابه الهلع؛ وأعطى أوامر صارمة للأميرال الكبير أندريا دوريا بأن يَقطع طريقي ويَحول دون خُروجي" [3] وأشاع بين الأسرى المسيحيين بالجزائر، عن عزم الحكومة الِإسبانية الهجوم على الجزائر، وتَخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الإسبان لذلك الخبر وتمردوا عن السلطة المركزية الجزائرية، التي رأت أن من المصلحة العامة إعدامهم لِيأمن غَائلتهم ثم قام حَاكمها خير الدين بِتقوية الاستحكامات فيها؛ وزاد من عدد القلاع وترميم الحُصون بها؛ لتَحصين رُقعه الإسلام؛ ومُظهراً أتم الطاعة للسلطان العثماني الرَاعي الرسمي لِشؤون المسلمين [4].

ثِم عَزم الباي لارباي خير الدين على السفر إلى إستانبول 940هـ / 1533م [5] وعين مَكانه بالنيابة في حُكم الدولة الجزائرية القائد حسن آغا الطوشي [6] الذي اِنهمك في تَوطيد الأمن ووضع الأسس للإدارة [7]؛ المستقرة وحاول جمع أطراف البلاد كواكب حول مركزية شمس السلطة الجزائرية، ثم أخضع مدينة مستغانم نهائياً[8]، وتقدم في مابعد نحو الجنوب الشرقي واستولى على عاصمة الزاب بسكرة [9].

أما بالنسبة للباي لارباي خير الدين فقد خرج في 44سفينة مع مجموعة من خِيرة بحارته مُتوجها إلى إستانبول[10] ونترك لخير الدين يُسرد لنا بماجرى:" فما كنا نمر بالسواحل الجنوبية لإيطاليا التي كانت تابعة للإسبان دون أن نَقوم بِقصفها أو الإغارة عليها؛ إن مولانا السلطان كان في حالة حرب مفتوحة

(1) –أحمد إسماعيل الياغي، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص159.

(2) –عبد القادر عمر، سيرة خير الدين باشا، (م، ن، م)، القاهرة، مصر،1976م، ص48.

(3) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص158 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص69.

(4) –اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان،1989م، ص361.

(5) –أمين محمد، المرجع السابق، ص170 وأنظر أيضاً:Gabriel Esquire, op, cit, P63

(6) –كان رجلاً عاقلاً وصالحاً وصاحب علم واسع؛ للمزيد أنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص160 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، المرجع السابق، ص69 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص104.

(7) –محمد شطو، نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005 / 2006 م)، ص143 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص143.

(8) -Moulay Bellhamissi, Histoire de Mostaganem, des origines à l'occupation Française. Centre National d'Etudes Historiques. Alger, 1976, P34.

(9) –عمر الركباني، المرجع السابق، ص169 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها...، المرجع السابق، ص534.

(10) –عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص111 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص275.

مع إسبانيا ولأجل ذلك أغرنا على السواحل الغربية لجزيرة سَردينيا ثم توغلنا شمالاً حتى بلغنا مشارف جنوة ومن هناك واصلت طريقي محاذياً؛ لسواحل إيطاليا حتى دخلت ميناء مَاسينا المشهور، فوجدت أسطولاً إسبانيا مكون من 18قطعة بحرية، استوليت عليها جميعا"(1)؛ وزيادة على هذا استولى على سفينتين أخريين كانتا مُتجهتين إلى نابولي"(2) ثم أبحر الأميرال خير الدين شرقاً وهزم في طريقه فرقة بحرية من أسطول آل هابسبورغ بِالقرب من شبه جزيرة المورة(3) واَستمر في رحلته إلى وصل إلى مدينة بروازن، وفرح أهالي المدينة لِقدموهُ؛ لأنهم كانوا خائفين من هجوم أسطول اندريا دوريا الذي اِبتعد عندما سمع بِقدوم أعدائه؛ وهذا مايصف لنا خير الدين في مُذكراته:" أدركت خلال ذلك بأن شُهرتنا سَبقتنا فقد وجدت الجميع يَعرفونني وبَلغتهم أخبار مَعاركنا التي خُضناها في عرض البحر"(4) ورست مراكبنا في قلعة اوارين " انا وارنيه " وطمأنا سُكانها ثم واصل سَفره مروراً بنافرين Navarin أين صادف خير الدين الأسطول العثماني الذي كان يَقوده قبودان داريا أحمد باشا، فتوجه الأسطولان إلى إستانبول مرورا بمضيق جنة قلعة Ganakle(5) ثم كتب الباي لارباي خير الدين إلى السلطان العثماني يُعلمه بِوصوله ويَستأذنه بالقدوم على حَضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يَستحثه بِالقدوم عليه(6)؛ فَاقلع الباشا خير الدين من قلعة قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى استانبول؛ وَرسى بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، واستقبل بحفارة كبيرة في الأستانة من طرف الخليفة المسلمين سليمان القانوني(7) شخصياً؛ ومَثل الباي لارباي خير الدين بِحضرة أمير المؤمنين ووقف بين يديه(8)، فأمر بأن يَخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة وأنزلهم بِقصر من قصوره وتَشاور معه حول جبهة الصراع في البحر المتوسط، واستمع إلى رأيه في الأميرال الجنوي أندري دوريا، كما أَبدي الباشا خير الدين رئيس ملاحظاته المتعلقة بِنقاط الضُعف في الأسطول العثماني وضَرورة إعادة تجهيزه بِسفن جديدة(9).

---

(1) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص161 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، مصدر سابق، ص39.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص275 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص 89.

(3) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص316 أنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص247.

(4) – عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص52 أنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص171.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص103 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص43.

(6) -جميل بيفون وشحادة الناظور، الاستاذ، عكاشة: تاريخ العرب الحديث، ط1، (د، أ، ن، ت)، لبنان، 1992م، ص216.

(7) -محمد علي عامر، المرجع السابق، صص44-45 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص109.

(8) -تفضل مولانا السلطان بقبول الهدايا التي أتحفته بها، والتي كانت عبارة عن مسبحة من اللؤلؤ، وخاتم مصنوع من الماس، وساعة ذهبية و3 من الطيور النادرة، وقيمة هذه الهدايا تساوي 12 ألف أقجة للمزيد أنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص180.

(9) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص276 وأنظر أيضاً: أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص165.

فَكلفه السلطان بالإشراف على دار بِناء السفن بإستانبول، وإعداد أسطولاً كبيراً، ليتصدى للبحرية النصرانية (1) ومَنحه لقب قَبودان باشا (2) ومَنصب وزير البحرية (3)؛ وكَلفه بقيادة الأسطول الإسلامي العثماني (4) وحتى تظل له السلطة الكاملة؛ احتفظ بصلاحياته كأمير للأمراء في الشمال الإفريقي (5)؛ المغاربي، وذلك لتحقيق هدف الخِلافة في استعادة الأندلس؛ وبِالمقابل أثار كل هذا رُدود أفعال كبيرة في أوروبا؟ خُصوصا مَلكها شارلكان! الذي شعر بقلق كبير جداً من هذه الخطوة ؛ وَولد له جو ضَبابي لِقلة المعلومات؛ ومَخاوف مُتزايد من أهدافها(6) وهذا مابينه لنا خير الدين بقوله: "وفي أثناء الاجتماع خاطبني السلطان العثماني قائلاً: " اسمع يَاباشا أريد أن أجَعلك قبودان داريا؛ لتتولى إدارة أسطولنا وَقيادته في حُروبك المظفرة؛ ولِتعلم بأنني لن أنزع منك ولاية الجزائر بل ستحتفظ بها بصفتك باي لارباي عليها، إلا أنه يَتعين عليك أن تَختار من تراه مناسبًا لإدارتها نيابة عَنك والإشراف عليك

---

(1) -عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، مطبعة البعث العربي، دمشق، سوريا،1974م، ص 216.

(2) -قبودان دريا: اعلى رتبة من ال *دريا باشى* الذي كان بدوره اعلى رتبة من قبطان اسى غليون عادى ويذهب اسعد أفندي الى ان الريالة يتقدم القاليونركاتي. وكان كل واحد من الضباط من القبودان باشا الى الرياله صاحب دكنك أي كتن لهم الحق في حمل عصا القيادة وكانت تسمى هذه العصى صدفكارى عصا لأنها كانت مرصعة بالصدف على اختلاف ألوانه وتماثل البنادقة وتستعمل في الأحيان كثيرة بمعنى الخيزران، للمزيد أنظر: مصطفى شاكر، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، لبنان،1993م، ص564.

وفي عهد عبد الحميد الأول نظمت الرتب البحرية وعدلت بعض التعديل وفقا للنظم الحديثة فأصبحت3 رتب لأمراء البحر وهي:

1-قبودان بك: أي امير البحر وتعد هذه الرتبة مساوية لرتبة أحدث منها* شورى بحريه رئيسي* اى رئيس المجلس الأعلى للأسطول ويتقضى راتبا شهريا ثابتا قدره 4.500 قرش ويحمل عصا خضراء وله الحق ان يضع شارة تحت العلم المرفوع على السارية الكبرى للمزيد أنظر: بهجة المعرفة: موسوعة علمية مصورة، ط2، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، دار المختار، جنيف، سويسرا، 1976م، ص789.

2-قبودان باترون بك: أي وكيل امير البحر ونجد الترك يستعملون الاسم المرادف وهو سامي بك وراتبه 3.500 قرش واجر 800رجل وجائزة تعطى للقب ودان باشا قدرها 2000 قرش وهو يحمل عصا زرقاء ويضع علمه على الصاري المقدم للمزيد أنظر: بكر فائق، صواف: العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ما بين 1876م-1916م، (د، ن، ع، ط، ن، ت)، مصر، 1978م، ص 57.

3-قبودان رياله يك: أي مساعد وكيل أمير البحر وراتبه 3.000 قرش وأجره 700 رجل وجائزة للقبودان باشا قدرها 2.500 قرش وعصاه زرقاء ويضع علمه فوق الصارى الأوسط وقد احتفظ قائد السفينة صاحبة العلم التابع للقبودان باشا، ونحن لا نعلم تم الاستغناء عن هذه الالقاب فقد كان الريالة يعد لواء وكان في مصر ايام الخديويين وظل هذا اللقب معمولا به للمزيد أنظر: الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1996م، ص456.

4-قبودان: أو رياله بك مختصر: رياله همايون قبوداني أي قبطان الغليون السلطاني ورياله مأخوذة من الكلمة الايطالية، وكانت الرتبة ريالة شأنها شأن رتبتي القبودانة والبترون تطلق عمد الترك في أول الأمر على ضابط أساطيل المسحيين، وقد دخلت هذه الرتبة لغة البحارة الترك بصفة غير رسمية في بداية الامر ايام السلطان محمد الرابع والظاهر وأن هؤلاء الضباط الثلاثة جميعا كان لهم الحق في التلقيب باشا للمزيد أنظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر ،2004م، ص31.

5-القبودان: قبطان البحر: أو كما يقال الفذ والقبطان استعملت فيما بعد للدلالة على أي قائد يأمر سفينة للمزيد أنظر: محمد ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1955 م، ص300.

(3) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص180 و:Moulay Bellhamissi, , Histoire de…, op, cit, p73

(4) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص ص 127-137 وأنظر أيضاً: Barges L'Abbe, op ,cit , P194

(5) -عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، المرجع السابق، ص218 أنظر أيضاً: وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص91.

(6) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص138 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص317.

باسمك، ولكي تتمكن من ترتيب الأمور المتعلقة بِهدفين المنصبين عليك أن تقابل وزيرنا الأعظم المعسكر في حلب، فعجل بامتطاء فرسك والحق به وعِندما ترجع سوف نَتقابل من جديد" (1).

وقد كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم الباي لارباي خير الدين على الخليفة؛ وقد كانت أنباء غَزواته ونِكايته بالمسيحيين تَصل إليه، فاشتاق إلى لقاءه، فوجه خطاباً للسلطان العثماني يَلتمس منه أن يَوجهه إليه لمقابلته؛ فَأرسله إليه، واحتفل الصدر الأعظم بقدوم الباي لارباي بحلب في مراسيم رَسمية مُهيبة ونَظم على شرفه اِحتفالات رسمية اِستمرت يومين؛ وأنزله بأحد القُصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وُصول خير الدين وصل مَبعوث من قبل السلطان ومَعه خُلعة وأُمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويَلبس الخلعة فَنصب الديوان الأعظم وأَلبسوه خُلعة الوزارة وأُحتفل به اِحتفالاً مُهيباً(2) وأكرم إكراماً عَظيماً لما قَدمه من خَدمات للإسلام والمسلمين؛ وذلك باعتباره بطلاً عثمانياً في حوض البحر المتوسط وباي لارباي الجزائر (3) ثم أجرى معه مُشاورات طويلة حول الوضع الصَليبي وحُلفائه وعُملائهم في الشمال الإفريقي والبحر المتوسط، وكيفية مواصلة التَصدي لهم براً وبحراً؛ وعليه قام الصدر الأعظم بتعيين خير الدين في منصب جَديد قبودان داريا، أي قائداً عاماً للأسطول الإسلامي العثماني بالإضافة إلى تأكيده بِاحتفاظه بمنصبه كباي لارباي على ولاية الجزائر(4) ولأنه أول وَالي عِثماني يتولى منصبين على هذا القدر من الحساسية والخُطورة في وقت واحد، فقد كان يحتاج إلى إصدار فِرمان سلطاني آخر يؤكد ولايته للجزائر (5) وربما يمكن اعتبار 1533م التاريخ الفِعلي التي أصبحت فيه الجزائر أيالة عثمانية (6) حسب التقسيم الإداري للولايات والمناطق التابعة لها (7).

لقد جَعل العثمانيون من الجزائر إيالة ذات وَضعية مُتميزة، بموافقة تعين خير الدين حاكماً عليها وفي الوقت نفسه تم تَعيينه مسؤولاً عاماً عن القوات العثمانية البحرية(8)، فلقد تمكنوا من جعل إيالة الجزائر قوة بحرية عسكرية مُهابة الجانب يُحسب لها ألف حساب في المياه المتوسطية المغاربية والأوروبية؛ فقد أَرعدت أوروبا لِتهيئتها لِغزو إسبانيا وَاستحقت بأن يطلق عليها "دار الجهاد" وعلى مُؤسستها العسكرية

(1) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص164-165 وأيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص72.

(2) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص 132 وأنظر أيضاً: أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص170 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 166 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص93.

(3) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص891 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص280.

(4) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، صص 330-331 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص2174.

(5) -كلو أندري، سليمان القانوني، تعريب البشير بن سلامة، ط1، بيروت، لبنان،1991م، ص172 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص238. وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص43.

(6) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 15: خريطة حول الجزائر (التقسيم الإداري الثالث في عهد خير الدين بربروس)، وتونس الحفصية.

(7) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص280 وأنظر أيضاً: Moulay Bellhamissi, , Histoire de…, op, cit, p78

(8) -ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص254 و: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص142.

أكبر مدارس الإسلام البحرية وكانت معرفة خير الدين بملف الموريسكيون جيدة مما جعل يَعتقد في وجوب إنشاء دولة قوية بالمنطقة [1]؛ المغاربية وانطلاقاً مِنها يسترجع الأندلس فصارت الجزائر بذلك مركزاً للعمليات العسكرية البحرية في غرب المتوسط؛ وهكذا اِرتبطت جميع التطورات السياسية والعسكرية في شمال إفريقيا المغاربية، وغرب أوروبا بالجزائر وكان من أهم الأهداف التي على القبودان داريا لخير الدين تحقيقها:

الأول: أن يقوم بِمضاعفة الهجمات على السواحل والأساطيل والسفن الإسبانية التي تجوب البحر المتوسط حتى لا تتمكن هذه الأخيرة من دعم المجر في حربها ضد الدولة العثمانية.

الثاني: مضاعفة حملات على المدن والقلاع التي يحتلها الإسبان إلى أن يتم تحريرها، وكذا العمل بِجد وتفاني؛ على إنقاذ أكبر قَدر ممكن من مسلمي الأندلس وتأمين نَقلهم إلى الجزائر.

وعلى هذا قَفل القبودان داريا خير الدين عائداً إلى إستانبول[2] وشرع في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان[3] العثماني وهذا ما يصفه لنا خير الدين بقوله: "بعد أن أَنهيت زياراتي الرسمية، مَضيت إلى مصنع بناء السفن حيث جَلست في مقر عملي، واَستعلمت عن جميع التطورات التي حدثت في أثناء غِيابي ثم دعوت رئيس المهندسين وأَمرته بالشروع في بناء 30 سفينة من نوع قادرغة ذلك "[4] مُضافة إلى السفن التي أحضرها معه من الجزائر، والبالغ عددها 18 قطعة، كما أضاف إليها 4 سفن أخرى كما قد استولى عليها في طَريقه من الجزائر إلى إستانبول وأَلحق بالأسطول 20سفينة نقل أخرى[5] فبلغ عدد وحدات الأسطول العثماني التي تم إعدادها84 قطعة بحرية ويكمل قوله: "كان مولانا السلطان والوزير الأعظم الدامات إبراهيم باشا راضيين عن الإصلاحات التي قمت بها لِتحديث الأسطول العثماني وكذا الانتصارات التي حَققتها بالحوض الشرقي للبحر المتوسط [6]؛ وهكذا صار القبودان باشا خير الدين على رأس أكبر أسطول بَحري في العالم [7]؛ بعد أن تم إعداد الأسطول الإسلامي العثماني الجديد، ومن جهة أخرى كان البحارة المحليون والأندلسيون وبعض المشارقة تَولوا الحروب البحرية قبل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية فشكلوا حقاً العمود الفقري لِقوة سفن الجهاد البحري[8]، وهؤلاء المجاهدون المسلمين قد

(1) -حنيفي هيلايلي،" التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 24، دار الهدي للطباعة، الجزائر، 2007م، ص 173 أنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص ص42-52 والعمل على إنقاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني الذي مارسته محاكم التفتيش للمزيد أنظر: حنيفي هيلايلي، بنية الجيش...، ص113.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص280 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص166.

(3) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص317 وأنظر أيضاً: Gaid Mouloud, op,cit,p57

(4) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص180 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص76.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص104 وأنظر أيضاً: حنيفي هيلايلي، التنظيم العسكري...، المرجع السابق، ص165.

(6) -محمد شطو، نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005 / 2006 م)، ص143 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص171.

(7) -أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص172 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، 176.

(8) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها...، المرجع السابق، ص569 وأيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص114.

زادوا فعلاً في التحرك لنجدة إخوانهم الأندلسيين والمغاربة وفي نفس الوقت كانوا يَغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول عليها من النصارى(1)، كذلك وصل عددٌ كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني الجديد ؛ وأما الأعلاج الذين ينتمون لكل الملل المسيحية، فقد بدأ تَوافدهم ابتداءاً من القرن 16م (2)؛ فاتحاً لهم العثمانيون المجال بدخولهم الخدمة في البــحرية؛ يتزامن مع قُــوة كل هؤلاء في الحروب؛ وشِدتهم في المعارك(3)؛ وتشجيع المجاهدين؛ للعثمانيين بمواصلة تدعيمهم.

وفي طريق العودة مرّ من مضيق الدردنيل واسترجع قلعتي كورون وليبانت (4) ثم اِتجه القبودان باشا خير الدين بأسطوله القوي نَحو السواحل الجنوبية لشبه جزيرة إيطاليا؛ فأغار على مُدنها وسواحلها وأستطاع أن يأسر الكثير منها، ثمِ اتجه نحو جزيرة صقلية، بينما خرج قائد القوات العثمانية السلطان سليمان القانوني على رأس جيش كبير حتى بلغ سواحل بحر الادرياتيك(5)؛البلقانية، كانت خُطة هذه الحملة تنفيذها على وجهتين الأولى: استهداف جمهورية البندقية والإمبراطورية الإسبانية(6)، ذلك لأن مولانا السلطان كان يريد أن يستولي على ميناء اوترانتو Otarantoالواقع جنوب شرق ايطاليا (7).

والوجه الثانية هي : فتح تونس، وذلك تنفيذ لخطة الدولة العثمانية ، والتي تقتضي تطهير شمال إفريقيا من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس(8)؛ والحقيقة إن اجتماعاً عقد بين الرجلين السلطان سليمان القانوني وخير الدين باشا في إستانبول في عام 1533م، وتشاور معه بأهمية تونس والضرورة القصوى بِدُخولها في إطار استراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفهما نحو استرداد الأندلس(9)، بعد ماتمكن خير الدين من إقناع خليفة المسلمين الذي كان يَنوي الدخول في حرب مع إسبانيا النصرانية بالسيطرة أولاً على تونس الحَفصية وتثبيت أقدام المسلمين العثمانيين على ساحل إفريقيا الشمالية بأكمله (10)قبل المباشرة بأية عمليات كبيرة ضد الإمبراطورية الإسبانية (11)؛ وتقرر بموجبه إطلاق يَدْ القبودان خير

(1) -عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص95 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص138.
(2) -عمر الركبايي، المرجع السابق، ص173 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص31.
(3) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص174 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص154.
(4) -حسن سليمان محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1962م، ص 166.
(5) – على محمد الصلابي، المرجع السابق، ص199 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص257.
(6) -Moulay Bellhamissi, Histoire de..., op, cit, p76.
(7) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص180 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص97.
(8) -نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ط1، دار الأمير، الجزائر،1995م، ص234.
(9) -العربي إشبودان، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص119.
(10) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها...، المرجع السابق، ص534 وأيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص123.
(11) -محمد سهيل طقوس، الدولة العثمانية والتاريخ الإسلامي الحديث، المرجع السابق، ص213 وأنظر أيضاً: Hugon Henr, les Embemes des Tunisie, Emest, Leroux, paris, 1913, P22.

الدين باشا بمد النفوذ العثماني إلى تونس[1]؛الحفصية! وذلك نظراً للإمكانيات المادية الهائلة والمقومات المعنوية التي تُنتجها موانئ تونس في التحكم في المواصلات الطرق البحرية في البحر المتوسط[2]؛ وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة العثمانية من حيث مَوقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لإفريقيا وتَوسطها بين الجزائر وطرابلس الغرب تقريباً[3]، ولِقربها من مقر البابا بشبه الجزيرة الإيطالية وشَراكتها مع جزيرة صقلية في مَضيقها، علاوة على ذلك مُجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء التقلدين للإمبراطور الإسبانية، وأَشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين، وقد أدى الاتجاه السياسي للقوى المسيحية الأوروبية إلى السوء علاقة مولاي الحسن بالباب العالي[4] ونحو سلطة الباي لارباي خير الدين في الجزائر؛ وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء أهمية تونس[5] الجواستراتيجي.

كما رفعت الجزائر دائماً شعار التضامن الإسلامي مع الدولة العثمانية في مُواجهاتها البحرية بكل شجاعة ومسؤولية ومُسايرة تدعيمها بقوة في حُروبها المتواصلة [6]؛ ومن جهة أخرى الدولة العثمانية استمرت في التدعيم المادي والمعنوي للبحرية الجزائرية في مواجهة أعدائها فهي اليد الفولاذية التي تبطش وتردع بها من يُفكر بأن يقف في وَجهها؛ ومن خلال ذلك كان القبودان خير الدين باشا يسرد تفاصيل دقيقة عن غزواته البحرية ضد السفن والسواحل الإسبانية أو التابعة لها والمتحالفة معها، وكذا مواجهة الحملات الإسبانية على المراسي الجزائرية [7].

أما الهدف النهائي لهذه الحملة: مايبوح به لنا خير لدين بقوله: "خَلا بي السلطان سليمان خان وأعلمني بأنه يريد غَزو إسبانيا"[8] إذن أهم أهداف حروب الدولة العثمانية ضد الإسبان هي رغبة الخليفة سليمان القانوني في غزو إسبانيا وفتحها من جديد؛ ولهذا استدعى الباي لارباي خير الدين إلى إستانبول لِإستشارته في هذا الأمر الهام! قبل أن يُغير رأيه ويعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني [9]؛ وإذ سبق ذلك وأن أشار الباي لارباي خير الدين على السلطان سليمان القانوني في خِطابه له الذي بعثه قُبيل إستدعائه له في 1533م إذ قال فيه "إن هَدفي إذا قَدر لي شَرف الاشتراك هو طَرد الإسبان في أقصر وقت من إفريقيا؛ ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديد لِيستعيدوا

(1) -كلو أندري، المرجع السابق، ص172 وأنظر أيضاً: وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص87.
(2) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص869 و: .Barges L'Abbe, op,cit, P184
(3) -حنيفي هيلايلي، التنظيم العسكري...، المرجع السابق، ص169 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص143.
(4) -محمد سهيل طقوس، الدولة العثمانية ...، المرجع السابق، ص213 وأنظر أيضاً: Hugon Henr, op,cit , p26
(5) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص854 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص17.
(6) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر...، ص27 وأنظر أيضاً: علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص206.
(7) -السيد الدقن، المرجع السابق، ص132 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص11.
(8) – علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص208 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص165.
(9) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص91 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص14.

مملكة قرطاجة؛ وأن تونس قد أصبحت تحت سُلطانك أنني لاأبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلاًّ لأن هذا لن يحتاج لكل ماتملك من قُوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو إفريقيا تعتمد أكثر ماتعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ماأطلبه هو جـزء صغير من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً (1).

وهذا يتماشى مع بُروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى القبوطان باشا خير الدين قيادته1533م مع احتفاظه بصلاحيات باي لارباي الجزائر؛ بتنسيقه التام مع قواته هناك أستطاع بإغارته على السواحل الإيطالية، تُشير إلى أن العثمانيون؛ عازمون على فتح جبهة جديدة للصراع مع أوروبا المسيحية التي كان شرلكان ممثلها السياسي كما كان البابا ممثلها الديني (2) فقد انتقل شدة الصراع بين الدولة العثمانية الإسلامية مع أوروبا الغربية المسيحية؛ من شرق المتوسط إلى غَربه وتوج هذا الصراع حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على البحر المتوسط فقد كان البحارة العثمانيون يضربون سواحل شَبه الجزيرتين الإيطالية والإيبيرية؛ بشكل مستمر ويَعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر المتوسط؛ بحق الدفاع عن دَار الإسلام بعد انهيار الأندلس وحلول الإسبان بالسواحل المغاربية؛ فقد كانوا في طَليعة من تطوع لمواجهة سفن النصارى، أهالي المدن الساحلية والمهاجرين الموريسكيين (3)؛ وكانت كل هذه السفن والتي كان يُنشئها الأندلسيون ولم يَتوقف إنشاء السفن بالجزائر حتى في أسوأ أيام التقهقر (4) ويتمثل المصدر الثاني للأسطول الجزائري من السفن في إعادة تجهيز السفن المعادية المغنومة مِنها(5) وقد ساهمت الغنائم البحرية في التصاعد المستمر لعدد قطع الأسطول الجزائري (6) وخاصة من الإتاوات والهدايا التي تؤديها الدول الأوروبية للجزائر(7)؛ فبقي الأسطول محافظاً على عدده وعُدته، حتى صار الإمبراطور الإسباني شارلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر (8).

---

(1) -محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1976م، ص127 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص67.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص287 وأنظر أيضاً: أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص167.

(3) -وهم المسلمون الأندلسيون الذين وقع اضطهادهم وطردهم من الأندلس من طرف الإسبان حيث هاجوا إلى المغرب العربي واستقر البعض منهم والبعض ذهب إلى المشرق، والقليل منهم جدا ذهب إلى فرنسا للمزيد أكثر: جمال الدين، المرجع السابق، ص88.

(4) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص154 وأنظر أيضاً: عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص100.

(5) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص74 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان..، المرجع السابق، ص265.

(6) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ..، المرجع السابق، ص176 و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص543.

(7) -الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص158 و:Moulay Bellhamissi, Histoire de..., op, cit, p82

(8) -مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص47 وأيضاً: عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، (م، ب، ع)، سوريا،1967م، ص98.

خلاصة الفصل الأول:

1) -النتائج السياسية والعسكرية:

مرت المنطقة المغاربية بشكل عام، والمتوسطية بشكل خاص، والجزائر بشكل أخص؛ بالعديد من إفرازات الأحداث العسكرية الهامة والمهمة الناتجة عن اِحتدام الصراع الإسلامي المسيحي التي جرت خلال القرن 16م التي من خلالها نستنتج مجموعة من النتائج الملخصة في المحطات الآتية:

ترتبط التطورات التي حدثت في منطقة الشمال الإفريقي [1] المغاربي، بِشكل وثيق بسقوط غرناطة 1492/1/2م التي تركت آثار بالغة الأهمية ليس على نهاية الوجود الأندلسي وبداية لتاريخ إسبانيا الحديث فحسب بل على بُزوغ المستقبل المبكر للتاريخ الحديث للمنطقة [2] المغاربية؛ باضطرار الآلاف من مسلمي الأندلس إلى الهجرة إليها عَامة [3] والجزائر بصفة خاصة.

ولعل النتائج التي انتهت إليها تطورات الأحداث في الدولة العثمانية والاضطهاد الديني الذي كان يعيشه المسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة أخر ممالكهم الإسلامية [4]، بالإضافة إلى الاحتلال الإسباني لسواحل المنطقة[5] المغاربية المتوسطية، خصوصاً الجزائر التي كانت خَالية من أية قوة إسلامية جَدية يُمكنها أن تحمل مسؤولية الدفاع عن المسلمين وتحرير البلاد من الاحتلال الإسباني التوسعي؛ فقد ساهم الأندلسيون في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر، وشكلوا الحليف الأول لهم، سواء في مواجهة الإسبان، أو في القضاء على حركات التمرد التي كان يقودها الزعماء المحليون ضدهم في الجزائر [6].

أما العثمانيون فكانوا يتطلعون إلى إيجاد مراكز عسكرية لهم في تلك البلاد لوضع حد للاعتداءات الإسبانية والبرتغالية على ديار المسلمين وقد استغلوا لتحقيق ذلك سقوط إمارة غرناطة بيد الإسبان سنة 1492م وطرد المسلمين من الأندلس في أواخر القرن 15 وأوائل القرن 16م.

وتتابع الدولة العثمانية اِنتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية [7] وأن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانيــة قد أبدت استجابة للمساعـدة حين طلب منها خير الدين ذلك، كما أبدت رغبتـها في مزيد من المساعدة لِدوره وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن مَنظور ديني أسهم مساهمة كبيرة في إكساب

(1) -عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين(11م-15م)، المكتبة العصرية، لبنان، 1969م، ص81.
(2) -محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص61.
(3) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص107 وأنظر أيضاً: Gaid Mouloud, op,cit,p51
(4) -محمد أنيس، الشرق العربي والدولة العثمانية، دار النهضة العـــربية، مصر، (ب-ت)، ص89.
(5) -جمال الدين، المرجع السابق، ص91 و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص187 و:Haedo Diego, op, cit, p44
(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص64 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص894.
(7) -صفوت محمد، فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص254.

دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوباً [1].

إن السلطان سليم الأول كان وراء إرسال الأخوين بربروس؛ إلى الساحل الإفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكانها؛ وعملاً على تعطيل أهداف الإمبراطورية الإسبانية[2]؛ في منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تَدور في الغرب الإسلامي ورغبتهم في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه [3]؛ وبناء على ماسبق فإنه من الطبيعي أن يكون الإخوة بربروس على علم بالخصائص الجغرافيا والسياسية للمنطقة ومن ثم فإنه يمكن اعتبار ظهورهم لم يكن سوى مرحلة لاحقة من مراحل الاتصال التركي العثماني بمنطقة[4] ،المغاربية؛ المتوسطية إلا أن مانريد الإشارة إليه هنا هو أن ظهور آل بربروس في غرب البحر المتوسط، اختلف كلياً عن ظهور غيرهم من الأتراك الذين سَبقوهم، سواء بالنظر إلى سبب المجيء، أو بالنظر إلى النتائج الباهرة التي حققوها [5].

احتلال المدن الساحلية لبلدان الشمال الإفريقي؛ المغاربي، من طرف الإسبان والبرتغال بُغية قطع طريق العودة على الأندلسيين الذين جعلوا من هذه المدن قواعد ينطلقون منها للانتقام منهم[6]؛ وقد أدى اشتداد الصراع بين المسلمين والإسبان في سواحل المنطقة؛ المغاربية المتوسطية، إلى جذب عدداً كبيراً جداً من البحارة العثمانيين إلى هذه المنطقة، الذين قَدموا لمساعدة إخوانهم في الدين، فانتعشت حركة الجهاد البحري[7]، أو القرصنة كما يسميها بعض الباحثين، بِتظافر جهود هؤلاء البحارة مع جهود الأندلسيين الذين كانوا يُزودونهم بالمعلومات الدقيقة عن الشواطئ الإسبانية، ومواطن الضعف فيها كما كانوا ينظمون حملات انتقامية من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم[8] ولإنقاذ من بقي من إخوانهم الأندلسيين ونقلهم من سواحل إسبانيا إلى شمال إفريقيا المغاربية؛ فقد قام الباي لارباي خير الدين في الفترة بين (1518-1528م)، بإنقاذ عشرات الآلاف من مُسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر خاصة؛ ومنحهم اقطاعات كبيرة مَكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مداً شكلوا أغلبية سكانها، مثل: البليدة، تنس شرشال، دلس، قليعة بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها وفد رأينا كيف نظم خير الدين بشن 33 غارة بحرية على سواحل إسبانيا، تم من خلالها نقل 70000 مسلم

(1) -محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية...، المرجع السابق، ص276 وأيضا: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص902.

(2) -محمد رزق، دراسات في تاريخ المغرب، دار الحكمة، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص83.

(3) -زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص98 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص124.

(4) -سعد الله، أبي القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي (10هـ-14هـ/ 16م-20م)، ج1، (م، و، ك)، الجزائر، 1984م، ص131.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص186 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص91.

(6) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص176وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص89.

(7) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص99 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص46.

(8) -لوثروب ستودار، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً: حنيفي هيلايلي، التنظيم العسكري...، المرجع السابق، ص176.

أندلسي إلى الجزائر [1] ولم يَكتف هؤلاء الأندلسيون بلعب دور كبير في المجال المدني والعمراني والفني فحسب، بل كان لهم دور كبير في مساندة الوجود العثماني ضد خصومهم المحليين، إذ شكلوا السَند الشعبي الأكثر إخلاصاً لهم[2] رغم تصاعد الكبير في حملات الاضطهاد الديني ضد مسلمي الأندلس.

وعندما استقر الإخوان بربروس في الجزائر شرعا في إخضاع المناطق الداخلية؛ فتَضاعفت مخاوف السلطان أبو عبد الله الحفصي من القوة النامية على يديهما في الجزائر ولذلك فانه ما إن بلغه نبأ استشهاد عرّوج رئيس وانضمام الجزائر للدولة العثمانية حتى سَارع المجاهرة بعداوته وشرع من فوره في التآمر مع سلطان تلمسان الذي كان يُشاطره الشعور نفسه وهكذا بدأت رحلة المؤامرة والتآمر على الوجود العثماني انطلاقاً من المملكتين الحفصية والزيانية [3].

لم تكن تونس أبداً ولاباقي الدول العربية والإسلامية في موقع قوة؛ في هذه الفترة الزمنية كما كانت عليه عند انتمائها وتبعيتها للخلافة الإسلامية ففي عهد العباسيين برزت القيروان وتونس كولاية للاغالبة حملت الإسلام إلى ايطاليا وفتحت صقلية [4].

كانت حركة الجهاد في الشـمال الأفريقي قد شَـجعت مُسـلمي الأندلس وفَجرت طاقاتهم وجَعلتهم يَتغلبون على الحواجز النفسية التي بُنيت في نفوسهم على مر السنين[5] وسَادت الأقاليم الإسبانية مَوجة من الظلم والارهاب؛ فهذه الحالة الـــمُربكة وماصاحبها من ويلات جعلت بقية مُسلمي إسبانيا سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المنتصرين ظاهرياً يَتأهبون للانقضاض على الحكم الاسباني [6].

وبطبيعة الحال فإن هذا التوسع العثماني بقدر ما كان على حساب الاحتلال الإسباني في المناطق الساحلية فإنه كان كذلك على حساب الدولة الحفصية الأمر الذي أسهم في تأجيج نار العداوة المتصاعد مع الأتراك الذي اعتبر تهديداً مُباشرا لوجودهم في مناطقهم التي لم تطأها أقدام الاحتلال الإسباني [7].

وتأسيسا على ماسبق فقد كان الوجود التركي الذي وضع بنائه الأولى عرّوج يمثل بداية النهاية الفعلية للدولة الحفصية والزيانية والزعامات المحلية والبداية الفعلية للدولة الواحدة الموحدة [8] لدى المغاربة بقيادة عثمانية جزائرية -وهو ماجسده أخوه خير الدين ومن جاء بعده على أرض الواقع.

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 82 وأيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ص111.
(2) -محمد رزوق، المرجع السابق، ص68 وأيضا: محمد درّاج، المرجع السابق، ص328 وأنظر:Haedo Diego, op, cit, p45
(3) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص149 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص35.
(4) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص342 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص173.
(5) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: عمر عمورة، المرجع السابق، ص157.
(6) -أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر،2001م، ص68.
(7) -ناصرالدين سعيدوني ومهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ -العهد العثماني، ج 4 (م، و، ك)، الجزائر، 1984 م، ص117.
(8) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص224 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص 121.

ماينبغي ملاحظته هنا هو أن عرّوج كان يَعتمد على عبقريته الشخصية وكفأته العسكرية العالية يُسانده عدد قليل من الجنود والفدائيين في مواجهة قوى استعمارية لها إمكانيات أكبر من إمكانياته المحدودة [1] كل ذلك يتم في وسط مشحون بالدسائس والمؤامرات وفي بيئة لم تعرف الاستقرار منذ فَترة طويلة[2]؛ ومن ثم فلا غرابة أن يذهب عرّوج رئيس نفسه ضحية أحد أمراء الذين أَفرزهم هذا الجو المتعفن والذي لم يتردد في الاستعانة بأعداء الأمس مقابل بَقائه على رأس عرش قد أذن نجمه بالأفول [3].

وهكذا يمكننا القول إن المشروع الضخم الذي كان عرّوج رئيس يقوم بإرساء أسسه، كان عرضة للانهيار في أية لحظة لو لم يُتابع أخوه خير الدين السير على نفس الطريق بِقوة ومَهارة [4] وإسناده للدولة العثمانية التي لم يَتسنا لعرّوج رئيس الاستفادة من دعمها الفعلي بسبب الظروف السياسية التي لم تكن مُواتية له وبسبب تسارع الأحداث السياسية المتلاحقة التي اِختتمت بمأساة استشهاد مع رفاقه على النحو الذي عرفناه ليبدأ فصل جديد من تاريخ الوجود التركي العثماني في الجزائر[5].

بايع أهالي مدينة الجزائر خير الدين بربروس بعد استشهاد أخيه عرّوج في تلمسان فأدرك هذا الأخير أن تحرير سواحل الجزائر وإنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني يَقتضي دعم دولة قوية كالدولة العثمانية، فَأقنع أعيان وعلماء مدينة الجزائر بِضرورة مراسلة السلطان العثماني وإعلان تبعيتهم له حتى يقوم هذا الأخير بفرض حماية على الجزائر ودعم أهلها للتصدي للإسبان فأقتنع العلماء وأعيان الجزائر باقتراح خير الدين باشا وأرسلوا وفدا عنهم إلى إستانبول عرضوا من خلاله رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية فَقبل السلطان عرضهم [6].

كثرة الثورات وحركات التمرد التي لعب زعماء القبائل والأمراء المحليون دوراً كبيرًا في إثارتها لأسباب مختلفة وقد رأينا كيف اندلعت هذه الثورات فور انتشار خبر استشهاد عرّوج رئيس فتمردت تنس وشرشال، بلاد القبائل، مدينة الجزائر وسائر المناطق المحاذية لها، لكن الذي يجب التَنويه به هو موقف الباي لارباي خير الدين الذي تميز بالحزم الشديد إزاء هذه الحركات ومن كان سببا فيها فتمكن نتيجة ذلك من إخماد هذه الثورات بسرعة كبيرة[7] ، متبعاً في ذلك مع كل حالة ماييناسبها من شدة ولين حسب مايقتضيه حال الثورة، وطبيعة أسبابها ومن يقف وراءها فتمكن بحسن سياسته من القضاء على

(1) -عمر الركيباني، المرجع السابق، ص176 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص48.

(2) -أحمد سليمان، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: صالح عباد، المرجع السابق، ص42.

(3) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص154.

(4) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص162 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص27.

(5) -ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص128 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص131.

(6) -السيد الدقن، المرجع السابق، ص136 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص111.

(7) -العربي إشبودان، المرجع السابق، ص132 وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص ص 127-137.

هذه الثورات أو تقليصها مستعملاً سلاح الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى[1]؛ وذلك إما باستمالة زعمائـها إلى صَفه كما فعل ذلك مرارا مع أمراء بني زيان أو بِكسر شوكتهم وتجريدهم من سُلطانهم بحيث لم يعود يُشكلون خطراً يذكروا وإما بالقضاء عليهم نهائياً حينما يرى أن ذلك هو السبيل الأمثل لهؤلاء [2].

إلحاق الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية، وماتلا ذلك من ارتباط السياسة الخارجية للجزائر بسياسة الدولة العثمانية، خصوصا في الصراع مع أوروبا المسيحية فقد أدرك خير الدين رئيس بحكم معرفته العميقة بموازين القوى الدولية في ذلك العصر أنه مَهما كان الدعم المعنوي الذي يلقاه من القوى الدينية والشعبية المحلية المحبة له والمقدرة لنضاله ومهما كانت إمكانياته العسكرية فإنه لايستطيع أن يتصدى بمفرده لدولة قوية مثل إسبانيا وعملائها لمدة طويلة، خصوصاً وأن إسبانيا لم تكن في ذلك العصر مجرد مملكة تنازعه النفوذ على الجزائر وتونس، بل كانت تعتبر أكبر وأقوى دولة أوروبية، ولذلك فإنه جعل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية هو الضامن الوحيد لحماية ماحققه من إنجازات كبيرة بمعية أخيه عرّوج رئيس وَلمِاَ سيحققه في مستقبل نضاله الطويل ضد إسبانيا، وهي الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على دعم عمليات إنقاذ المسلمين اللذين يعانون مختف أنواع الإرهاب الديني في إسبانيا [3].

تكونت النواة الأولى للجيش الجزائري من الانكشارية [4] من الجنود التي أَرسلتهم الدولة العثمانية إلى خير الدين باشا [5]؛ وهي تلك الفرقة الذي أرسلها السلطان سليم الأول1519م[6]؛ مع رجوع الوفد الجزائري سنة 1520م، الذي حمل له رسالة الجزائريين المعبرة عن رغبتهم للالتحاق بالباب العالي[7] وكان عدد هذا الجيش 6000جندي منهم 2000 إنكشاري، لتدعيم قوة "الباي لارباي خير الدين" المؤلفة آنذاك من 5000 جندي، حيث أصبح للجزائر جيش إنكشاري خاص بها عُرف رأسه بأوجاق الجزائر [8] ولقد أرغمت الضرورة العسكرية الجزائرية حركة الجهاد ضد الأخطار الأجنبية والإسباني خاصة.

(1) -لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص72 وأنظر أيضاً: صالح عباد، المرجع السابق، ص51.

(2) -ناصرالدين سعيدوني ومهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص121 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص323-324.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص326 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص898.

(4) -تتكون هذه الكلمة من جزأيين، بني وتعني الجديد، وجيري وتعني القوة، أي القوة الجديدة أو النظام الجديد للمزيد أنظر: عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص 91 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، ص107.

(5) -أبو العباس أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص209 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص81.

(6) -صالح عباد، المرجع السابق، ص32 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص178.

(7) -عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص69 وأنظر أيضاً: أحمد فؤاد متولي، تاريخ الدولة العثمانية، منذ نشأتها إلى العصر الذهبي، اشتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م، ص56 وأيضاً:Haedo Diego, op, cit, p51

(8) -عرفت كلمة اوجاق الجزائر ثلاث معاني هي: الأولى: أورته Otra، أي وحدة عسكري من الجيش الانكشاري، والثانية تعني الجيش النظامي، والثالثة: فيدل على حماية ذاتها وفرض بقائها للمزيد أنظر: حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر...، ص11 وأيضاً: Deny jeam , la registre-de solde des tonissoiro in, RA .N°. 61, 1920, p36.

بروز مايمكن تَسميته بالأهمية السياسية للجزائر، هذه الأهمية التي فقدتها منذ سقوط دولة الموحدين فتحولت على إثرها إلى رقعة من الأرض يتنازع السيطرة عليها أمراء الدولة الحفصية والمرينية بينما تحول بنو زيان إلى لاعب وسط الميدان غاية مَابأمله هو المحافظة على التوازن بين القوتين المتنافستين !! [1].

ومن ناحية أخرى فإن خير الدين وخُلفائه قاموا ببسطه النفوذ العثماني على الجزائر يكون قد قام برسم الحدود الجغرافية للدولة الجزائرية الحديثة؛ إذن فقد صَنع منها دولة متميزة عن جارتيها وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية اليوم تقريباً ولذلك فإنه يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة التي تقوم اليوم على نفس الرقعة تقريباً التي أخضعها لنفوذه في القرن 16م [2].

لقد كانت المنطقة المغاربية عرضة للإخطار الأجنبية ولقد تعددت الأسباب التي دفعت بالإسبان إلي السعي طيلة نصف قرن من الزمن لاحتلالها؛ وذلك بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في مُعظم الحوض الغربي للبحر المتوسط انطلاقاً من محور مالطة إلى مَضيق جبل طارق [3]؛ لذا كان لِزاما على حكومة الجزائر حماية السواحل المنطقة المغاربية؛ المتوسطية، من الغزو الأجنبي الإسباني واستمرار حالة الحرب بينها وبين الجزائر لمدة ثلاثمائة عام كاملة وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني بالجزائر [4].

بالرغم من قُصر الفترة التي قضاها عرّوج رئيس في نِضاله لتحرير الجزائر من الاحتلال الإسباني وتَوطئة الطريق لبسط النفوذ العثماني فيها إلا أن ماحققه خلال فترة قصيرة لاتزيد عن 06 سنوات1512-1518م تجعل الباحث يَندهش لضخامة هذه الإنجازات التي تحتاج فعلاً إلى سنوات طويلة [5]؛ فبرغم من كون عرّوج رئيس بدأ نِضاله مع أخيه دون أن تكون لهما أية قوة قبلية أو سياسية تُسندها، (يلاحظ هنا دعم الدولة الحفصية في تونس للأخوين بربروس لم يزد عن السماح لهما باتخاذ قلعة حلق الوادي قاعدة لهما) أما الدولة العثمانية فإن دعمها لأتراك الجزائر لم يبدأ فعلياً إلا بعد استشهاد الرئيس عرّوج [6] والذي يُفهم من صياغة الأحداث التاريخية هو أن أول مساعدة عسكرية عثمانية وصلت إلى الجزائر متأخرة نسبياً كما أنها كانت ذات مَدلول رَمزي أكثر من كونها دعماً حقيقياً أما الدعم الفعال فقد بدأ حقيقة في الفترة التي تولى فيها خير الدين زمام الأمور إلا أنه استطاع بفضل حَزمه وقوة إرادته وطُموحه السياسي البعيد أن يحسن استغلال الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر في هذه الفترة [7]

(1) -حساني مختار، المرجع السابق، ص91 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص327-328.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص381 وأنظر أيضاً: محمود إحسان الهندي، المرجع السابق، ص89 وأنظر أيضاً:

(3) -سارة العيدودي ونبيلة عبايدية، التنظيم العسكري العثماني في الجزائر(1518-1830م)، مذكرة لسانس في التاريخ، جامعة تبسه، الجزائر، السنة الجامعية 2008-2009م، ص32 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص79.

(4) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص93 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص118.

(5) -أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص169 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص220.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص223 وأنظر أيضاً: بسام العسلي، المرجع السابق، ص ص 127-137.

(7) -عمر عمورة، المرجع السابق، ص167 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص26.

ليؤسس دولة قوية شملت حتى موته؛ منطقة الوسط الجزائر ممتدة من جيجل شرقاً حتى مستغانم غرباً البحر شمالاً حتى المدية وبسكرة جنوباً [1] فتمكن بذلك من رسم الطريق لخلفائه[2] من بعده لإعادة إقامة نظام السُلطة الواحدة من جديد في قلب المغاربة ومِنطقتهم.

تَجنيد الأوروبيين المسلمين في البحرية الجزائرية والمعروفة بالأعلاج؛ مما جعل الكثير منهم يَصلون إلى مراتب عالية بعد اعتناق الإسلام وارتباطاتهم بالجزائر رغم أحوالهم المختلفة (حيث كانوا إغريق-إسبان-مايروقيون-مايولتانيون- كورسكيون- سردانيون-فرنسيون-إنجليز-هولنديون-صقليين...[3]؛ وقد ذكر هايدو أن الأعلاج كانوا يشكلون ثلثي الشخصيات القيادية في الأسطول الجزائري من 36رئيساً بأكثر من 15 مجدافا كان 22 منهم من الأعلاج؛ ومن ألتحق بهم من الذين اعتنقوا الإسلام وتنوه المصادر التاريخية إلى الدور الذي لعبه اللمُهجرين الأندلسيين في المرحلة الأولى من تأسيس إيالة الجزائر كما عملوا على تنشيط حركة الجهاد البحري والهجوم المتواصل المستمر على السواحل الإسبانية [4] بواسطة الأسطول الجزائري؛ مروراً بِدورها القيادي في إلحاق باقي الدولة الحفصية التونسية إليها، بداية من تجريدها من نُفوذها بكامل الشرق وجنوبه الشرق الجزائري هذا من جهة غربها؛ أما من جهة شرقها فتعرضت مدينة بنزرت للسيطرة الجزائرية، أي محاولة حصارها وإضعافها فسهولة إبتلاعها.

عرفنا سابقاً أن الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر والاحتلال الإسباني لسواحلها ساهما بشكل كبير في دخول العثمانيين إليها ولم يكن الإسبان هم العَقبة الوحيدة التي أعاقت تثبيت الوجود العثماني؛ فحسب بل إن الزعماء المحليين من أمراء وشيوخ قبائل لعبوا دوراً كبيراً في عرقلة تحقيق الوحدة السياسية للجزائر وتونس وتحريرهما من الاحتلال الإسباني [5].

وهذه المواقف المتذبذبة التي سار عليها هؤلاء الزعماء هي التي تفسر لنا مواقفهم المتناقضة كتحريض الأمير الزياني الذي نصبه عرّوج رئيس خلفا لعمه حمو موسى بطلب من الأهالي ثم لم يلبث هذا الأمير أن شرع في تحريض أهالي تلمسان عليه فما كان من عرّوج رئيس إلا أن قام بإعدامه مع عدد من أمراء البيت الزياني الذين اشتركوا معه بناء على فتوى عُلماء تلمسان [6].

(1) -حسين مؤنس، المرجع السابق، ص162 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها...، المرجع السابق، ص583.

(2) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: محمد علي عامر، المرجع السابق، ص47.

(3) -مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص56 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op, cit, p53

(4) -أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، ط1، (د، ك، ع)، الجزائر،2009م، ص 78.

(5) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص895 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص374.

(6) -عبد الحميد بن أشنهو أبي زيان، المرجع السابق، صص74-75 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص179.

وكذلك نفس السُلوك قام به الشيخ سالم التومي الذي شَرع يحرض أهالي الجزائر ضد الأتراك فأمر عرّوج بقتله بينما فر ابنه يحي إلى وهران مستنجداً بالإسبان لاستعادة زعامة أبيه (1) ونفس الدوافع دفعت الشيخ ابن القاضي إلى التمرد على خير الدين بعد أن كان حليفه الرئيسي (2).

ومن المفيد التذكير بأن أهم شخصيتين هددّتا الوجود العثماني في الجزائر هما: الشيخ سالم التومي شيخ مدينة الجزائر والثاني هو الشيخ ابن القاضي زعيم جبل كوكو بمنطقة القبائل الكبرى ويليها في الأهمية يحي بن سالم التومي وقارة حسن، زيادة على خطر الأمراء الزيانيين غرباً؛ وعمالة الحفصيين للإسبان (3).

فكانت السياسة العثمانية إزاء هؤلاء الزعماء تَتراوح بين محاولة كسب هؤلاء الزعماء بإبقائهم في مواقعهم القيادية والاكتفاء بقبول تَبعيتهم ويتجلى ذلك في قراءة الخُطب باسم السلطان العثماني وسك العملة باسمه (4)، بالإضافة إلى دفع الالتزام المالي السنوي إلى الخزينة والمساهمة في القتال إلى جانب العثمانيين ضد الإسبان وقمع الثورات التي يمكن أن يُعلنها بعض شيوخ العشائر أو الأمراء المحليين (5).

وإلى جانب ذلك اتبع العثمانيون سياسة شديدة ضد قادة حركات التمرد الذين أَلبوا الأهالي على الثورة فقام عرّوج رئيس بإعدام أبي حمو الزياني والشيخ سالم التومي وكذلك أمير تنس الذين كان كل منهم يتولى تحريض الأهالي على الثورة على العثمانيين وذلك بعد الرُجوع إلى العلماء واستشارتهم بشأنهم كما أتبع الباي لارباي خير الدين نفس السياسة إزاء مُؤججي الثورات وزعماء التمرد فقد أعدم زعماء التمرد الذين ثاروا في مدينة الجزائر عقب استشهاد عرّوج رئيس وذلك بعد استفتاء العلماء في أمرهم وقام بإعدام قارة حسن الذي تحالف مع الشيخ ابن القاضي في ثورته عليه (6).

وفي بعض الأحيان كان كل من عرّوج وخير الدين بربروس يَكتفيان بإضعاف زعيم التمرد دون القضاء عليه لكسب وَلاء قبيلته وأنصاره كما فعل الباي لارباي خير الدين مع السلطان الحفصي أبوعبد الله محمد عندما أسره أثناء اِنهزامه في الحملة (7)؛ التي قادها براً من جهة الشرق للاستحواذ على الجزائر والسلطان الزياني مولاي عبد الله الذي هاجمها من الجهة الغربية الذي أنهزم هو الأخر وفرّ إلى تلمسان؟ حيث قام الباي لارباي خير الدين بِتعقبه إلى مَشارفها إلا أن السلطان أرسل كُبراء دولته ومَشايخها ملتمساً الصلح وبعث معهم 30000 دينار لكن خير الدين رفض الصلح معللاً ذلك "بأن هذا الرجل

---

(1) -عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، (د، أ)، ج1، 2006م، ص108 ص24.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص375 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص121.

(3) – يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص ص41-47 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص54.

(4) -جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحـــــديث (1500-1830م)، (م، و، ك) ،1987م، ص89.

(5) -محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص213 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص375.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص375 وأنظر أيضاً: Moulay Bellhamissi, Alger, l'Europenne guère secrète 1518 – 1830, Alger 1999,P17.

(7) -مجهول، غزوات عروج و..، المصدر السابق، ص80 و: عمر عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة، الجزائر، 2002م، ص117

أَلف التمرد والعصيان والخيانة إما بِتسويل من نفسه وإما بتحريض من النصارى" [1] فلما بلغ السلطان رفض خير الدين للصلح خرج إليه بنفسه ورمى بنفسه بين يديه معتذراً راجياً العفو فعفا عنه [2].

ولإضعاف موقف هؤلاء الزعماء سياسياً ودَفعهم إلى الخضوع للإدارة السلطة العثمانية في الجزائر كانت سياسة الأتراك تقوم بعض الأحيان على تأييد من يكون مستعداً للرضا بالتبعية لهم فقد أيدوا الشيخ ابن القاضي زعيم إمارة كوكو ضد غريمه ومنافسه على منطقة القبائل البربرية الكبرى قلعة بني عباس الملك عبد العزيز في أول الأمر ثم عنما تمرد عليهم أحمد ابن القاضي أيدو الملك عبد العزيز عليه! [3].

وهكذا يمكن أن نقول إن السياسة العثمانية نحو الزعماء المحليين لم تَكن واحدة بل كانت تسير وفق المواقف التي يقفها هؤلاء الزعماء من الدولة [4]؛ فقد اِتبع الأتراك العثمانيون عند دخولهم إلى الجزائر سياسة متسامحة مع الزعماء المحليين تَهدف إلى كسبهم وفي صَفها مع بقاءهم في مناصبهم مقابل تبعيتهم للسلطة المركزية في الجزائر والدعاء للسلطان على المنابر وصك العملة باسمه وكل هذا لكي يقطعون الطريق على الإسبان الذين مافتئوا يعملون على كسب هؤلاء الزعماء وتقديم مختلف أشكال الدعم لمواجهة الأتراك العثمانيين إلا أنه بعد استشهاد عرّوج رئيس أدرك خير الدين باشا أن هذه السياسة لاتجدي نفعاً مع بعض الزعماء لايترددون في التحالف مع أعداء شعبهم وبيع البلاد لهم مُقابل بَقائهم في مواقع الصدارة والاستقلال بأنفسهم والحكم الصوري لهم.

القرصنة؟ عندما اِقتحم العرب المسلمون هذا المجال، اَستطاعوا فرض سيطرتهم على البحر فلم تكن بهم حاجة لممارستها، فكانت الهجمات البحرية إما تهدف إلى تأمين السواحل الإسلامية أو جاءت على شكل حروب بحرية دفاعية هدف التصدي للعدو، فكانت إذا مُلتحمة بمفهوم الجهاد البحري في سبيل الله[5] غير أن شعوب أخري اضطلعت في مجال القرصنة !أبرزها شعب الفايكنغ- النورمانديين[6] الذين كانوا رواداً في قائمة القراصنة القائمة على السلب والنهب-شعب إسكندنافي مارس القرصنة مابين القرنين 11م-12م، وورع أكثر الدول الأوروبية، وقام بسطو مرات عديد على المدن

(1) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص178 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص117.

(2) -حسين مؤنس، المغرب الكبير، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان،1981م، ص145 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص80 وأنظر أيضاً: محمود بوعياد، المرجع السابق، ص209.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص377 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص96.

(4) -يحي جلال، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، ص24 وأيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص78.

(5) -سارة العيدودي ونبيلة عبايدية، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص83.

(6) -حنيفي هيلايلي، التنظيم العسكري...، المرجع السابق، ص156 وأيضاً: Haedo Diego, op, cit, p58

الأندلسية [1] تقول كورين شوفاليه في هذا الأمر " إن القرصنة هي حرب مَشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب إذا بالنسبة للمسلمين فإن القرصنة هي شكل من أشكال الجهاد في البحر" [2].

اشتغل خير الدين بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط [3]، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عَليه نائب الباي لارباي يعمل على قهر القرصنة الأوروبية فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن وصار شخصه مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية في سبيل الدفاع عن المسلمين في المنطقة[4]، المغاربية فاكتسب الجزائر مَهابة وجَلالاً وجعلت الأمم المسيحية تَهرع على عاهلها الأكبر الإمبراطور شارلكان مُستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه [5].

2) -النتائج الاقتصادية والاجتماعية:

إن الإسبان اِحتلوا أغلب التحصينات الموجودة على ساحل شمالي إفريقيا بهدف حماية طرق مواصلاتهم مع صقلية التي كانت تُزودهم بالحبوب [6].

إخضاع الموانئ والمدن الساحلية الجزائرية المحتلة لإشراف الإدارة الإسبانية المباشرة، الأمر الذي أفقد الأسر الحاكمة والمجالس المحلية التي كانت تشرف على إدارتها السياسية؛ وقوتها الاقتصادية؛ وأصبحت تجارتها الخارجية لأعدائها؛ مما أفقدها التفاوض باسم القيادة التي تتولى قيادة الشعب لتحريره.

وفي عهد ضُعف المماليك المغاربية المتصارعة على فُتات السلطة الاسمية؟ أخرج الإسبان مُسلمى الأندلس من دِيارهم ومن الثغور الأوروبية وأَسرو كثيرا من نسائها وغِلمانها ورجالها ومُعاداتهم، وباعوهم بثمن غال والناس فيهم رَاغبون وأَزدهرت بذلك تجارة الرقيق الأبيض [7].

فالمصاعب الاقتصادية الناتجة عن هِجرة الصُناع والحرفيين والتجار والمزارعين واليد العاملة للمسلمين واليهود أصاب الاقتصاد الإسباني بالركود[8]، كما أن سيطرة الدولة على الموارد المالية لتغطية نفقات حُروبها في أوروبا وشمال إفريقيا وأجواء الحرب الأهلية ضد من تبقى المسلمين في إسبانيا وثورات البروتستانت في ألمانيا وسويسرا وهولندا من الأحداث السياسية التي كانت تَعج بها أوروبا عامة، وإسبانيا على وجه الخصوص جعلت الناس يشعرون بالتذمر والاكترات والكراهية وعدم الاستقرار [9] مما حدا

---

(1) -رولان موسينييه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة، يوسف أسعد داغر، منشورات عويدات بيروت، لبنان،1994م، ص156.

(2) -كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص49 وأنظر أيضاً: . Gabriel Esquire, op, cit, P68

(3) -أبو عمران الشيخ وناصر الدين سعيدوني وآخرون، مُعجم مشاهير المغاربة المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995م، ص57.

(4) -أحمد عبد القادر، علاقات بين الشرق والغرب، ط1، مطبعة بيروت المحروسة، لبنان 1995م، ص128.

(5) -ساطح الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان،1960م، ص89.

(6) -محمد سهيل طقوس، العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، المرجع السابق، ص 212.

(7) -حسام نور الدين، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2001م، ص154.

(8) -السيد الدقن، المرجع السابق، ص182 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص187.

(9) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص46 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص128.

بالدولة إلى البحث عن سبيل لإلهاء الشعب وتأجيج نار التعصب الديني والمذهبي، وإثارة بَواعث الرعب من الخطر الإسلامي القادم من الجنوب (1) وهكذا كان احتلال سواحل المنطقة المغاربية المتوسطية إحدى المشاجب المهمة التي عليق عليها الإسبان مشاكلها وعجزها الداخلي.

فقد استوطن عدد كبير من مهاجري الأندلس المدن الساحلية الجزائرية مثل، تنس، بجاية الجزائر وتلمسان، وكذلك الداخلية: مثل البليدة والمسيلة (2) كما أدت الهجرة الأندلسية إلى نُشوء مدن جديدة قديمة ذات طابع أندلسي مثل مدينة بجاية التي توافدت عليها أعداد كبيرة من أهالي الأندلس حتى كونوا بها طائفة على غاية كبيرة من الأهمية، وهاجر إليها عدد كبير من العلماء (3) وكذلك البليدة والقليعة اللتان أقتطع خير الدين بربروس أراضيهما لمهاجري الأندلس كما فرضوا على المدن التي شكلوا فيها أغلبية سكانها الصبغة الأندلسية خصوصاً في الجزائر والبليدة ودلس والمدية وقسنطينة وتلمسان (4) كما تَحولت سهول متيجة المحيطة بمدينة الجزائر إلى مناطق أندلسية(5).

انتعاش الحركة الاقتصادية والزراعية والفنية والعمرانية في المدن التي استقر بها الأندلسيون حيث قام المهاجرون الأندلسيون بِاستصلاح مساحات واسعة في نواحي متيجة والمرتفعات الساحلية وشرشال وتلمسان ووهران وعنابة (6) وأما في المجال الصناعي فقد تمكنوا من إقامة المصانع لمزاولة المهن كالحدادة والخياطة والنجارة والخزف والجلد والحرير، واشتهرت مصانع الحرير الأندلسية بمدن الجزائر والقليعة وشرشال (7) كما يعود إليهم الفضل في تحسين صِناعة البارود وتطوير صناعة السفن بمواني الجزائر وشرشال (8).

إن التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانئ المغاربية، خصوصاً الجنويين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى ميناء هنّين، إلا أن هذا الميناء سرعان ما أحتله الإسبان؛ فَيشهد نفس مصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية (9) أخذ الإسبان فور احتلالهم للمدن الجزائرية في إرهاق الأهالي والتضييق عليهم بفرض الضرائب والغرامات الباهظة (10) فكان من أثر

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص131 وأنظر أيضاً: de Grammont Henri, op, cit, p86

(2) -ابو العباس احمد المقري، (المتوفي 1041هـ/1632م)، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تحق احسان عباس، ج2، دار صادر، لبنان، 1988م، ص217 وأيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص267.

(3) -أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من علماء بجاية، تحق محمد بن شنب، المطبعة الحكومية، الجزائر،1910م، ص171.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص61 وأنظر أيضاً : ابو العباس احمد المقري، المرجع السابق، ص217.

(5) - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص191 وأنظر أيضاً : مارمول كربخال، المرجع السابق، ص432.

(6) -مصطفى أحمد بن حموش، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري(956-1549/1245-1830)، دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000م، ص64 وأنظر أيضاً: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص98.

(7) -محمد رزوق، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً : محمد درّاج، المرجع السابق، ص64.

(8) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص64 وأنظر أيضاً : Gabriel Esquire, op, cit, p 69.

(9) -الحسن بن محمد الوزان الزياني، المصدر السابق، صص386-387 وأنظر أيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 69.

(10) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص39 وأنظر أيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص186.

هذه الإتاوات المالية وماشابهها أن ضاق الناس بها ذرعاً، واضطر الكثير منهم إلى ترك التجارة عبر الموانئ المحتلة فِراراً من مضايقات الإسبان، الأمر الذي ساهم بدوره في اِنهيار تجارة تلك الموانئ (1).

تهافت القوى الزيانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب من الإسبان مُعلنة تَبعيتهما وخُضوعهما لهم؛ بعد ماتبين عَجزهما عن مُقاومتهم، فقد سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران إلى السفر إلى إسبانيا مصحوبة بهدايا ثمينة مُعلناً خضوعه لهم (2) وربط اقتصادهما بتبعية وخدمته للإسبان.

انعكس الاحتلال الإسباني لسواحل المنطقة المغاربية المتوسطية بشكل سِلبي على مسلمي الأندلس، إذ لم تَعهد الموانئ الجزائرية والتونسية قادرة على إرسال الإمدادات إليهم والتخفيف عنهم مما يُلاقونه من اضطهاد وظلم نظراً لكون الإسبان كانوا قد فرضوا على أعيان الموانئ التَعهد بعدم السماح لأي سفينة بالانطلاق للإغارة على السفن المسيحية واعتبرتهم مسؤولين عن أي إخلال بذلك (3).

فمن المؤكد أن السلطان الحفصي كان يجني مَكاسب اقتصادية وسياسية وأمنية كبيرة من جراء سماح للإخوة بربروس برسو في جزيرة جربة؛ بالإضافة إلى الخمس الذي كان يأخذه مقابل ذلك، فانه كان يتلقى هدايا كبيرة تذهب إلى خزينته الخاصة (4)؛ كما كان البحارة الأتراك يقومون ببيع غنائمهم لتجار تونس مما يعني تمكن السلطان الحفصي من فرض ضرائب أخرى طالما أن الحركة التجارية مُنتعشة بفضل غزوات البحر التي يقوم بها الأتراك؛ يسرد لنا خير الدين ذلك:" إن أهالي تونس يحبوننا وهم يعرفون جيداً قيمة النعمة التي يعيشون في كنفها منذ أن حَللنا ببلدهم، فقد استطعنا أن نُوحد إمارات وقبائل هذا البلد، وأَزدهرت التجارة مرات كثيرة وأمن المسلمون من ظلم الإسبان فصاروا أحرارا يسيرون مرفوعين الرؤوس، كل ذلك لأنهم تابعون لأكبر سلاطين الدنيا "(5).

3) -النتائج الثقافية والحضارية:

كما كان للبابا دوراً كبيراً في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولاً ثم تسهيل إخضاع الشمال الإفريقي لإسبانيا تمهيدا لتنصيره ثانياً (6) وتزويد وتدعيم الجيوش المسيحية المغيرة على السواحل الإفريقية (7) المغاربية.

---

(1) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص138.

(2) -محمود بوعياد، المرجع السابق، ص217 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص196.

(3) -بنود المعاهدة التي عقدت بين سالم التومي شيخ مدينة الجزائر مع الإسبان للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص ص126-128 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, op, cit, p 64 .

(4) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، صص15-16 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص189.

(5) -آصاف يوسف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، دار البصائر، ط3، مصر، 1985م، ص143 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص45 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص156.

(6) -على المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص71 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص56.

(7) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، صص19-20 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص15.

تحتل الأندلس في المَخيال الشعبي الفردوس الضائع؛ وحتى في الدراسات الأكاديمية مكانة خاصة تعود ربما إلى الأطوار التاريخية التي مرت بها هذه المنطقة.

كما كان للبابا دوراً كبيراً في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولاً ثم تسهيل إخضاع الشمال الإفريقي لإسبانيا تمهيدا لتنصيره ثانياً (1) وتزويد وتدعيم الجيوش المسيحية المغيرة على السواحل الإفريقية (2) المغاربية.

قام البابا سنة 1519م، بإصدار قراراً يُعلن فيه تدعيم الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية المغاربية؛ و يأمر ملوك أوروبا بعقد هدنة لمدة 05 سنوات لكي تتمكن فيها إسبانيا من التفرغ لاحتلال ماتبقى من سواحل ومدن في شمال إفريقيا (3)المغاربية؛ ولم تكتف الكنيسة بذلك، بل جَندت كل الإمكانيات المادية والمعنوية للعالم المسيحي لتكملة غَزو المنطقة بقيادة إسبانيا؛ وأصدرت فتوى دينية تضمنت الوعد بالغفران لكل من يُساهم في دعم حملات غزو الأيالة الجزائرية بنفسه؛ وفَرضت ضريبة صليبية على كل مسيحي لايساهم في غَزوها(4) بل إن القساوسة والرهبان باعوا أموال الكنيسة لتزويد الجيوش الغازية(5) على المغاربة.

نظراً لتوجيه سياسة الإمبراطورية الإسبانية بدعم وتحريض بابا الكنيسة الكاثوليكية بروما إلى تَنصير المسلمين وإنهاء الوُجود الإسلامي تحت ظُروف القهر والإرهاب الذين كانوا يَعيشه المسلمون في الأندلس اضطر عدد كبير جداً منهم إلى مُغادرتها؛ والهجرة إلى بلدان المنطقة المغاربية والاستقرار بها خُصوصاً الجزائر التي كانت تعيش أوضاعاً خاصة، شجعت دُفعات بشرية وهجرات أندلسية للقدوم والهجرة إليها والاستقرار بها؛ بينما لم تكن ظروف تونس في أواخر العهد الحفصي تساعد على استقطاب أفواج المهاجرين إلا بعد استقرار العثمانيين بها وأما المغرب السعدي، فبالرغم من علاقاته التاريخية وروابطه البشرية وقربه الجغرافي من الأندلس فإنه لم يَعرف هجرات جماعية تُماثل ماحدث في الجزائر (6).

لقد حمل سقوط إمارة غرناطة بيد الإسبان، أهل المنطقة؛ المغاربية؛ على مُتابعة النضال باستمرار خاصة من أجل أولئك الذيم أصبحوا يعيشون تحت حُكم اِستبدادي قاسي في إسبانيا النصرانية؛ وقد عمد المسلمون الذين طُردوا منها إلى إنشاء مراكز عسكرية على طول ساحل شمالي إفريقيا المغاربية بهدف الإغارة على سواحل إسبانيا وإيطاليا؛ وجزيرة مالطا والمنطقة المحيطة بها؛ ومُهاجمة السفن الأوروبية انتقاماً منهم، وقد أدت هذه المواجهات إلى زِيادة تدخل العثمانيين إلى جانب المجاهدين لمساعدتهم.

---

(1) -على المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص71 وأنظر أيضاً: سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص56.

(2) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، صص19-20 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص15.

(3) -أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، المرجع السابق، ص11 و: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان..، المرجع السابق، ص157.

(4) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، صص79-80 و: ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص134.

(5) -السيد الدقن، المرجع السابق، ص143 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، المرجع السابق، ص71.

(6) -جمال الدين، المرجع السابق، ص89و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص61و: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص94.

أما الملكة الإسبانية إيزابيلا، فإنها قد بذلت جهوداً كبيرة لطرد المسلمين من الأندلس ومُلاحقتهم في مدن الشمال الإفريقي -المغاربي؛ التي لجؤوا إليها فَرارا بِدينهم، وبعد وفاتها تركت وصية لمن يتولون الحكم بَعدها؛ تطلب فيها منهم أن يحققوا أمنيتها الغالية جداً التي كانت تتمني تحقيقها بنفسها ألا وهي فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار [1].

عجز الحفصيين والزيانيين أمام السلطات الإسبانية الأمر الذي نجم عنه بروز قيادة كفؤ تسند إليها مهمة إنقاذ البلاد وإدارتها بعد تحريرها؛ ولهذا اِلتف الشعب حول القيادات الدينية المتمثلة في العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الذين لعبوا دوراً كبيراً في تحريض وقيادة الشعب لمقاومة الاحتلال قبل وصول الأتراك إلى سواحل شمال إفريقيا [2].

إلا أن الاحتلال الإسباني عندما أرادوا التوغل في داخل البلاد تصدى لهم الأهالي الذين سلموا قِيادتهم إلى بعض الزُعماء المحليين من علماء الدين وشيوخ الطرق الصوفية وأمراء محليين وشيوخ أسر ذات شرف ومَكانة دينية أو عَشائرية أمثال: الأمير أبي بكر أمير قسنطينة [3] وآل المقراني الذين اتخذوا من قلعة بني العباس البربرية ثم مجّانة في منطقة القبائل الصغرى قَاعدة لهم [4] والشيخ ابن القاضي أمير القبائل البربرية في مِنطقة القبائل الكبرى، الذين جعلوا من جبل كوكو مقر لإمارته [5]؛ وغيرهم من الزعماء المحليين الذين وجدوا أنفسهم على رأس المقاومة الشعبية ضد الاحتلال فلم يمض وقت طويل على تولي هؤلاء الزعماء قيادة المقاومة، حتى حظوا بمحبة الأهالي وثقتهم [6].

أدي الاحتلال الإسباني للسواحل المغاربية المتوسطية إلى غياب شبه كلي للدور القيادي المركزي السياسي أو الميداني العسكري؛ الذي يفترض أن يقوم به الزعماء المحليّون في مثل هذه الظروف الأمر الذي دفع الأهالي إلى الالتفاف حول العلماء الذين لعبوا دوراً كبيراً في تحفيز الشعب إلى التصدي للإسبان في حدود الإمكانات العسكرية والتنظيمية المتوفرة.

ولانجانب الحقيقة التاريخية إذا قلنا بأن العلماء وشيوخ الطرق الصوفية كانوا هم القيادة الرئيسية التي تصدت للاحتلال الإسباني بعد تبين عَجز القوى الرسمية عن مواجهته ورضاها بإعلان تبعيتها له مقابل الاحتفاظ بعروشها المتهالكة[7]، ذلك لأنه منذ سقوط إمارة غرناطة أدرك هؤلاء العلماء أن الإسبان

---

(1) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص88 وأيضاً: حسين مؤنس، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص156 و: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص15و: صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ص28-31 و: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص17.

(2) -سعد الله أبي القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص143 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص133.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص139وأنظر أيضاً: سعد الله أبي القاسم، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص36.

(4) -أحمد بن محمد بن على بن سحنون الراشدي، المرجع السابق، صص 19-20 وأيضاً: كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص54.

(5) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص193 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص217.

(6) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص50 وأنظر أيضاً: العربي إشبودان، المرجع السابق، ص136.

(7) -أمين محمد، فتوحات خير الدين، المرجع السابق، ص170 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص141.

لن يكتفوا بما أحرزوه في الأندلس بل سيمتد عدوانهم إلى الممالك المغاربية بالشمال الإفريقي، لأنها أصبحت بحكم موقعها الجغرافي لجوء المهجرين الأندلسيين إليها؛ فهي خط دفاع المتبقي عن الوجود الإسلامي في غرب البحر المتوسط(1) سواء أمل الموركسيين في إسبانيا أو الأهالي بشمال إفريقيا، وبهذا المنطق راح هؤلاء العلماء يقومون بتحريض الشعب على أخذ حيطته والاستعداد على لرد العدو(2).

لم تتمكن حركة مُقاومة الأهالي الجهادية التي كانت تنطلق من المدن الساحلية المحتلة بِتشجيع من العلماء من تحرير سواحل الجزائر، أو تقديم عون جَدي للمضطهدين من مسلمي الأندلس، فقام العلماء بدعوة الإخوة بربروس إلى الجزائر وتَسليمهم لواء قيادة المقاومة بعد أن بلغهم انتصاراتهم الكثيرة على الإسبان في عرض البحر المتوسط وِإستقبال الأهالي الأتراك اِستقبال الأبطال وبَايعوا عرّوج سلطاناً عليهم سنة1516م؛ نظرا لوجود رَوابط الإسلام بينهم.

قرب عرّوج وبعده خير الدين أكثر العلماء إليهم وجعلوا منهم مستشارين لهم ولم يكونا يَقطعان أمرا ذا أهمية مما يتعلق بالسياسة العامة في الجزائر دون أن يرجعا إليهم، فكان من نتيجة ذلك أن اكتسباَ مُودتهم حتى صاروا الحليف الأول لهم؛ وذلك لِلقضاء على المشاكل الداخلية لكي يَتفرغ للمواجهة الأخطار الخارجية التي تتربص بِدولتهم الناشئة.

لم يكتف الإخوة بربروس بالإغارة على السفن والسواحل الإسبانية فحسب، بل جعلوا إنقاذ مسلمي الأندلس وتوطينهم في المنطقة المغاربية وطرد الإسبان من سواحلها مُهمة أساسية لهم فحازوا بذلك على ثقة الأهالي وبدأ الخطباء يدعون لهم بالنصر في خطب الجمعة (3) إن هذه الصورة لاتختلف أبداً، لا في شكلها ولا في مَضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا الى الدُنيا رسالة الاسلام غير أن الموقف العام لم يكن في عهد خير الدين مُشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضُعف طريقه الى قلوب المسلمين وأَنظمتهم فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لاتسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم الخِياني في التأثير على التيار العام في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث وكان أخطر مافي الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكزاً قيادية تَسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين لقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المـعركة في كل مرحلة من مراحلها الصـعبة وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد، وتَطبيق رائع للعقيدة القتالية الاسلامية وقيادة على درجة

(1) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص97 وأنظر أيضاً: مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص64.

(2) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية تاريخها...، المرجع السابق، ص453 وأيضاً: عمر الركباني، المرجع السابق، ص198.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص159 وأنظر أيضاً: سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص112.

عالية من الكفاءة، بذلك انتصر المغاربة وبذلك انتصر خير الدين، فكتبوا تحت سيادة الدولة العثمانية قصته رائعة في الجهاد وسيرة أروع على المجاهدين[1].

إن الحقيقة التاريخية التي لا يمكن للباحث المحايد إنكارها أو تجاهلها هي أن رفض الأهالي للاحتلال الإسباني وبسالة المقاومة الشعبية التي تصدت له في كافة المناطق الداخلية بقيادة الزعماء المحليين ثم بقيادة العثمانيين فيما بعد[2]؛ هي التي فرضت على المحتل أن يبقي محصوراً في القلاع والحصون الممتدة على طول الساحل المنطقة؛ المغاربية، حتى يتمكن من تأمين خطوط إمداده البحرية، وليسهل عليه الانسحاب عند تعرضه للخطر، ولم تكن حروب أوروبا ،ومشكلات إسبانيا الداخلية سوى ذريعة واهية يحاول بها المؤرخون الفرنسيون من ذوي النزعة الاستعمارية تبرير فشل الاحتلال الإسباني للمنطقة[3] المغاربية المتوسطية وعجزه عن التوغل إلى داخل البلاد.

وكانت التركيبة البشرية للبحرية الجزائرية غَنية ومختلفة المشارب [4] حيث كانت عناصرها تَتغذي من خليط ممتاز من الأعلاج، إضافة إلى بحارة من الأندلس وآخرون من الشرق الإسلامي [5] من مناطق مختلفة من الدولة العثمانية؛ والأقلية وهم الجزائريون من سكان الإيالة [6].

وقف العلماء والأعيان والأهالي مَوقفاً مُسانداً للأتراك العثمانيين طيلة الفترة التي واكبت دخولهم باستثناء حالات نادرة ثار فيها الأهالي وبعض الأعيان استجابة لدعوات التمرد التي قادها الزعماء المحليون الذين وجدوا في الأتراك خطراً على مصالحهم ونفوذهم [7]، ولم يتردد هؤلاء الزعماء في الاستعانة بالإسبان وتحريضهم على غزو الجزائر، وأحسن مثالاً على ذلك ابن القاضي وقارة حسن، من أجل أن يعود هؤلاء الزعماء إلى موقع النفوذ ويُنصب كعملاء موالين لهم[8].

إلا أنه في الوقت الذي رفض فيه مُعظم الأهالي الوجود الإسباني وراحوا يَعدون العُدة للتصدي له في كافة المناطق التي نَزل بها، هناك أقلية منهم نادرة مَخفية قبلوا به خضوعاً؟ ولم يَقتصر الخضوع للإسبان على السلطات الرسمية من الملوك والأمراء بل امتد ذلك إلى بعض القبائل العربية التي استوطنت في المناطق المحيطة بوهران كبني عامر وعكرمة وسويد [9]، واختارت بِتبعيتها وسارعت إلى إعلان خضوعها للإسبان

(1) -سمية بنت محمد حمودة، المرجع السابق، ص65 وأنظر أيضاً: السيد الدقن، المرجع السابق، ص149.

(2) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص895 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر....، المرجع السابق، ص48.

(3) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص116 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص148.

(4) -عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص95 وأيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص87.

(5) -ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص134 وأنظر أيضاً: عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص95.

(6) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائري...، المرجع السابق، ص49 وأنظر أيضاً: Gabriel Esquire, op, cit, p 91.

(7) -ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص116 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص195.

(8) -لخضر درياس، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص219.

(9) -عبد الفتاح محمد الغنيمي، المرجع السابق، ج3، صص117-118 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق ص93.

عندما لمست من نفسها وسَولت لها عدم القُدرة على مُواجهتهم [1]؛ وخوفاً من بِطشهم ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يَحلمون بها ولم يتمكنوا من تحقيقها على حساب منافسيهم من القبائل العربية الأخرى [2]، وبكل أسف لم تكتف هذه القبائل بإعلان تبعيتها للإسبان كَتعبير عن الخضوع الظاهري الناجم عن الاضطرار والعَجز عن المقاومة، فقد سارعت إلى الارتماء الجوهري في أحضان الإسبان وصار لهم أعواناً وعيوناً على إخوانهم[3] بل صارت هذه القبائل عناصر أساسية يُعتمد عليها المحتل في الحصول على المعلومات المتعلقة، بِتحركات المناوئين له، كما صار بعض أبنائها أدلة للعدو يُرشدون قواته في الليل والنهار إلى مواطن الضعف الأخرى، كما اتخذ الإسبان منهم جَواسيس وأعواناً ومستشارين حتى بلغ ضررهم مبلغاً عظيماً [4]؛ فلعب هؤلاء العملاء دوراً خطيراً جداً أعاق إلى حداً كبيراً فيما جهود التوحيد التي قام بها الإخوة بربروس تمهيداً لطرد الإسبان من وهران [5].

بدأ سلاطين بني عثمان منذ محمد الفاتح يعيدون توحيد البلاد الإسلامية ويَظمون بلاد جديدة إلى جسم الخلافة بعد فُتوحات وأعمال عسكرية عظيمة في أوروبا وصولاً إلى أبواب فينا1529م [6].

وهكذا أصبحت إستانبول مركزًا للحركة العلمية، وللثقافة الإسلامية ودارًا لطباعة المصحف العثماني الشريف، ومقرًا لشيوخ الإسلام [7]كما بلغت مجدها العمراني والحضاري [8] كان الغرض من هذا العرض المجمل إِيضاح التكوين التاريخي والحضاري للدولة العثمانية ووصولها للعالمية بعد جني ثِمار ضم الجزائر إليها فزادت قُوتها ومكانتها بين رعاياها وهاجس هَيبتها في نفوس خصومها ومناوئين لها [9].

ففي الفترة التي ندرسها كان المسلمون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي باستثناء الأسر الحاكمة ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ووارثة الخلافة في العالم الإسلامي كما كانوا يَنظرون إلى السلطان العثماني وهو يخوض الحرب ضد العالم المسيحي على أنه الأمل المرتجى في الدفاع عن الإسلام وأهله [10]، وفي هذا السياق لاحظنا تتابع الرسائل التي بعثها أعيان المسلمين إلى السلطان العثماني من الأندلس والجزائر والعراق والهند والحبشة وليبيا... وغيرها [11].

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص143وأنظر أيضاً: Moulay Bellhamissi, Histoire de…, op, cit, p84

(2) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص113 وأيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص93.

(3) -محمود بوعياد، المرجع السابق، ص227 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص117.

(4) -أبو إسماعيل بن عودة المزاري الأغا، المرجع السابق، ج1، ص211 وأنظر أيضاً: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص141.

(5) -سامح عبد العزيز إلتر، المرجع السابق، ص117 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص134.

(6) – عبد العزيز العمري، المرجع السابق، ص165 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص197.

(7) -وديع أبو زيدون، المرجع السابق، ص79 وأنظر أيضاً: السيد الدقن، المرجع السابق، ص32.

(8) -محمد بن عثمان السنوسي، المرجع السابق، ص 37 وأنظر أيضاً: ايفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص105.

(9) -كوريين شوفاليه، المرجع السابق، ص 62 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص221.

(10) -صواف فائق بكر، العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ما بين 1876-1916م، (د، ن، ع)، مصر، 1978م، ص23.

(11) -كلو أندري، المصدر السابق، ص176 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص203.

الفصـــــــــل الثاني

الصراع العثماني الإسباني على تـونس ودور الجزائر فـيه

(941هـ-1534م/949هـ-1542م).

المبحث الأول: القبودان باشا خير الدين في مواجهة الإمبراطور الإسباني شارلكان.

1 – الحملة العثمانية الأولى (خير الدين باشا) على تونس (941هـ/1534م):

2 – الحملة الإسبانية الأولى (الإمبراطور شرلكان) على تونس: (942هـ/1535م):

3 –التحالف الحفصي الاسباني:

4–أبعاد الصراع العثماني الإسباني على تونس:

المبحث الثاني

تونس الحفصية تحت السيطرة الإسبانية (942 ـ949هـ / 1535 ـ 1542م).

1. استباحة تونس المسلمة وتوقيع معاهده الحماية المسيحية:

2–الإسبان يستكملون مشروعهم الاحتلالي في تونس:

3–موقف شيوخ الزوايا والأعيان في تونس من الأحداث:

4–وضع تونس في ظل الظروف الدولية والإقليمية:

خلاصة الفصل الثاني:

الفصـــــــــــل الثاني

الصراع العثـماني الاسبــاني على تــونس ودور الجزائر فـــيه (941هـ-1534م/949هـ-1542م).

المبحث الأول: القبودان خير الدين باشا في مواجهة الإمبراطور الإسباني شارلكان 1535م.

كانت الظروف الداخلية بتونس ملائمة لأي محاولة قد تقوم بها قوة أجنبية للاستلاء عليها إذ كانت تعيش فوضى سياسية كبرى تمَثلّت في الصراع على السلطة بين الحسن الذي قتل إخوته للانفراد بالعرش الحفصي ومن بين إخوته من تمكّنا من النجاة، وتوجه أحدهم: أخيه الرشيد [1] لطلب المساعدة من الباي لارباي خير الدين، ونظراً لخطورة الوضع الذي كان يحتمل أيّ تدخّل إسباني يعزّز به الإمبراطور شرلكان توجده بالبحر المتوسط خصوصاً مايزال يمتلك طرابلس القريبة من الممتلكات العثمــانية بشرق البحر المتوسط، فقد سارع القبودان باشا خير الديــن إلى أخذ تونــس من السلطان الحفصي الحسن بن محمد المُتعامل مع الإسبان.

1 – الحملة العثمانية الأولى (خير الدين باشا) على تونس (941هـ/1534م) [2]:

أولاً . موقف خير الدين باشا من السلطان الحفصي:

كان لخير الدين باشا حِساب قديم مع سلطان تونس أبو عبد الله محمد نظراً للمواقف التي أبداها، فقد رفض إرسال البارود والمواد اللازمة له عندما كان محاصراً بجاية سنة 1514م، كما أنه كان يحرض باستمرار السلطان الزياني عليه [3] ويُثير الفتن بينه وبين الأمراء المحليين؛ زيادة على حماية ظهره في مواجهة الإمبراطورية الإسبانية في عقر دارها واسترجاع ماتحت يديها، وهو ما نلتمسه عندما انتهى القبودان خير الدين باشا من بناء البحرية وتوسيع ميناء الجزائر عزم على مواصلة جِهاده البحري بداية بتونس وقد استغل جُملة من العوامل لمد نفوذ الدولة العثمانية إليها وإدخالها تحت لوائه وقد كان الاستيــلاء على تونس تحكمه عدة عوامل سياسية، كلها في صالحه أهمها:

مجرد وفاة السلطان أبو عبد الله مولاي محمد الحفصي سنة 1525 حلّ محله ابنه السلطان مولاي الحسن [4] الذي اشتهر منذ جلوسه على عرش السلطنة بِسفه بحب العشرة ومتعلقاً بحبه للغلمان ويحب أصدقاء ولده الوحيد ولهذا فقد جمع الشباب الذين بسنه في قصره أكثر من 400غلام جميل وتكفل بهم شريطة أن يظلوا إلى جانب ولده [5].

وقد أساء السيرة في البلاد التونسية، بإهماله لشؤون الدولة الحفصية؛ والتدهور الاقتصادي (فرض ضرائب ثقيلة على المساكين) الذي أدى إلى اضطراب البلاد التونسية وتجَزّؤها واستقلال بعض المناطق عن سلطة الدولة وهذا مايقول المؤرخ ابن أبي الضياف:" وفي أيام الحسن اِستولى الأتراك على قسنطينة، وتَغلبت الأعراب في البلاد بالفساد وقد هَادنهم الحسن ب:ستين ألف دينار وفي أيامه دخل خير الدين باشا إلى تونس"[6]؛ وكانت قد خرجت عن طاعة منذ أيام

---

(1) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص311 وأنظر أيضاً: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص412.

(2) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم16: حول الحملة العثمانية على تونس 1534م.

(3) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص92 و: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص112.

(4) -خير الدين، المصدر السابق، ص171 وأنظر أيضاً: يوسف الثقفي، موقف أوروبا من الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص33.

(5) -عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص34.

(6) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص71 وأنظر أيضاً: أبو العباس أحمد بن ابي الضياف، لمرجع السابق، ج1، ص203.

الحسن كل من سوسه والقيروان وثار بهما الشيخ عرفة بن نعمون الشابي جد الشابين، وقد أتاهم برجل يدعي أنه من بني حفص بايعه وبقي اسم الولاية له، ومسماها للشيخ، وخلفه في القيروان ابن أخيه محمد بن أبي الطيب بن نعمون الشابي إلى أن انتزعهما من يده درغوث باشا صاحب طرابلس"[1] وكراهية الأهالي له [2] بعد ماقام بمجزرة بين أفراد العائلة، حيث أمر بقتل جميع إخوته الذكور واختلفت الروايات في عدد إخوته الذي أمر بقتلهم بين 22 و34 و45 [3] ولم ينج منهم سوى أخيه الرشيد الذي دخل في نزاع مع أخيه على الملك فلجأ إلى الباي لارباي خير الدين بالجزائر مستنصراً به ضد أخيه لأخذ حقه منه [4].

ولم يكن مولاي حسن محبوباً من قبل الأهالي بسبب ظُلمه وغَدره وضاقُ منه ذرعاً بمفاسد وسفه وقد رغب الأهالي بالتخلص منه، فأرسلوا إلى أخيه مولاي الرشيد يدعونه للقدوم إليهم يعدونه بتقديم يد المساعدة على استلام الحكم بدلاً من أخيه السلطان الفاسد [5] وعنما سمع مولاي حسن بدعوة الأهالي أرسل الهدايا إلى السلطان سليمان مع أحد رجاله وزوده برسالة شكوى ضد خير الدين باشا وأخبره رسوله أن شائعات تسري من الديوان أن السلطان سليمان سيستدعى خير الدين والرشيد إلى إستانبول بأقرب وقت ولن يسمح لهما بالذهاب إلى تونس [6].

وأرسل أيضاً بعض أعيان سكانها إلى الباي لارباي خير الدين سنة 1532م، يطلبون دعمه لتخليصهم من بطش هذا السلطان ووعدهم بِالتمكين له في حالة وفوده عليهم [7]، استغل خير الدين باشا الوضع السائد في تونس من ضعف نظام الحكم وانتشار الفوضى ليبسط سلطانه عليها، فالحفصيين لم يلبث الضعف أن أخذ سبيله إلى دولتيهم شأنها في ذلك شأن جيرانهم الزيانيين وعرف منهم ذلك بهم فسلكوا جِنات الصواب واستنجدوا بالإسبان، فخفوا إلى نجد بهم مُبيتين لهم الغد إذا ماكادوا يستولون على ثغور البلاد بمساعدة حكامها المخدوعين حتى كشفوا عن نواياهم وتنكروا لهم وقسوا في معاملتهم ولقي سكان تونس من التعسف والظلم والهون ماتندى له الجبين وتَقشعر منه الأبدان [8].

(1) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: علي الشابي، " مصادر جديدة لتاريخ الشابية "، (م، ت، م)، عدد 13-14، تونس،1979، ص17.

(2) -محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في...، المرجع السابق، ص 116 و: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص75.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص283 وأنظر أيضاً: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص415.

(4) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص116 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص685 وأنظر أيضاً: . Haedo Diego, op, cit, p128

(5) ـ مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص92 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص163-164 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص112 وأيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص43.

(6) -أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، بيروت، لبنان 1418ه/1997م، ص67.

(7) –Haedo Diego, op, cit, p129.

(8) -حسن محمد جوهر، تونس، دار المعارف بمصر، 1963م ص46 وأيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص37.

إذا كان اهتمام الجزائر الفعلي بشؤون تونس منذ عهد الباي لارباي خير الدين، عندما شهدت اضطرابات داخلية وخلافات بين أمرائها على الحكم في عهد السلطان مولاي حسن الحفصي (1)، ولكن كان تجسيدها على أرض الواقع حينما كان القبودان خير الدين باشا يقوم ببناء أسطول قوي استعداداً لفتح تونس(2) وكان السلطان سليمان قد اتخذ قراراً بِفتحها، وقام خير الدين بتوجيه حملتة بتأييد من الباب العالي:

-بغية ضمان أمن مصر والسودان الشرقي من ناحية وفرض سُلطانه على إفريقيا المغاربية من ناحية أخرى.

-لأن الجزائر بدون تونس لن تكون لها أهمية كبرى، ولايستطيع العثمانيون تأمين الطريق الرابط بين إستانبول والجزائر، بحكم أن تونس تقع في الحزام الضيق للبحر الأبيض المتوسط الذي تقع على شماله جزيرة صقلية وشرقه مالطا (3) وجنوبه الشرقي طرابلس التي كانت تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا (4) ولتونس أهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للبحر المتوسط وبين مقر الدولة العثمانية وإيالة الجزائر.

-السعي إلى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط لما يمثله من أهمية في التجارة الخارجية.

-سيطرة العثمانين غرباً؛ والإسبان شرقاً على المناطق المحيطة بتونس.

-فقد كانت تونس تتحكم في المضيق الذي يفصل بينهما وبين صقلية.

-كما كان لها أهمية كبيرة في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي كل شمال إفريقيا المغاربية وقد أدرك القبودان خير الدين باشا أهميتها لاسيما وقد عانى كثيراً من مؤامرات سلطات تونس الحفصية منذ دخوله إلى الأراضي الجزائرية (5).

-قرب تونس من شبه جزيرة إيطاليا التي كانت تشكل أحد جناحي الإمبراطوري الرومانية المقدسة (6).

- مجاورة تونس لمالطا نجد فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين لشارلكان وأشد الطوائف المسيحية عداءًا للإسلام.

-الإمكانيات الهائلة التي تنتجها الموانئ التونسية في التحكم في المواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط (7).

---

(1) -محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص160-163 و: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص22.

(2) -حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص314.

(3) -جون . بول . وولف، المرجع السابق، صص 45-46 وأيضاً: محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في...، المرجع السابق، ص 119.

(4)- فرسان القديس يوحنا :في حوالي 1050م تحصل تجار إيطاليون من أمالفي وساليرنو على إذن من الخليفة المصري بإنشاء فندق في القدس لاستقبال الحجاج وأهدي هذا الفندق ليوحنا باتيست ثم تزايد عدد الرهبان العاملين فيه والذين التحقوا من أنحاء العالم المسيحي، ثم أنشئوا فرقاً مسلحة لمرافقة الحجاج عبر سوريا وفلسطين وبعد الحرب الصليبية الأولى تحول هؤلاء إلى تنظيم عسكري وتحصلوا على مباركة البابا باسكال الثاني وفي 1187م تحول التنظيم إلى عكا؛ ثم طرد منها في 1291م إلى جزيرة قبرص وفي 1308م،تحول إلى رودس التي بقوا فيها أكثر من 200سنة وخلال تواجدوا بها استكملوا تنظيمهم وشكلوا خطراً كبيراً على المسلمين ومصالحهم لكن العثمانيين طردوهم منها في 1522م وفي 24-3-1530م،أمضى شارلكان شهادة منح بمقتضاها مدن وقصور وجزر طرابلس ومالطا وقوزوا مع كل الأراضي التابعة لها لفرسان القديس، وذلك في مقابل تقديمهم هدية سنوية لحاكم صقلية عربوناً لتبعيتهم للإمبراطور...للمزيد أكثر أنظر: Genet (R), Malte et son destin, Librairie des facultés, E .Muller, Paris1933, P22.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص283 وأنظر أيضاً: يوسف الثقفي، موقف أوروبا من الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص35.

(6) -عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص149.

(7) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص 916 و: زكرياء سليمان، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، (ع، م)، مصر،1991، ص51.

-وهكذا فقد أقنع خير الدين السلطان القانوني بضرورة الاستيلاء على تونس وضمها إلى الدولة العثمانية لكي يتسنى لها فرض سيطرتها على كامل الشمال الإفريقي [1] خاصة بسط نفوذها على منطقة المغرب الإسلامي؛ وكان رأي السلطان أيضاً بأنها تشكل نقطة هامة في تثبيت الأمن والاستقرار في مكتسباته في المشرق الإسلامي [2].

-وليتخذها قاعدة تموين للمزيد من الحملات البحرية في المنطقة المغاربية للتحكم في الطرق البحرية، في غرب المتوسط فوافق السلطان العثماني على ذلك وآذن له في غَزوها [3].

ثانياً: خير الدين يلحق تونس بالدولة العثمانية:

وفي الوقت التي كانت فيه الأوضاع في تونس تسير على هذا النحو، كان القبودان خير الدين باشا قد أصطحب معه الأمير الحفصي مولاي الرشيد إلى إستانبول ليستخدمه كورقة ضغط ضد السلطان الحسن الحفصي في تونس [4] إزاء ذلك أعطى رشيد أهمية خاصة وخصص له معاشاً محترماً وخصص له معاشاً كبيراً قدره 500 أقجة يومياً مع تأمين كافة احتياجاته؛ ولوازمه ستؤمن من بيت الطعام [5] ومُنح حق الاستقرار في إستانبول [6].

حينها شرع القبودان خير الدين باشا في إعداد الحملة على تونس بعد موافقة السلطان العثماني له [7] ولهذا الغرض جنّد كل الإمكانيات للتعجيل في بناء أسطوله في ترسانات غاليبولي (مقر الإميرالية) وبعد أن أتم استعداداته في إستانبول وإعداد الأسطول العثماني بشكل جيد، غادرها بعد ما زوده السلطان سليمان القانوني بقوة عسكرية مكونة من 80 سفينة و800 جندي إنكشاري و8000بحاراً و800قطعة ذهبية، ثم أذن له بالتحرك باتجاه الشمال الإفريقي، لفتح تونس وطرد الإسبان منها بصورة نهائية [8].

وفي أوائل صيف سنة 1534/946م عندما كان السلطان سليمان القانوني يعبر الأناضول متجهاً لغزو فارس الصفوية؛ والقبودان خير الدين باشا يخرج من (جنة قلعة) ناشراً أشرعة سفنه باتجاه السواحل الإيطالية حيث فجأ ريقه –ريغيو (REGIO-Rigo)وضبط في مينائها 6 سفن فغنمهم وهدم القلعة الموجودة فيها [9]واستولى على قلعتي سانت أو سيدو(Sontusido) وجيرارنو(Girarno) ثم حرقها بعدما أسر سكانهما، كما استولى على قلعة

(1) -جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص51 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص283.

(2) -صالح عباد، المرجع السابق، ص62 وأيضاً: خير الدين المصدر السابق، ص164 وأيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص109.

(3) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص917 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص54.

(4) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص20 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص119.

(5) -أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي...، المرجع السابق، ص68 وأيضاً: عبد اللطيف عبد الله دهيش، قيام الدولة العثمانية، ط2، مطبعة النـهضة الحديثة، العربية السعودية، 1995م، ص125 وأيضاً: محمد سهيل طقوس، من قيام الدولة إلى الانقلاب... ، المرجع السابق، ص 167.

(6) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص20 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ...، المرجع السابق، ص68.

(7) -عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية..."، المرجع السابق، ص 80 و: يوسف الثقفي، موقف أوروبا...، المرجع السابق، ص37.

(8) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص283 وأنظر أيضاً: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الإفريقي، ج6، دار البيارق، ليبيا، 1998م، ص162 وأنظر أيضاً: عبد اللطيف عبد الله دهيش، المرجع السابق، ص141.

(9) – للمزيد أكثر عن أعمال خير الدين في السواحل شبه الجزيرة الإيطالية أنظر: كاتب جلبي، المرجع السابق، صص21-22.

نابولي واستولي أيضاً على قلاع أسبر لونجا(Seperlonga) وأسر منهم 10000شخص وفي فوندي (Kontes de Fundi) أسر150 شخص وقام بتخريب ونهب قلاع سبيرلونغا، وكترارو، فاستولى من ذلك غنائم هائلة [1].

فأثارت غزوات خير الدين باشا عل السواحل الايطالية رعباً كبيراً في أوروبا بأسرها خصوصا لدى البابا الذي بدأ يعتقد أن الأتراك عازمون على فتح روما ولذلك أمر باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة هذا الوضع الخطير [2] على توزيع القوات ضمن أراضيها وبصورة خاصة على سواحلها بهدف التصدي للقراصنة في حال مهاجمتهم تلك المناطق مرة ثانية [3].

كان خير الدين يُوهم جميع القوى الأوروبية والشمال الإفريقية بأن وجهته التي يسير إليها هي روما حتى يصرف أنظار الدول الأوربية خصوصا إسبانية عن مهاجمته في تونس وبهذه الغارات المظفرة تمكن من إجبار أوروبا على تشتيت قواتها على طول سواحلها المطلة على البحر المتوسط كي لا تتعرض لغزو البحارة العثمانيون الأتراك [4].

ولما بلغ القبودان خير الدين باشا مدينة عنابة [5] وجد في انتظاره إمـدادات جـاء بها الحسن آغا [6] في صبيحة 1534/05/15م، رسا الأسطول العثماني في ميناء بنزرت[7] وعندما عَلم السلطان الحسن بذلك انطلق يجول في الشوارع يطلب نجدة الأهالي، لكن شعبه نقم عليه فلم يستجب لندائه "لأن أهل المدينة كرهوا دولته لأنه كان ظالماً عَسوفاً، فعند ذلك كتب أهل المدينة كتاباً إلى خير الدين يستحّثونه في القدوم عليهم ويقولون في ذلك الكتاب :"دارك المدينة قبل أن يتصل عسكرها بمن يدافع عنهم من بعض بني حفص، فعندما ورد عليه كتابهم سافر بعمارته إلى حلق الوادي"[8] وفي اليوم الموالي احتلها بسهولة؛ ودخلها دون عناء وأنزل قواته إلى البر فاستقبله الأهالي بترحاب كبيرو أعلن الدعوة باسم السلطان العثماني على منابر بنزرت، مما يعني إلحاقا رسميا لتونس بدولة العثمانية [9].

---

(1)- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج2، دار القصبة ، الجزائر،2006م،ص62 وأيضاً خير الدين، المصدر السابق،ص164 وكذلك: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص109 وأنظر أيضاً: عبد اللطيف عبد الله دهيش، المرجع السابق، ص121.

(2) -اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص417 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص284.

(3) -كاتب جلبي، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ...، المرجع السابق، ص112.

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص284 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص68.

(5) – بأّن خير الدين توجه أولاً إلى الجزائر، للمزيد أنظر: المؤرخ التركي Uzunca rsili (I-H) Osmanli Develetinin merez ve mercea ve bahriye teskilati, Turk tarih kurumu basimevi, Ankara, 1984, p322.

(6) – حسن آغا: هو علج من أصل سرديني، أختاره خير الدين خليفته عنه في حكم الجزائر، عندما توجه إلى إستانبول في سنة 1533م في عهده تعرضت الجزائر لحملة ضخمة قادها الإمبراطور شرلكان سنة 1541م استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته 951هـ/ 1544م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي بإستانبول الحاكم الجديد، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة للمزيد أنظر: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص84 وأيضاً: إبراهيم سعيود علاقات الجزائر بالدويلات الإيطالية خلال القرن 17م والقرن18م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، الجزائر، (1999-2000م)، ص43.

(7) –كان الجيش يتكون من1800 إنكشاري و6500إغريقي وألباني و600من المرتزقة الإسبان، أما القوات البحرية فكانت تتكون في البداية من 84 مركباً، 6منها رجعت إلى إستانبول و10إلى الجزائر و15 إلى عنابة و15 إلى بنزرت للمزيد أنظر: Haedo Diego, op, cit, p54

(8) ـ مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص92 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص41.

(9) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص11 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص 685 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص 20.

ثم تقدم نحو تونس في 18 أوت 1534م ب: 5000 من سواري الفرسان (1) استولى بهم على قلعة المدينة (2)حيث فتحت له أبوابها (3)وبذلك زال الحكم الحفصي في تونس لأول مرة، (4) إذ تمكن منها بدون صعوبة (5) واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد مُستنجداً بالإسبان (6) وأُعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بَدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي (7) وصُودف أن قامت في البلاد انتفاضة شاملة ضد الحكم الحفصي وأرسل زعماء الشعب وفداً إلى خير الدين يطلبون منه الحضور إلى العاصمة (8) استجاب خير الدين لنداء الاستغاثة ونجح في النزول إلى الشاطئ ثم توجه إلى قصر القصبة حيث تسلم الحكم(9) وأعلن خُلع الأسرة الحفصية وانضمام تونس إلى الحكم الباب العالي وهذا ما يسرده لنا المؤرخ السرّاج:"وفي أيامه جاءت عمارة الترك لأخذ تونس وأخذها وفر عنها الحسن ودخل خير الدين إلى تونس واستقبل بقصبتها وكانت بينهم مقتلة عظيمة مات فيها خلق كثير من الفريقين ونادي المنادي بالأمان من قبل خير الدين وانكف الفريقان"(10).

هرب مولاي حسن بينما يتم إلقاء القبض على أنصاره الذين تصدوا للأتراك وسجنوا في القلعة، كما تم إعدام بعض الزعماء الذين وضعوا ترتيبات المقاومة (11) وعندما علم مولاي الحسن بنزول خير الدين فر هارباً إلى الصحراء مستجيراً بحلفائه من أعراب البوادي (12) إذن فإنزال الذي قام به الأسطول العثماني في حلق الواد والدور الذي لعبه رشيد أخو السلطان مولاي حسن مكن القبودان خير الدين باشا من تحقيق هدفه.

ولكن فوجئ التونسيون بعدم استصحاب خير الدين باشا لمولاي الرشيد فأدركوا أن بلادهم سوف تحكم باسم السلطان العثماني وليس باسم سلطانهم الحفصي الجديد الرشيد الذين كانوا ينتظرون قدومه مع خير الدين باشا (13) ولقد كان أهالي تونس قد ألفوه الإدارة الحفصية، ولم يكن في وسعهم هضم فكرة زوال دولتهم

---

(1) -عبد القادر فكاير، آثار الاحتلال الإسباني على الجزائر خلال العهد العثماني (10هـ.12هـ=16م.18م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، (غ-م)، الجزائر (2008م.2009م)، صص100-101 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص153.
(2) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص104 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص48.
(3) - Haedo Diego, op, cit, p54.
(4) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، صص 330-331 وأنظر أيضاً: يوسف الثقفي، موقف أوروبا...، المرجع السابق، ص43.
(5) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص230 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص877.
(6) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص319 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع..."، المرجع السابق، ص19.
(7) -محمد عبد اللطيف البحراوي، المرجع السابق، ص128 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص51.
(8) —عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص112-113 وأنظر: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال...، المرجع السابق، ص121.
(9) —إيفانوف نيقولاي الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ج3، ص165 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص113.
(10) — محمد علي الصلابي، صفحات...، المرجع السابق، ص166و: محمد بن محمد السراج الأندلسي التونسي، المرجع السابق، ج2، ص203.
(11) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص112 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص50.
(12) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص11 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص45.
(13) -Haedo Diego, op, cit, p56.

على هذا النحو المفاجئ لقد كانوا يأملـون في استبدال سلطان فاسد بآخر أصلح منه، أما أن يتم القضاء على دولة شب عليها الصغير وشَاب عليها الكبير بهذه السرعة وعلى هذا النحو فهو ماكان بالغ الصعوبة بالنسبة لهم[1] وهم الذين عاشوا ثلاثة عصور تحت حكم الحفصيين، والأن سيخضعون لإدارة العثمانيين بقوة شديدة، تخوفوا كثيراً وفضلوا حكم بن حفص على حكم آل عثمان[2] ولاشك أن الدعاية السيئة التي أشاعها الأمير الحفصي المخلوع وأنصاره عن الأتراك قد لعبت دوراً كبيراً في تأليب الرأي العام عليهم ودفع أهالي تونس إلى الانقلاب على القبودان خير الدين باشا قبل أن يفيقوا على هَول الصدمة التي أحدثتها حملة الإمبراطور شرلكان على تونس خلال تكملة محاولة الباي لارباي خير الدين ضم تونس الحفصية إلى الدولة العثمانية [3].

وعقب استيلاء القبودان خير الدين باشا على تونس أرسل بعض أعيان المدينة سراً إلى السلطان مولاي الحسن يدعونه إليهم مُعلنين تبرأهم من ولائهم للباي لارباي خير الدين، وانضمامهم إليه ووعدوه بالمساعدة على طرد العثمانيين [4] وبدأوا يُهيؤون أنفسهم لمساعدته لاستيلاء على الحكم ثانيً [5] وفعلاً تشجع مولاي حسن وجمع قواته ومن انضم إليه من أنصاره واتجه إلى مُهاجمة تونس[6] وفي 18 من نفس الشهر و قف الباي لارباي خير الدين على رأس 4500مجاهد أمام باب الجزيرة وفي حين حضر الحسن برفقة 4000فارس وفي بداية المعركة كانت الغلبة للحفصين الذين طاردوا العثمانيين وحاصروهم في القلعة وفي اليوم الثاني نَظم خير الدين حملة أخرى، تتكون هذه المرة من الأتراك والأندلسيين وكان عددهم1800 حيث هاجموا المدينة، مما دفع السلطان المخلوع إلى الهروب والنجاة ومن معه، بعد ماقُتل من رجاله 300جندي، بينما قُتل من رجال خصومه 80 أما الأهالي فأعلنوا ولاءهم لخليفة المسلمين بإستانبول[7].

أما مولاي حسن لجأ إلى القيروان وقد كانت أنذك تحت حكم عرفة الشابي [8] حيث أستطاع أن يجمع 15000 من أنصاره فأجابوه والتفوا حوله إليه ومايإن سمع خير الدين باشا حتى جمع 15000جندي و30مدفعاً [9] وألتقي الجمعان في الصحراء لكن ما إن شرعت القوات العثمانية في القصف المدفعي؛ حتى ولى السلطان الحفصي المخلوع مع قواته منهزمين التي لم يَكن لهم عهد بالمدفعية وبادروا إلى إعلان استسلامهم وخُضوعهم

(1) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص285.
(2) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص23 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، المرجع السابق، ص113.
(3) -عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص145 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 286.
(4) -Haedo Diego, Op. Cit ;P55.
(5) –أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص32.
(6) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص24 وأنظر أيضاً: Haedo Diego, Op. Cit , P56
(7) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص92، وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، صص183-184 وأنظر أيضاً: محمد سهيل طقوس، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، المرجع السابق، ص 171.
(8) – علي الشابي، المرجع السابق، ص21 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص134.
(9) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص24 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، المرجع السابق، ص113.

للخلافة [1] وبعث إليه المشايخ والأعيان طالبين منه الصلح [2] وأقبلوا عليه مقدمين له فروض الطاعة والولاء [3] وهرب مولاي الحسن الحفصي باتجاه بجاية ثم إلى بلد الجريد مُلتجأً إلى الإسبان [4] أسوة ببقية أمراء إفريقيا المغاربية!

وقام الباي لارباي خير الدين بإرسال الرسائل إلى المناطق المجاورة يشجعهم على القاء القبض عليه، وقد وجه أيضاً رسائل إلى بعض عساكره في الجزائر، يأمرهم فيها بتفاهم مع القبائل بغية تحريضهم ضد الحسن الحفصي الهارب؟ في حين انشغل بإدارة وتنظيم البلاد التونسية [5] وسعى إلى التحالف مع الأعراب [6] واستعملهم في الاستيلاء على بعض المدن، وأقام حاميات عثمانية بالقيروان وغيرها، والاستتباب الأمن طلب من حسن آغا خليفته على الجزائر300إنكشاري و400 فارس [7] ونتركه هو يصف لنا ماجرى"كان أول خروج لي بصفتي قبودان داريا بعد حملة صقلية أني توجـهت إلى جزيرة سردينيا، ومن هناك إلى الجزائر ثم تونس التي فر سلطانها من شدة الخوف تاركاً عاصمة مُلكه ولجأ إلى الصحراء، فدخلت مدينة تونس وفتحت سائر نواحي المملكة حتى بلغت القيروان في الجنوب ثم قفلت راجعاً إلى تونس [8].

ثم بدأ له توسعة ميناء مدينة تونس، فاستخدم الارقاء من النصارى في الشق قنال حلق الوادي، الذي يمتد من البحر إلى البحيرة [9] وكانت للقوة الحربية العثمانية أسلحة متطورة، يضاف لها التنظيم العسكري العالي مما جعل تفوقهم على خصومهم الحفصيين أمراً لانقاش فيه، حيث أن هؤلاء المهزومين لم يُعد باستطاعتهم تجنيد الجيوش النظامية، نظراً للضعف التي آلت إليه الدولة كما أن وسائل دفاعاته لم تكن تُساير التطور الحاصل أنذك فقط كانوا يحاربون على حد بروديل: "كرفاق عقبة بسيف والرمح ومالى ذلك "[10] وزيادة على هذا يضاف إليها جزء ضئيل من الجنود جاءه من الجزائر ومالنضم إليه من الأهالي أثناء حَربه مع السلطان المخلوع وكان الباي لارباي خير الدين؛ يتوقع مثل هذا الهجوم إثر تكملة فتحه لتونس، لذلك عمل على ترميم القلعة والأسوار بعد فرار السلطان الهارب؟ مولاي حسن إلى الإسبان!

---

(1) –مجهول، غزوات خير الدين، المصدر السابق، ص94 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص 68 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص113.

(2) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص23 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، المرجع السابق، ص114.

(3) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، صص11_12 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص314.

(4) – عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ج3، ص165.

(5) –مجهول، غزوات خير الدين، المصدر السابق، ص93، وأنظر أيضاً: Haedo Diego, Op. Cit ;P56.

(6) – إعترف خير الدين للمشائخ بامتيازاتهم العقارية والجبائية. للمزيد أنظر: محمد الحبيب العزيزي، ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث، المحلة التونسية نموذجاً، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006 –2007)، (غ –م)، ص 237.

(7) –Mgr Pavy, «La piraterie barbaresque », In R.A, No. 2 Année, Tunis, 1857, PP 320-321

(8) –خير الدين، المصدر السابق، ص171 وأنظر أيضاً: مجهول، غزوات خير الدين، المصدر السابق، ص104.

(9) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص32، وأنظر أيضاً:Haedo Diego, Op. Cit ;P56

(10) –دلندة الأرقش، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، ميدياكوم، تونس،2003، ص53 وأيضاً: Fernand Braudel, LA Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, t 2,1936, p13

بعدما فر السلطان الحفصي يستنجداً بالإسبان وقد تمكن خير الدين باشا من الدخول إلى تونس في ذلك الصيف بسهولة وذلك أولاً لأن قوات الحفصيين قدر أنهم لاقبل له بمواجهة الحملة العثمانية، ففر منها زعيمهم وذهب يسعى للحصول على عون القبائل التونسية وكذا عون الإسبان(1) وثانيا لأن أهالي تونس كانوا يظنون أن الحملة العثمانية جاءت كما أشيع إعانة للرشد ونصرة له على أخيه الحسن، فلم يبدوا أي مقاومة بل رحبوا به ولكن إعلان ضم تونس إلى الدولة العثمانية وعدم تمكين الرشد من الحكم فيها وعدم إحضاره أصلاً معه، خيب أملهم، فحمل بعضهم السلاح ضده وحدثت بينهم وبين قواته مقتله عظيمة، مات فيها خُلق كثير، بعد أن تمكن خير الدين باشا من تهدئتهم(2)، إلا أن الأمر لم يستتب له في تونس أولاً لأن بعض الزعماء تواطؤوا مع الحسن على العودة خِفية إلى المدينة وقيادة المقاومة فيها ضده وثانيا لأن خير الدين الذي نجح في هزم الحسن وأنصاره في تونس(3) وألحق الهزيمة بجموعه بعد ذلك في القيروان (4) لم يتمكن من القضاء النهائي عليه.

وثالثاً: فان مولاي الحسن لاذ بالفرار موليا وجهه شطر الإمبراطور شرلكان مستنصراً به لاستعادة عرشه من جديد (5) لأن الحسن المهزوم الذي مال إلى طلب مساعدة الإسبان له وجد لديهم التجاوب المرغوب، لأن وجود خير الدين باشا في تونس وضمة لها إلى الدولة العثمانية قد أزعجهم كثيراً (6) فاستجابوا له وبذلك أصبح الصراع دوليا على تونس.

وهذا مايذكره لنا خير الدين بقوله: " لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بالملك شارلكان لاستعادة عرشه، فلبي هذا الأخير الدعوة وعلمت بأنه سوف يتوجه إلى تونس لإخراجنا منها ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعداد له "(7) ومن الآن فصاعد لم تعد حياة خير الدين باشا مرتبطة بالشمال الإفريقي، بل أصبحت مرتبطة بالتاريخ العثماني الإسلامي فهو قائد ماهر وبحار من الدرجة الأولى وخبير بالسياسة وفي ذلك الزمن كان إدارياً من الطراز الأول، وهذا ما قاله المؤرخ فوربيكه (Forbige): " إن الفاتح الحقيقي للجزائر هو الرئيس عرّوج وكان يقول: بغية الاحتفاظ على هذه السواحل يجب السيطرة على المناطق الداخلية، وكان الرئيس خير الدين مقتنعاً بهذه الفكرة، وقد عمل بصورة جدية على تحقيقها وتطبيقها كما عمل على تشكيل حكومة مُوحدة لكافة مناطق الشمال الإفريقي(8) المغاربي؛ ومركزها مدينة الجزائر التي أصبحت عاصمة إقليمية لها.

وبتمكن الباي لارباي خير الدين من الدخول الى عاصمة الحفصيين تونس ووضعها تحت سُلطة الخلافة العثمانية وبذلك أضحت تحت حكمهم في الجزائر الأمر الذي جعل الإمبراطور شارلكان يشعر بخطورة الوضع الجديد؛ نظراً للأهمية البالغة لتونس في الاستراتيجية الإسبانية، والذي سيدعم قوة السلطة العثمانية بالجزائر ويُضعف المراكز الإسبان في كل

(1) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص92 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص ص54-56.
(2) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص13 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص44.
(3) –شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص331 وأيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص127.
(4) –محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص164 وأيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص53.
(5) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2 ص12 وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص229.
(6) –شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص331 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2 ص13-14.
(7) –عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: خير الدين، المصدر السابق، ص172.
(8) –محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في...، المرجع السابق، ص173 و: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص290.

من بجاية ووهران فقد كان رد الفعل سريعاً وقوياً فاستغل الإمبراطور شارلكان التجاء السلطان الحسن الحفصي إليه واستنجاده به ليخطط لحملة ضخمة على تونس لإخراج خير الدين باشا منها وإعادة الملك فيها إلى السلطان الحفصي [1].

ولاننسى بأن السلطان العثماني سُليمان القانوني مستمراً بحربه مع الفرس الصفوين؛ ولكن أخبار خير الدين باشا كانت تصله كاملة فاستغل البابا انشغال الدولة العثمانية بحروبها الخارجية وبدأ يحرض الملك شرلكان على الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية لغزو تونس وكان العداء بادئ الأمر مقصراً على الجزائريين والإسبان والأن أصبح بين السلطان القانوني وشرلكان ومنذ القرن10 هـ/16م تركز الصراع بشكل أساسي في مثلث تونس . مالطا . طرابلس، واكتست الهيمنة عليه أهمية حاسمة بالنسبة إلى نتائج المواجهة بين الدولة العثمانية من جهة وإسبانيا من جهة أخرى[2].

وبسيطرة خير الدين على تونس، شُلّت حركة شرلكان .(Charles Quint) في المنطقة، فقام هذا الأخير برد فعل قوي، تمثل في تسير حملة على تونس 1535م، كانت لها تداعيات عدة، من أهمها تفكير شرلكان الجدّي بضرورة تعجيل في تكملة السيطرة على المنطقة المغاربية المتوسطية.

2 – الحملة الإسبانية الأولى (الإمبراطور شرلكان) على تونس: (942هـ/1535م) [3]:

بعد ماأصبحت تونس تابعة للدولة العثمانية، لم يبق للإمبراطورية الإسبانية أمل في عزل الأيالة الجزائرية لأن الوضع الجديد للنفوذ العثماني الإسلامي في تونس وانعكاسه على الحوض الغربي للمتوسط، يفقد الإسبان المفتاح الكبير! لبوابة المضيق بين الشرق المتوسط وغربيه بحيث لم يبق لها سوى المفتاح الصغير! المتمثل في صقلية.

تضررت الإمبراطورية الإسبانية من نجاح القبودان خير الدين باشا في مُهمته في الشمال الإفريقي بخسارتها حلفائها الحفصيين المهمين لها؟ والأهم مِنطقتهم بحد ذاتها! والتي أصبحت سُمعتها على المحك وهيبتها على حافة الانهيار، وقُوتها في خطر، وينعكس كل هذا الإمبراطور الرومانية المقدسة في ألمانيا وإيطاليا وكذلك هولندا والإمبراطورية النمساوية، وغيرها من التحالفات الأوربية مع الإمبراطورية الإسبانية والتي كانت تُدافع عن أوروبا المسيحية من الخطر العثماني في غرب ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين الإمبراطور شارلكان وبين باي لارباي خير الدين الجزائر كان بمثابة فتح جبهة عسكرية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي[4].

كان لانضمام تونس إلى الحكم العثماني، أصداء بعيدة في أوروبا المسيحية عامة وفي إسبانيا بشكل خاص، لأن هذا الانتقال في السيادة أثار قلقاً لدى زعيمها الدنيوي شارلكان نظراً للموقع الاستراتيجي لتونس وإلى النجاح العثماني على أنه تهيد مباشر وحقيقي لإسبانيا ولتجارتها، لذلك قرر غزو تونس بحجة الاستجابة لنداء المساعدة الصادر عن السلطان الحفصي مولاي الحسن وفرسان مالطة [5].

---

(1) –عمار بن خروف، نظرة عن العلاقات السياسية...، المرجع السابق، ص 83 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص318.

(2) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص229 و: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ...، المرجع السابق، ص175.

(3) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم17: حول الحملة الإسبانية على تونس 1535م.

(4) –جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص57 وأيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص335.

(5) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص916 وأيضاً: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص194.

أولاً – دوافع حملة الامبراطور شرلكان على تونس:

لم يبقى شرلكان زعيم أوروبا مكتوف الأيدي أمام انتصارات العثمانيين في المنطقة الغربية للمتوسط ونظراً للأهمية البالغة لهذه المنطقة في الاستراتيجية الإسبانية فقد كان ردّ الفعل سريعاً جداً [1] فعزم على تسير حملة عسكرية إليها تونس يدفعه إلى لذلك عدة أسباب، نذكر من بينها مايلي:

أ – الموقع الجواستراتيجي لتونس: نظراً للموقع الاستراتيجي الذي تحتله تونس في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط، فإنها كانت محطة أنظار شرلكان[2]، لذلك قام هذا الاخير بإرسال جاسوس طاف بتونس سنة 1533م هو الضابط أوشوا درارسيلا Ochoa d'Ercilla [3]ومما ورد في التقرير الذي كتبه أنّ الحفصيين أبدوا استعداداً لتعاون مع شارلكان، كما حذّر من امتداد النفوذ العثمانيين على تونس تساعدهم كثيراً في السيطرة على ماتبقي من المنطقة وبالتالي سيتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا مايخشاه العالم المسيحي[4]، ومما أوحى به أيضاً إلى شرلكان "أن التآمر على تونس أسهل من الجزائر وأكد أن احتلال تونس سيسهّل على ملك إسبانيا احتلال إفريقيا ويجب البدء باحتلال جزيرة جربة "كما اقترح في الحملة على تونس مشاركة 6000رجل و20أو 24مركباً، مع10أو 12سفينة نقل [5] أخذت هذه المذكرة مأخذ الجد ودرست بعناية من طرف الملك وحاشيته وبعثت نسخة منها بأمر من شرلكان إلى الأمير أندري دوريا (Andrie Doria) [6].

ثم كان استنجاد الملك الحفصي مولاي الحسن بالإمبراطور شرلكان؛ بالإضافة إلى مشاورة فرسان القديس يوحنا له لكي يقدم لهم العون اللازم لموجهة الخطر الذي بات الخطر العثماني يُشكله على وجودهم في جزيرة مالطة التي لجؤوا إليها بعد ماأخرجوهم من جزيرة رودس [7] والمراجعة التي أجرتها السلطة الإسبانية تبين لهم بوضوح أن الخطر ليس ضدهم فقط وإنما ضد البرتغال شركاءه في المنطقة المغاربية الأطلسية، فقبل شارلكان عرض فرسان مالطة بشأن تقديم المساعدة لهم ولمولاي حسن، فاستدعاه ووعده بإعادته لعرش ومملكته وجاء قرار شرلكان في وقت غدا الأتراك أقوياء بعد حصولهم على تونس، وأصبح حكام الحكومات الصغيرة مؤيدين للأتراك، فقد أعلن حاكم تلمسان تمرده على الإسبان وقرر مهاجمتهم في وهران! ومنذ زمن طويل و(ماركي دي غوماس) يطلب نقله إلى إسبانيا وبسبب تأزم الأوضاع وتصميم شرلكان على واجهة الأتراك، قبل طلبه وعين

---

(1) - Zeller (G), Histoire des relations internationales ,LES Temps modérons de Cristoph Colomb à Cromwell, Sous la direction de Pierre Renouvin, Hachette, Paris 1953, T2, P59.

(2) – محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص418.

(3)– قائد إسباني كان سجينا في تونس، أطلق الحسن الحفصي سراحه سنة 1533م للمزيد أنظر: Haedo Diego, Op. Cit ;P57.

(4) - كاتب جلبي، المرجع السابق، ص25 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص149.

(5) - Haedo Diego, Op. Cit ;P57.

(6) – ولد بجنوة سنة 1468م انضم لفرسان القديس يوحنا وبعدما تحررت جنوة من السيطرة الفرنسية ،جهز 8بوارج بوسائله الخاص لمهاجمة السفن العثمانية، بعد ذلك دخل في خدمة فرنسوا الأول وبعد معركة بافيا 1525م تخل عنه ودخل شرلكان سنة 1528م للمزيد أنظر: Belhamissi (M) ,Histoire de la Marine Algérinne. (1516-1830). (E.N.A.L). Alger 1986, p61

(7) –جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 63 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص227.

مكانه (الكونت دالكودت – Kont D'alkodet)عمل هذا الأخير قصارى جهده للحد من انشار الثورات وعدم انتقالها إلى المناطق الأخرى، لأن قواته لم تكن قادرة على إخماد الثورة في المناطق الخاضعة له [1].

كل هذه العوامل كانت دافعاً قوياً لكي يقرر الإمبراطور شرلكان غزو تونس ليس رغبة في إعادة الملك الحفصي إلى عرشه أو دفاعاً عن فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة وإنما ليضمن لنفسه قاعدة عسكرية مهمة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط وليطرد العثمانيين من المنطقة وليواصل الانتقام من المسلمين في شمال أفريقيا[2] تحقق له الأهداف الاستراتيجية أهمها:

1-تأمين سواحل شبه الجزيرة الايطالية من غارات الغزاة العثمانيين والجزائريين.

2-تأمين خطوط المواصلات البحرية بين جناحي أوروبا المسيحية شبه الجزيرة الابيرية وايطاليا.

3-تأمين الحماية اللازمة لفرسان القديس يوحنا في مالطة الذين وكلت إليهم مهمة السيطرة على طرابلس الغرب.

4-والأهم من هذا كله محاولة قطع خطوط الموصلات بين الأسطول العثماني الذي يقوده خير الدين، وقواعده في الجزائر، وتكملة محاصرة مدينة الجزائر من الشرق مثل الغرب (وهران وضواحيها)، تمهيدا للخطوة التالية الرامية إلى احتلالها والقضاء النهائي على الوجود العثماني في شمال إفريقيا [3]، المغاربي.

لكن انتقال تونس إلى سُلطة العثمانيين، آثار قلقاً جدياً لدى شرلكان، لأنه أظهر خطراً حقيقياً يهدد أوترانت وكالابري" والأهمّ أنه يهدد صقلية التي كانت تعتبر كندا القرن 16م التي تُطعم بقمحها نصف أوروبا" واعتبر أيضاً خطراً يهدّد إسبانيا نفسها، فمسلموها (الموريسكيون) كانوا على استعداد دائم لتقديم العون إلى العثمانيين إذا ما غامروا في شن هجوم على إسبانيا الكاثوليكية [4].

فقام شرلكان بإيفاد جاسوس أخر إلى تونـس سنة1534م هو لويـس بـريزيندا (Luis Presenda) الذي تنكـر في زي تاجـر وقد ورد في مذكراته التي بعث بها إلى الإمبراطور 1534/11/7م مايلي [5]:

- إذا كان السلطان الحسن الحفصي في تونس، سيحاول بريزيندا الإيقاع بينه وبين الباي لارباي خير الدين ويقنعه بطلب العون من الإمبراطور شرلكان لطرد العثمانيين من بلاده.
- أما إذا كان السلطان الحسن الحفصي خارج تونس مع العرب وخير الدين هو السيّد في تونس فإنه يحاول الاتصال بالحسن الحفصي ويعده مساعدة الامبراطور للدخول إلى تونس.
- ينظم لمحاولة لقتل القبودان خير الدين باشا، كما يوقع بينه وبين قواده لتخلي عنه ولإثارة البلبلة وسط الجيش.

(1) –أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في التاريخ...، المرجع السابق، ص135 وأيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص321.
(2) – لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص 124 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص150.
(3) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص227 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص55-56.
(4) –إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص230 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص52.
(5)- Zeller (G), op .cit, P59.

كما اقترح بأنه يستطيع ان يكون صديقاً لخير الدين باشا ولكي يمكن له ذلك يجب أن يسوّد على إفريقيا ومناطق المغرب المجاورة لإسبانيا وبالتالي يكون جار إسبانيا طاغية يهدّد مصالحها في أي لحظة، لكنه نصح بعدم الدخول في مفاوضات مع خير الدين باشا، لأنه يعرف مدى إخلاصه للخليفة العثماني.

كما أن الراهب خوان دي إيريس، أوصى الدكتور أرسيلا(Ercilla)مستشار الإمبراطور بالتعجيل بالحملة التي يتم التحضير لها واقترح أن تكون في شهر مارس/1535م، كما رأى بأن نجاح الحملة سيعزل الجزائر ويسهّل احتلالها ومن ثمّ ضمّها مع طرابلس وتونس إلى الإمبراطورية الواسعة التي لاتغيب عنها الشمس [1] لأن انتصاب العثمانيين في تونس يعتبر من ناحية أخرى تهديداً مباشراً للبابوية والمماليك الإيطالية [2].

ب – استنجاد السلطان الحسن الحفصي بالإمبراطور شارلكان:

بعد تيقّن السلطان الحسن الحفصي بأن لاأمل له في الانتصار على خير الدين باشا، عزم على ارتكاب مظهر آخر من مظاهر المأساة التي قضت على السيادة الإسلامية في الأندلس، أي استنجاد ملوك المسلمين ضد بعضهم البعض بملوك الإسبان، لكنه يعيد هذه المأساة بصورة أبشع وأفظع [3] فتشيع من قائد فرسان مالطة باتصاله بنائب ملك نابولي وبعد نصيحة منه وجّه رسالة إلى الإمبراطور شارلكان، تحمل معنى التآمر والخيانة جاء فيها: "إن رئيس الترك باربروشة ظلمني وأخذ مـلك آبائي وأجدادي من يدي وكان الحامـل له على ذلك ما علمه بيني وبينك من الصداقة والموالاة، فالواجب عليك أيها الملك أنك تُعينني على رد مملكتي فإن استولينا عليها تكون البلاد لك وأنا أكون كالنائب فيها"[4] وهذا هو حال الأنظمة الكلاسيكية القديمة التي تتصارع فيما بينها وتستنجد بالمسحيين لتثبيت اسمها ولو رمزياً، لهذا كان في رأيهم أنه يجب القضاء على خير الدين باشا الذي هو خطر على هذه الأنظمة في المنطقة وعلى المشروع الإسباني أيضاً، وهو مادفع الحسن بالاستنجاد بعدوه وعدو الاسلام ملك الاسبان الذي كان يطمح ان يمحو أثر العثمانيين ببلاد المغرب وعلى رأسهم خير الدين وقد اجابه إلى طلبه[5]، بعد ان استغل البابا فرصة الاستنجاد! وبدأ يحرّض شرلكان شخصياً موضّحا له أنّ وجود العثمانيين في الجزائر يحدّ كثيراً من نشاطه السياسي والاقتصادي، كذلك فإن دخولهم إلى تونس خاصة، يشكّل ضرراً كبيراً على العالم الأوروبي المسيحي عامة؟ وعلى الزعامة الإسبانية له خاصة!

وكان الموقف ملائماً بالنسبة لإسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس؛ باستعداداتها لافتكاك بغداد منهم، كما أن ريح الوحدة الصليبية كانت تهب

(1) - Genet (R), op .cit, P22.

(2) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص690 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 67.

(3) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص25 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص132.

(4) – محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ...، المرجع السابق، ص176 و: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص95.

(5) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص 13 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص891.

على أوروبا التي تناست حتى خلافتهما المتعلقة بالإصلاح الديني، فقد وافق الأمراء والنبلاء الإيطاليون والألمان على أي حملة ينوي زعيمهم شارلكان القيام بها ضد شمال إفريقيا [1]؛ المغاربي.

وطغى على الصراع في أوروبا هدوء الذي يسبق العاصفة، بوعد فرنسوا الأول ملك فرنسا الإمبراطور شارلكان بالحياد على لسان ممثله مونتمورنسي (Montmorency)[2] أنها لاتهاجم إمبراطورتيه أثناء الحملة [3] وقد كان بينهما عداوة كبيرة[4] ومع هذا ترددت السلطة الإسبانية في اختيار المكان الذي ستوجه إليه ضربتهم في شمال إفريقيا (الجزائر أو تونس)، لكن كل هذه الاعتبارات جاءت في الترتيب بعد استجاب شارلكان بسرعة ملحوظة لنداءات المساعدة الصادرة عن السلطان الحفصي مولاي حسن وقرر القيام بحملة عسكرية على تونس كان يهدف من ورائها إلى عَزل[5] المتعثمنيين المغاربة عن المشرق وعن إستانبول، وعلى الأساس تم اختيار تونس لهدف الحملة في قطع الطريق الرئيسي الرابط بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط والتحكم فيه [6].

ثانياً – التحضيرات الإسبانية للحملة المسيحية ورد الفعل الإسلامي:

أ – الاستعدادات الإسبانية للحملة:

شرع شارلكان في إعداد حملة صليبية فقد أورد مارمول (Marmaul)بأن الإمبراطور شرلكان قد أعطى أوامر سرية بتحضير سفنه الموجودة في موانئ إسبانيا وصقلية وجنوة ونابولي بالإضافة إلى سفن لنقل المؤونة والغذاء وأن تشتري الأقوات والذخائر وغيرها من لوازم الحرب، كما كتب إلى الدون يان(Don Yan)ملك إسبانيا" بأن يبعث إليه غليونه وكذا عدداً من قطع أسطوله الحربي"[7]وحسب رسالة موجّهة من أسقف دي لافور إلى فرنسوا الأول(Françoise I)[8] بتاريخ(1535/6/18م)ورد فيها" أن السيد فيرون غونزاغ(Ferrand

---

(1) - Fernand Braudel ،Les Espagnols …, op .cit, p336.

(2)- مونتمورنسي (Montmorency) ولد سنة 1492م، قائد جيش شارك بمعركة مارينين (Marignan) سنة 1515م ومعركة بغينيا سنة 1520م،تولى عدة مناصب بقيادة الجيش الفرنسي. للمزيد أنظر:.Moulay Bellhamissi, Histoire de…, op, cit, p39

(3) - Fernand Braudel ،Les Espagnols …, op .cit, pp 366-367.

(4) – عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن17، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، الجزائر،1984م، ص6.

(5) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ص34 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص137.

(6)- Fernand Braudel ،Les Espagnols …, op .cit, p353.

(7) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص33 وأنظر أيضاً : لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص137.

(8) – ولد سنة 1494م، حكم فرنسا سنة 1515م، كانت أيامه مصروفة لمحاربة شارلكان الذي كان من مقاصده إخضاع أوربا كلها لسيطرته فقاومه بعنف وساعده سليمان القانوني، كما أعلى شأن الجندية، وبسط الزراعة والصناعة، وصارت فرنسا في عهده روضة أوروبا الزاهرة بالحضارة والمدينة، لكنه مات مقتولاً سنة 1559م، للمزيد أنظر: وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن 20م، ج7، دار الفكر ، لبنان، (د-ت)، ص242.

Gonzague) [1] حصل على تفويض الإمبراطور لتجميع عدد كبير من الأحصنة ووضعها في حالة الاستعداد كما أنه لم يبق في نابولي سفينة واحدة ولارجال ولاخيول[2].

كانت الحملة التي قادها شارلكان ضخمة، فقد كان جيشها مكوّناً من كتائب الإسبانيين والإيطاليين والألمانيين والهولنديين ونابوليون وصقليين بالإضافة فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة [3] فنزلت أولاً القوات الألمانية ثم تلتها القوات الإسبانية ومن بعدها الإيطالية إلى البر، ويضم الأسطول قرابة 400سفينة من مختلف الأنواع والأحجام، بما في ذلك 90سفينة مماثلة على متنها 26000من جنود المشاة وقرابة ألفي فارس [4] ومنهم من قال: 30000 مقاتل على ظهر500 سفينة [5] كما كان على رأس تلك القوات: القائد أندريا دوريا [6] ودوق ألبا ومركيز دي غواست وأمير ساليرنو ومركيز دي مونديجار وغيرهم من أبناء العائلات الإسبانية والإيطالية النبيلة أما القيادة العامة فتولاها شارلكان شخصياً [7] وفيما يلي بيان بالتفصيل لقوات هذه الحملة [8].

-الأسطول ويشكل من عدة فرق: جميعها تحت إمراه الأميرال أندري دوريا وهي:

-فرق سفن إسبانيا وجنوه والفلاندر البلجيكية 54 قادساً شراعياً، و70سفينة كبيرة و24مركبا.

-فرقة سفن البرتغال:27سفينة، تحت إمرة أنطونيو سالدانا.

-فرقة سفن إيطاليا ومالطا: 36قادساً شراعياً و28سفينة كبيرة، تحت إمرة الفاردو دو بازان.

-الجيش البري المحمول ويشكل من: 1) المشاة يتكون من:

-قوات إسبانية (القوات القديمة التي خاضت حرب إيطاليا): 4000رجل تحت قيادة الجنرال المركيز دي جوزات.

-قوات إسبانية (المجندون الجدد): 8000رجل، تحت قيادة دوق ألبا.

-قوات ألمانية:7000 رجل، تحت قيادة مكسيمليان بيدرا بونيا.

-قوات إيطالية: 1000رجل، تحت قيادة الفتى لويس البرتغالي.

(1) -فيرون غونزاغ ولد سنة 1507م ب: قاستالا(Guastalla)، ينحدر من عائلة ملكية بإيطاليا، شغل عدة مناصب منها نائب للملك بجزيرة صقلية، ثم حاكماً لمدينة ميلان الإيطالية سنة 1547م، توفي ببروكسل سنة 1557م، للمزيد أنظر: Moulay Belhmissi, Les Captifs Algériens et l'Europe Chrétienne, ENAL, Alger 1984, P46.

(2)- Ernest Charrière, La Nègociation de la France dans le levant, Extrait de Correspondance de Rome et de Venise ,4T, Paris, (1848-1860), t 1, P268.

(3) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص115 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص20

(4) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص34. وأيضاً: Mercier Ernest, Histoire de L'Afrique Septentrionale, 3T, Ernest Leroux édition, Paris 1888, P37

(5) -اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص420 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص54.

(6) -عمار بن خروف، نظرة عن العلاقات السياسية...، المرجع السابق، ص 80 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص324.

(7) – إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني...، المرجع السابق، صص230-231 و: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي...، المرجع السابق، ص86.

(8) -ألفون روسو، الحوليات التونسية، تعريب وتحرير محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (د –ت)، ص89-88.

2) سلاح الفرسان يتكون من:

-متطوعين من النبلاء ينتمون إلى مختلف الأمم النصرانية: تحت قيادة الماركيز دي مونديجاز.

-سلاح فرسان إسباني: خمسمائة رجل، تحت قيادة القائد السابق نفسه.

وفي يوم1535/30/5م ركب الامبراطور شرلكان البحر من برشلونة، فمر بطريقة إلى كامليار واجتمع شمل الجيش البحري في مرسى ماون في جزيرة مينورقة ولما هدأ البحر أخذ هذا الجيش طريقه إلى سردينيا وعند حلول الملك شرلكان بها وصل إليه المركيز دي جوازت معه 28سفينة نقل و36 من الغاليرات الملكية وعدد كبير من السفن الصغرى [1] وأختار الإمبراطور مدينة كاغلياري (Cagliari) الواقعة جنوب جزيرة سردينيا المقابلة لتونس لوضع الاستعدادات النهائية [2] حيث استقر بها مدة يومين وفي14 جوان انطلق منها بأسطولاً ضخماً قاده بنفسه متجهاً به نحو تونس [3] لإخراج خير الدين منها وإعادة الملك فيها إلى السلطان الحسن [4]. وفي اليوم الموالي أصبح على مشارفها [5] كما ورد عن الإمبراطور شرلكان أنه كتب مايلي:" إننا غادرنا سائلين خالقنا العون والإلهام وأن تقوم بإذنه ومساعدته، ما يبدو لنا أكثر فعالية وفضلاً ضدّ بربروس"[6] ووصل مدينة قرطاجة في 14جوان، ورسي الأسطول [7] أمام البرج المائي بالقرب من حلق الواد [8] وقاد عملية بحرية شاقة [9] على متن سفينة حربية ذات أربعة مجاديف وكان أندري دوريا قد أمر بأن تصع تلك السفينة خصيصاً له في جنوة وقد ركب مع الإمبراطور اخوة الانفانت الدون لويس، الذي وصل براً ليشارك في هذه الحملة، كما ركب معه عدد من سادة ونبلاء القوم وعليهم من الإسبانيين ومن الأمم الأخرى [10].

ب – تصدي ومقاومة خير الدين باشا للحملة:

يخبرنا خير الدين باشا بما حدث : "لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بالملك شارلكان لاستعادة عرشه فلبي هـذا الأخير الدعوة وعلمـت بأنه سوف يتوجه إلى تونـس لإخراجنا منها ولأجل ذلك شرعت

(1) – كاتب جلبي، المرجع السابق، ص 25 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص ص892-894.

(2) -Ortestes Ferrara، Le (16eme) Siècle ,Vu par les am bassadeurs Vinitiens ed Albin Michel ,Paris,1954,p353.

(3) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص73.

(4) – M ،Expédition de Charles Quint à Tunis ،in Revue tunisienne (R. T)، t. I3، Tunis,1906، PP185-194.

(5)-Ortestes Ferrara ،op, cit, p354.

(6) -جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص137.

(7) -أما كاتب جلبي، المرجع السابق، ص24 فذكر أن عدده كان 24000 بينما: بلغ عدد الجيش الإسباني 28000 حسب: de Grammont Henri, op, cit, p28.

(8) – سيد محمد سيد، دراسات في التاريخ العثماني، دار النهضة العربية، للطبعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1996م، ص98.

(9) -اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص420 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 61.

(10) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ص34 و: عبد العزيز سامح، المرجع السابق، ص118و: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص151.

على الفور في الاستعداد له منذ أن راجت الأخبار عن التجهيزات الهائلة التي أعدّها شرلكان لغزو تونس[1] واحتياطاً لهذا الهجوم الذي لم يكن عند خير الدين باشا قوى كافية لمواجهته، فرق أسطوله في أماكن مختلفة[2] فحسب مراسلة كان مع خير الدين 84 قادساً، 6رجعت إلى استانبول و10 أرسلت إلى الجزائر و15إلى عنابة و15 اتجهت إلى بنزرت و18 خرجت للغزو؛ حيث باقي20قادساً فقط، مع 7قوادس أحضرها سنان رئيس من جربة لحراسة الوادي والشواطئ القريبة من تونس[3]، كما أنّ القوة التي بين يدي القبودان خير الدين باشا لم تكت كافية لردّ هذه الحملة العظيمة، إذ لم يكن الجيش الإسلامي يشتمل إلا على نحو4000 من العثمانيين و1000إنكشاري و2000من التونسيين حسب روسو[4] أما السرّاج وبن أبي دينار فقد أورد بأن عدد قوات خير الدين باشا ومن أنظم إليه من أهالي تونس بلغ 18000[5] لكن خير الدين أورد أن جيشه بلغ 12000[6] إلا أنّ نصفهم كان من المتطوعين البدو الذين لايعرفون قواعد الحرب ولايترددون في الفرار أو الالتحاق بالعدو عندما تشتدّ عليهم وطأة الحرب[7] كما تخلفت بعض القبائل والسكان عن النداء الذي وجهه خير الدين للجهاد عبر أئمة المساجد[8].

ورغم الفارق الكبير في عدد القوات فقد عزم على منزلة أقوى ملوك المسيح[9] والرسالة التي بعث بها الأسقف دي ماكون إلى فرانسوا الأول في 29-5-1535م، تدّل على ذلك فقد ورد فيها: "أن المدعو باي(Baille)كان برفقة دفتر دار إستانبول وسمع منه بأنه تلقّى رسائل من خير الدين، يقول له بأنه يجد في نفسه قوة كبيرة وأنه يملك كل مايحتاجه، مما يجعله لايخشى جيش الإمبراطور ولا كل القوى المسيحية عندما تكون مجتمعة"[10] وعليه تفهم من هذه الرسالة أن خير الدين كان على أتم الاستعداد لمواجهة الحملة الصليبية.

إلا أن مارمول أورد بأن خير الدين كان على علم مسبق بحملة شرلكان على تونس، لكنه لم يتأكد منها بصفة تامة، إلا عندما حلّ بحلق الودي راهب فلورنسي مبعوث من ملك فرنسا إلى السلطان العثماني سليمان القانوني الذي أكدّ له أن الإمبراطور سوف يشارك في الحملة بنفسه، عندئذ بادر بإرسال مركبين صغيرين إلى استانبول، أحدهما تلو الأخر قصد إطلاع السّيد الأعظم و الباشوات على الأوضاع الراهنة للشؤون الإفريقية

(1) -خير الدين، المصدر السابق، ص 172 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص58.
(2) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص92 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص89.
(3) – Haedo Diego, op, cit, p59.
(4) -أي أنّ مجموع قوات خير الدين كان 7000رجل، أنظر أيضاً: ألفون روسو، المرجع السابق، ص88.
(5) – محمد بن محمد السراج التونسي، ج2، المرجع السابق، ص173و: محمد ابن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص185.
(6) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص13 وأنظر أيضاً: خير الدين، المصدر السابق، ص 173.
(7) -خير الدين، المصدر السابق، ص173 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص46.
(8) -سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص99 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص143.
(9) –Léon Galibert, L'Algérie Ancienne et Moderne, Paris, 1844, P178.
(10) – Ernest Charrière, op, cit, t1, p264.

وإبلاغهم بضرورة التعجيل بالأنجاد وإلاّ ضاع جيش البحر وضاعت معه الولايات العثمانية في بلاد المغرب الإسلامي(1)، إلا أن السلطان العثماني كان منشغلاً بقمع التمرّدات التي اجتاحت أراضيه في آسيا(2).

لكن المصادر المحلية تجزم بأنّ الباي لارباي خير الدين لم يتّخذ الإجراءات الوقائية حتى علم بقدوم الحملة، فقد أورد بن أبي الضياف مايلي: "ولما بلغ خبر ذلك إلى خير الدين بالحاضرة، احتقر عدوه وأوضاع الحزم اعتماداً على علو كعبه وشيوع صيته، فجاء أهل الحاضرة وطلبوا منه أن يحضر أسطوله لدفاع الصبنيول قبل نزولهم إلى البر فلم يُصغ إليهم وغالباً مايأتي على الشجعان من هذا الباب"(3) وربما لم يقصد خير الدين باشا الاستهانة بعدوه وهذا لأنه اتخذ التدابير الوقائية منذ وطئت قدماه تونس فقد شيّد التحصينات ورمّم القلاع كما أمر بنزع السلاح من 18 مركباً قصد استغلاله في تعزيز دفاعات الأبراج والحصون(4) هذا لأنه أدرى من غيره بأمور الحرب وإلاّ كيف يُأخذ على القبودان خير الدين باشا هذه الهفوة وهو على رأس الأسطول العثماني.

وفي رواية أخرى: "أن خير الدين علم بأمور الحملة الإسبانية بعد عمليات الإنزال عند برج بحلق الوادي وبالتالي فإن الاستعدادات لواجهة الإسبان، ستكون قليلة لأن الفترة محدودة وأنه لايمكنه جلب الإمدادات الازمة"(5) لكنه شرع في إعداد الترتيبات الدفاعية لمواجهة أخطار الحملة، فأقام الحواجز في مضيق حلق الوادي المتكونة من الصخور والأعمدة الخشبية المدعمة وحفر الخنادق ووضع 12000 من أفضل مقاتلين ووضع السفن الحربية على رصيف حلق الوادي، يطل قسم من حلق الواد على البحر، في حين تجاوره بحيرة من طرفه الثاني أما أطرافه الأخرى فيحيط بها خندق مائي، وأن خطوط دفاعه تقع في الوسط، وقد كان بادئ على شكل مضلع وفيه خطوط منكسرة صالحة جداً لنصب المدفعية وفي طوله مربعات يبعد كل منهم عن الأخر مسافة ميل كما يحتوي برجين كبيرين وكانت القلعة الداخلية والترسانة(دار صناعة السفن)، بيد خير الدين باشا ولهذا السبب فإن مهمته قاسية وشاقة وبغية المحافظة على القلعة والترسانة كلف الرئيس سنان بمهمة المحافظة عليها وزوده بعدد كاف من الجنود فحول بعض السفن إلى مرابض مدفعية عائمة والسفن القديمة أغرقها أو سحبها إلى الشاطئ بعد أن انتزع منها المدافع وأرسلها لتعزيز دفاعات القلعة والتحصينات، أين حُشد المئات من المدافع كل هذا كان من أجل عرقلة القوات الغازية(6).

والاستيلاء على تونس يستلزم احتلال حلق الوادي، لمنع الإسبان من تحقيق ذلك كلفت باشا رئيس الذي كان أحد رياس البحر بالدفاع عن القلعة، كان لديه 120 مدفعا، بينما كان العدو يملك مئات المدافع

---

(1) -مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص34 و: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي ..، المرجع السابق، ص186.

(2) -ألفون روسو، المرجع السابق، صص86-87 وأنظر أيضاً: جمال قنان، العلاقات الفرنسية الجزائرية (1790م–1830)، منشورات متـحف المجاهد، الجزائر، 1999م، ص68 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص789.

(3) -اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص421 و: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص13.

(4) - Ortestes Ferrara ،op, cit,p356.

(5) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص55 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص329.

(6) -Mercier Ernest, op. cit، t3 ، PP37-38.

في البرية والبحرية التي فرض الإسبان بها حصاراً شديداً على القلعة وكان شارلكان يتولى بنفسه قيادة جيشه بينما يتولى أندريا دوريا قيادة الأسطول [1] والدوق دالب (Duk Dalp) كمساعد له في تلك الحملة [2].

وألغت المواعظ والخطب لرفع المعنويات القتالية بين الأهالي والمجاهدين الذين طُلب منهم الاستشهاد من أجل الإسلام والحرية [3] وقد تم تشكيل مجموعات مسلحة، أما في المدينة وضواحيها فاتخذت تدابير أمنية استثنائية، كما أصدر خير الدين باشا أمراً بتصفية قرابة12000 أسيراً كانوا موجودين في العاصمة لشكله في إخلاصهم لكنه بعد ذلك تراجع وأبقاهم على قيد الحياة مكبّلين بالأصفاد في الزنزانات [4]، وقد دافع خير الدين ورجاله بكل شجاعة إلا أن القوة الإسبانية قد تفوقت عليهم وهو ماجعله يشاور أهل المدينة ولكن نتيجة لاختلافهم تركهم وخرج منها عائداً إلى الجزائر [5].

ثالثاً – نتائج مجريات الأحداث:

أ – قرطاجة أول معسكر إسباني:

رغم الفرق في حجم القوات بين الطرفين، إلاّ أن القوات العثمانية عزمت على ضرب السفن التي ظهرت في البحر المتوسط بغية استطلاع المكان الذي سيتم فيه الإنزال، فقد أجبرت سفنه الراسية في مدخل القناة بطلقاتها المدفعية سفن الإسبان على التراجع [6] ولكن رغم ذلك بدأ الإنزال في 16 جوان، حيث نزل الإمبراطور شرلكان مع عدد مهمّ من النبلاء والفرق الأولى من المشاة وعسكروا قرب مكان قديمة يسمّى قلعة الملح، أين كانت تقام مدينة قرطاجة التاريخية [7] وهو نفس المكان الذي نزل فيه سانت لويس (Saint Louis) منذ 267 سنة خلت (تاريخ الحملة الصليبية السابعة على تونس) [8] وقد أوردت المصادر الإسلامية في هذا الصدد مايلي: "فأصبح أسطول الصبنيول ناشراً أجنحته، بحلق الوادي ونزل بمحل يقال له برج العيون قرب حلق الوادي فأنزل عساكره ومدافعه وآلات حربه وسفنه–وراءه–غادية رائحة بما يلزمه من ضروريات الحرب والجيش"[9] يقول المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف واصفاً معركة تونس بقوله:" فخرج لهم خير الدين في 12000من صناديد المقاومين، وصدقوا العزيمة في القتال، فاستولى إلى برج العيون ثم رجع بمن معه إلى المدينة، فاضطرب عليه أهلها فبعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم جنح لطاعة السلطان ابن حفص، فجمع أعيان الناس وتكلم معهم فاختلفوا

---

(1) –عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص 83 و: محمد دراج، المرجع السابق، ص173.

(2) – سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص108 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص148.

(3) –Mgr Pavy، «La piraterie barbaresque »، In R.A، No. 2، Année، Tunis, 1857، P333.

(4) –إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار..، المرجع السابق، ص231 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي..، المرجع السابق، ص65.

(5) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص 13 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص57.

(6) - Haedo Diego, op, cit, p132.

(7) – محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص687 وأنظر أيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص 22.

(8) -Roy (J. E)، Histoire de L'Algérie depuis les temps les plus recules jusqu'à nos jours، Tours 1859، p116.

(9) –مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص35 و: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، صص141-142.

عليه، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب، وجاءه المدد من الأعراب، ظاهرهم معه وقلوبهم عليه فانهزموا بالجيش" فحسب هذه الشهادة: يبدوا أن سبب انهزام خير الدين باشا يعود إلى الانقسام الذي حصل بين أنصاره من أهالي تونس(1)، بينما يفهم من سياق ماورد في المصادر والمراجع السالفة أن سبب انهزامه يعود إلى تمرد الأسرى وتواطؤ السلطان الحفصي المخلوع مع الإسبان، مدعوماً بأنصاره من داخل مدينة تونس وخارجها (2).

ب – حلق الواد أول قلعة مسيحية:

رغم محاولات شرلكان ضرب حصارات على الدفاعات في حلق الوادي، إلاّ أنّ القوات المدافعة تمكّنت خلال هجمات تمّت في الليل والنهار من تحقيق نجاحات، كان من بينها الهجوم الذي نظّمه سنان رئيس في 4جويلية بمعية 3000 جندي، انطلاقاً من حلق الوادي على أحد المعسكرات الإسبانية (3)، تمكّنت من قتل 6000 جندي إسباني، كما تمكنت من استرجاع الموقع الذي كانوا يتستّرون فيه (4) ليصف لنا خير الدين ماحصل " أما أنا فقد كنت في تونس أتربص بحذر" ماسوف يقوم به سلطان تونس مولاي الحسن (5).

تابع العثمانيون هجماتهم ليلاً ونهاراً وفتحوا خنادق العدو مرات عديدة لكنهم كانوا يتراجعون تحت ضغط نيران السفن الإسبانية (6) وفي أحد الأبراج المحصّنة للدفّاع عن حلق الوادي، استعمل خير الدين قذائف حُشيت بقطع من المعدن وشظايا السلاسل الحديدية، فأدّت تلك القنابل إلى إبادة عدد كبير من المهاجمين (7).

لكن بعض المصادر الأوروبية تحول التكتّم على خسائر الجيش المسيحي بقولها أنّ تكرّر الهجمات كان يلحق بالمعتديين بعض الخسائر الخفيفة وأن الذين لقوا حتفهم لم يكونوا من أفراد الجيش وإنما من خدّامهم الذين تركوا صفوفهم من أجل نهب الحقول (8) كان الإمبراطور شارلكان يعلم هذا أيضاً ولذلك كان يستعجل احتلال حلق الوادي متغاضياً عن خسائره الكبيرة في الحملات التي قادها سنـان رئيس على القـوات الإسبانية تمكن من قتل كل من أمير سارنو(Sarno) وأمير مونديا(Mondea) اللذين كانا أحد أشهر قادة الإسبان (9).

وأختار خير الدين باشا بعض المواقع المناسبة للتمركز ومع تقدم شارلكان إلى المدينة بدأت المعركة بين الطرفين وقبل البدء بالمعركة علم خير الدين باشا بأن الأهالي سيعلنون تمردهم استجابة لطلب السلطان المخلوع مولاي حسن، فقال لهم إنني سأحارب الأعداء خارج القلعة، فخجل الأهالي من قول الباشا فأجبوه بصوت واحد، إننا سنشترك معك بالدفاع عن المدينة وكانت القوات المشتركة في الدفاع ثلاثة أرباعها من الأتراك والربع

(1) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص12-13 وأنظر أيضاً: عبد اللطيف عبد الله دهيش، المرجع السابق، ص131.
(2) –جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص291.
(3) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص173 و: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في...، المرجع السابق، ص182.
(4) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص96 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص893.
(5) –عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص154 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص173.
(6) – إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص231 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 64.
(7) –Mgr Pavy, « La piraterie barbaresque », In R.A, No. 2, Année, Tunis, 1857, P131.
(8) – سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص99 وأنظر أيضاً : محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي..، المرجع السابق، صص72-73.
(9) –عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص 87 و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص173.

الأخير من التونسيون أثناء المحاربة وصلت قوة صغيرة من الجزائر، فازداد قوة بقدومهم وتمكن بمن معه من قوات إلحاق خسائر فادحة بالعدو ولكنه فقد أمله بالنصر؛ فبدأ يستعد للانسحاب والهروب فانسحب التونسيون أولاً إلى القلعة ومن بعده اضطر خير الدين باشا إلى سحب مدفعيته إلى داخل القلعة وفي اليوم الثاني للقتال بدأ بإضافة المتاريس إلى القلعة وكلف جنوده بمهاجمة الأعداء وانشغالهم ريثما تصله الإمدادات من الجزائر ولكي يزد جنوده حماسة قاد بنفسه عدة هجمات ويقول المؤرخ السرّاج: " ولما تمكن خير الدين من تونس وردت عمارة من النصارى استنجدت بها الحسن من قبل الإمبراطور، بها مائة ألف مقاتل ولما نزلت النصارى تلقاهم جند الترك ومن أنضم إليهم من أهل الحضرة وكانوا قدر ثمانية عشر ألفا والتقى الجمعان شرقي تونس، وخير الدين يحرص المؤمنين على القتال وظهر في ذلك الحرب وشدة إقدام وتمكن في أنواع الحروب [1].

ومع هذا فُرض الحصار الذي أظهر في ذلك الوقت استعراض قوة أسر آل هابسبورغ : "فإمبراطور شارلكان كان تحت سيطرته معظم جنوب إيطاليا، صقلية، إسبانيا، الأميركتين، النمسا. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان امبراطوراً رومانياً مقدساً وكان له سيطرة قانونية de jure على معظم ألمانيا كذلك" [2]، وأثناء الحصار كانت هناك عدة محاولات من طرف المسلمين لأخذ مواقع من القوات الإسبانية وفي23 جويلية؛ ليلة عيد سان جون (Saint Jean) – طرد المسلمون قوات المشاة الإيطالية ولقد لقي قائدها الكونت دي سارنو (De Sarno) حتفه إضافة إلى 12000 جندي مع أفضل قادتهم و20نبيلاً من خيرة بيوتات نابولي [3].

وخلال هجوم آخر تمّ في 25من نفس الشهر تمكنّوا من القضاء على 25 جندياً وعدد من الضباط كما أصيب الماركيز دي مونديجار (De Mandejar) [4] بجروح بليغة [5] فبعث الإمبراطور إلى بلاده بالمدد فكانت الامدادات تصل إلى شرلكان من نابولي وصقلية وسردينيا فكل يوم تقريباً كانت تصل مراكب محملة بالمواد الغذائية كما التحق الماركيز سانشو أركون (Sancho Alarcon) [6] بمدد قدره 1200 رجل [7] لكن

---

(1) –محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص205 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ص164-169 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، صص143-144.

(2) -Pallary Paul، les Origines de la ville d'Oran، Sousse Imprimerie francise ,1904، P113.

(3) – Roy (J. E), op, cit.t1, p118.

(4) -الماركيز دي مونديجار (De Mandejar): الحاكم العام لمدينة غرناطة، كلفه شرلكان بقيادة أســطول لاحتــلال عنابة للمزيد أنظر : Ahmed Abdesselem, Le historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles ,essai d'histoire culturelle, -Publications de l'Université de Tunis, 1973, P82.

(5) – Haedo Diego, op, cit, p130.

(6) -قائد إسباني استدعاه شرلكان للاستفادة من نصائحه واستشارته حول تنفيذ مشروع الهجوم ضد تونس وحلق الوادي للمزيد أنظر: Ernest Charrière ,op, cit.t1, p270

(7) – Roy (J. E), op, cit.t1, p118.

حسب رسالة بعث بها نيوكولاس رانس إلى فرنسوا الأول بتاريخ1535/7/13م ورد فيها: "أن السيد أركون قد التحق بالمعسكر ومعه 3000جندي من المشاة وقد استدعاه الإمبراطور حتى يستفيد من نصائحه الحربية "(1).

أمر الإمبراطور شرلكان، الغاليات الأربع المرافقة له بقصف القلعة ليلاً نهاراً؛ وأنزل جيشه إلى البر كما وصل من برشلونة القائد روزا (Rosa) الذي طال انتظاره حاملاً معه المدفعية الثقيلة، التي أدّت استعمالها إلى إحداث تهديدات كبيرة بالأسوار التي أقامها الباي لارباي خير الدين وعند اقتحام أحد التحصينات المركزية لحلق الوادي استخدمت القوات الإسبانية برجاً متحركاً ضخماً يفوق ارتفاعه جدران القلعة نفسها وتتابعت الهجمات ولم يهدأ القصف المدفعي على مدى شهر كامل(2) وأعطيـت الوعود بتقديم مكافئـات مـدى الحياة للجنـود الإسبان لتحفيزهم على الدخول إلى حصن حلق الوادي ورفع العلم به (3).

ولمواجهة الحملة نظم خير الدين باشا دفاعاته من جديد وتمكن من إجبار السفن الإسبانية على التراجع وذلك رغم التفوق العددي للأسطول الإسباني، ومع هذا قام بإنزال قواته مرة أخرى خارج القلعة ولكنهم اضطروا للانسحاب نتيجة للقصف الكثيف والمركز عليهم من قبل الإسبان الذي مكن الإسبان (1535/7/14م) بعد هجوم عنيف من الاستيلاء على حلق الوادي، فقررت الحامية العثمانية بقيادة سنان باشا التراجع نحو تونس (4) بعد أن تكبدت خسائر فادحة فلاحقتها القوات الإسبانية عبر ممرات خطرة حول البحيرة وتمكنوا من أخذ 42 مركباً غارق في أوحال القناة (5) ونجح في هذا نتيجة تراجع الحاميات العثمانية إلى مدينة تونس (6).

ولم تكن القوة مع خير الدين كافية يمكنها أن تتصدى لحملة كهذه (7) إذ لم يكن لديه سوى 7000 من الأتراك ونحو 5000من أهالي تونس المؤيدين له (8) بالرغم من عدم تكافؤ القوة بين قوات شرلكان وقوات خير الدين باشا إلا أن العثمانين والأهالي التونسيين تمكنوا من الصمود أمام القوات الغازية شهراً كاملاً، أظهروا خلاله ثباتاً عظيماً قبل أن يسقط ميناء تونس في أيدي الغزاة في 1535/7/15م (9).

لم تكن صعوبة الوضع الذي كان عليه خير الدين باشا نابعاً من الفرق الهائل بين القوات المسيحية والقوات المدافعة عن تونس فحسب بل كانت القوات المحلية التي التفت حول السلطان التونسي مولاي حسن

---

(1) – Ernest Charrière, op, cit.t1, p270.

(2)- عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً:إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص232.

(3)- Mercier Ernest, op. Cit, t3, p37.

(4) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، صص895-896 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118.

(5) –سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص107 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، صص 82-83.

(6) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص154.

(7) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص12 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص334.

(8) –محمد بن محمد السراج التونسي، المرجع السابق، ج2، ص20، وأيضاً: محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص184-185 و: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص117 و: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص12-13.

(9) –محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق وأنظر أيضاً: ص185 محمد درّاج، المرجع السابق، ص289.

تمثل ضغطا إضافيا عليه، فكان على خير الدين باشا أن يواجه في الوقت نفسه عدواً خارجياً يتمثل في الجيش الإسباني ومن يسنده من القوات الغازية وعدوا داخلياً يتمثل في جموع الأعراب التي جمعها سلطان تونس [1].
وزاد الأمر خطورة أنه في الوقت الذي كانت فيه معركة تونس تجري على أشدها، انتهز الأسر والسجناء خلو المدينة من الحرس الذين خرجوا إلى مشارف المدينة للدفاع عنها، فتخلصوا من قيودهم [2] وهاجموا قلعة المدينة التي لم يكن بها سوى عدد قليل من الجنود فقتلوهم وأغلقوا أبوابها ليمنعوا القوات العثمانية من التحصن بها [3].

أما السلطان الحفصي مولاي الحسن فقد كان في طريقه إلى الإسبان في 1600فارس و8000 جمل بالطعام ولوازم الحرب، إلا أنه لمابدا أن سقوط قلعة الوادي صارت مسألة وقت بدأت أمارات التذمر والثورة تظهر في تونس[4] وعقب انسحاب الأتراك رفع فرسان القديس يوحنا المالطيين؛ وعلى رأسهم فرسان كوسيئة(Kosie) علم الإمبراطور على برج القلعة، كما استولى الأعداء على البرجين الموجدين في حلق الواد هما: البرج المائي وبرج الملح وغنموا 40مدفعاً ثقيلاً تركهم العثمانين أثناء انسحابهم مع كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات [5]، واستولى على87سفينة عثمانية وقرابة 300مدفع، كما وجد 140مدفعاً في أبراج حلق الوادي وأحكم الإسبان دفاعاتها وتحصيناتها بها فأضحت قلعة مسيحية في أرض إسلامية ماينيف عن 40 سنة.

3 –التحالف الحفصي الاسباني:

أولاً: السلطة الحفصية تحت الحماية الإسبانية:

حسب الوثائق الإسبانية فإن السلطان الحسن الحفصي، لما علم بنبأ إنزال قوات الإسبانية بعث إليه يدعوه للتفاوض فقبل الإمبراطور شارلكان[6] وأرسل اثني عشر مركباً حربياً للقدوم به مع أهله وشيوخ المدينة وخير الدين يوصف لنا ذلك: " أن مولاي الحسن ذهب إلى معسكر شارلكان وقبّل رجل الملك الكافر وبفضله شرع في حشد قوات كبيرة من الأعراب لمحاربتنا"[7]، لكن هناك رأي أخر فقد أورد ألفون روسو بأن السلطان الحسن الحفصي هو الذي هرع إلى الإمـبراطور شارلـكان وليس بمعيته سوى 150فارس[8] عكس ماوعد به شارلكان من قوات عديدة سيحضرها إليه [9].

---

(1) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص289 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 67.
(2) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص117 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص59.
(3) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص13، وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص205 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص117.
(4) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص64 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص174.
(5) – أن عدد الأسرى 4000للمزيد أنظر: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص109.
(6) - Mercier Ernest, op. Cit, t3, p38.
(7) –عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص156 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص176.
(8) – ورد أنه أحضر 8000 جمل من الأرزاق و1600 خيال للمزيد أنظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، (ت–ع) عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح ومحمود الأنصاري،ج 1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، تركيا ،1988م، ص292.
(9)– ألفون روسو، المرجع السابق، ص89 وأنظر أيضاً : جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص87.

كما أن الرسالة التي بعث بها نيكولاس رانس إلى فرنسوا الأول بتاريخ (942هـ/13جويلية 1535م) ورد فيها ما يلي: "أن الملك الذي جرى إبعاده عن تونس يريد المثول أمامه لتقبيل يده، ولكي يضمه كذلك وقد أجابه الإمبراطور بأن مثوله بين يديه يسره شرط ألا يكون مصحوبا بكتيبة كبيرة بسبب النقص الكبير للمؤن وأنه يستطيع المجيء بصحبة بعض مرافقيه المهمين"[1] وفي 29/6/ 1535م تقدم سلطان تونس مولاي حسن مع عدد كبير من أنصاره إلى شرلكان منحنياً أمام قدميه ومعلناً فروض الطاعة والولاء فقبله الإمبراطور وأحسن إليه، هذا الظهور للسلطان الحسن، كان له تأثير في ضعف الاستجابة والوقوف إلى جانب خير الدين باشا لاسيما من أنصار الحسن الذين مايزالون يحنون إليه [2].

ثانياً -تونس في قبضة الأسرى المسيحيين:

بعد النجاح الذي حققه الإسبان في السيطرة على حلق الوادي، فضل الكثير من قادة الجيش المسيحي عدم المجازفة والتوغل نحو الداخل والعودة إلى أوروبا [3]، فبقي شارلكان متردداً أياماً عديدة إلى أن أقنعه البعض من القادة بضرورة السير إلى تونس ومواصلة الحرب ففي 17 جويلية، تحرك الجيش النصراني على امتداد الشاطئ الأيمن للجزيرة، وكان في طريقه إليها يحرق القرى التي صادفها ويقطع أشجار الزيتون [4].

كنت على وشك الوقوع بين نارين عندما انقلب علي المتطوعون البدو الذين كانوا تحت إمرتي والبالغ عددهم ستة آلاف رجل، لقد قاموا بخيانتي متملقين للملك شارلكان علهم يحظون برضاه عنهم، فلم أجد بدًّا من التعجيل بالانسحاب جنوبا لا شك أن من بين هؤلاء البدو من كان يحمل مشاعر المودة للأتراك وتمسكهم بدينهم كان يمنعهم من القيام بمثل هذه الخطوة الدنيئة، إلاّ أن عقولهم كانت قد تسممت بالدعاية التي أطلقها السلطان مولاي الحسن بواسطة جواسيسه الذين كانوا يشيعون بين الناس أن الإسبان إنما جاءوا لإنقاذ تونس من الأتراك وأن ملكهم مولاي الحسن قد اتفق مع الملك شارلكان بأن الإسبان لن يريقوا قطرة دم مسلم عندما يدخلون المدينة [5].

وعندما علم خير الدين بذلك خرج في ستة آلاف من رجاله، لأن البدو الذين انضموا إليه في البداية قاموا بِخيانته بعدما سمعوا بسقوط حلق الوادي التي انسحب منها سنان رئيس بمن بقي معه من البحارة، وانضم إلى خير الدين الذي عسكر في "خربة الكلخ" [6] لقد استحق سنان رئيس تقديراً كبيراً بذلك الانسحاب بعدما

(1)- Ernest Charrière، op. cit، t1، p271

(2) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص 699 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص902.

(3) -سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص110 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص157.

(4) – ألفون روسو، المرجع السابق، ص 89 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص48.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص174 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص163.

(6) -على بعد ستة كيلومترات من مدينة تونس للمزيد أنظر: دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص144.

قطعت الأمل في نجاتهم، أن كفاءته العالية مكنته من إنقاذ البحارة من الطوق الذي ضربه عليهم العدو [1] وكانت قد وصلته مساعدات عسكرية من الجزائر [2]؛ وفيها وقعت المعركة الفاصلة بين القوتين؟

ويرى بعض المؤرخين أن خير الدين فقد فرصة في انتصار محقق عندما سمح للإسبانيين بالمرور عبر مضايق وشعاب بالغة الصعوبة، لأنهم كانوا يتحركون بشكل فوضوي [3] وعُلم أن التونسيين تركوا المدينة وفروا هاربين وفي اليوم نفسه كانت قوات العدو مضطرة للانسحاب من أرض بسبب قلة الماء وازدياد حرارة الجو [4] وفي الوقت الذي خرج خير الدين إلى القلعة، كان قد عهد سابقً إلى وكيله المهتدي فرنك جعفر بأمر المحافظة على المدينة ووضع بعهدته سبعة ألاف أسير أوروبي[5] ولكن فرنك جعفر انقلب على خير الدين، فأطلق سراح الأسرى فاستولى هؤلاء الأسرى على المدينة وأغلقوا أبوابها؛ لما التقى الجمعان دارت معركة حامية الوطيس فقاتل المسلمون أعداءهم بكل شجاعة؛ إلا أن الأسرى المسيحيين الذين نجحوا في تهشيم أبواب سُجونهم، تمكنوا من السيطرة على القلعة وكان عددهم اثنا عشر ألف أسير، فقاموا بتوجيه مدافع معقل القصبة صوب جيش المسلمين الذي وقع بين فكي الكماشة وكما اوصدوا أبواب المدينة وقاموا بحراستها ليمنعوا خير الدين وجيشه من التحصن بها وكان ذلك إثر خيانة فرنك جعفر الذي أوكل له خير الدين مراقبة الأسرى [6] .

إذن الذي غير من مجرى المعركة لصالح شرلكان، انضمام الأسرى المسيحيين الذين انفلتوا من الأسر إلى صفوف الغزاة، وعندما علم خير الدين باشا بما فعله المهتدي فرنك جعفر، فقد أمله بالنجاح والنصر؛ لقد وجد نفسه وسط محيط معادي له، فمن جهة كان عليه أن يتصدى ل:12000 أسير الذين استولوا على المدينة من داخلها وفي نفس الوقت كان عليه أن يقاتل إن هذا الوضع جعل صموده أمام العدو أمراً مستحيلاً [7] ونترك خير الدين يصف لنا الحال:" قُمت بهجوم كبير لتشتيت صفوف العدو، كانت أصوات البحارة تدوي بصيحات "الله الله" فيتردد صداها في السماء لِتنفلق من هَولها قُلوب الكفار في هذه المعركة سقط الكثير من الشهداء " وكيفما كان الأمر فإن خير الدين قد وجد نفسه مُجبراً [8]بعد أن قرر مع الرياس الذين معه هم الرئيس آيدين والرئيس سنان وعدد آخر على الانسحاب من تونس إلى بونة(عنابة) [9] عن طريق البر وبقي هناك ينتظر وصول

(1) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص703 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي..، المرجع السابق، ص68.

(2) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص13 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص174-175.

(3)- Mercier Ernest, op. Cit, t3, p38.

(4) –كاتب جلبي، المرجع السابق، ص24 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص62.

(5) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 176 وأيضاً: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص25.

(6) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص117 و: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر.."، المرجع السابق، ص89

(7) – محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي..، المرجع السابق، صص72-73 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، صص174-175.

(8) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص176 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص54.

(9) –مدينة بونة تسمى أيضاً بلد العناب مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا صغيرة للمزيد أنظر: لابن قاسم بن حوقل، المصدر السابق، ص79.

15قادرغة[1] التي أقلّته مع من بقي من رجاله إلى الجزائر[2] ودخل شرلكان مدينة تونس في 1535/7/21م وبهذا الحال يروي لنا خير الدين مُعاناته :" قطعت خليج تونس من بدايته إلى نهايته حتى بلغت بلد العناب المطل على جنوب غرب جزيرة صقلية وفي هذه الأثناء غرق آيدين رئيس ومات شهيدا" [3] كان هذا الأخير قد شعر بالخطر قبل مغادرته مدينة تونس وقرر إعدام هؤلاء الأسرى لكن إسراع شارلكان في شن هجومه لم يترك لخير الدين وقتا لتنفيذ قراره [4] ويرويّ أيضاً: "كل ما كنت أرجوه هو الصمود لأطول مدة ممكنة في حلق الوادي فقد أرسلت على جناح السرعة إلى إستانبول أوامري بضرورة التعجيل بإرسال الأسطول العثماني إلى تونس، فإذا وصل الأسطول بالسرعة المطلوبة فإن شرلكان سوف يجد نفسه بين نارين ويمنى بذلك بهزيمة نكراء "ورغم الوضعية الحرجة التي أضحى فيها خير الدين[5]، إلا أنه دافع عن تونس ستة أيام بعد سقوط حلق الوادي وكبد العدو خسائر كبيرة ويسرد لنا خير الدين ذلك بقوله:" وبالتحاق البحارة الذين جاء بهم رئيس سنان من قلعة حلق الوادي ارتفع عدد قواتي إلى 9700 إلا أن الجيش الإسباني المكون من30000 جندي و500 سفينة مجهزة بمئات المدافع يسانده مولاي الحسن الذي سار إلينا في جيشه من الجنوب جعل التصدي لهذه القوات مجتمعة في حكم المستحيل"[6]، ففي أول اشتباك لي مع الإسبان وحليفهم الحفصي مولاي الحسن سقط 2500 شهيد ؛ فعلاً كانت مؤشرات الحرب توحي بأنه ليس في وسعه أن يستمر في المعركة بمن بقي معه من الجنود البالغ عددهم 7200 جندي [7]، لقد كانا في وسط فصل الصيف والجو شديد الحرارة كما أن العدو قام باستلاء على الذخيرة الحربية بما فيها 40مدفعاً كانت في حلق الوادي وفي هذا الصدد يصف لنا المـؤرخ السرّاج الوضع "وكاد أن يكون النصر في أيدي المسلمين، فبينما هم كذلك وقد حمي الوطيس إذا ورد الخبر لخـير الدين باشا أن الحسن تملك القصبة وأن الأعلاج الذين بها فتحوا له الباب ففر خير الدين ومن معه وتعرض له العرب ووقعت بينهم مشادات وتخلص منهم إلى أن وصل إلى بلاد العناب وركب البحر في20 غرابا وتوجه للجزائر[8].

ولكن ملك الحفصي توجه مثل الآخرين الى الاستنجاد بالإسبان مقابل عدة امتيازات، فتمكن مولاي حسن من العودة الى تونس بمساعدة الإسبان في جويلية 1535م، وخير الدين فإنه وجد نفسه مفتقراً إلى العديد من لاوازم المقاومة كما كان بعيداً عن مركز السلطة بالجزائر، لذلك فضل الارتحال مع جنوده [9] من تونس متوجها

(1) -يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص41 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص339.

(2) -محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص185 و: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص117.

(3) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص904 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص175.

(4) -محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص185 وأيضاً: محمد دراج، المرجع السابق، ص177.

(5) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص177و: محمد درّاج، المرجع السابق، ص175 و: عبد اللطيف عبد الله، المرجع السابق، ص134.

(6) -محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في...، المرجع السابق، ص196 وأيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص175.

(7) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص ص79-81.

(8) – محمد علي الصلابي، صفحات...، المرجع السابق، ص228 و: محمد بن محمد السراج الأندلسي التونسي، المرجع السابق، ج2، ص205.

(9) –كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص173 وأنظر أيضاً: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص426.

نحو عنابة [1] الأمر الذي أعاد السيطرة الاسبانية على تونس في21/6/1535م-942هـ [2] بمثابة بداية احتلال الإسبان للجزء الشمالي الشرقي من البلاد بأكمله [3].

إذ لم تكن قوة خير الدين باشا بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الاسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا معه ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن أستولى شارلكان على معقل حلق الوادي مرسى تونس [4] ونصب الإسبان الحسن بن محمد حاكماً صورياً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم عنابة والمهدية إلى شارلكان، فقام بالاستلاء على عنابة فيما بعد[5]، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الإسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس[6] وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي إسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد وعاد شارلكان إلى إسبانيا وأستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية بالعراق [7].

ثالثاً: خير الدين باشا ينسحب الى عنابة:

لم يكن في وسع خير الدين باشا الاستمرار في المعركة بمن بقي معه من الجنود والبحارة في هذا الجو الحار، فقام بهجوم أخير لتشتيت صفوف العدو، بَعدها اضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب لكن الشيخ أحمد بن مرابو شيخ جبل منطقه الرصاص ساعده في الاتجاه نحو الشمال قاصداً مدينه عنابة براً [8] وكان قد أخذ احتياطاته بتأمين خطوطه الخلفية حيث ترك بها خمسه عشر سفينة [9]؛ في هذه المعركة سقط الآلاف من الشهداء وقد تمني خير الدين بِبوحه بمذكراته:" أن أكون شهيدا بينهم إلا أنا الله كتب لي النجاة؛ وقد تحمل كبار نبلاء أوروبا مشقة ومخاطر الاشتراك في هذه الحملة من أجل أن يستمتعوا بالتفرج عليا مقيداً بالأغلال إلا أن تلك الرغبة تحولت إلى حسرة في قلوبهم عندما كتب الله لي النجاة، إنني أحمد الله الذي نجاني ولم يشمت بي الأعداء ولن أدع دماء آلاف المسلمين التي أراقها شارلكان تذهب هدراً [10].

---

(1) -محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ص164-169 و: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص52.

(2) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص321 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص92.

(3) – عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص731.

(4) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص321 وأنظر أيضاً: يوسف الثقفي، موقف أوروبا...، المرجع السابق، ص54.

(5) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم18: حول المعاهدة التي عقدت بين شارلكان والسلطان الحفصي سنة 1536م؛ المتعلقة بتسليم مدينة عنابة إليه.

(6) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص38 وأنظر أيضاً: دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص148.

(7) -محمد عبد اللطيف البحراوي، المرجع السابق، ص130 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص75.

(8) -سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص111 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، صص 158-159.

(9) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص98 وأنظر أيضاً: العربي إشبودان، المرجع السابق، ص63.

(10) -محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في....، المرجع السابق، ص231 و:خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 177.

ولم يبق معه سوى سنان رئيس وباشا رئيس وبضعة آلاف من البحارة المُثّخنين بالجراح، إلا أنهم كنوا قد قاموا بتمزيق صفوف عدوهم وتشتيت شمله (1) وبفضل الاحتياطات الحكيمة، تمكن من انقاذ أغلبيه جيشه البالغ عدده ثلاثة آلاف جندي وألفي فارس (2) لكن في طريقه إلى عنابة اعترضته حشود العرب في ناحية تيبر سوق ووقعت بينهم معركة فهزمهم إلا أنه خسر خلالها مايقارب خمسمائة رجل (3).

كان خير الدين باشا موفقاً باختياره بونة (عنابة) نقطة لجمع قواته، لأنه لو توجه إلى الجزائر لتعرض لمشاكل لاحصر لها، فقائد بجاية الإسباني ألقى القبض على سلطان كوكو ولم يطلق سبيله حتى استحصل منه على وعد بإغلاق طريق الجزائر أمام الأتراك (4) إضافة الا ماسبق هناك أسباب أخرى جعلت خير الدين لايقوى على الاستماته في صد هذا العدوان منها أن الدولة العثمانية كانت مشغولة آنذاك بحروبها في المجر والنمسا(5) مما حال دون ارسال قوات في دعم خير الدين في حربه ضد شارلكان(6) وأنها لم تتجه بعد بثقل قواها الى البحر المتوسط وهذا من شأنه أن لايسمح لها بإرسال قوات كبيرة إلى الجزائر وتونس وخير الدين لايجهل قوات خصمه لهذا لايمنع من احتمال انه كان يجعل في الدرجة الأولى الاحتفاظ بالجزائر وأنه كان يخشى أن يقع بها نزول إسباني لو أنه اطال الصمود أمام قوات شارلكان، وبذلك يخسر الجزائر وتونس معاً(7).

وقد حققت الحملة هدفها، حيث أجبرت خير الدين بعد معارك عنيفة على الانسحاب من تونس إلى الجزائر، وأدخلت قوات شرلكان الحسن الحفصي إلى الحكم في حاضرته (8).

وصلت الأخبار إلى شارلكان بأن خير الدين باشا قصد عنابة فأرسل أسطولاً يتكون من30 سفينة على متنها 1000 جندي تحت قياده الأمير جانوي اندري دوريا الا ان مدافع خير الدين منعتهم من الاقتراب فاضطروا الى التراجع عندها أكمل خير الدين طريقه الى الجزائر التي أستقبله أهلها في الترحاب (9) إلا ان بعض المصادر الأوروبية أوردت بأن وصول اندري دوريا عنابة كان عقب خروج خير الدين باشا منها (10).

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسنطينة ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين القدوم إلى الجزائر

(1) – نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص323 وأنظر أيضاً:Ernest Charrière, op cit, t1 ,p271
(2) – إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص235 وأنظر أيضاً : يوسف الثقفي، موقف أوروبا...، المرجع السابق، ص59.
(3) – محمد المهدي بن على شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة)، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر،1980م، ص107.
(4) –سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص113 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص27.
(5) – محمد فريد بك، المرجع السابق، صص 210-211 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص78.
(6) –ابراهيم سعيود، الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2009-2010م)، ص80 وأنظر أيضاً: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص 93.
(7) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص699 و: عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية..."، المرجع السابق، ص15.
(8) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، صص166-167.
(9) –مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص98 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص65.
(10) – Ernest Charrière, op cit, t1, p272.voir aussi Léon Galibert, op cit, t1, p178

نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي بأن يشعر شارلكان بوجوده وأن يرد على النكبة التي تعرض لها في تونس بضربة مثلها جعله يُضاعف من عمليات جهاده البحري [1].

4-أبعاد الصراع العثماني الإسباني على تونس:

أ-عسكرياً: مهاجمة جزر البليار وجنوب إيطاليا1535:

بعد احتلال تونس وعنابة من طرف الإسبان أراد القبودان باشا خير الدين أن يشعّرهم بأن استيلاءهم على هاتين المدينتين لن يؤثر على طبيعة الصراع أو نتيجته وأنه قادر على نقل الصراع إلى إسبانيا وتهديد جزرها ومدنها الساحلية في الوقت الذي يشاء ولإثبات ذلك استغل فرصة انشغال الأسطول الإسباني بتونس ليتوجه على رأس أسطول كبير مكون من32قطعة بحرية أغار بها على جزر البليار الإسبانية[2] وعلى سواحلها الجنوبية حيث أحتل مدينة ماهون (Mahon) وبالما (Palma) بجزيرة مايروقة ومينورقة واستولى من هناك على عدد هائل من الغنائم بالإضافة إلى6000 أسير أمر بإرسالهم جميعاً إلى الجزائر [3] واستولى على سفينتين من نوع الكرافيل إحداهما كانت تحمل كثيراً من نبلاء وفرسان إسبانيا[4] ويكمل لنا خير الدين باشا ماحدث:" وبعد ذلك توغلت في المحيط الأطلسي عبر مضيق سبتة وطفت بأسطولي في خليج كديز (kadiz) الواقع بين إسبانيا والبرتغال حيث قُمت بتخريب ميناء فارو (faro) جنوب البرتغال" وأطلق العنان لرجاله بالانقضاض على السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية[5]، وأقلقت الإمبراطور شارلكان الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في 942هـ / 1535م [6] كانت هذه الغارة زاداً عملياً على احتلال تونس وأفسدت على الإمبراطور شرلكان نشوة النصر التي شعر بها عقب احتلاله لتونس وعنابة وفي الوقت نفسه من وقع انسحاب الأتراك منها وبالفعل لم يكن لاحتلال تونس أي تأثير حقيقي على مجريات الأحداث في الجزائر خاصة والشمال الإفريقي عامة، فقد استمرت الحملات على السواحل الإسبانية والغارات السريعة على السفن الأوروبية كما كانت عليه من قبل أو أكثر [7] ولم يكتف خير الدين بما حققه في جزر البليار، بل أغار على قلعة قسطيلية في جنوب إيطاليا وقام بتخريبها بعد أن استولى على عدد كبير من الأسرى، عاد بهم جميعا إلى إستانبول التي كان قد سبقه إليها السلطان سليمان القانوني عائدا من حملته على تبريز [8].

---

(1) – يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص41 وأنظر أيضاً: دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص154.

(2) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص ص 93-94 وأنظر أيضاً: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص105.

(3) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص297 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، صص95-96.

(4) – Ernest Charrière, op cit, t1, p277.

(5) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 179 وأنظر أيضاً: كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص187.

(6) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه..، المرجع السابق، صص236-242 و: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة...، المرجع السابق، ص432.

(7) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص123 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص83.

(8) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص86 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص297.

أما تحركاته فكانت متابعة من طرف المسؤولين الإسبان الذين كان جواسيسهم منتشرين في كل مكان وكان دوريا قائد أسطول شارلكان في حملته على تونس قد كمن بأسطوله في ميناء البليار كما ساهم كل حلفاء الاسبان في المغرب في البحث عن خير الدين ومحاربه الأتراك العثمانيين (1) ولكن بدون جدوى.

كانت أنباء هذه الهزيمة التي حلت بجزر الباليار قد وصلت إلى كافة الدول الأوروبية وحينئذ أدركوا تمام الإدراك أن مسيرة كفاح خير الدين بربروس لم تنته بعد في تونس سنة 1535م، بل أنها لتزال مستمرة و متواصلة وفي هذا الظرف الذي حقق فيه خير الدين تفوقاً ملحوظاً، كتب الإمبراطور شارلكان إلى نوابه في كاتلونيا وغيرها من مناطق أرغون في سنة 1536م،معلنا لهم عن اجتماع الكورتيز(البرلمان) للمصادقة على دعم الحملة الموجهة إلى الجزائر بالمال والعتاد العسكري، وكان يعتقد أن مشروعه الهادف إلى تأمـين ممتلكاته الإسبانية والايطالية سيتحقق بسبب انغماس خير الدين في الصراع العثماني الفارسي الصفوي(2)؛ وإذا كان خير الدين لم يتمكن من الاحتفاظ بتونس تابعة للدولة العثمانية كما أرادها، فإن خُلفاءه واصلوا السعي لإخضاعها.

ب-سياسياً: العلاقات العثمانية الفرنسية 1535م:

من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع فرنسا في 943هـ/1536م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الإسبان على تونس (3) وبدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة "بافيا" التي أسر فيها ملك فرنسا "فرانسوا الأول" عام 1525م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها "جون فرانجيباني" ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبورغ وإطلاق سراح الأسير (4).

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها في مدريد بين فرنسا وأسرة الهابسبورغ سنة 1526م إلا أن فرنسوا، بعد إطلاق سراحه أرسل في عام 941هـ/1535م سكرتيره "جان دي لافوريه" إلى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدة (5) ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانه وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقاً له، فوقف منه موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات شارلكان وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسي ماذكره للسفير الفرنسي عندما قال :(سعادة السفير لايمكنني أن أنكر أنني أرغب بشدة في أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدون للحرب ليس فقط لمصلحة السلطان العثماني الذاتية بل لإضعاف قوة الإمبراطور شارلكان وتكليفه غالياً، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا(6) وتأسيساً على ذلك، تحالف العثمانيون مع فرنسا، حلف بين

(1) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، صص 93-94 وأيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص668.

(2) –عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع ..."، المرجع السابق، ص16 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص156.

(3) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص323 وأنظر أيضاً: عائشة غطاس المرجع السابق، ص26.

(4) –يوسف الثقفي، موقف أوروبا ...، المرجع السابق، ص47 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص169.

(5) –كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص 719.

(6) –اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص436 وأيضاً: يوسف الثقفي، موقف أوروبا ...، المرجع السابق، ص47.

فرانسوا الأول وسليمان في مواجهة أسرة الهابسبورغ [1] وتم التوصل ل: "معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية" عام 1535م إذن فهي أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمـانية الفرنسية، تلك العـلاقة التي تحولت إلى محالفة [2] ومالبث الطرفان أن عملا على استعراض حلفهما بالهجوم المشترك على إيطاليا(العثمانيون بحراً والفرنسيون براً) وكان العثمانيون قد فكروا باستمرار في غزو إيطاليا ولكنهم ترددوا في ذلك خشية تصدي أوروبا لهم على أن فرنسا قد شجعت العثمانيين على الإقدام على هذه الخطوة وذلك لانتزاع جزيرة كورفور من البنادقة وعلى العموم، فقد تقدم الفرنسيون في شمالي إيطاليا للاستيلاء على ميلانو وجنوة بنفس الوقت الذي بدأ فيه العثمانيون سلسلة من الغارات على أملاك الهابسبورغ في شرق المتوسط وغربه [3].

وفي عام (950هـ/1543م) ساءت العلاقة من جديد بين إسبانيا وفرنسا بسبب قتل الإسبان لرسولين فرنسيين في لومبارديا بإيطاليا [4] وعلى إثرها طلب ملك فرنسا فرانسوا الأول من جديد مساعدة السلطان العثماني وبناء على هذه الحادثة فقد عادت الحرب بين البلدين فأصدر السلطان القانوني أمره إلى خير الدين بضرب السواحل الإيطالية فخرج في أسطول كبير واحتل غويتة Goetaونيس Nis، وهدد روما [5] واستمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق انتصارات رائعة هزت أوروبا كلها وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة مارسيليا قاعدة لقيادته ومقراً لأسطوله بعد انضمام الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا والقيادة لخير الدين باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية- الفرنسية) وشن هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لشارلكان"[6] وفي عام 1543م هاجم مدينة نيس [7] وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا [8] ثم توجه إلى سواحل فرنسا الجنوبية حيث استقبلوا استقبالاً حماسياً، إلا أن الضغوط الأوروبية على ملك فرنسا جعلته يتخلى عن وعوده السابقة بالتعاون مع السلطان ضد إمبراطور النمسا [9] وتوسط البابا بين فرنسا والنمسا لعقد صلح تمهيداً لتوحيد أوروبا ضد العثمانيين [10] ولقد شعر شارلكان بخطورة التقارب الفرنسي العثماني الذي سيزيد العثمانيين قوة كبيرة بمنطقة البحر المتوسط، لذلك حاول أن يقترب من السلطان العثماني ليتقاسـم معه مناطق النفوذ في البحر المتوسـط

---

(1) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص 722 وأنظر أيضاً: كمال حسنة، العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث، (1789-1807) رسالة ماجستير، في تاريخ حديث ومعاصر (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005-2006م)، ص21.

(2) –كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص147 وأنظر: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص139.

(3) –المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص95 وأنظر أيضاً: عائشة غطاس المرجع السابق، ص32.

(4) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص323 وأنظر أيضاً: كمال حسنة، المرجع السابق، ص22.

(5) –عائشة غطاس المرجع السابق، ص36 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص323.

(6) –يوسف الثقفي، موقف أوروبا ...، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: علي حسون، المرجع السابق، ص75.

(7) –زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، صص77-78 وأنظر أيضاً: كمال حسنة، المرجع السابق، ص25.

(8) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص ص314-316 وأيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 106.

(9) –يوسف الثقفي، دراسات متميزة، ط1، (د، غ، إ)، لبنان، 1983م، ص92 وأيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص343.

(10) –عائشة غطاس المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص ص 719 -722.

إلا أن السلطان العثماني فضل التحالف مع فرانسوا الأول وهذا ماوصفه شارلكان بالكمين المميت لأوروبا (1) ولزيادة توثيق عرى الاتحاد بين الدولة وفرنسا وزيادة نفوذ اتحادهما واتفقت الدولتان على ترشيح * هنري دي فالوا * أخي ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهم ظهيراً ضد النمسا من جهة وروسيا من جهة أخرى.

المبحث الثاني

تونس الحفصية تحت السيطرة الإسبانية (942 ـ949هـ / 1535 ـ 1542م).

1. استباحة تونس المسلمة وتوقيع معاهده الحماية المسيحية:

أولا: استباحه القوات المسيحية لمدينه تونس الإسلامية:

كان الحسن الحفصي قد أعلن الأمان بين الناس إذا هم تخلوا أتباع خير الدين باشا عن المقاومة، لكن هذا الأمان كان مناوره فقط، إذا لما دخل الإمبراطور شرلكان بِمعية السلطان الحفصي مولاي الحسن إلى تونس يوم 21/7/ 1535م -942 ه اشترط عليه استباحه المدينة لمدة ثلاثة أيام فالتزم له بذلك (2) بل أنه اتفق سراً مع شرلكان على إباحتها لهم نهب المدينة ثلاثة أيام (3).

وهكذا؛ ففي الوقت الذي عاد فيه أهالي تونس للممارسة أعمالهم اليومية بشكل طبيعي إذ بالجنود الإسبان يغيرون عليهم على حين غفلة يعملون السيف فيمن استطاعوا الوصول إليه، كما قاموا بنهب كل ما وصلت إليه أيديهم ولم ينج من المذبحة سوى من تمكن من الفرار بنفسه وأهله (4).

فتعرضت المدينة للنهب والسلب، فقتلوا ونهبو وسرقوا وارتكبوا كل أنواع المحرمات كما هدموا المساجد وحرقوا ومزقوا أغلب الكتب (5)؛ حتى جامع الزيتونة لم يسلم من همجية الإسبان فقد بددوا كل مخطوطاته النفيسة بحيث لم يبقى لها أثر لأنها رميت في الأسواق وداستها خيول الاسبان (6) حيث يذكر أحد المؤرخين أن المار حول الجامع من جميع جهاته لاتكاد تقع قدمه على غير الكتب التي لم يبقى منها بالجامع إلا بعض النسخ من صحيح البخاري (7)، كما احترقت مكتبة أسرة عبد الواد، التي كان أبو عبد الله محمد الخامس قد أمر بجعلها أغنى مجموعه من الكتب من شتى العلوم، مكتبه تحوي أسفاراً في شتى العلوم، ومازالت سقوفها مكتبه عبد الواد المطمورة في دار جامع الزيتونة حتى في أيامنا هذه شاهدا لايُمحى على نزعة التخريب الوحشية (8) فكان اتلاف

(1) -يحي بوعزيز، الموجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: عائشة غطاس المرجع السابق، ص45.

(2) – ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص14 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص737.

(3) – للمزيد عن مذبحة الإسبان في تونس، أنظر أكثر: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص233.

(4) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص233 وأيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص86

(5) –محمد فريد بك، المرجع السابق، ص223 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، صص68-69.

(6) –حسين خوجة، بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم:2912، ورقة 131.

(7) –محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، تح وتق، حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1986م، صص 298-299 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص662.

(8) – حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية، تونس،1983م، صص 152-153، وأنظر أيضاً: إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص235.

المكتبات من أسباب تدهور تونس العلمي في العهد العثماني، فقد أورد الباشي في هذا الصدد مايلي: "انعدم منها العلم تماماً عند الاحتلال الإسباني الذي استباح معاهدها وأتلف كتبها واستلحم مابقي من اعلامها"[1].

قتلوا الجميع بدون استثناء، الرجال والنساء، الشيوخ والفتيان بعد التنكيل بهم حتى الذين اتخذوا المساجد ملاذا لهم، ويصف مؤرخ تونسي تلك المجزرة انها إحدى أفظع المجازر التي عرفها التاريخ [2]، ففي أثناء عملية القتل والنهب، كانت القوات الإسبانية أكثر شهرة من غيرها من القوات الأخرى، فقد كان يبحثون في المنازل والصناديق ومخازن الطعام وحتى الآبار البعيدة عن كنوز تونس ولم يتركوا مكانا إلا وبحثوا فيه عن الأهالي وبعد ذلك بدأوا باتباع أساليب أكثر وحشية مما اتبعوه سابقاً، ثم قاموا بتهديم المدارس والجوامع ومزقوا وأحرقوا نوادر الكتب القيمة وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بجثث بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء من مختلف الأعمار ولم ينجي من هذه المجزرة لاالمسلمون ولااليهود حتى غدت المدينة خالية من الأهالي [3] وفي اليوم الثالث دخل الإمبراطور المدينة برفقة العساكر الالمانية وقد سمح لهم بنهب المأكولات فقط، ثم إصدار أمراً بإيقاف السلب والنهب وأن عقوبة المخالف الإعدام ويصوّر لنا المؤرخ ابن أبي دينار بدقة ماحدث بعد اجتياح تونس من طـرف الإسبان بقوله" ولما دخّل الحسن إلى قصبة واطمأنّت الناس وقعد كلّ صانع من صناعته وأهل الربع فتحوا ربعهم واطمأنّوا في أماكنهم، دهمهم عدّو الدين، فهجمت النصارى عليهم على حين غفلة والأسواق مفتوحة فأخذوا ما فيها من الأمتعة وقتلوا أهلها وسبوا خلقاً كثيراً وفر الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب وراحوا إلى ناحية زغوان، فبث عظيم النصارى على العرب وجعل لهم جعلاً على كل مسلم أتوا به إليه، فخرجت العربان في طلبهم وأخرجوهم من كل شعب وكل واد و أتوا بهم إلى النصارى، فكان طلب العرب لهم أصعب من طلب النصارى وأخذوا ما شرطوا لهم و البعض فدى من العرب وبلغت فدية الرجل 1000دينار و أقل و من لم يفد نفسه من كافر العرب تملكه الكافر الآخر وكان هذا الخطب جسيماً وهذه الواقعة هي المعبر عنها بخطرة الأربعاء..."[4] ويصف لنا ابن ابي دينار: وسمعت من أهل الحضرة من يقول كل ثلث ستون ألفا وكانت هذه الواقعة سنة941هـ ولم يكتف الإسبان بقتل من قدروا عليه بل أرسل الإمبراطور شرلكان إلى الأعراب يغريهم بالقبض على من يفر إليهم من أهالي تونس[5] وجعل لهم جائزة على كل أسير يأتون به إليه وبهذه الحادثة يخبرنا خير الدين باشا بقوله: "بعد مرور 72 ساعة على حملة النهب والقتل والتدمير دخل الملك شرلكان المدينة بعدما

(1) – حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: ابو محمد حمودة بن محمد بن عبد العزيز التونسي المالكي، كتاب التاريخ الباشيى، تح، محمد ماضور، ط1، ج1، الدار التونسية، تونس،1970م، ص14.

(2) -Mahmoud Bouali ،La Sèdition permanente en Tunisie، Des Origines à1735 t1 Tunis، 1972، P15.

(3) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص117-118 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص176.

(4) – محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص143 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، صص 185-186 وأيضاً: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص205.

(5) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص293 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص187.

حولها إلى خراب لقد اصطبغت أرجل فرسه بلون الدم المتدفق من أشلاء الضحايا المتناثرة في أزقة وشوارع المدينة ولم يبالغ بعض المؤرخين كثيراً حينما شبهوها بمجزرة القدس يوم دخلتها الجيوش الصليبية أول مرة عام 1099م [1] ومهما اختلفت الأرقام التي يودها المؤرخون في عدد الضحايا التي خلفتها تلك المجزرة، فهي بلاشك كانت فاجعة كبيرة وإلا فما الذي يمكن توقعت من جيش موغل في التعصب والسيادية يتلذذ بقتل البؤساء من الأطفال النساء والعجزة في وهران وبجاية، قبل أن يكرر ذلك بطريقة أكثر دموية في تونس؟! ولاتحتاج إلى كثير من التدقيق لتوقع هول الفضائح التي تعرض لها أهالي تونس مكتفين بما ذكرناه سابقاً وتزيد عليه ماتطرق إليه بعض المؤرخين الأوروبيين تبرئة ذمة شارلكان من هذه الفضائح بقولهم أنه وافق على ذلك تحت ضغط جنرالاته، لكنّ الرسالة التي بعث بها الإمبراطور شارلكان نفسه إلى حاكم بجاية بتاريخ (924هـ/ 23جويلية1535م)، تؤكد مسؤوليته عن ماحدث، حيث جاء فيها:" إن باربروسا قد فـرّ، وفي نفس اليوم استولينا على تـونس، وبما أن السـكان لم يستقبلوا ملكهم كما ينبغي عليهم أن يستقبلوه وكما هو حق من حقوقه، فقد رأيت عقابا لهم على عنادهم أن أسمح بنهب المدينة [2] ويصف أحد مرافقي الجيش الإسباني الوضع في تونس هكذا:" وبعد أن دخل عساكرنا تونس لم يحترموا أي شيء وخرّبوا كل شيء وأسروا كثيراً من السكان، ورغم ذلك لم يغنموا كثيراً، لأن الأعيان حين تركوا المدينة على إثر باربروسا، أخذوا معهم ثرواتهم وزوجاتهم وأطفالهم" [3] وفي رسالة مؤرخة في(942هـ/27جويلية1535م) يقول نفس المرافق:" إن تقتيـل سكان تونـس استفـحل إلى درجة أن كثيـراً من الجثث بقيت في المنازل والشوارع [4]، ولم تدفن بحيث خلقت جواً موبـوءاً نتنا جعل الإمبراطور يفر بسرعة من المدينة حتى ذكر يقول المؤرخ التونسي ابن أبي الضياف انه:" يقال إنه في هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس، ونجا الثلث وأسر الثلث، والمأسور يفتدى إن كان له مال، وتغيرت البلاد وطمست معالمها" [5] ويذكر صاحب الحوليات أن سبعين ألف شخص من مختلف الأعمار من الجنسين، قد هلكوا خلال الأيام الثلاثة [6] أما المؤرخ الفرنسي هنري فارو Henri Faroفقد صرح بأن عدد القتلى من سكان تونس خلال ثلاثة أيام قد بلغ 70ألفا [7] لكن حسب مروش، فإن الأرقام التي أوردها المؤلفون (من ثلاثين ألف إلى سبعين ألف قتيل) هي تقديرات مبالغ فيها لكنها تعبّر بطريقتها عن شعور الناس بفداحة الخسائر [8]؛ كما أسر عشرة آلاف شخص

(1) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، صص907-908 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص178.

(2) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص234 وأنظر أيضاً: Mahmoud Bouali, op cit, t1, p27

(3) –رسالة من روزتي (A'Rosetti) إلى دوق استه في 1535/7/22م أورد غابريال مدينا (Gaberiel Medina) في دراسته عن حملة شارلكان على تونس وهي منشورة في: R. T 1906-pp184-194et p 301-307 نقلاً عن المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص93.

(4) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص93 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص72.

(5) –العربي إشبودان، المرجع السابق، ص74 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص14.

(6) – ألفون روسو، المرجع السابق، ص 90 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص89-90.

(7) -H. Garret ،Histoire générale de l'Algerie.paris1889.p 38.

(8) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص93 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص149.

ووصفت تلك الأعمال التي دامت ثلاثة أيام بأنها الأكثر رعباً في التاريخ (1) وهكذا فقد تعرضت تونس لعمليات قتل جماعي وانتهاك للأعراض، ونهب للممتلكات لم يشهد له ذلك العصر مثيلاً حتى تحولت المدينة بأكملها إلى ركام من الخراب والدمار (2) ومن هواد هذه المجزرة شبهوها كثيراً بعض المؤرخين بمذبحة بغداد يوم دخلها التتار بقيادة هولاكو 1258م(3).

ومع هذا استقبل العالم المسيحي نبأ انتصار الإمبراطور شارلكان في تونس بابتهاج عظيم، حيث اعتبر يوم 1535/7/14م يوماً مشهوداً في تاريخ المسيحية، وقال عنه بريور(prieur)، كان يوم الانتقام والموت يوم العزّ والأمال الروحية حارب اثناءه فكر ضد فكر (أي المسيحية ضد الإسلام)(4)أي تصادم بين جنسين عدّوين.

قدرت خسائر المسلمين بأكثر من 30ألف شخص و10ألاف شخص أسرى لقد كان المسيحيون ينتظرون لمثل ذلك الفرصة للانتقام من مدينة تونس وماجورها فأطلقوا الحرية30ألف مسيحي واستبدلوا بجثة 30ألف مسلم، يالها من مبادلة مؤلمة وحزينة وفي هذا الصدد يقول المؤرخ ابن أبي الضياف: " وبلغت الفدية ألف دينار وتغيرت البلاد وطمست أعلامها (5)"ويقول خير الدين باشا في مذكراته: "كانت تونس إحدى أكبر المدن الإفريقية وعندما اقتحمها الصليبيون وأدرك الكفار أنني قد أفلت من أيديهم قاموا بإفراغ جام غضبهم على الأهالي المسلمين وتفنن الإسبان في التعبير عن أبشع ماتحمله نفوسهم الشريرة من سوء فقاموا بذبح 30 ألف مسلم عربي واسترقاق 10 ألاف امرأة وطفل، وخربوا المساجد والمدارس والمقابر ونهبوا محتويات القصور كما قاموا بحرق آلاف المخطوطات والكتب التي كانت تزخر بها مكتبات تونس، فقضوا بذلك على شتى أنواع العلوم والفنون النادرة" (6).

ثانيا: السلطة الحفصية توقع معاهدة الحماية الإسبانية:

وفي 1535/8/6م وقع السلطان الحفصي مولاي حسين معاهدة مع الإمبراطور شرلكان تضمنت بنودها مختلف مظاهر التبعية (7) وعاد السلطان إلى العاصمة في 1535/8/6م وسط مظاهرة بهجة النصر المزعوم ووقع في 1535/8/8م معاهدة مع الإمبراطور اعترف فيها بالحماية الإسبانية على تونس (8) وبهذه النتيجة أضحى الحسن الحفصي تابعاً للإسبان، بعد أن كبله بمعاهدة مذلة.

---

(1) – Mercier Ernest, op. Cit, t3, P 39.

(2) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص 293 وأنظر أيضاً : أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في..، المرجع السابق، ص179.

(3) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص233 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي...، المرجع السابق، ص98.

(4)-Albert prieur : Les Barbarousses corsaires et Roir d'Alger, èdition ARC -Ciel, Paris s.d, Paris, 1934, P160.

(5) –اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص441 وأيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص14.

(6) –خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص178 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص656.

(7) –كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص173 و: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص147.

(8) –محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص164 و: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص116.

ورغم احتقار الإمبراطور الإسباني شارلكان للسلطان الحسن الحفصي، ورغم أنه يعلم بأن التونسيين يمقتونه أيضاً، إلا أنه أعاد تنصيبه ملكاً على عرش تونس تحت التبعية الإسبانية (1) وبعد أن عاد الهدوء إلى المدينة اعترف الحسن الحفصي بشروط المعاهدة –التي أملاها عليه نائب ملك صقلية اندرندي كاموجيو (andrande camugio) –التبعية الإسبانية التي أفقدت تونس استقلالها ووجودها، أهم ما جاء فيها (2):

– اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الإسباني.

– إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

–أن يلتزم ملك تونس بدفع تعويضات الحملة.

–أن يدفع لإسبانيا ضريبة سنوية تقدر باثنا عشر ألف دوقا(ducat) (عملة فلورنسية) "نسبة إلى فلورنسا" وهي تعادل درهمين عثمانيين وقد استخدمت الدولة العثمانية كعملة ذهبية فقط (3)، سنوياً للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي.

–أن يلتزم بعدم السماح للبحارة المسلمين بالرسو في الموانئ التونسية وألا يدخل بلاده أحد من مهاجري الأندلس

–أن يتنازل الحسن الحفصي لشارلكان عن حلق الوادي، وعنابة والمهدية وشواطئهم (4).

–أن يسمح للمسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس والتنقل في جميع أنحاء البلاد وإقامة شعائرهم بكل حرية (5).

–أن يسمح الملك الحفصي للإسبان بصيد المرجان بتونس.

–أن يأتي إلى تونس قنصل وقاضي للبث في الخصومات بين المسيحيين.

–أن يقدّم الملك الحفصي للإمبراطور ستة (6) من أحسن الخيول العربية واثني عشر صقراً.

–أن يتعهد الإمبراطور بحماية التونسيين.

قد تم ابرام تلك المعاهدة يوم(942/2/6هـ-1535/8/6م) (7) كما اشترط على الحسن الحفصي أنه لو خالف أحد شروط المعاهدة المبرمة بينه وبين شارلكان فإنه يدفع أول مرّة5000 دوكا، وفي الثانية100000 أما أن أخل مرة ثالثة فإن حقه في الملك سيسقط (8) فمنذ منتصف القرن16م شهدت الدّولة الحفصية تراجعاً ملموساً مما حدا بالسلطان إلى الاعتراف بسيادة الإسبان منذ احتلال تونس سنة 1535م وهكذا نجد أن تونس لم تخضع للعثمانيين سوى سنة واحدة تقريبا، لتصبح بعد استيلاء الإسبان عليها محمية إسبانية وظلت خاضعة

(1)- Haedo Diego, op .cit, P58

(2)-Fernand Braudel, Les Espagnols…, Op .cit, PP 371-372.

(3) –ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92 و: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص93 و: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص921.

(4) –عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص118 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 112.

(5) –عمار بن خروف، نظرة عن العلاقات السياسية...، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص75.

(6) – ألفون روسو، المرجع السابق، ص 91 أنّ عددها أثنتا عشر، و كذلك: محمد فريد بك، المرجع السابق ،ص233.

(7) - Mercier Ernest, op. Cit, t3, P39.

(8) – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، 234 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص93.

لهم لمدة 39سنة!أما بنو حفص فقد كانوا يحكمون تونس خلال هذه المدة حكماً اسمياً فقط إلى أن استولى عليها العثمانيون مرة أخرى سنة 1569م [1].

غادر الإمبراطور شارلكان مدينة تونس يوم17أوت1535م/ 942هـ متوجها إلى جزيرة صقلية، بعد أن أبقى في تصرف الملك الحفصي قوة عسكرية تتألف من مائتي جندي [2]، على أن ترابط تلك القوة في قصر القصبة لحراسة السلطان شخصياً، لأن قوات مولاي حسن كانت مسلحة بالأقواس والنبال والخناجر والرماح الطويلة وتركت 10 سفن عهدت إلى ابن آخ آندري دوريا بقيادتها، حتى تستتب له الأمور في البلاد نهائياً [3] وقبل مغادرة الإمبراطور شارلكان تونس، أمر بالشروع فوراً في تشييد قلعة حصينة في حلق الوادي وأمر بتحصينها تحصيناً جيداً [4] ويقول المؤرخ السرّاج في هذا المقام: "والنصارى في غاية الاهتمام والاعتناء بانشاء الحضارات التي بحلق الوادي وإيجاد ما لم يسبق لحدوثه من قبلهم وضايقوا بالحضرة غاية الضيق"؛ ولهذا الغرض أرسلت طلبية لصقلية، لاستيراد جميع المواد اللازمة [5] كما تقرر أن تترك حامية إسبانية تتألف من ألف جندي لحراسة حلق الوادي تحت امرة برناردو دي ماندوزا (bernardo de mandoza)[6] ، وإلى جانب هذه القـوة تقرر أن تبقى كذلك قوة بحرية مكونة من اثني عشر قادساً شراعياً، تحت امرة أنطوان دوريا (ابن أخ دوريا) [7].

وبمجرد خروج الإمبراطور شارلكان من تونس حتى عادت الفوضى إلى تونس، ورفض الشعب التونسي السلطان مولاي حسن، ولخير الدين باشا وصفاً دقيقاً في ماجرى:" وكان الحسن لما فتح على مدينة تونس الباب الذي أعجز سدّه وكان السبب للقضاء الذي لم يمكن لهم ردّه، فمكن أعداء الدين من حصار حلق الوادي حتى شاركوه في تصرفات البلاد وكان المشاركة عظيم جيش النصارى الذين استنجدهم لغرض نفسه وادخر بذلك مايجاوره في رمسه واسم عظيم النصارى المذكور خوان بن /جاكمو وشاركه في أحكام القصبة وصار العدُو مع الحفصي كالمتمكن بمُديته على الرقبة وأكثر ما تقوّى تجرّؤ العدُو في أيام محمد بن الحسن أي أحمد-صاحب تونس أندك [8].

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص29 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في..، المرجع السابق، ص181.

(2) - Mercier Ernest, op. Cit, t3, P40.

(3) - ألفون روسو، المرجع السابق، ص 91 وأنظر أيضاً : محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص154.

(4) -تملك النصارى حلق الوادي وبنوا حصارهم المشهور وشيدوا بناء لم يشيد شددا، وبدوءا بناءه عام 937هـ؛ فهدموا أكثر اقواس الحناية التي كانت لقرطاجة واخذوا الحجارة لبنيانه، وجعلوا الرمية على أهل البلاد من الجير والجص وحصنوه حصانة لم يكن لها نظير واداروا به خندقا ووضعوا فيه ماء البحر، الى ان دار به دوار السور وملاوه بآلات الحرب والرجال ومايحتاجون اليه بحيث صار غصة في الحلق وصاروا يكمن باغاراتهم ومراكبهم ويقطعون في البحر على المسافرين ويأخذون السفن للمزيد أنظر: محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص208.

(5) -ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص15 وأيضاً: محمد بن محمد السراج التونسي، المرجع السابق، ج2، ص 209.

(6) — من قادة البحرية الإسبانية ومستشار شارلكان أثناء احتلال لتونس عينه حاكماً على حلق الوادي بعد احتلالها. أنظر: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر مع دول ومماليك أوروبا، المرجع السابق، ص45.

(7) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص651 وأنظر أيضاً: ألفون روسو، المرجع السابق، ص 91.

(8) -ويأتي ما هو أوضح من ذلك عن محمد الحفصي للمزيد أنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص207.

2-الإسبان يستكملون مشروعهم الاحتلالي في تونس:

إن السيطرة على تونس قد عزز مكانة شارلكان في البحر الأبيض المتوسط، لأن حلق الوادي الواقعة على الطريق الجنوبي من مضيق صقلية، قد أكملت تقريباً مراقبته على مدخل البحر المتوسط واستكمالاً لمشروعه فإنه حاول أن يجعل المدن الأخرى في إقليم تونس، خاضعة لتابعةُ الجديد السلطان الحسن الحفصي.

أولا-احكام القبضة على بنزرت وعنابة:

أ-محاولة السيطرة على المهدية [1]:

عندما اعتلى الإمبراطور شرلكان سفينته مغادراً حلق الوادي، أصدر أوامره إلى الأسطول الإسباني بالعودة إلى موانئه الأصلية في إسبانيا [2] أما هو فقد توجه مع بقية أسطوله إلى مدينة المهدية، التي تنازل له عنها السلطان الحسن الحفصي بموجب المعاهدة التي وقعها سنة(942هـ/1535م) إلا أن سوء الأحوال الجوية اضطره إلى تأجيل تلك الحملة[3] لذلك توجه إلى صقلية، حيث نزل في ميناء طراباني، وانتهز فرصة إقامته في ذلك الميناء لتدبير الهجوم منه على مدينة المهدية، وكان على رأس جيش مكون من 5000خمسة آلاف رجل من قوات الإنزال، غير أن الرياح العاتية واضطرابات الجوّ، أحبطت مشروعه، ولم يستطع الظفر بها في تلك السنة [4] كان الإمبراطور يريد الاستحواذ عليها بأي شكل من الاشكال وهذا نظراً لموقعها فهي الأقرب إلى جزيرة صقلية[5] لكن ماإن حلّت سنة (946هـ/1539م) حتى أستطاع الإسبان إنزال حامية عسكرية بها، وبطلب من سلطان تونس الحفصي للقضاء على ثورة داخلية ضدّه، فغضب السكّان وثاروا لأنه لم يرضوا بهذا الاحتلال فاضطرّت الحماية إلى الانسحاب [6] لكن ذلك ليس السبب الحقيقي حسب وجهة نظرنا، فكما سنرى لاحقا أنّ جميع الحاميات الإسبانية انسحبت من الموانئ الحفصية في تلك الفترة، عدا حامية بنزرت وحلق الوادي.

ب-احتلال الإسبان لمدينة بنزرت(942هـ/1535م):

كان سكّان مدينة بنزرت [7] أول من اعترف بخير الدين باشا بعد فتحه لتونس، كما رحبوا بالحامية العثمانية التي جاءت إلى حصن مدينتهم[8] لذلك أمر الإمبراطور شارلكان الأميرال أندري دوريا بمهاجمتهم من جهة البحر أما السلطان الحسن الحفصي فيهاجمهم من جهة البرّ، وتمّ أخذ المدينة عنوة، لأن الأهالي والعثمانيين المتواجدين في الحصن قد استسلموا من أول وهلة؛ أستغلّ السلطان الحسن الحفصي الوضع فأنزل عقابه بالسكّان الذين

---

(1) -المهدية: مدينة ساحلية تطل على البحر المتوسط، بناها المهدي الشيعي سنة 913م، غزاها بيدرو نقارو في 1519م لكنه فشل في احتلالها، للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 85.

(2) – Ernest Charrière, op .cit, t1, p277.

(3) -ألفون روسو، المرجع السابق، ص 91 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص927.

(4) -محمد فريد بك، المرجع السابق، ص235 و: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر و.."، المرجع السابق، ص 95.

(5) - H. Garret ،op .cit, t1, p38.

(6) –بوعزيز: مقاومة جربة... مرجع سابق، ص 63 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص78.

(7) – بنزرت مدينة عتيقة تقع على ساحل بحر المتوسط، تبعد عن تونس ب:35 ميلاً للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص68.

(8) –إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان.. ، المرجع السابق، ص237 وأيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في..، المرجع السابق، ص187.

ثاروا ضده ثلاث مرّات[1]؛ وفي الرسالة التي بعثها الدّوق برناردو دي ماندوزا إلى الإمبراطور شارلكان(942هـ-1535/12/20م) يخبره فيها: بأن السلطان الحفصي قد قام بهدم حصون بنزرت، وأن هذا التصرف قد أعجبه وكان يتمنى أن يتمّ هذا مع باقي المواقع البحرية لتونس، عندها لم يجد القراصنة ملجأً[2] وبما أن برناردو دي ماندوزا عين ممثلا لشارلكان في تونس وقائد عام في حلق الواد، فقد كان همه الأول منصباً على بناء القلاع الاسبانية، في المناطق التي تمت السيطرة عليها كحلق الوادي وبنزرت وعنابة وتدمير الأسوار التي كانت تحمي الأحياء المسلمة في تلك المدن التي أضحت إسبانية[3].

ج-احتلال مدينة عنابة (942هـ /1535 م):

جاء في تقرير تجسسي موجه إلى الإمبراطور شارلكان في جويلية/1535م يولي صاحبه فيه أهمية لمدينة عنابة حيث أورد: "أن المدينة مثل بنزرت لها وادي، بإمكان المراكب الدخول فيه وقضاء فصل الشتاء وإنها ذات موقع قوي يجب احتلالها"[4] والتي كانت تابعة اسميا لسلطان بني حفص بتونس والتي اعترف سلطانها أبو الحسن الحفصي بالتنازل عنها للإسبان بناء على ما نصت عليه المعاهدة التي عقدت بين الملك الحفصي وشرلكان [5].

إن هذا التقرير جعل شارلكان يحرص على جعلها من المناطق التي يجب يتنازل عنها الحسن الحفصي لصالحه تحت المعاهدة المبرمة بين الطرفين، وذلك لخنق الجزائر اقتصادياً [6] أما السبب الثاني خشيته من سقوطها في قبضة خير الدين باشا، فما أن غادرها الأخير؛ حتى كلف شارلكان الماركيز دي مونديجار باحتلال عنـابة في أوت/ 1535م وهو في طريقه إلى اسبانيا [7] ففي 23من نفس الشهر اقلع الدوق الفار ودي بازان (don alvaro de bazane) الذي سبق دي مون ديجار بأسطوله المتكون من15 سفينة في طريقه إلى عنابة حيث فوجئ بإطلاق نيران مدفعية أفراد الحامية التي تحصنت في قلعتها بدافع العزم على حمايتها[8].

وفي25 من نفس الشهر وصلها مونديجار بأسطوله المتكون من ثلاثة ألاف رجل تم إنزالهم بعيداً عن القلعة، بعدها شرعت قواته في محاولة الاستيلاء على مدينة عنابة؛ وبعد مقاومة دامت ثلاثة أيام انسحب

(1) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص10 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص97.

(2) - Ernest Charrière, op .cit, t1, p279.

(3)-Ch.de la Veron :<<sours de l'histore de la Tunisie dane les archives espingoles, l'expédition de Moulay Hassan à Kairouan en 1536>> -<< actes du premiers congrès d'histoire de la civilisation du magreb >>, t2, tunis 1979.

(4)- De la primaudir : document …, op. Cit, << avis donné à tunis à sa majesté sur ce qui serait posible de fair la flotte pour nuir les en emis, juillet 1535>>, R .A, t20, 18

(5) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص119-120 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص105.

(6) -ناصرالدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، (م، و، ك) الجزائر، 1985م، ص204.

(7)- De la praimaudair : document …, op. Cit, <<introductions de sa majesté au marquis de mondejar, tunis, 16 aout1535>>, R .A, t20, 1876, pp232-233.

(8) -H. Garret, op. Cit, p 39.

أهلها منها [1] وترك المدينة خالية التي غادرها سكانها وبعد التمكن منها:" عاثوا في تلك الجهات فساداً يغيرون على أهلها ويغنمون منهم عدداً من المواشي والعبيد وغير ذلك"، واستمرت أعمال النهب ما بين7 إلى8 أيام [2] ثم قام دي مونديجار بمغادرتها بعد أن ترك فيها ثمانمائة جندي بناء على تعليمات الإمبراطور شارلكان منهم مائتين بالحصن وستمائة لحماية المدينة [3] أي ترك الإسبان بالمدينة حامية عسكرية تتولى حراستها تحت قيادة ألفارو قوميز، وبحوزته المواد الغذائية الأزمة كما انه كلف بجمع ثمانية ألاف أوقية من مداخيل المكان [4].

بالرغم من ذلك لم يستطع الإسبان سوى احتلال مدينة عنابة، لكون الجهات المطلة عليها كانت محاطة بأهالي المدينة صحبة الحامية العثمانية وقد تمكن هؤلاء الأخيرين من نصب الكمائن للإسبان حتى على أبواب المدينة [5] ومع هذا سعى الإسبان للاحتفاظ بها من خلال تعيينات الموظفين والعسكريين، والإنفاق على تكاليف الجيش الاسباني بعنابة، وكذلك عبر الأشغال التي ينبغي القيام بها وانجازها لإبقاء الحصن بكل إمكانياته ضد أي هجوم للمسلمين عن طريق البر أو البحر[6] وكان احتلال عنابة من الناحية الشرقية للجزائر؛ وغزو تلمسان من الناحية الغربية هو محاولة تشديد الخناق على الجزائر بسبب نشاط الباي لارباي خير الدين باشا المتواصل في غرب البحر المتوسط بضرب الأهداف الاسبانية إلا أن هذا الاحتلال كان متخلخلاً ومهدداً من طرف قوات حسن أغا المتمركزة في قسنطينة [7] وعندما كان محمد باشا يقوم بما أسند إليه [8]؛ بدأ التونسيون يتحرشون بالجزائريين فعمدوا أولاً إلى تحريض سكان قسنطينة على رفع راية التمرد والعصيان ضد الأتراك، فقام أهاليها بقتل الحراس الأتراك وبصعوبة بالغة استطاع القائد التركي إنقاذ نفسه [9] وحالماً علم محمد باشا بذلك أعد قوة واتجه إلى العصاة وألقي القبض عليهم وقطع رؤوس قسم منهم، وبيع بعضهم أسرى، وبهذه الوسيلة تمكن من إخماد العصيان [10].

---

(1) -انظر نص الرسالة التي بعث بها قائد الحملة الإسبانية على مدينة عنابة إلى الإمبراطور شرلكان بتاريخ 29أوت1535م، والتي بين فيها تفاصيل الحملة للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، صص239-240.

(2)- ألفون روسو، المرجع السابق، ص 93 وأنظر أيضاً : عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص932.

(3) - Mercier Ernest , op. Cit, t3, p41.

(4) - Albert prieur , op. Cit, P160.

(5) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص 9 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، صص 115-116.

(6) -ميكال دي ايبالزا، "حول ثلاثة احداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة واسبانيا"، (ت-ع) عبد الحميد حاجيات، الأصالة، العدد 34-35، الجزائر، 1976، ص133.

(7) - المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص24 وأنظر أيضاً : عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص83.

(8) -عمل محمد باشا على تحصين وتحكيم أسوار المدينة، كذلك فقد أنشأ برجين من الجهة المفتوحة مقابل مدينة الجزائر وسمى واحداً باسمه والثاني سمي برج حجي علي. أنظر: محمد درّاج، المرجع السابق، ص405.

(9) - Vayssettes, (E) : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837:ed Bouchene 2002, P76.

(10) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص366 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص158.

ثانيا-إتمام السيطرة على باقي السواحل (القليبية، سوسة، صفاقس، المنستير):

ما إن غادر الإمبراطور شارلكان مدينة تونس، حتى اندلعت اضطرابات عديدة ووقع تمرد هائل في داخل البلاد إعلانا بعدم اعترافهم بمعاهدة الحماية (1) لذلك فان سلطة الحسن الحفصي لم تتجاوز أكثر من مدى قذائف الإسبانية ولم يستمر في دعمه إلا بعض القبائل التي كان لها الدور في توطيد دعائم الإسبان (2).

أ-القليبية (3): كانت موالية للعثمانيين، لما قصدها الجيش الإسباني من أجل إخضاعها، دافع عنها أهلها ببسالة (4) حتى إنهم قاموا بقتل وجرح أشجع الجنود الإسبان، لكنها لم تستطع صد هذا الهجوم، وانهزمت في آخر المطاف؛ فاستشهد ألف شخص، وتم أسر ألف من الناس والأطفال، ثم سلمت للحسن الحفصي (5) وبما أن سكانها على كراهية شديدة لهذا الأخير لما لحقهم من شروره، فإنهم لايتورعون عن التمرد عليه، فكان يسلط عليهم الجنود الإسبان في كل مرة يثورون فيها، وفي المرة الثانية والثالثة لم يظهروا مقاومة تذكر، وكان ذلك في (948هـ/1541م) لأن العثمانيين غادروا المدينة وتركوا الأهالي دون مدافع (6).

ب-سوسة (7): كانت موالية للعثمانيين، ولما عجزت سلطات الحسن الحفصي عن طردهم، استنجد بالإمبراطور شارلكان الذي أصدر أوامره إلى نائبه في صقلية، فعهد هذا الأخير إلى ماركي دوطيرنوف (8) بهذه الحملة التي جهز لها أسطولاً يتكون من14سفينة بحرية، و4سفن ضخمة على متنها2000 جندي، كما قام ملك تونس بدوره بإرسال جيش عن طريق البر عدته سبعة ألاف فارس، وجعل ولده على رأسهم؛ إلا إن الإسبان فشلوا في حملتهم واضطروا للعودة إلى سفنهم، بعدما تعرضوا لخسائر فادحة (9)، فقرر الإمبراطور تكليف أندري دوريا بتلك الحملة فاستطاع إخضاعها كان ذلك بعد انقضاء عامين على وقوع تلك الحملة الفاشلة، فلم ينجوا سكانها من جور الإسبان، لكنها بعد ذلك تمردت على السلطان الحفصي (10).

---

(1) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص121 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص158.

(2) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، ص237 وأيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص645.

(3) -القليبية: قلعة مبنية على هضبة كبيرة بعد ميل واحد من ساحل مدينة تونس، وعن الحمامات 35ميل للمزيد أنظر: يعقوب جايماز اوغلي، "تونس من خلال كتاب بحرية للرحالة التركي بيري رايس في القرن السادس عشر"، (م، ت، م،)، عدد 110، جانفي 2003م، ص284.

(4) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص237 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي...، المرجع السابق، ص106.

(5) – علي الشابي، المرجع السابق، ص 136 و: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر و..."، المرجع السابق، ص 97.

(6) -مارمول كربخال، المصدر السابق، صص63-64 وأنظر أيضاً: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص447.

(7) -سوسة: مدينة بناها الرومان على ساحل المتوسط وبعيدة على تونس 100 ميل للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص455.

(8) -نبيل من نبلاء صقلية. للمزيد أنظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص65.

(9) -ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92 و:علي الشابي، المرجع السابق، ص129و:محمد علي الصلابي، صفحات..، المرجع السابق، ص208.

(10) -مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص66 وأنظر أيضاً: علي عامر حمود، المرجع السابق، ص81.

ج-صفاقس [1]: بعد احتلال تونس من طرف الإمبراطور شارلكان رفض أهل صفاقس الخضوع له، لأنهم كانوا موالين للعثمانيين [2] لكن عندما قصد مينائهم أسطول مكون من عشرين سفينة حربية، موفد من طرف ملك صقلية لاستخلاص الجبايات من قائد جربة، التمسوا حماية الأمير محمد بن الحسن الحفصي، لكن حمايته لم تدم طويلاً فقد استطاع العثمانيون السيطرة على المنطقة [3].

د-المنستير [4]: استولى عليها أندري دوريا سنة1539م [5] وترك فيها فرقة من الجنود، اصطحابها السلطان الحسن الحفصي عندما زحف على القيروان، وهي التي غطت انسحابه لكنها لم تكمل مهمتها في المنستير وغادرت في (648هـ/ماي1541م)، مما حمل العثمانيين على بسط نفوذهم مرة أخرى [6]، هكذا سقطت مدينة تونس وضواحيها، وخضع معها الحفصيون للإسبان، ويكمل لنا خير الدين:" بينما بقيت المناطق الجنوبية وجميع السواحل الشرقية خاضعة لنا أما تونس فكانت قد بقيت تحت إدارتنا 11 شهرا "[7].

ومن خلال ذلك نستنتج أن سحب الإسبان لحامياتهم من الموانئ الحفصية، عدا بنزرت وحلق الوادي كان متزامنا مع التحضير للحملة التي وجهها شارلكان للجزائر في (أكتوبر 1541م) [8]، أما أن الخزينة الإسبانية كانت عاجزة عن تحمل نفقات جنود الحاميات فلم يكن سببا مقنعاً، لأنه قد جمع حوله كل الأمم المسيحية وتمكن من تجهيز أكبر حملة عسكرية عرفها البحر المتوسط، خلال القرن (10هـ/ 16م).

3-موقف شيوخ الزوايا والأعيان في تونس من الأحداث:

رغم الانتصار الذي حققها الإمبراطور شارلكـان في تونس، إلا أن المراسـلات الإسبانية كانت تُعبـر عن قلق الإسبان وتخوفهم، فقد كانوا يشعرون أن الاستيلاء على تونس رغم الوسائل الهائلة التي جُندت، ورغم أهمية تونس التاريخية والثقافية إلا أنها مكسب ليس له مستقبل، فقد كان مجموع القطر يفلت من أيديهم [9] والسلطان الحسن الحفصي الذي دخل تونس مع الجيش الإسباني كان مكروها من الأهالي، لأنهم لم يغفروا له

---

(1) -مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط وهي مدينة كبيرة اسوارها عالية ومنيعة. للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص460. وأنظر أيضاً: Aderno . A : itinéaire d'anselme en terre saint e (1470-1471), texe édité, trad et annoté par jaques heers et georgette de grener, paris 1978, p131.

(2) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص238 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي...، المرجع السابق، ص112.

(3) -مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص67 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص154.

(4) -المنستير: مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر، تقع على بعد 12 ميلا (21كم) من تونس محاطة بأسوار قوية وعالية. للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص456.

(5) -بعد احتلال المهدية والمنستير، تم فرض حصار على جربة. للمزيد أنظر: محمد المهدي بن على شغيب، المرجع السابق، ص108.

(6) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص67 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص943.

(7) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 179 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص193.

(8) -للاطلاع أكثر على هذه الحملة أنظر: مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر(948هـ/1541م) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية "، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد7-6، الجزائر 1969م، صص 34-56.

(9) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص 94 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص156.

استغاثته بأعداء الدين من أجل استعادة عرشه [1] وقد كانت سوسة والمهدية وصفاقس، وكل السواحل الممتدة جنوب القليبية تؤيد العثمانيين، وتقف إلى جانب خير الدين باشا، وتدفع له الجزية باسم السلطان العثمانين [2] كما رفض أعيان مدينة تونس أمثال العباس وأحمد العشفي وغيرهم خدمة السلطان الحفصي فجمعوا تحت راياتهم الفلاحين واللاجئين الفارين من تونس إلى جانب بعض فرسان البدو، وقادوا الانتفاضة ضد الإسبان [3].

لم تكن سلطة حاكم تونس العجوز تتعدى نطاق مدينة تونس، ومنذ سنة 943هـ /1536م كتب إلى الإمبراطور شرلكان يلتمس منه تسليمه الحصون ومساعدته، وفي حالة عدم مساعدته فإنه سيطرد من تونس وقد استشار شرلكان دون بوناردينو مندوزة (Don Bernardino Mendoza) فأجابه قائلا "حاكم ضعيف كهذا وإن الجميع ينفرون منه، فالأفضل احتلال تونس مباشرة [4].

أولاً–استقلال الشابيين بالقيروان [5]:

أما في عهد السلطان الحسن الحفصي فقد انقلبت أحواله فاضطربت عليه البلاد، وخرجت عنه بلد سوسة، قام بها صهره القليعي، وقام عليه بالقيروان الشيخ عرفة من ذرية سيدي نعمون وهو جد الشابيين [6] فقد كان سكان القيروان يتعرضون لابتزاز السلطان الحفصي، فقد أثقلت الضرائب كاهلهم " ماأوقعهم في كرب عظيم" [7] وهذا الأمر هو الذي حملهم على الترحيب بالعثمانيين؛ عندما بسط خير الدين نفوذه على تونس كمخلصين لهم مما كانوا عليه [8].

وعلى إثر معاهدة 1535م رفض عرفة الشابي [9] الاعتراف بسيادة الحفصيين، وأعلن استقلال القيروان وبهدف تثبيت نفسه نهائياً حاكماً مستقلاً تمام الاستقلال، أعلن عن إحياء سلطة المرابطين، وعين يحي [10] في منصب الخلافة فسير له السلطان الحسن الحفصي [11] قواته وجرت المعركة قرب بطن القرن على مسافة 12كم

---

(1) –حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص109 وأنظر أيضاً: ألفون روسو، المرجع السابق، ص 91.

(2)-A. Aderno, op.cit, p131.

(3)- إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص238 وأنظر أيضاً: Henri Faro, Garrit .Histoire générale de l'Algérie .paris 1889, pp119-120.

(4) -المجلة الإفريقية لسنة 1877م، ص21و 211 وهي مجلة تتعلق وثائقها بصورة خاصة بالاحتلال الإسباني لتونس، منقولة عن: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص227.

(5)- القيروان مدينة أسسها عقبة بن نافع سنة (52هـ/672م) تقع في سهل شاسع الأطراف تبعد ب 100 ميل عن تونس. للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 460.

(6) – محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص641 و: محمد بن محمد السراج التونسي، المرجع السابق، ج2، ص210.

(7) – عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص946 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السراج الأندلسي التونسي، المرجع السابق، ج2، ص213.

(8)- مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص 98 وأنظر أيضاً : عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص85.

(9) -عرفة الشابي (1473-1543م): هو الابن الثاني لمؤسس الطريقة الشابية، وقد حل في سنة 1485م محل أخيه محمد، وصفته المصادر بأنه أحد أقطاب المالكية، وخليفة القيروان نظراً لجهاده ضد المسيحيين وعملائهم. للمزيد أنظر: علي الشابي، المرجع السابق، ص ص68-70.

(10) -يعود نسبه إلى قبيلة لمتونة البربرية الصحراوية التي أسست دولة المرابطين للمزيد أنظر: Mercier Ernest, op, Cit, t3, p39.

(11) - Henri Faro, op .cit, pp119-120.

غرب القيروان، لكن قوات سيدي عرفة المتحالفة مع العثمانيين [1] استطاعت إنزال الهزيمة بالحسن الحفصي [2] يقول المؤرخ ابن أبي الضياف:" انقلبت أحواله فاضطربت عليه البلاد وكانت قد خرجت عن طاعة منذ أيام الحسن كل من سوسه قام بها صهره القليعي والقيروان وثار بهما الشيخ عرفة من ذرية سيدي نعمون وهو جد الشابيين، وقد أتاهم برجل يدعي انه من بني حفص بايعه، وبقي اسم الولاية له، ومسماها للشيخ" وبعد أشهر من حملته على القيروان[3]، أعاد الكرة عليها بالتحالف مع أحد زعماء بليل [4]؛ لكن هذه الأخيرة باءت بالفشل حيث نشبت المعركة تحت أسوار القيروان في (943هـ/ 1/28/ 1536م)، فكبد مولاي الحسن هزيمة ساحقة هرب على إثرها من ساحة القتال واختبأ عند حليفه (شيخ قبيلة أولاد سعيد) [5] أين قام بتغيير فرسه ثم انطلق إلى مدينة تونس [6] أما الحملة الثالثة فكانت في (947 هـ/ 1540م)، وتعرضت على إثرها القوات الحفصية بقيادة الحسن الحفصي، والتي بلغ تعدادها قرابة ثمانية آلاف إلى إبادة تامة [7] ويقول في هذا الصدد المؤرخ التونسي السرّاج "وعندما أستقر الحسن بتونس تراجع أهل البلد بعد التشتت والنهب خرج الحسن بمحلة ليفتك القيروان من يد الشابين فتلقوه بالسيف ودَهمُوه ليلاً واغتنموا ماله وسلاحه، فأقسم لايرجع عنها بحال وعزم على أن يستنجد لها النصارى ويفتكّها منهم" وأثارت ثورة القيروان حفيظة الحسن الحفصي[8] فقرر إخضاع عرين الانتفاضات هذا، واستئصال شأفة ثواره [9] فقام بضم قواته إلى الحاميات الاسبانية المتواجدة لديه، وسار للقيروان الثائرة عليه قصد مهاجمتها في نوفمبر من نفس السنة (947هـ/ 1540م) وكان معه ألفان من الإسبان و15000من البدو جاءوا جميعاً مع نسائهم وأولادهم، فبلغ عددهم قرابة ستين ألفا، وكانت المعركة قرب جمالة الواقعة على بعد 19كم جنوب المنستير، لكن القيروانيين، بمساعدة العثمانيين هزموا جيش الحسن الحفصي [10]

---

(1) – كان هذا التحالف الظرقي – العثماني تحالفا ظرفيا اقتضته الضرورة، لأنه سيتم طرد الحامية العثمانية من القيروان سنة 1538م. للمزيد أنظر دلندة الأرقش وآخرون: المرجع السابق، ص 54.

(2) – محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص 206 وأيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص176 وأيضاً: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص 99.

(3) –ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: علي الشابي، المرجع السابق، ص 124.

(4)– قبيلة أولاد بليل زعيمها الشيخ عبد المالك، وعدد فرسانها يصل إلى1200 ويجمع حوله أربعمائة حربة، ودواويره متفرقة عبر الجبال المحيطة بباجة التي تبعد 65ميلا على تونس غربا، وهي أغنى منطقة من ناحية إنتاج القمح. للمزيد أنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 476.

(5)– لم يتمكن الحفصيون من الانتصار عسكريا على قبيلة أولاد سعيد، فجنحوا لمهادنتها، واعترفوا لها بسيطرتها الفعلية على المقاطعات التي اشتملت عليها، مقابل دفع إتاوات سنوية، مقدارها 6000 دينار، ونظراً لكون الإسبان يعرفون جيداً قيمة مؤسسة الشيخ ودورها، ومساندتها للمتحكم في دواخل البلاد، فإنها سعت لكسب تأييد هذه القبيلة، وقد ربط الإسبان في حلق الوادي علاقات مباشرة مع زعيمها بأضياف. للمزيد أنظر: محمد الحبيب العزيزي، المرجع السابق صص 237-238.

(6)–إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص 243 وأنظر أيضاً : حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص113.

(7)–علي الشابي، المرجع السابق، ص131 وأنظر أيضاً: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص 243.

(8) – محمد بن محمد السراج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص206 وأنظر أيضاً: علي الشابي، المرجع السابق، ص 127.

(9)– ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص ص161-163.

(10) – علي الشابي، المرجع السابق، ص ص 132-134وأنظر أيضاً: Mahmoud Bouali, op, cit, p158

لأن معظم جنوده انحازوا إلى جهة الثوار، فأضطر إلى الانسحاب نحو مدينة تونس وساعدته على هذا حامية المنستير الإسبانية التي صدت عنه هجمات الثوار وغطت انسحابه [1].

بعد معركة جمالة أصبح الحسن الحفصي في عزلة تامة، وتوقف الإسبان عن إمداده بالجنود والذخائر حتى أن دي ميندوزا أشار مراراً في رسائله، أن الحسن لم يعد يطيقه أحد لأنه تسبب بويلات كثيرة لشعبه [2]ولما أحس هذا الأخير بالكراهية العارمة من قبل بني جلدته، أصبح كثير الإلحاح للحصول على مساندة من الإسبان والتوسل إلى الإمبراطور، كي لايتركه إلى مصير مجهول [3] فكانت تونس تعاني حالة مضطربة، فالأهالي لايوالون إلى المولى حسن المعين عليهم من طرف الإسبان تحت قيادة شارلكان، وكانت المعارضة برئاسة ابنه أحمد، كما أن أكثر المدن استقلوا وكثير من القبائل انفصلوا عنه، حيث لم يتعدى حكم مولاي حسن إلا أسوار المدينة.

ثانيا – تمرد الأمير أحمد على والده السلطان الحسن وانتزاع حكم تونس منه (949هـ / 1542م):

أدرك السلطان الحسن الحفصي أبعاد الموقف الحرج الذي وقع فيه، فقرر التوجه بنفسه إلى الإمبراطور شارلكان سنة (949هـ / 1542م) قصد مساعـدته لأخذ المهـدية والقيروان [4]، وبما أنه لم يجد في حاشيته شخصاً يأتمنه على كنوزه، فقد سلمهـا لحاكـم حلق الوادي فرانسيسكو دي توفرا (Francisco De tolar) [5]، وأقســم أن يفعل بهم مافعله بأهل تونس (استباحتها) [6].

كان للحسن ابن يدعى أبا العباس أحمد والياً على عنابة، ولما سمع بما أقدم عليه والده من استنجاد بأعداء الدين مرة أخرى، وأن البلاد في حالة فوضى اغتنم فرصة غياب والده، فقدم إلى تونس سنة1544م وأحدث انقلاباً على والده بعد استشارة كبار الأعيان في تونس، واستطاع القضاء على أنصار والده ودخول المدينة [7] أما الحرس الاسباني الذي كان مكلفاً بحماية السلطان الحسن فقد أيد الانقلاب [8] وشكل ذلك ضربة مؤلمة لحامية حلق الوادي، رغم مشاركة الحرس والأعيان مشاعرهم تجاه الحسن الحفصي، إلا أنهم لم يثقوا بالسلطان أحمد لأنه زعيماً للمعارضين [9] إذن فكانت تونس تعاني حالة مضطربة، فالأهالي لايوالون الى المولى الحسن المعين عليهم من طرف الإسبان ولا المعارضة برئاسة ابنه أحمد الذي اغتصب الحكم من أبيه.

---

(1)- ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص161.

(2)-Albert prieur, op. Cit, P160.

(3)- فقد ورد في إحدى الرسائل مايلي : " أرجو منكم أن تساعدوني في الخروج من تونس هذا البلد، والالتحاق بوطن المسيحيين، إذا رفضتم مساعدتي". للمزيد أنظر:.Roy (J. E) , op, cit.t1 ,p119

(4)- ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92 وأنظر أيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 176.

(5) - De Grammont, op, cit, p104.

(6) – ابو العباس أحمد بن ابي الضياف ، المرجع السابق، ج2، ص15 وأنظر أيضاً: ألفون روسو، المرجع السابق، ص92.

(7) –محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 187 وأنظر أيضاً: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص15 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص956.

(8)- حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 127وأنظر أيضاً: Mercier Ernest, op. Cit, t3, p56.

(9)- De Grammont, op, cit, p105.

وكان الحسن الحفصي في إيطاليا لما علم بأمر الانقلاب، فغير مخططاته فوراً وحشد بضعة آلاف من المرتزقة، وجعل على رأسهم أحد المغامرين الإيطاليين النابوليتانيين يدعى لوفري دو (Lofrido)، وتحرك بهم إلى تونس للسيطرة عليها، ووقعت معركة كبيرة في خربة الكلخ شرق مدينة تونس، تكبد على إثرها الحسن الحفصي هزيمة ساحقة (1) فخاف سكان تونس أن يحدث لهم مثلما حدث لهم في حملة شارلكان فالتفوا حول سلطانهم أحمد الذي بذل لهم أموالاً كثيرة أثناء المعركة، فقد ورد عن أبي الضياف مايلي: " أن أبا العباس قد أمر لكل من أتى برأس قتيل وأسير فله مئة دينار"(2) وحاول الحسن الحفصي الهرب، لكنه وقع في مستنقع كريه الرائحة، لم يُتمكن من إخراجه منه إلا بصعوبة بالغة ووقع أسيرا بين يدي ولده أبي العباس، الذي قام بسمل عينيه وأخذ الحكم منه (3) وأصبح الحسن محروماً من النظر، وبقي تحت مراقبة ابنه، لكنه تمكن من الهرب بعد فترة والتحق بروما، أين قابل الإمبراطور شارلكان، الذي أمر له بتعويض بسيط ثم أرسله إلى إيطاليا، حيث تقول بعض المراجع أنه اعتنق المسيحية (4) بينما تقول مراجع أخرى أنه مات في معسكر إسباني قرب المهدية قبل لجوئهم إلى حلق الوادي ويقول المؤرخ ابن أبي الضياف: " انطلق السلطان أحمد من نقطة البداية نتيجة إفلاس الخزينة التي أنفقت على الجند الاسباني ومما شاع عليه أنه كان يؤمن كثيراً بالمنجمين الذين الذين تنبؤا لو بأن رجلا من الأعلاج البيض واسمه علي يأخذ منه الحكم فقام بجعل حاشيته وحرسه الخاص من أهل السودان"(5).

4-وضع تونس في ظل الظروف الدولية والإقليمية:

ويبدوا أن الحكم الإسباني في تونس لم يترسخ، وفي المقابل لقي الحكم الحفصي معارضة شديدة من جانب السكان وأدركت الحاميات الإسبانية صعوبة الموقف فبادرت إلى طلب تعزيزات عسكرية من إسبانيا ونظمت المعارضة التونسية للحكم الإسباني بمساعدة النجدات العثمانية حملات شديدة استهدفت أماكن وجود الحاميات الإسبانية، وفشلت حملة إسبانية أرسلت في عام 1538م في إنقاذ الموقف، كما انهارت سلطة الحسن الحفصي وسقطت المدن التونسية اعتباراً من عام 1541م في أيدي القوات العثمانية (6) وفي شهر أفريل من السنة المذكورة تم جلاء الإسبان عن أغلب المدن الساحلية، واعترف السكان بسيادة الدولة العثمانية لكن هذا الاعتراف بقي مزعزعاً بفعل محاولات الدولة العثمانية فرض سيطرتها المباشرة على البلاد وساد هذا الاعتراف الفتور وأحياناً العداء واستعاد آل حفص بعض سلطانهم وتعرضت التحالفات القديمة إلى تغيرات سريعة كما دخل الإسبان مجدداً على خط المواجهة وظلت الاوضاع في تونس قلقة طيلة فترة عهد السلطان سليمان (7).

(1)- ألفون روسو، المرجع السابق، ص 92. وأيضاً: محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 188.
(2) - عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص87 وأنظر أيضاً : ابو العباس أحمد بن ابي الضياف ، المرجع السابق، ج2، ص16.
(3) -محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص179 وأنظر أيضاً: ألفون روسو، المرجع السابق، ص 93.
(4)- De Grammont : op.cit., p106.
(5) - محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص674 و: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص17.
(6) -نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار...، المرجع السابق، صص206-207 وأيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص349.
(7) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص298 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص125.

أولاً: معركة بروزة وسيطرة العثمانيين على البحر المتوسط 1538:

ترامت إلى الخليفة سليمان القانوني أنباء عن نقض جنوة لمعاهدة السلم التي كانت تربطها بالدولة العثمانية منذ سنة 1502 وأعلنت تحالفها مع الإمبراطور شرلكان في حربه ضد العثمانيين[1] فكانت هذه الخطوة سببا في دفعه إلى تأجيل حملته على روما وأعطى أوامره إلى قواته بالتوجه إلى جزيرة قورفو Korfu الواقعة على ساحل بحر الأدرياتيك، والتي كانت تابعة لجنوة، فقام الأسطول العثماني بفرض حصار على الجزيرة من البحر، بينما قام 25000 جنديا بمحاصرة قلعتها من البر لمدة 12 يوم، لكن سوء الأحوال الجوية ووصول أنباء عن تحرك القوات الصفوية في إيران نحو تبريز، وإرسال الجنويين لوفود مُعلنة رغبتها في تجديد معاهدة الصلح، كل هذه الأسباب وغيرها دفعت العثمانيون إلى رفع الحصار عن القلعة والعودة إلى إستانبول [2].

وفي سنة 1537 خرج خير الدين بربروس بأمر من السلطان القانوني على رأس أسطول عثماني مكون من 280 قطعة بحرية من مختلف الأحجام، فأغار به على أولونيا Aylonia، مرورا بقورون Koron ومودون Modon، وبروزة Preveze لقد كان الخليفة سليمان القانوني يهدف من وراء هذه الحملة إلى فتح روما بعد أن يستولي على مملكة نابولي، فيحقق بذلك الحلم الذي طالما راود خيال أجداده السلاطين العثمانيين منذ عصر الفاتح [3] ولكن الدولة العثمانية سحب جيوشها من شمالي إيطاليا؛ قد أغضب خير الدين واستولى على معظم جزر بحر إيجه الذي أصبح تحت السيطرة العثمانية [4] ترامت إلى مسامع السلطان سليمان القانوني الجهود التي كان البابا بول الثالث لتوحيد أوروبا ضد الأتراك وكللت جهوده بعقد هدنة مدتها عشر سنوات بين ملك فرنسا فرانسو الأول وبين الإمبراطور الإسباني شرلكان ثم لم تلبث البندقية أن انضمت إلى هذه المعاهدة [5]، ثم تبع ذلك عقد تحالف صليبي سنة1538م، ضم معظم الدول الأوروبية الكبيرة في ذلك العصر مثل: إسبانيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة، البرتغال، البندقية، بالإضافة إلى الدول الصغيرة كجنوة، مالطا، فلورنسا ولم يتخلف عن هذا الحلف سوى فرنسا، وانجلترا، وقد تم هذا الحلف برعاية البابا، وزعامة شرلكان [6]، كان هدف شرلكان من هذا التحالف، الاستفادة من هذا الأسطول للقضاء على القاعدة العثمانية في الجزائر بينما كانت البندقية تهدف إلى استعادة الجزر التي استولى عليها العثمانيون في بحر ايجة، وهكذا فقد شهدت 1538م احتشاد أكبر أسطول أوروبي بحري يقوده دوريا في عرض البحر المتوسط لم يعرف تاريخ الحروب البحرية له مثيلاً منذ معركة أكسوم التي قادها ولي عهد إمبراطورية روما أوكتافيانوس ماركوس أنطونيوس ضد أسطول كليوباترا

---

(1) -نيقولا ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار..، المرجع السابق،ص ص205-209و: اسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة..، المرجع السابق، ص454.

(2) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص958 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص299.

(3) -إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع السابق، ص ص83 -87 وأنظر أيضاً: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص122.

(4) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص162 وأنظر أيضاً: محمد دراج، الدخول العثماني، ص298.

(5) -شكيب أرسلان تاريخ الدولة العثمانية، سوريا،2001م، ج1، ص140وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص ص290-300.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص300 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص164.

والتي وقعت في سواحل اليونان سنة 31ق م [1]، وقد أوقع القبودان خير الدين باشا هزيمة كبرى بالأسطول الصليبي عند بريفيزا القاعدة البحرية العثمانية الرئيسية في ألبانيا لكنه ثُبت أن هذا النصر كان عديم الجدوى بدون التحالف مع فرنسا [2].

كانت أهم نتيجة تمخضت عن هذه المعركة هي:

1-أكبر هزيمة في تاريخ المعارك البحرية حتى ذلك العصر بالنسبة للأسطول الأوروبي المسيحي برعاية البابا وبزعامة الإمبراطور الاسباني شرلكان.

2-سيطرة العثمانيين على شرق ووسط البحر الأبيض المتوسط بدون منازع [3].

ولم يغفل خير الدين باشا عن تطور علاقاته بالدولة العثمانية وإعلان تبعيته للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين وماواكب ذلك من تقارب في الرُؤى والمواقف السياسية الأمر الذي أفضى إلى تتويج ذلك الولاء بتعيين خير الدين قائداً عاماً للأساطيل العثمانية حاملاً لقب قبودان داريا هو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية فأثبت خير الدين أهليته وكفاءته العالية في القيادة العسكرية البحرية بتحقيقه انتصاراً باهراً في معركة بروزةpreveze على السواحل الإيطالية سنة 1538م، تلك المعركة التي كانت بين الأسطول العثماني والتحالف الصليبي بقيادة البحار الجنوي أندريا دوريا فكان من أثر ذلك الانتصار؛ أن استطاع العثمانيون بانتصارهم القوي على التحالف المسيحي الأوروبي؛ بأن يسيطروا سيطرة كاملة على طرق الملاحة والتجارة في البحر الأبيض المتوسط[4] وأن يفرضوا هيبتهم لأكثر من ثلاثين عاماً [5] أما الحوض الغربي للبحر المتوسط فإن القبودان خير الدين قد ترك وراءه أمهر البحارة العثمانيين الذين لعبوا دوراً كبيراً في تثبيت الوجود العثماني في البحر المتوسط وشمال إفريقيا أمثال: صالح رئيس[6] ودرغوث رئيس وعلي المرادي رئيس يسيطرون على أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغض المجاهدون من أهالي الشمال الإفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الإفريقي، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيك ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضاً

---

(1) -هارولد لامب، سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد، العراق، 1961م، ص ص207-210.

(2) -إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار...، المرجع السابق، ص102 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ص134.

(3) -للتوسع عن معركة بروزة، أنظر: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 305 و: محمد خيري فارس، دراسات...، المرجع السابق، ص165.

(4) – مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص59 وأنظر أيضاً: عبد الكريم غرابية، تاريخ العرب الحديث، مطبعة البعث العربي، دمشق، سوريا،1967م، ص98.

(5) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص11 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص92.

(6) -خليل الساحلي، " تقليد صالح باشا ولاية غرب (1552-1556م)"، المجلة التاريخية المغربية، عدد2، تونس،1974م، ص32.

الاتصالات بين إسبانيا وايطاليا، ولم تكن هناك مُهلة للإمبراطور شارلكان في الدفاع عن الطرق البحرية ضد العثمانيين التي كانت حلمه منذ طفولته[1]، كما أنه صار غير قادراً على تقديم مصالح مباشرة لإسبانيا [2].

ثانياً: حملة الإمبراطور الاسباني شرلكان على الجزائر 1541م والنتائج المترتبة عن فشلها [3]:

يبدوا أن شــرلكان فكر في غزو الجزائر غداة احتلال تونس1535م وقد ذكر صــاحب الغزوات أنه أرسل إلى المغرب جواسيسه للاطلاع على الطرق المناسبة التي تيسرا له احتلال المدينة [4] وفي سنة 1539م وافق البابا على تقديم إعانة مالية لتجهيز الحملة [5] كما بعث شرلكان إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ماعندك من السفن وإعدادها للسفر [6]، فجمع الإمبراطور في ميناء ماهون بجزيرة مينورقة أسطولاً ضخماً اختلف فيه المؤرخون في تقدير القوات الاسبانية: بعدد سفنه ومقاتليه، فذكر أنه كان مؤلف من 16 سفينة شراعية و65 ســفينة نقل كبيرة تحمل 12330 بحار و23900جندياً بالإضــافة إلى مئات القطع البحرية التي كان ترافق الأسطول، وهي أكبر قوة عسكرية بحرية تشق عباب غرب البحر المتوسط في القرن 16 وقد شارك في هذه الحملة نبلاء من اسبانيا وايطاليا، وألمانيا، كجنود متطوعين، كما اشترك فرسان مالطا، حيث كلف 140 منهم بقيادة فرقة عســكرة مكونة من400 جندي مدربين تدريب عالياً [7] ووقع اختياره للوقت الذي كان فيه القبودان داريا خير الدين في إستانبول بينما خرج الخليفة السلطان سليمان القانوني في حملته الهمايونية التاسعة لغزو المجر حيث لايمكن للعثمانيين أن يخوضوا معركتين كبيرتين في وقت واحد وجعل ذلك موعداً لحملته الكبيرة على الجزائر وندع المجال لخير الدين باشا يسرد لنا ماوقع:« بعد معركة بروزة يئس الملك شرلكان من الانتصار على الأتراك في عرض البحر، فشرع يستعد للاستيلاء على شمال إفريقيا التي كان ولدي حسن باي يشرف عليها نيابة عني بصفته وكيلاً للباي لارباي عندما قاد حسن باي حملة مكونة من 30 قادرغة على جبل طارق واســتولى على قلعته جاعلاً منها قاعدة ينطلق منها للإغارة على الأراضـــي الإســبانية جن جنون الإسبان " فأراد الإمبراطور الاسباني شرلكان أن من المؤكد بأن الاستيلاء على الجزائر ضربة قاصمة للوجود العثماني في الشمال الإفريقي كله [8].

---

(1) -وكانوا في نحيبهم يقولون: باربروشة-باربروشة -أنت صاحب-كل شر-ما كان من-أ لم أو عمل -مؤذ وجهنمي-مدمر -إلا والسب فيه-هذا القرصان-الذي-لا نظير له في-العالم للمزيد أكثر: حنيفي هيلايلي «التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية...، المرجع السابق، ص64.

(2) -شكيب أرسلان المرجع السابق، ص ص356 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص356.

(3) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 19: حول الحملة الإسبانية على الجزائر 1541م.

(4) -مجهول، غزوات عرّوج وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص116.

(5) -مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو...، المرجع السابق، ص57و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص678.

(6) -ابن رقية محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني التلمساني، الزهـــرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجـــــــزائرية، الجــــزائر، تحـت رقم :(1626)، و15.

(7) -هذا التقرير ذكره، مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص 116 وأيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص157 وأنظر: كاتب جلبي، المرجع السابق، ص58 وأنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، صص 281-282.

(8) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص193-197 وأنظر أيضاً: عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، صص959-960.

وقد ارتبطت هذه الحملة بعدة عوامل، أهمها:

01 -رغبة شرلكان في الانتقام للشرف الاسباني الذي لطخ بسبب الهزيمة العظيمة التي مني بها الأسطول الاسباني في معركة بروزة سنة1538م، وازدياد العمليات العسكرية التي يقوم بها بحارة الجزائر على السواحل الأوروبية بإيطاليا، سردينيا، جزر الباليار، حتى ذاق أهلها ذرعاً، وضجوا إلى ملكهم بالشكوى من غاراتهم ومضايقة الإسبان في الأراضي المغاربية؛ وزيادة فرض البحارة العثمانيون سيطرتهم على البحر المتوسط حتى صار شرلكان نفسه يصعب عليه السفر من برشلونة إلى نابولي (1)، وفي عام947هـ/1540م تم عقد الصلح مع جمهورية البندقية التي تخلت عن آخر أملاكها في شبه جزيرة المورة واعترفت بكل فتوحات خير الدين في بحر إيجه ووافقت بدفع غرامة ضخمة تقابل اعتراف العثمانيين باستمرار حكمها في جزيرتي كريت وقبرص وعودة الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية وهكذا انهارت السيادة البحرية التي تمتعت بها البندقية (2).

02-الانتصار السياسي الذي أحرزه الإسبان في تلمسان، والغرب الجزائري بفعل استمالتهم سلطانها وتمكنهم من إخضـاع الدولة الحفـصية لسلطانهم بعد احتلالهم لتونس (3)، فلم تبقي لهم سوى مدينة الجزائر التي أصبحت قاعدة لغارات البحارة العثمانيين، ولذلك فان احتلال الجزائر كان سيضمن لشارلكان السيطرة على غرب المتوسط ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري الإمبراطورية، ويمكنه من فرض حصار محكم من الشرق والغرب والجنوب على فرنسا، وإخضاعها بشكل نهائي لسلطانه (4).

03-غياب خير الدين بانشغاله بقيادة الأسطول العثماني وماترتب عليه من فراغ عظيم لايمكنه ملئه في الجزائر.

04 -أن الجزائر لم يكن بها في ذلك الوقت من الجيش العثماني، سوى العدد القليل حسب ماجاء في تقارير الجواسيس الإسبان، واعتقادهم أن القوات المحلية غير قادرة على الدفاع عن المدينة.

05 -يري البعض أن الحملة كانت تهدف إلى تخفيف الضغط على الإمبراطورية النمساوية والرومانية المقدسة وذلك بفتح جبهة جديدة في الجزائر وحيث ستكون الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال قواتها إلى هناك (5).

وفي اليوم الذي خرج الإمبراطور شرلكان لغزو مدينة الجزائر 1541/10/20م (6) ولم يكن ثمة أدنى شك في أن هذه الحملة التي تولى قيادتها بنفسه سوف تتوج بالاستيلاء على الجزائر ومن أجل ذلك كان قادة أوروبا ونبلاءها يتشوقون للاشتراك في هذه الحملة وكان عزم الإمبراطور شارلكان على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقبل أن يُشرع في تنفيذها كان

---

(1) -مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس على مدينة..." المرجع السابق، ص95 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص169.

(2) – أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، صص96 – 97، وأنظر أيضاً: شارل ديل، البندقية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، مصر،1947م، ص144 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص142.

(3) – عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص155 وأنظر أيضاً: Fernand Braudel, Les Espagnols.., op .cit, p187

(4) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص307 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص168.

(5) -مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس..." المرجع السابق، ص95 و: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار..، المرجع السابق، ص116.

(6) – يلماز أوزتونا ، المرجع السابق، ص199 وأنظر أيضاً : جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 129.

هدوءاً نسبياً يسود القارة الأوروبية إثر عقد هدنة نيس في محرم945هـ/جوان1538م مع فرنسا وكانت مُدتها 10سنوات [1] رسا الإمبراطور شارلكان أمام مدينة الجزائر في يوم(28/6/ 948هـ-15/10/ 1541م) [2] ومن بدأ الإسبان في تحضير متاريسهم [3] وفي الليلة ذاتها وصل إلى معسكره رسول من قبل والي الجزائر يطلب إذناً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر(باب الواد) فأهالي الجزائر لايزلون يتذكرون ماحدث لمـدينة تونس [4] وعرف الإمبراطور شارلكان أن حامية الجـزائر مُصـممة على الدفاع المُستميت وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً؛ ولم يكن الإسبان قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الاسبانية، في كل مكان حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: " لقد أذهلتنا هذه الطريقة لأننا لم نكن نعرفها من قبل "[5] وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل [6] لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جُنودها بطريقة متميزة في الكر والفر أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء وهذا مايفتخر به خير الدين باشا بقوله: " لن ينم الكفر حتى الصباح وهم في حالة يرثي لها وكانت مشاعر الخوف والتردد والعصبية مسيطرة على قلب وعقل الملك شرلكان لأنه كان ينتظر في قلق شديد أن تلوح في الأفق أشرعة الأسطول العثماني بين لحظة وأخرى"[7] واضطر إلى الانسحاب مع من بقي من جنوده على ماتبقى لهم من سفن واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا وهذا مايُثبته لنا خير الدين باشا بقوله: "أصدر شرلكان أوامره إلى جنوده بالعودة إلى السفن كما أمر دوريا بأن يكون على أهبة الاستعداد للتحرك بالأسطول ومُغادرة الجزائر [8].

وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور، القيادة الرشيدة[9] والتفاف الشعب الجزائري حولها وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلباً للشهادة في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين وهذا شهادة خير الدين باشا على ذلك بقوله : "الإمبراطور شارلكان لم يُعد قادراً على تحديد الوجهة التي يجب أن يلوذ بها فقد تلاشت قواته تماماً؛ وضاعف من متاعبه جهله بالبلاد التي أراد غزوها، فكثرت أخطاءه الحربية

---

(1) -تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير، ص36 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في..، المرجع السابق، ص199.

(2) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص326 وأنظر أيضاً: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار..، المرجع السابق، ص127.

(3) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص166 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص118.

(4) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص203 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص52.

(5) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص153 وأنظر أيضاً:Fernand Braudel, Les Espagnols.., op .cit, pp192-194

(6) –عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص919 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص37.

(7) – العربي إشبودان، المرجع السابق، ص ص79-81 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص203.

(8) – محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ...، المرجع السابق، ص215 وأيضاً: المجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص67.

(9) -عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ج2، ص915 -916 وأنظر أيضاً: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص125.

التي أستغلها جميعا حسن آغا لصالحه فكان يراقب انسحاب العدو من مواقعه وتدفق قواته نحو الساحل كالسيل الجارف على السفن للنجاة بأنفسهم وهنا انتهز الفرصة ليشن هجوما مُباغتا عليه" [1].

نتائج الحملة:

كان لفشل حملة شرلكان على الجزائر في 1541م نتائج عسكرية وسياسية كبيرة، تركت آثاراً عميقة على المخططات الاسبانية في شمال إفريقيا المغاربية وحاضر ومستقبل الوجود العثماني فيها في هذه المرحلة الحساسة من تاريخها؛ والتي ربما تكون هي الأهم فلم تقتصر آثارها على الجزائر فحسب بل تعددت أثارها على المنطقة المغاربية بكاملها؛ وعلى البحر الأبيض المتوسط عامة؛ بل وعلى الصراع العالمي بين العثمانيين والإسبان.

وبعد هذا الانتصار الكبير عُظم شأن حسن أغا عند الخليفة سليمان القانوني الذي كافأه بأن أرسل إليه الخلعة السلطانية وعينه برتبة الباي لارباي [2]، على الجزائر وتقديرا لشجاعتة لقب "الغازي" وقد كانت رتبته العسكرية قبل هذا الوقت هي: "بحرية سنجق باي"(أي قائد لواء البحرية) [3] لدوره الفعال في هذا النصر الأكبر.

واتسع نفوذ العثمانيين داخل البلاد؛ فالسلطان الزياني أبو محمد الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته للإسبان بعد احتلالهم تونس سنة1535م جعلة هزيمة شرلكان يعيد النظر في سياسته ويعلن تبعيته للعثمانيين [4] بعد أن توالت انتصاراتهم في شمال إفريقيا وغرب المتوسط بعد 1541م فزادة بذلك هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لاتقهر((وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن))[5] وفشل المخطط الإسباني الرامي إلى احتلال سواحل شمال إفريقيا؛ وتَنصير أهله ونزلت أخبار الهزيمة على أوروبا نزول الصاعقة لأن ماحدث في الجزائر يُعتبر أعظم هزيمة مني بها الإمبراطور شرلكان منذ جلوسه على عرش إسبانيا، فاهتز نتيجة لذلك نفوذه في أوروبا ولم يبق له أي حليف سوى هنري الثالث ملك انجلترا [6] ومن ناحية أخرى بلغني أن الملك شارلكان أمضى شهورا عديدة معتكفاً في الكنيسة لايغادرها أبداً، بل أشيع عنه بأنه مات من شدة القهر [7] وأعتبر بعضهم أن هذه الهزيمة

(1) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص311 وأنظر أيضاً: محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص ص86-89.

(2) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص211 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، صص347-348.

(3) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، صص121-122 وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص167-168 وأنظر: الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص193.

(4) -الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص95 وأنظر أيضاً: جميل بيضون، تاريخ العرب الحديث، دار الأمل، الأردن، 1991م، ص67.

(5) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص ص121_122 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، نقلا عن ابن المفتي حسن بن رجب شاوش، تاريخ باشوات وعلماء الجزائر، ص297 وأيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص120، وأنظر أيضاً: الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص 96.

(6) -مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس..." المرجع السابق، ص109 و: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار..، المرجع السابق، ص134.

(7) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، صص213-214 و: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص147.

كانت سبباً في تركه عرش إسبانيا [1] وخلى البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الإسبانية التي كانت تُضمد جراحها وتحاول استرجاع قوتها؛ فأنتهز قباطنة السفن العثمانية وانطلقت نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحي التي بقيت مفتوحة في وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون مافيها [2]، كما صارت الدولة الأوروبية تعمل للعثمانيين حساباً، واصفا خير الدين ذلك: " ازدادت مدينة الجزائر غني بغنائم هذه الحملة ووقع عدد كبير من الجنرالات وغيرهم من أبناء القصور والعائلات الكبيرة في الأسر، لقد قدم هؤلاء جميعاً من مختلف عواصم أوروبا ليستـمتعوا بمشاهدة احتلال الجزائر، ولم يتمـكن الأميرال أندري دوريا ومن مــعه من إنقاذ أنفســهم إلا بصعوبة بالغة واهتز بذلك مركز الإسبان في وهران وهذا مايفتخر به خير الدين قائلاً:" لقد كانت تلك الهزيمة دوي كبيراً في شتى أنحاء أوروبا حتى غدت غصة في حلوق الصليبين تخنق عبراتهم من شدة التأثر [3] وكان فشل الحملة على الجزائر، ذا أثر عميق لاعلى مستوى الأحداث العالمية[4] فحسب وإنما على الإمبراطورية الإسبانية وعلى ملكها شارلكان ويخبرنا خير الدين بماجرى بقوله: "وعندما كان يلوذ بالفرار من الجزائر شارلكان مهزوما خلع تاجه من رأسه وألقى به في البحر من شدة الغيظ؛ إن هذا الملك المغرور بنفسه وقواته كاد أن يقع في الأسر لولا حماية فرسان مالطا له، وقلة رجال حسن آغا [5]، وبالنظر إلى الخسائر المادية التي منيت بها القوات الأوربية والتي كانت كبيرة جداً، الأمر دفع دي غرامونDe Grammont إلى حد وصفها بالفادحة، إذ بلغت 16مركبا (غليوت Galyot)[6]، و140 سفينة ناقلة للجنود [7]، ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام ولخير الدين باشا قول في هذا: "كان في أسطول العدو4000 فرس، تلفت كلها إما غرقاً وإما نحراً من طرف الكفار الذين تاهوا في أطراف البلاد ولم يجدوا مايأكلونه سوى خيولهم" [8] وبلغ عدد المدافع التي خلفها الإسبان 200مدفعاًاستولى عليها المسلمون وزينوا بها الحصون الحربية وسائر أسوار المدينة [9]. حتى أصبح ماغنمه المسلمون يضرب به المثل [10] أما المراكب فان جلها قد عطب على السواحل وما كان قد غرق من السفن المعدة للحرب ولحمل الزاد والمئونة فقد بلغت 130 مركباً[11] ولخير الدين باشا وصفاً في ذلك:"

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص323 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص97.

(2) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص213 وأيضاً: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار..، المرجع السابق، ص144.

(3) – خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص208 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص ص 172-175.

(4) – محمد دراج، المرجع السابق، ص312 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 137.

(5) – محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص154 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص208.

(6) -غليوتGalyot: نوع من السفن الحربية المستعملة وقتها، تتميز بكونها مدببة الطرفين للمزيد أنظر: محمد درّاج، المرجع السابق، ص 312.

(7) -أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص297 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص48.

(8) -العربي إشبودان، المرجع السابق، صص81-82 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص205.

(9) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص122وأيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص297.

(10) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص162. وأنظر أيضاً: Charrier.Negociation de la France dans le levant. .c.i.s, pares, 1920, p522.

(11) -مجهول، مخطوط الحكمة، المصدر السابق، ص13 وأيضاً: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، ص176.

فقاموا البحارة بربط سفن العدو وسحبها إلى الجزائر ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالاستيلاء على جميع ماخلفه شــرلكان من مدافع وذخائر وآلات الحرب، ويصــف لنا التلمســاني ذلك أيضــاً" وما وصــل اللعين إلى بلده إلا باثني غربا (سفينة) وكان عدد السفن عند قدومه750 جفناً والعسكر70000 " [1] إلا أن البعض الغربيين قللوا من شأن الخسائر التي منى بها الإسبان فذكروا أنهم لم يفقدوا سوى 14غليوطة و100مركب صغير [2] أما الخســائر البشــرية، فان المصــادر الغربية إما أنها ســكتت عنها أو قدمت أعدادا تافهة على غرار دي غرامون DE Garmmontالذي ذكر ـ بعد اعترافه بفداحة الخسائر المادية ــ بأن الخسائر الإسبان البشرية كانت ضئيلة جداً [3]، أما المصادر الإسلامية فذكرت أن أعداد القتلى بالألاف، فقد جاء في كتاب الغزوات أن:(عدد القتلى بسيوف المسـلمين في هذا اليوم اثنا عشـر ألفا) [4] ويقال إن جثث الكفرة وفرائس خيلهم ملأت مابين سـاحل دلس شـرقاً وسـاحل شـرشـال غرباً وهذاماأثبته لنا خير الدين باشـا بشـهادته: "تم القضـاء على عشـرين ألف كافر إما غرقاً وإما بسيوف البحارة، ومن نجا منهم وقع في الأسر" [5].

خلاصة الفصل الثاني:

1 -النتائج السياسية والعسكرية:

-وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة! وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط عامة [6]؛ والمنطقة المغاربية خاصة.

-بينما كان التوسع العثماني في المشرق الإسلامي قد تم نتيجة لاصطدامات العسكرية الكبرى في جالديران ومرج دابق فضلاً عن المعارك التي خاضتها لضم العراق نجد أن التوسع العثماني في المغرب الإسلامي كان في معظمه نتيجة لإلحاح أهله عليهم؛ أن يدخلوا في حماية الدولة العثمانية لتقوية الجهاد الإسلامي ضد خطر القوى الأوروبية المسيحية المتصاعدة على ديار المسلمين في الشمال الإفريقي [7] المغاربي.

-ولم تعد هناك مسألة في السياسة الدولية لاتعني العثمانيين -أما على الصعيد الدبلوماسي فقد أبرزت التقاليد الدبلوماسية المتبعة بين الدولة العثمانية وغيرها في هذه الحقبة أن هذه الشعوب كانت تنظر

(1) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص205 وأنظر أيضاً: التلمساني محمد بن عبد الرحمن، المصدر السابق، و18.

(2) -مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس...، المرجع السابق، ص107، نقلا عن:

P.AGUADO -BLEYE ; manuel. de Historia de Espana.T.II. Paris, 1889; p 454.

(3) -أنظر تعليقه في:

DEGarmmont.Relation de l.exedition de charles quint contre alger. Paris, 1887, pp84-85.

(4) -مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص121وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص162 وأنظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، صص290-291 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص178.

(5) -العربي إشبودان، المرجع السابق، ص89 وأنظر أيضاً: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص205.

(6) -محمد دراج، المرجع السابق، صص 15 -16 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص213.

(7) -سعد الله أبي القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، صص131-132 وأنظر أيضاً: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص142.

إلى الدولة بعين الهيبة والوقار، وكانت صيغ المراسلات الدبلوماسية خير شاهد على ذلك[1] وقد استمرت حركة الجهاد قائمة وبلغت أوجها في هذه الحقبة إلى حصار العثمانيون فيينا1529م [2].

-لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً [3] من البحر الأحمر والمحيطات لقرب المنطقة المغاربية من كل من إستانبول ومصر يجعل الامدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لاتصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح وكانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال إفريقيا تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

-اتخذ الصراع الإسلامي-المسيحي في غربي البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن السادس عشر طابعاً لايقل حدة عما كان عليه في الشرق؛ وتركز هذا الصراع بشكل أساسي في مثلث (تونس-مالطة -طرابلس الغرب) واكتسبت السيطرة على ذلك المثلث أهمية بالغة بالنسبة إلى نتائج المواجهة بين القوى المتصارعة [4].

- إن حُكام الجزائر كانوا أكثر إلحاحاً على إخضاع تونس تحت نفوذهم وإدخالها تحت لواء الدولة العثمانية لأهميتها الاستراتيجية في استقرار الحكم العثماني في الجزائر.

-وفي إطار العلاقات العثمانية المغاربية، كان لتونس أهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للبحر المتوسط وبين مقر الدولة العثمانية وإيالة الجزائر فقد كانت تونس تتحكم في المضيق الذي يفصل بينهما وبين صقلية [5] ولها مكانة كبيرة في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي كل شمال إفريقيا [6]، وقد أدرك خير الدين أهميتها؛ لاسيما وقد عانى كثيراً من مؤامرات سلطان تونس منذ دخوله إلى الجزائر ويصف لنا ابن ابي دينار ذلك:" أن سلاطين تونس من بني ابي حفص، كان منهم من بلغ درجة الملك ومنهم من قاربها ومنهم من نال الاسم من السَلطنة فقط ومنهم من تغلبت عليه العرب في الملك وشرطوا عليه شروطاً وفى لهم بذلك وتمادت أيامهم في اقبال وادبار واتاهم مأأتى لغيرهم، وصاروا عبرة للآخرين [7]".

-فإقناع خير الدين باشا السلطان العثماني سليمان القانوني بفتح تونس 1534م، نظرا لموقعها الجو استراتيجي-وتأمين المواصلات البحرية -وحماية الحدود البرية -وتحكم في مضيق صقلية وهذا ماتشكله أهمية قصوى في أولويات السياسة الخارجية العثمانية عن طريق إعطاء كل الصلاحيات للجزائر في تثبيت الحكم

---

(1) -نادية مصطفى، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي العصر العثماني من القوة والهيبة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة،1417هـ/1996م، ج11، ص123 وأنظر أيضاً: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار..، المرجع السابق، ص152.

(2) -فيينا :هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة تقع على نهر الدانوب للمزيد انظر :محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص216.

(3) -أ. جي. بريل، دائرة المعارف الإسلامية، تحرير م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر، باسيت، ر، هارتمان، ط1، ج1، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة،1418-1998م، ص78.

(4) -ايفانوف نيقولاي، الفتح العثماني...، المرجع السابق، ص106 و:Fernand Braudel, Les Espagnols.., op .cit, p203

(5) -أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، المرجع السابق، ص67 وأيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص687.

(6) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص283 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص163.

(7) -محمد عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، ص127 و: محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المرجع السابق، ص189.

العثماني في تونس، أي التصدي لبقايا الحكم الحفصي الصوري في تونس.

-وفي إطار العلاقات العثمانية الأوروبية، فقد قطع العثمانيون بفتح تونس 1534م الطريق البحري على البابوية في فرض سَيطرتها على الأقاليم الأوروبية التي كانت تدين بالمذهب الأرثوذكسي- ومنذ هذه الفترة لم تعد هناك دولة تفصل بين أملاك العثمانيين التي تمتد إلى وسط أوروبا وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشبه الجزيرة الإيطالية، وستبدي الدول الغربية اهتمامًا أكبر بهذه الدولة القوية ولايقتصر تحديدنا لمفهوم العالمية على التركيز على علاقات السلطة العثمانية بالقوى الأوروبية دون الإشارة إلى موقع المنطقة المغاربية المتوسطية من هذه العلاقات.

-وراح الموريسكيين يحرضونهم على نجد إخوانهم، ويبذلون مايقدرون عليه لإنقاذ إخوانهم مما هم فيه من الظلم واضطهاد [1] وهكذا انطلق المهاجرون الأندلسيون بمساندة إخوانهم من مسلمي المنطقة المغاربية يشنون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانية، أو المتحالفة معها يحرقون وينهبون ويخربون ويأسرون انتقاماُ لأنفسهم ولإخوانهم المضطهدين في الأندلس من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم، وآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم وأكرهوهم على التنصر أو المغادرة بلادهم إلى الأبد [2].

-ولقد لعب كل من الجيش البري والبحري الدور الهام والرئيس منذ بداية الفترة العثمانية في الجزائر حيث كانت البحرية الجزائرية أداة ترهب بها الدولة العثمانية الأوروبيين التي كانت تتربص بسواحلها كما كان له الدور الهام على الساحة المتوسطية والأطلسية كما ساهم كل من الجيش البري بفرعيه النظامي المتكون من الانكشارية وغير النظامي الذي يظم الزواوة والكراغلة فرسان المخزن مساهمة فعالة وقوية على الصعيد الداخلي للإيالة الجزائرية وذلك بمساهمته في استبان الأمن في إخماد الثورة في حالة الفوضى والتمردات؛ والمشاركة في فتح تونس؛ وجمع الضرائب في وقت السلم [3].

-وعرفت طائفة رياس البحر أحسن أوقاتها خلال القرن 16م، حيث سيطرت على المجال السياسي[4] فقد برز الباي لربايات في الرياس ليس فقط في المجال الإقليمي وإنما في المجال المتوسطي كله، أمثال خير الدين بربروس باشا، صالح رئيس، الحسن بن خير الدين، درغوث باشا، علج علي.

-وقد اضطلعت البحرية الجزائرية دورا أساسياً طيلة الفترة العثمانية حيث كانت تقوم بعمل مزدوج الدفاع عن الجزائر وعن البلدان المغاربية والمشاركة في الدفاع عن البلدان الإسلامية الأخرى في شرق البحر الأبيض

(1) -صلاح العقاد، المغرب العربي في بداية العصور الحديثة، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، (الجزائر، تونس، المغرب الأقصى)، ط2، (د، ن، ع، ط، ن)، القاهرة، مصر، 1966م، ص16 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص182.

(2) -عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص20، وأنظر أيضاً: شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، (د، ن، ع، ط، ن)، مصر،1977م، ص ص28-31.

(3) -زيادة أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، دار الفرقان، ط1، الجــــزائر 1403هـ/ 1983م، ص119.

(4) -مزالي محمد الصالح، دراسات تونس، (ش، ت، ف، ر)، تونس، 1974م، ص17 و: إسماعيل سرهنك، حقائق...، المرجع السابق، ص163.

المتوسط ودفاع عن المقدسات الدينية [1] وفيها كان الأسطول الجزائري في المقدمة دائماً يخوض المعارك تلو الأخرى إلى الجانب القوات البحرية الإسلامية الأخرى ضد أعداء المسلمين أينما كانوا [2].

-ومهارة البحارة الجزائريين وكفاءتهم الحربية ومقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق انتصارات حاسمة فبفضل هؤلاء الرياس أصبحت البحرية الجزائرية مدرسة رائدة للبحرية الإسلامية في العهد العثماني [3].

-وهكذا فقد ساعد الجهاد البحري الذي تزعمه الجزائر منذ القرن السادس عشر على توطيد صفوف المسلمين كما سمح بمحاصرة الجيوش الإسبانية وبالتالي وضع حداً للتوسع المسيحي بشمال إفريقيا فأكسب الجزائر مكانة خاصة جعلتها بمثابة القلعة الأمامية في مواجهة المد الصليب الذي يهدد سواحل المغرب الإسلامي واستحقت تسميتها دار الجهاد وقلعة الإسلام [4].

-نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين من إسبانيا.

-ولكن في الحقيقة فلولا الجهاد البحري لما استطاعت إيالة الجزائر فرض هيبتها على العالم أجمع ولولا هذا الأسطول لما صدت الهجمات الأوروبية عليها ولما استطاعت الدول التي تتحين الفرص للانقضاض علية [5] ويعد امتلاك الأتراك العثمانيون لأسطول بحري قوي من الأسباب التي مكنتهم من الاستقرار في الجزائر وتونس وما إن استقروا في مدينة الجزائر حتى حولوا هذا الأسطول إلى مؤسسة شكلت محوراً أساسياً في قوتها العسكرية وجعل منها قوة بحرية من الصنف الأول مكنتها من صد الهجمات الأوروبية المتكررة من ناحية[6] وخدمة للاستراتيجية العثمانية من ناحية أخرى، رغم أحوالهم المختلفة كما اتخذوا موانئ الساحل المغاربي قواعد لهذا الأسطول الحديث الذي سيلعب دوره الرائد في معظم أحداث الحوض المتوسط لمدة تزيد عن 03 قرون [7].

-يعتبر تدرج الدخول العثماني إلى الجزائر بداية نهاية الدولة الزيانية واضمحلال نفوذ الزعامات المحلية التي برزت منذ سقوط دولة الموحدين حيث غاب مفهوم الدولة الواحدة من واقع الحياة السياسة في الجزائر[8] فكان دخول الأتراك العثمانيين بمثابة إعادة سلطة الدولة الواحدة إلى أذهان الناس.

---

(1) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر مع دول ومماليك أوروبا، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص357.

(2) -أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجازولي التمقروتي، النفـحة المسكية في السفارة في السفارة التركـية، مخـــــطوط (م، و، ج)، الجزائر، تحت رقم: (20116)، ص24 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص106.

(3) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر...، المرجع السابق، صص45-46 وأنظر أيضاً: كلو أندري، سليمان القانوني، المرجع السابق، ص203.

(4) -حنيفي هيلايلي، "التنظيم العسكري للبحرية ..."، المرجع السابق، ص256 و: يوسف الثقفي، موقف أوروبا...، المرجع السابق، ص67.

(5) -العربي إشبودان، المرجع السابق، ص96 وأيضاً: محمد سهيل طقوس، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، المرجع السابق، ص 182.

(6) -حنيفي هيلايلي «التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية ...، المرجع السابق، ص255 وأنظر أيضاً: سيد محمد سيد، المرجع السابق، ص164.

(7)-Moulay Bellhamissi, Histoire de…, op, cit, p19.

(8) -محمد علي الصلابي، دولة الموحدين، ط1، دار البيارق، عمان-الأردن،1998م، ص78 وأيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص165.

-كانت الرغبة في التوسع وبسط النفوذ خارج الحدود التقليدية لدى إسبانيا لبناء إمبراطورية مترامية الأطراف؛ ولعله من المفيد التذكير بأن إسبانيا كانت في هذه الفترة تملك الساحل الجنوبي من إيطاليا والجزر القريبة منه مثل: صقلية وسردينيا وكورسيكا بالإضافة إلى الجزر الخاضعة لها في غرب البحر المتوسط كجزر البليار[1] ولذلك فإنه من الطبيعي أن احتلال سواحل الجزائر وغيرها من سواحل شمال إفريقيا سوف يشكل لها وحدة جغرافيا لممتلكاتها وييسر لها سبل الاتصال المباشر بين جنوب غرب البحر المتوسط وشماله ولاشك أن سيادة الإسبان على غرب المتوسط لايمكن أن تتحقق ما لم يتم احتلال سواحل المنطقة المغاربية[2] المتوسطية.

-أضف إلى ذلك كله المصاعب الاجتماعية والأمنية والاقتصادية التي كانت تعيشها إسبانيا منذ ما كان يسمى بحروب الاسترداد التي توجت باحتلال غرناطة هذه المصاعب التي كانت نتيجة طبيعة للتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت يمر بها الاسبان دولتاً وشعباً الأمر الذي دفع ملوك إسبانيا إلى البحث عن حلول خارج الحدود الجغرافيا لبلادهم فقد ذكر شكيب أرسلان أن "إسبانيا في ذلك العهد كانت مليئة باللصوص وقطاع الطرق حتى أنه قلما تخلو محلة من عبثهم وفسادهم "[3].

-ويعترف المؤرخون الغربيون بأن القوات الإسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها وشدد الحصار عليها بمجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر حتى بلغ الضيق بالجنود الإسبان أنهم كانوا يتمنون الدخول في الإسلام للنجاة بأنفسهم مما يكابدونه من ضيق، حسب ما كشفه بحث رسمي أجرته السلطات الإسبانية عن حالة حامياتها في الجزائر سنة 1540م [4].

-لقد عاش الإسبان في القلاع التي قاموا باحتلالها أو إنشائها حياة تعيسة جعلتهم لايتجرؤون فيها على الابتعاد عنها إلا إذا ساروا جماعات، فالقبائل العربية والبربرية كانت تشن الغارات المتوالية على القوات الإسبانية في شكل حرب عصابات أهلكت القوات الإسبانية وكانت الحكومة الإسبانية تجمع جنودها للحرب في الجزائر بالقوة وتسوقهم مُكبلين في الأغلال في السفن لتحشدهم في هذه القلاع وكان غذاؤهم شحيحا[5] لأن الدولة كانت تهمل أمر التموين وكذلك الرواتب كانت لاتذكر بالإضافة إلى تأخرها في أدائها وكثيرا ما كانت تعجز عن دفعها فلايتسلمها الجنود وهذا مايؤكده شارل أندري جوليان الظروف القاسية التي كان يعيشها الجنود الإسبان القابعون وراء القلاع والحصون على امتداد الساحل الجزائري قائلا: "وعاشت الحصون في حالة حصار

(1)-Lemnouar Merouche .Monnaies .prix et Revenus (1520-1830) éditions Bouchene .paris.2002, P56.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص128 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص93.

(3) -محمد سهيل طقوس، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، المرجع السابق، ص 191 وأنظر أيضاً: شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، لبنان 1986م، ص162 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص165.

(4) -المهدي البوعبدلي، أضواء على تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، العدد 08، الجزائر،1972م، ص27 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، صص324-325 وأيضاً: Fernand Braudel, Les Espagnols…, op .cit, p216

(5) -حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المرجع السابق، ج2، ص ص157-159 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص173.

طوال فترة الاحتلال الإسباني وكانت حياة الجند شاقة جداً، لأنهم لا يجدون دائما مايسدون به الرمق ولايتقاضون أجرتهم بانتظام وكانوا في وهران المحظوظة يتموّنون بفضل مغاربة موالين لهم يخبرونهم بواقع حيوانات القبائل الرحل في الأراضي المجاورة فينهبونها وفيما عداها حيث كان التموين يأتي على الخصوص من البحر" [1].

-وكانت الحملة الإسبانية رداً قوياً وسريعاً ضد الحكم العثماني بالوجود الجزائري في تونس !! لما تشكله تونس في أولويات السياسة الخارجية الإسبانية، نظراً لموقعها الخطير جداً على الجناح الأيسر للإمبراطورية الرومانية المقدسة وقربها من حلفائها التقليديين لها-مالطا وطرابلس الغرب ومحاولة قطع الموصلات على الامتداد العثماني الإسلامي للمنطقة المغاربية وعلى دعم مسلمي الأندلس وإجهاض الإيالة الجزائرية الفتية! بمحاولة محاصرتها والتضييق عليها وذلك عن طريق وجودها في بجاية-وهران.

-واستكمالاً للمشروع الإسباني في الضفة الجنوبية الغربية للبحر المتوسط، ولأهمية الموقع الاستراتيجي لتونس قام الإمــبراطور شرلكان شخصياً بقيادة الحملة على تونس1535م، أما عن قضيه استنجاد الحسن الحفصي به فأنه لم يكن سواء ذريعة اتخذها شارلكان من اجل تثبيت اقدامه في المنطقة ، وقطع الطريق أمام القوات العثمانية المتنامية والمتمثلة في شخص خير الدين باشا مما حمل هذا الأخير على تسخير كل امكانياته للاحتفاظ بتونس[2] ولم يستطع الاحتفاظ بتونس نظراً لعدة عوامل منها: ضـخامة الحماية الإسبانية وانشغال السلطان العثمـــاني عن نجدته، واستحواذ الأسرى على القلعة، ولطبيعة الفرد التونسي دور في ذلك [3]، وصعوبة السيطرة على تونس كونها مركز الدولة الحفصية، مثل صعوبة الاستيلاء على تلمـسان مركز الدولة الزيانية بالإضافة إلى مَــقربتها من مالطا وقربها من إيطاليا حلفاء الإسبان[4]، فما كان منه سواء الانسحاب الى عنابة.

-بعد الانسحاب التكتيكي لخير الدين باشا أمام جيش يفوقه بكثير، تمكنت إسبانيا من الظفر بتونس مرحلياً في انتظار ماتأتي به الأيام، وصارت تونس محميه إسبانية، ونصب على عرشها من جديد مولاي حسن الحفصي من العودة إلى تونس بمساعدة الإسبان في جويلية 1535م [5]؛ الذي ربطته معاهده مخزيه بهم.

- لقد كان للإسبان رغبة في احتلال تونس، بسبب موقعها الاستراتيجي الذي يُمكنهم من حماية مصالحهم في البحر الأبيض المتوسط، وما زادهم دفعاً استنجاد الحسن الحفصي بهم، فاستغل الإسبان الفرصة للانتصاب والتمركز بالسواحل الشرقية للمغرب الإسلامي، جراء حملة الإمبراطور شارلكان على تونس سنة

---

(1) -عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص324.

(2) -محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الإفريقي، المرجع السابق، ص149.

(3)-كان للإسلام تأثير في الجزائر أكثر من تونس والمغرب، حتى أن الفرد الجزائري يتميز بطبيعة المقاومة وحبه للحرية، عكس الفرد التونسي الذي هو بعيد كل البعد عن الحرب والتغيير، ولا يستطيع تحريك ساكن للمزيد أنظر: قرود لحسن وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص 115.

وفي هذا الصدد أورد أبو القاسم الشابي ما يلي: يا شعرُ أسمعتُ لكن قومي أراهم سُكارى--- فلا تُبال إذا ماأعطوك نداك ازورارا

(4) -كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص175وأنظر أيضاً: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص32.

(5) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، صص 330-331 و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص693.

(942 هـ/ 1535م)، التي تراجع على إثرها خير الدين باشا إلى مواقعه بالجزائر، واستعاد الحفصيون مُلكهم لكن تحت الحماية الإسبانية.

ـ لعبت الدولة الحفصية أسوأ الأدوار، فلم تتطلع إلى تحرير مواقعها والدفاع عنها، وإنما تجاوزت ذلك كثيراً بِقبولها التواطؤ مع الإسبان والتبعية لهم، ولذلك فإنه لم يمضي إلاّ وقت قصير على سقوط المدن والموانئ الكبرى بيد الإسبان حتى سارع باقي الأمراء الحفصيين إلى عقد معاهدات تبعية وخضوع للإسبان مع تكفلهم بدفع الإتاوات المالية اللازمة مقابل ضمان سلامتها [1].

ـ أبرمت معاهدة 1535م التي حولت البلاد إلى شُبه مستعمرة إسبانية، احتفظ الحفصيون فيها بسلطة (شَرفية) وسُلمت حلق الوادي وغيرها للإسبان، ومُنعت الموانئ على العثمانيين، وأعطيت الامتيازات للمسيحيين في مجالات التجارة، وأصبح السلطان الحسن رمزاً للخيانة لدى الأهالي خاصة بعد الاتفاقية الإسبانيا-الحفصية التي تُوجت بالأعمال الدنيئة التي قام بها الإسبان بعد أن أباحوا المدينة لجنودهم ثلاثة أيام، وانتهت بمجزرة تونس! وتبقى وصمة عار على جبينهم! [2].

-لما احتل الإسبان تونس عثوا فيها، وأفسدوا كل ماوصلته أيديهم وارتكبوا أبشع جرائم القتل والتنكيل بحق الأهالي التونسيين، ثم أحكموا السيطرة على تونس وحلق الوادي [3].

- لم تكن تهدف الحملة الإسبانية على تونس القضاء على الدولة الحفصية، بل أرادت تَثبيتها، وكان هدفها الأسمى هو القضاء على النفوذ العثماني الذي يُهدد المشروع الإسباني في المنطقة [4] المغاربية المتوسطية.

-إن شارلكان أعاد تنصيب السلطان الحسن، رغم إدراكه بأنه كان مبغوضاً ولن يغفروا له استنجاده بأعداء الدين، لأن الإسبان ارتكبوا أبشع الجرائم، ونهبوا مقدسات البلاد واحرقوها مما دل على الحقد الصليبي الذي كان يحمله الإسبان؛ كما تم إبرام معاهدة (942هـ/ أوت 1535م)[5] التي حولت البلاد إلى محمية إسبانية وسُلمت حلق الوادي للإسبان الذين استكملوا مشروعهم بالسيطرة على المدن ذات الموقع الاستراتيجي الواردة أسماؤها ضمن معاهدة (942هـ/ أوت 1535م)[6] كما حاولوا أن يجعلوا المدن الأخرى في إقليم تونس خاضعة لتابعهم الجديد القديم السلطان الحسن الحفصي، إلا أن هذا الأخير لم يتسن له السيطرة على القيروان بسبب المكانة التي وصل إليها الشيخ عرفة في قلوب الناس؛ مما دفعه إلى الاستنجاد مرة أخرى بشارلكان قصد تأديب القيروان، الأمر الذي حمل أبا العباس أحمد إلى تدبير انــقلاب على والده السلطان الحسن الحفصي، وإزاحته من منصبه؛ أي مآل الخونة الخيانة، فقد انتهى حكم الخائن بانقلاب خائن أخر عليه.

---

(1) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص139 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص125.

(2) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا، المرجع السابق، صص 181-182 وأيضاً: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص42.

(3) -عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص193 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص ص 69-73.

(4) -وأنظر أيضاً: Moulay Bellhamissi, Histoire de…, op, cit, p29

(5) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم20: حول المعاهدة التي عقدت بين شارلكان والسلطان الحفصي سنة 1536م؛ المتعلقة بتبعية تونس للإسبان.

(6) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص93 وأنظر أيضاً: عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص114.

-وفوق هذا كله فقد جلس السلطان مولاي حسن الحفصي وسط أكوام من الجثث ووسط الخراب والدمار دون أن يحسب حساباً لماحل بشعبه وبأرضه، فخير الدين باشا بقواته، القليلة واجه العدو، وأبدى شجاعة فائقة كادت أن تؤدي إلى دمار جيش العدو الضخم وعلى الرغم من أن المدينة قد اغلقت في وجوه العثمانيون، ألا انهم تسلقوا أسوارها وشقوا طريقهم إلى عنابة وسط القبائل المتحالفة مع الإسبان والمعادية لهم.

-لقد انتهى الأمر بالسلطان الحفصي إلى أن يتحالف مع الإسبان بل والخضوع لهم بتسليمهم عاصمة مُلكه واستباحتها لهم ليقتلوا ثلث رعاياه على مدى ثلاثة أيام متتالية وتوقيع الملك معاهدة تبعية لهم وتسليم قلعة عنابة لهم بالإضافة إلى شروط أخرى، إليها لقد كان السلطان الحفصي مُدركاً بأن الإسبان إذا دخلوا تونس فلن يخرجوا منها ومع ذلك آثر أن يسلمهم البلاد على أن يستولي عليها من جاءوا لتحرير المدن التابعة له (1).

-حقيقة إن سُلوك هذا السلطان الحفصي هذا يدعو العجب فقد احتل الإسبان مُدناكانت تابعة لمملكته مثل بجاية، عنابة، القل، طرابلس، الجزائر، دلس...، وكان يُنتظر منه أن يكون يد واحدة مع العثمانيين لتحرير تلك المدن وكان يكفيه إعلان تبعيته للدولة العثمانية ليبقى في عرشه فقد كانت سياسة الدولة العثمانية الإبقاء على الملوك والأمراء المحليين في مواقعهم وعدم تغييرهم إلا أنه اختار طريق الكيد والتآمر مع خصوم العثمانيين قبل أن ينتهي به الأمر الى الارتماء في أحضان أعدائه الإسبان (2).

-إن تلك البطولات لايمكن إخفاءها، وهي تدل على شجاعة عظيمة ومُناورة حكيمة ومُغامرة فـذة إن الهزيمة التي واجهها القبودان خير الدين باشا ورجاله، يمكننا أن نُشبها بالنصر، لأن حافظ على قواته وعاد بها إلى عنابة سالمة وهو عمل مشرف له (3)، ثم أمر خير الدين باشا بإغراق مابقي من السفن الموجودة في عنابة بعد ماأخذ كل رئيس سفينته وأبحر بها، عائدين إلى الجزائر، فاستقبله الجزائريون استقبالاً عظيماً.

-اتفاقية تنازل الحفصيين عن مدينة عنابة للإسبان 1535م وهو ماشكل تهديداً مباشراً للكيان الجزائري نظراً لقرب الخطر منها ومن التعاون بين الوجود الإسباني في مالطا-طرابلس-المهدية-بنزرت-حلق الواد-عنابة-بجاية -وهران، وهو مايقرب الخطر من عاصمتي الإيالة الجزائر وبايلك الشرق قسنطينة وقطع المواصلات البحرية بينها وبين مركز الخلافة الإسلامية-إستانبول، عن طريق قوة مدفعية الإسبان في مثلث الموت صقلية-حلق الواد-مالطا وأيضا انتقال صراع الدولة العثمانية مع أوربا من البر إلى البحر؟ ومن شرق المتوسط إلى غرب المتوسط؟

-ودخل الأتراك ثم الإسبان على التوالي تونس سنة 1534م وسنة 1535م وكانت البلاد التونسية في حد ذاتها لاتهمهم بقدر ما كان يهمهم موقعها الاستراتيجي المشرف على مضيق صقلية ذلك الممر الرابط بين حوضي البحر الأبيض المتوسط(4) — الشرقي منه وهو ميدان هيمنة السلطان العثماني والغربي حيث يصول ملك إسبانيا

---

(1) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص95 وأيضاً: محمد بن محمد السراج الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص164 و: ابو العباس أحمد بن ابي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص71 و: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، صص 698-69.

(2) – أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص293 وأنظر أيضاً: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص54.

(3) – مزالي محمد الصالح، المرجع السابق، ص27 وأنظر أيضاً: العربي إشبودان، المرجع السابق، ص98.

(4)-Moulay Bellhamissi, Histoire de..., op, cit, p42.

المسيحي فبعد أن اخضع شارلكان (Charles Quint) تونس لنفوذه سنة 1535م أمر بتشييد حصن منيع عظيم بحلق الوادي (و هو ميناء العاصمة الأساسي) سيضمن بفضله بقاء الجيوش الإسبانية بالتراب الإفريقي مايقرب 40سنة وبعد أن خلع الأتراك السلطان الحفصي مولاي الحسن عن العرش أعاد شارلكان تنصيبه لكن بعد أن ادخله تحت حمايته وجعله تابعا له وكان نفوذه ضيقاً محدوداً يستوى في ذلك بضيق حرية تصرفاته بين عِملاقي البحر الأبيض المتوسط الذين صارا يتنازعان بلاده في عقر داره ولم يكن ابنه مولاي أحمد الذي خلع اباه وخلفه سنة 1541م أسعد حظاً منه [1].

-وعندما وصلت أنباء هزيمة خير الدين باشا في تونس أمام الإمبراطور شارلكان عام 1535 لم يتردد السلطان الزياني محمد بن عبد الله في التقرب من الإسبان فعرض عليهم في أوت من نفس السنة أن يكون معهم وتابعاً لهم وأن يدفع لهم الضريبة التي كان يدفعها أبوه وجـــده، وأن يعيد الأسرى الذين وقــعوا تحت قبضته خلال نفس السـنة في المعركة التي خاضها جيشه مع القوات الإسبانية التي جاء بها أخوه عبد الله من وهران لانتزاع الملك منه بل وأبدى استعداده أن يقبض على خير الدين باشا إن التجأ إليه بعد هزيمته ويسلمه إليه [2] ثم أرسل في أواخر عام 1535م رسالة إلى الإمبراطور شارلكان يتوسل له فيها أن يقبله تابعاً وحليفاً ويمنحه حمايته وكانت الرسالة مشفوعة بمشروع معاهدة سلام لمدة 10سنوات موقعة من قبله وحدد فيها عروضه السابقة وطلب أن يكف الإسبان عن إيواء أخيه عبد الله وتأييدهم له وأن يعيد له المناطق الداخلية التي انتزعها الأتراك من مملكة تلمسان إذا ماتمكنوا من احتلال المدن الساحلية كالجزائر وشرشال وتنس [3] إلا أن الإمبراطور لم يرى ضرورة لتوقيع معاهدة مع السلطان لاحول له ولا قوة، مذبذب الولاء، وفي الـوقت الـذي كان فيه أخوه مســتعدا للتنازل عن كل شيء مــقابل أن يجلسوه على عرش تلمسان اسماً بلا رسم [4] وهكذا ظل السلطان محمد بن عبد الله يخطب ودّ الإسبان ويتوسل إليهم إلى غاية انكسارهم في حملة شرلكان على الجزائر سنة 1541م فاضطر إلى إعادة النظر في سياسته والخضوع للأتراك العثمانيين من جديد كما رأينا سابقا [5].

-كما أدى الاحتلال الإسباني إلى ظهور المقاومة الشعبية بقيادة الزعماء المحليين، كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين وبعض الأمراء المحليين وتحريضهم للأهالي وتنظيمهم للثورة على الإسبان وذلك بعد عجز ملوك الدولتين الزيانية والحفصية عن التصدي للإسبان [6].

---

(1) – محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص129.

(2) –للمزيد أنظر عن مشروع المعاهدة التي أرسلها السلطان الزياني لأحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص ص259-261.

(3) –أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، المرجع السابق، ص78 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ص181-183.

(4) –للمزيد أنظر التنازلات التي قدمها عبد الله لدى تنصيبه ملكا على تلمسان من قبل الإسبان، لأحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص258-262 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص197.

(5) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص345 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص639.

(6) –عبد العزيز قائد المسعودي، المشرق العربي والمغرب العربي، ط1، جامعة صنعاء، دار الكتب الثقافية، صنعاء، اليمن، 1993م، ص135.

-أن الأمانة التاريخية تقتضي الاعتراف بالدور الخطير الذي لعبه هؤلاء الزعماء في تعبئة الشعب باسم الدين للدفاع عن البلاد وعرقلة الإسبان عن النفوذ إلى المناطق الداخلية واحتلالها وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها [1] إلى أن تمكن العثمانيون من طردهم منها تدريجياً ونهائياً [2].

-بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته، حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط، وتوج هذا الصراع بانتصار العثمانيين على التحالف الأوروبي اعتباراً من معركة بروزة سنة 1538م حيث تمكنوا من فرض سيطرتهم كاملة على البحر المتوسط أكثر من ثلاثين عاماً.

-أما في غرب البحر المتوسط فقد كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر ويعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر، حتى صار الإمبراطور شرلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر [3]، بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر فعلى سبيل المثال حسن آغا هاجم جبل طارق 1539 [4].

-وبالرغم من كل المصاعب التي كانت تواجه الأتراك العثمانيين في هذه المرحلة من تاريخ وجودهم في الجزائر، إلا أن غزاة الجزائر لم يكفوا عن مهاجمة السفن والسواحل الإسبانية وإلحاق أضرار كبيرة بها وتأييد ثورات الأندلسيين التي كانت تندلع بين الحين والأخر ونقل الكثير منهم إلى المدن الساحلية بالجزائر [5].

-ونصح البابا بول الثالث، الإمبراطور شارلكان 946هـ/1539م محاولة عقد هدنة مع خير الدين باش إلا أنه خاب أمله [6] مثل ماخاب في محاولته السابقة عندما عرض عليه سراً الاعتراف به حاكماً لشمال إفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارلكان يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال افريقيا عن إستانبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن يستطيع المغاربة إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سُقوطهم [7] بين مخالبه.

-وأسهب القبودان داريا خير الدين باشا في الحديث عن محاولة الإمبراطور شارلكان غسل عار هزيمته في بروزة بتجريد حملة كبيرة تحت قيادته لغزو الجزائر واحتلالها سنة 1541م مستغلاً غيابه، لِيمنى مرة أخرى بهزيمة منكرة على يد حسن آغا الذي كان نائبا عنه في الجزائر، وتعتبر هذه الهزيمة المنكرة أكبر هزيمة يتعرض لها

---

(1) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص324، وأنظر أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، المرجع السابق، ج3، ص157. وأنظر أيضاً: عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص50 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص32.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص135 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص365.

(3) -مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط02 (ش، و، ن، ت)، الجزائر،1981م، ص23.

(4) -مولاي بلحميسي، "غارة شارل الخامس...، المرجع السابق، ص95 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص361.

(5) -مجهول، غزوات عروج وخير الدين، المصدر السابق، ص 82 و:Moulay Bellhamissi, Histoire de…, op, cit, p54

(6) -عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج3، صص 62-63 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص 204.

(7) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص69.

الإسبان في الجزائر، فكان من أثر ذلك أن تغيرت موازين القوى في الجزائر، لصالح الأتراك العثمانيين حيث شرع الإسبان في الانسحاب من الحصون والقلاع والمدن التي كانوا يحتلونها أو يفرضون سيطرتهم عليها حتى لم يبقي لهم وجود يذكر إلا في بجاية ووهران وكذا انفتح الطريق أمام العثمانيين لبسط نفوذهم في الجزائر بشكل نهائي.

-استطاع حسن آغا أن يهزم الجيوش الصليبية بقيادة شارلكان على أراضي الجزائر وكانت لتلك الهزيمة أثرها على الإمبراطورية الإسبانية، وعلى ملكها شارلكان وعلى مستوى الأحداث العالمية؛ نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث بسرعة على المستوى الأوروبي، إذ لم يعد قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر؛ لأن هذه الهزيمة التي دفعت الملك الإسباني إلى اعتزال السياسة والاعتكاف في أحد الأديرة ليموت ببضعة أشهر من شدة القهر [1] وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة.

-كان خير الدين الشهير بربروس [2] الآمر الناهي على تلك البحار ولكي يتمكن من توجيه ضربة قاتلة ضد خصمه شرلكان؛ فإن الأمر يتطلب استتاب الأمن والاستقرار في المناطق التي يشرف عليها، بخلوها نهائياً من أي عدو له أو أي خائن، وهذا ما كان يُعانيه، زيادة على ذلك الأسر الحاكمة التي شعرت بفقدان سُلطتها من تواجده، فأسرعت وارتبطت مع الإسبان؟ ولكن على الرغم من الحزم الذي أبداه خير الدين باشا نحو هذه الثورات ومُثيريها إلا أنه لم يتمكن من احتثاثها بشكل نهائي وغاية ما وفق إليه هو إضعاف زعمائها أو تَسكينها مؤقتاً الأمر الذي أدى إلى اشتعالها مرة أخرى في عصر خليفته حسن آغا [3].

-وبعد حياة حافلة بالمغامرات مُكللة بالانتصارات توفي بطل البحرية العثمانية والمؤسس الفعلي لإيالة الجزائر خير الدين باشا في إستانبول سنة 1546م، [4] وغاب بوفاته نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن آغا سنة 1544م وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من المقاومة.

-ولم يكن خير الدين باشا قادراً على تحقيق مايريده لولا ما قام به المغاربة المجاهدون، وما كان المغاربة ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس خير الدين باشا دوره في تكوينها ووضعها؛ لتصبح على مستوى الأحداث الهامة للأمة الإسلامية تردد على مدى الدهر تلك المواقف البطولية [5] بملاحم خالدة.

(1) -خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص12 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص45.

(2) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 21: حول شخصية خير الدين بربروس.

(3) -بوعزيز يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، (د، غ، إ)، لبنان،1995م، ص35 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص325.

(4) -قبل وفاته أوصى خير الدين أن يدفن في إستانبول في منطقة بشكطاش وهو المكان المخصص لترسو السفن الثقيلة التي تصل ما بين قسمي إستانبول الأوربي والأسيوي، ولم يكن لخير الدين أولاد سوى ولده حسن وقد ترك له ثروة طائلة، فقد ترك له قصر في مضـــيق البوسفور وأوصى إلى رســتم باشا 210000 أقـجة ولأبن أخيه مـصطفى 60000 أقجة وأوصى 30000 أقــجة لإنشاء جامع في بشكطاش، كما أوصى بإطلاق سراح الأسرى ممن دون 15عاماً، كما قدم للسلطان 800أسير وسفينة من نوع قليوطة مجهزة بالأسلحة و المعدات كتب على تربته (هذه تربة فاتح الجزائر و تونس المرحوم قبطان البحر الشجاع خير الدين باشا رحمة الله عليه بتاريخ 948هـ) للمزيد أنظر: محمد دراج، المرجع السابق، ص323.

(5) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص176 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، صص209-208.

-رغم إلحاح شارلكان ورغبته الجامحة في السيطرة على المهدية، إلا أنه أعطى أوامر لكل الحاميات (المهدية، المنستير، القليبية...) بالانسحاب، وهذا لانجد له تفسيراً سوى الأهمية التي أولى بها حملته على الجزائر سنة 1541م والتي كانت نكبة على المسيحيين وعزة على المسلمين.

-معارضة أكثر العلماء والزعماء المحليين لموقف السلطان الحفصي الحسن، وعلى رأسهم عرفة الشابي لأن داخل البلاد كما أسلفنا خاضعا لنفوذ القبائل، فقد استطاعت قبيلة الشابين (قبيلة مرابطين) أن تستولي على القيروان حوالي سنة 1537م وتستقل به، وحاولت أن تبسط نفوذها على كامل مناطق الوسط [1] وخاضت حروباً ضد سيطرة الصليب – الإسبان عندما سيطر على تونس 1535م، وضد حليفهم الملك الحفصي لتحرير تونس من ردة الحفصي، وكان أخو عرفة الشابي الذي خلفه في رئاسة الشابية طموحاً جداً بحيث كان يريد أن يقيم مملكة تستولي على إرث الحفصيين [2] وهو مايبرر إصرار السلطان الحسن على إخضاع القيروان دون غيرها من بقية المدن الحفصية، كونها تأوي منافساً قوياً له في الحكم، ولم تُمكن الحماية الإسبانية السلطان الحفصي من توسيع نفوذه إلى دواخل البلاد، وبقيت القوة الشابية المعارضة متنفذة في القيروان، وأفشلت المحاولات الحفصية لاسترجاع المدينة، فطردت الحامية العثمانية من المدينة سنة (945هـ/ 1538م)، ومحاولة هيمنة الخلافة العثمانية!

-هذا ماميز العلاقات بين تونس وإسبانيا خلال هذه الفترة (936هـ/1534م – 949هـ/1542م) وهو التبعية المباشرة، خاصة بعد أن فرض شارلكان معاهدة الحماية على الحفصيين.

ونستنتج من هذه الدراسة أيضا:

-أدرك الأتراك أن مهمة طرد الإسبان من مناطق شمال إفريقيا وقفاً عليهم، بعدما لمسوا تلاعب الأسر الحاكمة هناك، يساندهم في ذلك قلة من الأهالي، وأن الدولة العثمانية لن تساهم هي الأخرى بمساندتهم بسبب انشغالهم في حرب المجر ورودس التي ستستغرق منهم تقديم أفضل مالديها من قوات وإمكانيات حيال ذلك لجأ الرئيس خير الدين لمواجهة الصعاب التي تتعرض سبيله باتباعه سياسة القوة حيناً والذكاء والحنكة حيناً آخر.

-بعد عودة السلطان سليمان من حرب النمسا منتصراً قرر محاربة الملك شرلكان سياسياً، فعقد صلحاً مع الإمبراطور فرديناند وقد أزعجه الصلح المعقود بين السلطانين سليمان وفرديناند، الملك شارلكان وأشعره بضعف موقفه وكان يكن الحقد والكراهية لمناطق شمال إفريقيا، كما كان عدواً لدوداً للسلطان سليمان القانوني وخصمه الأول على الجبهة النمساوية قبل حُكام إفريقيا [3].

-ولكي لاتكون الدولة العثمانية بمعزل عما يدور في شمال إفريقيا عمد السلطان سليمان القانوني إلى عقد اتفاق مع الفرنسيين بغية تخفيف الضغط عن خير الدين باشا [4]، فهو يعلم تماماً أن خير الدين باشا

---

(1) -عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات..."، المرجع السابق، ص 80 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص131-132.

(2) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص30 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص652.

(3) -خير الدين، المصدر السابق، ص158 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص38.

(4) -أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص138 و: حسين مؤنس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ج3، ص137.

سند قوى يضمن لدولته تقديم خدمات جليلة، وأن تونس تشكل نقطة هامة في تثبت الأمن والاستقرار في مصر ولهذا ركز جهوده في سبيل اخضاعها لسيطرته.

-إن سياسة التقارب العثماني مع فرنسا إثر معاهدة الإمتيازات1535م لتشتيت الجبهة الأوروبية من جهة ومن جهة أخرى تخفيف الضغط الإسباني على الشمال الإفريقي وتشتيت قواتها بفتح جبهة عسكرية جديدة في القارة الأوروبية من الجهة الجنوبية الغربية والظروف الدولية المتمثلة في التنافس بين الدول الأوروبية ومأأنجز عن ذلك من صراع وتوترات (مثل العداوة بين فرانسوا الأول وشرلكان) فضلاً عن استحواذها على أراض هام فرنسية مثل مدينتي نيس وطولون حيث أصبحتا قاعدة عسكرية عثمانية [1].

-وكانت الأسرة الحفصية الحاكمة في تونس تتزعم العداء ضد خير الدين باشا وارتبطت مع الإمبراطور شرلكان وتابعة له ولهذا اتفق شرلكان مع بني حفص ضد المرابطين بغية عزل الأتراك، لأنهم مؤيدون لهم.

-من خلال استعراضنا لأهم الهجمات الإسبانية التي تعرض لها المنطقة المغاربية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي؛ يتبين لنا أنها تركزت على المدن الساحلية، رغم الجهود المبذولة من طرف الغزاة للتوغل في المناطق الداخلية ، وفي هذا الصدد يقول جوليان : "لئن عدلت إسبانيا عن التوسع في الغزو فلإن مسألة إفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة مشاغلها وأكتفى الإسبان منذ حكم فرديناند الكاثوليكي بنظام الاحتلال المحدود واقتصروا على مسلك المواقع الاستراتيجية التي كانوا ينطلقون منها عندما تتيح الفرصة للقيام بغزواتهم في الأرياف المجاورة وعاشت الحصون في حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسباني وكانت حياة الجند شاقة جداً لأنهم كانوا لايجدون دائماً مايسد الرمق" [2].

-لكن في الحقيقة أن الحصار ليس كافياً لتحليل سبب اكتفاء الإسبان بالمدن الساحلية، فهو جزء من ذلك إذ لايمكن الاستخفاف بدور المقاومة التي نظمها سكان وقادة بلاد المغرب وأنهم لم يتوانوا في صد الغزو بكل غال ونفيس [3] وفي ختام هذا يمكن القول إن هذه الحملات العسكرية كانت مقدمة لهجوم كان أشد خطورة وضراوة تتمثل في حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م [4]؛ لقطع الطريق على العثمانيين الذين وطّدوا أقدامهم في الجزء الشرقي من المغرب الإسلامي.

-ثم استقر القبودان داريا خير الدين باشا بأسطوله في مدينة (طولون) [5] وجعلها قاعدة للجيش والأسطول الإسلامي بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في أيدي المسلمين ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها

(1) -كمال حسنة، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً: جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص ص 142-147.

(2) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص28 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، صص 224-225.

(3) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، صص 28-29 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 139.

(4) -مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص23 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص212.

(5) -جون . بول . وولف، المرجع السابق، ص 51 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص658.

الإسبان وغلاة الصليبية ويستثمرونها إلى أقصى الحدود، ومن ذلك قولهم: "إن خير الدين بربروس قد إقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين" وبقي فيها حتى سنة 1544م.

-وكان الإمبراطور شارلكان أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتوتييري) (1) ثم اضطر للذهاب الى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة قد أخذت أبعاداً خطيرة وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عُوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر -إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم 9/18/ 1544م في مدينة كريسبي دي فالوا ونتج عن هذه المعاهدة جلاء خير الدين باشا وقواته عن مدينة طولون ورجع إلى العاصمة إستانبول.

-كان عهد السلطان سليمان القانوني يمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك ويعتبر عصره هو العصر الذهبي للدولة، حيث شهدت سنوات حُكمه من 926-972هـ/ 1520-1566م توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

-وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة وكان شارلكان ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسي الحكم للإمبراطورية الرومانية وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية (2).

-وبدأ وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبيرية (3).

-أما معاهدتها مع فرنسا1535م فهي تشبه المعاهدات التي سبق للدولة العثمانية أن عقدتها مع جنوة والبندقية فسياسة الدولة العثمانية كانت تستهدف استمرار العلاقات الخارجية مع الغرب ومن ثم الاستمرار في التجارة البحرية مع البنادقة والجنويين ثم الهولنديين فالإنجليز والفرنسيين في الوقت الذي كانت فيه للدولة علاقات تجارية مع البلدان الواقعة على المحيط الهندي بالإضافة إلى بلدان غربي آسيا وإفريقيا (4).

-فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على إسبانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على إسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام الاسبان ثم استرداد الأندلس(5).

(1) -بسام العسلي، المرجع السابق، ص166 وأنظر أيضاً: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار...، المرجع السابق، ص182.

(2) -يوسف الثقفي، دراسات متميزة، المرجع السابق، ص92 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص365.

(3) -ارجمند كوران، المرجع السابق، ص 17-18 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص43.

(4) -Marriott, J, A, R .The Fastetn Question ,(oxford1958), p93.

(5) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص31 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص41 وأنظر: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 134 وأنظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص97.

-فالامتيازات الممنوحة لفرنسا في عام (943هـ/1536م أو977هـ/1569م) ثم للهولنديين والإنجليز كانت تستهدف دعم هذه الدول ضد بابا روما وآل هابسبورغ النمسا مما ساعد إلى حد كبير على بروز فرنسا خلال القرن 16م، تحالفها مع العثمانيين، فالأسطول العثماني في غربي البحر المتوسط كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، مما أتاح لملوكهم تركيز قوتهم في الشمال وتأمين حدود فرنسا [1].

-ضعفهم طمع الدول الأوروبية بمناطقهم وبدأوا يسعون لاتخاذ بعض السواحل كقاعدة جيد لهم ومع مرور الزمن بدأت أطماعهم تتوسع بدءا مع قيام حركة الكشوف الجغرافية وتزعم ذلك الإسبان خاصة ولكن السواحل التي ركزوا أنظارهم عليها اتخذها العثمانيون قاعدة أساسية لتوجيه ضربات قوية متلاحقة ضدهم [2].

-من سلبيات معاهدة الدولة العثمانية مع فرنسا؛ بداية التوتر بين الجزائر التي هي جزءاً من الدولة العثمانية وفي نفس الوقت جناحها الغربي القوي وهذا ماتوضحه الرسالة الأولى [3] التي دار موضوعها حول مراسلة السلطان العثماني لإطلاق الأسرى الفرنسيين الذين تم احتجازهم من طرف الجزائر لأن ذلك يؤثر على مداخيل الجزائر ومواردها الماليـة التي يعتبر البحر المصدر الأساسي لها والمتمثل في الجهاد البحري والرسالة الثانية [4] تجسد في نفس الوقت المحافظة على السلم بين الدول الأوروبية والمحافظة على الملاحة في البحر المتوسط وأصبحت الجزائر نقطة مهمة بالنسبة إلى فرنسا لذا سعت إلى الحفاظ عليها بكل الوسائل [5].

2) -النتائج الاقتصادية والاجتماعية:

-ترتب عن الاحتلال الإسباني نتائج وخيمة على الاقتصاد المغاربي أدت بدورها إلى زيادة تدهور أحوال الدويلات التي كانت تشرف على إدارة الموانئ الجزائرية كما ضاعفت من الضيق المادي للأهالي الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية مع أوروبا على وجه الخصوص ومن أهم هذه النتائج:

-بعد أن كانت الموانئ المغاربية تلعب دوراً كبيراً في إنعاش الاقتصاد العالم الإسلامي المغربي نتيجة لقيامه بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا وأوروبا أصيبت بعد سقوطها في يد الإسبان بالشلل التام، نظرا لرفض التجار الجزائريين التعاون مع الإسبان كنوع من المقاومة السلبية وبالرغم من تجاوب القلة القليلة من هؤلاء التجار مع الإغراءات التي كان يقدما الإسبان للتجار الجزائريين إلا أن تأثير هؤلاء التجار العملاء على سير الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بقي محدوداً للغاية وذلك بسبب العزلة التي فرضها عليهم السكان الذين ينظرون إليهم على أنهم خونة وتعاونون مع الأجنبي المحتل [6].

-وإلى جانب المكانة الدينية والسياسية التي حققها العثمانيون من ضمهم للمشرق العربي فقد أمنوا

(1) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع..."، المرجع السابق، ص13.
(2) -عبد العزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص161 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص148.
(3) -مهمة دفتري، رقم579، حكم رقم 243، ص 5، بتاريخ 979هـ-1571م.
(4) -مهمة دفتري، رقم1102، تحت حكم 1102 المؤرخة بتاريخ ي 8 ذي القعدة 979هـ الموافق لـ 23 مارس 1572م.
(5) -ارجمند كوران، المرجع السابق، ص 18 و: محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الإفريقي، المرجع السابق، ص159.
(6) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، صص101-102 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص23.

لأنفسهم السيطرة على أغنى طرق التجارة، مما دعم موقفهم الاقتصادي، وهكذا أصبح بوسع السلطان سليمان 1520-1566م أن يمول خططه ليصل بدولته إلى قمة الهرم السياسي في ذلك الوقت[1] ويمكننا تسمية ذلك العصر بعصر سليمان القانوني10هـ-16م وقد ساعد على هذا النجاح التفوق الذي أبداه الخليفة سليمان في توظيف الخلافات السياسية والدينية التي سادت في القارة الأوروبية لصالح الدولة العثمانية[2].

-لقد دفعت التغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوروبا في مطلع القرن 16م كلا من إسبانيا والبرتغال إلى أن تبحثا موارد مالية أخرى خارج حدودها السياسية المعروفة [3].

-أما إسبانيا فإنها بالإضافة إلى سيطرتها على مناطق الذهب في القارة الأمريكية المكتشفة حديثا، فإنها شرعت تبحث لنفسها عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها وموارد مالية لتمويل حروبها في أوروبا وتحقيق طموحاتها التوسعية في شمال إفريقيا [4].

-كما أن اكتشاف القارة الأمريكية جعل الإسبان في حاجة إلى موانئ ساحلية متعددة لحماية أساطيلها المثقلة بالبضائع من غارات البحارة، الذين جعلوا من موانئ شمال إفريقيا قواعد انطلاق لهم ولذلك كان احتلال هذه السواحل يعتبر ضرورة اقتصادية لتأمين تجارتها في البحر المتوسط [5] ومن جهة أخرى كان -احتلال السواحل المنطقة المغاربية المتوسطية، يهدف إلى التحكم في التجارة الإفريقية للسودان الأوسط والغربي، ذلك لأنه من المعلوم أن الموانئ الجزائرية على وجه الخصوص كانت تقوم بدور الوسيط التجاري[6] في العالم الإفرو أوروبي وعليه فإن السيطرة على الموانئ الجزائرية والتونسية كان سيمكنها من إزاحة الوسطاء المغاربة والتحكم في تجارة إفريقية الغربية القادمة عبر الصحراء متجهة إلى أوروبا الغربية عبر هذه الموانئ [7].

-هذا وقد نشطت العمليات البحرية التي كان يقوم بها ربابنة مسلمون في البحر الأبيض المتوسط لعدة أسباب يعود معظمها لعوامل دينية وأخرى اقتصادية.

-الأسلحة النارية تتمثل في البنادق التي تصنع محليا من طرف عائلات أندلسية وتركية منذ القرن 16م في مناطق من الجزائر (كقلعة بني عباس)، حيث أن معرفة الأندلسيين لاستعمال الأسلحة النارية جعل منهم فئة دائمة النشاط في الجيش العثماني المؤسس للإيالة وكانت البنادق من أهم وسائل تفوق الإنكشارية [8].

(1) -عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي(1516-1922م)، دار النهضة العربية، لبنان، (د، ت)، ص54.

(2) -عبد الحميد بطريق، وعبد العزيز نوار :التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، دار النهضة العربية، بيروت، 1987م، صص73-74 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص267.

(3) -محمد قشتيلو، محنة الموريسكيين في اسبانيا، مطبعة الشويخ، المغرب،1980م، ص116 وأنظر أيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص144

(4) -وات مونتغمري، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، دار النفائس بيروت، لبنان،1994م، ص127.

(5) -محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص15 وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص54.

(6) -الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص380-386 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص205.

(7) -أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، المرجع السابق، ص373 و: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، صص 330-331.

(8) -حنيفي هيلايلي، بنية الجيش الجزائر...، المرجع السابق، صص 42-43 وأنظر أيضاً: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص78.

3) -النتائج الثقافية والحضارية:

-وجملة القول إن الدولة العثمانية تمكنت في مدة وجيزة من فتح عدة مناطق في القارات الثلاثة آسيا أوروبا وأفريقيا وبذلك ملأت فراغًا سياسيًا وحضاريًا حتى أصبحت أشبه بمحيط يعج بالعلوم والنظم والديانات والأعراق المختلفة [1].

-كان الأهالي ينظرون إلى الأتراك العثمانيين على أنهم مجاهدون جاءوا للدفاع عن دار الإسلام وحماية إخوانهم في الدين، فعمل الأتراك العثمانيون طيلة فترة وجودهم على ترسيخ هذه الصورة وتثبيتها في واقعهم من خلال حركة الجهاد التي تزعموها ضد الاحتلال الإسباني في منطقة السواحل المتوسطية وبالرغم من حالات استثنائية استجاب فيها الأهالي لدعوات التمرد التي قادها الزعماء المحليون إلا أن الانطباع العام عن موقف الأهالي كان مساندا للوجود العثماني بالجزائر وبتونس خاصة بعد مجزرة مدينة تونس 1535م من طرف الإسبان واتفاقهم مع السلطان الحفصي على ذلك .

-بل وعلى علاقات الدولة العثمانية بالدول الإسلامية الموجودة في ذلك الوقت فقد عقد العالم الإسلامي آماله على هذه الدولة، وبالنظر إلى التهديد الذي تعرضت له هذه الدول من قبل القوى المسيحية فقد كان كل نصر يحرزه العثمانيون على الحملات الصليبية فإنه يرفع من شأنهم في البلاد الإسلامية؛ وقد بَدأ ذلك واضحًا في استنجاد مسلمي الأندلس فالجزائر ثم طرابلس الغرب بالسلاطين العثمانيين وحمل على عاتقهم توحيد العالم الإسلامي ولم يتم ذلك إلا بضم تونس1534م لها؛ والصراع مع الإسبان عليها.

-وفي المقابل كان العثمانيون يعتبرون دولتهم الحصن الحامي للإسلام ضد المسيحية [2] ويبدو ذلك جليًا في قول السلطان محمد الفاتح:" إن بلادنا هي بيت الإسلام وسيظل مِصباحها مضيئًا بزيت نستخرجه ويَستخرجه خُلفاؤنا من قلوب الكافرين) "[3] فكانت خططهم تستهدف اختراق أوروبا للحيلولة دون سقوط المقاومة الإسلامية في الأندلس [4] إلا أن العوامل الجغرافية والسياسية قد لعبت دورها في فشل هذا المخطط.

-في حين أعتبر العثمانيون أنفسهم حماة للمذهب السني أمام الخطر الشيعي المتمثل في الدول الصفوية في إيران، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير توجه السلطان سليم الأول 1512-1520 نحو ضم البلاد العربية والتلقب بلقب حامي الحرمين الشريفين[5]، وتوج بخليفة المسلمين، و وقوفه في وجه المملكة البرتغالية التي استهدفت الشرق الإسلامي وكذلك للوقوف في وجه زحف الإمبراطورية الإسباني نحو المغرب

---

(1) -محمد عبد اللطيف البحراوي، المرجع السابق، ص 8 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص101.

(2) -عبد اللطيف عبد الله دهيش، المرجع السابق، ص59 وأنظر أيضاً: محمد سهيل طقوس، من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، المرجع السابق، ص 51 وأيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص 194.

(3) -عبد العزيز عبد السلام فهمي، السلطان محمد الفاتح، (فاتح القسطنطينية وقاهر الروم) ط2، (د، غ، إ) بيروت، لبنان،1975م، وأنظر أيضاً: ط4، دار القلم، دمشق، سوريا،1407هـ /1987م، ص123 وأنظر أيضاً: محمد عبد اللطيف البحراوي، المرجع السابق، ص 84.

(4) -عبد العزيز سليمان نوار، الشعوب الإسلامية، دار العلم، العربية السعودية، 1406هـ، ص44 و: المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص83.

(5) - عبدالهادي جمال و جمعة، وفاء محمد رفعت، الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، دار الوفاء، 1994م، ص134.

الإسلامي في القرن 10هـ-16م ثم أضيف هذا اللقب إلى ألقاب كل السلاطين العثمانيين؛ كأمير للمؤمنين وذلك تأكيدًا للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي[1].

-حتى أن المجتمع العثماني بلغ في هذا القرن درجة بالغة التعقيد والتنوع ومع ذلك طبقت فيه القوانين والنظم بكل دقة مما جعل هذا القرن مثالا يحتذي به كتاب الإصلاح (بل إن المفكر الفرنسي) بودينBodin أوصى ملكه في أواخر القرن 15هـ/16م بأن يدير فرنسا كالدولة العثمانية فقد رأى أن البادشاه ليس رئيسًا للدين الإسلامي فقط، وإنما هو في الوقت نفسه رئيسًا للأرثوذكس والكاثوليك والموسويين (اليهود) الموجودين في إمبراطورتيه وأنه يعامل أتباع هذه الأديان بالمساواة.

—إن الحقيقة التي لايمكن إنكارها أو القفز عليها هي أن الحملات الإسبانية على السواحل المغاربية المتوسطية كانت ذات صبغة دينية لاشبهة فيها، لأن الدولة الإسبانية ذاتها قامت على أسس دينية صرفه ونمت وترعرعت بين جدران الكنيسة.

-فالرهبان والقساوسة كانت لهم الكلمة الأولى في توجيه سياسة الدولة نحو المسلمين، سواء كان ذلك في الأندلس أو في الشمال الإفريقي، فهم الذين كانوا يلهبون الحماس الديني في الجموع الإسبانية ويثيرون بواعث الكراهية والتعصب ضد المسلمين [2].

_ نهب الإسبان مقدسات البلاد وأحرقوها، مما دل على الطابع الصليبي والحقد الديني، الذي كان يحمله الإسبان.

-لقد كان تنصير المسلمين يُعتبر الهدف الأسمى لهذه الحملات [3] فقد صرح الباحث الفرنسي بأن: "تعميد المسلمين أو الهنود الأمريكيين كان يشكل أهم المهام وأنبلها للكنيسة" [4] بل إن إسبانيا وضعت تنصير العالم في نفس مرتبة اكتشاف الذهب [5] وهكذا كان أمل الإسبان في تحويل بلدان شمال إفريقيا على "إفريقيا لاتينية" على غرار مافعلوه في أمريكا اللاتينية، يمثل أعظم أهدافهم التي يصبون إليها [6].

---

(1) -عمر سالم بابكور :حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير(غ-م)،1407هـ/1986م، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، ص 163 وأنظر أيضاً: زكرياء سليمان بيومي، المرجع السابق، ص117.

(2) -مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص19 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع..."، المرجع السابق، ص8.

(3) -يحي بوعزيز، من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر، (بدون تاريخ)، ص43، وأنظر أيضاً: عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب، المرجع السابق، صص20-21 وأنظر أيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص15.

(4) – Pierre Charlesk ،L'Espagne de Charles-Quint، Paris ,1973، P 363.

(5) -عبد الجليل التميمي، "الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني ..."، المرجع السابق، ص13 وأيضاً: كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص123.

(6) -يحي بوعزيز، "المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد، (1780م/1798م)"، المجلة التاريخية المغربية، (د، م، ج)، الجزائر،1993م، ص4 وأنظر أيضاً: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، صص20-21، وأيضاً: محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص15 وأنظر أيضاً: يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص241.

-كما أن احتلال إسبانيا للسواحل الإسلامية في شمال إفريقيا من شأنه أن يساهم في ترسيخ زعامة إسبانيا السياسية للعالم المسيحي الكاثوليكي تلك الزعامة التي مافتئت إسبانيا تفتقر إليها منذ أن بدأت الوحدة الدينية والمذهبية لأوروبا المسيحية تتعرض للاهتزاز وانعدام الثقة بسبب ظهور حركة الإصلاح الديني [1].

-والرغم من تمكن الإسبان من احتلال الموانئ والمدن الساحلية نتيجة لتفوقه العسكري وضعف الجبهة المغاربية المحلية المسؤولية عن أمن تلك الموانئ والمدن، إلا إن الاحتلال الإسباني بقي محصورا في تلك المناطق غير قادرة على التوغل في المناطق الداخلية بسبب اشتداد المقاومة الشعبية التي التفت حول القيادات الدينية من العلماء وشيوخ الطرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك [2].

-نظر المؤرخون إلى الأحداث، الإمبراطور شرلكان في تونس وسليمان القانوني في تبريز وزيره الصدر الأعظم إبراهيم باشا في بغداد، ووجدوا من الصعب إجراء مثل تلك المقارنة، إبراهيم باشا بإدارته القوية أثناء غياب السلطان ضمن حماية تبريز وبغداد من أعمال السلب والنهب والتخريب، أما ضعف الإمبراطور شرلكان فقد تسبب في حرق المكاتب القيمة في تونس وإزالتها من الوجود تماماً، وبقتل 30000 إنسان برئ ومعصوم فكانت وصمة عار في تاريخه [3].

(1) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص222 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص217.

(2) -محمد درّاج، المرجع السابق، ص143 وأنظر أيضاً: مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج3، ص ص23-25.

(3) -أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية...، المرجع السابق، ص137 و: إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار...، المرجع السابق، ص171.

الفصل الثالث

دور أيالة الجزائر في تثبيت الحكم العثماني في تونس

(949هـ/1542م – 996هـ/1587م).

المبحث الأول:

جهود درغوث باشا ومقاومته للإمبراطورية الإسبانية.

1–إسهام درغوث باشا في تحرير السواحل الشرقية لتونس:

2–درغوث باشا يسيطر على الجنوب التونسي:

المبحث الثاني:

مجهودات القبودان علج علي باشا في تحرير تونس وردّ فعل إسبانيا.

1 – الحملة العثمانية الثانية: (القبودان علج علي باشا) على تونس (977هـ/1569م):

2 –الحملة الإسبانية الثانية: (دون خوان النمساوي) على تونس(981هـ/1573م):

المبحث الثالث:

تونس إيالة عثمانية: (982هـ/1574م – 995هـ/1587م).

1– الحملة العثمانية الثالثة (القبودان علج علي باشا) على تونس: (982هـ/1574م).

2– عثمنة تونس.

خلاصة الفصل الثالث

الفصل الثالث

دور أيالة الجزائر في تثبيت الحكم العثماني في تونس (949هـ/1542م – 996هـ/1587م).

المبحث الأول :جهود درغوث باشا (1) ومقاومته للإمبراطورية الإسبانية:

1 – إسهام درغوث باشا في تحرير السواحل الشرقية لتونس:

ولكن أحد رفقاء خير الدين باشا، وهو درغـــوث رئيس كان ينشـــط في المياه التونسية، ويسعى إلى إخضاع سواحلها الشرقية وحتى دواخلها الجنوبية إليه (2) خاصة بعد حصل على ثقة خير الدين باشا وأخذ خطـة في مقاومـة القراصـنة الإسـبان بالسـواحل التونسـية خاصـة (3) أثنـاء غـزو جزيـرة جربـة سـنتي(916-927هـ/1510م-1520م) وحلـق الـوادي وتـونس سـنة (942هـ/1535م) (4)، وكـان بينـه وبـين الـوزير الأكبر أبا الطيب تاج الخضار صُحبة أكيدة، ولما نزل درغوث رئيس جربة ليفتكّها من يد النصارى أرسل له الأمير مدداً ومؤونة وزاده إعانة لعساكره، وأفتك جربة منهم وكان بقاؤها في يد النصارى 6أشهر (5).

عندما أنزل الإسبان حامية عسكرية في مدينة المهدية عام (946هـ/1539م) بطلب من سلطان تونس الحفصي للقضاء على ثورة داخلية ضده، غضب السكان ولم يرضــوا بهذا الاحتلال، عندها اضـــطرت الحـــامية إلى الانسحـاب، فاستقلت المدينة بعض الوقـت واتّصـل بعـض زعمائها بدرغوث رئيس ورجـوه القـدوم لمساعـدتهم في القضاء على الاضطراب والتمزق السياسي الحاصل فقدم إليهم سنة (1540م) وعمل على تهدئة الأمور كما عين ابن أخت خير الدين يدعى شمشريفي(chamcherivi) حاكماً عليهم (6).

تتضايق الإمبراطور شرلكان من نشاط درغوث رئيس وهجوماته، لذلك أمر أندري دوريا بالقبض عليه ففاجأه القرصان الإيطالي الشهير جانتين دوريا (Gannetino Doria) حفيد أندري دوريا، عند سواحل كورسيكا في (947هـ-1540/6/15م) (7) وسخّر للتّجديف في سفن عائلة لوميليني (التي أشترته من دوريا) مدة 4 سنوات إلى أن أفتداه السلطان العثماني ب:3000 دوقة عام(950هـ/1543م) مع التنازل لعائلة

---

(1) – ولد درغوث باشا: جزيرة رودس سنة 1485م نشأ وتربى على الحياة الإسلامية وشّب على حياة الفروسية والمغامرة في البحار مع الأساطيل البحرية العثمانية وفي سنة 1533م ذكّر بين البحارة الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية في بحر إيجة؛ عين حاكماً على طرابلس سنة 1556م للمزيد أنظر: يحي بوعزيز، "مقاومة جربة للغزوات الأوربية في القرن16م"، أعمال الملتقى حول تاريخ جربة(أفريل 1982م)، المعهد القومي للأثار، 1986م، ص63وأيضاً: أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، دار الفرجاني، ليبيا،(د- ت)، ص209.

(2) –أنظر عن نشاط درغوث في سواحل تونس، ودواخلها الجنوبية، عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص ص23-79.

(3) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 22: حول البلاد التونسية في القرن 16م.

(4) –عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص153 وأنظر أيضاً: محمد قوجة، " الحملات الإسبانية على جزيرة جربة "، مجلة دراسات جزيرة جربة، جمعية صيانة جزيرة جربة، تونس، 1996م، ص66.

(5) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المصدر السابق، ص 210.

(6)- Le Commandant Hannezo، (Mahdia (Tunisie), notes historiques), R, T, 1908, t15, 39-46et pp149-159.

(7) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص72 وأنظر أيضا: يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص45.

لوميليني عن جزيرة طبرقة التونسية [1] حيث كان للقبودان داريا خير الدين الدور الأهم في تحرير درغوث رئيس عند التقائه بأندري دوريا في ميناء طولون وأجرى معه اتصالات بشأن ذلك [2].

أولاً – درغوث يهاجم الإسبان ويطردهم من الساحل الشرقي لتونس:

تصادف استعادة درغوث رئيس لحـريته مع عودة القبودان داريا خير الدين إلى إستانبـول، فخلفه على رئاسة جـميع سفنه في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط [3] كان ذلك سنة (951هـ/1544م) واتخذ جزيرة جربة قاعدة له غزا سواحل نابولي ثم طرد الإسبـان من سوسـة والمنستير وصفاقس [4] كما اشترك في حملة السلطان العثماني في البحرية على جزية مالطا عام(953هـ/1546م) [5].

قام أثنـاء السنوات (954-956هـ/1547-1549م) بهجمات قويـة على السواحل الإسبـانية وعلى صقلية وسردينيا والميزوجيورنو [6] وأظهر مقدرة فائقة في ردع الأوروبيين، وردّ هجماتهم على السواحل التونسية [7] كما قام بتخريب ثلاث قرى في مالطا سنة(954هـ/1547م) وفي (955هـ/1548م) استولى على السفينة التي كانت تحمل خزينة فرسان مالطا المقدرة بحوالي 20000 دوقة ذهبية [8] كان هذا المبلغ موجها لتحصين طرابلس الغرب التي كانت من أهم ممتلكاتهم [9].

وفي(955هـ/1548م) أدرك درغوث خطورة فرسان القديس يوحنا في المنطقة، فحاول التقرب من السلطان أحمد بتقديم هدية ثمينة له، حتى يحمي ظهره في حالة هجومه على الشواطئ الأوروبية وعندما غادر تونس زوده السلطان العثماني بالمدافع والذخائر والمواد الغذائية والعتاد البحري [10] فهاجم خليج نابولي وغزا بوزوليس(Pouzzoles)وكاستلمان "وحمل سفنه بالأسرى حتى كادت تغرق من كثرتهم" [11].

---

(1) -محمد سي يوسف، علج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر،1988م، (غ-م)، ص64، وأنظر أيضا: Haedo Diego, op ,cit ,P225

(2) -يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص63 وأنظر أيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص338.

(3) -Gean Monlau، Les Etatas Barbaresques، P. U. F، Paris1964، p25.

(4) – الباروني محمد عمر ، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس،1952م، ص120.

(5) - E : Bossoutrot ، (Documents musulmans pour servir à une histoire de Djerba), R .T, 1903, PP50-65.

(6) – المنور مروش، المرجع السابق، ج3، ص113 وأنظر أيضا: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص339.

(7) – يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص63 وأيضا: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة...، المرجع السابق، ص127.

(8) – جون بول وولف، المرجع السابق، ص65 وأنظر أيضا: ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص 233.

(9) – Goulet du Gard, René : La course et La piraterie en Mèditerranèe, éd .France empire, Paris1980, P123.

(10) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص66 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص73.

(11) –Chantal de la vèronne : Relations entre Oron et Telemsan dans la premier moitiè du XVIe siècle, thèse paris IV, Paris 1983, P257.

ثانياً – الاحتلال الإسباني لمدينة المهدية(959هـ/1551م):

في بداية(958هـ/1550م) التحق درغوث بمدينة المهدية–ذات الموقع الطبيعي القوي التحصين، كما أن أبراجا دفاعية جعلت منها إحدى المواقع البحرية الاستراتيجية–واتخذها مركزاً وقاعدة له، ينطلق منها في غاراته ضد القراصنة الأوروبيين عامة والإسبان بصورة خاصة [1] وهو مايصفه المؤرخ ابن أبي الضياف بقوله: "وفي ظل هذه الأحداث قام درغوث على الجهة الشرقية من بلاد المغرب وجعل مهدية مقر قيادته"[2] كتب نائب الملك الإسباني في نابولي يخبر إمبراطوره عن الحادث، ويؤكد له أن المهدية تساوي مدينة الجزائر، فراسل السلطان العثماني محتجاً على نقض الهدنة [3] بحكم أنها تحت نفوذ السلطان الحفصي الذي هو تحت سلطة وحماية شرلكان [4] إلا أن السلطان العثماني ردّ عليه بأن درغوث رئيس من الرياس الأحرار ولاينتمي لدولته [5].

عزم الإمبراطور شارلكان على وضع حدّ لنشاطات درغوث رئيس الذي نجح في إنشاء مملكة شبه بحرية على الساحل التونسي فسيّر أندري دوريا حملة ضدّ مدينة المهدية تحت إمرة نائب ملك صقلية الدون خوان دي فيجا (Don guan de Vega) سنة (959هـ/1551م) [6] وكان الحسن الحفصي المخلوع ضمن هذه الحملة، وكان اصطحابه من أجل استغلال نفوذه لضمان إنجاح العملية لكنه مات في الطريق [7].

عندما علم درغوث رئيس بأمر الحملة دعّمها بخمسمائة مقاتل، وعّزز مواقعها بالمدافع والبنادق ولإلهاء القوات الإسبانية في أماكن أخرى وتشتيت قواها، قام درغوث رئيس مع نائبه علج علي بمضاعفة الهجومات البرية والبحرية وذلك بمساعدة الأسطول الجزائري [8] وبينما هو يجوب البحر، سمع بإنزال القوات الإسبانية على الشواطئ التونسية، فولى راجعاً إلى المهدية لاعتراض طريق الغزاة، لكنه أُجبر على الإقلاع مجدداً، تاركاً مهمة الدفاع عن المهدية إلى الحامية العثمانية بالإضافة إلى أهاليها الذين استماتوا في الدفاع عنها لكن المدينة استسلمت في أعقاب هجوم قوي تم في(959هـ/1551/9/10م)حيث سقط1500 شهيد خلال فترة الحصار الذي دام 3أشهر وتمّ أسر9000 [9] وبسقوط المهدية تعرّضت مواقع العثمانيين إلى إضعاف شديد.

---

(1) –يحي بوعزيز، مقاومة جربة.... المرجع السابق، ص63 وأنظر أيضا: المنور مروش، المرجع السابق، ج3، ص113.

(2) – ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج1، ص244.

(3) – مدتها 5سنوات، عقدت بين العثمانيين والهابسبورغ في1545 للمزيد أنظر: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص ص109–111.

(4)– جون بول وولف، المرجع السابق، ص66 وأيضاً: .Braudel Fernand, la Méditerranée , op, cit, t2, p231

(5) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص66 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص340.

(6) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص74 وأنظر أيضاً: روسو ألفون، المرجع السابق، ص 94.

(7) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص190 وأنظر أيضاً: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، صص113–114.

(8) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص114 وأنظر أيضاً: روسو ألفون، المرجع السابق، ص 74.

(9) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص193 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص156.

بعد استتباب الأمور رجع الدون خوان دي فيجا بأسطوله إلى صقلية وخلّف ابنه ألفار(Alvar) حاكماً على المهدية وبحوزته 1500جندي بتموينا‌تهم إلا أن هذا الأخير شقّت عليه المهمة بسبب نفاذ المئونة والأموال التي كانت في حوزته، مما مكّن له العجز عن تسديد رواتب الجند، فثاروا عليه وعزلوه وعينوا بدله أنطونيو أبوتي (Antonio Abouthi) الذي تمكن نتيجة لبعض الغارات الناجحة في البر والبحر من توفير احتياجات رجاله سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن تمكن نائب ملك صقلية من القضاء على المتمردين [1]، وفي (961هـ/1553م) أرسل حاكم المهدية الإسباني رسولاً إلى نائب الملك بصقلية يستحثه على إرسال أجور الجند، ويخبره بأنه إذا لم يتم ذلك فسيجد نفسه مضطراً لقبول عروض مراد أغا والي طرابلس الذي يعرض عليه باسم السلطان العثماني إنقاذ الحامية وإخراج الأمتعة مقابل تسليم القلعة [2].

وبمرور الوقت أصبحت تكاليف المهدية باهظة، ولم يعد بوسع شارلكان تحمّل أعبائها من حيث أجور الجند واحتياجاتهم، بالإضافة إلى تكاليف التّحصينات التي ينبغي القيام بها لحمايتها من البحارة المسلمين فقرر الجلاء عنها وكلّف أحد قواده المدعو دون فيرناند داك (Don Fernand d'Acuna) بتدمير جميع تحصينات المدينة وتخريبها بعد سحب الحامية الإسبانية منها، كان ذلك في (962هـ/جوان1554م) [3]، هذا الخطأ سيكلّف الإسبان غالياً فيما بعد وفي هذا الصدد أورد بن أبي الضياف مايلي:" وغزا أهل نابولي وجنوه المهدية، وأخذوا مافيها، وتفرق أهلها وهدموا سورها ثم أقلعوا، وتراجع إليها بعض أهلها... " [4]، وبعدها قدّم الإسبان اعتذارهم على هجوم المهدية والتخريب الذي تعرضت له المدينة، بنيّة أنهم حلفاء لسلطان تونس ومساعدتهم له من أجل تطهير البلاد من القراصنة الذين استولوا على أحد موانئه [5]، إلا أنّ المتعرف عليه هو أنّ السلطان أحمد الحفصي لم يكن متعاوناً مع الإسبان، بل كان في صراع معهم والعبارة التالية تدلّ:" والسلطان أحمد في خلال هذه المدّة مستمر القتال مع الصبنيول المتغلبين على حلق الوادي ولاقى أهل تونس منهم الشدائد، فكانوا يرسلون شوانيهم إلى البحيرة ترمي البلاد بالمدافع"[6].

(1) – مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص83-87 وأنظر أيضاً: روسو ألفون، المرجع السابق، ص94.

(2) -Ernest Charrière ،op. cit ،t2، p227.

(3) –روسو ألفون، المرجع السابق، ص 94 وأنظر أيضا: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص ص88-90وأنظر أيضاً: Braudel Fernand, la Méditerranée , op.cit., t2, p231.

(4) -يحي بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص46وأنظر أيضاً: ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص18.

(5) -جون بول وولف، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص341.

(6) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص253 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج، المصدر السابق، ص 213.

2-درغوث باشا يسيطر على الجنوب التونسي:

أولا-السيطرة على قفصة والقيروان:

أ- قفصة(964هـ/1556م):

بعد انسحاب درغوث رئيس من المهدية في (959هـ/1551م) توجه إلى مدينة قفصة في الأعماق الداخليـــة وحاول أن يتخذها مركزاً لقواته، لكن سكانها قاوموه ومنعوه من دخولها، فعاد أدراجه واتجه إلى جربة قاعدته الأصلية، غير أن شيخها صالح والجالية اليهودية وبعض السكان رفضوا أن يقدموا له أية مساعدة وطلبوا منه أن يُغادر جزيرتهم حتى لايقدم القراصنة الأوروبيون على غزوها فتحرّج موقفه وأرسل إلى صالح رئيس بجزيرة رودس يطلب نجدة عاجلة لدعم ثورة داخلية ضد الشيخ صالح تزعمها أحد أولاده [1].

وفي شهر أكتوبر من نفس العام، قام بغارة على الإسبان فأحرق مركبا مسينيّا وعطّب آخر، ثم اتجه إلى مدينة قابس، فتخوف الإسبان من تحركاته هذه وأرسل إلى حاكم صقلية يخبروه باستقرار درغـــوث رئيس في قابس، وتأييد السكان له في كل المنطقة من صفاقس إلى جربة، وتعاطف شيخ جربة الجديد معه وأبلغه بأنه يتوقع حصول نكبة للأساطيل المسيحية في المنطقة إذا لم تُتّخذ إجراءات عاجلة [2].

وعندما تمركز درغوث رئيس في قابس أخذ يستعد للطوارئ، بجمع المراكب المحاربة وإصلاح المعطوبة وأنشأ معسكرين نصّب بهما عددا من المدافع للدفاع عن أسطوله عند الضرورة، وحضر إليه حسن قورصو رئيس ببعض الجنود والمراكب كدعم له فأستخلفه على أسطوله البحري في مدينة قابس، وتوجه إلى مدينة قفصة في (957هـ-1550/12/26م) مجدداً محاولاته في اقتحامها إلاّ أنه فشل في تحقيق هدفه لكنه سينجح في فتحها في (964هـ-1565/12/20م) [3].

ب -القيروان(966هـ/1558م):

عمل السلطان أحمد الحفصي في بداية أمره على إقامة علاقات تعاون مع درغوث باشا، بسبب التقاء مصالحهما؛ حيث كان يرنو إلى حماية ملكه من الشابين المستولين على القيروان والطامعين في ضم تونس إليهم، فهم يشكلون خطراً محدقـاً أكثر من الإسبـان المستـقرين في بعض موانـئ الساحلية دون أن يتوغلوا في البلاد احتكاماً لظروف الحرب في أوروبا [4] كما أن درغوث باشا حاول التقرب من السلطان أحمد بدافع الحرص على تنقية مدخل الحوض الغربي للبحر المتوسط من فرسان القديس يوحنا والإسبان [5]

---

(1) – يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص62 وأنظر أيضاً: خليل الساحلي، المرجع السابق، ص28.

(2) -Monchicourt (E), " Episode de la Carrière Tunisienne de Dragut.1، dragut dans l'Oued Gabes et contre Gafsa (Hiver 1550-1551) " R.T، 1918 ،pp35-43.

(3) – محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص 66 وأنظر أيضاً: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص 113.

(4) – محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص717 وأنظر أيضاً: علي الشابي، المرجع السابق، ص 127.

(5) – عبد الجليل التميمي، الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، الاتحاد العام التونسي للشغل، ط1، تونس، 1984م، ص 76.

مع علمه أن هذا السلطان لايشكل خطراً، وأنه لايستطيع التغلب عليه حالياً وقد أشار المؤرخ ابن أبي دينار إلى هذه العلاقات بقوله:" وكانت بين أحمد الحفصي وبين درغوث باشا صحبة أكيدة"[1].

كانت الانتصارات التي حققها درغوث باشا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط قد أكسبته سمعة كبيرة وجعلت منه محط آمال لتخليص أهالي تونس مما يعانونه من تسلط وقهر، مما جعل أيضا سكان القيروان يستنجدون به ضد قائد الشابية سي محمد الطيب[2]، قد أوجدت مناخاً مناسباً له! لأن القيادة العثمانية في الجزائر لها انشغالات أخرى؛ التصدي لحملة شارلكان الاسباني على الجزائر1541م والاستلاء على طرابلس الغرب1551م ولهذا طال أمد سلطة الشابية في الجنوب التونسي مايقارب20عام[3] لكن عهد المؤسسات السياسية القبلية المستقلة قد ولى وانقضى فلم يستطيع الشبابيون البقاء على رأس إمارتهم الواهنة إلاّ باستغلال ظروف التناحر بين الحفصيين والإسبان مع العثمانيين [4].

فانتهز درغوث باشا الفرصة وأستولى على القيروان عاصمة الشابين بعد أن قتل محمد بن الطيب الشابي في (966هـ-1558/1/3م) وخلف عليها حيدر باشا [5]وهذا مايصف لنا المؤرخ السراج:"ولما مات الشيخ عرفة صاحب القيروان قام بالأمر بعده محمد بن أبي الطيب، وهو أخوه، واستنجد أهل القيروان بدرغوث باشا وكان في طرابلس، لما قاسوا من جور أبي الطيب، عليهم وسلموا له البلاد على يد رجل من خدام الشابين يقال له الغالي "[6] وتحولت بذلك قفصة والقيروان إلى معسكرين ومركزين هامين للقوات العثمانية وقاعدتين خلفيتين للمعارك المقبلة ضد الإسبان المحتلين لتونس وحلق الوادي [7].

بل امتد نفوذ درغوث باشا إلى أجزاء واسعة من تونس، كسوسة والقيروان، والمنستير، والمهدية [8] والمعروف أن المدن الثلاث الأولى، كانت تحت إدارة درغوث باشا قبل فتح طرابلس، ثم ألحقت بها بعد الفتح [9] أما المهدية فكانت محتلة من قبل الإسبان، لكن بعد فتح طرابلس اضطروا إلى إخلائها كما أسلفنا القول وأصبحت معظم الأراضي التونسية تحت حكم العثمانيين [10] ولم يبق منها سوى بعض الأقاليم التي ظلت تحت حكم الحفصيين، كمدينتي تونس وبنزرت، ولم تكن سياسة الدولة العثمانية تصوب إلى استبدال الحكام

---

(1) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص67 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 192.

(2) –روسي، اتروي ((Rossi Ittore))، ليبيا تحت الإسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتحقيق خليفة محمد التليسي، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس 1969م، ص 222.

(3) – شارل فيرو، الحوليات الليبية من الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تج محمد عبد الكريم الوافي، منشورات فازيونس، ليبيا، 1994، ص99.

(4) –حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص47-48 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص45.

(5) – ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: علي الشابي، المرجع السابق، ص 128.

(6) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص203.

(7) –محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص66 وأنظر أيضاً: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص113.

(8) –أبي بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ط1، دار الإحياء للتراث العربي، لبنان، 1988م، ص145.

(9) –فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص 560.

(10) – عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص 76 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص342.

المحليين بالأمراء العثمانيين وهذا يفسر لنا بقاء الحفصيين في تونس فترة أطول، على الرغم من انضواء الجزائر وطرابلس وأجزاء واسعة من تونس تحت الحكم العثماني وقد ورد في حكم سلطاني صدر في (4/9/ 973هـ-25/3/ 1566م)، جاء فيه أن حاكم تونس مولاي أحمد تربطه علاقة جيدة مع الدولة العثمانية وطلب من باي لارباي طرابلس الغرب أن يوطد علاقته به ويتحالف معه، وألا تقوم بأي عمل يلحق الضرر والأذى ببلاد تونس ورعاياها [1] وعلى الرغم من كل ذلك فإن حكام تونس قاموا بتوطيد علاقاتهم مع الإسبان على حساب الدولة العثمانية [2] لهذا تغير الموقف العثماني برمته من الأسرة الحفصية لاسيما بعد لجوء بعض أمرائها إلى الإسبان، وتحالفهم معهم ضد الوجود العثماني في المنطقة [3].

ثانياً–التحالف المسيحي على جزيرة جربة:

أ– الهجوم الإسباني على جربة وتداعياتها(959هـ/1551م):

بعدما علم حسن قورصو رئيس بتحركت الأسطول الإسباني، انسحب إلى جربة، أين وافاه درغوث رئيس في (959هـ/مارس 1551م)، وطلب من شيخها صالح السماح له بتجنيد الجنود، وقد جند فعلاً حوالي1500 شخص [4] حينما بوغت درغوث رئيس بحصار أندري دوريا له بميناء جربة في (959هـ/أفريل 1551م) سدّت عليه جميع المنافذ، لكنه استطاع أن يسحب سفنه عبر طريق بري نصفه قناة لايزيد عمق الماء فيها عن المتر الواحد ونصفه الآخر طريق مفروش بالأخشاب المطلية بالزيوت، وتم دفع السفن بالأيدي عبر تلك القناة إلى البحر واستطاع الإفلات بأسطوله كاملاً [5] ولما خرج بسفنه إلى عرض البحر أستولى على المركب الرئيسي القادم من صقلية لدعم أندري دوريا [6] وبعد أن أفلت من حصار جربة خلال شهر أفريل، لجأ إلى القسطنطينية أين زوده السلطان بكل المؤن اللازمة لاسترجاع الأماكن المفقودة، وتم نقض الهدنة التي أمضيت بين الإسبان والعثمانيين سنة (954هـ/1547م)[7]، كما أن السلطان العثماني قد زاد اهتمامه بجهة المغرب[8] فبعث الأسطول العثماني (951هـ/1551م)[9] قوامه140 سفينة من مختلف الأحجام والأنواع إلى عرض البحر، بقيادة القبودان باشا سنان باشا بالإضافة إلى سفن درغوث رئيس التي بلغت حسب

(1) –فاضل بيات، المرجع السابق، ص579 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص102.
(2) –محمود السيد الدغيم، تاريخ إفريقية القديم والحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2006م، ص236.
(3) –جون بول وولف، المرجع السابق، ص68 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص579.
(4) – عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص76 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص64.
(5) –سعيد بن يوسف الباروني، " صفحات خالدة من تاريخ جربة بعد الفتح الإسلامي من سنة (47هـ/69هـ–1298م/1880م)»، دراسات حول جزيرة جربة، جمعية صيانة جزيرة جربة، تونس 1994م، ص140 وأنظر أيضاً: Ernest Charrière, op, cit, t2, p144.
(6) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص209 وأنظر أيضاً: روسي اتروي، المرجع السابق، ص207.
(7) –روسي اتروي، المرجع السابق، ص 208 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص68.
(8) –محمد باشا نشانجي، نشانجي تاريخي، إستانبول، تركيا، (ب–ت)، ص124.
(9) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص26 وأنظر أيضاً: محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص68.

المصادر خمسين، وكذلك صالح باي حاكم رودس [1] وقد حاذى الأسطول العثماني الساحل الصقلي ثم هاجم مالطا وحاول عبثا الهجوم على مدينة نوتابيلي (notabile) ولكنه استطاع أن يغزو جزيرة قوزو (gozzo) وأسر منها5000 شخص، اتجهوا بهم جميعا إلى مدينة طرابلس فوصلوها في 5/ أوت [2] وفرضوا عليها حصاراً دام9 أيام، ثم فتحوها في (951هـ-1551/8/15م) وحرروها من سيطرة فرسان مالطا المسيحيين بصفة نهائية [3]كما يصفها السرّاج: "وكان هذا الفتح981/5هـ وقتل في القلاع13000 مقاتل " [4] وفتحت طرابلس [5] بعد أن مكثت تحت يد النصارى41عاماً [6]تسلمها درغوث باشا بعد أن كتب له السلطان بولاية له [7]وأصبح والي طرابلس الغرب [8] وتم تثبيته بك سنجق قارلي (Qarli Eli) [9] وهو المنصب الذي كان يشغله قبل الفتح كما سعى لدى السلطات للحصول على منصب باي لارباي الجزائر [10] لكنه لم يظفر به كما كان يطمح لمنصب قبودان باشا [11] وهو الأمر الذي جعل سنان باشا يرتاب منه ويعود إلي استانبول بسرعة دون أن يحاول مهاجمة الإسبان في مدينة المهدية [12] ثم مبايعة أهل تاجوراء لمراد آغا فيما بعد[13].

ب–فشل الحملة المسيحية على جربة[14] (969هـ/1560):

كان درغوث قد فرض سيطرته على جربة منذ عام (966هـ/1558م) وبعد مدة عين عليها غازي مصطفى التركي [15]وأخذ بعد ذلك يواجه القراصنة الأوروبيين في موانئ إيطاليا نفسها مثل ريجيو ومسينا وغيرهما فتضايق الأوروبيون من ذلك وأخذوا يفكرون في كيفية الانتقام منه؛ يقول المؤرخ مونشيكور في كتابه :" لقد كان صاحب الفكرة نائب ملك صقلية وفرسان مالطا الذين كانوا يحرصون على استرجاع طرابلس

(1) – إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص 265 و: عبد الجليل التميمي، الولايات العربية، المرجع السابق، ص77

(2) – روسي اتروي، المرجع السابق، ص 209 وأنظر أيضا: Ernest Charrière, op،cit ،t2 ،pp154-162

(3) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص 48 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص125.

(4) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص232.

(5) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 23: حول الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية في القرن 16م.

(6) – أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي، المصدر السابق، ص92 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص105.

(7) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 111وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص719.

(8) – ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص59.

(9) –قارلي (Qarli Eli): وهي(أكارنانيا) باليونان وتقع على ساحل أبيرو للمزيد أنظر: روسي اتروي، المرجع السابق، ص219.

(10) –عُين في هذا المنصب صالح رئيس وكان قبل ذلك بك رودس للمزيد أنظر: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص50.

(11) - Ernest Charrière ، op، cit، t2، p321.

(12) –يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص66 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص69.

(13) –بلد شرقي مدينة طرابلس بنحو 12 ميلاً بني بها مراد أغا جامعاً ومدرسة كبرة لاتزال ترف باسمه إلى اليوم.

(14) –لتفاصيل أكثر حول هذه الحملة أنظر: E, Monchicourt. L'èxpèdition Espagnole de 1560contre l'ile de Djerba, Ernest Lerouse, Paris, 1913, p143.

(15) –أبو راس الجربي، مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق وتعليق محمد المرزوقي، ط2، تونس 1960 ص115.

من درغوث باشا"[1] وربما أيضا سمح الإمبراطور لفرسان مالطا ونائبه بنابولي بهذه الحملة أخذاً بخاطر البابا الذي أغدق عليه المنح التي كانت الخزينة الإسبانية في أمس الحاجة إليها [2].

فعلمت السلطات العثمانية بإستانبول في 968/11/22هـ بما عزم عليه المسيحيون [3] واتخذ الرئيس درغوث حيال معرفته وخبرته كافة التدابير اللازمة، فقام أولاً بتحصين ولايته، كما قام ببناء عدة مواقع دفاعية أخرى من باب الحيطة والحذر ومن بعد ذلك التفت إلى إعداد قواته إعداداً سليماً وقد كتب حاكم تونس إلى الديوان الهمايوني يعلن انضمامه إلى الرئيس درغوث [4] لأنه يرغب بمؤازرة المسلمين ضد المسيحيين، فجهز جيشه وأسطوله [5] وكُلف بيالي باشا بالتحرك لمنع المسحيين من الاعتداء على الشمال الإفريقي، لكن الأعداء لم يقوموا بعدوانهم صيفاً، فاضطر الأسطول للعودة إلى إستانبول مع أوائل الشتاء فاغتنم الأعداء ذهاب الأسطول و تحركوا بأسطولهم (1560/2/10م) انطلق الأسطول المسيحي المكون من54 سفينة حربية و36 سفينة شحن، ومن14000 رجل، و1000 رجل مالطي وأكثر من 100حصان و30 مدفعاً [6].

ورست الحملة في جربة وبعد معركة ضدّ العرب والعثمانيين تمكنوا من السيطرة على القلعة التي شيدوا بها حصنا [7] وتمكنوا من احتلال جربة واتخذوها قاعدة لهم لمهاجمة طرابلس وبدئوا بتحصينها وترميم أسوارها وحلماً علمت إستانبول بذلك وكان موسم الإبحار قد آن أوانه !أمر ببيالي باشا [8] بالتحرك وبلغ جربة في (969هـ/1560/3/15م)، وبوصول أخبار تحرك الأسطول العثماني قرروا الإسبان مغادرة الجزيرة فداهمهم الأسطول الإسلامي وأغرق لهم30 سفينة وأسر5000 من رجالهم [9] وبعد5أيام لحق به الرئيس درغوث وبدأ بين الطرفين قتال حامي الوطيس وأجبر جيش العدو وأسطوله على الفرار بعدما تكبد هزيمة كبرى، فقد من جرائها مُعظم قواته ونجح الأسطول العثماني في تحقيق أهدافه[10] وترك تكملة المهمة لدرغوث باشا.

---

(1) -Braudel Fernand , les espagnols…,p393 .

(2) – شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص348 وأنظر أيضا: Braudel, Fernand, les espagnols, op,cit,t2,p394.

(3) – روسي اتروي، المرجع السابق، ص 212 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص157.

(4) – ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص167.

(5) -أبو راس الجربي، المرجع السابق، ص117 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص69.

(6) -شارل فيرو، المرجع السابق، ص114 وأنظر أيضاً: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة…، المرجع السابق، ص ص129-131.

(7) -روسي اتروي، المرجع السابق، ص224 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الولايات العربية…، المرجع السابق، ص84.

(8) -بيالي باشا: أميرال عثماني كبير، كانت أشهر أعمالها انتصاره في معركة جربة على الحملة الصليبية التي قادها في 1560م وفي أوت 1564م خلّص حجر باديس من الاحتلال الاسباني وفي 1565م ساهم في حصار مالطا، توفي في 1578م.للمزيد أنظر: بوحمشوش نعيمة، البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن 16م، رسالة ماجستار في التاريخ الحديث والمعاصر، الجزائر،1999م، (غ-م)، ص109.

(9) -Zekeriyye Zade, Ferah Cerbe Fetihnamesi, acikamalarla yayina Hazirlayan ohron Sai Gokya, Istambul ,1975, pp16-143.

(10) -أبو راس الجربي، المرجع السابق، ص116 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، مقاومة جربة…، المرجع السابق، ص68.

ج–درغوث يحاصر الإسبان في حصن جربة(969هـ/1560م):

بعد الهزيمة النكراء التي مني بها الأسطول المسيحي، فرض درغوث [1] وبيالي باشا الحصار على الحامية المسيحية المتواجدة في القلعة [2]، حيث وصل المحاصرين إمدادات من السلطان أحمد الحفصي الذي كانت تربطه بدرغوث باشا صلات صداقة قوية وكان قد تلقى السلطان أحمد من السلطان العثماني أوامر بذلك [3].

حاولت الحامية المسيحية فك حصار المضروب عليها وبقيت صامدة في انتظار الدعم من مالطا وصقلية لكن دون جدوى، فقررت الاستسلام [4] قام درغوث رئيس ورفاقه ببناء برج [5] من رؤوس5000 مسيحي الذين قتلوا في هذا الحصار [6] وباستمراره في توسيع نفوذه في الجنوب التونسي حيث قام بضم جربة وقفصة وطرد الشـابين من البلاد التونسية ودخل القـيروان زيادة على هزيمة المسيحيين في جربة دقت ناقوس الخطر على الإسبان من حيث سيطــرة العثمانيين على طرق المواصلات البحرية –البرية، وتشجيع الموريسكيين على الثورة – ترويج إشاعات حول العثمانيين بالخروج لضرب حلق الوادي، آخر معقل مسيحي يهدد أمن وسلامة البلاد التونسية [7] كما أن السلطان أحمد الحفصي كان في نيته أن يهاجم حلق الوادي بمساعدة درغوث باشا بعد فراغه من قضية جربة [8].

لكن العثمانيون قرر القيام بحملة بحرية ضد فرسان مالطا سنة (973هـ/1565م) وكان الدرغوث باشا وعلج علي رئيس من القادة المعارضين لتلك الحملة، لأنهما كانا يريان أن الأولوية لتحرير المواقع المغربية التي تخضع للاحتلال الإسباني كوهران، حجر باديس [9] ولكن مدافع صقلية ومالطا وحلق الوادي تشكل مثلثاً تفصل غرب البحر المتوسط عن شرقه، ولضمانة سلامة المرور فيه إما فتح جزيرة مالطا أو استرجاع تونس [10].

---

(1) –ويؤكد (شيربي –Cirin) أن درغوث كانت رايته خضراء وصل من طرابلس 11 غاليرا، للمزيد أنظر: Cirin, Successi dell' arm ata ecc. Venezia 1560, pp146.

(2) – روسي تروي، المرجع السابق، ص225، وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص123.

(3) – ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص191 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص22.

(4) –روسي تروي، المرجع السابق، ص225، وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص124.

(5) – أطلق عليه تاريخياً، برج الرؤوس قرب برج الكبير وبقي رمزا حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث أجبرت فرنسا باي تونس على إثر معاهدة نصت أحد بنودها السرية على تدمير برج الرؤوس سنة 1832م بنقل الجماجم والهياكل من برج الرؤوس إلى مقبرة المسحيين في حومة السوق.للمزيد أنظر أكثر، عبد الجليل التميمي: الولايات العربية...، المرجع السابق، ص85.

(6) –شارل فيرو، المرجع السابق، ص124 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص71.

(7) –عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص140.

(8) – قام أحمد الحفصي بمساعدة لبيالي ودرغوث باشا أثناء الحملة المسيحية على جربة 1560م كما طلب منهم مساعدته لحصار حلق الوادي للمزيد أنظر: Ernest Charrière, op,cit,t3,p 628.

(9)– داريو كابا نيلاص، "خطة علج علي لتحرير مدينة وهران 1583م"، ترجمة عبد الله حمادي، مجلة الذاكرة، مجلة الدراسات التاريخية للمقاومة والثورة الجزائرية، مطبعة هومة، الجزائر، العدد السابع ،2001م، ص3.

(10) –عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص87 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص581.

ثالثاً: الصراع على مالطة1565م:

ففي عام (973هـ/1565م) كان الخليفة العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة [1] والتي يستقر بها فرسان القديس يوحنا؛ وكانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، هذا من جهة ومن جهة أخرى الإسبان فقد بذءوا يتفاخرون بأنهم قضوا على كافة القراصنة ولم يكن هناك وجود لأي سفينة تقف ضدهم أو تتجرأ على الظهور أمامهم.

فأرسل السلطان الأسطول بقيادة بيالي باشا، كما طلب من درغوث باشا حاكم طرابلس وجربة وحسن خير الدين حاكم الجزائر أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية محاصرة مالطة [2] وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل المسيحية وقد لبى هؤلاء الدعوة وأعدوا ما لديهم من قوة.

ووصل الأسطول الإسلامي أمام مالطة في (972/1/18هـ-1565م) الصدر الأعظم مصطفى باشا قائداً للجيش وقبودان آمراً على الأسطول وفرض الحصار عليها، ثم لحق بهم أمراء الشمال الإفريقي فسار الباي لارباي حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل 25 سفينة وثلاثة آلاف رجل؛ والتحق درغوث باشا بالجيش المحاصر لمالطة في 25 جانفي ومعه 15 سفينة وعلى الفور باشروا بمحاصرة برج سانت آلم (Burco Sent Elm) وأثناء المحاصرة أصيب الباشا درغوث بشذية في رأسه توفي على أثرها [3].

واستمر الحصار الى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة أسطول تعداده 28 سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين إلا أن استبسال فرسان القديس يوحنا في الدفاع عن جزيرة مالطا كلف العثمانيين خسائر فادحة مما أرغمهم على فك الحصار [4] وتمكن الأسطول الإسلامي من الانسحاب في 3/18/ 973هـ-12/8/ 1565م [5].

---

(1)- هارلود لامب، ترجمة شكري محمود نديم، سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، بغداد، العراق، 1961م، ص179.

(2) -افانوف نيقولاي، الفتح العثـــماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص193 وأنظر: روسي اتروي، المرجع السابق، ص225.

(3) –وفي 1565/6/23م نقل جثمانه مع 5سفن حربية إلى طرابلس ودفن فيها وكان الرئيس درغوث قائدا شجاعاً كما كان يمتاز بشهرة حربية ونزعة إنسانية للمزيد أنظر: خليل الساحلي، المرجع السابق، ص 56.

(4)-Cirin ,Successi ,op,cit, ,p147.

(5) -خليل الساحلي، المرجع السابق، ص 58 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص82.

المبحث الثاني: مجهودات القبودان علج علي باشا في تحرير تونس وردّ فعل إسبانيا.

1– الحملة العثمانية الثانية (القبودان علج علي باشا[1]) على تونس (977هـ/1569م):

أولاً: الظروف الوطنية والإقليمية:

أ–سياسة صالح باي لارباي في مواجهة الإسبان:

اسندت الدولة العثمانية باي لارباي الجزائر الى صالح رئيس في صفر 960هـ/يناير 1552م، بدلاً من حسن بن خير الدين [2] ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع ان يخضع الإمارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية وأصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه ثم بدأ صالح رايس في مُخططه نحو المغرب الأقصى واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار ووقف مع أحد أفراد أسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الإسبان والبرتغاليين معه [3].

عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق امرين [4]:

1–تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء أيالة الجزائر.

2–ادخال بقية أجزاء الصحراء الأيالة الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يحمي ظهره؛ ويجعلها حاضنة شعبية له.

أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة اهداف:

أولها: ابعاد الإسبان نهائياً عن الأراضي المغاربية.

ثانيهما: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجأة التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى استرداد الأندلس [5].

لم يكن صالح رئيس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الاسبان، ولايهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، وكان يرى قبل كل شيء وجوب طردهم من وهران، ثم استرجاع الأندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد بجاية يعلن انفصاله واستقلاله، ولكن ترامت لصالح رئيس يومئذ الأنباء عن ضعف القوى الإسبانية بمدينة بجاية، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق فرأى أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ

---

(1) –ولد علي في كالاباريا بجنوب إيطاليا وترعرع فيها، إلى أنه أسر في إحدى غزوات خير الدين وهو لا يزال صبياً، أحب البحار منذ طفولته كان زملاءه يسخرون منه وينادونه «بالفرطاس" لقب بعلج علي بعد إسلامه ونظرا للتسامح الديني الذي عوملت به هذه الفئة، ارتقى إلى مناصب رفيعة في فترة وجيزة جدا يتميز بالصدق والشجاعة مما أهلّه لتولي إمارة تلمسان، كما قاد عدة حروب ضد الإسبان وفي 1551م) كان أحد أكبر الرياس الذين قدمهم درغوث لسليمان القانوني للمزيد أنظر: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، هامش 1و2، ص224 و: المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص138وأيضاً: Haedo Diego , op ,cit ,p146

(2) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 117وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص159.

(3) –عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، صص80–81 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص54.

(4) –خليل الساحلي، المرجع السابق، ص34 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص84.

(5) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص366 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص162.

بتطهير الشرق الجزائري من الإسبان قبل أن يطهر غَربه ولعل انقاذ بجاية سيكون له أثر في عودتها إلى حظيرة الوحدة الإسلامية؛ وتحت ضغط السكان عليه سار صالح رئيس في3/963هـ-1/1555م نحوها على رأس قوة كبيرة تقدر بنحو30000 رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين المتطوعين، فوطئها وحاصرها بينما جاء الأسطول العثماني يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش وصوب قذائفهم على القلعة [1] ودارت معركة عنيفة كللت بنجاح الباي لارباي صالح رئيس في انتزاع بجاية من الإسبان في11/ 963هـ-9/1555م ولم يستطيع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب[2]وأعلن استسلامه للقوات العثمانية[3].

ب –سياسة الباي لارباي الحسن ابن خير الدين: في التضييق على الاسبان:

فقد رأت السلطات العثمانية ضرورة إعادة الحسن ابن خير الدين باي لارباي على الجزائر سنة 1557م وذلك بعد مَصرع حسن قورصو عام 964هـ/1557م واستبشر الناس برجوعه وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الادارة، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه وبدأ في رحلته الجهادية [4] ووضع أمامه هدفين عظيمين، تطهير الشمال الإفريقي من الوجود المسيحي الإسباني واسترداد الأندلس للمسلمين [5].

فأراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسباني في وهران بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة [6] فعين في عام 1558م بويحي الرئيس قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الاسباني من قرطاجة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق[7] ودعا الحسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تُجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكون فيها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضدهم وخطرهم على الملاحة والتجارة الهندية[8]، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بويحي، فعم الخوف سكان الساحل الإسباني ، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بِحذر وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ[9].

(1) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، صص343-344 وأنظر أيضاً: خليل الساحلي، المرجع السابق، ص36.

(2) –جون بول وولف، المرجع السابق، ص ص73-74وأنظر أيضاً: محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص41.

(3) –عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص88 وأيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص56.

(4) –محمد خيري فارس، دراسات في...، المرجع السابق، صص38-39 وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص345.

(5) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص380 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص583-584.

(6) –افانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص194 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص98.

(7) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، 679وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص346.

(8) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص 224وأنظر أيضاً: Braudel, Fernand, les espagnols, op,cit,t2,p397.

(9) –نعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص159وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص74.

حَوَّلَ حسن بن خير الدين أنظاره سنة 966هـ/1559م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة؛ بعدها بخمسة أشهر من عودته يهيئ العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل مابقي لإسبانيا ببلاد الجزائر [1].

ج –الحسن ابن خير الدين (قبودان باشا):

أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين؛ فترك الجزائر متوجهاً إلى إستانبول سنة 975ه/1567م وتولى منصب باي لارباي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رئيس، في 974/12ه–1567/7م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن ثم فاجأت محمد صالح رئيس ثورة عامل قسنطينة المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله الباي لارباي وقضى على ثورته وولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق[2]، وفي ربيع الأول 975ه–1567/9م، هاجم الإسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم [3] وكان في عهد السلطان سليم الثاني[4] الذي خلف السلطان سليمان القانوني الذي أحدث تغيرات بما تلائمها الظروف الجديدة فلم تطل ولاية محمد صالح بن رئيس إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة.

ثانياً: مجهود علج علي باشا في تحرير تونس:

ساهم علج علي في تحرير طرابلس سنة959ه/1551 كما شارك في صدّ الهجوم الذي تعرضت له جربة سنة960ه/1560م [5] من طرف الأساطيل المسيحية حيث أظهر قائد الأسطول العثماني بيالي باشا بعض التردد فأستغل علج علي باشا الوضع، وقام بشن هجوماً فوري، حقق جراءه نصراً عظيماً، ألحق من خلاله هزائم نكراء للإسبان وكبدهم خسائر فادحة مما أخافهم وأرعبهم، لقد لفت بشجاعته جميع بما

(1) –المهدي بن شهرة، تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، دار الريحان للكتاب، الجزائر،2007م، ص187.

(2) –سعيدوني، ناصر الدين: "رسالة من أعيان قسنطينة إلى سليمان القانوني، بشأن صالح رئيس (963ه –نوفمبر1555م) "، الكتاب التذكار لأجرون، ج2، زغوان، تونس،1975م، ص79.

(3) –كوبر يللي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد سعيد، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر،1967م، ص113.

(4) –سليم خان الثاني: ولد السلطان في 6 /930/7 هـ–10 /5/ 1533م، وتولى الملك بعد موت أبيه ووصل إلى القسطنطينية في 3/9/ 974–12/24/ 1566م، والوزير محمد باشا لم يعلن بوفاة السلطان سليمان إلا في أثناء عودته من مدينة سكدوار إلى بلغراد. فطلب الجنود ان يعطيهم العتاد ،فأبى ثم أذعن لطلباتهم لإظهارهم العصيان والتمرد وعدم إطاعتهم وأوامر انضباطهم وامتهانهم لهم بحضور السلطان ولم يكن السلطان متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلا عن إضافة شيء إليها ،والوزير محمد باشا الطويل المدرب على الأعمال الحربية السياسية ،لكن حسن سياسة هذا الوزير و عظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها، مرة واحدة فتم الصلح بينها وبين النمسا بمعاهدة تاريخها 17فبراير عام 1568 من شروطها حفظ النمسا وأملاكها في بلاد المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة ،وتجددت الهدنة مع الملك بولونيا باعتراف الباب العالي الذي حصل ما بين ملك بولونيا وأمير البغدان وتجددت مع شارل التاسع ملك فرنسا عام 1569م الاتفاقيات. للمزيد أنظر: فريدون باي، مجموعة منشئات السلاطين، إستانبول تركيا،1274ه، ص167وأيضاً: حسين مجيب المصري، المرجع السابق، ط1، ص68.

(5) – ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج1، ص244 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص69.

فيهم الرئيس درغوث باشا[1] فكافئه السلطان العثماني على هذه الشجاعة والجرأة وعينه أمير أمراء طرابلس الغرب بعد استشهاد درغوث باشا وبقي فيها مدة سنتين[2].

وكان علج علي باشا يعرف جيداً أهمية تونس ويدرك ماآلت إليه الأمور؛ لذلك أعد جيشاً وقرر التوجه به إلى تونس لاحتلالها وطرد الإسبان منها؛ ولكن ماإن تولى علج علي الحكم في الحكم طرابلس سنة(973هـ/1565م) حتى تغيرت العلاقات بين طرابلس والسلطان أحمد الحفصي الذي كان متخوّفاً من سياسة علج علي الحاكم الجديد للجارة طرابلس وفي هذا الصّدد يورد بن أبي دينار ما يلي: " وكانت بين السلطان أحمد وعلي باشا ضغائن في النفوس من وقت استخدامه بمدينة طرابلس" [3].

فقد كان السلطان أحمد يناور فمرة يهادن العثمانيين ومرة يهادن الإسبان مع استبداده بالحكم ومنحه الحرية للإسبان الذين كانوا يتصرفون في البلاد كما يريدون، مما أصبح يهدّد أمن التونسيين وبالتالي باتوا يضمرون الكرة والحقد للسلطان الحفصي [4] ولم تستقم الأمور له في تونس، ولم تتحسن العلاقات بينه وبين الجزائريين [5] وظلت تونس تحت نفوذ الإسبان حتى سنة 1568م قد جعل السلطة العثمانية في الجزائر يركزون سنة 1569م، جهودهم على إخضاع تونس تحت لواء الدولة العثمانية من جديد [6] ولاننسى أن الرعية كانت تكره السلطان أحمد مثل أبيه لأن وجود المسيحيين كان يجرح كبرياء التونسيين فالضرائب الكثيرة والثقيلة المفروضة عليهم سحقتهم سحقاً، مما جعلهم يتطلعون إلى حكم آل عثمان، ففي سنة 971هـ/1563م توجهت بعثة تونسية إلى دار الخلافة الإسلامية؛ طالبة من الخليفة استرجاع تونس بِمينائها حلق الوادي[7].

أ–علج علي باي لارباي الجزائر:

ويعتبر علج علي باشا من خِيرة الأمراء الذين تولوا أمر الجزائر [8] وأُسند منصب باي لارباي الجزائر إليه في 976/1/14هـ- 1568/8/8م فقام علج علي باشا بتطبيق القانون بكل صرامة وفرض النظام مما وفر الهدوء والاستقرار للجزائريين، كما رمم القلاع والحصون[9]، وساعده على ذلك اضـــطراب الأوضاع الداخلية في إسبانيا بسبب الثورات والاحتجاج والعصيان المتولدة عن الإرهاب الممارس على المسلمين [10]

(1) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص 224-225 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 118.

(2) –افانوف نيقولاي، الفتح العثـــماني للأقطار العربية، (1516-1574م)، المرجع السابق، ص192 وأنظر أيضا: خليل الساحلي، وثائق عن المغرب العثـــماني أثناء حرب مع مالطا، 1565م، العدد 7-8، جانفي (م. ت. م. ع)، 1977م، صص54-55.

(3) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص721وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص194.

(4) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، صص88-89وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص27.

(5) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، صص915-916 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص72.

(6) –للمزيد أنظر عن نشاط درغوث في سواحل تونس، ودواخلها الجنوبية، عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص ص23-79.

(7) – ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص212 وأنظر أيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص228

(8) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص91 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص58.

(9) –شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير، ط1، مكتبة الانجلو المـصرية، القاهرة، مصر 1977م.ص 100.

(10) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص 224-225وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص86.

وعُرف عنه العزم في تسيير الإدارة بشجاعة والبطولة الحربية [1] اتخذ الباي لارباي علج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطيراً للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا وتحرير الشمال الإفريقي من الجيوب الصليبية فوجه اهتمامه إلى الأسطول البحري أكثر من غيره وصار مبعث قلق ورهبة للأوروبيين[2] كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة ل:3سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة [3].

ب–علج علي باشا ينقل المعركة إلى أرض العدو:

كان علج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في إسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد[4] ففي أكتوبر1569م كان الأسطول يحمل أعضاء من الجيش الإنكشارية مما يملون الخبرة ليكونوا عونا للمورسكيين[5] على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني [6] وكانت هناك مهمة ثانية للبحرية الجزائرية حيث عملوا على نقل المطرودين والفارين ونقلهم إلى الجزائر وتونس[7] وجمع علج علي جيشاً عظيماً قوامه 14000 جندي من رُماة البنادق و60000 من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس [8].

ومع بداية نوفمبر 1569م أرسلوا العثمانيون دعماً جديداً للثورة الأندلسية، التي اندلعت في غرناطة حاصر الثوار مدينة ألمرية[9]، فصدرت الأوامر إلى الباي لارباي علج علي بذلك في23/8/977هـ-31/3/1570م (عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل مايتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار أصابهم الدمار غير جائزة)[10] وبعث الحاكم علج علي باشا تعزيزات من الجزائر ب:40 سفينة ونجح الثوار في حملاتهم الأولى ضد الإسبان وحاصرو مدينة أرجيه الإسبانية

---

(1) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 3، ص95وأنظر أيضاً: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة...، المرجع السابق، ص134.

(2) –شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص346وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص103.

(3) –شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 102وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص88.

(4) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص394 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص76.

(5) –حنيفي هيلالي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م، ص114.

(6) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص926وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص87.

(7) –ليلى الصباغ، "ثورة مسلمي الأندلس (سنة 986هـ –أواخر 1568م) والدولة العثمانية، "مجلة الأصالة، العدد 27، الجزائر، سبتمبر،1975م، ص ص 166–175 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص584.

(8) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص347وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص77.

(9) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 24: حول المدن الأندلسية (الإسبانية).

(10) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص400 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المصدر السابق، ص 229.

واضطراب الأمر على الملك الإسباني فليب الثاني بن شرلكان في إسبانيا، التي شهدت في بداية سنة 1569م قيام ثورة الأندلسيين بدعم من الجزائر، وكذا في الولايات العامة(هولندا) التي كانت تابعة لإسبانيا [1].

فانزعجت الحكومة الاسبانية لهذا التطورات وسخرت كل إمكانياتها، وسلمت الأوامر للحكام العسكريين بالقضاء على الثورة وعينت دون خوان النمساوي على قيادة الأسطول الإسباني فباشر بقمع الثورة في سنواتها 977-978هـ/1569-1570م وأتى من الفظائع مابخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لاهوادة وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس [2].

ج–علج علي باشا واستعداداته الحربية:

اهتم علج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحري أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة علج علي حتى أن البابا نصح فيليب الثاني ملك إسبانيا أن يسعى لإغرائه[3] وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الاسباني ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كونت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه[4] وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان العثماني عليه؛ وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور الدولة العثمانية ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب الباي لارباي علج علي بدلاً من أن تُقربه[5].

كان السلطان أحمد بن الحسن الحفصي هو أول من راسل العثمانيين، وهادنهم؛ ولطلب النجدة منهم فبعث محمد القصيبي في أيام حكم الحسن بن خير الدين، وجاء معه إلى الجزائر لإحسانه معه وبعث محمد المريشي وبعث بعد ذلك وزيره الأكبر أبا الطيب تاج الخضار للباشا علي وهو بمدينة طرابلس لإصلاح الحال وعدل معه الباشا علي علج إلى الجزائر وحصلت أُلفة وعلاقة تعاون بينه وبين الوزير الطيب الرياحي وبعثه مرة أخرى لإستانبول[6]ولاشكّ أنّه قد أحاطه هذا الأخير علما بكلّ المعطيات السياسية والاقتصادية للبلاد وبالخصوص طبيعة العلاقات بين أحمد الحفصي والحامية الإسبانية التي كانت تسيطر على مدينة تونس[7].

---

(1) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ص189-182 وأنظر أيضاً: أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص54 وأنظر: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق ص256 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص ص161-164.

(2) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص395 و: ليلى الصباغ، " ثورة مسلمي...، المرجع السابق، ص156.

(3) –محمد خيري فارس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ص51 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص88.

(4) –إبراهيم شحاتة، أطوار العلاقات المغربية العثمانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1980م، ص280 وأنظر: محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة، المرجع السابق، ص51 وأيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص458.

(5) –محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص51 وأيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص273.

(6) –شارل فيرو، المرجع السابق، ص125وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص210

(7) –عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص93 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص143.

لكن مولاي أحمد الحفصي لم تكن له سياسة قادرة على كسب تأيد سكان تونس؛ ولم تكن تختلف عن سياسة أبيه كما قام أعيان تونس وكبرائها بمراسلة الباي لارباي علج علي في نفس السنة؛ طالبين منه إنقاذهم من ظلم السلطان مولاي أحمد، بطلب الدعم لاسقاطه من العرش ووعدوه بتسليمة حكم تونس (1) لكن علج علي باشا كان منشغلاً بتدعيم ثورة الأندلسيين في غرناطة (2).

ومن أهم الشخصيات التي راسلته والدعوات التي تلقاها من أكثر الناقمين على الوضع في تونس مطالبين الدعم الفوري في مُقدمتهم: الوزير الأكبر أبو الطيب الخضار؛ وقائد الفرسان بن جيبارة، وغيرهم (3) حيث يقول بن أبي الضياف: " أنّ أبا العباس السلطان أحمد تنكّر لوزيره أبي الطيب الخضّار وفكر في الوصول إلى اغتياله وأحسن الوزير بالشر، فداخل صاحب الجزائر علي باشا في غزو تونس وهوّن عليه أمرها والتزم له بالإعانة وجعل ذلك لنجاته من نكبة الحائمة عليه واتخذها يدا علي باشا"(4).

حيث كان أمر البلاد التونسية خاضعاً للزعامات المحلية التي كانت تتأرجح بين الدفاع عن مصالحها الاقتصادية وبين الموالاة من حين لآخر للسلطة المركزية اسمياً وهذا مايؤكد أنّ الإشراف الحفصي كان مفقوداً تماما على البلاد يُضاف إلى هذا المصاعب الاقتصادية التي كانت عليها البلاد واختناق التحرك الزراعي بفعل الحروب والمناوشات وغارات القبائل على بعضها واضطرار الرعية إلى مجابهة التعديات والحروب من حين لآخر وتحمل الضرائب المجحفة التي كانت تفرضها السلطة الحفصية (5).

وكانت الفرصة مواتية للأتراك لاستعادة تونس التي كانت مَوقعها استراتيجياً في الصراع الذي كان على أشده يعرفه حوض البحر الابيض المتوسط بين العثمانين والإسبان ويتجسد ذلك السلطة المركزية في الجزائر ودورها في مواجهة الأمراء الحفصين الأواخر وعَمالتهم للإسبان فكان الباي لارباي علج علي يواصل تكملة ما توفي القبودان داريا خير الدين عليه، فقام بالاستلاء على مدينة المهدية (6) رغم انشغاله في تلك الأثناء بمتابعة وتدعيم ثورة المسلمين في غرناطة تطبيقا لأوامر السلطان العثماني (7)؛ لكن من الواضح أنه كان يهيئ نفسه للهجوم على تونس وكان ينتظر الفرصة المناسبة لذلك (8).

---

(1) - Haedo Diego, op, cit, P141.

(2) –عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن 16م، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29، 1983، ص94.

(3) –حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص722.

(4) –ابن أبي ضياف، المرجع السابق، ج2، ص18.

(5) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص 53 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص28.

(6) –افانوف نيقولاي، الفتح العثماني...، المرجع السابق، ص207 و: عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص91.

(7) –مهمة دفتري رقم 09، حكم رقم 231، ص136، بتاريخ 977/10/23هـ.

(8) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص89 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص74.

ومن بداية (977هـ/1569م) وصلته مراسلة ثانية من نفس الشخصيات السابقة وراو أن فتح تونس قد حان وقته وأرسلوا إلى علج علي باشا يُهون عليه أمرها ويتعهدوا له بتقديم العون (1) فعقد العزم على تلبية النداء فاستجاب لهم هذه المرة عندما تيقن بأن ثورة البشرات مآلها الفشل وساعده على ذلك انشغال الإسبان بثورة الموريسكيين (2) في الأندلس التي أعطت فرصة ذهبية لبسط نفوذ السلطة الجزائرية على تونس، لأن هذه الثورة شلّت حركة الجيش الإسباني (3) وبالتالي ستعيقه عند محاولته مساعدة السلطان أحمد، كما أن علج علي ارتأى أن تكون الحملة برية حتى وإن أرادت السفن الإسبانية التدخل فلن تقدر على ذلك (4) فاستغل اضطراب الأمر على السلطان الحفصي في تونس (5)، وصمم علج علي باشا على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية في تونس قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الايبيرية (6) وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز، وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر (7) لذلك لابد من تأمينها.

فقرر مُهاجمة تونس مع بداية سنة 977هـ/1569م لإشغال الإسبان في إخماد ثورة الموريسكيين من جهة ومن جهة أخرى لتخليص أهلها من الاحتلال الإسباني (8) ولكن هاته الاستعدادات لم تكن غائبة عن بال الإسبان فقد جاء في إحدى الروايات أن أسيرا من مدينة الجزائر اسمه هيرنونيمودي موندوزا Capitaine Hiernonimo de Mondoza قد أعلم بلاده عن التحضيرات القائمة على قدم وساق، كما أورد نفس المصدر أن الملك فيليب الثاني تلقى رسالة ثانية تؤكد هذه الأخبار بتاريخ (977هـ-10/29/ 1569م) مم دفع بهذا الأخير إلى إعطاء تعليمات سريعة لحاكم حلق الوادي الدون ألونسو بيمونتيل Don Alonso تقتضي الحذر والترقب لأي هجوم من طرف الجزائر (9).

ثالثاً: تحرير تونس:

تحرك الباي لارباي علج علي من الجزائر في (977هـ/أكتوبر 1569م) تاركاً خليفة مامي قورصو وكيلاً على الجزائر وأخذ معه جيشاً يتألف من خمسة آلاف رجل نظامي، وفي طريقه إلى تونس مرّ بمنطقة القبائل وقسنطينة وعنابة، حيث انضمّت إليه قوات أخرى من المتطوعين بلغ عددهم ستة آلاف رجل كما

---

(1) -محمد خيري فارس، دراسات...، المرجع السابق، ص49 وأنظر أيضاً: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة...، المرجع السابق، ص136.

(2)- Hess ,A :<<The Moriscos ,An ottoman fifth colum in sixteenth century spain>>,in the A .H.R,vol 64/10/1968,P25.

(3) – جون بول وولف، المرجع السابق، ص 165 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص348.

(4) – ليلى الصباغ، " ثورة مسلمي الأندلس...، المرجع السابق، ص165 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص78.

(5) – للمزيد أنظر: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ص169-172 وأنظر أيضاً: ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ص18 وأنظر أيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص228 وأيضاً: Haedo Diego, op, cit, P169

(6) -جلال يحيى، تاريخ المغرب العربي الكبير، المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 119.

(7) -عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص84 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص144.

(8) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص372 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص585.

(9) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص91وأيضاً: Braudel Fernand, la Mèditerranèe..., op ,cit ,t2 ,P 36

أخذ معه عشرة مدافع[1] وفي هذا الصدد يقول السرّاج: " فخرج على باشا من الجزائر في محلة عظيمة وانصاف من أنواع العربان كعمراوة وفرقة وسؤيد نحو سبعة آلاف وأقبل يجر عسكره لتونس[2]" وفي طريقه عزل الشيوخ القدامى وعين محلّهم قوادا عثمانيين في كل مكان مر به، وحصّن المدن التي عرّج عليها[3].

ولما علم السلطان الحفصي أحمد خرج مع قواته البالغ عددهم 30000رجل إلى خارج المدينة للإيقاع بالباي لارباي علج علي قبل أن يصل إلى تونس، والتقى الجيشان في مدينة باجة في 977هـ-10/ 1569م[4] ويقول السرّاج أيضاً: "ولم يكن مع مولاي أحمد سوى فرقة الزّمازمية وأضاف إليهم ألفا وستمائة رجل فلم يُغن ذلك عنه شيئا وانهزم على الملتقى وأخذت محلته" [5] كان مُعظم قادة الجيش الحفصي هم من الذين طلبوا من العلج علي باشا القدوم إلى تونس من أجل إنقاذهم ولهذا دخل المعركة فوراً، ومنذ اللحظات الأولى للقتال تخلت العساكر عن مولاي أحمد وانتقل هؤلاء القادة مع جنودهم إلى صف العلج علي باشا، والتحقت فرقة الزّمازمية بالجزائريين مما حمل السلطان الحفصي أحمد على الهرب إلى مالطة ثم إلى إسبانيا في نهاية المطاف[6].

حتى أنّ علج علي باشا لما فوجئ بفيضان وادي مجردة فمنعه من القطع والعبور، استنجد بأهل بنزرت الذين سارعوا إلى توفير الألواح والقناطر واصطناع الجسور لعبور الجيش[7] وهذا يدل حتما على أن المُناخ النفسي والاجتماعي والاقتصادي الذي كانت عليه البلاد التونسية، قد ساعد بشكل جذري على إنجاح مبادرة الباي لارباي علج علي للعمل على ضمّ تونس، والقضاء على الدولة الحفصية[8] فأقتفى علج علي باشا أثر السلطان أحمد إلى أن وصل إلى منطقة "سيدي علي الحطاب"، فتواجه الجيشان ثانية وانهزم أحمد الحفصي مرة أخرى وقيل: وقع الحرب مرة ثالثة عند سيدي عبد الوهاب، وقد تلاشت جنوده وعساكره فدخل الحضرة وأيس من مُلكه، وفر العساكر من عنده[9] ثمّ توجه هارباً إلى تونس، وعندما وصل وجد الأبواب موصده في وجهه فما لبث أن فرّ لاجئاً إلى الإسبان في قلعة حلق الوادي طالباً عونهم لاسترجاع مُلكه[10].

---

(1) – عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص228، لكن أبي دينار، المرجع السابق، ص194، أورّد بأن عدد المتطوعين 7000 وأنظر أيضاً:
Léon Galibert , op cit , t1,p209 . voir aussi Haedo Diego, op cit ,P407.

(2) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص211.

(3)- D .L.Mouillard ,Etablissement des Tures en Afrique et en Tunise, R .T, N°2, 1892, P367.

(4) - Haedo Diego, op, cit, P211.

(5) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص211.

(6) - De Grammont Henri, op, cit, p107. Voir aussi Léon Galibert, op, cit, t1 p407.

(7) -ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص195، وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص211.

(8) – عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص95 و: حنيفي هيلالي، أوراق في تاريخ الجزائر ...، المرجع السابق، ص56.

(9) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص211 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص168.

(10) -عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس ..."، المرجع السابق، ص22وأيضا: Braudel Fernand, la Mèditerranèe , op ,cit ,t2 ,P 365

أما في مصادر أخرى، فيُذكر أن السلطان أحمد الحفصي دخل العاصمة تونس، ولما حاصرها علج علي باشا فجزم أحمد الحفصي، بانخرام الملك وانتزاعه من يده، وأسرع إلى القصبة وهرب ليلاً مع أهله وثروته وجمع مهماته وعَظم ذخائره، وعن طريق رادس وصل إلى حلق الوادي [1] وقدّر عدد أتباعه الذين فرّوا معه25 رجلاً وخرج خفية تحت جناح الليل [2] فتبعه العــرب والبوادي ونهبوا وسلـبوا من خلفه شيئـاً كثيراً [3] وقطــع إلى حلق الوادي من ناحية البريجة ودق باب الحصار ليلاً، فلمّا عرفوه رَثَوا له وقبلوه [4].

ولما وصل الباي لارباي علج علي إلى باردو بالقرب من مدينة تونس، خرج الكثير من الناس من هذه الأخيرة لينضموا إليه فدخل تونس دون مقاومة، وفُتحت له تونس أبوابها على مصراعيها، الذي دخل قصبتها في (رجب 977هـ/ديسمبر 1569م) [5] وفي هذا الصدد يقول السرّاج: "ولم يكن لقومه من بعده قدرة على مقاومة الترك فأذعنوا وفتحوا أبواب القصبة، ودخل علي باشا والمنادي ينادي بالأمان وتلقته أهل الحضر بالترحاب والطاعة، وكان ذلك ليلة النصف من شعبان سنة 977هـ "[6] وأخذ البيعة على الأهالي للخليفة سليم الثاني في تونس والمناطق المجاورة لها، وأعلنت الخطبة بالدعاء له على المنابر، وضربت السـكة باسمــه [7] ولما استقرت له الأمور، جاءه فرسان الزمازمية [8] وقالوا له: «نحن خدّام سلطاننا، دافعنا عنه بقدر استطاعتنا ولا مردّ لحكم اللّه، فإن شئتم أبقيتمونا في بلادنا، وإن شئتم نتصرّف وأرض اللّه واسعة"، لكنّ علج علي باشا ردّ عليهم بقوله:" قد فعلتم ماوجب عليكم من النصح والمدافعة عن سلطانكم، فأنتم الآن من جماعتنا"[9] كما أعلن عرب الأرياف خضوعهم له ولما أخبرهم بضرورة دفع الضريبة تراجعوا رافضين سُلطته[10] .

قضى علج علي أربعة أشهر في تنظيم أمور البلاد، بعد أن قام بإخضاع المدن الداخلية والساحلية كما قام باستخلاف القائد رمضان حاكماً عليها وكلفه بالمحافظة على الأمن وبمعاملة سكانها باللّين [11] وعيّن عليها جيشاً يتكون من5000 جندي [12] موزعين على200 كتيبة، تتكون كل واحدة منها من25 رجلاً تسمى

(1) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص195، وأنظر أيضاً: بن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص18.

(2) – Haedo Diego, op، cit، P207

(3) –أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص19. وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص212.

(4) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، صص،211-212.

(5) -Kurdoglu.F, Kilic Ali Pasa, Denis Matbaasi, Istanbul1932, P513.

(6) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص212.

(7) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص195، وأنظر أيضاً: بن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص19.

(8) –الزمازمية: من قبيلة أولاد سعيد كتيبة صغيرة مهمتها حراسة فحوص العاصمة للمزيد أنظر: محمد الحبيب العزيزي، المرجع السابق، ص234.

(9) –أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص19 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص169.

(10) - Haedo Diego, op, cit, P219.

(11) –عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص ص227-229 وأيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية ...، المرجع السابق، ص724.

(12) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص91وأنظر أيضاً: لكن بن ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص195، أورد أنّ عددهم كان 800رجل تركي وباقي من الزواوة، أما روسو ألفون، المرجع السابق، ص96، فأورد انّ عددهم كان 800رجل تركي وحوالي 3000من قوات الزواوة.

الأوجاق يحكمها رجل يدعى أوجاق باشا [1] لقد كان الهدف من ترك هذا العدد من الجند تهدئة الأوضاع وضمان الاستقرار داخل البلد وحماية نواة الإيالة العثمانية الجديدة [2].

هكذا أصبحت تونس بيد أتراك الجزائر مجدداً غير إن سيطرتهم عليها قد اثار حفيظة بعض الدول الأوروبية [3] لما لتونس من موقعاً استراتيجياً لمراقبة الحركة التجارية بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط لهذا أسرعت البابوية وجمهورية البندقية وإسبانيا حلف مضاد للعثمانيين وانعقدت جلسة بين الأطراف الثلاثة في 1570/7/2وفي 1571/5/25 تم توقيع معاهدة، وكانت البنادقة سببا في هذا التأخير لأنهم كانوا يأملون في التوصل إلى معاهدة مع الدولة العثمانية تحفظ لهم تجارتهم مع الشرق لم يمض على إنشاء هذا الحلف نصف سنة حتى وقع هذا الاصطدام الكبير في ليبانت وعلى سواحل بلاد اليونان الغربية بين أسطولي الدولة العثمانية وذلك الحلف المقدس الصليبي [4].

وهكذا يمكن القول إن تونس في عهد الباي لارباي العلج علي، قد غدت مقاطعة تابعة للجزائر باستثناء بعض أطرافها الجنوبية التي كانت تابعة لباشوية طرابلس أو حلق الوادي، الذي تحصن فيه الإسبان [5] وبقيت بيد الإسبان وإن كانت قوات علج علي لاتكفي وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الإسباني لذا فإنه كتب إلى إستانبول يطلب مده بقوة تمكنه من القضاء على القاعدة الإسبانية القوية في حلق الوادي [6] وكان اهتمام علج علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب ثم التوجه للأندلس بعد أن يكون قد أضعف التواجد الاسباني في الشمال الإفريقي [7].

وعاد إلى مقره بالجزائر على أمل العودة إلى تونس [8] في وسط أفريل من السنة الموالية؛ استعداداً لمواجهة عملية التسليح التي يعدها الإسبان ضده، وكان علج علي باشا قد طلب إلى مامي قورصو تجهيز الأسطول والاستعداد قبل وصوله، لأنه سيقوم بالإبحار فور وصوله الجزائر، وأعلمه أن القصد من ذلك احتلال مالطا،كذلك فقد كتب علج علي باشا رسالة إلى إستانبول يعلمها أن مدخل تونس بيد الإسبان وأنه لايمكن إخراج قواتنا لتهديد أمن تونس ما لم يتم الاستيلاء على مالطا، فطلب المساعدة لتحقيق الهدف [9].

(1) -Braudel Fernand, la Mèditerranèe…، op ،cit ،t2، P365 Voir aussi Léon Galibert, op,cit, t1, p212.

(2) -عبد الجليل التميمي، الولايات العربية...، المرجع السابق، ص95وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص89.

(3) -حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص49-50 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص73.

(4) -صالح عباد، المرجع السابق، صص 93-94 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، صص 119-120.

(5) -عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص85 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص586.

(6) -ابن أبي دينار، المرجع السابق، صص 172-173، وأيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص 228-229.

(7) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص395 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص63.

(8) -عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 166.

(9) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 25: حول الموقع الاستراتيجي لتونس.

وبينما كان ينتظر الرد من إستانبول قام بمهاجمة السفن التي كانت تتجول في البحر الأبيض المتوسط فانتشرت القرصنة بشكل لايصدق، وكان الباي لارباي علج علي قد ربى عدد من القادة المشهورين أمثال فندقلي حسن (فنزيانو) والرئيس مراد والرئيس مامي الأرناؤوطي مصطفى ووالي مامي والرئيس جعفر، وكان هؤلاء من أشهر الأبطال وممن زرعوا الرعب والخوف في السواحل الإسبانية طوال نصف قرن من الزمن[1] عاد علج علي باشا إلى الجزائر بعد عدة شهور من غزوته، وقد تمكن خلالها من إلحاق خسائر كبيرة بالأعداء، فقد استولى على أربعة سفن مالطية وقتل القائد الكومندور دي صاينت كلمونة Komendor desaint kleman و كان يأمل لدى عودته إلى الجزائر وصول المساعدة التي طلبها من إستانبول [2].

رابعاً: محاولاته في تحرير حلق الوادي:

كان استمرار التواجد الإسباني في حلق الوادي يمثل تهديداً قائماً على مدينة تونس لأنهم يتحكمون في المدخل البحري للمدينة، ويشكلون خطراً على مصالح المسلمين في البحر الأبيض المتوسط لهذا عزم علج علي باشا على فتحها وتطهير السواحل التونسية من وجود الإسباني قبل انسحابه إلى الجزائر، فأصدر الأوامر إلى خليفته في الجزائر مامي قورصوا يدعوه إلى تجهيز الأسطول قبل وصوله إلى الجزائر [3] لأنه سيقوم بالإبحار فور وصوله، كما طلب مساعدات من السلطان العثماني للقضاء على الحصن الإسباني القوي في حلق الوادي لأن بدون تدمير هذا الحصن تظل تونس مهددة ويظل النفوذ العثماني فيها معرضاً للخطر [4] وافق الباب العالي على هذا الطلب، ووعد بتعيين 150سفينة تذهب إليه [5] وأثناء انتظاره لوصول الأسطول العثماني توجه علج علي باشا على رأس أسطول يتكون من19 مركباً لاستقبال المساعدة، وبرفقة أشجع البحارة ومن بينهم مراد رئيس، مامي، مصطفى الأرناؤوطي، والرئيس جعفر [6].

وخلال إبحاره، دخل في معارك بحرية مع السفن المسيحية، تمكن في إحدى المرات من الاستيلاء على4 سفن مالطية، ثأراً بذلك لدرغوث باشا الذي قتل في حصار مالطا سنة 973هـ/1565م [7] في تلك الأثناء استجدت تطورات في شرق البحر المتوسط، دفعت بالعثمانيين إلى فرض الحصار على قبرص [8]: وهذا

---

(1) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص29وأنظر أيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص229.

(2) –أنظر ابن أبي دينار، المرجع السابق، صص172-173، وأنظر أيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، صص228-229.

(3) - De Grammont Henri ,op, cit, p107.

(4) – محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص77 وأنظر أيضاً: إلتر سامح إلتر، المرجع السابق، ص229.

(5) –مهمة دفتري، رقم 14، حكم رقم 603، ص423، ب تاريخ978/6/22هـ.

(6) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص229 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص90.

(7) –Kurdoglu .F ,op, cit, p517.

(8) –قبرص جزيرة على البحر الشامي كبيرة القطر مقدارها مسيرة ستة عشر يوما وبها قرى ومزارع وأشجار ومواش...وبها ثلاث مدن عظام وكان معاوية غزاها وصالح أهلها ... وبين قبرص وساحل مصر 5 أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد... وقبرص من أعظم الجزر نفعا للإسلام. للمزيد أنظر: محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، الأعلام ببيت الله الحرام، ط1، مصر،1305م، ص ص242-292 وعاصمتها نيقوسيا واسمها القديم * الازيا * وغنية بالنحاس ولديها موقع استراتيجي هام وسكنها الفينيقيون واليونان وحكمتها مصر لفترة للمزيد أنظر: أ. جي بريل،

ما توضحه الرسالة والتي جاء فيها إنشاء أسطول جديد إلى جانب الأسطول الهمايوني وتجهيزه بالجند وإرساله بقيادة الوزير برتو باشا [1] تحت إمرة بيالي باشا تحمل100 ألف جندي يقودها مصطفى باشا إلى قبرص[2].

وهذا ماتوضحه الرسالة أخرى: أمر السلطان إلى الباي لارباي علج علي بأن يحصن الجزائر ويضع عليها من يخلعه في غيابه وأن يصدق في تحصينها ووضع من يعتمد عليهم وعليه بالتوجيه، وكذلك إلى جانب الأسطول العثماني بقيادة الوزير برتو باشا إلى روز خضر [3] فقد قام العلج علي باشا الذي يعتبر مثلاً أعلى للشجاعة وكياسة وشهامة بالتوجه بكامل أسلحته عاجلاً لملاقاة الوزير، مع عدم النسيان بتحصين البلاد تحصيناً جيداً من خطر الأعداء على غفلة ووضع من يثق فيهم ويعتمد عليهم كحلفاء له على البلاد من وراءه ثم يتوجه إلى ملاقاة الوزير والعمل بأوامر السردار برتو باشا في عملية مهاجمة الأعداء "وهذا ماجعله يجهز حملة عسكرية عليها وقد طلب السلطان سليم الثاني من الباي لارباي علج علي بالمشاركة فيها ب: 22سفينة نوع قادرغة و4سفن نوع البارجة متجهين إلى قبرص" [4].

كانت الإمبراطورية الإسبانية والمماليك المسيحية تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع في أوروبا عن تكوين حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شيء في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو الذين واجهوا القوة العثمانية التي استعملوا جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر وكر، وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيون في خطر، إلا أن المجاعة قامت بعملها واستسلمت المدينة في 979/4هـ-1571/8م [5] ففتح جميع قلاعها الثلاثة وبذلك تم فتح جزيرة قبرص وأصبحت إحدى الجزر التابعة إلى فلك الدولة العثمانية ممّاشغلهم عن إرسال المساعدات إلى علج علي باشا، وأصبحوا يطالبون بإلحاق الأسطول الجزائري ليساندهم فاستجاب لهم الباي لارباي علج علي باشا

دائرة المعارف الإسلامية ج 17 حرفي ف—ق، المرجع السابق، ص234. -قبرص : كان أهلها يعطون الجزية ثم أنهم أظهروا الغدر والمكر بالمسلمين وتبين غدرهم من حيث إنهم يعمرون المراكب ويأخذون المسلمين، فصاروا يقطعون الطريق في البحر على المسلمين وإذا اخذوا السفن يقتلون كل المسلمين الذين فيها واخفوا الأخبار حتى كثر أذاهم فاستفتى السلطان في ذلك وأفتى لهم بأنهم غدروا واخلفوا الوعد ويجوز لهم القتل فجهز مولانا السلطان سليم عسكرا كثيرا في البر والبحر وجعل سر دار العسكر الجميع مصطفي باشا، فورد عليها وأحاط بها إحاطة الخاتم بالإصبع ففتحها على أحسن ما يكون وملك جميع قلاعها للمزيد أنظر:محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق ص293.

-قبرص جزيرة صغيرة مهمة لمركزها الجغرافي بالقرب من سواحل الشام ومصر واحتلالها ضروري لمن يريد بقاء هاتين الولايتين في حوزته. للمزيد أنظر: نور، رضا: تورك تاريخي، ج2، إستانبول، ،1925م، ص67.

(1) -مهمة دفتري، رقم 15، حكم رقم 367، ص173، بتاريخ 2 /11/ 978هـ الموافق لـ 3/28/ 1571م.

(2) -محمد بن أبي السرور البكري، المرجع السابق، ص 90 وأيضاً: محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل...، المرجع السابق، ص182.

(3) -مهمة دفتري، رقم 15، حكم رقم 94، ص13، بتاريخ 17 /5/ 978هـ الموافق لـ 10/17/ 1570م.

(4) -مهمة دفتري، رقم 15، حكم رقم 195، ص108، بتاريخ 978هـ الموافق لـ 1571م.

(5) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، صص146-147 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 121.

وأرسل أسطوله بقيادة قارة خوجة رئيس، ورجع هو إلى الجزائر معه السفن والأسرى الذين استولى عليهم [1] فوصلها في 20/7/ 1570م مُؤجلا أمر فتح قلعة حلق الوادي ليوم آخر [2].

لكن في رواية أخرى، ورد أن التونسيين قد ساعدوا الباي لارباي علج علي في حصار قلعة حلق الوادي مع السفن التي جاءت من الجزائر، غير أن حاكم صقلية فرنسوا فيرديناند(francoi Ferdinand) أنجد القلعة ب:25 غليوطة، إضافة إلى عدد من السفن المالطية مما حمل علج علي على رفع الحصار [3] وفي1571م بعد فتح تونس مع بعض المناطق الداخلية ربطت إدارتها بالجزائر وأصبحت تحكم على شكل سنجق وكلف رمضان بالإشراف عليها أما سوسة والقيروان ومناستر والمهدية فقد ربطت بطرابلس الغرب [4].

كما نجد رسالة أخرى يشدد فيها السلطان سليم الثاني على العلج علي في عملية جس النبض بتونس والتي نصت على بعث قرة حسن وقلوريز حسن نحو تونس ومعرفة إخبارها بدون القيام باي عمل أخر [5].

ولذا فقد رأت الدولة العثمانية إحاطة بما يدور من أحداث داخل تونس فأرسلت رسالة أخرى إلى العلج علي ونصت على إعطاءه بالجزائر 6سفن من نوع قادرغة كما يكون معه قرة حسن وقلوريز حسن بقطعتين من نوع القالية ليتوجه نحو تونس بدون محاولة التدخل [6] وكذا ما تورده رسالة أخرى مكملة: والتي تنص على أمر موجه إلى العلج علي؛ معرفة الأحوال الداخلية لتونس والأعلام بالأخبار الصحيحة حولها [7].

وبالنسبة للقائد رمضان الذي عينه علج علي على تونس، جاءه التعيين الرسمي من إستانبول بتاريخ (10/25 /979هـ-3/11/ 1572م)، وهو يتضمن مايلي:" حكم إلى القائد رمضان، قائم مقام وكيل أمير أمراء الجزائر (علج علي) في سوسة والقيروان المنستير وبلد الجريد وبنزرت من نواحي تونس يتضمن تعيينه على المناطق المذكورة " [8] وذلك نزولا عند رغبة أعيان تونس الذين قاموا بتزكيته لدى السلطان العثماني [9].

وأصبح القائد رمضان قائم مقام العلج علي على كل من سوسة والقيروان ومناستر وجربة وبنزرت أي نائبة في تونس ووصلت أخبار إلى السلطان تبين الدور الذي لعبه رمضان باشا في تونس وحب التونسيين

---

(1) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص108 وأنظر أيضاً: حنيفي هيلالي، أوراق في تاريخ الجزائر ...، المرجع السابق، ص59.

(2) - Diégo Haedo, topographie et Histoire Générale d'Alger, traduit de l'Espagnol par MM. Le Dr Monnereau et A. Berbrugger, Revue Africaine, Alger, 1870, P187.

(3) – بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، صص 158-159، وأنظر أيضاً:

MGR Douais (èvèque de Beuvais) : Dèpèches de M.De Fourquuvaux ambassdeur du roi Charles IX en Espagne (1565-1572) ,3t, plon-Nourrit, Paris1900, t1, P201.

(4) -عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص237 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص31.

(5) -مهمة دفتري رقم 29، حكم رقم 1004، ص524، بتاريخ 979/8/25هـ الموافق لـ 8/3/ 1572م.

(6) -مهمة دفتري رقم 32، حكم رقم 1003-1004، ص62، (د-ت).

(7) -مهمة دفتري، رقم 28، حكم رقم 1003، ص523، بتاريخ 23/8/ 979هـ الموافق لـ 8م/3/ 1572م.

(8)-مهمة دفتري، رقم 12، حكم رقم 1037، ص541-543، ب تاريخ979/10/25هـ.

(9) -مهمة دفتري، رقم 18، حكم رقم 237، ص135، ب تاريخ979/10/19هـ.

له وذلك باهتمامه للدين والدولة معا وتعينه رسمياً أنه نائب العلج علي أو قائم مقام على تونس وحثه السلطان بالعمل والجد والإحسان والإخلاص للدولة والرعية مع العمل على تجهيز المنطقة وتحصينها من الأعداء الذين يحاولون استغلال الفرص للدخول إليها وكذا مراسلة السلطان بما يجري في تونس من إحداث حتى يكون على علم مع حرصه على إيصال الرسالة الموجهة إلى أعيان تونس وطالب من القائم مقام بإستيمائهم إليه حتى يضمن السلم والأمن وأن يعمل بكل مافي وسعه حتى يحافظ على هذه المنطقة وأهلها [1] .

وكذا مضمون رسالة: التي تنص على تعويض علي باشا كباي لارباي على تونس والقائد رمضان كقائم مقام له على تونس لحفظها وحراستها وصيانتها وطلب السلطان بمساعدة علج علي لرمضان في حالة تعرضها لخطر خارجي وذلك بالعمل على توحيد الصف والجهة [2] وهذا ما جعل السلطان يستنفر الوضع وطلب من العلج علي بالتحرك أسطوله الجزائري لمساندة الأسطول الهمايوني [3] وتضمنت بعث العلج علي برسالته إلى السلطان وجاء فيها أنه على أهبة الاستعداد للحرب مع سفنه وسيستفسر عن أحوال العدو، وكذا فوض السلطان أمر الأسطول إلى العلج علي لتدبير شؤونه وترتيبها كما أن جعفر أمير أمراء طرابلس الغرب طلب من الأستانة بضم القيروان وسوسة ومنستر إليه وفصلها عن تونس فأمر السلطان بالاستفسار حول هذا؟ ثم مراسلته بعرض النتائج [4] ولقد أورد بروديل بخصوص حنكة علج علي وتفوقه على الإسبان، عندما ضم تونس إلى حظيرة الدولة العثمانية مايلي:" إن هذا الفتح يعود إلى اختلال التوزان الذي تسببت فيه ثورة غرناطة، فقد نجح علج علي في استراتيجيته الرامية إلى تشتيت القوات الإسبانية على جبهتين الأندلس وتونس"[5] لقد أزعجت جهوده الإسبان نظراً لأنه بات يهدد مصالحهم مماحملهم على تحين الفرصة المناسبة لاستعادة هيبتهم بالمنطقة المغاربية.

2 – الحملة الإسبانية الثانية (دون خوان النمساوي[6]) على تونس(981هـ/1573م):

لم يكن سعي الإسبان يهدف إلى الاحتفاظ بما بقي لهم من مراكز في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط بل كانوا يدبرون تنظيم هجوم على تونس والجزائر معاً؛ ولما علم السلطان العثماني بذلك المخطط بعث رسالة

---

(1) –مهمة دفتري، رقم 30، حكم رقم 1037، ص 541-543، بتاريخ 25/8/ 979هـ الموافق لـ 10/3/ 1572م.

(2) –مهمة دفتري، رقم 32، حكم رقم 1074، ص 563، بتاريخ 4/8/ 979هـ الموافق لـ 19/3/ 1572م.

(3) –مهمة دفتري، رقم 19، حكم رقم 518، ص 249، بتاريخ 17/12/ 978هـ الموافق لـ 12/5/ 1571م.

(4) – ابو محمد حمودة بن محمد بن عبد العزيز التونسي، المرجع السابق، ص118 وأيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان، المرجع السابق، ص 168.

(5)- Braudel Fernand, la Mèditerranèe…، op ،cit ،t2، P 365

(6) –دون خوان النمساوي (Don Juan d'Autriche) أمير إسباني وابن غير شرعي للإمبراطور شرلكان، ولد 24/2/1545م، بمدينة راتسبون بعد موت أبيه، وصل إلى رتبة ضابط كبير وعندما وصل فليب الثاني إلى الحكم أرسله للقضاء على ثورة الموريسكيين سنة 1568م في غرناطة فنجح في إذلال المسلمين فأذاقهم أنواع العذاب وعين قائد عام للقوات المسلحة المتحالفة التي واجهت العثمانيين في ليبانت1571م ثم حاكماً على هولندا، وحارب أهالي الفلمنك وقهرهم عام 1578؛ لكنه لم يفلح في القضاء على ثورة البروتستانت، توفي مسموماً سنة 1578م. للمزيد أنظر: بيرنجييه، جان وزملاءه: تاريخ أوروبا العام، منشورات عويدات، لبنان،1995م، ص 798. وأيضاً أنظر: Dictionnaire, Encyclopédie, des Noms propres de la langue Française, Hachette, Paris 1991,P699

لجميع حكام المناطق الغربية يأمرهم فيها باتخاذ الاحتياطات اللازمة لصدّ أيّ هجوم مفاجئ للإسبان[1] إن تلك المواجهة التي كانت التحذيرات بشأن وقوعها في الشمال الإفريقي، وقعت فصولها فعلاً في ليبانت [2].

أولا–تداعيات معركة ليبانت [3]:

استقر الوضع على الأراضي التونسية التي كانت بمجموعها عدا قلعة حلق الوادي تحت الإشراف العثماني وضمت تونس الشمالية إلى الجزائر بفرمان خاص من قبل السلطان [4]، مع العلم أن طرابلس كانت تسعى لم هذا الجزء إليها، إلا أن نيّة السلطان في ضم أجزاء تونس للإيالتين الشرقية والغربية، قد تأجل بسبب ضرورة إعداد الجزائر وتونس وطرابلس للتصدي لهجوم الحلف الصليبي المعادي للأتراك العثمانيين[5]، لكن خطة الحلف الصليبي تغيرت وأصبحت تقتضي الهجوم المباشر على الأسطول العثماني لأن فيليب الثاني تخلى عن كل خططه السياسية الكبيرة في البحر المتوسط [6] أي أنه كان يهدف إلى حرمان العثمانيين من قواعدهم في شمال إفريقيا وتدمير قلاعهم لغرض إضعاف قدرتهم على حماية أنفسهم من الهجمات المحلية للمناطق الداخلية، وترك شمال إفريقيا على الحياد فلا هو عثماني، ولا هو إسباني [7].

وبتاريخ 3/10/ 979هـ–1571/8/2م سقطت قبرص في يد العثمانيين، وغزت المراكب العثمانية جزيرة كريت [8] وغيرها بدون أن تفتحها واحتلت مدائن دلسنيو وانتيباري [9] على البحر الأدرياتيكي مما دفع بالبندقية إلى إرسال نداء استغاثة إلى الدول الأوروبية، التي ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي

---

(1) –مهمة دفتري رقم 14، حكم رقم 284، ص 200، بتاريخ 979/02/03هـ.
– مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم 10، ص8، بتاريخ 979/01/02هـ.
– مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم06، ص04، بتاريخ 979/01/02هـ.
– مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم22، ص19، بتاريخ 979/01/02هـ.
– مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم19، ص17، بتاريخ 979/01/02هـ.

(2) –تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنت بالجزر اليونانية اليوم.للمزيد أنظر: الحسين قصي، موسوعة الحضارة العربية، العصر العثماني والمملوكي، ط 01، دار البحار، بيروت، لبنان، 2004 م، ص378.

(3) –ليبانت: تعرف عند الترك إجينة بختي وهي مدينة تقع شمال المضيق الذي يؤدي من البحر الأيوني نحو خليج كورنية والذي أصبح يعرف بخليج ليبانت وقد احتلها البنادقة خلال القرن 13م وفي 1499م أفتحها بيزيد الثاني الذي أنشأ بها قلعتين لحماية مدخل الخليج للمزيد أنظر: أبو خليل شوقي، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط3، دار الفكر، سوريا، 2008 م، ص236 وأيضاً: نعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص119.

(4) –مهمة دفتري رقم 12، حكم رقم 1088، ص571، بتاريخ 979/11/02هـ.

(5) – نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا من العصر الحديث من منتصف ال قرن16 حتى مطلع القرن 20، تع وتق، عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان،2001م، ص38 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص79.

(6) - Braudel Fernand, la Mèditerranèe…، op ،cit ،t2، P973.

(7) – Mercier Ernest, op. cit, t3 ,P115.

(8) –كريت تقع إلى الجنوب الشرقي من بلاد اليونان وأما الذي يقع من الجهة الغربية من شبه جزيرة مورة هي جزيرة ظنته. للمزيد أنظر: الفيروز يعقوب، أبادي مجد الدين محمد: القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط 02، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان 1998 م، ص718.

(9) –هما بلدتان بإقليم الجبل الأسود ثانيتهما على البحر الادرياتيكي وأضفيتا له بمقتضى معاهدة برلين 1878/6/13. للمزيد أنظر: إسماعيل الفاروقي، لوس لمياء: أطلس الحضارة الإسلامية ترجمة عبد الواحد لؤلؤة مراجعة رياض نور الله، مكتبة العبيكان السعودية، 1998م، ص867.

العظيم الذي هدد القارة الأوروبية، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً فأخذ البابا بيوس الخامس 1566 - 1572م [1]، يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية[2]يدعو بحماس شديد إلى تشكيل جيش صليبي لمواجهة العثمانيين استعداداً لمساعدة البندقية وكانت أوروبا قد أدركت أنها لاتستطيع أن تقضي على الدولة العثمانية إلا مجتمعة[3] وقد كتب يقول "إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا"[4] عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك إسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل 979هـ–1571/5/20م، وتم بينهم الاتفاق وتعهدوا فيه بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين خوفاً من امتداد سلطتها على ايطاليا وذلك بعد تحريك البابا بيوس الخامس لروح التحالف فارتبطت توسكاني وجنوة والإيطاليين في الحلف المقدس[5] وكان فرسان مالطة في مقدمة الذين أعلنوا استعدادهم للاشتراك في تلك الحرب لأنهم شعروا بأن مصالحهم بدأت تتعرض للخطر من جراء ازدياد النفوذ العثماني في تلك المناطق [6] وقد استغل المسيحيون شكوى بعض شيوخ جربة وطرابلس وطلبوا منهم مناصرتهم لإنقاذهم من الاستبداد التركي [7] وقد أعدت الاستعدادات لهذا الهجوم من موانئ إسبانيا وإيطاليا وصقلية، وجعلوا دون خوان النمساوي ابن شارلكان، أميراً عليها [8].

وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين فأجابه البابا طالباً منه التخلي عن مواثيقه هذه ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الإمبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية:" إنَّ البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس"[9] فوصلت أخبار هذا الحلف [10] إلى إستانبول [11] .

(1) – بيوس الخامس ولد في بيمون 1504م وتوفي 1572م انتخب بابا في 1566/01/16م وقد بذل جهوداً معتبرة لعقد حلف عسكري يوحد كل القوى الأوروبية كللت بالنجاح غير أنه بمجرد وفاته انحل الحلف للمزيد أنظر: نعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص119.

(2) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص396 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص74.

(3) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص32 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص457.

(4) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص125 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص91.

(5) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص452 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص ص587–588.

(6) –عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، صص 97–98 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص354.

(7) –جون بول وولف، المرجع السابق، ص75 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص127.

(8) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 87 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص67.

(9) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص126 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص127.

(10) – دعا إلى هذا الحلف البابا بيوس الخامس، وقد أنشئ في 1571/05/25م وأعلن عنه رسمياً في 25 جويلية من نفس السنة وهو يتكون من 317 سفينة تنتمي لكل من إسبانيا والبندقية والبابوية وفرسان مالطا للمزيد أنظر: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، صص 272–273.

(11) – محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، صص256–257 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص92.

أصدر السلطان بدوره أوامر إلى العلج علي تقضي بذهابه إلى قبرص من أجل تعزيز الأسطول العثماني [1] علم علج علي باشا بأن روابط الكفار قد أتحدت مع المسحيين بقصد شن هجوم مفاجئ على الأسطول الهمايوني، كذلك فإنهم سيوجهون ضربة قوية على سائر القلاع التونسية وعلم أن ابن الملك الإسباني سيتولى القيادة العامة للأسطول، فأخبر علج علي أمير أمراء طرابلس الغرب وإستانبول بذلك[2].

وجه الديوان الهمايوني أمراً إلى أمير أمراء طرابلس الغرب يأمره بالاستعداد وبتعمير القلاع والحصون وطلب إليه إعلامه بما يعلمه عن تحركات الأعداء بأقصى سرعة ممكنة وفي هذه الأثناء كان قائد الأسطول العثماني برتق باشا مع بعض القباطنة يبحرون من قبرص إلى رودس، ومنها اتجهوا إلى كريت لتدمير قلاعها وأثناء ذلك لحق بهم علج علي باشا وأخبرهم بأن الأعداء يستعدون لمهاجمة الجزائر والوقت نفسه أعلمهم أمير أمراء دوبرفينيك Dubrovnikبأن الإسبان على وشك شن هجوم على تونس والجزائر وكان هذا أمراً مهما جداً يتطلب اتخاذ قـرار حكيم، فاجتمع الوزراء وناقشوا الأمر بدقة ودار في الاجتماع الحديث التالي: هي يكفي إرسال الأسطول الجزائري فقط أم أن الأمر يستدعي ذهاب برتق باشا؟ وترك الأمر للمشاورة وبنتيجة التشاور وجه أمر إلى قبودان باشا بالاستعداد والتهيؤ، وبنفس الوقت أعلم أمير أمراء الجزائر بذلك[3].

كان علج علي باشا يتابع بدقة أخبار وتجهيزات العدو بكل دقة ويرسلها إلى إستانبول [4] وعلم مؤخراً بأن الأسطول يألف من 230 قادرغة منها سبعين فرقاطة و28 قطعة أخرى متنوعة وعهد إلى ابن الملك الغير الشرعي جوفاني (خوان النمساوي) وكان على وشك مهاجمة كورفو باعتبارها نقطة رئيسية [5].

وفعلاً كان تلك الدونانمة المختلطة للأسطول الحلف المقدس مؤلفة من 70 سفينة إسبانية و140 من سفن البندقية و12للبابا و9 من السفن رهبنة مالطة وكان دون خوان النمساوي قبودانها يركب سفينة من نوع الريالة [6] وقابلت الدونانمة العمارة العثمانية مؤلفة من 300سفينة يتكون من الأسطول الجزائري بقيادة علج علي في المسيرة والأسطول المصري، في الميمنة وأسطول الدولة العثمانية الذي كان يحتل القلب بقيادة القبودان باشا "علي باشا"[7] فسارت سفن المسيحيين إلى شواطئ الدولة العثمانية الإسلامية وقد جرت المعركة في خليج ليبانت بالقرب من رأس الدم في أطراف هلومش Halamec [8] في17/6/ 979هـ-1571/10/7م.

(1) -مهمة دفتري رقم 12، حكم رقم 1037، ص541-543، بتاريخ 979/10/25هـ.
(2) -أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص67 وأيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص128.
(3) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص400 وأنظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص148.
(4) -بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص113وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص 76.
(5) -كورفور هي جزيرة يونانية وبها قاعدة بحرية عثمانية للمزيد أنظر: Dictionnaire Encyclopédie, op. cit, p67
(6)- أ. جي بريل، دائرة المعارف الاسلامية ج 10 حرفي ر– ز، المرجع السابق، ص 304.
(7) -محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 89 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص124.
(8) -عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص231 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص75.

احتدام المعركة: احتدمت المعركة في17/5/979هـ-17/10/1571م أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة (1) واشتباك القتال بينهم مدة 3 ساعات (2) كانت الهزيمة كبيرة التي ألحقت بالأسطول العثماني وقع التصدع في ميمنة أولاً بعد مقتل سنجق مدينة الإسكندرية وبعد مقتل القبودان باشا ظل يقاوم بمن معه حتى منتصف النهار وبعدها تولى قيادة الأسطول الباي لارباي علج علي فَشن هجوماً مكثفاً تمكن من خلاله قتل قبودان مالطة؛ واستولى على سفينة زعيم الطريقة المالطية وأخذ عَلمها (3) وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا عشرين ألفاً وأُسر لهم عشرة آلاف، وكانت خسائر الأسطول العثماني مادياً ضخمة أخذت لهم130سفينة عثمانية وأحرقت وأغرقت 94 وغنمت 300 مدفعاً والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة (4) وهذه أول واقعة بحرية حصلت بين الدولة العثمانية من جهة وأكثر من دولتين مسيحيتين من جهة آخري وأنتهى بانتصار الدونانمة المسيحية.

وفقد تمكن الباي لارباي علج علي بفضل خبرته في البحرية إلا أن يناور وينسحب بمعظم سفنه التي أمكن له إنقاذها واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة الحاملة لراية البابوية مقابل استيلاء النصارى على الراية الكبرى للأسطول العثماني والتي جاء بها العثمانيون من مكة ومن ثم اتجه علج علي إلى مودون Meudon (5) وفي 3 جمادى الآخرة نقل الخبر إلى السلطان العثماني الموجود في أدرنه فرجع لإستانبول (6) التي أستقبله السلطان استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة (7).

أ-أثر ليبانت على أوروبا والدولة العثمانية:

وماعلمت أوروبا بنبأ الانتصار حتى أقامت حفلات في بهجة وفرح فلأول مرة منذ أوائل القرن 15م تحل الهزيمة بالعثمانيين (8) وكان الفوز فرحة في قلوب المسيحيين والبابا خطب في كنيسة ماري بطرس (9) وشكر دون خوان على انتصاره على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يُحيق بها (10) وتعد هذه نقطة انطلاق بالنسبة لأوروبا الغربية التي لم تجد قوة تناهضها وخاصة العالم الإسلامي.

---

(1) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص454 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص93.

(2) -محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 89 وأنظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص149.

(3) - De Grammont Henri, op .cit, p115.

(4) -عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص126 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص364.

(5) -عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص 231 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص69.

(6) - Ernest Charrière, op, cit, t3, PP185-190.

(7) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص398 و: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص34.

(8) -أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص147 وأنظر: أحمد إسماعيل الباغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص83.

(9) -ويعني به القديس بطرس، وهي كنيسة الفاتيكان وبنيت عام 326م واعيد بنائها عام 1506 بتخطيط فنانون عظام. للمزيد أنظر: محمد عطية الله، القاموس الإسلامي، مطبعة القاهرة، مصر، 1903، ص678.

(10) -عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص143 وأنظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص150.

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لايزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الإثني عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والاختلاف العقائدي فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ماقال له: «لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات"[1] وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته [2] واشتراك البابا فيها يدل على التقلبات ضد الدولة الإسلامية هو الدين وأيدته الحوادث والحروب فيما بعد لاالسياسة كما يدعون [3].

وبادر السلطان سليم الثاني أثر ذلك بترقية علج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية " قبودان باشا " مع الاستمرار في منصبه كباي لارباي للجزائر [4]؛ وهذا ماتوضحه الرسالة: التي تم تنصيب العلج علي كقائد للأسطول العثماني إلى جانب إيالة الجزائر وكذا تونس وهذا نظراً لخدمات التي قدمها إلى الدولة العثمانية وفيها تم تفويض الجزائر إلى أحمد باشا والعمل بأوامره كما فوّض له أمور أيالة تونس [5].

إن نتيجة معركة ليبانت، كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قوياً، وللمحافظة على ذلك لابد من حلف مقدسي دائم ولكن استعاد الحسد نشاطه بين الدول المسيحية ؛ ومع هذا إن أهمية ليبانت كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، واسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري والبحري كما أن الانتصار المسيحي في ليبانت 1571 كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط والتي تكاليفها باهظة [6] لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية [7] إذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية [8]، فكانت بداية النهاية بالنسبة للعثمانيين الذين دخلوا هذه الواقعة في مرحلة جديدة ومعها موقف الدفاع بعد ان كانوا يقيمون بالهجوم.

---

(1) –يلماز اوزتونا، المرجع السابق، ص ص126–127 وأنظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص151.

(2) –شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص367 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في...، المرجع السابق، ص76.

(3) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 89 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص127.

(4) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص454 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 171.

(5) –مهمة دفتري رقم 12، حكم رقم 1088، ص 571، بتاريخ 11/7/ 979هـ-/3/22/ 1572م.

(6) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص455 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص71.

(7) –محمد الغربي، بداية الحكم المغربي للسودان، دار القلم، المغرب، 1984م، ص94 وأيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص589.

(8) –محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، شركة فرج الله، لبنان،1954م، ص143.

ب –إعادة بناء الأسطول العثماني:

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني، يُدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدولة "طَلَب نائب البندقية الصليبية في استانبول"، في أعقاب معركة ليبانت، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم، "محمد صوقلو باشا" ليجس نبضه ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: إنك جئت بلاشك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة "قبرص" كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة"[1] وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني [2] فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني.

وازداد الوزير العثماني حماسة وقبل القبودان باشا علج علي، بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الأسطول العثماني، وتعويض مافقد منه، وانتهز فرصة الشتاء؛ وبدء بتشييد دونانمة أخرى؛ وبذل كل طاقته في تجهيزها وتسليحها وماحل صيف 980هـ/ 1572م، حتى أنه قد هيأ250 سفينة جديدة واستطاع الأسطول الجديد[3] بقيادة القبودان علج علي أن يعاود جولاته في البحر المتوسط[4] وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، زيادة على هذا وقوع الشقاق بين القبودان البندقي والقبودان الاسباني فسعت جمهورية البندقية للتقرب الى الدولة العثمانية العليا وعرضت الصلح ودانت إلي (980/11/3هـ- 7/3/ 1573م) من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها300 ألف دوكه[5] ففقد الحلف أحد أطرافه الأساسية [6] وبعد الانتصار الذي حققه جيش الحلف الصليبي بقيادة الدون خوان Don juan d'Autriche في ليبانت[7]، تقرر احتلال تونس [8]، مرة أخرة.

(1) –عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 1، ص678 وأنظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص152.

(2) –وفاته: إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أنّ المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أيام ثم توفي عام 982هـ وللمزيد أنظر: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص237.

(3) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 26: حول أنواع السفن الحربية المستعملة في البحرية الجزائرية في القرن 16م.

(4) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص35 وأنظر أيضاً: عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 1، ص677.

(5) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص399 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص89.

(6) - (L) Poinssot et (R) Lantier, les Gouverneurs de la Goulette durant l'occupation Espagnol (1535-1574), ext. De la Revue tunisienne, 3ème trimestre, 1930, S.anonyme de L'investissements, tunis 1930, p 24.

(7) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص15 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص77.

(8) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص242 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي: الولايات العربية...، المرجع السابق، ص 102.

ثانياً – مشروع الدون خوان النمساوي في تونس:

كان الملك فيليب الثاني يدرك أن الاحتلال الإسباني للساحل الإفريقي يُعدّ مجرد خسارة مالية، وخيبة سياسية بالنسبة للمصالح الإسبانية، وكان ضرورة تخريب تحصينات حلق الوادي، ومدينة تونس، وجميع الاستحكامات القائمة على الساحل الإفريقي، بدل إبقاء حاميات إسبانية معزولة معرضة دوماً للهجمات العثمانية، أو لثورات سكان البلاد [1] لكن الدون خوان لم يتفق معه في هذا الرأي، لأنه كان يحلم بإنشاء مملكة على أرض تونس بوسعها أن تصبح في يوم من الأيام سدّا منيعا في وجه الشعوب الإسلامية [2] وقد لقيت أفكاره دعماً وتشجيعاً من طرف الكنيسة البابوية بروما، وفرسان مالطا [3].

وفي ربيع 980هـ/1572م، وقّع فليب الثاني أمراً بشأن الحملة على تونس، إلا أنه ألغي [4] لكنه عاد وصادق عليها في981هـ/1573م شرط أن يتمّ تحطيم القواعد العثمانية ثمّ الجلاء عن تونس فوراً [5] كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس (942هـ-1535/980-1572م) إليه، وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة وتتيح لهم سكن في جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عنابة وبنزرت وحلق الواد [6]، إضافة إلى أن الملك فيليب الثاني لما قرر الاستجابة لنداءات السلطان الحفصي، لم يكن يرى إلى مصالح بني حفص المتردية وإنما كان يتطلع إلى تحطيم القوة الجزائرية التي كان تَناميها يقضّ مَضجعه [7].

اعتبر دوان خوان النمساوي هذا الوقت فرصة مناسبة فقرر التوجه نحو تونس [8]، فخرج في981/7هـ-1573/10/7م بأسطوله من جزيرة فافينيانا (Favignana) – الواقعة إلى الغرب من جزيرة صقلية-مستغلاً الظروف الجديدة:

لأن الأسطول العثماني رسي وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة، والاستعداد للسنة المقبلة [9] لكنه وجد فرماناً سلطانياً يأمره بالإيجار فوراً بغية التصدي لأسطول دون خوان النمساوي فشق البحر مع ربيع 979هـ/1571م مصطحباً

(1) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص 97 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 98.

(2) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص 291 وأنظر أيضاً: روسو ألفون، المرجع السابق، ص 97.

(3) -عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص244 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص276.

(4) - F .Bredei, la Méditerranée, op .cit, t2, p973.

(5) - Mercier Ernest, op, cit, t3, p113. Voir aussi De Grammont Henri, op .cit, p115.

(6) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، المرجع السابق، ص143 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص81.

(7) – روسو ألون، المرجع السابق، ص 97 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص371.

(8) -بعث أمير أمراء طرابلس إلى الباب العالي برسالة يخبره فيها بشأن التحركات الإسبانية أنظر: مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم 6، ص4، بتاريخ 979/01/2هـ.

(9) -محمد جميل بيهم، المرجع السابق، ص142 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص145.

30 سفينة لرياس الجزائر مع السفن التابعة له وأثناء ترقب الأسطول العثماني لتحركات العدو تعرض لعاصفتين قويتين، أدتا إلى تشتته وأصيب بخسارة كبيرة وعاد الأسطول إلى إستانبول[1] ونتيجة لذلك فقد خرجت تونس من اليد، كذلك فإن موسم الإبحار قد انتهى وحل الشتاء، وأصبح الإبحار أمراً مستحيلاً.

لم يقصر علج علي باشا لأي أداء مهمته وواجبه، ولو أن السلطان استمع إلى توصياته بشأن طرد الإسبان من مالطا لما تعرضوا لهذه الخسائر، لأن علج علي باشا خطط لطردهم منها منذ ثلاثة سنوات [2] كانت الحملة ضخمة وكان الأسطول يتكون من حوالي 140 سفينة حربية منها 107 أفلاك و31 مركباً وغالية وعدد كبير من سفن النقل والغليوطات، وفرقاطة ومراكب أخرى يملكها خواص ومركب كبير يملكه دوق دوسكانيا كانت هذه السفن تحمل على متنها جيشاً كبيراً يتكون من 13 ألف ايطالي و9 ألاف اسباني و5 ألاف ألماني و500 فارس؛ أي ما مجموعه أكثر من 27 إلف رجل [3].

عندما بلغ الأسطول الإسباني حلق الوادي لم يجد أدنى معارضة من قبل القوات الإسلامية [4] ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها اسبانيا، بل كان هناك 99سفينة إسبانية كانت قد تهيأت للانضمام إلى الأسطول [5] وفي هذا الصدد يقول المؤرخ السرّاج " ولم يزل الأمير أحمد بن الحسن الحفصي يأخذ في أسباب استجلاب عمارة النصارى من حاكم النصارى، حتى تأهّبت، ووصلت لحلق الوادي"[6].

ثم تقدموا نحو مدينة تونس بقيادة سانتا كروز Santa Cruz، فباغتها بهجوم مفاجئ واستول عليها بسهولة وأحتلها [7] وخرج أهلها ببوادي تونس فارين بدينهم من شر الإسبان [8] لأن الحامية العثمانية لم تستطع المقاومة نظراً لقلة عددها البالغ ألفي جندي يقودهم رمضان باشا، فاضطرت الحامية إلى الانسحاب صوب الحمامات، لكنهم وجدوا الأبواب موصده فتوجهوا إلى مدينة القيروان التي كان على رأسها حيدر باشا وفي الطريق لاحقتهم القوات الاسبانية واشتبكت معهم في قتال كبير انتهى بانتصار القوات الإسلامية، يصفه بن أبي دينار بقوله:" ولما وصل العدو إلى الترك صدقوا في القتال، وصبروا صبر الأحرار، فهربت الكفرة وركبت الترك أدبارهم إلى أن أخرجوهم من الخنقة التي بقرب الحمامات، وقتلوا منهم ما شاء الله، وقطعوا رؤوس القتلى

---

(1) –حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضاراته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج3، (ع، ح، ن، ت)، لبنان، 1992م، ص164.

(2) – محمد درّاج، المرجع السابق، ص180 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص129.

(3) –حسين مؤنس، المرجع السابق، ص167 وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص512.

(4) –كان أهالي تونس قد بعثوا إلى السلطان العثماني بإرسال المساعدات لهم فطلب من علج علي (بعد الرجوع من معركة ليبانت) ذلك للمزيد أنظر: مهمة دفتري رقم 19، حكم رقم 264، ص123، بتاريخ 980/2/4هـ.

(5) - (L) Poinssot et (R) Lantier, op.cit., p25.

(6) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص213.

(7) - Zeller(G), op .cit, p64.

(8) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة...، المرجع السابق، ص399و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص726.

وبعثوا منها أحمالاً إلى القيروان لتسكين الأحوال"[1] لما رجع الإسبان خائبين مهزومين، صبّوا غضبهم على أهالي الحمامات، فقتلوا وسبوا؛ واستولوا على المدينة ونهبوها [2] أما رمضان باشا وجنوده، فقد استقبلوا بحفاوة بالغة في مدينة القيروان من طرف قبائل الشابية [3].

ثالثاً–تونس تحت سيطرة الدون خوان النمساوي:

لكن الإسبان اغتنموا الوضعية الناجمة عن انتصار ليبانت Pepante على الأسطول العثماني فقرروا الاستيلاء على تونس من جديد بقيادة الابن الغير الشرعي للإمبراطور إسبانيا دون جون النمساوي Don juan d'Autriche ملك النمسا [4]، ليقود حملة على تونس تشبه الحملة التي قام بها أبوه شرلكان سنة 1535م فوصلت القوات الإسبانية إلى مدينة تونس يوم(981-1573/10/11م) [5] فوجدتها مهجورة من أهلها بسبب خوفهم.

أما قبودان البحر فقد حمل مسؤولية ذلك على السلطان، وعلى الرغم من أن الباشا ألقى نفسه في التهلكة فإن العاصفة دافعت عنه[6] أما القائد رمضان الذي كان يحكم تونس منذ سنة 1569م، لما علم ببداية الإنزال المسيحي أدرك أنه لاقبل له؛ ولقواته القليلة بمجابهة حملة الإسبان الضخمة، فآثر الانسحاب إلى القيروان بعد ماغادر تونس رفقة حاميته، واستولى عليها دون خوان دون مقاومة تذكر [7] يذكر لنا السرّاج في هذه الواقعة مايلي"وأما أمر الترك فإنهم لما داهمتهم النصارى ورأوا أنّ الأمر فوق طاقتهم خرجوا لناحية الحمامات، فما فتحوا لهم بابا وأغلقوه في وجوههم فأجمعوا رأيهم أن يكون ذهابهم إلى القيروان وكان بها حيدر باشا وأقام بها10 أشهر –مدة الأمير محمد الحفصي–وضاق الأمر عليهم وتقوّت شوكة النصارى بتونس" [8].

بينما هرب أكثر أهالي تونس منها نحو المناطق الجبلية[9]، ولم يعودوا منها إلى منازلهم إلا بعد أن أمنهم السلطان الحفصي الجديد، ويصف ابن أبي دينار هذا بقوله: " فلما علم أهل تونس بمجيئه، هربوا من البلاد خيفة من الهول، ولجئوا إلى ناحية جبل الرصاص، واختفوا هناك، وهذه الواقعة يعبر عنها بمخطرة الدّواميس"[10].

---

(1) –لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص171 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 199.

(2) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص 215.

(3) - Mercier Ernest , op. cit, t3, p115.

(4) –حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص279.

(5) –الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص 224 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص131.

(6) –إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص106 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص108.

(7) –محمد خيري فارس، دراسات في...، المرجع السابق، ص256 وأنظر أيضاً: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص94.

(8) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص 215.

(9) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص175وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص173.

(10) –عزيز سامح إلتر: المرجع السابق، ص275 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 197.

وبعد استقرار الجيش الإسباني في تونس، قام الدون خوان النمساوي بتنفيذ أمر الملك الإسباني بإحياء عائلة بني حفص وتقويتها، بتنصيب الملك أحمد الحفصي الذي كان لاجئا لدى الإسبان، ولماحاول القائد الإسباني فرض شروط باهظة عليه، لم يستطع تحملها [1]، فعزله دون خوان وعين مكانه أخيه مولاي محمد شريطة دفع المال لإسبانيا [2] وفي هذا الصدد يقول المؤرخ السرّاج " فأخرج كبير جيشهم مكتوباً وقال الأمير أحمد: إن في مكتوبي أني أقاسمك البلاد مالا وحكما، حسبما أذن به سلطان النصارى، فقال له: إن شرطي معكم ما فيه إلاّ ذكر المال الذي جاعلتكم به فقط لاغير، فأجابه النصراني: فإن قبلت وإلا عندي تحت يدي من يقبل الشروط وهو أخوك محمد فرفع يده عن ذلك وراح إلى باليرمو من صقلية" [3].

ولكن محمد بن الحسين الحفصي الذي كان منبوذا من طرف شعبه وتنصيبه حاكماً صوريا عليهم [4] الذي قبل بأن يتقاسم الحكم مع قائد الحملة مناصفة في تونس [5]، بعد أن رفض أخوه أحمد القبول بذلك كما قبل محمد شروطا أخرى مذلة [6] غير أنه لم يكن يتمتع بكامل الصلاحيات في الحكم، حيث كان يشاركه فيه الحاكم الإسباني غابريال سربيلوني (Gabriel serbillon) الذي كان أحد فرسان مالطا [7].

كان سكان تونس قد لجئوا إلى الجبال والغابات والبوادي، وقد نالهم من الجوع والعطش مبلغاً عظيماً ويصف لنا المؤرخ السرّاج بقوله " ولما ورد الخبر بتولية محمد بن الحسن الحفصي (آخر الحفصيين)، تذكر أهل تونس الواقعة التي كانت على يد أبيه حسن(1535م)، ففرّوا إلى ناحية جبل الرصاص واحتفوا في دواميس وصدمتهم النصارى وصار فيهم ماتقشعر الجلود من ذكره، حتى أن الذي فر صنع نواويل في الغابة وسكنها وتسوّلوا على بيوت الخيام، ونالهم من الخوف والجوع، وبعد مّدة أظهروا الأمان واسترجعوا المسلمين لديارهم على أنّ من وجد داره غير محوزة لنصراني رجع إليها، ومن وجد بها كافرا ساكنا بها، فكانت كل دار مسلم يجاورها نصراني وقبودان النصارى ساكن بالقصبة مع الأمير محمد يجلسان معا في سقيفة القصبة للحكم" [8].

---

(1) -أرسل الدون خوان السلطان أحمد أولا إلى باليرمو مع اثنين من أبنائه، و تم تحويله إلى نابلي، حيث سجن في حصن سانت ألم (saint Elme)، ويورد دوتو: أنه رآه عام 1574م في هذا الحصن، وكان عمره ما يقارب 80سنة أنظر: De Thou Jacque Auguste, Histoire universelle, depuis 1543 jusqu'en 1607, 16T (J.L.Braudmuller, t6,1742) ,p722.

(2) - Dapper (D, O), Description de l'Afrique cantenant les noms et la situation …avec des cartes des états des provinces et des villes, traduite de flamant, Amesterdam, Wolfgang, 1686, p194. Voir aussi Mercier Ernest , op, cit, t3, p115.

(3) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص213.

(4) -يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص53 وأيضاً: شارل أندري جوليان المرجع السابق، ج2، ص374.

(5) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص457 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص79.

(6) -ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص174 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص175.

(7) - Mercier Ernest, op, cit, t3, p116.

(8) -لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص175 وأيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص213.

أما الجنود الإسبان فقد كانوا يتشوّقون لدخول مدينة تونس، لأنهم كانوا يسمعون عن الكنوز التي خبأها الأهالي فيها، فأخذوا يطوفون الشوارع جماعات، وبأيديهم المجارف والمعازق، وظلوا ينبشون المنازل ويدقّون الجدران ويحفرون المساحات والسطوح، ويفرشون الأسوار ويكسرون النوافذ، فلم يبق بيت سليم، لقد استنفذوا كامل قوتهم ولم يجدوا شيئا فقرروا تحطيم خوابي الزيت، في المزارع [1].

وعند بوابة باب البهار تجمع حشد مفاجئ، حيث وقف الجنود على صفين بطول ربع ميل يعرضون المسروقات للبيع، وأخذ البحارة والمتسوقون يبتاعون بأرخص الأثمان بضائع التحف النادرة وسجاجيد القيروان والأقمشة الناعمة، والأواني الفاخرة، وأكياس البهارات، والعطور وغيرها، وحمل الضباط معهم أعمدة بكاملها من الرخام والحجر الأرخواني، الذي كانت تزدان بها زوايا المنازل التونسية [2]، غير أن أهمّ مايجب ذكره انتهاك حرمة جامع الزيتونة من قبل خوان فقد قلع سواريه الرخامية الرائعة وحملها إلى الأراضي المسيحية [3]، كما ربط الإسبان خيولهم في جامع الزيتونة واستباحوا مابه من الكتب العلمية، وألقوها في الطرقات تدوسها خيولهم [4] وهذا ماأثبته المؤرخ السرّاج " وقسمت المدينة بين مؤمن وكافر، وضربت النواقيس، وربطوا الخيل بالجامع الأعظم، ونهبت خزائن الكتب التي كانت به، وداستها الكفرة بالأرجل، وألقيت تصانيف الدين بالأزقة حتى قيل إن أزقة طيبيين كانت كلها مجلدات ملقاة تحت الأرجل فعلوا مالاتفعله الأعادي بأعدائها" [5]، لقد عانى التونسيون الويلات جراء تدخّل المحتلين الإسبان في حياتهم اليومية، وشؤونهم الدينية، وكذلك وقاحتهم في معاملة رجال الدين الإسلامي، وقلة احترامهم لحرمات المساجد ممّا أدى إلى نشوب صراعات بينهما [6].

أما إنجازات الدون خوان، فإنه قام بتحصين قلعة حلق الوادي، وقلعة تونس بدلا من هدمهما من أجل تعزيز مركزه على السواحل الإفريقية، وقد كانت قلعة الباستيون تقع خارج باب البحر من مدينة تونس على شكل مدينة أوروبية أطلق عليها اسم شيكلي بناها وعمّرها وأسكنها الإسبان، بها بناءات من الخشب وأبار للمياه ومخازن للمؤونة، ومطاحن للقمح، ومخازن للأسلحة، ومعامل الحدادين، ومستشفى وصيدلية وكنيسة [7] التي بالغ الإسبان في تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون في الشمال الإفريقي وكانت هذه المدينة معدة لاحتواء أربعة آلاف شخص [8]، استغرق بناؤها 8أشهر [9] وهي تبعد بحوالي150فرسخ عن مدينة

(1) -إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص292وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، صص590-591.
(2) -محمود السيد الدغيم، المرجع السابق، ص413 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص177.
(3) -عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص16 وأيضاً: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة...، المرجع السابق، ص125.
(4) -محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج2، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1931م، ص 154.
(5) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص214.
(6) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص ص98-99 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص83.
(7) -عبد الجليل التميمي: الولايات العربية...، المرجع السابق، صص103-104وأيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص176.
(8) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص401 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص283.
(9) - De Thou, op, cit, t6, p721.voir aussi Retalier, op, cit, p266.

تونس لقد كان هدفه من بناء هذه القلعة هو تشديد المراقبة على تونس [1] يصف لنا ذلك المؤرخ الحاج حسين خوجة "وفي تلك المدّة عمر الباستيون شبه بُليدة، وفُصلت أسواقه، وحوانيته، وعمرته النصارى " [2].

أصيب دون خوان بالغرور من جراء انتصاره في معركة ليبانت الجديدة، ووصل غروره إلى حد السكر بحيث عزم على إقامة مكان لائق بمقامه على السواحل الإفريقية مدفوعاً بتحريض البابا وتشيعه[3]، وقد كانت بغيته من وراء ذلك هو تنصيب نفسه ملكاً عليها، لأنه كان يرى نفسه أهلاً لها [4].

ولدى سماع الملك الإسباني بأن دون خوان يريد أن يقيم مملكة خاصة به في تونس غضب غضباً شديدا فأمره بالعودة فوراً وبأقصى سرعة وألح في طلبه؛ بتهديمه للتحصينات الموجودة في تونس، وفعلاً فقد أحالها إلى خرابة[5] فامتثل الدون خوان لأوامره والتحق بصقلية نازلاً في مدينة باليرمو في 981هـ/11/ 1573م وقد ترك في تونس أربعة آلاف جندي إيطالي، وأربعة آلاف جندي إسباني [6] وترك حكم تونس لقيادة مشتركة بين الكونت غابرو سيريبيلوني والملك الحفصي محمد بن الحسن التابع للإسبان [7] وأمرهما بالمحافظة على المواقع التي احتلها [8] وتم عُزل جون خوان النمساوي لدي وصوله لإسبانيا [9].

وكان الوالي العثماني قد انسحب إلى القيروان، ورافقه عدد كبير من الشرفاء التونسيين، ثم بدأت المناوشات بين العثمانيين وأنصارهم من جهة، والصليبيين وعملائهم من جهة أخرى، فقد كان للعثمانيين أنصار في كل مكان، ويمكن القول إن حضرهم السياسي في المناطق المحلية كان دائماً في ماعتبر من كان إلى جانب الإسبان ومولاي محمد خائن [10] وكان يُقتل وتصادر أمواله، ولم تكن مراكز حيدر باشا الأمامية تبعد عن مدينة تونس أكثر من 40ميلاً، وكان يشنون الغارات على المناطق الخاضعة لسيطرة الإسبان [11]

وخاض السلطان الحفصي محمد عدة معارك على رأس قوات التحالف الصليبي وعملاءه، وفي2/5/ 1574م نشبت معركة قرب الحمامات الواقعة على بعد65 كم إلى الجنوب من مدينة تونس، تكبّد فيها

(1) –عبد الجليل التميمي: الولايات...، المرجع السابق، صص 103-104 و: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص376.

(2) –حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق–تح) الطاهر المعموري، (د،ع،ك)، تونس، 1975م، ص228.

(3) –إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني...، المرجع السابق، ص106و: محمد العروسي المطوي، السلطة...، المرجع السابق، ص728.

(4)- Mangin (F), Regarde sur la France d'Afrique, 12ème éd Plon, Paris 1924, p19Voir aussi Pellissier de Raynaud: Exploration scientifique de l'Algérie. Royale, Paris 1844, p98

(5) - De Grammont Henri, op .cit, p115 , p43

(6) –حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص52 و: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين..."، المرجع السابق، ص21.

(7)- Mercier Ernest, op. cit, t3, p116.

(8)- De Grammont Henri، op .cit, p115.

(9) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص197 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص79.

(10) –Paul Sebag, <<une Relation inédite sur les paris de Tunis par les Turcs en1574>>, Publier université de Tunis, 1971, p160.

(11) – إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، المرجع السابق، ص296 وأيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص51.

السلطان محمد مولاي هزيمة ساحقة، وتمكنت القوات العثمانية من إرغام جيشه على الفرار، دون أن يلتفت أحد منهم إلى الوراء[1] وكانت قواته مشكلة من البدو الموالين له، والإسبان الغزاة، بينما تكونت القوات العثمانية من1500 جندي عثماني، و2000 مجاهد تونسي، بعد ذلك ارتفعت معنويات الشعب التونسي بقيادة حيدر باشا[2] وللمؤرخ السرّاج قولاً في هذا: "وعند توجههم من الحمامات لحقت بهم النصارى فثبتوا للقتال وصبروا وصابروا على إعلاء كلمة الدين، وبعثوا من رؤوس النّصارى أحمالاً للقيروان"[3].

ولاننسي أن القبودان علج علي باشا قد طلب من السلطان العثماني سليم الثاني، أن يأذن له باستعادة تونس قبل أن يتمكن الإسبان من تحصينها تحصيناً جيداً[4].

المبحث الثالث: تونس إيالة عثمانية (982هـ/1574م)

على الرغم من الهزيمة البحرية التي مّني بها الأسطول العثماني في ليبانت [5] واشتداد الضغوط عليه وسقوط تونس من جديد تحت النفوذ الإسباني وتهديد بقية السواحل المغاربية فقد كان احتلال تونس ضربة قوية للدولة العثمانية [6] واثبت صحة رأي علج علي باشا الذي كان يطالب ويلح في الطلب، حتى أقنع السلطان العثماني سليم الثاني بضرورة ضم تونس إلى الدولة العثمانية من جديد والقضـــاء على الحصـون الإسـبانية فيـها[7] وبيان على ذلـك أن سلاطين تونس لماضعفوا ووهنوا؛ وكثر بينهـم الاختلاف وصار بعضهم يلتجئ إلى بلاد الإفرنج ويأتي بجنود الكفرة ويستعين بهم على أخذ تونس ويقاتلون من فيها من المسلمين ويسبون نساءهم إلى أن صاروا تحت حكم النصارى، وانفردوا على المسلمين، وبنوا قلعة بالقرب من تونس ويدعى الموقع حلق الوادي وملؤه بآلات الحرب وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين وعلى ماتبقى من الحكم الحفصي الصوري بها فوافق وأذن له بالحملة عليها [8] خاصة بعد ماعاث فيها الجند الاسباني مدة 10أشهر[9] وللسرّاج وصفاً في هذا: "ولما نمت أخبار تونس وماحل بملك بني عثمان وهو السلطان سليم ونزع الديار التونسية من أيدي الكفرة "[10] ووصلت الأخبار إلى مولانا السلطان سليم، واشتد غضبه لما أصاب المسلمين

---

(1)- Le Commandant Hannezo, op.cit ،pp160.

(2) -محمود السيد الدغيم، المرجع السابق، ص414 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص194.

(3) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص215.

(4) -De Thou, op, cit, t6 ،p722.voir aussi Retalier, op, cit, p267.

(5) – طلب السلطان العثماني من علج علي، ان يجمع شتات الأسطول العثماني ويقوم بتجديده. للمزيد أنظر: مهمة دفتري رقم21، حكم رقم 509، ص 213، بتاريخ 980/11/21هـ.

(6) – شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص43 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 174.

(7) - Mangin (F), op, cit, p 101.

(8) - Paul Sébacé, Une relation inédite sur la prise de Tunis en1574 publications de L'université de Tunis ,1971, P 147.

(9) -أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ص ص20-24 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص85.

(10) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص 233.

من هؤلاء الكفرة، وجهز لقتالهم وجعل سردار العسكر براً سنان باشا وسردار العسكر بحراً بقيادة علج علي باشا [1] وللسرّاج قولاً في هذا: "وانتدب للأمر سنان باشا وجعله سردار العسكر وأضاف النظر إلى المراكب البحرية وكانت له خبرة ودراية وهو قبودان البحر علج علي باشا وأنعم السلطان عليهما بتشاريفه المعتادة وخلع عليهما وحكمهما فيما يحتاجان إليه من آلات السفر وشحنت المراكب بالذخائر والأموال وآلات الحرب"[2].

وهو ماجعل نجدة الدولة العثمانية تصل إلى تونس قصد افتكاكها نهائيا من يد الإسبان في981هـ/ 1574م [3] وقال صاحب الأعلام: غزوة بلاد تونس من أجمل الغزوات العثمانية وهي أيام السلطان الأعظم سليم الثاني" [4] ومنذ ذلك الحين قرر العثمانيون ضرورة اقتلاع الإسبان من حلق الوادي [5] الذي يمنحهم نقطة ارتكاز تمكنهم من مهاجمة تونس بسهولة كما يصف غرامون: لم يكن في إمكان الدولة العثمانية أن تسكت عن احتلال تونس وتحركت بسرعة لاستعادتها ومصممة هذه المرة على اجتثاث الإسبانيين وتدمير قلعتي حلق الواد وتونس ومن أجل ذلك أرسلت تعليمات إلى الجزائر وطرابلس والقيروان بالاستعداد لاسترجاع تونس [6].

وُجّهت الرسالة الأولى إلى حاكم تونس، كرد على الرسالة التي أخبرت بسقوط الولاية بيد الإسبان وهي تعلم الحاكم عن الأسطول المجهز ضد حلق الوادي وتطلب منه المساعدة بالرجال والسلاح والعتاد [7].

أما الرسالة الثانية، فهي موجهة لأحمد باشا وهو أمير أمراء الجزائر، تخبر بتعين باي لارباي الجزائر الجديد القائد رمضان على الجزائر مكانه، مكافأة له على خدماته التي أداها في تونس وتطلب منه التوجّه إلى بقواته البحرية، للالتحاق بالأسطول الذي يقوده القبودان علج علي باشا والالتحام مع القوات تونس وطرابلس ليشكل الأسطول المكلف بتحرير تونس وكلها ستكون تحت مسؤولية علج علي باشا [8].

---

(1) –علج علي باشا: ولد في ايطاليا واخذ أسيرا في إحدى غارات العثمانيين على ايطاليا من طرف البحارة الجزائريين، سنة 1520م وعمل مجدف السفن ثم اعتنق الإسلام، وارتقى في مابعد باي لارباي لطرابلس الغرب فالجزائر، وكان هاماً في معركة ليبانت عام 1571 ضد الأسطول المسيحي، وجزاه السلطان بتعينه قائدا للأسطول العثماني (قبودان باشا) توفي سنة 1587م للمزيد أنظر: مصطفى شاكر، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1993م، ص568 وأيضاً أنظر: محمد سي يوسف، المرجع السابق، صص 69-70.

(1) –صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص94.

(2) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص 233.

(3) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 91 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص36.

(4) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، صص 223-224.

(5) –أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص149 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص74.

(6) – سامح إلتر، المرجع السابق، ص246. وأنظر للمزيد: مهمة دفتري، رقم21، حكم رقم 637، ص266، بتاريخ 980/12/16هـ.

(7) – مهمة دفتري رقم 24، حكم رقم 166، ص59، بتاريخ 981/12/05هـ.

(8) –مهمة دفتري رقم 24، حكم رقم 167، ص61، بتاريخ 981/12/05هـ.

أما الرسالة الثالثة: فقد كانت موجهة إلى القائد رمضان باشا حاكم الجزائر (1) تخبره بتجهيز أسطول يتكون من300 قادرغة وتحدد تاريخ انطلاقه بداية (982/1هـ-1574/4م) بقصد "فتح وتسخير قلعة حلق الوادي" وتخبره بأن الحملة أسندت إلى سنان باشا، أمّا قيادة الأسطول فقد كلف بها القبودان علج علي باشا وتأمره بالتعاون مع حاكم طرابلس وحاكم تونس والاتحاد مع قائد الحملة عند وصوله إلى تونس (2).

بالنسبة للرسالة الرابعة: قد وجهت إلى الأمراء في سواحل البحر المتوسط، تأمرهم بمساعدة مامي رئيس المبعوث إلى المنطقة لتجنيد المتطوعين والراغبين في الجهاد بهدف إلحاقهم مع سفنهم إلى الوزير سنان باشا وتأمرهم أيضاً "بترغيب واستمالة المتطوعين في مناطقهم وترغيبهم في الجهاد المقدس في سبيل الله" وإذا كان منهم القادرون على بناء القاليتات، فيجب معاونتهم ومظاهرتهم بشراء اللوازم والمهمّات لذلك كي يكونوا على أُهبة الاستعداد، لنقلهم بسفن المتطوعين المجهزة إلى حلق الوادي التي تمّ العقد على فتحها" (3)، وقال صاحب الأعلام: "وكان المشركون قد بنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان، مشيدة البنيان، بموضع يقال له حلق الوادي، كأنه بناء شدّاد وصارت النصارى تكمن فيها للمسلمين ويرسلون الأغربة والمراكب لأخذ الموحدين ويقطعون الطريق على المسافرين، وكان السلطان جهز جيشاً لخراب حصن تونس"(4).

وفي الرسالة الأخيرة المؤرخة بتاريخ 981/12/14هـ-1574/4/6م الموجهة إلى باي لارباي الجزائر القائد رمضان تطلب منه إرسال قوات للمشاركة في الحملة بعدد1095 فارسا و1000 إنكشاري بكامل عتادهم وعدّتهم (5) كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي والروم يلي بالاشتراك في السفر بحراً كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على ألا يسند إليهم في المستقبل أي عمل وبينما كان الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله (6)، فأدرك بذلك السلطان العثماني وحكام الجزائر أهداف الإسبان وغرضهم من ذلك؛ فآلفو أسطولاً بحرياً كبيراً ،قائد الحملة سنان باشا وعلج علي

(1) –كان رمضان باشا في القيروان عند عودة مامي أرناؤوط من إستانبول وهو يحمل أمر تعيين هذا الأخير على الجزائر، توقف بميناء سوسة وسلم التعيين لرمضان باشا، فغادر هذا الأخير القيروان بعد ان ترك أحد خلفائه هناك وتوجه إلى الجزائر ودخلها في شهر ماي 1574م وفي شهر جويلية أرسل قوة بحرية شاركت مع علج علي في استرجاع تونس. للمزيد أنظر: .Diego Haedo : op, cit, pp425-426

(2) –مهمة دفتري رقم 24، حكم رقم 168، ص 60، بتاريخ 981/12/05هـ.

(3) –مهمة دفتري رقم 24، حكم رقم 198، ص72، بتاريخ 981/12/05هـ.

(4) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص 225.

(5) – مهمة دفتري رقم 24،صص91-92،حكم رقم 246بتاريخ 901/12/14هـ و تحدد الرسالة أماكن تجديد هؤلاء بالشكل التالي"...60 فارسا من لواء تنس، و 20فارسا من بوابي الجزائر (قبوجي) و40 فارسا من جاويشها و35 من منطقة عمرون (كذا) و400 فارسا من قسنطينة و80 فارسا من بسكرة و60 فارسا من بلد عباس (كذا) و1000 من الإنكشارية الأكفاء المسلمين ببنادقهم....

(6) –عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص251 وأيضاً: عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين..."، المرجع السابق، ص23.

قبودان باشا الأسطول العثماني ودعمه في عملية تحريره لتونس كل من مصطفى باشا صاحب طرابلس الغرب وحيدر باشا صاحب القيروان والقائد رمضان صاحب الجزائر [1].

1– الحملة العثمانية الثالثة (علج علي باشا) على تونس: (982هـ/1574م).

وإثر سقوط تونس في يد الإسبان من جديد، راسل السلطان سليم الثاني الأقاليم العثمانية في شمال إفريقيا، دعا قادتها إلى تجنيد المتطوعين وإلحاقهم بالقائد سنان باشا لنقلهم إلى حلق الوادي، وطلب من أحمد عرابي باشا [2] الالتحاق بالأسطول العثماني، في1574/4/7م [3] كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة، والمؤن والجنود مع283 سفينة مختلفة الأحجام [4].

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره الأخيرة إلى وزيره سنان باشا قائد الحملة والقبودان علج علي قائد الأسطول بالاستعداد للتوجه إلى تونس الذين نزلوا في ساحل قرطاجة يوم 1574/7/13م[5] واشتراك القوة الإسلامية المجاورة لتونس في هذه الحملة: أمير أمراء الجزائر رمضان باشا وأمير أمراء طرابلس الغرب مصطفى باشا وأمير أمراء تونس حيدر باشا وكذا أحمد باشا أمير أمراء سابق الجزائر لفتحها نهائياً، وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها وتحت راية الجهاد أخذت تتشكّل الوحدات العسكرية للمشاركة في الحملة والمتطوعين [6].

كانت الحملة ضخمة أقلعت في منتصف ماي من إستانبول؛ على رأس الأسطول قبودان داريا علج علي[7] بصحبة سنان باشا قائد الجيش البري في982/1/23هـ–1574/5/15م مع العلم أن الأسطول كان يتألف من 250 سفينة من نوع غاليرة(Galères)[8] و40 سفينة لنقل الجنود والذخيرة [9] 290سفينة[10] و40000 جندي [11] وبرز العسكر من القسطنطينية وكان يوماً مشهوداً عند خروجهم وشحنت الاغربة بالرجال عددها 200 غراب و18 معونة وغيرها من السفن الكبار والصغار [12] تحركت القوات الجزائرية

---

(1) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ص ص20–24 و: مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص59.

(2) –وعين أحمد العربي " عراب أحمد " خليفة للباي لارباي في الجزائر وتعيينه كان من الحالات الشاذة في تاريخ السلطة التركية في الجزائر إذا لم يكن تركيا ولاعلجا كما جرت العادة بل كان عربيا من مواليد الإسكندرية. للمزيد أنظر: مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص312.

(3) - Braudel Fernand, les espagnols…, op,cit,t2,p425.

(4) – محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص109وأنظر أيضاً: عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص251.

(5) –جون بول وولف، المرجع السابق، ص92 وللمزيد أنظر:. De Grammont Henri, op .cit, p115, p 106-111

(6) – عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص251 وأنظر أيضاً: روسي اتروي، المرجع السابق، ص227.

(7) - Braudel Fernand، les espagnols…، op، cit، t2، p 425.

(8) – غاليرة(Galères): وتسمى أيضاً الغليوطة وهي أقل حجم من السفينة وتكون مسلحة بمدافع طويلة يصل نحو 50سم.للمزيد أنظر: ابراهيم سعيود، علاقات الجزائر بالدويلات الإيطالية، المرجع السابق، ص10.

(9) – Diego Haedo, op, cit, p414.

(10) – Braudel Fernand, les espagnols…, op, cit, t2, p 425.

(11) - Dapper (D), op, cit, p194.voir aussi Braudel Fernand, les espagnols, op, cit, t2, p 425.

(12) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص 233.

بدورها في اتجاه تونس، تحت قيادة أحمد عرب باشا في نهاية شهر ماي على رأس 7 سفن (1) لكن توقف في بجاية بعض الوقت، في انتظار وصول علج علي إلى تونس لكي يلحق به (2) وقد قاد رمضان باشا 3000 إنكشاري وآلاف المتطوعين من الأهالي (3)، لكن قبل أن يصل هذا الأخير على رأس بقية الأسطول الجزائري إلى حلق الوادي، أرسل إليها مامي أرناؤوط ومعه تسع سفن محملة بالجنود والمدافع والذخيرة (4)وفي أواخر جوان بدأ الحصار (5) بعدها تحرك رمضان باشا إلى تونس التي وصلها حسب سيربيلوني في 10أوت على رأس 5000جندي إنكشاري (6) وعدد كبير من الأهالي (7) كما جاء مصطفى باشا من طرابلس إلى رأس 4000 رجل وشيوخ من جزيرة جربة وحيدر باشا من القيروان على رأس 6000 فارس، بالإضافة إلى مشاركة أهالي عدة مناطق من تونس وبسكرة وبنزرت وتلمسان وجاء من قسنطينة وعنابة 2000رجل وانضمت إلى هذه القوات إعداد غفيرة من الأهالي (8) وبما أن البادية كانت قاحلة فقد ضرب الجميع خيامهم وعسكر الجميع حول مدينة تونس في أول جويلية (9) وفي هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائر بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا، كما وصل ثمة متطوعين من مصر (10).

وفي انتظار وصول الأسطول العثماني من أجل بداية الهجوم، ولكن السّراج أورد بأنّ أهل تونس شرعوا في الهجوم قبل وصول الأسطول بقوله: "تحركت عند حيدر باشا الحرارة الإيماني فتحرك بمن معه لتونس مدة الفتح لديهم، وكاد أن ينفذ مالديهم، فبينما هم في شـدة الأحوال رأوا على سـطح البـحر مـراكب جمّة هي المدد من العمارة المنصورة بالتحريض على الثبات وأنّ النصر هّللت وكان بذلك انقراض دولة بني حفص "(11).

أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وعلج علي في 982/1/23هـ–1574/5/14م واجتمعت في ميناء نورين وخرج من المضايق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا مسينا واخذوا في طريقهم عدة قلاع وغنموا شيئاً كثيراً، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية

(1) - Primaudaie(E) , « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574 », In R.A No. 19, Année 1875,p297.

(2) – Diego Haedo, op, cit, pp421-422.

(3) – المنور مروش، المرجع السابق، ج2، ص159 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص76.

(4) –Diego Haedo, op, cit, p426.

(5) -Primaudaie(E), Op.cit.297.

(6) – Dapper (d, o), op, cit, p194.voir aussi Braudel Fernand, les espagnols, op, cit, t2, p 427.

(7) –صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص37.

(8) –المنور مروش، المرجع السابق، ج2، صص159 –160 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، مقاومة جربة...، المرجع السابق، ص71.

(9) -Primaudaie(E), Op.cit.297.

(10) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص400 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص52.

(11) –مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص61وأيضاً: محمد بن محمد السرّاج، المرجع السابق، ج2، ص215.

ومن هناك قطعوا عرض البحر في5 أيام (1) وللسرّاج وصفاً في هذا: "وقبل وصول العمارة العثمانية بيوم وصل إلى تونس الباشا حيدر القيروان وكان متوليا على منصب تونس من قبل وصاحب البلاد، وكذلك مصطفى باشا صاحب مدينة طرابلس فحصرا إلى تونس ونزلا معاً بإزاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها للعمارة واستخبره الوزير عن أحوال البلاد فأخبره بخبر المحال، يخبرهم بقدوم العسكر العثماني" (2)، ولما وصل الأسطول العثماني إلى تونس في يوم 1574/7/12م، بدأ الهجوم وأجبروا المفرزة الإسبانية التي تحتل برج مارابو وبرج رئيس إلى إخلائهم والتحصن بالبستيون ولماتمكن المسلمون من الدخول إلى تونس توجهوا إلى محاصرة الباستيون (3)، ولا شك أن دون خوان كان يتوقع حملة عثمانية على تونس لهذا قرر إنشاء حصن بين البحيرة ومدينة تونس مخالفاً بذلك أمر أخيه فيليب الثاني ملك اسبانيا القاضي بتخريب تحصينات حلق الوادي وتونس (4).

ويوم 13 جويلية أمر القائد العام الباشا سنان الجيوش القادمة من البر بمحاصرة تونس وذلك بمساعدة أربعة ألاف جندي وجّهها من قواته وجعل حيدر شيخ القيروان قائد للعمليات، حيث أعطاه ثمانية مدافع من العيار الثقيل وثمانية مدافع صغيرة وعسكر هذا الأخير في ضواحي تونس (5)

على الصعيد الإسباني فقد علم في تونس بنبأ اقتراب الأسطول العثماني كما علموا أن الأتراك سيضربون حلق الوادي أولاً، فإنه لما علم الدون خوان ذلك وبتوجه الأسطول العثماني نحو تونس أمر بإرسال قوات عسكرية جديدة إلى حلق الوادي (6) كما تمت مراسلات بين الدون خوان والدون غارسيا دي توليدو Garcia de Toledo –نائب ملك نابولي–اللذان تبادلا الآراء حول مايجب القيام به في تونس وكان اقتراح الأخير أنه يجب تحطيم حصني تونس وشيكليChikliالواقع في رأس قرطاج (7).

وفي أول جويلية تلقى القائد الإسباني في تونس المدعو سربيلوني من الكاردينال غرانفيل Granelle يخبره فيه باقتراب الأسطول الإسلامي وطلب منه الالتحاق بقلعة حلق الوادي لاتخاذ الإجراءات الدفاعية

---

(1) –حسين خوجة، ذيل بشائر...، تح الطاهر المعموري ...، المرجع السابق، ص182و: محمد بن أحمد النهرواني، المرجع السابق، ص253.

(2) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص232-250.

(3)-Braudel Fernand, les espagnols…, op,cit,t2,p428.

(4) –للمزيد عن تفاصيل الحملة أنظر: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص ص186-196 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج، المرجع السابق، ص ص10-25 وأنظر: ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص 23.

(5) –Diego Haedo, op, cit, p428.

(6) –عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص 205 وأيضاً: Alphonse Rousseau, Tunisiennes Annales, Batiste ,Alger ,1864, pp30.

(7)-Zeller(G), op .cit, p66.

اللازمة مع قائدها [1] بيترودي بورتوكاريرو Porto Carrero [2] وما إن علم سربيلوني بتحرك الأسطول الإسلامي حتى أسرع لنجدة المواقع المهددة، حيث قام بإخلاء بنزرت ونقل أفراد حاميتها إلى حلق الوادي [3].

كما أشرف على تنظيم الدفاعات وعين حصن حلق الوادي دي برت وكاريرو ومعه أربع كتائب عسكرية من الإسبان وخمس من الإيطاليين [4] وجعل على قيادة الحصن الذي قد أقامه قرب البحيرة والمسمى بالباستيون وجزيرة شيكلي الدون دي زاموغويرا J. de Zamo Guerra [5] بينما كان حصن البحر تحت قيادة سربيلوني ومعه ألف رجل إسباني وإيطالي كما تم نقل بعض المرضى والعاجزين عن حمل السلاح من تونس إلى إيطاليا بتاريخ 23جوان لأنهم سيشكلون عبئاً في مثل هذه الظروف [6].

قبل وصول الأسطول كانت القوات المغاربية (القيروان، طرابلس، الجزائر) قد احتشدت وعسكرت في المحمدية على مشارف تونس قاطعة المؤن على الإسبان ومستولية على الأبار وعيون الماء قصد محاصرتهم [7].

ووصل الأسطول العثماني إلى تونس في(982هـ-1574/7/12م) جاءت السفن ترفع الرايات الحمراء كان المنظر بهيجا وبدأ الإنزال في اليوم الموالي قرب حلق الوادي برأس قرطاجة [8] ونزلت العساكر بعيدة من رمية المدافع ونزل الوزير سنان باشا [9] وبقدومه عليهم قويت نفوسهم وتقدموا أين كانت تتمركز القوات العثمانية التي يشرف عليها مصطفى قائد طرابلس وخضر قائد القيروان [10] وبسرعة فائقة تم إنزال الجنود والمدافع ثم شرعوا في حفر الخنادق على الفور؛ وتمكنوا من الوصول إلى الحصن الذي بحلق الوادي فحاصروه [11]

وحسب رواية قائد تونس الكونت غابرو سيربيلوني: أرسى الأسطول العثماني سفنه يوم 13 جويلية بالقرب من رأس وقرطاجة قبالة حلق الوادي وشرع في الإنزال على تونس وأمر قائد الأسطول القوات البرية بضربها تحت قيادة حيدر شيخ القيروان[12] وحسب رواية المؤرخ التونسي السّراج :"مصطفي باشا جاء من طرابلس وحيدر باشا [13]كانا نازلين على تونس بمقدار نصف يوم بقصد محاصرتها وأخذها وكان نزولهم

---

(1)-Alphonse Rousseau, op .cit, p33.

(2) -بيترودي بورتوكاريرو (Porto Carrero) قائد الحامية الإسبانية في حلق الوادي.

(3) – روسو ألفون، المرجع السابق، صص 103-104 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص112.

(4) - Paul Sébacé، op .cit, P 148.

(5) -عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص250 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص179.

(6) – محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص154 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص378.

(7) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية..، المرجع السابق، ص732و: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص227.

(8)- Alphonse Rousseau, op .cit, p36.

(9) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص231 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص176.

(10)- De Grammont Henri, op .cit, p115.

(11)- Zeller(G), op .cit, p67.

(12) - Paul Sébacé، op .cit, P 159.

(13) -كلاهما برتبة باي لارباي. للمزيد أنظر: محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص213.

بالمحمدية وبلغهما وصول العمارة وبنزول عساكرها بحلق الوادي وصلا ليلاً خفية مع القليل من التوابع إلى وطاق سر دار العمارة المنصورة واجتمعا بسنان باشا وأتفق رأي جميعهم على اختلاس جانب من جيش سنان لمواجهة تونس فأرسل معهم1000نفر ومدافع كبار وأنضم إليهما أمير اللواء المصري إبراهيم باي وحمود باي وأمير لواء قارا حصار باي لارباي(1) وأردف لهم سنان باشا نحو ألفي نفر أخر مع حبيب باي وتوجهوا حالا مع حيدر باشا ومصطفي باشا" (2) .

وبعد انتشار أخبار مجيئه الأسطول العثماني أجرى التونسيون اتصالات معه، ومع القبائل المجاورة يبشروهم بالنصر، فقد أورد بن أبي دينار مايلي" فلما وصلوا إلى ناحية المرسى من حلق الوادي وعلم المسلمون لم يتواجدون هناك بأنها عمارة الإسلام، طلع إليهم بعض المسلمين فسألوه عن أحوال البلاد، فأخبروهم بخبر المحال النازلة على البلد، فكتبوا كتاباً وبعثوه إلى أجزاء تلك المحال يخبرونهم بمجيء العمارة السلطانية ويأمرونهم بالإقامة في أماكنهم فلما أتاهم الخبر تيقنوا بالنصر..." (3).

لقي العثمانيون استقبالاً حافلاً وتلقوا المساعدة من طرف الأهالي وأمدوهم بالأسلحة والمواد الغذائية والفواكه ومواد أخرى كانت محملة على الجمال والخيول التي استفادوا من استعمالها في نقل المواد اللازمة لحفر الخنادق (4) كما أنهم نزلوا في منطقة وفيرة بالمياه العذبة حيث قاموا بحفر أكثر من 20 بئراً في وقت قصير جداً على الإسبان الذين كانوا يفتقدون إلى المياه مع أنهم حفروا عدداً من الآبار إلا أنها لم تسدّ حاجياتهم(5).

بعد بضعة أيام وصلت القوات الجزائرية التي كان يقودها أحمد عرب عن طريق البحر وبدأ الحصار الذي أستمر لمدة خمسة أيام حيث جرت خلالها وضع ترتيبات الهجوم (6) وللسراج قولاً في هذا: "ولما وصلت العساكر إلى ديار الكفار فإذا نزلوا في بلدة قتلوا من فيها واخذوا المال حتى وصلوا إلى حلق الوادي في3/24/ 981هـ وبنوء المتاريس وحاصروها، وكان الكفرة الملاعين من ارتد معهم إلى عربان تونس وكانت قلعة تونس أكثرها خراباً ومحن من قلة الاهتمام وغادروها الأهالي رغم اتساع شوارعها وفد عجزوا عن تحصين البلد وقلعتها فخرجوا وخلت المدينة من كل شيء ولم يبق من يدافع عنها"(7) وانقسمت قواتها الإسلامية إلى قسمين قسم يحاصر مدينة تونس (8) وقسم يهاجم حلق الوادي.

---

(1) –حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق – تح) الطاهر المعموري ...، المرجع السابق، ص184.

(2) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص231 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص177.

(3) –سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص146وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص200.

(4) – سي يوسف، محمد المرجع السابق، ص155 وأنظر أيضاً: حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص53.

(5) – إيفانوف نيقولاي، الفتح العثماني...، المرجع السابق، ص299وأيضاً: محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية...، المرجع السابق، ص183.

(6) – عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص251 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص78.

(7) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص233.

(8) –الباستيون: قلعة (برية بحرية) بناها الإسبان بجانب مدينة تونس. للمزيد أنظر: مغية الزيدي، موسوعة التاريخ الإسلامي–العهد العثماني، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان الأردن،2003م، ص245.

أولاً – انهزام الإسبان في حلق الوادي (جمادى الأولى 982هـ/أوت 1574م):

واصلت القوات العثمانية الإسلامية تقدمها إلى حصن حلق الواد؛ أخذين كل بَلدة يمرون بها، بعد تطهيرها من فلول الإسبان، ومستولين على غنائم منهم؛ حتى وصلوا إلى حصن حلق الواد فضرب الحصار عليه[1]، ولابن دينار قول في هذا:" وجدوا ولما وصلت العساكر إلى ديار الكفار فإذا نزلوا في بلدة قتلوا من فيها واخذوا المال حتى وصلوا إلى حصن حلق الوادي وكان الكفرة الملاعين من ارتد معهم محصنين به فشرع في بناء المتاريس وحاصروه في يوم 17 جويلية، بدأ قصفه من الجهتين [2] حيث كُلف أحمد باشا من طرف سنان باشا بفرض الحصار على حلق الوادي من جهة الجنوب ولابن أبي الضياف وصفاً في ذلك: "وبلغت العمارة مستقرها من حلق الوادي ونزلوا للبر بعد إطلاق المدافع ونصبوا أوتاقهم وبرز الأمر من الوزير أن يتقدم العسكر على إعادته، واخذ كل إنسان له صناعة، ويحفرون خنادق وينزلون إليها ويجعلون متاريس ويستترون من خلفها وهذا دأب العسكر العثماني في كل مكان ولم يزالوا على هذا الأسلوب إلى أن أحاطوا بالبرج من كل جهاته ورموه بالمدافع والمنجنيقات والبندقيات وأصنافا أخرى من آلات الحرب"[3]، وأشتد حصارهم لحلق الواد؛ حتى اضاقوا على من فيه من كل جهة وصوب وللسرّاج قولاً في هذا "وفي أثناء ذلك وصل أحمد باشا، انتصارا لله ثم لأمر الباشا سنان بما شاء، فأمره بالقتال من جهة جنوب حلق الوادي أعطاه مدافع تدهش من المشركين القلوب فبني المتاريس وجاهد في الله حق جهاد وألقى إلى طاعة أمر الله مقاليد قيادة"[4]، لقد قام القبودان علج علي بدور فعال بتحطيم القلعة حيث يقول الكولونيل هانيزوHanezo "ساهم علج علي كثيراً في تقدم الحصار فكان في كل مكان يوجه ويشجع الرجال بأقواله وأفعاله"[5] وقد التحق به 400 جندي إسباني كانوا متواجدين بمعسكر ميناء حلق الوادي [6] كان في مساعدة القبودان علج علي باشا، أحمد عرب رئيس الذي أبدى من جهته فعالية ليس فقط كونه قائداً وإنما كمقاتل كذلك حيث دخل غمار المعركة مثل الجندي العادي[7] وتولى الهجوم على حلق الوادي مع القبودان علج علي باشا وقد أبدى أحمد عراب فعالية قتالية جعلت صاحب كتاب "البشائر" يثني عليه بقوله:" أنه توجه إليها وبنى المتاريس فيها، وجاهد في الله حق جهاده وأقدم على قتال الكفار، وألقى إلى الحرب مقاليد قتاله"[8]

(1) –عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص38وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص176.

(2) –صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص194.

(3) –ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص25 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص199.

(4) –لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص178 وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص230.

(5)-De Grammont Henri, op .cit, p116.

(6)- Guy Terbet Delof : l'Afrique Barbarseque dans la littèrature Francaise aux XVI et XVII siècle, Droz, 1973, P141.

(7)-Haedo Diego, op, cit, p422.

(8) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص112 وأنظر أيضاً: حسين خوجة، بشائر أهل الإيمان...، مخطوط، المصدر السابق، ص 131.

بعـد أن تمت الاستعدادات الضرورية، بدأ القصف المدفعـي على القلعة يوم21 جويلية انطلاقاً من ساحل البحر مما أدى إلى تهديم أجزاء من أسوار القلعة وتقدمت القوات المحاصرة شيئاً فشيئاً إلى أن بلغتها، وللسرّاج إكمال وصفهِ في ذلك: "صار أرفع من الحصار الذي به الكفرة وكان ذلك(981/4/16هـ-1573/8/13) وصارت مدافع المسلمين تتصرف في الكفار الذين وسط القلعة وتحرقهم، بالنار وتسوقهم إلى جهنم وبئس القرار [1].

لقد استمرت أعمال الحصار لمـدة شهر، عثروا خلالها على نفق طويل محصن، بالقرب من المنطقة التي كانت متواجداً فيها سنان باشا، كان بداخلها الرجال والآلات الحربية، فتمكن هذا الأخير من شن هجوم عنيف في (2/5/ 982هـ-20/8/ 1574م) وفي صبيحة الاثنين 23 أوت سقطت قلعة حصن الوادي [2] ودخلها العسكر العثماني من كل جـهة وملكوا المدينة والقلعة [3] وقتـلوا معظم الجنود الإسبانيين[4] ونجـح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً[5]، ففر الإسبان الموجودة فيها ومعهم الملك الحفصي محمد إلى الباستيون، وباقتحام المسلمون القلعة عنوة وغنموا مَابها [6] وقتلوا كل من كان فيها ثأراً لآلاف الإنكشاريين والمغاربة الذين قتلوا على أسوارها أو تشوهوا، كما قتل قرب أسوار القلعة باي لارباي طرابلس الغرب مصطفى باشا [7] ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا 300شخص [8] كان بينهم بورتوكارير ووقعوا في الأسر [9] وذلك لطلب فديتهم بالأمـوال الكثيرة أو تبديلهم بالأسر المسلمين الموجودين في يد المسيحيين في مختلف أنحاء أوروبا [10] كما استولى العثمانيون على 200مدفع ثقيل وأكثر من 30 راية[11] وتفرغ الجيش بذلك لمدينة تونس ابتداء من 24 أوت ولما تفرغ سنان باشا من فتح حلق الواد توجه إلى تونس بالعساكر وحاصرها وتعلق بأطراف القلعة وتحمل الأذى هو والعسكر واستشهدوا الكثير منهم، واستمـــروا على ذلك إلى أن أخذوها وقتلوا الكفار زهاء 5 ألاف نفس [12] وحسب سرد المؤرخ التونسي السّراج:" 6/5/ 982هـ-1574/8/24م: العثمانيون يستولون على تونس من الإسبان بعد فتحهم لقلعة "حلق الواد" الحصينة، وقد

(1) -مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص61 وأيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص230.
(2) – De Grammont Henri, op .cit, p116.
(3) -محمد بن محمد السرّاج، المرجع السابق، ج2، ص232 وأنظر أيضا: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص300.
(4) – محمد العروسي المطوي ، السلطنة الحفصية...، المرجع السابق،ص174 وأنظر أيضاً : جون بول وولف، المرجع السابق، ص81.
(5) -محمد خيري فارس، دراسات في تاريخ...، المرجع السابق، ص51و: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية..، المرجع السابق، ص734.
(6) -سي يوسف، محمد المرجع السابق، ص157 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص286.
(7) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص230 وأيضاً: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، ص299.
(8) - Primaudaie(E), op, cite, P 367.
(9) – Guy Terbet Delof , op, cite P141.
(10) -محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص155 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص54.
(11) -إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص301 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص195.
(12) -صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص54.

قُتل في هذا الفتح 5000 جندي إسباني وإيطالي، وأسر 3 آلاف، وغنم العثمانيون 225 مدفعًا، ثم قام العثمانيون بتفجير القلعة حتى لايعود الإسبان إلى تونس مرة أخرى" (1) وأدبروا وتولوا لما رأوا أنهم قد ضلوا وخرجوا من تونس (2).

ثانيا – سقوط الدولة الحفصية وتحرير تونس (جمادي الثانية 982ه/سبتمبر1574م):

كان قائد الأسطول العثماني سنان باشا قد عهد إلى مصطفي باشا وحيدر باشا بالهجوم على تونس وأمدهم ب:1000 جندي (3) وأعطاهم 8 مدافع و8مدافع صغيرة (4) ودعهم بقوات إبراهيم بك من سنجق (5) مصر ومحمود بك سنجق قبرص وباي لارباي صاحب قره حصار وكان مع هؤلاء كذلك 2000 جندي (6).

حاصرت القوات العثمانية مدينة تونس، حيث يصف هذا بن أبي دينار بقوله: " وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم وناوشوها بالقتال من كل جهاتها"(7) وأثناء تقدمهم إليها واجهتهم الدفاعات الإسبانية التي كانت منتشرة خارج المدينة البالغ عددها 30000، التي مالبثت أن انهزمت وخسروا 200 رجل ومما زاد في نكستهم تخلّى بعض العرب الذين كانوا في خدمتهم عنهم في وقت الشّدة (8) فعند قدوم العثمانيين وقبل أن يهاجموا انضم إليهم كل فرسان والجنود الذين صحبهم الأمير مع مواشيهم وتركوه وحيداً معه 60 فارساً.

بعد أن شدد المسلمون الحصار على تونس، قامت الفرقة التي كانت تحتل برج الراهب بإخلائه (9) فاضطرت القوات الإسبانية بمعية السلطان أحمد (10) إلى ترك المدينة واللجوء على حصن الباستيون الذي كان محصنا بالأخشاب والرمال، بالإضافة إلى تزوده بالمدافع والطعام والماء ومايزيد عن 7000 مقاتل من نصارى ومرتدين من البادية المعتدين (11) وشحنوا هذا الحصار بالآلات الحربية والمدافع والذخائر وخلت المدينة من المشركين فدخلت القوات العثمانية مدينة تونس دون مقاومة (12) وهذا مايصفه السرّاج: "أرسل الأمراء

---

(1) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص232 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص113.

(2) –حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق – تح) الطاهر المعموري ...، المرجع السابق، ص187 وأنظر أيضاً: محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص227.

(3) –بينما جاء في التقرير سربيلوني 4000 جندي. Hess, A, op, cite, P27.

(4) – Guy Terbet Delof , op, cite,P141.

(5) –سنجق: استحدثت في العهد العثماني، تطلق على الموظف الذي يكون حاكماً على وحدة إدارية أصغر من الولاية، كما يطلق على الوحدة(سنجقيه) للمزيد أنظر: مصطفي عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، لبنان،1996م، ص65.

(6) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص227 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص179.

(7) –أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص83 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص211.

(8) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص155 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص196.

(9) - Primaudaie(E), op, cite, P 368.

(10) –بلغ تعداد قوات السلطان الحفصي من الإسبان والبدو 30000 لكن البدو خذلوه في ميدان المعركة بعد اليوم الأول. للمزيد أنظر: محمود السيد الدغيم، المرجع السابق، ص436.

(11) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص 228 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص181.

(12) –ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص24 وأنظر أيضاً: مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري ...، المرجع السابق، ص62.

الذين فتحوا تونس، يطلبون العون من سنان باشا لفتح الباستيون ويطلبون الإمداد والإغاثة ولما علم الوزير بعث لنصرتهم القبودان علج علي باشا وتوجه بالعساكر المنصورة ليكونا إعانة لمن تقدم قبلهم من عسكرهم".

ولما وصل إليه القبودان علج علي باشا ورأى حصانته طلب هو الآخر منه مددا جديداً فأوفد إليه حوالي 1000جندي بقيادة على أغا مجهزين بالمدافع وحاصروا الباستيون حصاراً محكماً؛ وقبيل بداية المعركة وصل سنان باشا ليطلع بنفسه على الوضعية وليشدّ أزرهم ثم عاد إلى حلق الوادي (1) وللمؤرخ ابن أبي الضياف وصفاً في ذلك:" وجهز معهم 14مدفعاً بين صغار وكبار وتوجهوا مع القبودان علج علي باشا وأحاطوا بالقلعة من جميع الجهات وضاق على أهلها الفرار والتوجهات، مع ماكانت عليه الكفرة من القوة بمن أن أنضاف إليهم من مرتدي البادية حتى أنهم كانوا يركبون ويغيرون ويهجمون إلى مكامن الإسلام وينالون ولم يزل إهاب المضيق في اتساع وعرى التوسع في انقطاع، إلى أن ورد عليهم الباشا سنان" (2).

وهذا ما يصفه السرّاج "فلما وصل الباشا علج علي إلى تونس وشهد تحصين الباستيون وكثرة النصارى والأعراب المرتدين ورآه حصنا منيعا وبعث إلى الوزير لطلب المدافع وزيادة العسكر، فلما وصلوا إليه اجتمع أمرهم أن يدوروا بالبرج من كل جهاته وكان الكفرة والمرتدين كثيرين، وخرجوا من قلعتهم مراراً ودهموا المسلمين وقتلوا والحرب متواصلة بين حلق الوادي وبين رجال من العسكر العثماني، وأمر الوزير توزيع طوائف العسكر من كل جهات قلعة الباستيون"(3)، وإثر سقوط حلق الوادي نهائياً وفي 10 أوت عزز باي لارباي الجزائر رمضان باشا ومعه 5000 رجل بالإضافة إلى عدد آخر من رجال القبائل الذين انضموا إليه في الطريق، وعند وصله اجتمع مع سنان باشا واتفقا على تشديد الحصار بقواته على القلعة التي توجد بالقرب من تونس المعروفة بالباستيون وذلك لتعزيز القوات المحاصرة لها منذ 17 جويلية (4)، وهذا مايصفه صاحب الأعلام: " وفي أثناء ذلك وصل رمضان باشا المتولي على مدينة الجزائر ومعه 3000مقاتل واجتمع مع الوزير سنان باشا وطلب منه تشريف خدمته فيما يأمره به من التوجه لمقاتلة الكفار فأمر بالتوجه إلى القلعة المحصورة قرب تونس المعبرة عنها بالباستيون فامتثل وأحاط بها من بعض جهاتها (5).

وبنوا المتاريس وحاصروها وكان الكفرة الملاعين من ارتد معهم إلى عربان تونس يخرجون من القلعة ويهاجمون المسلمين ويقتلونهم واستشهد من المسلمين الكثير فباشر مولانا الوزير إلى نقل الرمل إلى دائرة القلعة وجعل عليها المتاريس وصارت مدافع المسلمين موجه إلى قلعة الكفار وبدأت معركة جديدة معهم (6)، وفي 07

---

(1) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ج2، ص ص229-232 و: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص182.
(2) –ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص228.
(3) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص232.
(4) –ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص197 وأيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ج2، ص230
(5) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص 257 وأيضاً: حنيفي هيلالي، أوراق في تاريخ الجزائر ...، المرجع السابق، ص76.
(6) – Paul Sébacé، op .cit, P 159.

سبتمبر أعلن الدون خوان النمساوي عن نيته في التوجــه إلى تونس على رأس أسطول يتكون من 60 سفينة لنجدة المحاصرين المسيحيين، إلا أن مدريد لم تأذن له بتسيير الأسطول الإسباني إلا في 23 سبتمبر لكنه أدرك أن الأوان قد فات [1].

بعد سقوط حلق الوادي توجه سنان باشا مع جيشه بعد تجمع قواتهم إلى نحو قلعة الباستيون، بعد ماسبقه إليه القبودان علج علي باشا، فتوحدت القوات وشددت الحصار على الإسبان، الذي كان مرفوقاً بهجمات متواصلة ومكثفة [2] وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية[3] وهذا مايصفه السرّاج بقوله "ولما فرغ الوزير من أمور حلق الواد، توجه بعساكره المنصورة إلى حضرة تونس، ووجد عساكره السابقة محاصرين لقلعتها إلى أن فتحوا القلعة المنيعة وقتلوا المشركين من أرباب الدّروع ثلاثة ألاف وألقى الباقون من القلعة بأنفسهم وكانوا زهاء خمسة آلاف نفراً فالتفتوا إليهم بعد نهب القلعة واستئصال جميع الذخائر وألووا أشفار السيوف إلى رقاب الباقين وشرعوا فيهم ضرباً وجمع من اللباس والأسلحة والطّعام والذّخـائر مايخرج تقديره عن الحصر وتضييق المسلمين بهم أعجزهم عن إحكام القــلعة، فكانت غير مستوفاة ولو تنفس لهم الزمان حتى استوفوا إحكامهم لعسر فكّها من أيديهم" [4].

يذكر أن تلك الأيام، كانت من أقسى ماعانى الإسبان يقول في هذا الصدد: روفيينو Rouvino الذي ظل طيلة ذلك الوقت بين المحاصرين واصفا المشهد:" أظلمت السماء لغزارة الحجارة المنهالة علينا واحترقت من كثرة الأجسام الملتهبة "[5] لقد أمطر العثمانيون الإسبان بوابل من ألواح الخشب المشتعلة ونيران البنادق والأقواس فقُتل آلاف الجنود أو أحرق وهم أحياء وتحولت الأرض إلى مايشبه القنفد لكثرة السهام المنغرزة فيها [6] وهذا مايذكره السرّاج بقوله " واستمر الوزير على مقاتلة حلق الواد واستنجد المسلمون ببعضهم بعضا وصار شديد الكفر لايطيق نهضا واختلجوا أفئدة ونبضا والتصقوا من هول التهويل أرضا، حتى صــارت حركتهم تعتبر تقديراً وفرضــاً ولم يجـدوا في صدورهم حاجة إلاّ على من أتى بهم حنقاً وبغضاً" [7].

وللمؤرخ التونسي ابن أبي الضياف وصفاً في ذلك:" وألقوا في الخندق الصوف وخطوه بالحطب والتراب والاخشاب، واهتم العسكر بنقل التراب وحمل الرجال من التراب مالا تحمله الجبال وكانت للعساكر نية صالحة ولما امتلاك الخندق بالتراب بنو المتاريس فوقه وصار المكان أعلى من حيطان الحصار، ونصب الوزير

---

(1) –Braudel Fernand, La Mèditerranèe …, op .cit, t2, p97.

(2) –حسن محمد جوهر، المرجع السابق، صص56–57 وأنظر أيضاً: إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص301

(3) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص401 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص82.

(4) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، صص233–234.

(5) – Paul Sebag, op .cit, P228.

(6) – إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان العربية، المرجع السابق، ص 302 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص183.

(7) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص231.

مدافعه فوق الحصار ورمى من كان به من أفواهها النار"[1]، وباشر الوزير سنان باشا الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في الباستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ماهذا أيها الوزير؟ نحن إلى رَأيك أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لاتحرمني من الثواب [2]، وفي يوم الإثنين 13 سبتمبر شن المسلمون هجوماً استهلوه بزرع الألغام تحت أبراج القلعة وبعد تفجيرها كان من السهل اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بصفة نهائية [3] ودخلوا القلعة والقصر بنيتهم وهذا مايثبته المؤرخ السرّاج بقوله "وكان من عظيم منّه الله سبحانه أن أثار بقلب الوزير حميّة إسلامية وغيرة إيمانية وتبعته الجنود بالتهليل والتّكبير وأحاطوا بالقلعة من جهاتها الثلاث واستمر 43 يوماً من الحصار وشدد سنان باشا في حصاره على الباستيون"[4]؛ وفتحوها عنوة بالسيف وضعوا السيف في رقاب من وجدوه من الكفار والمرتدين؛ ولم ينج أحداً من أفراد الحاميات الإسبانية من القتل أو الأسر[5]، واستولوا المسلمون على نفائسها المدّخرة وأخذوها غنائم [6] واستولوا على الأسلحة ومعدات أخرى[7] وأخبرنا المؤرخ السرّاج أن الذهب الذي نهبته العساكر ليس له حصر، أسر قبودان النصارى صاحب البرج والحاكم عليه ومر السيف على من وجدوه من النصارى وللوزير السرّاج حكمة في ذلك" كانت هذه القلعة من أحكم القلاع التي استنبطها الكفر وساستها وبني على الإتقان أساسها ومكثت الكفار في إحكام بنائها وفتحها الله بعد محاصرتها" [8]

وبانتهاء محمد الحسن انقرضت دولة بن ابي حفص [9] وألقي القبض على القائد الكونت غابرو سربيلوني وعدد من رجاله كما قتل ابنه بطلقة نارية أصابته في رأسه وسقطت من جهة أخرى قلعة شيكلي وأُسر قائدها دي زاموقيرا [10] وبسقوط هذه القلعة، قضي على الوجود الإسباني بتونس بصفة نهائية ووضع حد للدولة الحفصية وعين سنان باشا حيدر حاكماً عليها [11] واعتقلوا الحسن الحفصي، وبذلك تنتهي سيادة

(1) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص25، وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص196.
(2) –لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص184وأنظر أيضاً: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص401.
(3) –صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج3، ص82.
(4) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص401وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج، المرجع السابق، ص231.
(5) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص25 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص196.وأيضاً:
(6) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص232 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص183.
(7) - Poinssot et Lantier ,Op.cit, P29.
(8) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص233.
(9) –حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص54 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 178.
(10) - Poinssot et Lantier , op, cit, p29.
(11) – Robert Mautran, L'evolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottomane de 16é au 19é siècle,t7,le cahier de Tunisie,1936 ,p.321.

الدولة الحفصية يوم 25 /981/5-1574م [1] وتمّ إرسال القـادة الأسر الثلاثة (سربيلوني، دي زاموقيرا وبورتوكاريرو) والسلطـان الحفصي مقيّـدين إلى إستانبول [2] وتـوفي هذا الأخير في معتقله في إستانبول [3].

انتهت المعركة وتخلى الإسبان عن أطماعهم في تونس نهائياً منذ هذا التاريخ [4] ونجحت الحملة بعد جهد كبير في تحرير تونس تحريراً كاملاً [5] من القواعد الإسبانية في حلق الوادي ومدينة تونس نفسها [6] وكان الباستيون أقوى ضرراً على أهل تونس من غيره لأنهم أرادوا أن يبنوا حصاراً ومدينة وكان أخذه بعد حلق الوادي بـ 7 ايام وقيل 15 يوماً ودخلها عسكر الإسلام المنصور من غير مانع، وأحكموا تحصينها وأجروا قواعدها الشرعية وأوقفوا قوانين الإسبان [7]، ومن الحكم الصوري لمحمد الحفصي فيها وذلك كله في صيف عام 1574 [8] وللوزير السرّاج قولاً في ذلك " وكان الحصار أعظم ماشيد فوق هذه الأرض، رسمت معالمه عام 937هـ ومكثوا في تحصينه 43 سنة ولم يبقوا يوم بلا تحصين، وأخذ في 43 يوماً عدد ماملكوه من السنين فكان كل يوم فتح يقابل ماملكوه في سنة [9].

تكبد الجانبين خسائر معتبرة، فالإسبان وحدهم خسر 8000إذا مأغفلنا العدد الكبير من أنصار السلطان الحفصي محمد، أما الجيوش العثماني ومعها المتطوعين المسلمة من التونسيين والطرابلسيين والجزائريين فقد استشهد منهم 10000 في حربهم مع الإسبان [10] وهكذا ظلت تونس في نـزاع بين الطرفـين إلى أن تستقر نهائياً في أيدي العثمانيين [11] وقد كان بطل التحرير والاسترداد الإسلامي الوزير العثماني سنان باشا الذي خلدت انتصاراته في معارك تونس وحلق الوادي، وكتب له أن يُعد من أبرز المجاهدين في عصره [12] بعد جهد جهيد تمكن الوزير سنان باشا من تحرير تونس من الوجود الاسباني وتم أسر الأمير محمد بن الحسن وحمل إلى تركيا وتم زوال الدولة الحفصية في نفس السنة وعلى الرغم من أنهم استنجدوا بالنصارى من الإسبان ومكنوهم من البلاد ومن رقاب العباد، فقد شاء القدر أن تسقط دولتهم ويطرد حماتهم الإسبان وتبقى وصمة

---

(1) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص174و: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص39.

(2) –محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص157 وأنظر أيضاً: عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص 678.

(3) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص25 وأنظر أيضاً: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص199.

(4) –صالح عباد، المرجع السابق، ص 96 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص84.

(5) – F .Bredei, La méditerranée et le monde méditerréen à l'époque de : Philippe ll, t.2, 1936, PP .395-396.

(6) – نيكولاي إبليتش بروشين، المرجع السابق، ص40 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص593.

(7) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص229 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص184.

(8) – أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص401 وأنظر أيضاً: صالح عباد، المرجع السابق، ص 96.

(9) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص231.

(10) –نيكولاي إبليتش بروشين، المرجع السابق، ص40 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص129.

(11) –أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، المرجع السابق، ص81وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص87.

(12) –محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص115وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص4.

الخزي والعار في وجه الحفصيين الأواخر [1] وهكذا قضي على وجود الدولة الحفصية وعلى الوجود الإسباني في تونس وكانت كذلك نهاية "العصور الوسطى" في تلك الأصقاع [2] وللسرّاج قولاً في هذا " وكان ابتداؤها سنة603هـ وانقضت سنة981هـ فكانت مدّة بني حفص378 سنة كان في981/5/6-/1574/9/3 الفتح السعيد [3] ولصاحب الأعلام نظرة في هذا: "وأرسل الوزير بشائر الفتح المتوالي إلى الباب العالي وعمّم به سائر بلاد الإسلام، بنصر الله ويدعو بتخليد المملكة العثمانية على الدوام "[4].

لقد أثار استرجاع تونس موجة عارمة من الابتهاج في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حيث قال الصدر الأعظم محمد باشا صوقلو لسفير البندقية بفرح " حلقتم ذقننا في ليبانت، فقطعنا يدكم في تونس، الذقن ينبت غيرها، أما اليد فلا ينبت غيرها آبدا" [5].

2 –عثمنة تونس:

أصبحت تونس تحمل الراية العثمانية وقد عين سنان باشا حيدر باشا حاكماً مسؤولاً عليها، كلفه بإقامة حكم ونظام عثماني مثل الجزائر [6] وأمره تحطيم باقي الحصون والمنشأة الإسبانية حتى يندثر التهديد الإسباني [7] وخاصة قلعة حلق الوادي، حتى لايتمكن الإسبان منها مرة أخرى، لأن المتحكم فيها يسهل عليه التحكم في تونس كما حدث في السابق، كما أمر سنان باشا بانتزاع أحجارها حتى أساسها بعد نسف القلعة عن آخرها [8] ولصاحب الأعلام قولاً في هذا: "ولما حصل، مراد المسلمين في بلوغ الآمال بإعلاء كلمة الله سبحانه رأى الوزير سنان، أن ترميمها وإقامتها على أصولها من الأمور التي يكون عملها سدًى لبعدها عن طرف مملكة السلطنة العثمانية، وربما أن النصارى تقع لهم لفتة ويظفرون بها والعياذ بالله، إذ الحروب سجال فيعسر تخليصها من أيديهم، فكان من سعد رأيه أن أبقى هذا الرّبع الموجود وأهمل ذلك المهدود وكل ماكان صحيح البناء عدا هذا البرج القديم فإنه هدمه كان بإذن الوزير ولم يبق من عينها إلاّ أثر ولا من وجودها إلا خبرا، حتى صارت قلعة الضلال، طللا من الأطلال، ولم يبق فيها أنس..." [9].

وخلافاً للمرات السابقة فإن الإسبان في عهد فيليب الثاني، لم يحاولوا انتزاع تونس من العثمانيين فخلص أمرها لهؤلاء وأصبحت ملحقة بالجزائر إلى غاية سنة 1587م، عندها أصبحت تابعة مباشرة للباب

---

(1) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص ص9-26 وأيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص185.

(2) –حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص56 وأيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص89.

(3) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص ص216-232.

(4) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص258 وأيضا: محمد بن محمد السرّاج، المرجع السابق، صص232-233.

(5) - De Grammont Henri, op .cit, p117.

(6) – حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق – تح) الطاهر المعموري ...، المرجع السابق، صص 87-88.

(7) – عبد الجليل التميمي، الولايات العربية ...، المرجع السابق، ص106 و: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص289.

(8) –محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج باشا، دار الأمل، الجزائر، 2009م، ص157.

(9) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص 258 و: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي التونسي، المرجع السابق، ص232.

العالي كأيالة [1] وجعلوا منها باشاوية تابعة للدولة العثمانية [2] ولم تقم بعد هذه المرة قائمة للحفصيين في تونس.

صادف في هذه الفترة أن توفي مصطفى باشا باي لارباي طرابلس الغرب، فاتخذت الدولة العثمانية قراراً إدارياً بدمج هذه الأيالة مع إيالة تونس، لتكون الأيالتان في عهدة حيدر باشا [3].

أولاً – المحاولات الحفصية لاسترجاع تونس:

لم يعمل الملك فليب على استرجاع تونس بعد ذلك لكثرة مشاكلها وصرف النظر عن ساحل شمال إفريقيا واهتم بمستعمراته من جهات أخرى وتمّ استبدال الأسرى المسحيين بالأسرى المسلمين في مختلف أنحاء أوروبا، أما باقي أفراد الأسرة الحفصية فقد التجئوا إلى جزيرة صقلية وكان أحمد الحفصي يبعث الرسائل للملك فليب الثاني يطلب منه المساعدة وقد كان إمضاؤه في إحدى الرسائل كالتالي: "خادم سيادتكم أبو العباس أحمد بن السلطان أبو عبد الله محمد"[4] وبعث أحمد الحفصي رسالة أخرى للملك فليب الثاني في (986هـ/1578م) يطلب استعادة كل القطر التونسي وذلك بأن تُجهز له حملة يشرف عليها بنفسه، لكن لم تكن أحسن من سابقتها[5].

لكن المحاولات الإسبانية والأوربية العديدة، لم تتوقف للقيام بحملات عسكرية مزدوجة كما كان الشأن سنة(984هـ/1576م) ضد العثمانيين في تونس، حيث أُعدّ أسطول متكون من 35وأنضمت لهم 5 أخرى، قام بالرسوّ في جزيرة قرقنة "وهناك قام بإنزال الجيش وهجموا على أهالي الجزيرة، الذين رغم مقاومتهم لم يتمكنوا من ردّ تلك الحملة ...وقاموا بأسر حوالي 300مسلم واحرقت القرى والمحاصيل مما اضطرّ أهل الجزيرة إلى الفرار"[6] وقد تمت محاولات الهجوم هذه بمساعدة المتعاونين التونسيين بقيادة أحمد الحفصي، وهم الذين لم ينجحوا في تغيير الوضعية القائمة [7]، ومع هذا عزم السلطان أحمد على النزول في الشواطئ التونسية مع أتباعه مرة أخرى، بعدما تحقق أن مالطا سوف تقدم له العون والمساعدة اللازمة لتحقيق هذا التمرد والاستلاء مرة أخرى على تونس [8] وقد كان له ذلك سنة(989هـ/1581م) حيث دخل القيروان ثم توجه نحو العاصمة وهو يقود 40000 بين فارس وراجل، ولكن الحاكم العثماني لتونس كان لهم بالمرصاد وقضى

(1) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 27: حول أيالة تونس في القرن 16م.

(2) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص200 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص185.

(3) – فاضل بيات، المرجع السابق، ص581 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص130.

(4) – محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص197 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص186.

(5) – شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص381 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص117.

(6) – عبد الجليل التميمي، عثمنة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفتري (1559 – 1595م)، ع 121، (م، ت، م)، تونس، 2006، ص62 وأنظر أيضاً: محمد قوجة، المرجع السابق، ص68.

(7) –محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج باشا، المرجع السابق، ص157 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص147.

(8) –حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص58 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص85.

عليهم في منطقة تقع بين قصور الساف والجم، فرجع هارباً بعد أنّ سلب ونهب من قبل أتباعه وبذلك انقضى لآخر أمل للحفصيين (1).

اقتنع حيدر باشا بأن التحصينات والقوات الموجودة في تونس ليست كافية لدرء الأخطار الخارجية عنها ففكر في تعزيز استحكامات تونس وبنزرت(2)، إلا لم يكن يمتلك الأموال الكافية لذلك، فقام بالتحول شخصياً إلى إستانبول سنة((984هـ/1576م) للفت انتباه الدولة (3) كما أعلم الحكومة بوضع الأيالة وحاجتها إلى الأموال لإعداد قوات كافية، ولأجل ذلك طلب إلحاق القيروان والمنستير بتونس، فلبّي الديوان الهمايوني طلبه وتمّ إلحاقهما بتونس (4) أما القيروان فقد كان يحكمها الشيخ عبد الصمد الذي خضع للدولة العثمانية سنة (944هـ/1586م)، وسلّم قلعتها ومايملك من أراض إلى باشا تونس (5).

ثانيا: وضع أسس النظام العثماني في تونس وإلحاقها بالجزائر.

ولكن هذه المرة كان الرد عنيفاً من طرف الدولة العثمانية وحلفاءهم المغاربة وعلى رأسهم الجزائر عن طريق توجيه ضربة قاضية إلى الوجود الاسباني وعملائهم الأمراء الحفصيين الأواخر وانهاء هذا الصراع بينهما وطردهم نهائياً؛ بعد الانتصار عليهم، والقضاء على كل آمال العودة إليها.

وبعد كل هذه الانتصارات التي حققها الجيش العثماني، قام سنان باشا بإلحاق كامل البلاد التونسية مباشرة بالدولة العثمانية سنة 1574م وبذلك أصبحت جزء لايتجزأ من مملكة آل عثمان (6) وكل هذه الأحداث المهمة ستنعكس على القطر التونسي من جميع النواحي (7) ويقول السرّاج في هذا "وعاد سيف الوزير غانماً وعادت العساكر الإسلامية منتصرة؛ وجهزت البشائر إلى الأبواب والأعتاب المنيعة العثمانية" (8) إذ عمل السلطان سليم الثاني على تخليص تونس من هيمنة الإسبان بقيادة الوزير سنان وعلج علي باشا بفتح تونس سنة(982هـ/1574م) وأصبحت عثمانية وغنموا كثيراً ونشروا الأخبار وسادة الفرح عامة بلاد الإسلام (9).

---

(1) –محمد الهادي العامري، المرجع السابق، صص 198 –199 وأنظر أيضاً: محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر...، المرجع السابق، ص159

(2) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم 28: حول المدن والمناطق الرئيسية التونسية.

(3) –عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص63 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص295.

(4) –فاضل بيات، المرجع السابق، ص 581– 583 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في...، المرجع السابق، ص89.

(5) – محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص737 وأنظر أيضاً: علي الشابي، المرجع السابق، ص 129.

(6) –عمار بن خروف، "نظرة عن العلاقات السياسية بين..."، المرجع السابق، ص23وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص59.

(7) –محمد بن أحمد النهرواني الحنفي، المرجع السابق، ص260، وأنظر أيضا: حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق – تح) الطاهر المعموري...، المرجع السابق، ص186 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص39.

(8) –محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص234.

(9) –أحمد راسم، عثمائلي تاريخي، تركيا، (1326–1328هـ)، ص78 وأيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص86.

فقد ضبطت حدودها تونس الجغرافية [1]، قبل أن يغادرها الوزير سنان باشا، فقد أخذ يرسى النظام الذي سيقوم على أسسه الحكم فيها، حيث هيأ خططاً تعمل تحت نظر الحكومة العثمانية[2]، ونظم أمورها حيث يدير شؤون البلاد ويباشر سياستها بلقب باشا [3] يوليه خليفة المسلمين لمدة معينة [4] و مفوض تفويضاً مطلقاً في البلاد، وذلك بمقتضى عُرف جرت عليه الدولة العثمانية فيما يتعلق بإدارة ولاياتها البعيدة [5] وقد وقع اختيار سنان باشا لشغل هذا المنصب على حيدر باشا عامل القيروان [6] وقام سنان باشا بتنظيم ادارة تونس تحت إمرة حيدر باشا ويساعده كل من الداي كأمير على العسكر والباي لضبط الجباية[7] وفي المؤنس مالخص معناه "إنهم جعلوا دار الخلافة هي المعبر عنها اليوم بدار الباشا وكذلك الديـوان كان بالقصبة وجعلوا قوانـين في اللباس يميزون بها مراتبهم وشهرتها في العيان[8] تغني عن البيان وحذوا على أسلوب ديوان الجزائر أولاً وأمّا التّصرف في أحكام المدينة لباشا الوقت وأمر العسكر تحت نظرة أغّاتهم وخطبوا للسلطان العثماني وضربوا اسمه على الدرهم والدينار والحكم العام في البلاد للباشا وحكم الأوطان للباي"[9].

والملاحظ أن هذه المقاطعة الجديدة كانت تتميز إدارياً عن جارتيها ولايتي الجزائر وطرابلس وأنها كانت منذ ذلك الحين مؤهلة لأن تسلك سبيلها الخاص في التطور وتصبح كياناً سياسياً تونسياً [10] أما في ذلك الحين فإن المقاطعة كانت تسمى رسمياً وجقاً أوسنجقاً وهو مايؤكد طابعها العسكري، فقد ترك القائد العثماني سنان باشا بتونس تحت تصرف الوالي أربعة آلاف مقاتل من الانكشاريين [11] الذين كانوا

(1) –محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص94. وأنظر أيضاً: حنيفي هيلالي، أوراق في تاريخ الجزائر ...، المرجع السابق، ص45

(2) –رشاد الامام، سياسة حمودة باشا في تونس(1782–1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس،1980م، ص48، وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص68.

Taoufik Bachrouch,Formation Sociale Barbaresque et Pouvoir à Tunis au XVIIe Siecle,pUblications De l'Universite de Tunis,1977,p,54.

(3) – الباشا: بمعنى الرأس، كان يمنح لكبار ضباط الجيش والبحرية، ثم أطلق على الوزراء ومع توسيع الدولة العثمانية أصبح يمنح أيضاً لكبار رجال الدولة للمزيد أنظر: عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص65.

(4) – رشاد الإمام، المرجع السابق ص47 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص594.

(5) – محمد الخامس بيرم، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القطر التونسي، تح. علي بن الطاهر الشنوقي، عبد الحفيظ منصور، رياض المرزوقي، ط1، مج 1، بيت الحكمة، تونس،1986م، ص133.

(6) –Robert Mautran, op, cit p321.

(7) –أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص 31 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص119.

(8) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم29: حول أهم رموز السيادة والهيمنة والقوة العثمانية في القرن 16م.

(9) –ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص33.

(10) – محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص68 وأنظر أيضاً: عبد القادر فكاير، المرجع السابق، ص298.

(11) –الإنكشارية: هم من أوائل نُخبة الجنود العثمانيين، كانوا في الأصل يجلبون وهم صغار من النصارى وغيرهم يعتنقون الدين الإسلامي ثم يربون ويدربون تدريباً خاصا ويكون منهم جيش جديد قوي (باللغة العثمانية، يني جري " يكي جري") ومنها لفظ الإنكشارية أو الينجرية. للمزيد أنظر: مرادجة دوسون، نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، تع. فيصل الشيخ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة بيروت الأمريكية لبنان، 1942م.صص138–139.

يعدون عمود النظام وبالتالي المستفيد الرسمي منه إذ كانت تقع على عاتقهم مهمة أساسية تتمثل في حماية البلد من كل عدوان خارجي[1] وقد تم تقسيم عسكر الانكشارية إلى أربعين قسماً على كل مائة أمير بلقب داي[2] فانتخب أربعون داياً من صناديد الغزاة المجاهدين[3] ثم أسند نظر هذا العسكر إلى الأغا[4] أما استخلاص الجباية فقد أسند إلى أمير لواء بلقب باي [5] وقد تم تعيين رمضان باشا لهذه المهمة[6] وعهدت الشؤون البحرية للولاية إلى قبودان رئيس [7] كما تم تعيين قاض لإجراء الأحكام الشرعية بين الناس حيث أوكل ذلك إلى العلامة حسين أفندي [8] ويقول المؤرخ السرّاج في هذا الصدد "ورتب الوزير سنان باشا قوانين صارت من بعد ثابتة الرسوم دار سلطانه بالديار الرومية فضبطوا ملك تونس ودعمت قواعدهم وكذلك الديوان كان يوسم بها وجعلوا قوانين يتميزون بها وحذوا في أول أمرهم في الأحكام حذو ديوان الجزائر " [9].

قبل مغادرة سنان باشا لتونس أنشأ ديوانا يجتمع فيه هؤلاء المسؤولون لتدبير شؤون الولاية، وفصل قضايا العسكر وغيرها، جريا على الترتيب العثماني في مُعظم الولايات [10]، كما تم انتخاب بعض أعيان البلاد ليحضروا الديوان ويشاركوهم، وذلك تألفاً لقلوبهم [11] بالإضافة إلى ذلك أصبحت تُلقى خطب صلاة الجمعة باسم السلطان العثماني كما صُكت العملة باسمه[12] وعاد الوزير سنان والقبودان داريا علج علي لمقر الخلافة بعد أن وضعوا الأسس القاعدية لتنظيم هذا البلد وللمؤرخ السرّاج في هذا الصدد قولاً "وأحمد باشا صاحب الجزائر ورمضان باشا كان متوليا عليها ولما تم له هذا الفتح أنعم على كافة الركاب والزعماء والأكابر وبذل

---

(1) -محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص68 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص39.

(2) – داي: كلمة تركية تعني الخال، أطلقت في العهد العثماني على رتبة عسكرية حملها رؤساء الأجناد من الإنكشارية الذين اشتركوا في فتح شمال إفريقيا ثم مالبثت هذه الطائفة أن استولت على سلطة الوالي العثماني. للمزيد أنظر: عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص175.

(3) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص105 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص112.

(4) – أغا: تعني في التركية، الأخ الأكبر، رئيس الخدم ويطلق اللفظ أيضاً على بعض الرتب العسكرية والمدنية، ومنها " يكيجري أغاسى" التي تعني قائد الإنكشارية، للمزيد أنظر: J.J.Marcele : Histoire de Tunis, Prècèdèe d'une description de: cette règence par le docteur Louis Frank, didot frères, Paris1885, p119.

(5) – باي: لقب وظيفي من العهد العثماني، تلقب به حكام تونس العثمانيون، استحدث هذا اللقب أيام باشا في القرن 16، في إطار الترتيب العسكري وأول من حكم تونس من البايات رمضان باي. للمزيد أنظر: عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص68.

(6) – حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، (تق – تح) الطاهر المعموري...، المرجع السابق، ص27.

(7) – حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة...، المرجع السابق، ص133 و: أحمد إسماعيل الياغي، العالم...، المرجع السابق، ص96.

(8) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص105 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية في...، المرجع السابق، ص117.

(9) -محمد بن محمد السرّاج الأندلسي الوزير التونسي، المرجع السابق، ص234.

(10) –D .de la Malle, Peyssonnel et Desfontontaines, Voyages dans les règences de Tunis et d'Alger ,2vols, Paris Librairie, 1883, Paris, p56.

(11) – أحمد ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص31 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص186.

(12) – رشاد الإمام، المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص739.

إحسان للعساكر نعم على كل صاحب مرتبة وعرض ذلك على الباب العالي؛ فبلغ لكل أحد حقه ومهد البلاد وأمتن العباد وترك في تونس من العساكر العثماني دارا من الديار"[1].

فلم لم تكن عملية استعادة تونس مهمة الدولة العثمانية فحسب بل كانت مهمة أيالة الجزائر بكاملها لما تكسبه تونس من أهمية واستراتيجية كبيرة في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للمتوسط.

وأتم إنشاء تونس الأيالة العثمانية الثالثة [2] وأقام عليها واليا باشا ثم افرده بإيالة مستقلة ابتداء من عام 1587 وأرسلت الأستانة إلى تونس قوة إنكشارية قوامها 4000 رجل وأنشئ في البلاد ديوان وكانت السلطة الحقيقية في يد الديوان وكان يرأسه أحد الدايات وبهذا بدأ العصر العثماني في تونس، وأصبحت تونس إيالة عثمانية، وسيطرت الحكومة العثمانية المحلية بالقوة البحرية وأقامت مراكز الجهاد كثيرة في سواحلها.

واستمر الوضع في تونس على هذه الحال حتى سنة 999هـ/1590م، حيث تمرّد صغار الجند الإنكشارية على رؤسائهم البولكباشية، وفتكوا بالكثير منهم بسبب جُورهم، وكانت نتيجة تلك الثورة أن انعقد مجلس ضمّ الباشا والباي [3]، والأربعين دايا، وانتخبوا من بينهم أحد الدايات لتولي مهام رئيس الدولة حيث عهد إليه بالنظر في شؤون المدينة وعساكرها، ولم يعد الباشا يشغل سوى المرتبة الثانية ولم يعد الديوان يتصرف في العساكر إلا بمشورة الداي المتولي [4].

واعتبرت تونس باكوية تابعة إلى الجزائر حتى قامت حاميتها في 1590م بالانفصال عن الجزائر وحاولت أن تقلد أوجاق الجزائر، وقاموا بتنصيب أحد رجال العسكريين منهم كحاكم لقبوه باسم الداي ووافقت عليه الخلافة العثمانية منذ 1590م، تم ببداية انتخاب إبراهيم رودلسي ليكون أول داي على تونس، وقد استمر في وظيفته ثلاث سنوات لكنه لم يرجع إلى تونس بعد أدائه لفريضة الحج، تولى بعده موسى داي سنة (1001هـ/1592م)، وقد حاول هذا الأخير التفرد بالحكم، فلن يتم له ذلك [5]

كما قسمت تونس إلى باكوات، وضمت 60 قائداً يساعدهم شيوخ، وكان القائد في مقاطعته بمثابة الباي إذ كان والياً وقاضياً في نفس الوقت ومسؤولين عن الإدارة وجمع مبالغ مالية معينة من الضرائب[6] ويتم تعينهم مقابل لزمة يدفعونها إلى الباي لحصول على امتياز جمع الجزية والضرائب المفروضة على سكان المناطق التي يحكمونها[7] وتركت القبائل تحت حكم شيوخها فالقبائل القاطنة في السهول كانت خاضعة تدفع الضرائب في حين المتحصنة بالجبال كانت ممتنعة عن دفع الضريبة كالخمير ووسلاتة وأيضا هناك قبائل

---

(1) –لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص187وأنظر أيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص234.

(2) –للمزيد – أنظر: الملحق رقم30: حول خريطة لتونس بواسطة القمر الصناعي.

(3) –أحمد باشا جودت، وقـايع دولة عليـهء عثمانيـة، (1188-1191هـ/1774م -1777م)، إستانبول، تركيا، (د –ت)، ص148.

(4) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص106 وأنظر أيضاً: حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص67.

(5) – ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص225 وأنظر أيضاً: لحسن قرود وسَلمان توفيق، المرجع السابق، ص188.

(6) – أحمد ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج2، ص34 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية...، المرجع السابق، ص123.

(7) – رشاد الإمام، المرجع السابق، ص49 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص119.

تتقاضى من السلطة الحاكمة بتـونس حتى تبقى الطرق أمنة فلعب شيخ القبيلة دوراً هاماً في ذلك[1] وإذا كُثرت الشاكية عن أي قائد أو شيخ قبيلة فان الباي يعمد مباشرة إلى خلعه [2].

وفي تونس كذلك نلاحظ استقرار نظام الالتزام واهتمام الدولة به كعصب أساسي لاستمرار الادارة العسكرية دون النظر إلى وسائل الانتاج، في ظل هذا الوضع.

ولكن سرعان مازادت سلطة البكوات وسيطروا على نظام الحكم وتولوا السلطة باسم الباي أي دخول تونس عهداً جديداً، سمي بالعهد المرادي حيث أصبح الحكم في تونس وراثياً، وانحصر في البيت المرادي، وبذلك قضى البايات على حكم الدايات وذلك مع بداية القرن السابع عشر [3]كما أنهم لم يهتموا بالجهاد البحري [4] وهذا ماجعل تونس في عهدهم كمركز تجاري هام، تأتي إليه القوافل محملة بالمنتجات الإفريقية السوداء وتقوم بتوزيعها على التجار الأجانب، كما أن تونس حلقة اتصال هامة تقع على طريق القوافل الموصلة بين أقاليم المغرب الأقصى والجزائر من جهة ومصر والحجاز والشام من جهة اخرى [5].

خلاصة الفصل الثالث

1 –النتائج السياسية والعسكرية:

–لم تغير حملة شارلكان على تونس معايير القوى القديمة، لأن الموانئ الحفصية التي أضحت تحت السيطرة الإسبانية عادت إلى قلب الضغوطات العسكرية المتصاعدة التي تريد السيطرة على موانئ المغرب الإسلامي وضعف الحفصيين بين احترام مبدأ الموالاة للإمبراطورية المسيحية، والانتماء الحفصي الإسلامي.

–وإن خلفاء خير الدين بربروس كان انشغالهم التصدي للحملات الإسبانية على مدينة الجزائر في سنة 1541م وعلى مدينة مستغانم في سنوات1543م،1547م،1558م وغيرها من المدن [6].

– كان الأمراء المتصارعون على العرش الزياني كثيرا مايلجئون إلى الأتراك طالبين دعمهم في صراعهم على العرش ضد خصومهم ومنافسيهم وكانت سياسة الأتراك في هذه المرحلة تقوم على دعم أحد أطراف بغية استمالتهم ليكون حليفا أو تابعا لهم [7] فيمدوه بما يحتاج إليه من رجال وعتاد على شرط أن يقرأ الخطبة باسم السلطان العثماني سليم وأن يضرب العملة باسمه [8].

---

(1) –أحمد باشا جودت، المرجع السابق، ص149 وأنظر أيضاً: حسن محمد الجوهر، المرجع السابق، ص71.

(2) – روسو ألفون، المرجع السابق، ص107 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص597.

(3) – ابراهيم سعيود، الأسرى المغاربة ...، المرجع السابق، ص93 و: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في...، المرجع السابق، ص107.

(4) –يحي جلال، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، صص 54–55 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص61.

(5) –أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنه...، المرجع السابق، ص82 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص86.

(6) -P.Ruff,La domination espagnole à Oran sous le Gouvernement du Comte d'Alcaudette(1534 -1558),Paris,1900,P93

(7) –عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب المرجع السابق، ص 64 و: الأمير سعيد الجزائري، المرجع السابق، ص 96.

(8) –محمد درّاج، المرجع السابق، ص346 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص95.

–زيادة على التوحيد الذي قام به صالح رئيس من لم شمل المناطق الجنوبية الأغواط–تقرت–واد سوف أي موحد الجنوب الجزائري بشماله وإخضاعه للسلطة المركزية في الجزائر سنة 1555م؛ وفي نفس السنة القضاء النهائي على الدولة الزيانية في تلمسان سنة1555م الذين كانت لهم اليد الطولى في إثارة الكثير من هذه الثورات بإيعاز من حلفائهم الإسبان الذين لم يفتئؤوا يحلمون بالعودة إلى الجزائر [1] وضمت إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي وكذلك تحرير المواقع المحتلة من طرف الإسبان كبجاية في 1555م [2].

–استعد صالح رئيس لفتح وهران، وضم أسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو 70 سفينة، واجتمع لديه 40000 جندي، وكان ينوي من اتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه، ولكنه توفي بالطاعون في شهر رجب 963هـ/1556م عن عمر70 سنة [3]وخلفه الحسن بن خير الدين سنة 1556م والذي وضع حداً للأطماع المغربية في منطقة الغرب الجزائري.

– لم يرضى البحارة العثمانيون الغيورون على دينهم بما آلت إليه أوضاع إخوانهم التونسيين نتيجة الاحتلال الإسباني ومن بين الرياس الأكفاء الذين حملوا على عاتقهم مهمة تحرير السواحل التونسية الشرقية والجنوبية من السيطرة الإسبانية[4] درغوث رئيس بفضل حنكته استطاع أن يستولى لحسابه الخاص على المهدية وجعلها قاعدة لأعمال القرصنة إلا أن الإسبان استولوا عليها سنة 1550.

– لم تعترف إسبانيا بضم الجزائر إلى الدولة العثمانية وبالتالي فإن الحرب لم تضع أوزارها بل اتخذت طابعا أكثر عنفاً في البحر، وحاولت إسبانيا اجتياح الجزائر أكثر من مرة لاستعادة مافقدته وأنزلت في عام 1551م قوات على الساحل إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها وكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية قام بها الإسبان لاستعادة الجزائر؛ حيث رضخت إسبانيا بعد ذلك إلى الأمر الواقع بيأسها من احتلال هذه البلاد [5].

–وإلحاق الأذى بالإسبان وحلفائهم في جزيرة جربة الذين دقوا ناقوس الخطر؟ على هذه إثر هذه الهزيمة النكراء التي لحقت بهم! وهو مافتح الشهية للرئيس درغوث بافتكاك طرابلس الغرب من هيمنة فرسان مالطة وأجبر الإسبان على الانسحاب من طرابلس الغرب سنة1551م واستقربها؛ وأدخلها تحت حماية الدولة العثمانية التي عينته باي لارباي على طرابلس رسمياً سنة1551م.

–نجح درغوث على التوالي باستيلائه على القطر التونسي انطلاقاً من الجنوب في أخذ قفصة في 964هـ/12/20/ 1556م، بعد أن طرد الشابية منها؛ ومن القيروان في965هـ–12/27/

---

(1) –ناصر الدين سعيدوني، "ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني"، مجلة الأصالة، العدد:23–24، الجزائر،1977م، ص89 وأنظر أيضاً: محمد درّاج، المرجع السابق، ص325 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 181.

(2) –للمزيد: عن الحملات الجزائريين على بجاية ووهران أنظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2، ص ص 371–418 وأنظر أيضاً: Haèdo : op, cit, pp129

(3) –عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، صص88–89 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص121.

(4) –محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص739وأنظر أيضاً: محمد قوجة، المرجع السابق، ص67.

(5) – إيفانوف نيقولاي، تاريخ البلدان...، المرجع السابق، ص177 و: حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج3، المرجع السابق، ص164.

1557م حيث وجّه ضربة قاضية للشـابين، بالقضاء نهائياً على حكـمهم سنة 1557م باستيلائـهم على قفصة والقيروان وركز بها حاميات تحت قيادة حيدر باشا، لم تمض سنتان حتى سيطر على سيرتا [1].

-وإن وجود الإسبان في الضفة الجنوبية للمتوسط أصبح قاب قوسين أو أدنى وفي 1565م قام العلج علي باشا ودرغوث باشا بالتوجه نحو تونس ودخلت معظم الأراضي التونسية تحت حكم العثمانيين، ولم يبق منها سوى بعض الأقاليم التي ظلت تحت حكم الحفصيين، كمدينتي تونس وبنزرت، أما حلق الوادي فهي بيد الإسبان إلا أن الموت المفاجئ لدرغوث باشا في في حصار العثمانيين لمالطا [2] سنة 973هـ-6/23/1565م[3] قد أخّر مشروع تصفية الوجود الإسباني في تونس إلى حين تولية العلج علي باشا على الجزائر.

- كما أظهرت هذه الدراسة أن السلطة بالجزائر كان لها دور في تعاونها مع العثمانيين في فتح طرابلس الغرب 1551م وتحريرها من الاحتلال المزدوج الإسباني – المالطي ومشاركة أسطولها إلى جانب الأسطول العثماني في حصار مالطا 1565م.

-ونجد لمسة موقف الأهالي كان مسانداً للوجود العثماني بتونس بمساعدتهم في السيطرة التدريجية العثمانية – الجزائرية على الجنوب التونسي المهدية ـ1550م، قفصةـ1553م، القيروان ـ1557م.

-بإضافة إلى أن السلطان سليمان القانوني اهتم بثورة التي قامت عليه بالمجر بسبب مساعدة الأوروبيين لها؛ وخاصة الإسبان وسار إليها وكان المرض قد ألم به؛ فوصلها وحاصرها حتى اشتد عليه المرض وقضى نحبه أثناء نجاح المهاجمين العثمانيين في القضاء على المقاومة المجرية والاستيلاء عليها عام1566م/974هـ [4] وإن كان خليفته السلطان سليم الثاني قد اعطى تعليماته بانطلاق من الجزائر براً وبحراً مجسدين رغبة السلطة العثمانية في الجزائر باستيلائهم على الجنوب التونسي إذن لم يبقى لهم إلى الشمال التونسي ويكتمل استرجاع تونس إلى أصلها الإفريقي الإسلامي[5] المغاربي، وبذلك مهّد للحملة التي قادها علج علي باشا سنة 977هـ/1569م.

-كما كان للجزائر الفضل في الدخول العثماني إلى الأراضي التونسية 1569م وأصبحت بذلك تونس تابعة للإيالة الجزائرية، فقد أسهمت في العديد من المرات بمشاركتها مع الأسطول العثماني في فتح عدة مناطق جديدة بفتح قبرص 1570م، ومشاركتها في حرب ليبانت البحرية 1571م، التي على إثرها انهزم

---

(1) -جون بول وولف، المرجع السابق، ص52 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في...، المرجع السابق، ص87.

(2) – للمزيد أنظر عن نشاط درغوث في سواحل تونس، ودواخلها الجنوبية، عزيز سامح إلتر، المرجع السابق، ص ص23-79.

(3) – استشهد درغوث باشا: اثناء حصار مالطا عن عمر يناهز الثمانين سنة فنقل جثمانه ودفن في طرابلس الغرب. للمزيد أنظر: ثريا فاروق الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي ومراجعة عمر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان،2008م، صص 96-97.

(4) -هارلود لامب، المرجع السابق، ص189 وأنظر أيضاً: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص383.

5) -يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص44 وأنظر أيضاً: سعيد بن يوسف الباروني، المرجع السابق، ص148.

الأسطول العثماني وتوكيل العلج علي إلى قيادة الأسطول العثماني وإبقاءه باي لارباي على الجزائر هذا من الجانب البحري أما من الجانب الاستراتيجي فقد عملت على تثبيت الحدود الجغرافية الغربية البرية لها.

-إن العلج علي باشا وفق في تخليص تونس من النفوذ الإسباني وتبعية السلطان أحمد الحفصي ومما ساعده هو تعاون التونسيين معه للإطاحة بسلطانهم، لكنه لم يوفق في تحرير ميناء حلق الوادي وهذا راجع إلى ضعف إمكانياته، لأن هذه الأخيرة محصنة بشكل محكم، أما السبب الآخر فهو التطورات المستجدة في القسم الشرقي للبحر للمتوسط والتي حملت العثمانيين على حصار قبرص1570م مما شغلهم عن مساعدة علج علي ثم انشغالهم فيما بعد بمعركة ليبانت1571م، كما كان السلطان بحاجة إلى دعم الأسطول الجزائري.

-لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانت 979هـ/ 1571م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين [1].

-كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الافريقي، إثر معركة ليبانت سنه 978هـ/1571م، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية الباي لارباي الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى وذلك بعد وفاة القبودان علج علي باشا سنة 995هـ/1587م.

-أما الدافع الذي حمل دون خوان النمساوي على إعادة احتلال مدينة تونس1573م هو انتصاره في معركة ليبانت مماحمله على إتمام هدفه وحرمان العثمانيين من قواعدهم وإبعادهم قدر المستطاع عن الساحل الجنوبي للحوض الغربي للمتوسط باعتبارهم يشكلون عائقاً في سبيل تحقيق إسبانيا لمخططاتها التوسعية وخاصة الأهداف العسكرية كما أنه أراد تجسيد حلمه في إنشاء مملكة خاصة به في تونس.

-استفاقت الدولة العثمانية على نتائج الحملة المسيحية، التي تلت هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانت Lépanteسنة 979هـ/1571م وتحسست الأخطار المستهدفة لوجودها بالمنطقة المغاربية وكان لتلك الاستفاقة صداها في ردّة الفعل العثماني وحجمها وفي المقابل مثلت حملة دون خوان النمساوي Don Juan De L'Autriche أخر المحاولات المسيحية الجدية لطرد العثمانيين من تونس.

-إن ردة فعل العثمانيين على تونس كانت قوية، فقد جند السلطان العثماني كل الإمكانيات من أجل تحريرها مرة أخرى؛ لقد كانت الحملة العثمانية لسنة 982هـ/1574م في مستوى التحديات المسيحية فقاد الجيش العثماني الصدر الأعظم سنان باشا وحققت الحملة انتصارا ساحقاً على الإسبان والحفصين وأصبحت تونس عثمانية وانتهت الدولة الحفصية [2] ودخلت تونس نهائياً ضمن الفضاء العثماني.

---

(1) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص484 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص599.

(2) -أحمد بن أبي الضيّاف، المرجع السابق، ج2، ص11 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص98.

-وبهذا الحلف المسيحي الذي لم يستفيد من انتصاره ليبانت1571م [1]؛ لاختلاف القادة حول ميادين القتال ضد العثمانية فان الإسبان والبرتغال قد خططوا لغزو شمال افريقيا ووضع حد للوجود العثماني وهاجم الاسبان تونس عام 1573 وقواعدها إلا أن التدخل العثماني ومأيداه المجاهدون في تونس وانتهى بانهزام الاسبان في معركة حلق الواد عام 1574 ودخول تونس تحت الطاعة الدولة العثماني وأخرها تونس 1574م في عهد حفيده سليم الثاني.

-عين السلطان العثماني علج علي على رأس الأسطول العثماني، مع احتفاظه بمسؤولية الباي لارباي. وعين أحمد العربي " عراب احمد " خليفة للباي لارباي في الجزائر في عهده احتلال الإسبان لتونس 1573مرة أخرى ثم استعادها الأتراك العثمانيين في السنة الموالية.

-مما شجع الإسبان على احتلال تونس مرة ثانية سنة 1573م وحكمها شراكة إسباني-حفصي الذي أثار جدل كبير وحيرة لدى التونسيين.

-على إثر الأعمال الجليلة التي قام بها علج علي، بفتح المبين لتونس 1574م وإلحاقها بالخلافة الإسلامية ومقرها في إستانبول وتوحيد كلمة المسلمين داخل تونس؛ وخارجها مع بقية العالم الإسلامي.

-في الشق السياسي شكّل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي فارقاً كبيراً بالنسبة للوطن العربي الإسلامي فقد أعيد ربط جناحيه الشرقي والغربي -باستثناء المغرب -في ظل دولة عثمانية، ذات كيان سياسي سامي وعسكري قوية، وألحقته بالخلافة الإسلامي وأزالت عنه ذلك التشرذم الذي طالما عانى منه واطمع فيه دعاة الصليبية الجدد من الإسبان وغيرهم.

-هذا الاقليم بعد فتحه له في سنة 1574م فربطت إدارتها بالجزائر وأصبحت تحكم على شكل سنجق، أما سوسة والقيروان ومناستر والمهدية فقد ربطت بطرابلس الغرب.

-مرت البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن 16م/10ه، بفترة اضطراب شديد بسبب سوء تصرّف الملوك المتأخرين من بني حفص، وعلى الرغم من أنهم استنجدوا بالنصارى من الإسبان ومكّنوهم من البلاد ومن رقاب العباد، فقد شاء القدر أن تسقط دولتهم ويطرد حُماتهم الإسبان وتبقى وصمة الخزي والعار في وجه الحفصيين الأواخر[2] وقد كان بطل التحرير والاسترداد الإسلامي الوزير العثماني سنان باشا[3] الذي خلدت انتصاراته في معارك تونس وحلق الوادي وكتب له أن يُعد من أبرز المجاهدين في عصره.

(1) -بوحمشوش نعيمة، " دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت 1571م"، حولية المؤرخ الجزائري، العدد1، 2002 م، ص54.

(2) --هارلود لامب، المرجع السابق، ص191. وأنظر أيضاً: حي جلال، تاريخ المغرب الكبير، المرجع السابق، ص56.

(3) -للمزيد – أنظر: الملحق رقم 31: حول شخصية سنان باشا.

-وهكذا التحقت البلاد التونسية بمجموعة الولايات العثمانية وصار ولاتها يُعينون من طرف الباب العالي، فاصطبغت السياسة التونسية بمبادئ وتقاليد الدولة العثمانية، فكان نظام الحكم فيها عسكرياً جامحاً يخضع له الناس مادام قوياً متماسكا (1).

-وعليه أصبحت تونس ولاية تابعة رسمياً للدولة العثمانية؛ وجزءاً من ممتلكاتها في منطقة شمال إفريقيا الممتدة من الجزائر غرباً إلى مصر شرقاً.

-استقرار العثمانيين في إيالة تونس نهائياً1574م، قد منح الإيالة على صعيد التسيير الإداري، وكذا حول تنظيم الدفاع على السواحل المغاربية، مركزاً عثمانياً متقدماً، كان دوره مقايضة الأساطيل الأوروبية في حوض المتوسط الغربي والشرقي؛ نظرا لتحكمها في مضيق صقلية.

-وضع الفتح العثماني لتونس حداً للدولة الحفصية، لكن ذلك لم يمنع من محاولات آخر الأمراء الحفصيين لاسترجاعها! بعد أن لجأ بقايا فلولهم إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم والتي كان مآلها الفشل واتخذهم الإسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم.

-وقضى سقوط تونس على الآمال الإسبانية في إفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الإسبان نحو إقامة دولتهم في شمال إفريقيا وضاع بين الرمال (2)، والسلاطين الحفصيين الأواخر شرقاً-إلى أن أزيلت دولتهم من جذورها بعد ضربات منقطعة النظير؛ التي كانت آخرها عام 1574م، وفي المقابل أسدل الستار على حكم الأسرة الحفصية على إثر نفي أخر أمراءها محمد بن الحسن الحفصي إلى الأستانة وبقي فيها معتقلاً إلى أن قضى نحبه وبموته انقطعت السلالة الحفصية بعد أن حكمت 378 سنة.

-إن اثنين من باي لارباي الجزائر وهما خير الدين بربروس وعلج علي باشا، استطاعا بعد استلامهما مقاليد الأسطول العثماني، مع الاحتفاظ بمنصبهما في الجزائر، واستخلاف من شاءوا عليها تسخير إمكانات الدولة العثمانية الضخمة، لتحقيق أهدافها في تونس، بحيث يمكن القول إن إدخال تونس تحت لواء الدولة العثمانية كان بفضل جهود حكام الجزائر وإرادتهم، أو بتدبير منهم.

-الصراع العثماني الإسباني حول الشمال لإفريقيا-دخول الجزائر في التبعية العثمانية كأيالة أولى ثم تونس كأيالة ثانية ثم ليبيا كأيالة ثالثة وصنفت ولايات استثنائية

-سلمت الدولة الإسبانية بهذه الهزيمة، ولم تحرك ساكناً نظراً لكثرة مشاكلها وفقر خزينتها.

-عثمنة إيالة تونس اعتبرت ترسيخا للنظام العثماني بكل من الجزائر وطرابلس الغرب.

---

(1) -محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص743 وأيضاً: محمد بن محمد السرّاج الأندلسي، المرجع السابق، ص43.

(2) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص460 وأنظر أيضاً: محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية عوامل ...، المرجع السابق، ص178.

-وتتفق أغلب المصادر على أن عهد الأتراك العثمانيين شكل عصر البطولات العسكرية والانتصارات السياسية المرتبطة بها لأن النبوغ كان واضحا لديهم في العقلية العسكرية أكثر من أي جانب أخر حيث مثلت الإيالات الجزائرية -طرابلس الغرب -تونس جمهورية عسكرية [1] عثمانية [2] عاصمتها الإقليمية مدينة الجزائر.

-اطمئنان الجزائر من مؤامرات الحفصيين، التي كادت تطيح بالحكم العثماني، حين كان في بدايته فيها ثم تمكن من ترسيخ أقدامه في الجزائر، حيث لم يعد يخشى من خطر يأتيه من جهة تونس أي تأمين الحدود الشرقية للايالة الجزائرية.

-تأمين المواصلات بين الجزائر ومقر السلطة العثمانية بإستانبول، عن طريق البر بعد اتصال المناطق والبلدان؛ مروراً بطرابلس ومصر وبلاد الشام قد شملها النفوذ العثماني قبل تونس أي توحيد المناطق العربية.

-بوفاة القبودان علج علي باشا سنة 1587م في الجزائر استبدل نظام الباي لاربايات الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً والسعي وراء السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشاوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس [3] أي رأت السلطة العثمانية من المناسب الفصل بين إدارة الأوجاق؛ بتعيين واليين مختلفين وتكن ولايتهما لمدة ثلاث سنوات وأصبحت بذلك باشاوية، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه الباي لارباي بسبب قوته وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

-كان الباي لارباي علج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب الأقصى [4] وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية [5].

-وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع أبي الحسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الأسطول العثماني إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة 963هـ/1553م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالي في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبي الحسون نحو فاس التي دخلتها في3/1/964هـ-8/4/1554م[6] وأعلن الباب العالي ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد أن خطب الإمام للسلطان العثماني[7].

---

(1) -هناك كتابات أوردت مصطلح جمهورية عسكرية مثال: وليام شالر، المرجع السابق، ص48 وأنظر أيضاً: ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق ص22 وأنظر أيضاً: حنيفي هيلالي، بنية الجيش الجزائري...، المرجع السابق، ص12.

(2) -رابح بونار، " مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية "، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي، العدد08، الجزائر، ماي 1972م، ص6.

(3) -أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، المرجع السابق، ص410 وأنظر أيضاً: شارل فيرو، المرجع السابق، ص132.

(4) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب العربي، المرجع السابق، ص52 و: عبد الحميد بن أبي زيان، المرجع السابق، ص 184.

(5) -عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص101 و: عبد الجليل التميمي، الخلفية...، المرجع السابق، ص40.

(6) -عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، صص80-81 وأنظر: يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص47.

(7) -محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار القلم، المغرب، 1984، ص91و:محمد فريد، المرجع السابق، ص124.

-فأذعن أبي الحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني واقامة حامية عثمانية في مقر بلاطة [1].

-ازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم؛ وخوفهم من ثم التوجه للأندلس، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي جان الثالث إلى الإمبراطور شارلكان مايدل على هذا الفزع إذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لأقدامهم في هذه البلاد، لأن ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين [2].

-فهذا التنافس السعدي العثماني على شمال افريقيا، بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الإسبان والبرتغال، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين [3] وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة إسبانية –مغربية ضد العثمانيين [4].

-يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين، الذي لم يتورع في الاستنجاد بالقوى المسيحية إسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ومصالح المسلمين.

-إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب [5] باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والإسبان [6].

-محاولة من السلطان العثماني لتكوين اتحاد اسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية مع الدولة السعدية [7] إذ لم يعد هناك مجال للشك في أنهم إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لاباعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد الاسبان والبرتغال [8].

---

(1) -إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص147 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص88.

(2) -عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، ص81 وأنظر أيضاً: إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص154.

(3) -محمد خيري فارس، تاريخ المغرب...، المرجع السابق، ص53 وأ: أحمد إسماعيل الياغي، العالم العربي في...، المرجع السابق، ص123.

(4) -محمد بن عبد السلام الضُعيف، المرجع السابق، صص83-84.

(5) -ابو فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق كريم عبد الكريم، دار التراث، المغرب، 1972م، ص89.

(6) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص378 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص88.

(7) -محمد داوود، تاريخ تطوان، دار المعرفة، تطوان، المغرب،1959م، ص56 و: يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص48.

(8) -إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص157 وأنظر أيضاً: عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، ص85.

-أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، واشفعوا في ذلك بفيلق عسكري [1]، حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية في الدفاع عن عقيدتهم لأن المعركة معركة المسلمين جميعاً وخصوصاً الدولة العثمانية التي كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم بعيدة عن المصالح المادية [2].

-لقد ظهر السعديين أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين إذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس بعد زيادة نفوذهم في الشمال الإفريقي [3].

-وحقق السعدين على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتا كروز، وما أن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفي وأزمور بالجلاء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالة مؤرخة في22/9/948هـ-1541/12م، يطلع فيها الإمبراطور الإسباني شارلكان، حيث جاء فيها ذكر للأسباب التي أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي لأسفي وأزمور فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية، وعلى جنود مدربين وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتا كروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً ثم أن الجلاء عن أسفي وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة[4] يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية في تقديم المساعدة للقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لأنها ترغب في تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبتها في مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالي في المراكز الجنوبية من المغرب ثم ليعبروا للأندلس، لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور[5].

-قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للاستيلاء على إسبانيا[6]، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم [7] وأصبح الإسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الاحتياطات[8] ولأن الاستيلاء على المغرب الأقصى يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال

(1) -محمد الغربي، المرجع السابق، ص94 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص604.

(2) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص471.

(3) -محمد علي الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل ...، المرجع السابق، ص184 وأيضاً: عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، ص86.

(4) -عبد الكريم عبد الكريم، المرجع السابق، ص87وأنظر أيضاً: نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص328.

(5) -محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي، المرجع السابق، ص147 وأيضاً: إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص167.

(6) -شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص9 وأنظر أيضاً: أحمد إسماعيل الياغي، الدولة العثمانية...، المرجع السابق، ص128.

(7) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص329 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص52.

(8) -محمد بن عبد السلام الضُعيف، تاريخ الضُعيف أو الدولة السعيدة، تحقيق احمد العماري، الرباط، المغرب،1987م، ص ص97-99.

الإفريقي [1]علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في استانبول[2].

–إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وانتهاء الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وانحراف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده [3].

–اطمئنان الجزائر على ظهرها شجع حُكامها على التفكير في ضم المغرب الأقصى أيضاً إلى الخلافة العثمانية وتوجيه حملة إليه في سنة 1576م نصبت فيه سلطاناً موالياً لها وحملة أخرى من إستانبول بقيادة القبودان علج علي باشا في ربيع سنة 1581م، لإلحاق المغرب نهائياً بالدولة العثمانية ولكن هذه الحملة توقفت في الجزائر لمستجدات طرأت واستدعت عودة الحملة إلى المشرق.

–كان حاكم تلمسان أبو زيان أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه مالبث أن خضع لمؤامرات خارجية وانساق في تيارها وأخذ يتقرب من الإسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد أخوته الحسن فتوجه أبو زيان إلى وهران طالباً للدعم من الاسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحفظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وانضم اليه جموع الخاضعين للإسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وتقدموا إلى تلمسان لأبعاد الحسن، واعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان[4] الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا [5]حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد

---

(1) –محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية...، المرجع السابق، ص265و: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص88.

(2) –ابن عسكر، دوحة الناشر، دار التراث، فأس، المغرب،1307هـ، ص79 وأنظر أيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص124.

(3) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص334 وأنظر أيضاً: إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص178.

(4) –محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، المرجع السابق، صص21-22.

(5) – الباشا: وهي كلمة تركية وفارسية وكان لها شأن الشرف في أوروبا ويستعمل أيضا أفندي وهو اقل شأنا من الباشا وهو ذا طابع عسكري ويمنح لكبار الموظفين وكان يدل على المولى ثم بدل بالباشا بمعنى السلطان وكان مستعملا في نصف القرن13 وأضيف للباشا أسماء أخرى وكان عددهم محدودا، ولقب اثنان من أسرة بني عثمان بلقب الباشا، وسرعان ما أصبح لقب الباشا لمراكز العليا في الحكم واستمر هذا الاسم يعطى لكثير من الوزراء حتى استبدل بالصدر الأعظم أو الباب العالي ويعني كبير الوزراء وقد قسم المجتمع إلى طبقات وكل طبقة تحتوي على اسم تتميز به وفي عام 1934 استبدل لقب باشا بلقب الجنرال واستعمله الأوربيون كثيرا وكان لكلمة باشا شهرة عالمية وفي اليونان يرجع تاريخها الى القرن16أصلها كلمة تركية ومعناها الرأس أو الزعيم ومأخوذة من كلمة باش آغا ومعناها الأخ الأكبر ومأخوذة أيضا من اللفظ الفارسي بادشاه ومعناها الملك، وقد يطور اسم الباشا في الدويلات الصغيرة إلى باتشاه. للمزيد أنظر: مصطفي عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص69. وأيضا تركية مشتقة بمعنى آخر حاكم أو صاحب الشرطة وكلمة باسقاق ومعناها الظلم والكراهية ونرى لقب الباشا لم يذكر في مصادر فارسية ولولا الخلط بين لقب باسمق ولقب الباشا لما كانت له هذه الأهمية وكان لقب الباشا اسم العلم يطلق على الجند والصغار الضباط وأطلق أيضا على وجوه الأقاليم وقد تطلق كلمة باشا على كبير الأغوات ولقب عسكري للمزيد أنظر: حسين مجيب المصري، المرجع السابق، ط1، ص78.

في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزاً خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة حليفة الاسبان[1].

–وبدخول تونس إلى فلك العثمانين ووفاة عبد الله السعدي وطلب عبد الملك أخوه المساعدة منها فهي فرصة للعثمانيين؛ الاستيلاء على المغرب يؤمن لها الحدود الغربية ويوطد أقدامها في كامل إفريقيا [2].

–إن الدولة العثمانية سعت إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الاطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو إسبانيا مع العالم الجديد والشرق[3]، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساساً على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام أمثال خير الدين وعروج بربروس وصالح رئيس[4].

–كان للوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف البرتغال في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه [5].

–وكان الباشا موظف ترسله الأستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد [6] ويكون الباشا في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة إستانبول.

–كانت أحداث مابعد 997هـ/1588م في نيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطة فيها على حساب سلطة الباشا إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع امساك السلطة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الأستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية [7].

---

(1) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص329 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، موجز تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص54.

(2) –حسين مؤنس، المرجع السابق، ص169 وأنظر أيضاً: عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية...، المرجع السابق، ص40.

(3) –عبد الله الجمل شوقي، "الكشوف الجغرافية البرتغالية والاسبانية"، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1995م، ص156.

(4) –خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، عبد السلام علي، ج3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992م، ص43.

(5) –محمد علي الصلابي، صفحات من التاريخ الاسلامي، المرجع السابق، ص149 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص89.

(6) –صلاح العقاد، المرجع السابق، ص28 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، صص746-747.

(7) –نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص477 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص63.

-وكانت طائفة الرياس المسيطرة على الوضع نتيجة أن موارد البلاد الأساسية كانت تأتي من حركة الجهاد البحري، وكانت التجارة والملاحة السلمية تشكل عنصراً هاماً في الاقتصاد التونسي، كما أنها كانت على صلات تجارية مع وسط إفريقيا واستخدمت موانئها لتصدير البضائع نحو أوروبا.

-وجعفر باشا نائب الباي لارباي علج علي في الجزائر، بالتخلي عن العمل بالمغرب الإسلامي والانتقال إلى الشرق الإسلامي [1] حيث نُقل إلى الحجاز؛ وزادت اضطراب الأمور على القبودان علج علي باشا فتخلى عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي [2].

-تردد السفراء بين الأستانة وفاس فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وأبي الحسن علي بن محمد التمقروتي بين عامي 979هـ/ 1588م-999هـ/1590م، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانية في 998هـ/ 1589م [3]، لم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران، وآل هسبورغ في وسط أوروبا بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الأمني [4].

-بعد تفرغهم من فتح تونس؛ كان العثمانيون لديهم رغبة جامحة في استرداد الأندلس إلا أنهم لم يحققوا هدفهم المنشود، بسبب موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الإنكشاريين من جهة أخرى وجبهات المشرق من جهة ثالثة ومن جهة رابعة فشل حرب البشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة في 1568م وتزعمها محمد بن أمية [5] وغير ذلك من الأسباب أضعف هِمة الدولة العثمانية في إرجاع الأندلس.

-اتفق أغلب المؤرخين على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام 974هـ/1566م وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان-حيث تولى الحكم بعد هذا السلطان ابنه سليم الثاني الذي لم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقلي لانهارت الدولة.

-ظهر في الشمال الأفريقي قادة كبار ساهموا في حركة الجهاد ضد الإسبان والنصارى في البحر المتوسط من أشهرهم؛ حسن ابن خير الدين بربروس، درغوث باشا، وعلج علي...

-وقد عرفت البحرية الجزائرية أوج عَظمتها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن السابع عشر حيث امتداد نفوذ الجزائر البحرية والسياسية إلى الحوض الغربي للمتوسط

(1) -محمد بن عبود، تاريخ المغرب، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،1992م، ص187.
(2) -عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج3، المرجع السابق، ص101 وأيضاً: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص126.
(3) -محمد الغربي، المرجع السابق، ص97.
(4) -نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص532 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص609.
(5) -محمد قشتيلو، المرجع السابق، صص 33-34 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص201.

من ناحية إلى الشاطئ الغربية لأوروبا من ناحية أخرى فقد كان الأسطول الجزائري يجوب المحيط الأطلنطي في بريطانيا وأيسلندا إلى جزر الكناري والأزروس [1].

-صالح رئيس فتح حجر باديس 1551م، وهاجم حسن فاتريانوا، المرة الأولى1577-1581 والمرة الثانية1582-1585م سواحل شبه الابيرية واستولى على جزر البليار، وغزي برشلونة سنة 1582م [2].

-ومن الضروري بأن يكون الممتحن الجديد في البحرية أن يكون يعرف بعض القواعد النظرية لفن الملاحة كمعرفة حركة النجوم وقراءة البوصلة، واتجاهات الرياح وفهم الخرائط الملاحية أو الاهتداء بالجبال عند الحاجة [3] ويقول حمدان خوجة في هذا الصدد " وهناك أمثلة رائعة على استعداداتهم الطبيعية ومنهم من يستولون على السفينة بعد رحلتهم الأولى وهم يجهلون مبادئ الملاحة الأولية وسيما أنهم يعرفون الجبال وقممها معرفة جيدة، فقد كانوا يتمكنون، من التميز بين نقطة وأخرى.."[4] وهذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء أولئك الرجال وسرعة تعلمهم واستعدادهم الفطري للتكيف مع الحياة البحرية [5].

-ولم يكن طائفة االرياس بحارة عاديون، بشهادة المؤرخون المسلمون ومنه مانقله لنا السفير التمرقوتي حيث يقول " ورياس البحر موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيبة وأكثر رعباً في قلوب العدو" [6] خير مثال على ذلك تصديهم للقوات الإسبانية الغازية في تونس [7].

-كما يذكر حمدان خوجة بأنهم كانوا يحاربون بشجاعة وإقدام موقنين بأنهم إنما يستشهدون في سبيل الله [8] ويعترف الكتاب الغربيون أنفسهم بتميز هؤلاء البحارة حيث أبهرتهم حنكتهم وشجاعتهم ونظامهم يقول هايدو في هذا الصدد "أنهم يبحرون من الفجر إلى غروب الشمس خلال الشتاء أو الربيع دون خوف ويسخرون من السفن المسيحية كأنهم يخرجون لصيد الأرانب "[9] وفي هذا الصدد يقول دي غرامون: "أن رياس الجزائر لانظير لهم في البحر التي كانوا يخوضونها ولايقتصر الأسطول على الجهاد البحري والدفاع

(1) -أبي القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص282 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص143.

(2) -للمزيد حول الهجرة الأندلسية أنظر: نور الدين بن عبد القادر، المرجع السابق، صص.61-62.

(3) -الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات الشريف الزهار، تح أحمد توفيق المدني، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1974م، ص117.

(4) -حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص157.

(5) -عبد القادر علي حلمي، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل1830 م، الطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر،1972م، ص67.

(6) -أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجازولي التمقروتي، النفـــحة المسكية في السفارة التركية، ط1، تقديم وتعليق سليمان الصيد المحـــامي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس،1988م، ص76.

(7) -مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات...، المرجع السابق، ص57 وأنظر أيضاً: عبد الحميد بن أبي زيان، المرجع السابق، ص 185.

(8) -حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص155.

(9) -عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضاً: De Grammont Henri , op .cit, p116.

عن الأسطول بل لعب دوراً في السياسة الأوروبية" (1) أما وليام شالر فيقول " بأن رياس البحر يتصفون بروح جرأة خارقة" (2).

–ويشير صاحب الغزوات إلى أنواع السفن كالغليوطات (3) وهناك أنواع أخرى مثل السافيات والباشردات (4) وخلال القرن 16م كانت السفن المفضلة هي سفن الشينيلتي كانت تتميز بكونها طويلة وخفيفة وسريعة سهلة التوجيه(5) واعتمدت طائفة الرياس إضافة إلى الشينيات على سفن أخرى صغيرة وخفيفة كالغليوطات وشراعيات (6).

–أما مع حلول نهاية القرن 16م، فكانت سفن الباترون والمستديرة وغيرها؛ التي تم تطويرها في أوروبا؛ وقد عرفت الجزائر هذا النوع من السفن بفضل المهاجرين الأندلسيين الموريسكيين الذين طرد من إسبانيا (7) والتي أدت إلى ظهور القوات البحرية العثمانية في المنطقة المغاربية بمظهر القوة المهابة الجانب خاصة بعد سيطرة الدولة العثمانية على طول الساحل الجنوبي للحوض الغربي للمتوسط وتما هذا بعد استكمال فتح تونس (8).

–ويتضح لنا أن تاريخ الجزائر في العهد الأول من الحكم العثماني كان له دوراً بارزاً في تحريك دواليب السياسة العالمية ويظهر ذلك من خلال الأعمال التي قامت بها الجزائر من اجل إبقاء ظل الدولة العثمانية وعلو رايتها في العالم، ويتجلى ذلك في تحريك الضفة الغربية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط وذلك من خلال الأعمال البحرية التي قامت بها في هذا الميدان تحت شعار الجهاد البحري، لذا فقد أسهمت بدور كبير في رسم حدود جديدة للدولة العثمانية الغربية والجنوبية الغربية وذلك من خلال الأعمال التي قدمتها بطلب من السلطان العثماني الذي كان حريص دائماً عليها الجزائر باعتبارها أول إيالة في الحوض الغربي للمتوسط دخلت تحت ظل الدولة العثمانية إلى جانب قوة أسطولها البحري الذي اخذ مكانه في البحر الأبيض المتوسط الذي يحسب له ألف حساب.

---

(1) ––حمدان بن عثمان خوجة، المرجع السابق، ص158 وأنظر أيضا: عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص96 وأيضا: De Grammont Henri , op .cit, p117.

(2) –وليام شالر، المرجع السابق، ص46.

(3) –جمع غلياطة، وهو مركب خفيف السير) العشائرية (جمع عشاري وهو مركب صغير مانسميه فلوكة) الفرقاطات (جمع فرقاطة وهو مركب بحري صغير نوع ما) التي يتكون منها الأسطول الجزائري خلال القرن 16م للمزيد: مجهول، غزوات عرّوج وخير الدين، المصدر السابق، ص 88.

(4) –سارة العيودين ونبيلة عبادية، التنظيم العســـــكري العثماني في الجزائر(1518–1830م)، مذكرة لسانس في التاريخ، (غ–م)، جامعة تبسة، الجــزائر، السنة الجامعية (2008–2009م)، ص78.

(5) –أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المـــــــصرية، القاهرة،1986م، ص89.

(6) –عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص96 وأنظر أيضا: Haedo Diego, op ,cit ,P225

(7) –حنيفي هلالي، بنية الجيش الجزائري..، المرجع السابق،ص56 وأنظر أيضاً: بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص152.

(8) –عائشة غطاس ونعيمة بوحمشوش وآخرون، المرجع السابق، ص100 وأنظر أيضاً: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص104.

-كما تتضح من هذه الدراسة أن السياسة التي انتهجتها الدولة العثمانية وخاصة وأنها كانت في أزهى عصورها وتوسعاتها في شرق أوروبا وغرباً إيران ودخولها المناطق العربية؛ فهذه الرقعة الشاسعة تحتاج إلى رجال مخلصين للحفاظ عليها وتنفيذ الأوامر الصادرة عن السلطان العثماني ومن أمثال ذلك: خير الدين بربروس حسن آغا، (1) الحسن بن خير الدين، صالح رئيس-درغوث باشا-سنان باشا-القائد رمضان-علج علي.

-كما أتضح لنا صورة في العلاقة الجزائرية التونسية والدور الذي لعبته الدولة العثمانية في تحريك المنطقة المغاربية عامة والمتوسطية منها خاصة، بحيث تصدت إلي المشروع الاحتلال الإسباني بنيابة الجزائر اليد الفولاذية التي تضرب بها متى شاءت، ابتداءاً من عرّوج بربروس المؤسس الاسمي للدولة الجزائرية الحديثة وخير الدين بربروس المؤسس الفعلي لها، وحارس البوابة الغربية للبحر المتوسط والجناح الغربي للدولة العثمانية وقبودان باشا لأقوى أسطول بحري في البحر الأبيض المتوسط وحسن آغا قاهر الإمبراطور شرلكان وصالح رئيس موحد الدولة الجزائر ولام شملها والحسن ابن خير الدين واضعاً حداً للأطماع المغربية ودرغوث باشا موسع حدودها الشرقية الحفصية-تونس وعلج علي مثبت الوجود العثماني في تونس وموحد المنطقة المتوسطية المغاربية بيد السلطة المركزية في العاصمة الإقليمية العثمانية -الجزائر البيضاء- عروس البحر المتوسط- استنبول الصغرى .

-تحرير تونس من الاحتلال الإسباني بعد الجزائر وطرابلس وبجاية، ثم غيرها على الساحل الجنوبي الغربي للبحر المتوسط (2) وبذلك فتح لغزاة البحر في الولايات العثمانية الغربية المجال لنشاط الجهاد البحري الذي مكنهم من إقامة قواعد هامة أو الاستيلاء عليها؛ كانوا ينطلقون منها ويعودون إليها بسلام.

-وهو ما فتح الباب للاتصال بإمارات الإسلامية الإفريقية مثل: ألكانم بورونو (3).

-وحين توفي الخليفة سليمان عام 1566م/974هـ أثناء قيادته للحملة العثمانية على المجر، كان بإمكان العثمانيين أن يفخروا بالإنجازات التي حققوها خلال قرنين من الزمان، فلقد ضموا العالم العربي الإسلامي إلى العالم اليوناني وإن تكن قد اعترضتهم عقبتان حصار فينا 1529م، وطرد البرتغاليين من المحيط الهندي وأدى توسع الدولة العثمانية في القارات الثلاثة إلى مشكلات للدفاع الخارجي والتماسك الداخلي.

-جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة 990هـ/1582م لمحاربة إسبانيا فوق أرضيها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها إسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا مافيها ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد

(1) -عبد القادر عمر، المرجع السابق، ص45 وأنظر أيضاً: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية، المرجع السابق، ص89.

(2) -عبد الكافي أبوبكر، المرجع السابق، ص47 وأنظر أيضاً: محمد العروسي المطوي، السلطة الحفصية...، المرجع السابق، ص749.

(3) -حجيلة العربي، مملكة ألكانم البورنو في عهد السلطان إدريس ألوما (1571م-1604م)، رسالة ماجستير، في تاريخ حديث ومعاصر (غ-م)، تخصص دراسات إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، جامعة الجزائر، الجزائر، (2013-2014م)، ص ص 77-80.

التنكيل بالإسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً [1].

-كما تلقى مسلمي الأندلس مساعدات عثمانية أصبح الموقف صعباً بالنسبة لإسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن البحرية الإسبانية كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة خاصة الشواطئ الجنوبية موقع الثائرين [2].

2) -النتائج الاقتصادية والاجتماعية:

-إن موارد البلاد التونسية الأساسية كانت تأتي من حركة الجهاد البحري وكانت التجارة والملاحة السلمية تشكل عنصراً هاماً في الاقتصاد التونسي، كما أنها كانت على صلات تجارية مع وسط إفريقيا واستخدمت موانئها لتصدير البضائع نحو أوروبا وأنشئت أسواق وأحدثت البركة وهي سوق للعبيد تتمثل في ساحة صغيرة ممراتها الثلاثة المسقفة [3].

-وهذا ماجعل تونس مركز تجاري هام، لما لها من صلات تجارية مع وسط إفريقيا تأتي إليها القوافل محملة بالمنتجات الإفريقية، عبر السودان الغربي والأوسط؛ كما أن تونس تعتبر حلقة اتصال هامة تقع على طريق القوافل الرابطة بين الأقاليم المغاربية الجزائر والمغرب الأقصى من جهة وطرابلس ومصر والمشرق العربي الإسلامي من جهة أخرى[4] واستخدمت موانئها لتصدير البضائع نحو أوروبا [5].

3) -النتائج الثقافية والحضارية:

-على أن الأتراك العثمانيين الذين جاءوا تونس ولاة أو جنداً أو موظفين أو غير ذلك وأقاموا فيها لم يناوأ بأنفسهم عن أهلها ويحتفظوا بشخصيتهم الأجنبية، كما يفعل المستعمرون الغربيون عادة في لأقطار التي يحتلونها، بل سارعوا إلى الاختلاط بهم والاندماج فيهم كشأنهم جميعاً في الأقطار الإسلامية التي ضموها إلى دولتهم، (دولة — الخلافة الإسلامية).

-واستمر حكم الأتراك العثمانيون في تونس بخيره وشره طويلا وقام في أثناءه بأعباء الدولة بعض باياته بإصلاحات واسعة النطاق في جميع النواحي وأخذت تونس تسير في عهدهم بخطى واسعة في سبيل الرقي والتقدم [6].

(1) -عبد الحميد أبي زيان ابن أشنهو، "الدور الذي لعبته الجزائـــــر في الـقرن 16 م في البحر الأبيض المتوسط " مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد 08 الجزائر ،1972م، ص59.

(2) -إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص ص179-204 وأنظر أيضاً: جون بول وولف، المرجع السابق، ص91.

(3) -شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ج2، ص 357 وأنظر أيضاً: محمد الهادي العامري، المرجع السابق، ص202.

(4) – يحيى جلال، تاريخ المغرب الكبير (العصور الحديثة وهجوم الاستعمار)، المرجع السابق، صص 54-55.

(5) -الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص ص380-386 وأنظر أيضاً: محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص205.

(6) -الحبيب ثامر، هذه تونس، دار المعارف، تونس، 1969م، ص ص23-19 وأنظر أيضاً: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص65.

-لقد حقق السلاطين الذين حكموا في هذه الحقبة هذا المستوى بما اتصفوا من الصفات التي حرص عليها الإسلام فصقلت شخصياتهم وأحسنوا لرعاياهم واكتسبوا إخلاصهم وولاءهم، فاقترنت صفات الحزم والشدة إلى جانب صفات التسامح والعدل وقد أشادت المصادر بهذه الصفات التي ظهرت من خلال كثير من الأحداث وإلى جانب ذلك كان هؤلاء السلاطين رعاة للعلم وبناة للحضارة بل كانوا هم أنفسهم على جانب كبير من العلم ولقد وصف السلطان سليمان القانوني بأنه لا يوجد أي حاكم في عصره حصل على تعليم أفضل منه ولا نشأ نشأة علمية لامعة في إدارة دولة عظمى مثله [1].

-لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في المنطقة المغاربية في وجه العثمانيون بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها ومن يتعاون مع العدو باسم الدين الإسلامي ويمهد لهم الطريق [2].

---

(1) -يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج1، ص 354، ج2، ص466 وأنظر أيضاً: فاضل بيات، المرجع السابق، ص603.

(2) -عبد العزيز نوار سلمان، الشعوب الإسلامية، (د، ن، ع، ط، ن، ت)، القاهرة، مصر، 2002م، ص124.

- الخاتمة:

إن التاريخ ذاكرة الشعوب به تعيش الحاضر وتتطلع إلى المستقبل، فلذا وجب المحافظة على هذا الإرث الحضاري الذي تضرب جذوره في عرض الزمن، ويكون ذلك بالدراسة والتحليل والتمحيص للوقوف على مادته الخام التي تمد بالمعلومات عن كل ردح وعصر من عصور البشرية المتغير والمنقلب من فترة إلى أخرى فالتـاريخ سجل الأمم وشاهد على تطـور البشرية منذ البـداية إلى يومنا هذا، وتاريخ الدولة العثمانية الإسلامية، الذي أصبح له وجـود في مدة وجيزة بعدة مـناطق في القارات الثلاثة آسيا وأوروبا وإفريقيا؛ لخوضها حروبا خاطفة وباهرة، ونشرت الإسلام في العالم الأوربي الشرقي وأصبحت بذلك دولة (بلقانية أناضولية-آسيوية أوروبية)، ووحدت العالم العربي بشقيه الشرقي- الغربي (ماعدا المغرب) أي وصولها إلى المنطقة المـغاربية المتوسطية، وتـطلعت إلى أكثر من ذلك...فأفزعـت الإمبراطـوريات والممـاليك الأوروبية خاصة بعد أن هاجمتهم في عقر دارهم، وكان رد الفعل من طرفهم تكتلات صليبية ضـدها؛ وتبادلت مع أعدائها الهزائم والانتصارات، ولم تترك الدول الأوروبية للدولة العثـمانية فرصـة لالتقاط أنفـاسها، وعلى الرغـم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتهـا وتعيد بناء قوتهـا وتستأنف مسيرتها المظفرة.

-و لكن في الواقع كانت الشخصية القيادية التي ميزت سلاطين الحقبة الأولى من التاريخ العثماني قد أدت دورًا كبيرًا في بعثها من جديد كلما مرت بمثل هذه الأزمات، فبفتح القسطنطينية وضع السلطان محمد الثاني- والذي لقب بالفاتح، الخطوات الأولى لدولته نحو العالمية، وقد بدأ ذلك واضحًا في استنجاد مسلمي الأندلس بالسلاطين العثمانيين ، وفي المقابل كان العثمانيون يعتـبرون دولتهم الحـصن المنيـع للإسـلام، ويبدو ذلك جليًا في قول السـلطان محـمد الفـاتح: " **إن بلادنا هي بيت الإسلام، وسيظل مصـباحها مضـيئًا بزيت نـستخرجه ويستخرجه خُلفاؤنا من قلوب الكافرين"**، وكما أعتبر العثمانيون أنفسهم حماة للإسلام في وجه المسيحية فقد اعتبروا أنفسهم حماة للمذهب السني أمام الخطر الشيعي المتمثل في الدول الصفوية في إيران، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير توجه السلطان، سليم الأول(1512هـ-1520م) (نحو ضـم البلاد العـربية والتلقب بلقب (حامي الحرمين الشريفين)، بأنه إعلان للوقوف الراسخ الثابت في وجه البرتغاليين الذين استهدف العالم الإسلامي في القرن(10هـ-16م) ثم أضيف هذا اللقب إلى ألقاب كل السلاطين العثمانيين وذلك تأكيدًا للـزعامة الدينية، للـدولة على العالم الإسـلامي الـسني وإلى جانب المكانة الدينية والسياسية التي حققها العثمانيون من ضمهم للمشرق العربي فقد أمنوا لأنفسهم السيطرة على أغنى طرق التجارة، مما دعم موقفهم الاقتصادي، وهكذا أصبح بوسع السلطان(سليمان بن سليم الأول(1520م-1566م) أن يمول خططـه ليصل بدولـته إلى قمة الهـرم السياسي في ذلك الوقت، ويمكننا أن نسمي ذلك العصر(10هـ-16م) بعصر سليمان

وهكذا فتحت في عهـد سليمان القانوني (قلعة بلغراد Beleghrad 928هـ-1521م) الحصينة، وأصبح الطريق نحو قلب أوروبا مفتوحًا، وكذلك (تحقق فتح جزيرة رودسRadoss 1522م)، (الحصن المنيع لفرسان القديس يوحنا، وبسقوط هذين الحصنين تـأكد الغرب أنه لايمكن قهر القوة العثمانية والواقع أن الدولة العثمانية في هذه الحقبة برزت كمركز للعالم وأقوى دولة، وأضحت عاملاً مهمًا وأساسيًا لتوازن القوى في القارة الأوروبية، ولم تعد، هناك مسألة في السياسة الدولية لاتعني العثمانيين، أما على الصعيد الدبلوماسي فقد أبرزت التقاليد الدبلوماسية المتبعة بين الدولة العثمانية وغيرها في هذه الحقبة أن هذه الشعوب كانت تنظر إلى الدولة بعين الهيبة والوقار وجملة القول إن الدولة العثمانية تمكنت في مدة وجيزة من فتح عدة مناطق في العالم القديم وبذلك ملأت فراغًا سياسيًا وحضاريًا حتى أصبحت أشبه بمحيط يعج بالعلوم والنظم والديانات والأعراق المختلفة.

كان **الغرض** من هذا العرض المجمل إيضاح التكوين التاريخي والحضاري للدولة العثمانية ووصـولها للعالمية في القرن 16م، خاصة بعد أصبـحت لها إيـالة في غـرب البحر المـتوسط التي أصبحت تسمى (إستانبول الصغرى – دار الجهاد – عروس البحر الأبيض المتوسط) ويسمونها الإسبان وحلفائهم(عش القرصنة) ومما لاريب فيه أن الدولة العثمانية قد تكاثرت حولها الافتراءات والأباطيل، فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب، فلكل دولة مزايا تذكر لها وآخذ تسجل عليها، وقد غفل أولئك المتحاملون عن الخدمات التي أسدتها الدولة العثمانية للولايات العربية بوجه خاص، وتـناسوا أيضا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا جسيمة تهدد العالم العربي بأفدح الأخطار كالخطر البـرتغالي والإسباني فقد عملت الدولة العثمانية على حماية الأماكن المقدسة من البرتغاليين وحماية المنطقة المغاربية عامة والمتوسطية خاصة من الإسبان وشهدت الدولة العثمانية من الأحداث التاريخية الكثيرة عبر الزمن ولكن هناك من الفـترات التـاريخية للـجزائر ما هو مغيب وغير مدروس أو بعبارة أصح مُهمش، وهذا راجع إلى عدة عوامل لعبت به وأخفته عن الوجود أو خبأته حتى لا تتطلع عليه أجياله أو تسلخ فترة من فتراته التاريخية الزاخرة بالأحداث حتى تكون حلقة مفقودة في التاريخ العثماني الإسلامي عامة، والمغاربي المتوسطي العثماني خاصة والجزائري العثماني بالأخص، ونقصد بالضبط المواد التاريخية التي لعبت بها الأيادي الاستدماري الفرنسي الغاشم أثناء عملية احتلال عاصمة المنطقة المغاربية المتوسطية (الجزائر)؛ وهذا لهدف مقصود منه، ومحاولة لمحو الآثار العثمانية الإسلامية عليه، حتى تجعل هناك فراغ في التاريخ **العثماني** (المغاربي– الجزائري–التونسي)، غير مفهوم وغامض ومبتوراً في سياقه الزمني.

– فقد كانت الجزائر القلب النابض للمنطقة المغاربية المتوسطية، والظهر الذي يحمي الدولة العثمانية في الجناح الأيسر للعالمين (العربي–الإسلامي) والسيف التي تقاتل به الدولة العثمانية

أعدائها الأوربيين– المسيحيين؛ وكانت في اتصال دائم مع الجهة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط مُلبية نداء التضامن الإسلامي، عبر كامل الفترة التاريخية للعهد العثماني، وهذا كله من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي غيبت أو أقصيت عن تاريخنا، فنجد في المجال السياسي؛ أن هذه الدراسة أمدتنا بمعلومات سياسية مختلفة بين الجزائر والباب العالي والحكام **الحفصيين** الأواخر لتونس والإمبراطورية الإسبانية وباقي دول البحر المتوسط وما احتدمت به الساحة السياسية من أحداث سيرت مجرى التاريخ إلى ما آل إليه الآن؟ أما الجانب العسكري فقد بينت الاستعدادات ضد الخطر الأجنبي وأهم الأحداث العسكرية التي شهدتها الدولة العثمانية خلال فترتها الأولى وما ترتب عنها من نتائج الارتباط بين الجزائر والدولة العثمانية وخاصة الحرب الإسبانية العثمانية على تونس (الخضراء)، وهمزة وصل بين حوضي المتوسط، وما أحدثته من تغير على الخارطة الجغرافية للدولة العثمانية، وحماية الشمال الإفريقي من الإسبان، وتطلعت إلى ضم المغرب ومحاولة إرجاع الأندلس(الفردوس المفقود) إلى حاضرة العالم الإسلامي(العربي–الأعجمي) فقد أسهمت في العديد من المرات بمشاركتها مع الأسطول العثماني، في فتح عدة مناطق جديدة (كفتح تونس الأول1534م)-(والثاني1569م)- (والثالث والأخير1574م) إلى هذا من الجانب القوة البحرية؛ ولا ننسى أن لتونس موقعا استراتيجيا لمراقبة الحركة التجارية بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط وتتحكم في المضيق صقلية (من الجنوب)، أي تتحكم في حركة الملاحة البحرية، بين الضفتين للمتوسط زيادة على مكانتها الممتازة، في المثلث الحيوي (صقلية، مالطة، حلق الوادي) أما من ناحية تثبيت الحدود الجغرافية ،حماية حدودها الغربية(مصر) وحدود إيالة الجزائر الشرقية). لقد حقق باي لارباي(بداية فعلية من خير الدين إلى العلج علي)، الذين حكموا الجزائر في هذه الحقبة ،وفرض كرد فعل(للإسبان وعملائهم الحفصيين) في تثبيت الحكم العثماني الإسلامي في المنطقة المغاربية المتوسطية عموماً، والجزائر أولاً، وتونس أخيراً، هذا من جهة ومن جهة أخرى لتكملة وحدة العالم الإسلامي بحتمية ضم تونس، زيادة على المستوى السامي في الإدارة والتخطيط ثم التنفيذ على أرض الواقع، وبما اتصفوا من الصفات التي حَرص عليها الإسلام فَصقلت شخصياتهم وأحسنوا لرعاياهم واكتسبوا إخلاصهم وولاءهم، فاقترنت صفات الحزم والشدة. إلى جانب صفات التسامح والعدل وإلى جانب ذلك كان هؤلاء الباي لارباي رعاة للعلم وبناة للحضارة.

ونأمل أننا قدمنا بهذا العمل المتواضع كمساهمة في إثراء تاريخنا العريق ومحو غبار النسيان وإخراج هذا العمل من الظلمة إلى النور حتى تكون ميدان اهتمام للباحثين ومصدر جديد، يمكن الاعتماد عليه في الدراسات التاريخية المستقبلية، للوقوف على الحقائق التاريخية، وعرضها على بعضها البعض لاستخراج الوقائع التاريخية الحقيقية بدون زيف أو تغيير، حتى نتم حلقة

من حلقات التاريخ الجزائري والتونسي إبان الفترة العثمانية، حتى تكون لنا فـــكرة شاملة كاملة على العهد العثماني وخاصة منه الفـــترة الأولى (القرن 10هـ/16م) التي لم يعطي لها نصيبها الكافي والشافي من الدراسة والتحليل والتمحيص من طرف المؤرخين، للوقوف على أكبر قدر من المعلومات والوقوف على حقيقة الأحداث التاريخية.

- ونأمل أن تكون هذه الدراسة قد غطت جانباً كبيراً عن الحياة السياسية والاجتماعية فالاقتصادية والثقافية ثم الحضارية، عن دور الجزائر في تدعيم الحكم العثماني في تونس خلال القرن 16م.

- ومن خلال هذه النتائج نأمل أننا وفقنا في الإلمام بكل ما جاء في هذه الدراسة حتى تكمل لنا الصورة الحياة العامة لتلك الفترة هذا من جهة وقصد وازدياد الاهتمام بها بالدراسة من طرف المؤرخين والباحثين حتى لا تندثر وتزول.

- إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة متواضعة هدفها معرفة عوامل نهوض الأمة الجزائرية في تدعيم وتثبيت الحكم العثماني الإسلامي في تونس خلال القرن16م وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسد الخللا   جلّ من لا عيب فيه وعلا

- وأسأل اللـّه العلي العـــظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالنا الصالحة التي أتقرب بها إليه وألا يحرم إخـــواني الذين أعـــانوني على إكماله من الأجر والمثوبة وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم}.

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات   أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي   والخير أن يأتينا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة   ولاعن النفس لي دفع المضرّات

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً   كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم   وكلهم عنده عبد له آتي

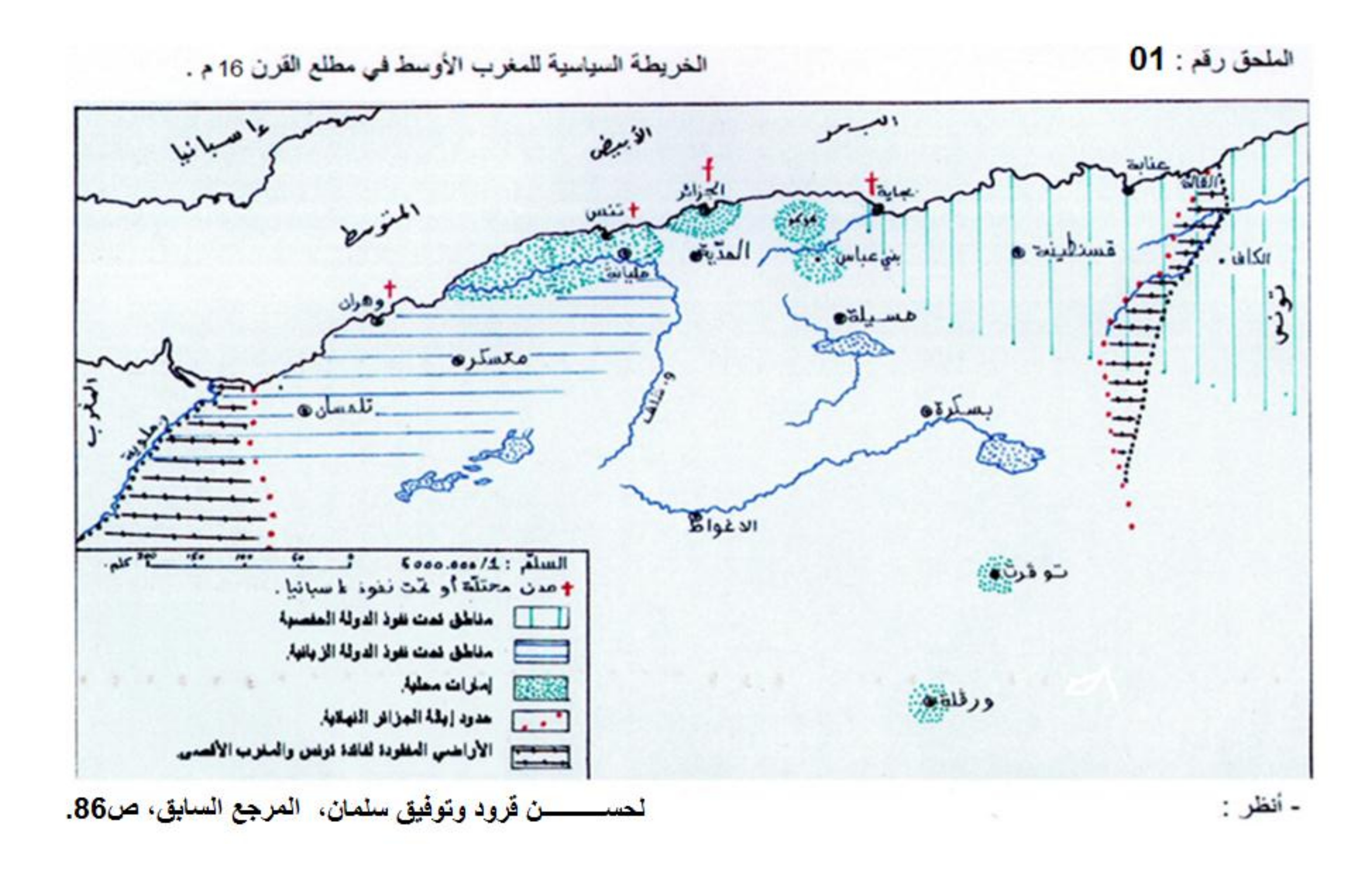
"سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك"

" وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ".

الــمــلاحـــــق

الملحق رقم : 01

الخريطة السياسية للمغرب الأوسط في مطلع القرن 16 م .



- أنظر : لحســـــن قرود وتوفيق سلمان، المرجع السابق، ص86.

الملحق رقم: 02


P. R. 11-207

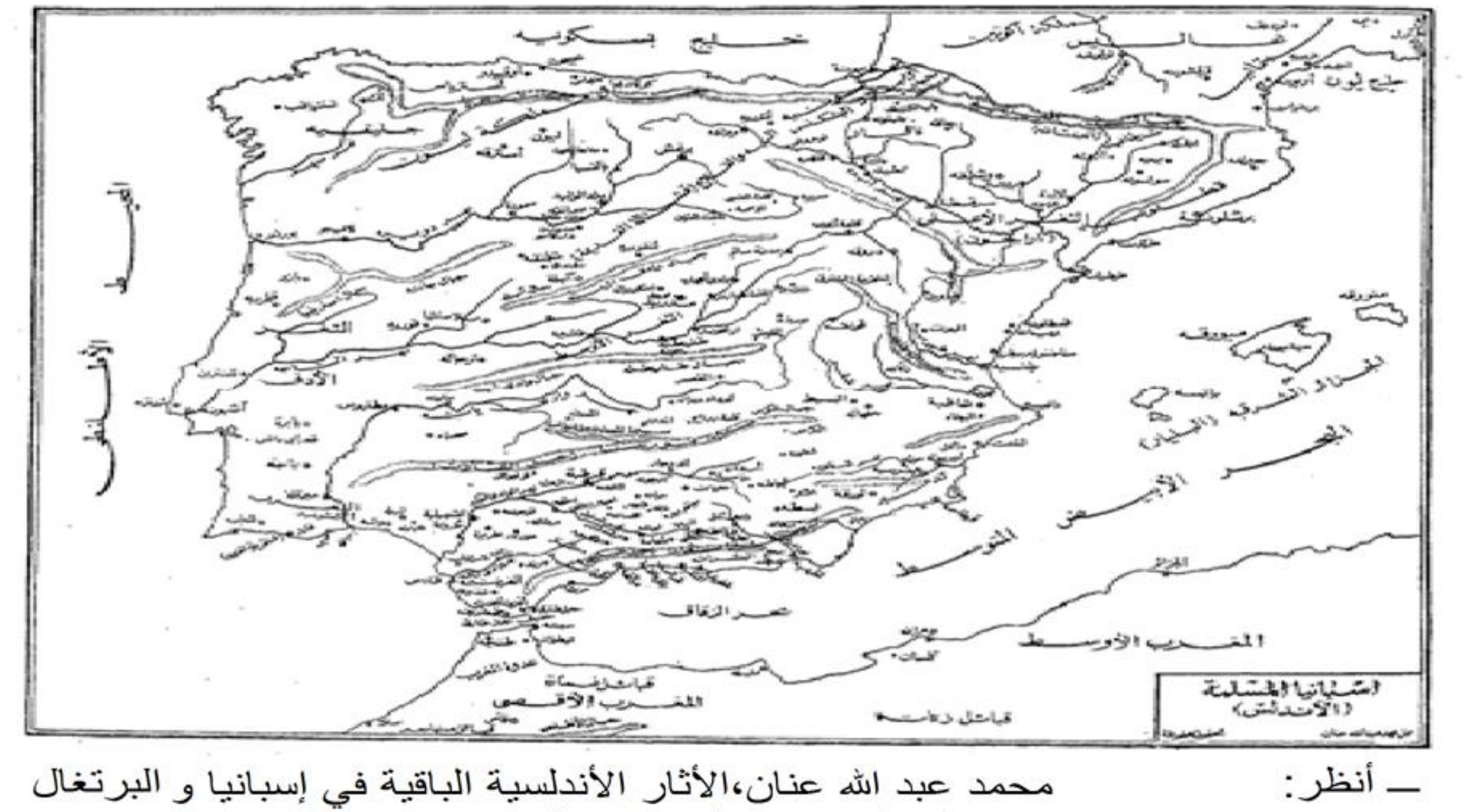
& 575

وثيقة نادرة للصلح المشؤوم، معاهدة الصلح في غرناطة والتي وقعها فيرناندو وايزابيلا (محفوظة في مدريد) والملك الصغير (عبدالله) حيث تولى الوزير أبو القاسم عبد الملك إتمام الاجراءات والتوقيع، الذي تم فعلاً في الثاني من ربيع الأول عام ٨٩٧هـ الموافق للثاني من كانون الثاني لعام ١٤٩٢م، وفي هذا التاريخ دخل فرديناند الخامس وايزابيلا قصر الحمراء الذي أعدّ لهما. (فما أشبه وثائق الاستسلام (السلام) اليوم بهذه الوثيقة).

انظر إلى :

طارق محمد السويدان، المرجع السابق، ص490.

الملحق رقم: **03** ـ خريطة إسبانيا في بداية القرن 16.

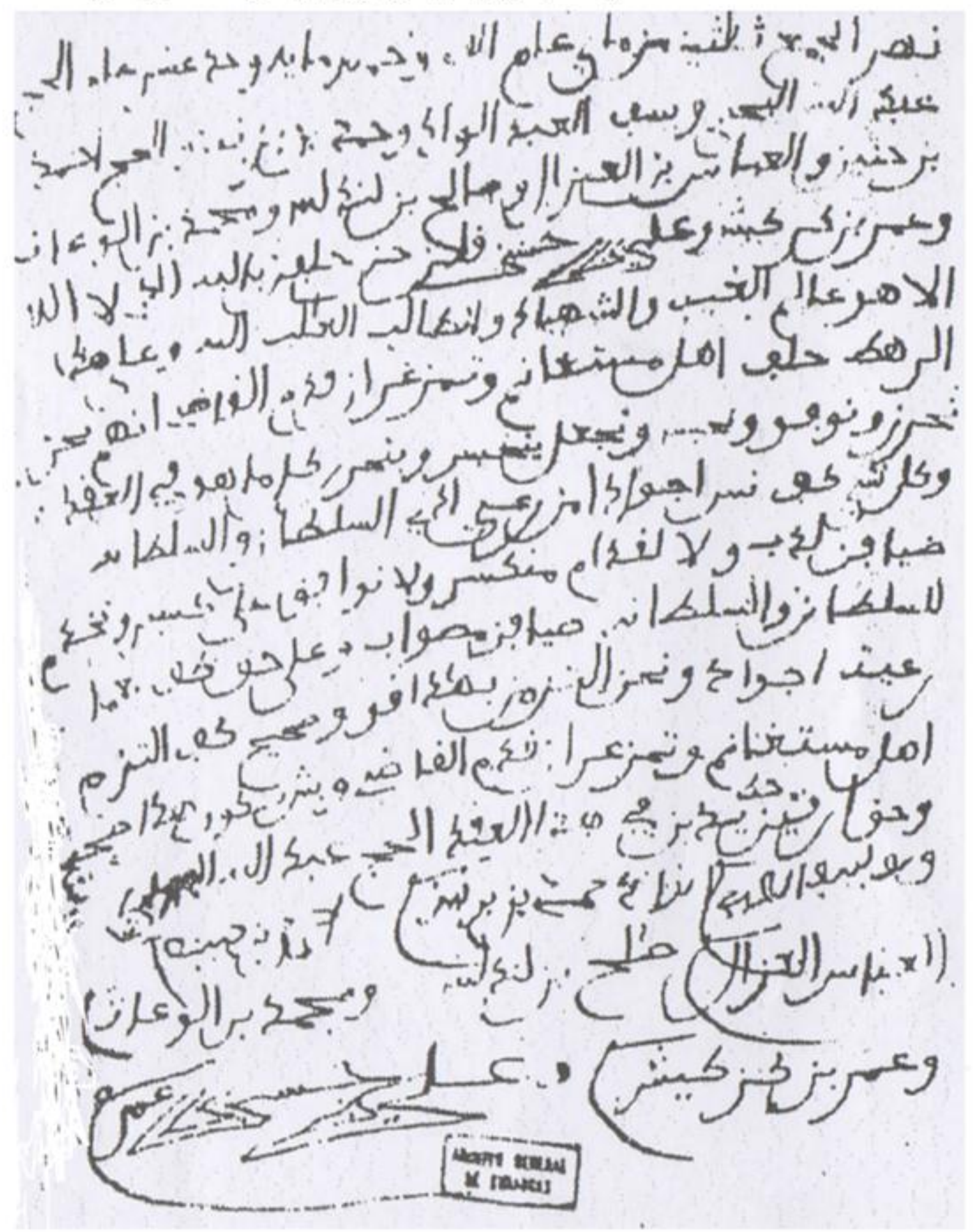


ـ أنظر: محمد عبد الله عنان، الأثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، **1997**م، ص**167**.

- الملحق رقم: 04

وثيقة إسبانية توضح تبعية مدينة مستغانم لهم

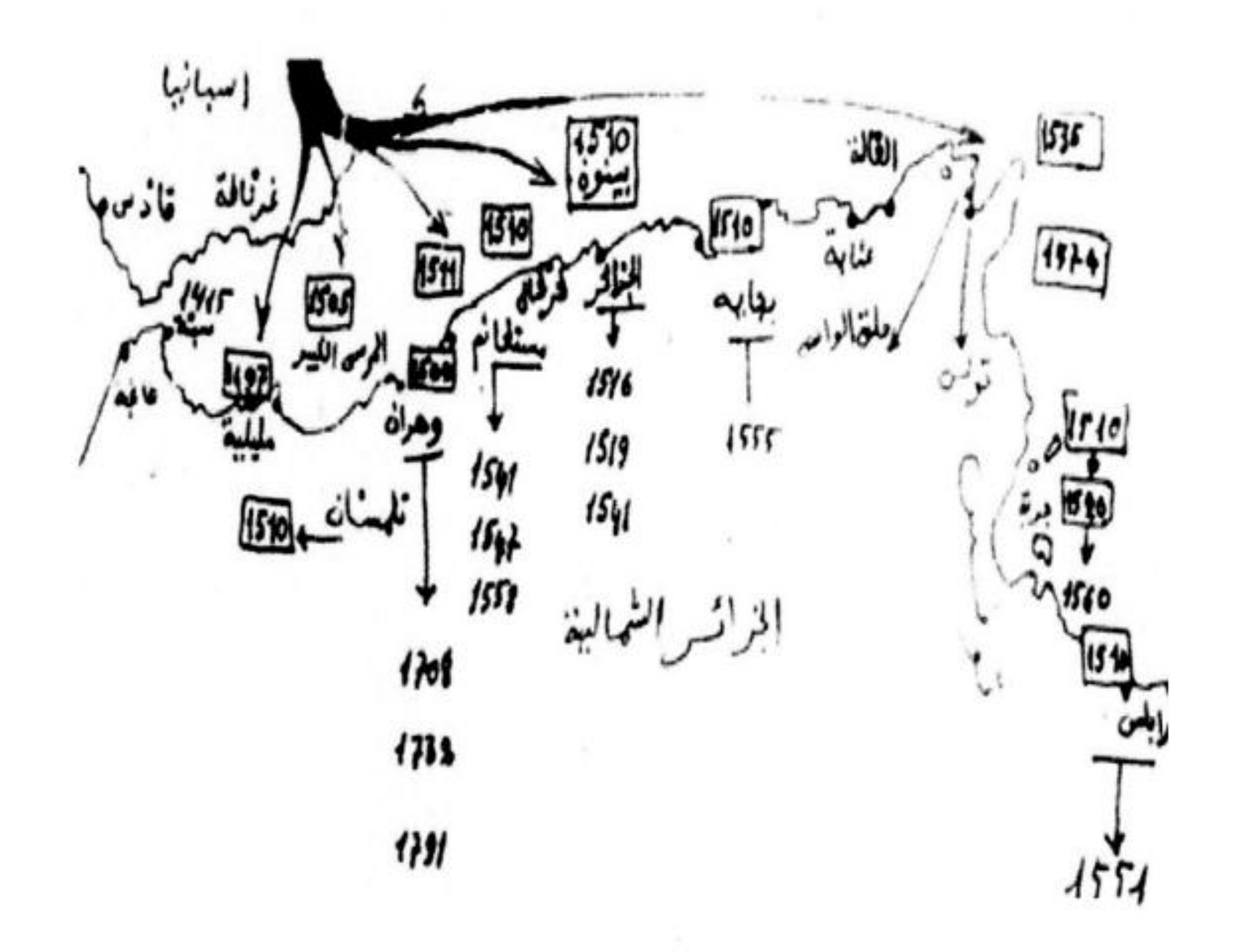
و ذلك عن طريق إعلان بعض أعيان و كبار أهاليها، الطاعة والولاء لهم



- أنظر: أرشيف سيمانكاس (إسبانيا)، نقلا: عن أحمد توفيق المدني،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1492 - 1792م) ،المرجع السابق ،ص 150.

الملحق رقم : 05

التحرشات الإسبانية على موانئ الشمال الإفريقي في القرن 16 م.

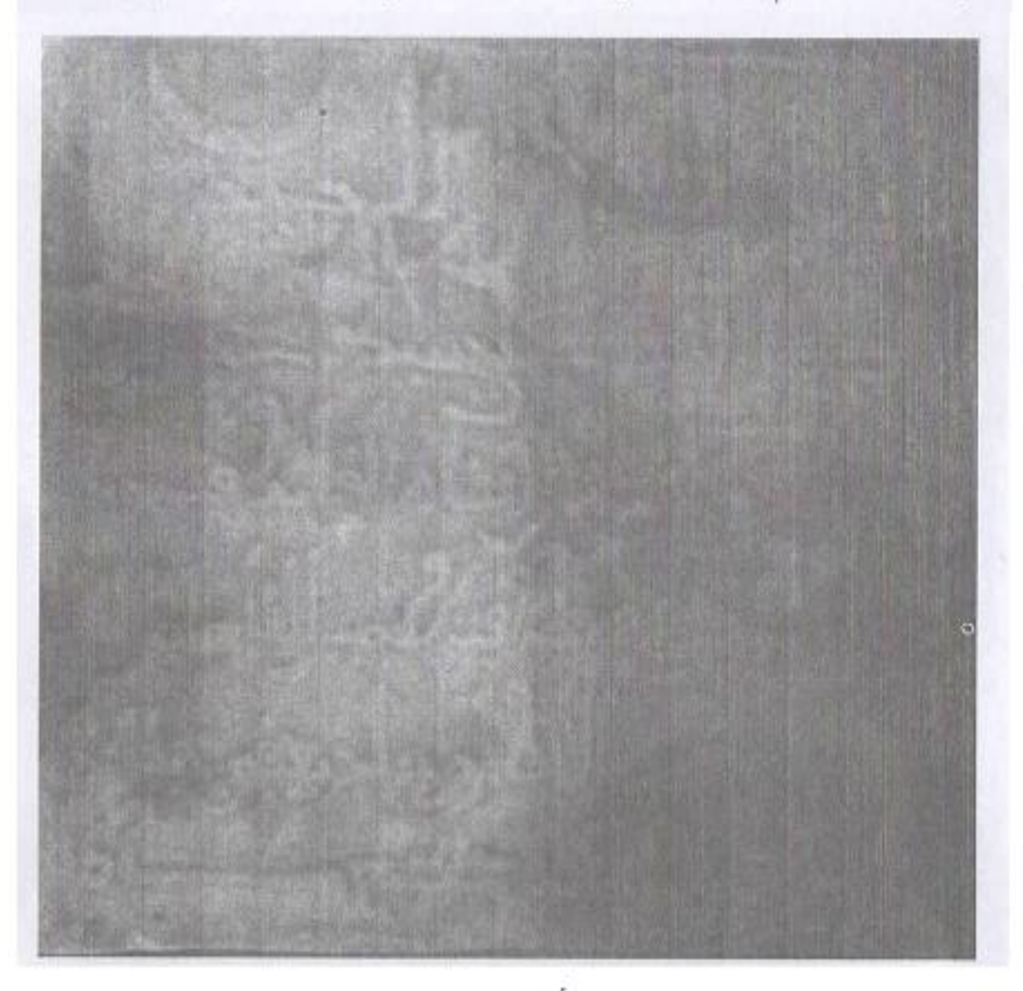


- انظر:

يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا، المرجع السابق، ص 29 .

- الملحق رقم : 06 صورة الرخامة التي كانت موجودة على باب حصن شرشال، مكتوب عليها : «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله. هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب بإذنه بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة». (وهذا التاريخ يوافق سنة 1518)

ويلاحظ فيها اسم عروج مدونا بأصله التركي الصحيح: أروج. كما يلاحظ اسم والده الذي اختلف الباحثون فيه. وهو يعقوب.



- أنظر:

المصدر : متحف برج تامنفوست (الجزائر) عن محمد دراج،الدخول العثمانيين إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس فيه (1512م 1543 م)، المرجع السابق، ص 391.

الملحق رقم:07.

وثيقة طلب أهل مدينة الجـــزائر الانضواء تحت راية الخلافة العثمانية (1519م).

- أنظر: من محفوظات أرشيف قصر توب كابي سراي،إستانبول تركيا،رقم6456 نقـــلا عن مذكرات خير الدين بربروس ، ترجمة محمد درّاج،المرجع السابق،ص119 ملحق رقم3.

ترجمة للعربية: الرسالة التي أرسلها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. (أرشيف قصر توب كابي سراي، إستانبول. رقم: 6456).وهذا نصّ ترجمتها :

رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأمناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة

إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية. دعاء يبلغها أقصى الأماني، فإن عبيدها بالجزائر يكتبون إلى مقامها العالي معبرين ومعترفين. وإن رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. وإن سعادة أيامكم هي قوتنا. ونحن لزمام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا. فقد أطعنا أمركم، وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم، يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم قصد غير شريف مقامكم العالي.

لقد جرت حوادث جليلة، ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله. ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد. غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة. وبقينا كذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب. ولكن تمسكنا بحبل الله المتين، واتكلنا عليه. غير أن طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته. وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخفوا على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي

والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلى وهران وبجاية وطرابلس. وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة.

آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله أوروج باي مع ثلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا كنا في خوف من عدونا فخلصنا بفضل الله. وأرورج باي المشار إليه جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار(واتصل) بالمسلمين. فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها وشاهد الكفار عندما دخل المسلمون القلعة، وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم.

لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهار، من طلوع الشمس إلى غروبها. وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة أروج القتال بقي المشال إليه يقاتل الكافر مع جماعة قليلة. وكان قد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان.

وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله، أبو التقى خير الدين.وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف. على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثاتبون. كيف لا نحبه وهو المشمر على ساعد الجدّ والإقدام.

ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين

كان قد عزم قصد جنابكم العالي، إلا أن عرفاء البلد المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل ونحن على غاية الضعف والبلاء.

لهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي. وأن المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث والسلام.

أوائل ذي القعدة 925هـ

- انظر: - مولاي، بلحميسي: "مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية و الأجنبية"، المرجع السابق ،ص32.

الملحق رقم : 08

عروج بارباروس



- أنظر :

. Chez Pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire Ordinaire du ROI. Au Palais, aux armes de la Ville. Deuxième édition A Paris1646,P09

الملحق رقم09: السلطان أبو عبد الله الحفصي

السلطان مولاي الحسن الحفصي

- أنظر : لحســـــــن قرود وتوفيق سلمان، المرجع السابق، ص 92.

الملحق رقم: 10

خريطة الجزائر حول الحملات الإسبانية على الجزائر 1519م/1520م و الحملة الزيانية و الحملة الحفصية وتمرد ابن القاضي 1520م



- أنظر .

من اعداد الطالب

الملحق رقم : الملحق رقم **11 :** الإمبراطور الإسباني شرلكان



أنظر: **لحســـــــن قرود وتوفيق سلمان، المرجع السابق، ص 96**

الملحق رقم: 12 حول التقسيم الإداري الأول للجزائر في عهدعروج بربروس والثاني في عهد خير الدين بربروس.

- أنظر .

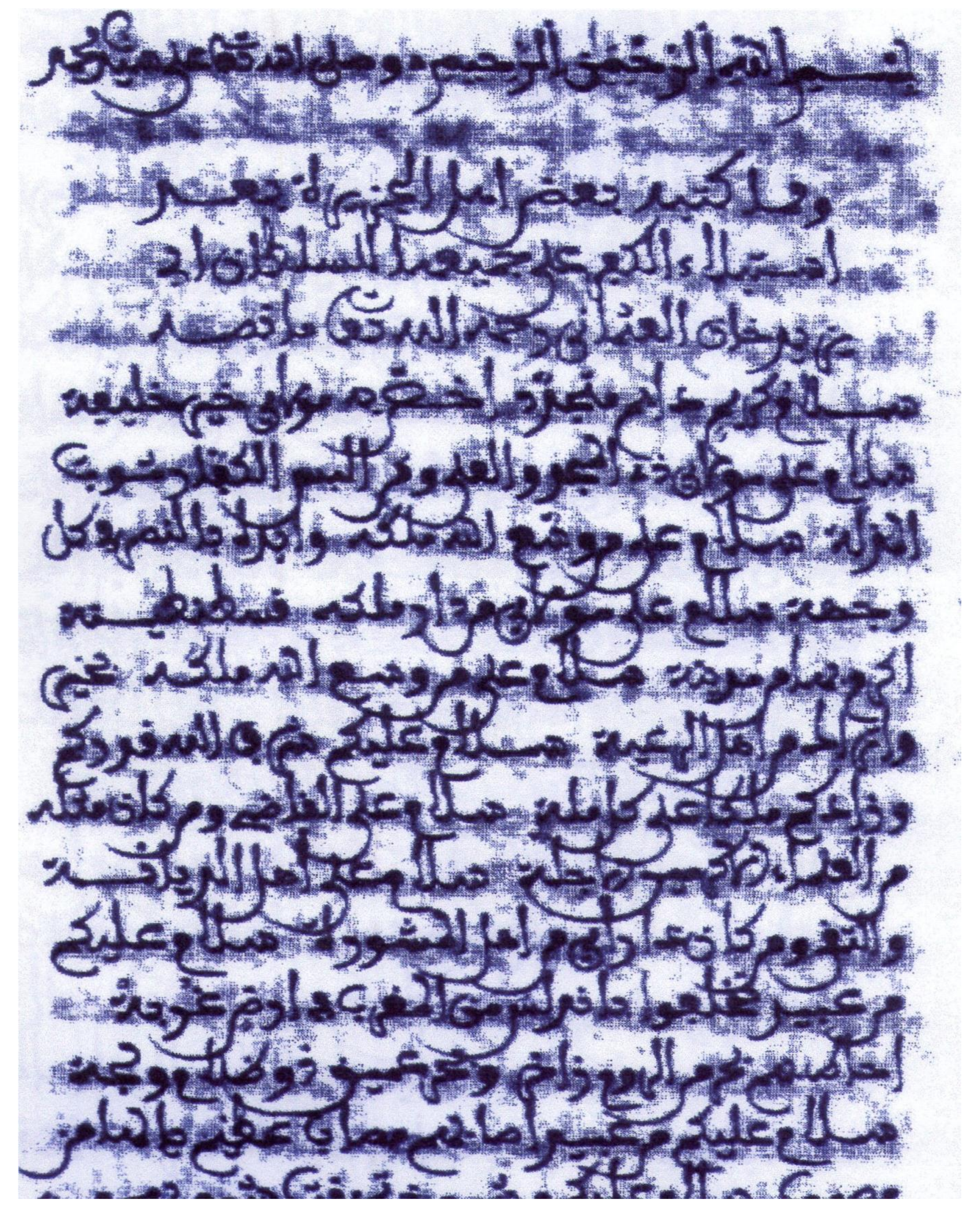
من اعداد الطالب

الملحق رقم: 13   السلطان العثماني سُليمان القانوني (1520-1566م)



أنظر: حضرة عزتلو بك آصاف، تاريخ سلاطين بنى عثمان من أول نشأتهم حتى الأن. تقديم محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1995م، ص60.

الملحق رقم:14 **الرسالة التي أرسلها مسلموا الأندلس إلى السلطان العثمان (بايزيد الثاني)،يستنجدون به على الإسبان .**



بالنتف من بعد العزة . سلام عليكم من وجوه تكشفت
على جملة الاعلاج من بعد ستره . سلام عليكم من
بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلوة . سلام
عليكم من عجائز اكرهت على اكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل ارض بساطكم وندعو الكم بالخير في كل
ساعة ادام الاله ملككم وحياتكم وعافاكم من كل
سوء ومحنة وايدكم بالنصر والظفر بالعدا واسكنكم
دار الرضى والكرامة شكونا لكم مولاي ما قد اصابنا
من الضر والبلوى وعظم المصيبة غدرنا ونصرنا
وبدل ديننا وعملنا بكل قبيحة وكنا على دين النبي
محمد نقاتل عماد الصليب بنية ونلقى اصوارا في الجهاد
عظيمة بقتل واسر ثم جوع وقلة فجاءت علينا
الروم من كل جانب بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيهم فرقة بعد
فرقة وفرسانهم تزداد في كل ساعة وفرساننا في حال
نقص وقلة فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ومالوا
علينا بلدة بعد بلدة وجاءوا بانفاط عظام كثيرة تهد

أسوار البلاد المنيعة وشددوا عليها الحصار بقسوة

شهورا وأياما بجموع عزيمة فلما أيقنا أن خيلنا ورجالنا

ولم تزل أمر إخواننا مغاثة وقلت لنا الأقوات واشتد

ولنا الطعام بالحرب خوف العظيمة وخوفنا على

أبنائنا وإخواننا من أن يؤسروا أو يقتلوا أشد القتلة

على أن نكون مثل ما كان قبلنا من الرجوع من أهل البلاد

الغربية ونبقى على دار إننا وصلنا قتلوا أخي في شيئ

من أمور الشريعة ومن هناك البحر جاز موقفنا بما شاء من مال

البلاد من عروة التي تخيم في الدم منهم وكل كثيرة

تمر على الخمسين ثم طا خمسة فقال لنا سلطاننا

وكتبهم الحكم ما شئتم فعيلنا بالزيادة وأمدا لنا

كتبا بمعروف وموثوق وقال لنا منزل أماننا ومنه فكونوا

على أموالكم ودياركم كما كنتم من قبل دون أذية

فلما دخلنا تحت عقل دماء منهم بدل الكفر دعم صمه بينا

بنقض العزيمة وخان عهود الكان فرحة أنا بها وحضرنا

كم ها بفتنة وشقوة والحق ما كان لنا من صاحب

وخلفهما بالزيارة بالجماعة وكل كتب كلام بعام دينا

فبعد البلاد الفاسدة منه ومن حمايه ولم يتم كواقيهم

– أنظر : المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، تحت رقم **1620**.

الملحق رقم: 15 خريطة الجزائر حول التقسيم الإدارى 03في عهد خير الدين بربروس وتونس الحفصية. 1528م



ـ أنظر: شارل أندري جوليان،المرجع نفسه ،ص373 .

الملحق رقم: 16 ـ الحملة العثمانية الجزائرية على تونس بقيادة خير الدين بربروسا سنة 1534م.



ـ أنظر: – *Battle: a Visual Journey Through 5000 Years of Combat* .

Grant, R. G2005 . *La Marina Cántabra*.

Ballestero s-Beretta, Antonio. 1968.P.123.

الملحق رقم: 17 ـ الحملة الإسبانية على تونس 1535 م:

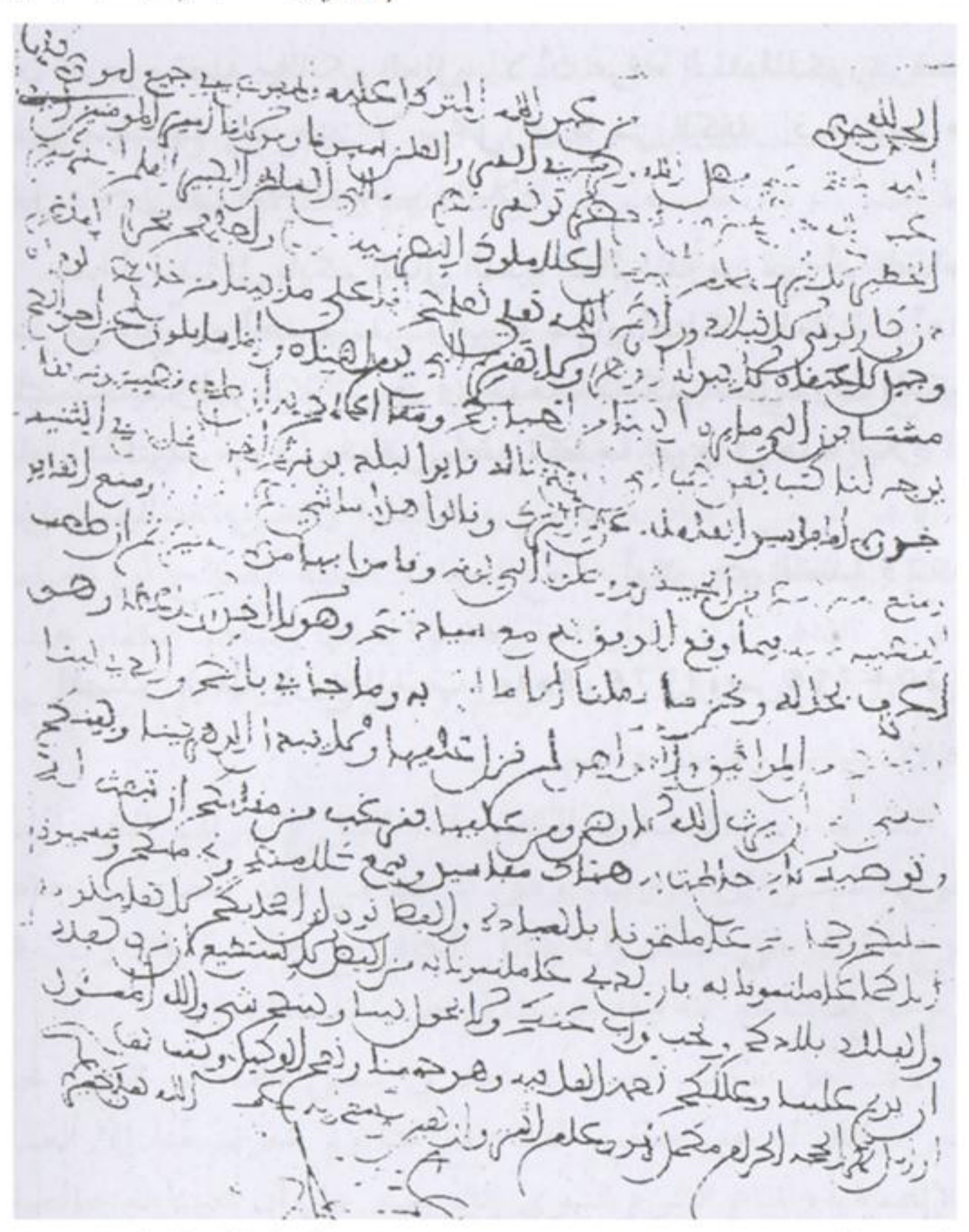


ـ أنظر:

- *Battle: a Visual Journey Through 5000 Years of Combat*. Grant, R. G 2005.

La Marina Cántabra. Ballesteros-Beretta, Antonio. 1968 .p,147.

- الملحق رقم: 18 المعاهدة التي عقدت بين السلطان الحفصي المتوكل و الإمبراطور الإسباني شرلكان سنة (1536م) .و المتعلقة بتسليم مدينة عنابة للإسبان.



- أنظر: أرشيف سيمانكاس (p.R.11-20).(إسبانيا)، نقلا: عن محمد درّاج،الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس فيه (1512-1543)، المرجع السابق،ص **398**.

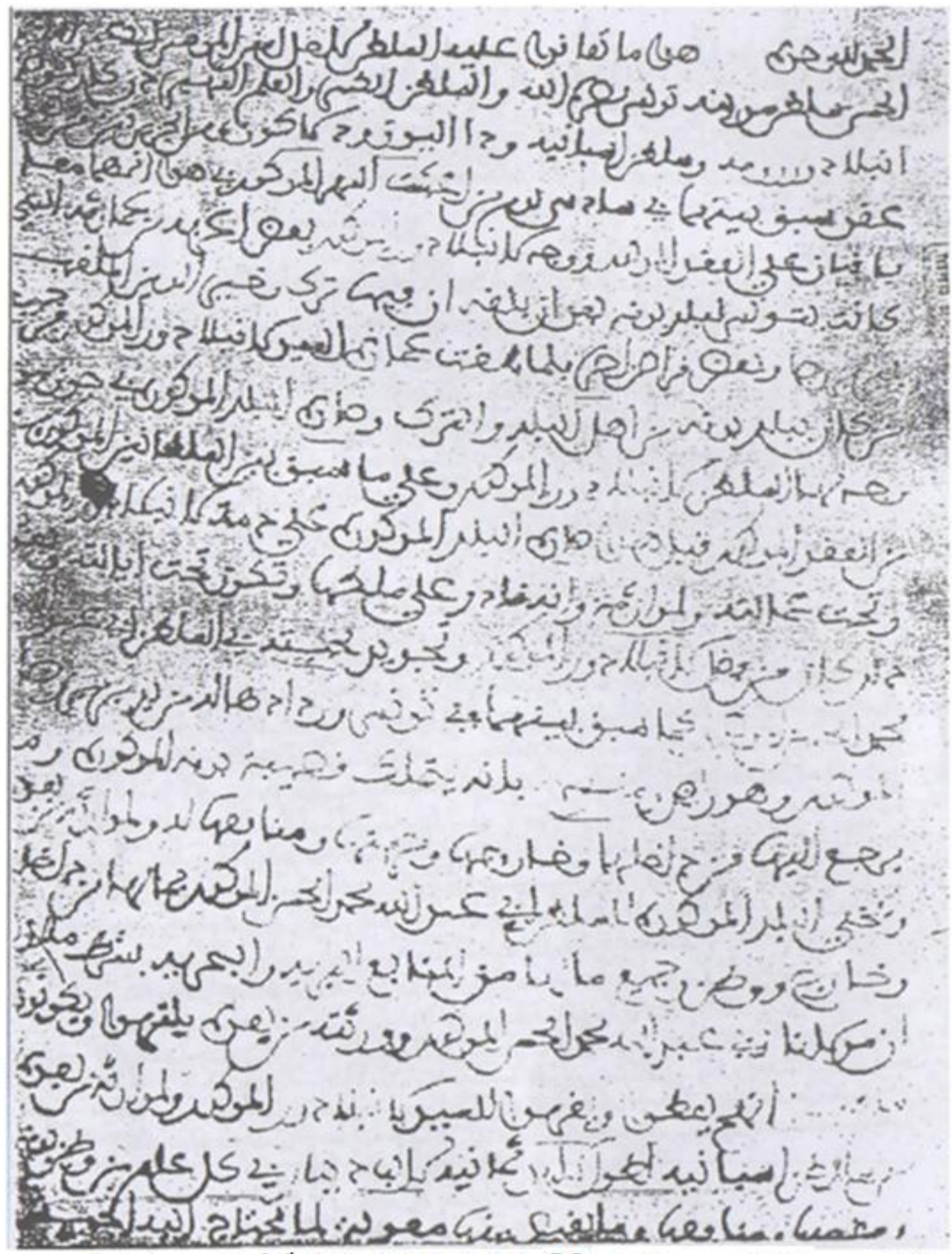
الملحق رقم : 19

حملة الامبراطور الاسباني شارلكان ،على مدينة الجزائر 1541م

QUINT EN OCTOBRE 1541 L'ATTAQUE D'ALGER PAR CHARLE

ـ أنظر: Chez Pierre Rocolet,Op.cit,p.16.

- الملحق رقم: 20 المعاهدة التي عقدت بين السلطان الحفصي المتوكل و الإمبراطور الإسباني شرلكان سنة(1536م)، المتعلقة بتبعية تونس للإسبان.



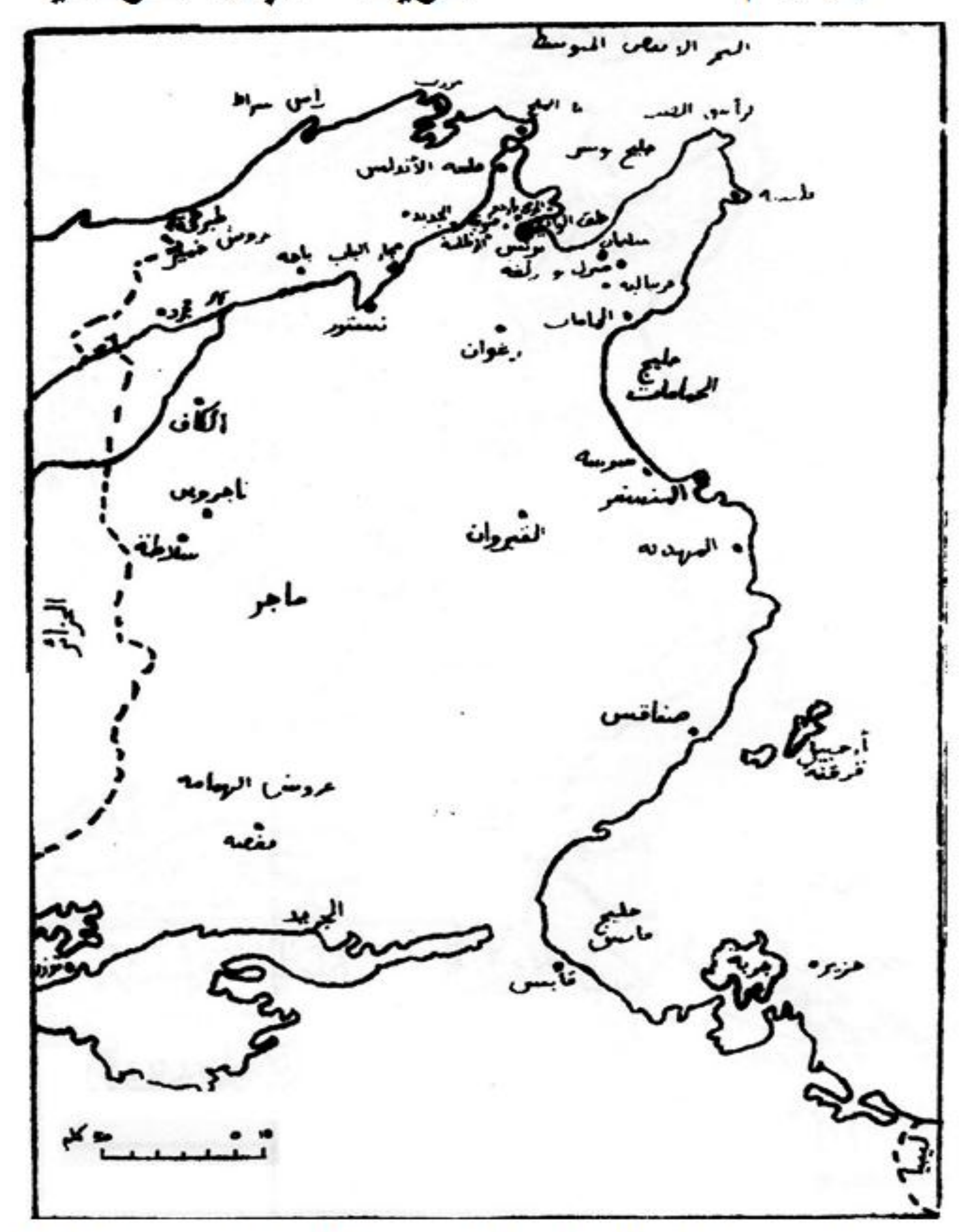
- أنظر: أرشيف سيمانكاس P-R.11-20 بإسبانيا،نقلا عن محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس فيه (1512-1543م) المرجع السابق، ص399.

الملحق رقم:21 خير الدين بربروس



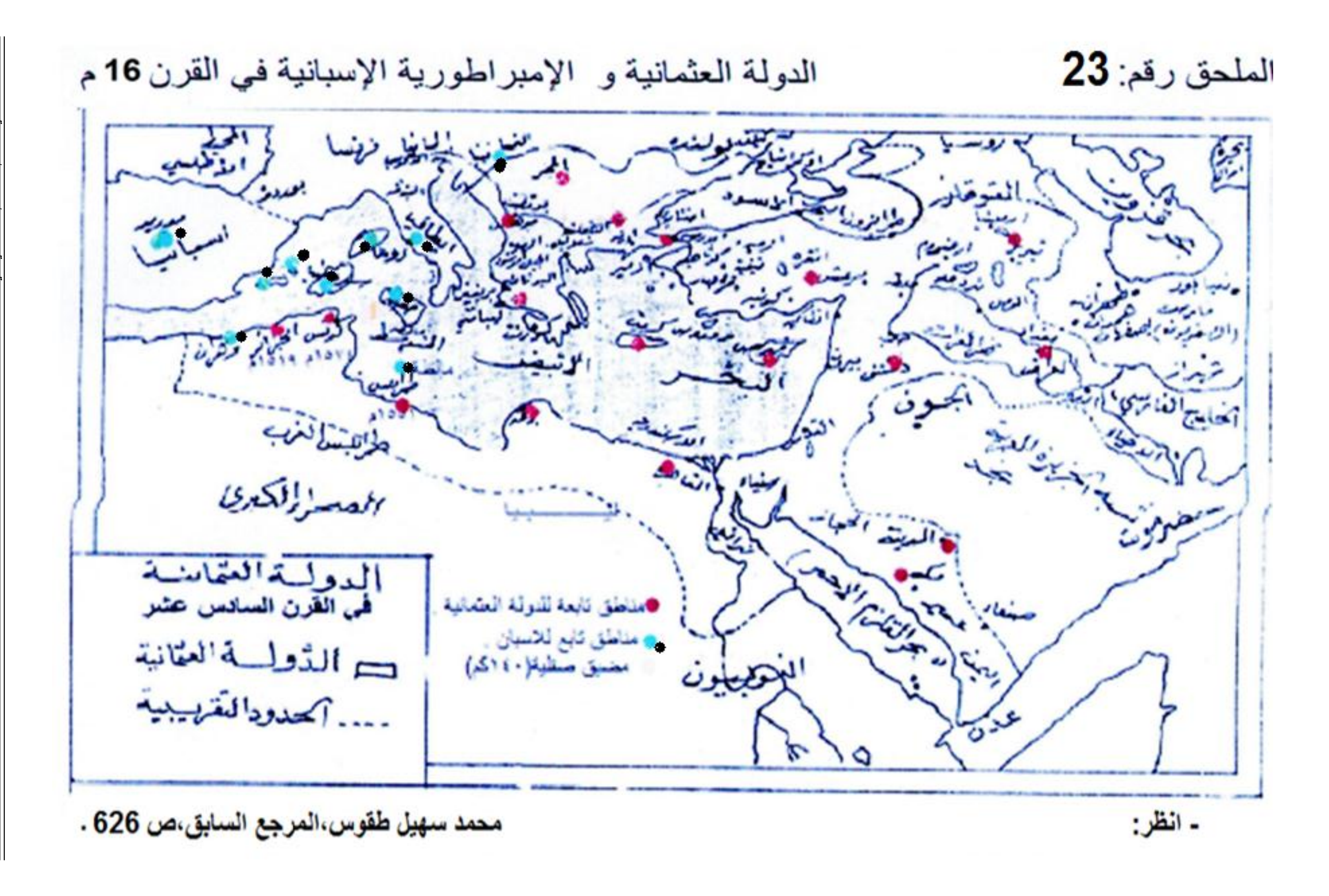
- انظر : عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو،المرجع السابق،ص131.

ملحق رقم: 22 خريطة البلاد التونسية



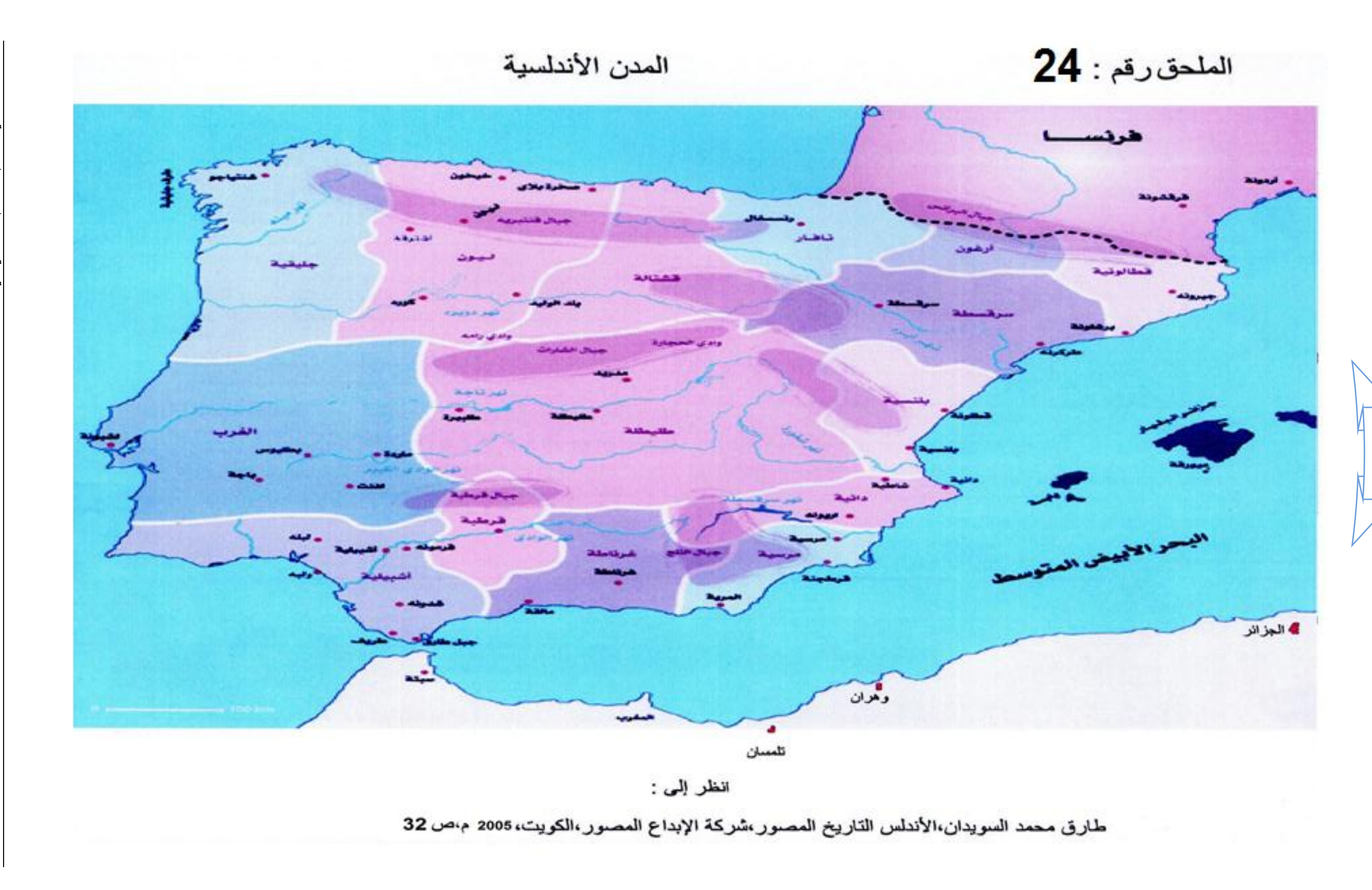
- أنظر : رشاد الإمام، المرجع السابق، ص436.

الملحق رقم: 23   الدولة العثمانية و الإمبراطورية الإسبانية في القرن 16 م



- انظر: محمد سهيل طقوس، المرجع السابق، ص 626 .

الملحق رقم 24 : المدن الأندلسية



انظر إلى :

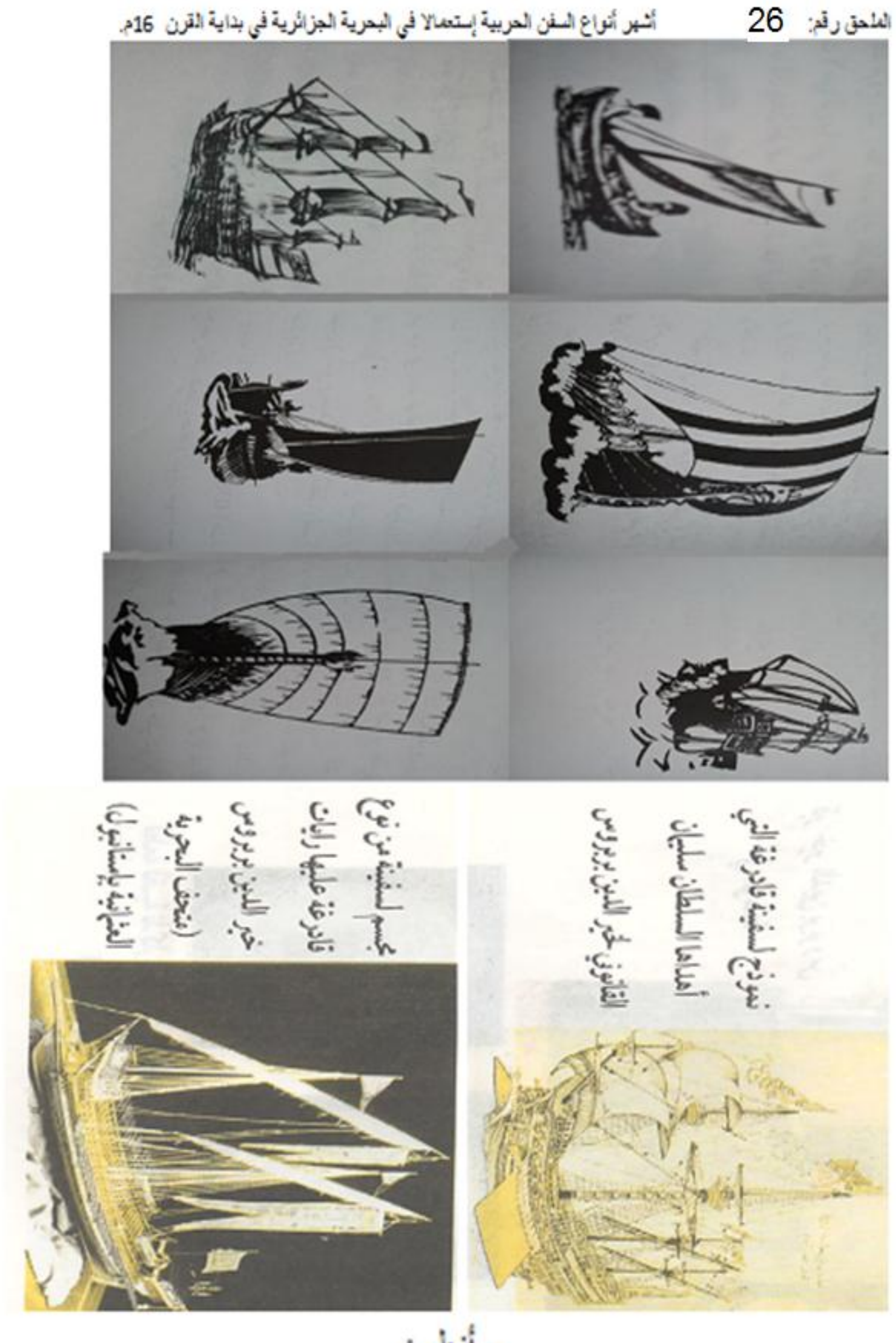
طارق محمد السويدان،الأندلس التاريخ المصور،شركة الإبداع المصور،الكويت، 2005 م،ص 32

الملحق رقم: 25 — الموقع الإستراتيجي لتونس

أيطاليا
رأس أذار
عنابة
سكيكدة
باجة
العريانة
تونس
بانتلاريا
جندوبة
قسنطينة
36
الكاف
سيلانة
نابل
سوسة
تبسة
القيروان
مساكن
المهدية
القصرين
صفاقس
البحر الابيض المتوسط
قفصة
الجزائر
توزر
قابس
حومة السوق
قبلي
جزيرة جربة
مدنين
ورقلة
الدويرات
طرابلس
تونس
100كم
100ميل
ليبيا

- أنظر: شوقي ابو الخليل، المرجع السابق، ص113.

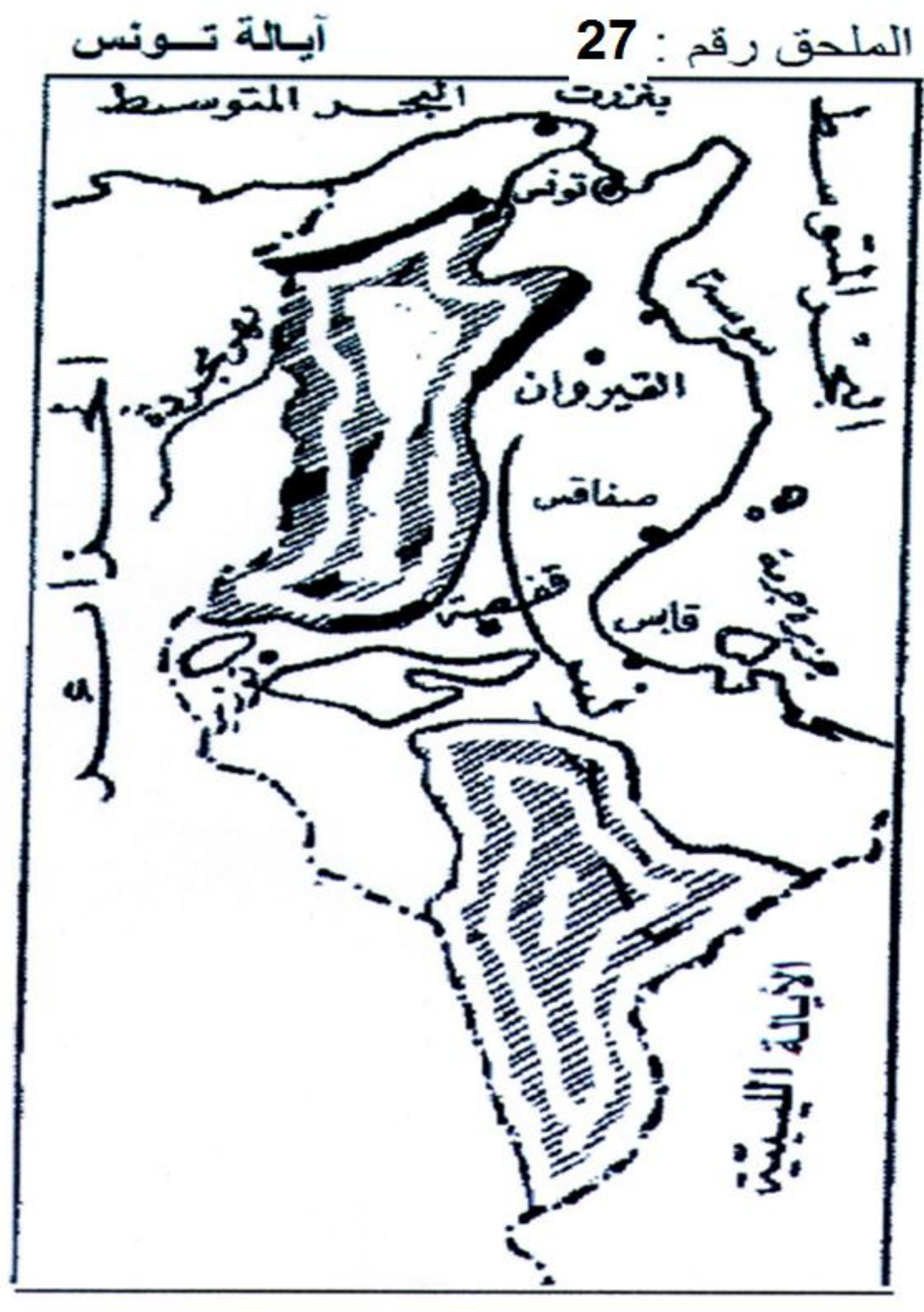
الملحق رقم: 26 أشهر أنواع السفن الحربية إستعمالا في البحرية الجزائرية في بداية القرن 16م.



- أنظر:

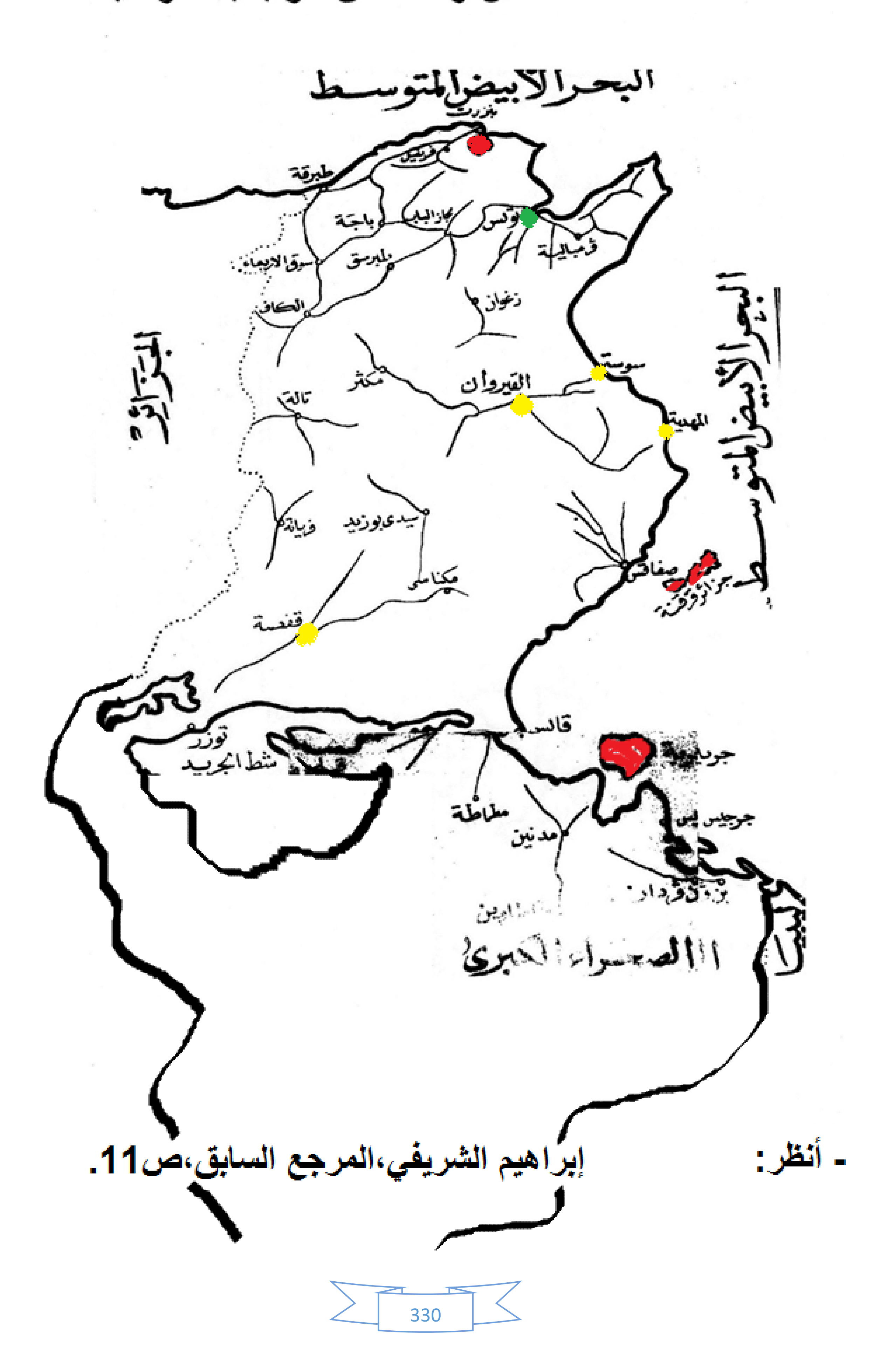
مذكرات خير الدين بربروس،ترجمة وتحقيق محمد درّاج،المرجع السابق،ص 7 .

الملحق رقم : 27   آيالة تــونس



- انظر: حسن محمد جوهر، المرجع السابق، ص 09.

الملحق رقم : 28 المدن و المناطق الرئيسية التونسية



- أنظر: إبراهيم الشريفي، المرجع السابق، ص11.



- أنظر:

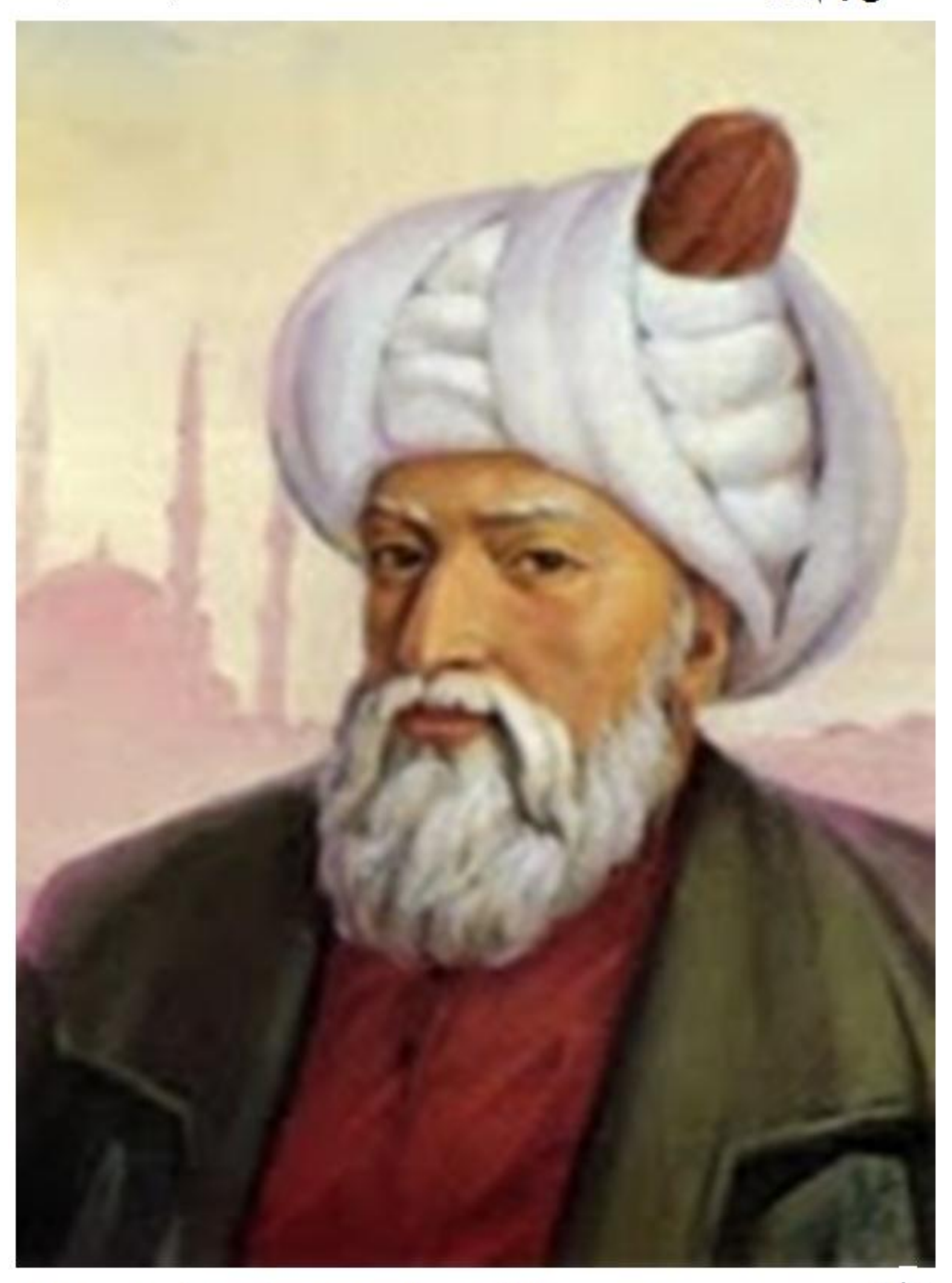
مذكرات خير الدين بربروس،ترجمة وتحقيق محمد درّاج،المرجع السابق،ص ص (4-8).

ـ أنظر: شاكر مصطفي،موسوعة دول العالم الإسلامي و رجالها،دار العلم للملايين ،بيروت،لبنان، 1993م،ص 63



ـ الملحق رقم 30 خريطة لتونس عن طريق القمر الصناعي.

الملحق رقم: 31 الباشا سنان باشا



- أنظر: لحســـــــن قرود وتوفيق سلمان، المرجع السابق، ص 102

البيبليوغرافيا

- قائـــــــــــــــــمة البيبليوغرافيا :

01-الوثائق والمخطوطات:

1-1:الوثائق الأرشيفية:

أولاً -الوثائق الأرشفية العثمانية: مهمة دفتري.

- مهمة دفتري،رقم 09،حكم رقم 231،ص136،بتاريخ 977/10/23هـ.
- مهمة دفتري،رقم 15،حكم رقم 94،ص13،بتاريخ 17 /5/ 978هـ -10/17/ 1570م.
- مهمة دفتري،رقم 14،حكم رقم 603،ص423،بتاريخ978/6/22هـ.
- مهمة دفتري،رقم 15،حكم رقم367،ص173،بتاريخ 2 /11/ 978هـ -3/28/ 1571م.
- مهمة دفتري،رقم19،حكم رقم 518،ص249،تاريخ12/17/ 978هـ- 5/12/ 1571م.
- مهمة دفتري،رقم 15،حكم رقم 195،ص108،بتاريخ 978هـ- 1571م.
- مهمة دفتري،رقم 28،حكم رقم 1003،ص523،بتاريخ 979/8/23هـ- 8/3/ 1572م.
- مهمة دفتري،رقم32،حكم رقم 1074،ص563،بتاريخ979/8/24هـ- 9/3/ 1572م.
- مهمة دفتري،رقم 29،حكم رقم 1004،ص524،بتاريخ 979/8/25هـ-3/10/ 1572م.
- مهمة دفتري،رقم30،حكم رقم1037،ص541،بتاريخ979/8/25هـ-3/10/ 1572م.
- مهمة دفتري،رقم 10،حكم رقم 10،ص8،بتاريخ 979/01/02هـ.
- مهمة دفتري،رقم 10،حكم رقم06،ص04،بتاريخ 979/01/02هـ، فيها ملحق.
- مهمة دفتري،رقم 10،حكم رقم22،ص19،بتاريخ 979/01/02هـ، فيها ملحق.
- مهمة دفتري،رقم 10،حكم رقم19،ص17،بتاريخ 979/01/02هـ، فيها ملحق.
- مهمة دفتري،رقم 14،حكم رقم 284،ص 200،بتاريخ979/02/03هـ.
- مهمة دفتري،رقم 18،حكم رقم 237،ص135،بتاريخ979/10/19هـ.
- مهمة دفتري،رقم 12،حكم رقم 1037،ص541-543،بتاريخ 979/10/25هـ.
- مهمة دفتري،رقم 12،حكم رقم 1088،ص571،بتاريخ 979/11/02هـ.
- مهمة دفتري،رقم579،حكم رقم 243،ص 5،بتاريخ 979هـ- 1571م.
- مهمة دفتري،رقم 19،حكم رقم 264،ص123،بتاريخ 980/2/4هـ، فيها ملحق.
- مهمة دفتري،رقم1102،حكم 1102،بتاريخ 979/11/8هـ- 23 /3/ 1572م.
- مهمة دفتري،رقم21،حكم رقم 509،ص 213،بتاريخ 980/11/21هـ، فيها ملحق.
-مهمة دفتري،رقم 24،حكم رقم 166ص59 ،بتاريخ 981/12/05هـ.
- مهمة دفتري،رقم 24،حكم رقم 168،ص60،بتاريخ 981/12/05هـ.

- مهمة دفتري،رقم 24،حكم رقم 167،ص61،بتاريخ 981/12/05هـ.
- مهمة دفتري،رقم 24،حكم رقم 198،ص72،بتاريخ 981/12/05هـ.
- مهمة دفتري،رقم 24،حكم رقم246 ،صص91-92،بتاريخ 901/12/14هـ.
- مهمة دفتري،رقم21،حكم رقم 637،ص266،بتاريخ 980/12/16هـ، فيها ملحق.
- مهمة دفتري،رقم 32،حكم رقم 1003-1004،ص62، (د-ت).

-ثانيا: الوثائق المنشورة باللغة الأجنبية:

-**Charrière ،Ernest**: la Négociation de la France dans le levant Extrait de correspondance de Rome et de Venise, 4T, Paris, (1848- 1860).

1-2:المخطوطات:

- محفوظات المكتبة الوطنية الجزائرية:

- رسالة من مسلمي الأندلس إلى السلطان العثماني ،تحت رقم 1620، (قسم المخطوطات).

02-المصادر:

1-المصادر العربية:

1-أ: المصادر المخطوطة:

- **التلمساني، ابن رقية محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني**: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية،الجزائر،تحت رقم: (1626).

- **التمقروتي، أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجازولي**: النفحة المسكية في السفارة في السفارة التركية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر،تحت رقم: (20116).

- **خوجة، الحاج حسين**: بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر،تحت رقم:(2912).

- **مجهول**:الغزوات أوتاريخ بربروس، عرّوج وخير الدين، منذ البداية إلى حملة شارل العاشر (948 هـ -1541م)، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، تحت رقم: (1622- 766).

- **مجهول**: مخطوط الحكمة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، تحت رقم :(1100).

1-ب:المصادر المطبوعة(العربية والمعربة):

-**الأثير،علي بن محمد الجزري الشيباني**: الحلل السيراء، تحقيق حسين مؤنس، مصر،1964م.

- **الأفراني،ابو عبد الله محمد الحاج الصغير**: (المتوفي حوالي 1152هـ/1739م) نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي،نشر هوداس، انجي، المغرب،1877م وأيضا: ط2،الرباط،1988م.

- **التمقروتي،أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد الجازولي**: النفـــحة المسكية في السفارة التركية،ط1،تقديم وتعليق سليمان الصيد المحامي،دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس،1988م.

- **التنسي، ابو عبد الله محمد**: (المتوفي 899هـ/1494م) ،نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه ونشره محمد بوعياد ، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية الجزائر،1985م.

-**التونسي، خير الدين باشا**: (المتوفى 1308هـ/1890م)، أقوال المسالك في معرفة أحوال الممالك، ط1، المطبعة الرسمية،تونس،1967م،و أيضا: مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحمية،الدار التونسية للنشر،تونس،1972م.

- **الجزائري، ابو عبد الله محمد سعيد باشا**: (المتوفي 1331هـ/1913م)،تحفة الجزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الطبعة الأهلية الاسكندرية،مصر،1903م وأيضاً:ط2،(ب-ت) تعليق ممدوح حقي ط3، ج2، (ش، و، ن، ت) الجزائر،2007م.

- **الحشايشي، محمد بن عثمان** : العادات والتقاليد التونسية الهدية أوالفوائد العلمية في العادات التونسية، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحي،تقديم محمد اليعلاوي،دار سراس للنشر،تونس،1994م.

- **الراشدي، أحمد بن عبد الرحمن الشقراني**:(المتوفي بعد 1301هـ/1883م)، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الاوسط، تحقيق ناصر الدين سعيدوني (د،ع،إ)، بيروت 1991م.

- **الراشدي، أحمد بن محمد بن علي بن سحنون**: (المتوفي بعد 1211هـ/1796م) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، ط1، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، (ب-ت) ط 2، مطبعة البعث ،قسنطينة،الجزائر،1973م.

-**الرعيني،محمد ابن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار**: (المتوفى بعد 1110هـ/1698م) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، ط1، المكتبة العريقة تونس،1967م وأيضا:ط3، دار المسيرة لصحافة والطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، 1993م.

- **الزركشي، ابو عبد الله محمد** : (المتوفي بعد 894هـ/1488م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق وتعليق محمد ماضور ، ط2 ،المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

- **الزهار، الحاج أحمد الشريف**: (المتوفي 1289هـ/1872م)، مذكرات الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، (ش،و،ن،ت)،الجزائر،1974م وأيضا: 2 ط،1980م.

- **الزياني، محمد بن يوسف**: (المتوفي بعد 1320هـ/1902م)،دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، (ش،و،ن،ت)، مطبعة أحمد زبانة،الجزائر1978م.

- **السراج، محمد بن محمد الأندلسي الوزير التونسي**: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس،1970م، وأيضاً:ط2، (د،غ،إ) ،لبنان،1984م.

- **السنوسي، محمد بن عثمان**: مسامرات الظريف بحسن التعريف." تراجم علماء تونس " تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر،ج1-2،(د، غ،إ) بيروت،لبنان1994م.

- **الشماع، ابو عبد الله محمد** :(المتوفي حوالي 873هـ/1459م)، الأدلة النورانية في المفاخر الدولة الحفصية، ط1، تحقيق عثمان الكعاك ،مطبعة العرب تونس،1936م.

- **الصديق، محمد بن أبي السرور البكري**: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تقديم وتحقيق وتعليق ليلي الصـــباغ ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1995 م.

- **الضُعيف، محمد بن عبد السلام** : (المتوفي 1233هـ/1818م)،تاريخ الضُعيف أوالدولة السعيدة، تحقيق احمد العماري ،الرباط ،المغرب،1987م.

- **العنتري، صالح بن محمد** : (المتوفي بعد 1293هـ/ 1876م)،فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها المعروفة بتاريخ قسنطينة، تقديم وتحقيق يحي بوعزيز،(د،م، ج)، الجزائر، 1991م.

- **الغبريني، أحمد**: عنوان الدراية فيمن عرف من علماء بجاية،تحقيق محمد بن شنب، المطبعة الحكومية،الجزائر،1910م.

- **الفشتالي، ابو فارس عبد العزيز**: (المتوفي 1031 هـ/1621م)، مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفاء ،تحقيق كريم عبد الكريم،دار التراث ،الرباط،المغرب، 1972م.

- **الكتاني، علي المنتصر**: انبعاث الإسلام في الأندلس، جمع البحوث الإســـلامية الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد باكستان، 1992م.

- **المزاري، ابو اسماعيل بن عودة الآغا**: (المتوفي بعد 1315هـ/ 1897م) طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا ومخزنها الأســـــــود إلى أواخر القرن 19م، دراسة وتحقيق يحي بوعزيز، ج1 ،(د، غ،إ)، بيروت، لبنان، 1990م.

- **المشرفي، ابو المكارم عبد القادر:** (المتـوفي حوالي 1192هـ/1778م) بهجة الناظر في اخبار الداخليين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، لبنان، (د،ت).

- **المقري، ابو العباس احمد** : (المتوفي 1041هـ/1632م) ،نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق احسان عباس،ج1-2، دار صادر، بيروت لبنان، 1988م.

- **النائب، أحمد بك الأنصاري الطرابلسي:** المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، دار الفرجاني، ليبيا، (د- ت).

- **الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي** : المتوفي (1315هـ/1897م) الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى(الدولة السعدية) ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج1-2-4، الدار البيضاء، المغرب، 1955م.

- **الهمذاني، أبي بكر أحمد بن محمد المعروف بابن الفقيه** : مختصر كتاب البلدان،ط1، دار إحياء للتراث العربي، بيروت، لبنان، (1408هـ/1988م).

- **الوزان، الحسن بن محمد الزياني المعروف(جان ليون الإفريقي** (المتوفى944هـ/1537م) ،وصف إفريقيا، ترجة من الإيطالية إلي الفـــــــرنسية إيبولارA 'EPUAUARLلى العربية ترجمة عبد الحميد حميدة، الرباط، المغرب، 1979، وهناك ترجمة آخري له، محمد حجي ومحمد الأخضر، ط1، الرباط، المغرب، 1980م وأيضا: ط 2، الرباط، المغرب، 1982م.

- **ابن ابي الضياف، ابو العباس أحمد:** (المتوفي 1291هـ/1874م)، إتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،تصدير محمد شمام ، ج2-3، تحقيق لجنة من كتابة الدولة لشؤون الثقافة والأخبار، (ش،و،ن،ت) ، تونس، 1963م أيضا: تحقيق أحمد الطويلي، تونس، 1979م.

- **ابن ابي طالب، شمس الدين أبي عبد الله محمد الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة:** نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط2، دار إحياء للتراث العربي، لبنان، 1999م.

- **ابن أحمد، محمد النهرواني الحنفي:** الأعلام ببيت الله الحرام، ط1، مصر، 1305م.

- **ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي:** بدائع الزهور في وقائع الدهور،تحقيق محمد مصطفى القاهرة، مصر، 1984م.

- **ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن** : (المتوفي 808هـ/ 1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6-7، المكتبة العلمية،بيروت، لبنان، 1956م.

– **ابن عسكر** : دوحة الناشر، دار التراث، فأس، المغرب،1307 هـ.

– **ابن قنفد، ابو العباس أحمد بن الخطيب** : (المتوفي 809هـ/ 1406م) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، اللجنة الوطنية للمعرفة، تونس 1968م.

– **ابن ميمون، ابو عبد الله محمد**: (المتوفي بعد 1159هـ/1746م) ،التحفة المرضية في الدولة البكتاشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، (ش، و، ن، ت)، الجزائر 1972م، وأيضا ط2، (ش، و، ن، ت) الجزائر، 1982م.

– **باي، فريدون**: مجموعة منشئات السلاطين، استانبول، تركيا، 1274هـ .

– **بن حوقل، لابن قاسم النصيبي**: صورة الأرض ،الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992م.

– **بن خلدون، أبي زكرياء** : بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد، المطبعة الحكومية الجزائر،1910م.

– **بن محمد مخلوف، محمد**: شجرة النور الزكية في الطبقات المالكية ،ج1-2-3، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر،1931م.

– **بن يعقوب، خير الدين**: مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد درّاج، ط1، شركة الأصالة للنشر وتوزيع، الجزائر، 2010م.

– **بيرم، محمد الخامس** : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القطر التونسي تحقيق علي بن الطاهر الشنوفي، ط1، مج1-2، بيت الحكمة، تونس، 1986 م وأيضاً: ط2، 1999م.

– **حمودة، ابو محمد بن محمد بن عبد العزيز التونسي المالكي**: كتاب التاريخ الباشي، تحقيق محمد ماضور، ط1،ج1، الدار التونسية ، تونس، 1970م.

– **جلبي،كاتب** : تحفة الكبار في أسفار البحار، مطبعة بحرية،إستنابول،تركيا،1329هـ-1911م.

– **جودت، أحمد باشا**: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي، ج1، بيروت، لبنان،1890م.

– **جودت، أحمد باشا**: وقـايع دولة عليـهء عثمانيـة ،(1188. 1191هـ الموافق(1774م - 1777م)،استانبول،تركيا،(ب-ت).

– **خوجة، حسين**: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ،تقديم وتحقيق الطاهر المعموري الدار العربية للكتاب، تونس، 1975م.

- **خوجة، حمدان بن عثمان** : (المتوفي حوالى 1261هـ/1845م)، المرآة (لمحة تاريخية واحصائية عن إيالة الجزائر)، ترجمة محمد بن عبد الكريم بيروت،لبنان1972م، وترجمة أخرى له: محمد العربي الزبيري (م،و،ك)، الجزائـــر،1975م وأيضاً:ط2،(م،و،ن،ت)، الجزائر، 1982م.

- **راسم، أحمد**: عثمائلي تاريخي، استانبول، تركيا، (1326-1328هـ).

- **شالر، وليام**:مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824) تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي،(ش،و،ن،ت)، الجزائر، 1982م.

- **غلبون، أبو عبد الله محمد ابن خليل غلبون الطرابلسي**:التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان فيها من أخبار ،تحقيق أيمن البحيري، (د،غ،إ)، بيروت، لبنان، 1998م.

- **كربخال، مارمول**: إفريقيا، تعريب محمد حجي، دار النشر للمعرفة، ج3، المغرب، (د-ت).

- **مقديش، محمود بن سعيد الصفاقسي** : نزهة الانظار في عجائب التاريخ والأخبار تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط1، مج1، (د، غ،إ)، بيروت، لبنان ،1988م.

-**مجهول**:أخبار العصر في انقضاء دولة بني ناصر، تحقيق دار النفائس،بيروت، لبنان 1991م .

-**مجهول**:غزوات عروج وخير الدين، اعتني بتصحيحه وتعليق حواشيه نور الدين عبدالقادر،المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، (1353هـ-1934م).

- **نشانجي، محمد باشا**: نشانجي تاريخي، استانبول،تركيا ، (ب- ت).

- **نور، رضا** : تورك تاريخي،ج2،استانبول،تركيا ،1925م.

2- المصادر الأجنبية:

-**Ahmed Abdesselem**: Les historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles ,essai d'histoire culturelle, - Publications de l'Université de Tunis. ,1973

-**C** ,**Marmol** : L’Afrique ,trad ,en français par d’Ablancourt N .P-T .2.Paris.1667 . domination turque, Paris ,1887.

-**Charrier**, **Negociation** : de la France dans le lelevant, pares, 1920.

-**De Thou Jacque** ,**Auguste** : Histoire universelle, depuis 1543 jusqu'en 1607, 16T (J.L.Braudmuller, t6,1742).

-**Gabriel**, **Esquire**: La prise d'Alger 1830, Edition Edouard champion, paris, 1923.

– **Haedo** , (**F**.**Diego**) ،Histoire des rois d'Alger ،trad. En français par H. De Grammont, Alger, 1881.et :l'Espagnol par H.D De Grammont. présentation de Abderrahmane Rebahi. Ed. G.A.L. Alger 2004.

– **Haedo** , (**F**.**Diego**): Topographie et Histoire Générale d'Alger, traduit de l'Espagnol par MM. Le Dr Monnereau et A. Berbrugger , Revue Africaine ,Alger 1870 tom 14 et1875 tom 15,et :traduit. De A Berbrugger et Dr. Monnereau. ed GAL. 2ème ed. Alger 2004.

–**Hugon** ,**Henr**: les Embemes des Tunisie ,Emest: Leroux ,paris,1913.

–**Ibn Abi L**,–**Diyaf**: Chronique des rois de Tunis et du Pacte fondamental, Chap .IV et V, Edition critique et traduction . André Raymond, Vol 1, IRMC- ISHMN, Alif, Tunis, 1994, p. XV .

–**L'Abbe**,**Barges**:Complément de l'histoire des béni Zyanne,Paris,1887.

–**Negociation** , **Charrier** : de la France dans le lelevant 1920.

–**pol** ,**Ruff** :La domination Espagnole à Oran sous le Duvernement du Comte d'Alcadette(1534-1558) Paris ,1900.

03– المراجع:

1–المراجع العربية:

– **الامام، رشاد:** سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814م) ، منشورات الجامعة التونسية تونس،1980م.

– **الأرقش، دلندة وآخرون:** المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مصدر النشر الجامعي ميديا كوم، تونس،2003.

- **الباروني، محمد عمر**: الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، ليبيا، 1952م.

– **الباروني، سعيد بن يوسف**: صفحات خالدة من تاريخ جربه بعد الفتح الإسلامي من سنة (47هـ/697م -1298هـ/1880م)، جمعية صيانة جزيرة جربة، تونس، 1994م.

– **البحراوي، محمد عبداللطيف**: فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر دار النفائس، بيروت لبنان،1976م ،وأيضا:ط2، دار التراث، القاهرة،مصر،1979م.

– **الثقفي، يوسف**: دراسات متميزة، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1983م.

– **الثقفي، يوسف**: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ،ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1976م.

– **الحبيب، ثامر**: هذه تونس، دار المعارف، تونس، 1969م.

– **الحصري، ساطح** : البلاد العربية والدولة العثمانية،(د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1960م.

– **الحموي، أحمد بن محمد** : مخطوط فضائل سلاطين بني عثـــمان، تحقيق محمد سليم، دار النهضة العربية، للطبعة النشر التوزيع، القاهرة، مصر، 1993م.

– **الجربي، أبو راس**: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق محمد المرزوقي، ط2، تونس، 1960.

–**الجمل، شوقي عطا الله**: المغرب العربي الكبير، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1977م.

– **الجوهري، يسري**: جغرافية المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر،1981م.

– **الجيلالي، محمد عبد الرحمن**:تاريخ الجزائر العام، ج 3، دار الثقافة ، بيروت، لبنان 1980م

– **الرشيدي، سالم**: محمد الفاتح، ط3، الارشاد، جدة، المملكة العربية السعودية، 1989م.

– **الركباني، عمر**: خلاصة تاريخ تونس، ط3، مطبعة النهضة، تونس، (1365هـ/1946م).

– **الزبيري، محمد العربي**: مدخل إلى تاريخ المغرب العربي، ط1، (م ،و،ك)، الجزائر ،1975م.

– **الدغيم، محمود السيد**: تاريخ إفريقية القديم والحديث، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية مصر، 2006م.

– **الدقن، السيد**: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، دار الكتاب، القاهرة، مصر، 1989م.

– **السليماني، أحمد**: تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر، (ب–ت).

– **السويدان، طارق محمد**: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع المصور، الكويت، 2005م.

– **الشريفي، ابراهيم**: تونس في الغابر والزمان والحاضر، مطبعة العليا ، القاهرة ، مصر، 1953م.

– **الشيخ، أبو عمران وسعيدوني، ناصر الدين**: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، جامعة الجزائر، 1995م.

– **الشيخ، رأفت**: في تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

القاهرة، مصر، 1984م، وأيضا: الجزائر، 2005م.

- **الشناوي، عبد العزيز**: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج1-2، مكتبة الانجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة ،مصر،1980م.

- **الصلابي، محمد علي**: الدولة العثمانية ، عوامل النهوض وأسباب السقوط،ط1، دار ابن الجوزي، القاهرة ،مصر،2001م.وأيضا:ط2، مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة مصر،و دار القبلتين ، الرياض ، السعودية ، 2006م.

- **الصلابي، محمد علي**: دولة الموحدين، ط1، دار البيارق، عمان-الأردن، 1998م.

- **الصلابي، محمد علي**: صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الأفريقي، ط2، ج6، دار البيارق، ليبيا، 1998م.

- **الطمار، محمد بن عمرو**: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،(ش،و،ن،ت)،الجزائر، 1983م.

- **الطمار، محمد بن عمرو**: تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، الجزائر (م،و،ك)،1984م.

- **العامري، محمد الهادي**: تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية تونس،1974م.

- **العمري، عبدالعزيز**: الفتوح الإسلامية عبر العصور،ط1، دار اشبيلية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1418هـ/1997م.

- **العربي، إسماعيل**: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1980م.

- **العروي، محمد**: تاريخ المغرب الكبير، محاولة في التركيب، ترجمة دوفال قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،1977م.

- **العسلي، بسام**: خير الدين بربروس، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م.

- **العظم، حقي**: تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، ط1، مطبعة الترقي، مصر 1902م.

- **العقاد، صلاح**: المغرب العربي في بداية العصور الحديثة ،دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة،(الجزائر،تونس،المغرب الأقصى) ،ط2 ،(د،ن،ع،ط،ن) القاهرة،مصر، 1966م، وأيضا: ،ط3 ،(م،أ،م) القاهرة،مصر، 1969م، وأيضا ط5،(م،أ،م) ،القاهرة،مصر،1985م.

- **العمري، عبدالعزيز**: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار اشبيلية، العربية السعودية،1997م.

- **الغربي، الغالي**: دراسة في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288- 1916م) (د،ك) الجزائر،2007 م.

- **الغربي، محمد**: بداية الحكم المغربي للسودان، دار القلم، الرباط، المغرب، 1984م.

– **الغنيمي، عبد الفتاح محمد:** موسوعة تاريخ المغرب، ج3،دار النهضة العربية، مصر، 1994م.

–**القرماني، محمد علي**: تاريخ سلاطين آل عثمان،ط1، دار البصائر، دمشق،سوريا، 1985م.

–**الكعاك، عثمان**: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي،(د، غ،إ) بيروت،لبنان،2003م.

– **المدني، أحمد توفيق** : حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا (1492–1792م)، ط02 ،(م،و،ك) الجزائر، 1984م.

– **المدني، أحمد توفيق** : كتاب الجزائر،(م، و، ك)، الجزائر، 1984م.

–**المدني، أحمد توفيق**: محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766–1791)، (سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده)، (م، و، ك)، الجزائر، 1986م.

– **المدني، أحمد توفيق**: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر،2001م.

–**المسعودي،عبدالعزيز قائد**: المشرق العربي والمغرب العربي، دار الكتب الثقافية، اليمن، 1993م

–**المطوي، محمد العروسي**: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ،(د، غ،إ)، لبنان،1984م.

–**المطوي، محمد العروسي**: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ،(د، غ،إ)، بيروت، لبنان، (ب، ت).

– **الميلي، مبارك بن محمد الهلالي**:تاريخ الجزائر في القديم والحديث،ج2–3، مكتبة النهضة الجزائرية 1964م.

– **الهندي، محمود إحسان**: تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلي عهد الثورة فالاستقلال، العربي للإعلام والنشر والطباعة والتوزيع، دمشق، سوريا، 1988م.

– **الياغي، أحمد إسماعيل**: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث،ط1، مكتبة العبيكان ،السعودية، 1996م .

– **الياغي، أحمد إسماعيل**: العالم العربي في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، لبنان، 1997م.

– **اليوسف، عبدالقادر أحمد**: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر،ط1، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1969م.

– **أبي زيان، ابن أشنهو عبد الحميد**: دخول الأتراك العثمانيين في الجزائر، دار الطباعة للجيش الجزائر، 1972م.

– **أبوبكر، عبد الكافي** : تاريخ تونس، منشورات التعاضدية العمالية، صفاقس، تونس، 1966م.

– **أبو زيدون، وديع**: تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003م.

– **أبو غنيمة، زيادة** : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، دار الفرقان، ط1،الجـــزائر، 1983م.
– **أحمد، عبدالقادر**:علاقات بين الشرق والغرب، ط1،مطبعة بيروت المحروسة،لبـنان، 1995م.
– **أرسلان، شكيب**: تاريخ الدولة العثمانية، دار الحكمة، دمشق، سوريا، 2001م.
– **أرسلان، شكيب**: خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنـان، 1986م.
– **إشبودان، العربي**: مدينة الجزائر تاريخ عاصمة،ترجمة جناح مسعود،دار القصبة،الجزائر،2007م.
– **آصاف، حضرة عزتلو بك**: تاريخ سلاطين بني عثمان – من أول نشأتهم حتى الأن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1995م.
– **آصاف، يوسف**: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، دار البصائر ،ط3، مـــصر 1405هـ - 1985م.
– **إلتر،عزيز سامح** : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989هـ/1409م.
– **ألفون، روسو**: الحوليات التونسية، تعريب وتحرير محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (د –ت).
– **أمين ، محمد**: فتوحات خير الدين، دار النهضة العربية،للطبعة والنشر والتوزيع،مصر،1988م.
– **أندري، كلو**: سليمان القانوني، تعريب البشير بن سلامة، ط1، بيروت، لبنان، 1991م.
– **أنيس، محمد**: الشرق العربي والدولة العثمانية، دار النهضة العـــربية، مصر، (ب–ت).
– **اوزتونا، يلماز**: تاريخ الدولة العثمانية، (ت–ع) عدنان محمود سلمان، ومحمود الأنصاري منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، تركيا، ج1–2، 1988م، وأيضاً:ط 2، 1990م.
– **ايفانوف، نيقولا**: الفتح العثماني للأقطار العربية(1516–1574م)،ترجمة يوسف عطاء الله، (د، غ،إ)،بيروت،لبنان،1988م.
– **ايفانوف، نيقولا** :تاريخ البلدان العربية، موسكو، روسيا، 1963م.
– **بيات، فاضل**: الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007.
–**برنيا، كوستانستو**:طرابلس من (1510–1850م)، ترجمة خليفة محمد التليسي،ليبيا، 1985م
– **بن شغيب، محمد المهدي**: على أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1980م.
– **بركات، مصطفي**: الألقاب والوظائف العثمانية(1518م–1924م)، دار غريب، القاهرة مصر، 1989م.

– **بروشين، نيكولاي إبليتش:** تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا،1991م.

– **بروكلمان، كارل**: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، لبنان، 2002م.

– **بطريق، عبد الحميد ونوار، عبد العزيز** :التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا،(د، ن، ع) ، بيروت ،لبنان، 1987م.

– **بك،محمد فريد المحامي**: تاريخ الدولة العلية العثمانية ،تحقيق إحسان حقي،ط1،دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ، بيروت، لبنان، 1981م،وأيضا:ط3، 1983م،وأيضا:ط6، 1988م.

– **بلحميسي، مولاي**: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط02 (ش،و،ن،ت)، الجزائر،1981م.

– **بن حموش، مصطفى أحمد:** فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري(956-1549/1245-1830)، ط1، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000م.

– **بن خروف، عمار**: العلاقات السياسية بين الجزائرية والمغربية في القرن (10هـ/16م) ج2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،2006م.

–**بن خوجة، محمد:** صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلالي بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.

–**بن شهرة، المهدي:** تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، دار الريحان للكتاب الجزائر،2007م.

– **بن عبود، محمد:** تاريخ المغرب، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1992م.

– **بن موسى، تيسير**: المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية طرابلس، ليبيا، 1988م.

– **بوبكر، الصادق**: إيالة تونس في القرن 17م، وعلاقتها التجارية مع موانئ البحر المتوسط، مركز الدراسات والبحوث العلمية والأندلسية الموركسية، زغوان، تونس، 1987م.

– **بوجلخة، عبد اللطيف**: الدولة العثمانية، دار المعرفة، الجزائر، 2005م.

– **بوعزيز، يحي**:الموجز في تاريخ الجزائر، ط1،ج1،المطبوعات الوطنية الجـزائرية، الجزائر،1965م.

– **بوعزيز، يحي**: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1995م.

- **بوعزيز، يحي**: علاقات الجزائر الخارجية مع دول ومماليك أوروبا (1500- 1830م)،(د، م، ج)، الجزائر،1980م.

- **بوعزيز، يحي**: من تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية،(م، و، ك)، الجزائر، 1984م.

- **بوعياد، محمود**: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان،(م، و، ك)، الجزائر، 1985م.

- **بيرنجيه، جان و زملاءه**: تاريخ أوروبا العام، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1995م.

- **بيضون، جميل**: تاريخ العرب الحديث،دار الأمل للنـــــشر والتوزيع، الأردن، 1991م.

- **بيفون، جميل والناظور شحادة وعكاشة**: تاريخ العرب الحديث،ط1، دار الأمل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1412هـ/ 1992م.

- **بينوس، جميلة**: تونس، دار الجنوب للنشر والتوزيع، تونس، 1985م.

- **بيهم، محمد جميل**: فلسفة التاريخ العثماني، أسباب إنحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها – شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1954م.

- **بيومي، زكريا سليمان** : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين،ط1، عالم المعرفة، مصر،1991م.

- **تاج، مهدي**: مشروع المغرب العربي، فرصة التحول الديمقراطي، مركز الجزيرة للدراسات، قطر، 2012م.

- **جلال، يحي**: المغرب العربي الحديث والمعاصر، ج1، الهيئة المـــــــصرية العامة للكتاب الإسكندرية، مصر،(ب،د).

- **جلال، يحي**: تاريخ المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ط1،ج3، الدار القومية للطباعة القاهرة، مصر،1966م،وأيضاً:ط2، ،لبنان،1981م وأيضا:(د، غ،إ) ،لبنان،1998م.

- **جمال الدين،عبد الله محمد**: المسلمون المنصّرون، دار النهضة العربية، مصر،1991م.

-**جوليان، شارل أندري**: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي البشير بن سلامة،ط1 ،الدار التونسية للنشر تونس، 1978م،وأيضاً: ط2، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس،1983م.

- **جوهر، حسن محمد**: تونس، دار المعارف المصرية، مصر، 1963م.

- **حراز، السيد رجب**: الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العرب، القاهرة، مصر، 1970م.

- **حراز، السيد رجب**: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، مصر، 1967م.

-**حراز، السيد رجب**: المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، دار الفكر العربي،مصر، 1980م.

-**حرب، محمد**: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا 1409هـ /1989م،وأيضا:ط2، 1999/1419م.

- **حسام، نور الدين**: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2001م.

– **حساني، مختار**: تاريخ الدولة الزيانية، ج01، دار الحضارة ،الجزائر،2007م.
– **حساني، مختار**: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج01، دار الحكمة الجزائر،2007م.
– **حسون، علي**: تاريخ الدولة العثمانية، مطبعة البعث العربي،دمشق،سوريا،1980م.
– **حقي، إحسان**: تونس العربية،دار الشمالي للطباعة-دار الثقافة،بيروت،لبنا،(ب ت).
–**حقي، اسماعيل**: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، 1996م.
– **حلمي، عبد القادر علي**: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل1830م، ط1، الطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر،1972م.
– **حمداني، عمار**: حقيقة غزو الجزائر،ترجمة لحسن زغدار،منشورات ثالة،الجزائر،2007م.
– **حمود، علي عامر**: تاريخ المغرب العربي الحديث، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان 1986م.
– **داوود، محمد** : تاريخ تطوان،دار المعرفة، تطوان،المغرب،1959م.
–**درياس، لخضر**: المدفعية الجزائرية في العهد العثمانية، دار الحضارة، الجزائر،2007م.
– **درّاج، محمد** : دخول العثمانيـــــين إلي الجزائر ودور الإخوة بربروس فيه(1512-1543م) ط1،شركة الأصالة للنشر وتوزيع، الجزائر،2011م.
– **ديل، شارل**: البندقية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، مصر،1947م.
–**دهيش، عبداللطيف عبدالله**: قيام الدولة العثمانية، ط2،، مـــكتبة ومـــطبعة النـهضة الحديثة مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م.
– **رافق، عبد الكريم**: العرب والعثمانيون، مطبعة البعث العربي، دمشق، سوريا، 1974م.
– **رزوق، محمد**: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن(16م-17م)، دار الحكمة الدار البيضاء، المغرب، 1987م، وأيضاً: ط3، مطبعة إفريفيا الشرق، الرباط، المغرب، 1998م.
– **رزوق، محمد** : دراسات في تاريخ المغرب، دار الحكمة، الدار البيضاء، المغرب، 1991م.
– **رضوان، نبيل عبدالحي**: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، ط1 مكتبة الطالب الجامعي، الجزائر، 1408هـ/1988م، وأيضا: ط2، السعودية،1994م.
– **روجرز،ب.ر**: تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900م، ترجمة وتعليق، بونان لبيب رزق،دار التراث المغرب ،الدار البيضاء، المغرب،1981م.
–**روسي، اتروي**: ((**Rossi Ittore**))، ليبيا تحت الإسبان وفرسان مالطا، ترجمة وتحقيق خليفة محمد التليسي، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر، طرابلس، ليبيا، 1969م.
– **روسي، اتروي**: ((**IttoreRossi**)) ،ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1974م.

– **ستودار، لوثروب**:(Lothrop Stodard)، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عادل نويهض ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1974م.

– **سرهنك، اسماعيل**: تاريخ الدولة العثمانية، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1989م.

– **سرهنك، اسماعيل**: حقائق الأخبار عن دول البحار،ط1، المطبعة الاميرية، مصر، 1894م.

– **سعد الله، أبي القاسم**: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، (ش، و، ن، ت)، الجزائر، 1978م و أيضا:ج05، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2005 م.

– **سعد الله، أبي القاسم**: بحوث في التاريخ العربي الإسلامي،(د،غ،إ)، بيروت ، لبنان 2003 م.

– **سعد الله، أبي القاسم**: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ط1، ج1-2، (م، و، ك)، الجـــزائر،1984م، وأيضاً: ط2، (م، و، ك)، الجـزائر ،1985م، وأيـــضا: ط03، (د، غ، إ)، بيروت لبنان، 1998 م.

– **سعيدوني، ناصر الدين** : الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات الواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية ، (د،غ، إ)، ط01، بيروت، لبنان، 2000م.

– **سعيدوني، ناصرالدين** : النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني(1792- 1830م) (م،و،ك)، الجزائر، 1985م.

– **سعيدوني، ناصر الدين**: دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر،(الفترة الحديثة والمعاصرة)، ج 2 ،(م، و، ك) الجزائر،1984م.

–**سعيدوني، ناصر الدين**: دراسات أندلسية (مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي في الجزائر)، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان،2003م.

– **سعيدوني، ناصر الدين**: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، ط1، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، (د،غ،إ)، بيروت، لبنان، 1999م .

– **سعيدوني، ناصرالدين والبوعبدلي، مهدي**: الجزائر في التاريخ، العـهد العثماني، ج4، (م،و،ك) الجزائر، 1984 م.

– **سعيدوني، ناصر الدين**: ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجـــزائر في العهد العثماني) ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 2002م

– **سلمان، نوار عبد العزيز**: الشعوب الإسلامية،دارالنهضةالعربية،مصر، 2002م.

– **سليمان، أحمد** : النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، مطبعة دحلب،الجزائر،1994م.

– **سليمان، عبد العزيز**: الشعوب الإسلامية، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1999م.

- **سوفاجيه، جان وكاين، كلود:** مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، ترجمة عبد الستار حلوجي وعبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 1998م.

- **سيد ، محمد سيد:** دراسات في التاريخ العثماني،دار النهضة العربية، مصر، 1996م.

- **سيفي، علي رضا:** تحركات بحرية، إستانبول، تركيا، 1928م.

- **سي يوسف، محمد** : أمير أمراء الجزائر علج باشا، دار الأمل، الجزائر، 2009م.

- **شحاتة، ابراهيم** : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط1980م.

- **شريط، عبد الله والميلي، محمد:** الجزائر مرآة التاريخ ،ط1،مطبعة البعث ،قسنطينة 1965م.

- **شريط،عبد الله والميلي، مبارك محمد:** مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، الجزائر، 1985م.

- **شريف، محمد الهادي:** تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد شاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 1993م .

- **شلبي، أحمد:** موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المـــــــصرية، القاهرة، 1986م.

- **شوفاليه، كورين:** الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر(1510م-1541م)، ترجمة جمال حمادة، (د، م، ج)، الجزائر، 2007م.

- **شويتام، أرزقي:** المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، ط1، (د،غ،إ) ، الجزائر،2009م.

- **صفوت، محمد:**فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح،منشورات الفخرية،لبنان،(ب.د)

- **طقوس، محمد سهيل:** الدولة العثمانية والتاريخ الإسلامي الحديث، المكتبة العبيركات السعودية،1998م .

- **طقوس، محمد سهيل:** العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، (1299م-1924م)، ط1، مطبعة بيروت المحروسة، لبنان، 1995م.

- **عامر، محمد علي:** تاريخ المغرب العربي الحديث، دار الحكمة ، دمشق، سوريا، 1994م.

- **عباد، صالح:** الجزائر خلال الحكم التركي(1514-1830)، دار هومة ، الجزائر، 2005م.

- **عبد القادر، نور الدين:** صفحات من تاريخ مدينة الجزائر منذ أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، ط2، دار الحضارة، الجزائر، 2006م.

- **عبد الكريم ، عبد الكريم:** المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، المغرب، 1977م.

- **عبد الوهاب ، حسن حسني:** خلاصة تاريخ تونس ، ط 3، دار الكتاب، تونس، 1373 هـ.

-**عبد الوهاب،حسن حسني:** كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد لعروسي المطوي، مج1 (د، غ،إ)، بيروت، لبنان،1990م.

- **عبد الوهاب، حسن حسني**: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقيا التونسية، القسم 2-3 مكتبة المنار، تونس، 1966م.

- **عبدالهادي، جمال: جمعة، وفاء محمد رفعت**: الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ط1 ، دار الوفاء، 1414ه/1994م.

-**عبده قاسم، قاسم**: واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، دار الدراسات،مصر،2015م.

- **عطا الله، شوقي**: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، دار النهضة العربية، للطبعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1977م.

- **عمر، عبد العزيز عمر**: تاريخ المشرق العربي(1516-1922م)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د- ت).

-**عمر، عبد القادر**: سيرة خير الدين باشا، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، 1976م.

- **عنان، محمد عبد الله**:الأثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال،ط2، مكتبة الخناجي القاهرة، مصر، 1997م.

- **عمورة، عمر**: موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر2002م.

- **عنان، محمد عبد الله**: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1949م، وأيضا:ط3، القاهرة، مصر، 1966م.

- **غرايبة، عبد الكريم**: تاريخ العرب الحديث، مطبعة البعث العربي، دمشق، سوريا، 1967م.

- **غطاس، عائشة: بوحمشوش، نعيمة**: النظم السياسية والعسكرية، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدارسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م ،الجزائر، 2007 م.

- **فارس، محمد خيري**: تاريخ المغرب العربي الحديث، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1982م.

- **فارس، محمد خيري**: دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديثة(تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي) ،ط1، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، (ب- ت)، وأيضا: ط2 مكتبة دار الشرق، دمشق، سويا، 1979م .

- **فائق بكر، صواف**: العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ما بين 1876م-1916م،(د، ن، ع، ط، ن، ت)، القاهرة ،مصر، 1978م.

- **فركوس، صالح**: تاريخ الجزائر من قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم للنشر والتوزيع عنابة، الجزائر، 2005م.

– **فاروق، ثريا**: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي ومراجعة عمر الأيوبي ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2008م.

– **فهمي، عبدالعزيز عبدالسلام**: السلطان محمد الفاتح، (فاتح القسطنطينية وقاهر الروم) ط2،(د، غ،إ) بيروت،لبنان،1975م، وأيضا: ط4، دار القلم،دمشق،سوريا،1407هـ /1987م.

– **قائد، عبدالعزيز**: المشرق العربي والمغرب العربي، دار الحكمة ،دمشق، سوريا، 1994م.

– **قشتيلو، لمحمد**: محنة المورسيكين في اسبانيا، مطبعة الشويخ، تطوان، المغرب، 1980م.

– **قنان، جمال**: العلاقات الفرنسية الجزائرية (1790–1830م)، منشورات متحف المجاهد الجزائر، 1999م.

– **قنان، جمال**: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500–1830م)، (م، و، ك) 1987م.

– **قنان، جمال**: معاهــــدات الجــــزائر مع فرنسا، (1619م–1830م)،(م،و،ك) 1987م.

– **كوبر يللي، محمد فؤاد**: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد سعيد، دارالنهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1967م.

– **كوران، أرجمند** : السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827–1847م)، نقله عن التركية عبد الجليل التميمي، ط2، مطبعة الشركة التونسية للفنون والرسم ، تونس، 1974م.

– **لامب، هارلود**: سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، ترجمة شكري محمود نديم، بغداد العراق،1961م.

– **متولي، أحمد فؤاد**: تاريخ الدولة العثمانية، منذ نشأتها إلى العصر الذهبي، اشتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م.

– **محمد سعيد البناء، سونيا**: فرقة الإنكشارية ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر العثمانية، ايتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

– **محمود، حسن سليمان**: ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة مصر، 1962م.

– **مجيب، حسين المصري**: معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، مصر، 2004م.

– **مروش، المنور**: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج3، دار القصبة، الجزائر، 2006م.

– **مزالي، محمد الصالح**: دراسات تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974م.

– **مصطفى، نادية** : العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي العصر العثماني من القوة والهيبة إلى بداية المسألةالشرقية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، مصر،1417هـ/1997م

– **مصطفى، أحمد عبدالرحيم**: في أصول التاريخ العثماني،ط2، دار الشروق، لبنان، 1986م.

– **موسينييه، رولان**: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، منـــــشورات عويدات بيروت، لبنان، 1994م.

– **مؤنس، حسين**: المغرب الكبير، (د، غ، إ)، بيروت، لبنان، 1981م.

– **مؤنس، حسين**: تاريخ المغرب وحضاراته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ط1 ،ج3، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م.

– **نايت بلقاسم مولود قاسم،بلقاسم**: شخصية الجزائر وهيبتها العالمية قبل 1830م، الجزائر الجزائر،1985م، وأيضاً:ط2، 2007م.

– **نوار، عبدالعزيز سليمان**: الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند دار العلم ، جدة، المملكة العربية السعودية، 1406هـ.

– **هورتز، أنطونيو دو مونقير**: تاريخ مسلمي الأندلس،ترجمة عبد العال صالح طه، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1988م.

– **هيلايلي، حنيفي**: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.

– **هيلايلي، حنيفي**: بنية الجيش الجزائر خلال العهد العثماني،دار الهدي، الجزائر،2007م.

– **وات، مونتغري**: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة محمد رضا المصري، دار نفائس،لبنان 1994م.

– **وليام، سبنسر**: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبادية، (ش، و، ن، ت) الجزائر، 1980م.

– **وولف، جون .بول**: الجزائر وأوروبا ،(1500– 1830 م)، ترجمة وتعليق أبي القاسم سعد الله (م، و، ك)، الجزائر، 1986م.

2– المراجع الأجنبية :

أ)–المراجع بالفرنسية:

–**Aderno**, **A** : itinéaire d'anselme en terre saint e (1470-1471) texe édité, trad et annoté par jaques heers et georgette de grener, paris 1978.

–**Annales**, **Tunisiennes** : Batiste, Alger, 1864.

–**Belhamissi**, **Moulay**: Alger, l'Europenne guère secrète (1518 – 1830). Ed. Dahleb , Alger 1999.

– **Belhamissi** (**M**): Marine et Marins d'Alger (1518-1830) tome1. les navires et les hommes. Ed. B.N.A. Alger 1996.

–**Belhamissi**, **Moulay** : Histoire de Mazouna des origines à nos jours Imp, Ahmed Zabana, Alger, 1982.

–**Belhamissi** , **Moulay**: Histoire de Mostaganem, des origines à l'occupation Française. Centre National d'Etudes Historiques. Alger, 1976.

–**Belhamissi**. **Moulay** : Histoire de la marine Algérinne (1516- 1830), (E N A L) , Alger, 1986.

–**Belhmissi**, **Moulay**: Les Captifs Algérienset l'Europe Chrétienne, (E N A L), Alger, 1984.

–**Braudel**, **Fernand** : La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, t 2,1936.

– **Braudel** , **Fernand** : Les espagnols et l'Afrique du nord de 1492 à 1887. (I,N, R,A) , ,Alger,1928.

–**Bontems**, (**C**): Manuel des institutions Algériennes,De la domination turque à l'indépendance,Tome1, la domination turque et le régime militaire(1518-1870), ed Cujas 1ère ed.1976.

– **Bossoutrot** ، (**E**) : (Documents musulmans pour servir à une histoire de Djerba), R .T, 1903.

– **Bouali** ،**Mahmoud** : La Sèdition permanente en Tunisie ،Des Origines à1735 ،t1 ،Tunis1972.

– **Cirin**, **Successi** : dell' arm ata ecc .Venezia 1560.

–**Chantal de la vèronne** : Relations entre Oron et Telemsan dans la premier moitiè du XVIe siècle, these paris IV, 1981, Paris 1983.

– **Charlesk Pierre**: L'Espagne de Charles-Quint, Paris,1973.

–Dapper, (**D**,**O**) : Description de l'Afrique cantenant les noms et la situation …avec des cartes des états des provinces et des villes, traduite de flamant, Amesterdam, Wolfgang, 1686.

–Chez, **Pierre** : Récollet, Imprimeur & Libraire Ordinaire Du ROI .Au Palais, Aux armes de la ville .Deuxième édition E édition A Paris ,1646 .

–Deny, **jeam** : La registre-de solde des tonissoiro in, R.A .N°. 61, 1920.

–D .de la Malle, Peyssonnel et Desfontontaines : Voyages dans les règences de Tunis et d'Alger ,2vols, Paris Librairie de Gide, 1883, t1,

–D'hina, (**A**): Les états de l'occident musulman aux XIII,XIV, XV siècles, Institutions gouvernementales et administratives. Ed.O.P.U.et E.N.A.L. Alger 1984.

–De Grammont, **Henri**: Histoire d'Alger sous la domination,Turque(1515-1830) ,Paris ,1887-Lemnouar Merouche, EADS, Bouchêne, Paris, 2002 .

–Expédition , (**M**) : de Charles Quint à Tunis ،in Revue tunisienne (R. T)، t. I3، Tunis, 1906.

–Faro, **Henri**: Garrit.Histoire generale de l'Algerie.paris 1889

–Ferrara,**Ortstes** : Le 16 Siécle,Vu par les ambassadeurs vinitiens ed Albin Michel ,1954 .

–Fey, **Henri Léon** : Histoire d'Oran, avant, Pendant et après la domination Espagnole, ORAN 1858.

–Fey, **Henri Léon** : Histoire d'Oran, Typographie Adolphe Perrier, Editeur ,1858 .

–Relation , (**J**) : DE Garmmont. de l.exedition de charles quint contre alger, Paris,1887 .

–**Garret** ,(**H**) : Histoire générale de l'Algerie.paris1889.

-Albert prieur : Les Barbarousses corsaires et Roir d'Alger, èdition ARC -Ciel, Paris ,1934.

– **Galibert**, **Léon**: L 'Algerie Ancienne et moderne , paris,1844.

–**Gean**،**Monlau**: Les Etatas Barbaresques ،P. U.F, Paris,1964

–**Genet**, (**R**) : Malte et son destin, Librairie des facultés, E .Muller, Paris1933.

–**Goulet du Gard**, **Renè** : La course et La piraterie en Mèditerranèe, èd .France empire, Paris1980.

-**Goulette**, (**K**) :au fort de Tunis et à L'ile de santiago 1574 ,R.A, t21, 1877.

-**Guy**, **Terbet Delof** : l'Afrique Barbarseque dans la littèrature Francaise aux XVI et XVII siècle, Droz, 1973.

–**J**, **A**, **R**, **Marriott**: The Fastetn Question, oxford1958.

–**J** .**J** .**Marcele** : Histoire de Tunis, Prècèdèe d'une description de cette règence par le docteur Louis Frank, didot frères, Paris, 1885.

–**Le Commandant** ،**Hannezo** : (Mahdia(Tunisie), notes historiques), R, T, 1908.

–**Mangin**, (**F**) : Regarde sur la France d'Afrique, 12ème éd Plon, Paris 1924, p19. Voir aussi Pellissier de Raynaud : Exploration scientifique de l'Algérie, imp. Royale, Paris 1844.

–**Mautran**,**Robert** :L'evolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottomane de 16é au 19é siécle,le ,t7 , cahier de Tunisie,1936 .

–**Mercier** ,**Ernest** : Histoire de L'Afrique Septentrionale, 3T, Ernest Leroux édition, Paris 1888.

–**Merouche** , **Lemnouar** : Recherche sur l'Algérie à

l’époque ottomane. 1 monnaies, prix et Revenus. 1520-1830.ed. Bouchene.. Rufe (P), Paris 2002.

-**Monchicourt**، (**E**) : " Episode de la Carriere Tunisienne de Dragut.1، dragut dans l'Oued Gabes et contre Gafsa (Hiver 1550-1551) " R.T، 1918.

–**Monchicourt**، (**E**) : L’èxpèdition Espagnole de 1560contre l’ile de Djerba, Ernest Lerouse, Paris1913.

– **Mouloud**, **Gaid** : l, ALgerie sous les Turcs, Tunis ,1974.

–**MGR**, **Douais** : (èvèque de Beuvais) : Dèpèches de M.De Fourquuvaux ambassdeur du roi Charles IX en Espagne (1565-1572), 3t, plon-Nourrit, Paris1900.

–**Pallary**, **Paul** : les Origines de la ville d’Oran, Sousse Imprimerie francise ,1904 .

–**Pavy** , **Mgr**: La piraterie barbaresque, In R.A, No. 2, Année, Tunis, 1857.

–**Poinssot** ,(**L**) et **Lantier** ,(**R**): les Gouverneurs de la Goulette durant l’occupation Espagnol (1535-1574), ext. De la Revue tunisienne, 3ème trimestre, S.anonyme de L’investissements, tunis 1930.

–**Roy** (**J**. **E**): Histoire de L’Algérie depuis les temps les plus recules jusqu’à nos jours، Tours , 1859.

-**Taoufik**, **Bachrouch** : Formation Sociale Barbaresque et Pouvoir à Tunis au XVIIe Siecle, publications De l’Universite de Tunis,1977.

– **Tome**, **Premier** :Correspondance Deys D’Alger de Cour France (1579 – 1833) Edition Bouslma , Tunis ,1981.

– **Vayssettes**, (**E**) : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837:ed Bouchene 2002 .

– **Zeller**,(**G**): Histoire relations des internationales, les temps moderns de Cristoph Colomb à Cromwell, sous la direction de Pierre Renouvin, Hachette, t2, Paris 1953, p64.

ب)–المراجع بالإنجليزية:

–**Battle**,(**Z**): a Visual Journey Through 5000 Years of Combat Grant, R. G2005 La Marina Cántabra, Ballesteros Beretta, Antonio, 1968.

ج) –المراجع بالتركية:

–**Kurdoglu**,(**F**) : Kilic Ali Pasa, Denis Matbaasi, IstanbuI1932.

–(**Uzunca rsili**) (**I–H**) : Osmanli Develetinin merez ve mercea ve bahriye teskilati, Turk tarih kurumu basimevi, Ankara, 1984.

–**Zekeriyye**, **Zade**:Ferah Cerbe Fetihnamesi, acikamalarla yayina Hazirlayan ohron Sai Gokya, Istambul 1975.

04– المشاريع والأعمال الجامعية :

أ)– الأطروحات

– **العزيزي، محمد الحبيب**: ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث :المحلة التونسية نموذجا، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، (غ –م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006 –2007م

– **دوسون، مرادجة**: نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، تع. فيصل الشيخ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة بيروت الأمريكية ،لبنان،1942م.

– **سعيود، ابراهيم**: الأسرى المغاربة في إيطاليا خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ–م)، جامعة الجزائر، الجزائر،(2009–2010م).

–**شويتام، أرزقي**: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني،(926–1246ه/1519–1830م) أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر،جامعة الجزائر،الجزائر، (2005–2006م)

– **فكاير، عبد القادر**: آثار الاحتلال الاسباني على الجزائر خلال العهـــــد العثماني(10هـ–12هـ=16م–18م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ–م) ،جامعة الجزائر، الجزائر (2008م– 2009م).

ب)–الرسائل الجامعية:

– **العربي، حجيلة**: مملكة ألكانم البورنو في عهد السلطان إدريس ألوما (1571م–1604م)

رسالة ماجستير، في تاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2013-2014م)

– **بابكور، عمر سالم** :حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين في القرن10هـ/16م، رسالة ماجستير في التـــاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)،جامعة أم القرى، السعودية، (1986م).

– **بوحمشوش، نعيمة**: مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (1998-1999م).

– **حسنة، كمال**: العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث، (1789-1807) رسالة ماجستير، في تاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م) ،جامعة الجزائر، الجزائر، (2005-2006م.

– **حمودة، سمية بنت محمد**: حركة الفتح العثماني في القرن 10 هـ / 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2006 م.

– **درياس، لخضر**: المدفعية الجزائرية في العهد العثمانية، رسالة ماجـــستير في التـــاريخ الحديث والمعاصر، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2006 - 2007 م).

– **سعيود، ابراهيم**: علاقات الجزائر بالدويلات الإيطالية خلال القرن الثامن عشر و التاسع عشر رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، (غ-م)،جامعة الجزائر، الجزائر، (1999م-2000م).

– **سي يوسف، محمد** : قلج على باشا، ودوره في البحرية العثمانية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (1988- 1989م).

– **شطو، محمد**: نظرة المصادر الجزائرية إلى السلطة العثمانية في الجزائر، رسالة ماجـستير في التاريخ الحديث و المعاصر ،(غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005 - 2006 م).

– **غطاس، عائشة**: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن17(1619-1694م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، (غ-م)، جامعة الجزائر، الجزائر،1984م.

ج)–المذكرات الجامعية:

– **العيدودي، سارة وعبايدية نبيلة**.: التنظيم العســـــكري العثماني في الجزائر(1518-1830م)، مذكرة لسانس في التاريخ، (غ- م)، جامعة تبسة، الجــزائر، (2008-2009م) .

– **قرود، لحسن وسلمان،توفيق**: خدمات الدولة العثمانية للإسلام والمنطقة العربية، مذكـــرة لسانس في التاريخ ، (غ- م)، جامعة الجزائر، الجزائر، (2005 -2006م).

05) – الدوريات والمجلات:

أ) – باللغة العربية:

– **التلمساني، ابن رقية محمد بن عبد الرحمان بن الجيلاني**:(المتوفي بعد 1194هـ/ 1780م) "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة"، مجلة التاريخ وحضارات المغرب العدد 3، تونس،1967م.

– **الساحلي، خليل**: "تقليد صالح باشا ولاية غرب (1552-1556م)"، المجلة التاريخية المغربية العدد1-2، تونس، 1974م.

– **الساحلي، خليل**: "وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مع ماطا، 1565م"، العدد 7-8 المجلة التاريخية المغربية، تونس، جانفي، 1977م.

– **التميمي، عبد الجليل**: "الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر "، المجلة التاريخية المغربية، العدد10-11، جانفي 1978م، تونس وأيضاً: محاضرة ألقيت في المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية، زغوان، تونس، 1990م.

– **التميمي، عبد الجليل**: "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"،المجلة التاريخية المغربية، العدد14-15، تونس، جانفي، 1979م.

– **التميمي، عبد الجليل**:" أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول (1519م)"، المجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 5-6، جانفي 1976م.

– **التميمي، عبد الجليل**: "رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1551م "،المجلة التاريخية المغربية ، تونس،العدد3-4،جويلية 1975م.

– **التميمي، عبد الجليل**: "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد،29-30، تونس، جويلية 1983م.

– **التميمي، عبد الجليل**: "عثمنة إيالات الجزائر وتونس وطرابلس على ضوء المهمة دفتري (1559 – 1595م)"، العدد 121، المجلة التاريخية المغربية، تونس، 2006م.

– **الشابي، علي**:" مصادر جديدة لتاريخ الشابية"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 13-14،تونس 1979م.

– **الصباغ، ليلى**: "ثورة مسلمي الأندلس (سنة 986هـ – أواخر 1568م) والدولة العثمانية" مجلة الأصالة ،العدد 27،الجزائر ،سبتمبر،1975م.

– **المزوغي، فوزي**: "الوضع العسكري بجهة بنزرت في النصف الثاني من القرن19م "عن أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت دورتا سنة 1993و1994م، مجموعة سراس،تونس 1996م.

– **المهدي، البوعبدلي**: "أضواء على تاريخ الجزائر"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد08، الجزائر،1972م.

– **أبي زيان، ابن أشنهو عبد الحميد** : "الدور الذي لعبته الجزائر في القرن 16م في البحر الأبيض المتوسط"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد08، الجزائر، 1972م.

ـ **أرزقي، شويتام**: "التنافس الدولي في البحر المتوسط خلال القرنين18م و19م وموقف الجزائر منه"، حولية المؤرخ، العدد 3 – 4، الجزائر، 2005م.

–**بلحميسي، مولاي**: "الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر "، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ،العدد4-5 ، الجزائر ،جانفي 1968م.

–**بلحميسي، مولاي**:"مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد08، الجزائر،1972 م.

–**بلحميسي، مولاي**: "غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر(948هـ/1541م) بين المصادر الإسلامية و المصادر الغربية "، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 6-7، الجزائر، 1969م.

– **بن خروف، عمار** :"نظرة عن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي "، دراسات إنسانية تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، بوزريعة العدد 01، الجزائر، 2001م.

– **بوحمشوش، نعيمة**: " دور البحرية الجزائرية في معركة الليبانت1571م"، حولية المؤرخ الجزائري العدد 1، 2002 م.

–**بوعزيز، يحي**: "المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد، (1780م /1798م)"، المجلة التاريخية المغربية، العدد95، تونس، 1993م.

– **بوعزيز، يحي**: "مقاومة جربة للغزوات الأوربية في القرن 16م"، أعمال الملتقى حول تاريخ جربة (أفريل 1982م)، المعهد القومي للأثار والفنون، جمعية صيانة جزيرة جربة، تونس، 1986م

– **بونار، رابح**: " مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية "، مجلة الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، عدد08، الجزائر، 1972م.

– **جايماز اوغلي، يعقوب**: "تونس من خلال كتاب بحرية للرحالة التركي بيري رايس في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 110، جانفي 2003م.

– **حكمت، يسين**: "الغزو الاسباني للجزائر في القرن السادس عشر"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد14-15، الجزائر، 1973م.

– **سعيدوني، ناصر الدين**: "رسالة من أعيان قسنطينة إلى سليمان القانوني،بشأن صالح رئيس (963ه نوفمبر1555م) "، الكتاب التذكار لأجرون، ج2، زغوان، تونس، 1975م.

– **سعيدوني، ناصر الدين**: " دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم العثماني في الجزائر" مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 09 ، جامعة الجزائر، 1986م.

– **سعيدوني، ناصرالدين**: "ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني"، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد:23-24، تونس، الجـــزائر، 1977م .

– **شوقي، عبدالله الجمل**: "الكشوف الجغرافية البرتغالية والاسبانية"، مقالة في كتاب الصراع بين العرب والاستعمار، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 1415ه/1995م.

– **قداش، محفوظ**: "الجزائر في العهد التركي" ، مجلة الأصالة ،العدد 25، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1977م.

– **قوجة، محمد**: " الحملات الإسبانية على جزيرة جربة "، مجلة دراسات جزيرة جربة، جمعية صيانة جزيرة جربة، تونس، 1996م.

– **ميكال، دي ايبالزا**: "حول ثلاثة احداث غير معروفة من العلاقات التاريخية بين عنابة واسبانيا" (ت– ع) عبد الحميد حاجيات، الأصالة، وزارة التعليم الأصلي، العدد 34-35 الجزائر، 1976.

– **نيلاص، داريو كابا** : "خطة علج علي لتحرير مدينة وهران 1583م"، ترجمة عبد الله حمادي مجلة الذاكرة، مجلة الدراسات التاريخية للمقاومة والثورة الجزائرية، المتحف الوطني للمجاهد، مطبعة هومة، الجزائر، العدد07، دسمبر 2001م.

– **هلايلي، حنيفي**: " التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 24، دار الهدي للطباعة، الجزائر(عين مليلة)، ديسمبر2007م .

ب) – باللغة الأجنبية:

– **Ch.de la Veron** :<<sours de l'histore de la Tunisie dane les archives espingoles, l'expédition de Moulay Hassan à Kairouan en 1536>> -<< actes du premiers congrès d'histoire de la civilisation du magreb >>, t2, tunis 1979.

–**Djillali ,SARI**: « Les Ottomans et la Méditerranée au 16ème Siècle », In Majallat El Tarikh, No Spécial, 1er semestre, No. 23, Alger, 1987.

– **De la primaudir** : << avis donné à tunis à sa majesté sur ce qui serait posible de fair la flotte pour nuir les en emis, juillet 1535>>, R .A, t20, 18,1876.

– **De la praimaudair** : <<introductions de sa majesté au marquis de mondejar, tunis, 16 aout1535>>, R .A, t20, 1876.

- **D .L.Mouillard**: « Etablissement des Tures en Afrique et en Tunise » R .T, N°2, 1892.

–**Expedition** ,(**M**) , : de Charles Quint a Tunis ,in Revue tunisienne(R .T),t .13, Tunis,1906.

–**GORGUOS**: « Notice sur le Bey d'Oran, Mohamed El-Kébir », In R.A., No. 1, Années/57, 1856.

-**Hess** (**A**) «The Moriscos ,An ottoman fifth colum in sixteenth century spain»in the A.H.R,vol 64/10/1968.

–**Paul ,Sébacé** : Une relation inédite sur la prise de tunis en1574 publications de L'université de Tunis, 1971 .

– **PRIMAUDAIE**, (**E**) : « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574 », In R.A No. 19, Année 1875.

06- الموسوعات والدوائر والقواميس والمعاجم :

أ) – باللغة العربية:

– **الخطيب، مصطفى عبد الكريم** :معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية ، ط1،مؤسسة الرسالة بيروت ، لبنان ، 1996 .

– **الزركلي، خير الدين**: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، عبد السلام علي، دار العلم للملايين ، بيروت،لبنان، 1992م.

– **الزيدي، مغية**: موسوعة التاريخ الإسلامي-العهد العثماني،دار أسامة الأردن،2003م.

– **الفاروقي،إسماعيل والفاروقي، لوس لمياء**: أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة مراجعة رياض نور الله ، ط1، المعهد العالمي الإسلامي، مكتبة العبيكان، السعودية، 1998م.

- **الموسوعة العربية العالمية:** ط1، ج -ص، (حسب المعلومة) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1996م.

-**الموسوعة الميسرة في الأديان:** لندوة الشباب العالمي، جدة، السعودية،2002م.

- **ابن منظور، محمد:**لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، لبنان ، 1955 م.

-**بريل، أ. جي:** دائرة المعارف الإسلامية، تحـرير، م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر باسيت ر، هارتمان، عربها كل من محمد ثابت أفندي، احمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد عبد الحميد يونس، ج -ص، (حسب المعلومة)، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية ،1998م.

- **بهجة المعرفة:** موسوعة علمية مصورة، ط2، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، دار المختار، جنيف، سويسرا، 1976م.

- **زبيب، نجيب** :الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس،ط1، دار الأمير، الجزائر،1995م.

- **شاكر،مصطفى:** موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها،دار العلم للملايين، لبنان، 1993م.

- **شوقي، أبو خليل:** أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط 03، دار الفكر ، دمشق سوريا دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، 2008 م.

- **عطية الله، محمد** : القاموس الإسلامي ، مطبعة القاهرة ، مصر ، 1903 .

- **فريد، وجدي محمد:**دائرة معارف القرن العشرين،10ج ،دار الفكر،بيروت ، لبنان، (د-ت).

- **قصي،الحسين:**موسوعة الحضارة العربية ، العصر العثماني والمملوكي ، ط 01 ، دار البحار بيروت ، دار ومكتبة الهلال بيروت ،لبنان، 2004 م.

-**لانجر، وليام** :موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة، ج2، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة،مصر،1987م.

- **يعقوب، الفيروز أبادي مجد الدين محمد:** القاموس المحيط ، تحقيق مكتب التراث باشراف محمد نعيم العرقسوسي ، ط 02 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1998 م.

ب) – باللغة الفرنسية :

- **Dictionnaire**, **Encyclopédie**: des Noms propres de la langue Française, Hachette, Paris 1991.


الفـــهـــارس

1 – فهرس الشخصيات والأعلام والألقاب:

2- فهرس الشعوب والقوميات والقبائل والجماعات والأجناس:

3-فهرس الأديان والفرق والمذاهب والمعتقدات والعادات والتقاليد والعائلات:

4- فهرس الدول والمدن والأماكن والمعاهدات والمعارك والعملات:

-أ-

5 – فـــــــــــــــــــــــهرس المـــــــوضوعات: